كتاب

عِلْمُ الأَدَب

مقالاتٌ

لمشاهير العرب

على الجزء الثاني

علم الأدب

جمع الأب لويس شيخو اليسوعي

في مطبعة الآباء المرسلين اليسو

بيروت سنة ١٨٨٩

كتاب

عِلْمُ الأَدَب

مقالات

لِمَشَاهِيرِ العَرَب

على الجزء الثاني

من

عِلْمِ الأَدَب

جمع الاب لويس شيخو اليسوعي



طُبع في مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

بيروت سنة ١٨٨٩

مقالات

لبعض مشاهير كتاب العرب

في الخطابة والشعر

القسم الاول

في علم الخطابة

الفصل الاول

في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها

البحث الاول

في تحديد الخطابة وما تشتمل عليه بوجه الاجمال

(عن كليات ابي البقاء ومقدمة ابن خلدون ورسائل ابن سينا)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

الخطابة في اللغة كالخطاب وهي المكالمة او اللفظ المتواضع عليه المقصود به افهام من هو متهيئ لفهمه وهو يطلق على الكلام النفسي الموجه نحو الغير للافهام. وعند الحكماء الخطابة هي القياس المفيد ترغيب الجمهور وحملهم على المراد منهم وما يجب ان

يُستعمَلَ فِي ذلِكَ مِنَ ٱلْمَقَالاتِ. وَلَمَّا ظَهر ارسطو فِي يُونَانَ وَهذَّبَ مَبَاحِثَ ٱلْمَنطِقِ وَرَتَّبَ مَسَائِلَهُ وَفُصُولَهُ وَجَعَلَهُ اوَّلَ ٱلْعُلُومِ ٱلْحِكْمِيَّةِ وَفَاتِحَتَهَا جَعَلَ ٱلْخَطَابَةَ احَدَ اقسَامِهِ ٱلثَّمَانِيَةِ. وَهٰذِهِ ٱلأَقسَامُ تَشتَمِلُ عَلَى ثَمَانِيَةِ كُتُبٍ ارْبَعَةٌ مِنهَا فِي صُورَةِ ٱلْقِيَاسِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْمَقُولَاتِ وَٱلْعِبَارَةِ وَٱلْقِيَاسِ وَٱلْبُرْهَانِ وَارْبَعَةٌ فِي مَادَّتِهِ وَهِيَ كُتُبُ ٱلْجَدَلِ وَٱلسَّفسَطَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ. وَذٰلِكَ انَّ ٱلْمَطَالِبَ ٱلتَّصدِيقِيَّةَ عَلَى انْحَاءٍ فَمِنهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلْيَقِينَ بِطَبْعِهِ وَهُوَ تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلارْبَعَةُ ٱلأُولَى. وَمِنْهَا مَا يَكُونُ ٱلْمَطْلُوبُ فِيهِ ٱلظَّنَّ وَهٰذَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ ٱلْكُتُبُ ٱلارْبَعَةُ ٱلأُخرَى. وَفِيهَا تَدْخُلُ ٱلْخَطَابَةُ. وَتُرْجِمَتْ كُلُّهَا فِي ٱلْمِلَّةِ ٱلإِسْلَامِيَّةِ وَكَتَبَهَا وَتَدَاوَلَهَا فَلَاسِفَةُ ٱلإِسْلَامِ بِٱلشَّرْحِ وَٱلتَّلخِيصِ كَمَا فَعَلَهُ ٱلْفَارَابِيُّ وَٱبْنُ سِينَا ثُمَّ ٱبْنُ رُشْدٍ مِنْ فَلَاسِفَةِ ٱلأَنْدَلُسِ. وَلِٱبْنِ سِينَا كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ ٱسْتَوْعَبَ فِيهِ عُلُومَ ٱلْفَلْسَفَةِ كُلَّهَا. ثُمَّ جَاءَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فَغَيَّرُوا ٱصْطِلَاحَ ٱلْمَنْطِقِ وَحَصَرُوا مَطَالِبَهُ فِي كُتُبٍ خَمْسَةٍ ٱلْبُرْهَانِ وَٱلْجَدَلِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ وَٱلسَّفسَطَةِ وَرُبَّمَا يُلِمُّ بَعْضُهُمْ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهَا إِلْمَامًا وَأَغْفَلُوهَا كَأَنْ لَمْ تَكُنْ هِيَ ٱلْمُهِمَّ ٱلْمُعْتَمَدَ فِي ٱلْفَنِّ. وَأَمَّا ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلْخَطَابَةِ فَهُوَ تَعْرِيفُ ٱلْمَقَايِيسِ ٱلْخَطَابِيَّةِ ٱلْبَلَاغِيَّةِ ٱلنَّافِعَةِ فِي مُخَاطَبَاتِ ٱلْجُمْهُورِ عَلَى سَبِيلِ ٱلْمُشَاوَرَاتِ وَٱلْمُخَاصَمَاتِ فِي ٱلْمُشَاجَرَاتِ أَوِ ٱلْمَدْحِ أَوِ ٱلذَّمِّ أَوِ ٱلْحِيَلِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلِاسْتِعْطَافِ وَٱلِاسْتِمَالَةِ وَٱلإِغْرَاءِ وَتَصْغِيرِ ٱلأَمْرِ وَتَعْظِيمِهِ وَوُجُوهِ ٱلْمَعَاذِيرِ وَٱلْمُعَاتَبَاتِ وَوُجُوهِ تَرْتِيبِ ٱلْكَلَامِ فِي كُلِّ قِصَّةٍ وَخُطْبَةٍ

البحث الثاني

في تعريف الخطابة وموضوعها

(من تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) اَلْخَطَابَةُ هِيَ قُوَّةٌ تَتَكَلَّفُ ٱلاِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ . وَنَعْنِي (بِٱلْقُوَّةِ) ٱلصِّنَاعَةَ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِي ٱلْمُتَقَابِلَيْنِ . وَلَيْسَ تَتْبَعُ غَايَتُهَا فِعْلَهَا ضَرُورَةً . وَنَعْنِي (بِتَتَكَلَّفُ) اَيْ تَبْذُلُ مَجْهُودَهَا فِي ٱسْتِقْصَاءِ فِعْلِ ٱلْاِقْنَاعِ ٱلْمُمْكِنِ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَذٰلِكَ يَكُونُ بِغَايَةِ مَا يُمْكِنُ فِيهِ . وَنَعْنِي بِقَوْلِهِ : (فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ) اَيْ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُفْرَدَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي مَقُولَةٍ مِنَ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ (١). وَهٰذَا هُوَ ٱلْفَصْلُ ٱلَّذِي تَنْفَصِلُ بِهِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ عَنْ سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ ٱلَّتِي يُظَنُّ اَنَّهَا قَدْ تُقْنِعُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا . وَذٰلِكَ اَنَّ كُلَّ صِنَاعَةٍ اِنَّمَا هِيَ مُعَلِّمَةٌ اَيْ مُبَرْهِنَةٌ وَمُقْنِعَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي تَنْظُرُ فِيهِ لَا فِي جَمِيعِ ٱلْأَجْنَاسِ . مِثَالُ ذٰلِكَ اَنَّ ٱلطِّبَّ اِنَّمَا يُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ

---

(١) المقولة لغةً المفعول من القول والتاء للمبالغة بمعنى الملفوظ وهي في اصطلاح الحكماء ما جاء عنهُ القول وأبرز فيهِ الحكم من الاجناس العالية المجردة من المحسوسات التي ليس فوقها جنس . والمقولات عشر : الجوهر والكم والكيف والاضافة والفعل والانفعال (ويقال لهما يفعل وينفعل) والزمان والمكان (ويقال لهما متى واين) والهيئة والوضع (ويقال لهما ان يكون لهُ والموضوع)

ٱلْبُرْهَانِ وَيُقْنِعُ فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْمَرَضِ وَفِي أَنْوَاعِهِمَا . وَكَذٰلِكَ ٱلْهَنْدَسَةُ إِنَّمَا تُعَلِّمُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبُرْهَانِ وَعَلَى طَرِيقِ ٱلْإِقْنَاعِ فِي ٱلْأَعْظَامِ وَٱلْأَشْكَالِ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْأَجْسَامِ . وَأَمَّا ٱلْخَطَابَةُ فَهِيَ تَتَكَلَّفُ ٱلْإِقْنَاعَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي أَيِّ مَقُولَةٍ كَانَتْ وَأَيِّ جِنْسٍ كَانَ وَلِذٰلِكَ لَيْسَ تُنْسَبُ إِلَى جِنْسٍ خَاصٍّ

البحث الثالث

في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(قَالَ) إِنَّ صِنَاعَةَ ٱلْخَطَابَةِ تُنَاسِبُ صِنَاعَةَ ٱلْجَدَلِ . وَذٰلِكَ أَنَّ كِلَيْهِمَا يَؤُمَّانِ غَايَةً وَاحِدَةً وَهِيَ مُخَاطَبَةُ ٱلْغَيْرِ إِذْ كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ لَيْسَ يَسْتَعْمِلُهُمَا ٱلْإِنْسَانُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ بَلْ إِنَّمَا يَسْتَعْمِلُهُمَا مَعَ ٱلْغَيْرِ وَتَشْتَرِكَانِ بِنَحْوٍ مِنَ ٱلْأَنْحَاءِ فِي مَوْضُوعٍ وَاحِدٍ إِذْ كَانَ كِلَاهُمَا يَتَعَاطَى ٱلنَّظَرَ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ وَيُوجَدُ ٱسْتِعْمَالُهُمَا مُشْتَرَكًا لِلْجَمِيعِ أَعْنِي كُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يَسْتَعْمِلُ بِٱلطَّبْعِ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْجَدَلِيَّةَ وَٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطَبِيَّةَ . وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّهُ لَيْسَتْ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا عِلْمًا مِنَ ٱلْعُلُومِ مُفْرَدًا بِذَاتِهِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْعُلُومَ لَهَا مَوْضُوعَاتٌ خَاصَّةٌ وَيَسْتَعْمِلُهَا أَصْنَافٌ مِنَ ٱلنَّاسِ خَاصَّةٌ . وَلٰكِنْ مِنْ جِهَةِ أَنَّ هٰذَيْنِ (أَيِ ٱلْخَطَابَةَ وَٱلْجَدَلَ) يَنْظُرَانِ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ وَجَمِيعُ ٱلْعُلُومِ تَنْظُرُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَقَدْ

تُوجَدُ جَمِيعُ ٱلْعُلُومِ مُشَارِكَةً لَهُمَا بِنَحْوٍ مَا . وَإِذَا كَانَتْ هَاتَانِ ٱلصِّنَاعَتَانِ مُشْتَرِكَتَيْنِ فَقَدْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّظَرُ فِيهِمَا لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ وَهِيَ صِنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِ

البحث الرابع

في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير

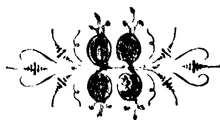
(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَرَأَى مَنْ رَأَى أَنَّ ٱسْتِعْمَالَ جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي لَهَا تَأْثِيرٌ فِي ٱلتَّصْدِيقِ فِي تَثْبِيتِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُرَادُ تَثْبِيتُهَا بِطَرِيقِ ٱلْخَطَابَةِ هُوَ ٱلصَّوَابُ . وَخَلِيقٌ إِنِ ٱسْتَعْمَلَ أَحَدٌ هٰذَا ٱلْقَانُونَ أَنْ يَكُونَ بِٱسْتِعْمَالِهِ بَصِيرًا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لَبِيبًا أَدِيبًا . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ لَيْسَ لَهَا كَبِيرُ جَدْوَى فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلَّذِي يَرُومُ أَنْ يُثْبِتَ شَيْئًا بَيْنَ يَدَيِ ٱلْحُكَّامِ فَهُوَ إِمَّا أَنْ يُثْبِتَ أَنَّ ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ فَقَطْ أَعْنِي أَنَّهُ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ . وَذٰلِكَ إِذَا حَدَّدَ صَاحِبُ ٱلشَّرِيعَةِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلشَّكْوَى عَظِيمٌ أَوْ يَسِيرٌ وَأَنَّهُ عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ . وَإِمَّا أَنْ يُثْبِتَ ٱلْأَمْرَيْنِ وَذٰلِكَ إِذَا لَمْ تُحَدِّدِ ٱلشَّرِيعَةُ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْكَلَامُ . فَأَمَّا ٱسْتِعْمَالُ ٱلْاِنْفِعَالَاتِ فِي تَثْبِيتِ أَنَّ ٱلْأَمْرَ جَوْرٌ أَوْ عَدْلٌ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ . وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْاِنْفِعَالَ بِٱلرَّحْمَةِ أَوِ ٱلْبِغْضَةِ إِنَّمَا يَكُونُ لِشَيْءٍ جُزْئِيٍّ وَٱلْعَدْلُ

وَٱلْجورُ امورٌ كُلِّيَّةٌ. وَامَّا ٱستِعمالُها في انَّ ٱلأَمرَ كانَ او لم يكن فلهُ في ذلكَ تأثيرٌ لكنَّهُ ليسَ يُوجِبُ انَّ ٱلأَمرَ كانَ او لم يكن بٱلذّات بل انَّما يميلُ ٱلحكَّامَ الى ان يقولوا انَّهُ صدقَ فيما ادَّعى او لم يصدُق ومِن غيرِ ان يحدُثَ لِلحاكِمِ اوِ ٱلمُناظِرِ بذلكَ تصديقٌ زائدٌ بٱلشَّيءِ ٱلَّذي فيهِ ٱلكلامُ

(قالَ) وقد يجبُ ان تكونَ ٱلسُّنَنُ هي ٱلَّتي تُحدِّدُ انَّ ٱلأَمرَ جورٌ او عدلٌ وتُفوِّضُ انَّ ٱلأَمرَ وُجِدَ مِن هذا ٱلشَّخصِ او لم يُوجَد الى ٱلحكَّامِ. وبٱلجملةِ فتُفوِّضُ اليهِم ٱلأُمورَ ٱليسيرةَ وذلكَ لِشَيئَينِ: (ٱلأَوَّلُ) انَّهُ قلَّ ما يُوجَدُ حاكِمٌ يقدِرُ ان يُميِّزَ ٱلأُمورَ على كُنهِها فيضعَ انَّ هذا ٱلأَمرَ جورٌ وهذا عدلٌ إلَّا في ٱلأَقلِّ مِنَ ٱلزَّمانِ وَاكثَرُ ٱلحكَّامِ ٱلموجودينَ في ٱلمُدُنِ ليسَ لهُم هذهِ ٱلقُدرَةُ. (وَٱلثّاني) فلِأَنَّ ٱلوُقوفَ على انَّ ٱلشَّيءَ عدلٌ او جورٌ يحتاجُ فيهِ واضِعُ ٱلسُّنَنِ الى زمانٍ طويلٍ وذلكَ لا يُمكِنُ في ٱلزَّمانِ ٱليسيرِ ٱلَّذي يقعُ فيهِ ٱلتَّناظُرُ في ٱلشَّيءِ بينَ يدَيِ ٱلحكَّامِ فلِمكانِ هذَينِ ٱلأَمرَينِ يصعُبُ ان يُفوِّضَ الى ٱلحكَّامِ انَّ هذا ٱلأَمرَ عدلٌ او جورٌ نافِعٌ او ضارٌّ بل انَّما يُفوِّضُ اليهِم انَّ ٱلأَمرَ وقعَ مِن هذا ٱلشَّخصِ او لم يقع وذلكَ لِبيانِهِ ولِأَنَّهُ امرٌ لا يُمكِنُ ان يضعَهُ صاحِبُ ٱلسُّنَّةِ



البحث الخامس

في فوائد علم الخطابة

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد بتصرُّف)

(راجع صفحة ٧ من الجزء الثاني من علم الادب).

(قَالَ) وَلِلْخَطَابَةِ مَنْفَعَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ يَحُثَّ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمَدَنِيِّينَ عَلَى ٱلْاَعْمَالِ ٱلْفَاضِلَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّهُمْ بِٱلطَّبْعِ يَمِيلُونَ اِلَى ضِدِّ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ فَاِذَا لَمْ يُضْبَطُوا بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ غَلَبَتْ عَلَيْهِمْ اَضْدَادُ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ. وَذٰلِكَ شَيْءٌ مَذْمُومٌ يَسْتَحِقُّ فَاعِلُهُ ٱلتَّأْنِيبَ وَٱلتَّوْبِيخَ اَعْنِي ٱلَّذِي يَمِيلُ اِلَى ضِدِّ ٱلْاَفْعَالِ ٱلْعَادِلَةِ اَوِ ٱلْمُدَبِّرَ ٱلَّذِي لَا يَضْبِطُ ٱلْمَدَنِيِّينَ بِٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْخُطَبِيَّةِ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ ٱلْعَادِلَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ بَيْنَ ٱلْاِنْسَانِ وَبَيْنَ غَيْرِهِ اَعْنِي بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْمُشَارِكِ لَهُ فِي اَيِّ شَيْءٍ كَانَتِ ٱلشَّرِكَةُ لَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ نَفْسِهِ. (وَٱلْمَنْفَعَةُ ٱلثَّانِيَةُ) اَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ صِنْفٍ مِنْ اَصْنَافِ ٱلنَّاسِ يَنْبَغِي اَنْ يُسْتَعْمَلَ مَعَهُمُ ٱلْبُرْهَانُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَّظَرِيَّةِ ٱلَّتِي يُرَادُ مِنْهُمُ اعْتِقَادُهَا. وَذٰلِكَ اِمَّا لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ قَدْ نَشَأَ عَلَى مَشْهُورَاتٍ تُخَالِفُ ٱلْحَقَّ فَاِذَا سَلَكَ بِهِ نَحْوَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَشَأَ عَلَيْهَا سَهُلَ اِقْنَاعُهُ. وَاِمَّا لِاَنَّ فِطْرَتَهُ لَيْسَتْ مُعَدَّةً لِقَبُولِ ٱلْبُرْهَانِ اَصْلًا. وَاِمَّا لِاَنَّهُ لَا يُمْكِنُ بَيَانُهُ لَهُ فِي ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي يُرَادُ مِنْهُ وُقُوعُ ٱلتَّصْدِيقِ فِيهِ. فَلِهٰذَا قَدْ نُضْطَرُّ اِلَى اَنْ نُحَصِّلَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْمُخَاطَبِ اَعْنِي

بِالْمَحْمُودَاتِ . وَهٰذِهِ الْمَنْفَعَةُ تُشَارِكُ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ فِيهَا صِنَاعَةَ الْجَدَلِ كَمَا ذَكَرْنَا ذٰلِكَ فِي كِتَابِ الْجَدَلِ. وَهٰذِهِ الصِّنَاعَةُ يُمْكِنُهَا الْاِقْنَاعُ فِي الْمُتَضَادَّيْنِ جَمِيعًا كَمَا يُمْكِنُ ذٰلِكَ فِي الْقِيَاسِ الْجَدَلِيِّ . وَذٰلِكَ اَنَّا قَدْ نُقْنِعُ فِي الْجَانِي اَنَّهُ اَسَاءَ وَاَنَّهُ لَمْ يُسِئْ وَلَسْتُ اَعْنِي اَنَّا نَفْعَلُ الْاَمْرَيْنِ جَمِيعًا فِي وَقْتٍ وَاحِدٍ بَلْ نَفْعَلُ هٰذَا فِي وَقْتٍ وَهٰذَا فِي وَقْتٍ بِحَسَبِ الْاَنْفَعِ . وَذٰلِكَ اَنَّهُ كَثِيرًا مَا يَكُونُ الشَّيْءُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ وَضِدُّهُ نَافِعًا فِي وَقْتٍ آخَرَ . وَاَيْضًا فَاِنَّهُ اِذَا كَانَتِ الْاَشْيَاءُ الَّتِي تُثْبِتُ الشَّيْءَ وَضِدَّهُ عِنْدَنَا عَتِيدَةً وَسَمِعْنَا مُتَكَلِّمًا قَدْ اَقْنَعَ فِي الضِّدِّ الَّذِي لَيْسَ بِعَدْلٍ اَمْكَنَنَا بِهٰذِهِ الْقُوَّةِ اَنْ نَنْقُضَ عَلَيْهِ قَوْلَهُ ، فَهَاتَانِ الْمَنْفَعَتَانِ مَوْجُودَتَانِ فِي الْقُدْرَةِ الَّتِي فِي هٰذِهِ الصِّنَاعَةِ عَلَى الْاِقْنَاعِ فِي شَيْءٍ مِنَ الصَّنَائِعِ الْقِيَاسِيَّةِ اِلَّا فِي هَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ هُمَا مُهَيَّأَتَانِ بِالطَّبْعِ وَعَلَى السَّوَاءِ لِلْاِقْنَاعِ فِي كِلَا الْمُتَقَابِلَيْنِ. اَعْنِي اَنَّهُ لَيْسَ وَاحِدَةٌ مِنْهُمَا تُوجَدُ اَشَدَّ اسْتِعْدَادًا لِلْاِقْنَاعِ فِي اَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ مِنْهَا فِي الْآخَرِ بَلِ الْاِسْتِعْدَادُ الْمَوْجُودُ فِيهَا عَلَى الْاِقْنَاعِ فِي الْمُتَقَابِلَيْنِ هُوَ عَلَى السَّوَاءِ . فَاَمَّا الْاَشْيَاءُ الْمَوْضُوعَةُ لِهَاتَيْنِ الصِّنَاعَتَيْنِ اَعْنِي الْاَشْيَاءَ الَّتِي فِيهَا تُقْنِعُ فَلَيْسَ اسْتِعْدَادُهَا لِقَبُولِ الْاِقْنَاعِ عَلَى السَّوَاءِ لٰكِنْ اِذَا كَانَتِ الْاُمُورُ الَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا صَادِقَةً كَانَتِ الْاَقَاوِيلُ الْخُطْبِيَّةُ وَالْجَدَلِيَّةُ الَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِيهَا اَفْضَلَ وَاَبْلَغَ ... فَقَدِ اسْتَبَانَ مِنْ هٰذَا اَنَّ هٰذِهِ الصِّنَاعَةَ لَيْسَ تَنْظُرُ فِي اَحَدِ الْمُتَقَابِلَيْنِ وَلٰكِنَّهَا تَنْظُرُ فِيهِمَا عَلَى السَّوَاءِ كَالْحَالِ فِي الْجَدَلِ وَاَنَّهَا نَافِعَةٌ لِهٰذَا جِدًّا . وَلَيْسَ عَمَلُ

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تُقْنِعَ وَلَا بُدَّ ، اَعْنِي اَنَّهُ لَيس يَتْبَعُ فِعْلَهَا ٱلْاِقْنَاعُ ضَرُورةً كَمَا يَتْبَعُ فِعْلَ ٱلنَّجَّارِ وُجُودُ ٱلْكُرْسِيِّ ضَرُورَةً اِذَا لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ عَائِقٌ مِنْ خَارِجٍ. بَلْ عَمَلُهَا هُو اَنْ تُعَرِّفَ جَمِيعَ ٱلْمُقْنِعَاتِ فِي ٱلشَّيْءِ وتَأْتِيَ بِهَا فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ وَاِنْ لَمْ يَقَعْ اِقْنَاعٌ. وَٱلْحَالُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى كَٱلْحَالِ فِي صِنَاعَاتٍ كَثِيرَةٍ مِثْلِ صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ فَاِنَّهُ لَيس فِعْلُهَا ٱلْاِبْرَاءَ وَلَا بُدَّ. بَلْ اِنَّمَا فِعْلُهَا اَنْ تَبْلُغَ مِنْ ذٰلِكَ غَايَةَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُمْكِنِ فِعْلُهُ فِي ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلْاِبْرَاءِ. وَلِذٰلِكَ قَدْ يُشَارِكُ فِي اَفْعَالِ هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ مَنْ لَيسَ مِنْ اَهْلِهَا مِثْلَ اَنْ يُبْرِئَ مَنْ لَيس بِطَبِيبٍ وَيُقْنِعَ مَنْ لَيس بِخَطِيبٍ لٰكِنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْحَقِيقِيَّ اِنَّمَا هُوَ لِصَاحِبِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْغَايَةَ تَتْبَعُ فِعْلَ هٰذَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَذٰلِكَ عَلَى ٱلْاَقَلِّ. وَكَمَا اَنَّ فِي ٱلْجَدَلِ مَا هُوَ قِيَاسٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ قِيَاسٌ وَلَيس بِقِيَاسٍ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ كَذٰلِكَ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَا هُوَ مُقْنِعٌ وَمَا يُظَنُّ بِهِ اَنَّهُ مُقْنِعٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَكُونَ كَذٰلِكَ. لٰكِنْ لَمَّا كَانَ ٱلسُّوفِسْطَائِيُّ لَيسَ اِنَّمَا يَكُونُ سُوفِسْطَائِيًّا مِنْ قِبَلِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْمَلَكَةِ ٱلَّتِي بِهَا يَفْعَلُ ٱلْاَقَاوِيلَ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةَ بَلْ اِنَّمَا هُوَ سُوفِسْطَائِيٌّ مِنْ قِبَلِ مَا يَقْصِدُهُ بِتِلْكَ ٱلْاَقَاوِيلِ مِنَ ٱلْكَرَامَةِ وَٱلْخَيْرَاتِ ٱلْخَارِجَةِ وَذٰلِكَ لِاِيهَامِهِ اَنَّهُ حَكِيمٌ وَكَانَ ٱلْجَدَلِيُّ اِنَّمَا هُوَ جَدَلِيٌّ بِٱلْمَلَكَةِ ٱلْحَاصِلَةِ لَهُ عَنِ ٱلصِّنَاعَةِ فَبِٱلْوَاجِبِ لَمْ تَكُنِ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ اَعْنِي ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا اَنَّهَا مَقَايِيسُ جَدَلِيَّةٌ مِنْ غَيْرِ اَنْ تَكُونَ جَدَلِيَّةً

اذا استعملت نحو هذه الغاية . واما اذا استعملت على طريق الامتحان فهي جزء منها . واما الخطيب فلما كان خطيبا من اجل الامور التي من خارج مثل الكرامة وغير ذلك من سائر الخيرات او من قبل ملكة هذه الصناعة كانت الاقاويل التي يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة جزءا من هذه الصناعة . لان المقصود بهذه الاقاويل في هذه الصناعة قد يكون بعينه مقصود السوفسطائي . وانما كان ذلك كذلك لان المقصود بهذه الصناعة من الذي يراد اقناعه انما هو الفعل او الانفعال فاذا حصل ذلك منه فلا فرق بين ان يكون حصوله عن اقاويل هي مقنعة في الحقيقة او عن اقاويل يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة . فان كان هذا الفعل المقصود من المخاطب او الانفعال خيرا ما له لا للخطيب كانت الاقاويل التي يظن بها انها مقنعة وليست بمقنعة داخلة في هذه الصناعة بالجهة التي دخلت في صناعة الجدل الاقاويل التي يظن بها انها جدلية اذ لم يقصد بها مقصد السفسطة. وان كان مقصد الخطيب خيرا يناله من الخيرات التي يقصدها السوفسطائيون كان القول الذي يظن به انه مقنع وليس بمقنع من جهة ما هو سوفسطائي جزءا من هذه الصناعة اذ قد يشارك الخطيب السوفسطائي في غايته . فلذلك قد تدخل الاقاويل السوفسطائية في هذه الصناعة ولا تدخل في صناعة الجدل



البحث السادس

في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان

(عن تلخيص كتاب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع صفحة ٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ يُوجَدُ مُسْتَعْمِلًا لِنَحْوٍ مَا مِنْ ٱنحَاءِ ٱلبَلَاغَةِ وَمُنْتَهِيًا مِنهَا اِلَى مِقْدَارٍ مَا وَذٰلِكَ فِي صِنفَي ٱلاَقَاوِيلِ ٱللَّذَيْنِ احَدُهُمَا ٱلمُنَاظَرَةُ وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْلِيمُ وَٱلاِرْشَادُ . وَاكْثَرُ ذٰلِكَ فِي ٱلمَوْضُوعَاتِ ٱلخَاصَّةِ بِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ وَهِيَ مِثْلُ ٱلشِّكَايَةِ وَٱلاِعْتِذَارِ وَسَائِرِ ٱلاَقَاوِيلِ ٱلَّتِي فِي ٱلاُمُورِ ٱلجُزْئِيَّةِ . وَيُوجَدُ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَبْلُغُونَ مَقْصُودَهُمْ بِهٰذَا ٱلفِعْلِ . فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَفعَلُ ذٰلِكَ بِالِاتِّفَاقِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَفْعَلُهُ بِٱلاِعْتِيَادِ وَبِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ . وَمَعْلُومٌ انَّ ٱلَّذِي يَفعَلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ افْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَفعَلُهَا بِٱلِاتِّفَاقِ . وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلَّذِي يَفعَلُهَا بِمَلَكَةٍ ثَابِتَةٍ وَعِلْمٍ بِٱلسَّبَبِ ٱلَّذِي بِهِ يَفْعَلُ فِعْلَهُ يَكُونُ اتَمَّ وَافضَلَ . وَهٰذَا امْرٌ يَعْرِفُهُ ٱلجُمْهُورُ فَضْلًا عَنِ ٱلخَوَاصِّ . وَلِذٰلِكَ كَانَ وَاجِبًا انْ تُثْبَتَ اجْزَاءُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي كِتَابٍ وَلَا يُقْتَصَرَ عَلَى مَا يُوجَدُ مِنْ ذٰلِكَ بِٱلطَّبْعِ فَقَطْ وَلَا بِٱلاِعْتِيَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلقِيَاسِيَّةِ



الفصل الثاني

في بلاغة الخطيب

البحث الاول

في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب

(عن كتاب الصناعتين باختصار)

قَالَ مَعْمَرٌ ابو الاشعث قلتُ لِبَهْلَةَ الهندي ايَّام اجتلب يحيى ابنُ خالدٍ اطبَّاء الهند: ما البلاغة عند اهل الهند. قال بهلة: عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة ولكنني لا احسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فاثق من نفسي بالقيام بخصائصها ولطيف معانيها. (قال ابو الاشعث) فتلقيتُ تلك الصحيفة المترجمة فاذا فيها: اوَّل البلاغة اجتماع آلة البلاغة وذلك ان يكون الخطيب رابط الجأش ساكن الجوارح متخيِّرًا للفظ لا يكلّم سيّد الامة بكلام الأمة والملوك بكلام السوقة ويكون في كلامه التصرُّف في كل طبقة ولا يدقق المعاني كلَّ التدقيق ولا ينقّح الالفاظ كلَّ التنقيح ويصفّيها كلَّ التصفية ويهذّبها كلَّ التهذيب ولا يفعل ذلك حتى يصادف حكيمًا وفيلسوفًا عظيمًا. ومن تعوَّد حذف فضول الكلام واسقاط مشتركات الالفاظ ونظر في صناعة المنطق على جهة

ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبَالَغَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلْأَعْرَاضِ (١) وَٱلتَّصَفُّحِ وَلَا عَلَى وَجْهِ ٱلِٱسْتِظْرَافِ وَٱلتَّظَرُّفِ (٢) لَهَا . (قَالَ) وَٱعْلَمْ أَنَّ حَقَّ ٱلْمَعْنَى أَنْ يَكُونَ ٱلِٱسْمُ لَهُ طَبَقًا وَتِلْكَ ٱلْحَالُ وَفْقًا وَلَا يَكُونَ ٱلِٱسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا وَلَا مُشْتَرَكًا وَلَا مُضَمَّنًا وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَصَادِرِ كَلَامِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَوَارِدِهِ وَيَكُونَ لَفْظُهُ مُونِقًا وَمَعْنَاهُ نَيِّرًا وَاضِحًا وَمَدَارُ ٱلْأَمْرِ عَلَى إِفْهَامِ كُلِّ قَوْمٍ بِقَدْرِ طَاقَتِهِمْ وَٱلْحَمْلِ عَلَيْهِمْ عَلَى قَدْرِ (٣) مَنَازِلِهِمْ وَأَنْ تُوَاتِيَهُ آلَتُهُ وَيَتَصَرَّفَ مَعَهُ أَدَاتُهُ وَيَكُونَ فِي ٱلتُّهَمَةِ لِنَفْسِهِ مُعْتَدِلًا وَفِي حُسْنِ ٱلظَّنِّ أَوْدَعَهَا تَهَاوُنَ ٱلْآمِنِينَ وَإِنْ تَجَاوَزَ مِقْدَارَ ٱلْحَقِّ فِي ٱلتُّهَمَةِ ظَلَمَهَا وَأَوْدَعَهَا ذُلَّ ٱلْمَظْلُومِينَ وَلِكُلِّ ذٰلِكَ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلشُّغْلِ وَلِكُلِّ شُغْلٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْوَهْنِ وَلِكُلِّ وَهْنٍ مِقْدَارٌ مِنَ ٱلْجَهْلِ

فَقَوْلُهُ : (أَوَّلُ ٱلْبَلَاغَةِ ٱجْتِمَاعُ آلَةِ ٱلْبَلَاغَةِ) أَيْ أَوَّلُ آلَاتِ ٱلْبَلَاغَةِ جُودَةُ ٱلْقَرِيحَةِ وَطَلَاقَةُ ٱللِّسَانِ وَذٰلِكَ مِنْ فِعْلِ ٱللّٰهِ تَعَالَى لَا يَقْدِرُ ٱلْعَبْدُ عَلَى ٱكْتِسَابِهِ لِنَفْسِهِ وَٱجْتِلَابِهِ لَهَا . وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا خَلَا بِنَفْسِهِ وَأَعْمَلَ فِكْرَهُ أَتَى بِٱلْبَيَانِ ٱلْعَجِيبِ وَٱلْكَلَامِ ٱلْبَدِيعِ ٱلْمُصِيبِ وَٱسْتَخْرَجَ ٱلْمَعْنَى ٱلرَّائِقَ وَجَاءَ بِٱللَّفْظِ ٱلرَّائِعِ . وَإِذَا حَاوَرَ وَنَاظَرَ قَصَّرَ وَتَأَخَّرَ فَحَقُّ هٰذَا أَنْ لَا يَتَعَرَّضَ لِٱرْتِجَالِ ٱلْخُطَبِ وَلَا يُجَارِيَ أَصْحَابَ ٱلْبَدَايِهِ فِي مَيْدَانِ ٱلْقَرِيضِ وَيَكْتَفِيَ بِنَتَائِجِ فِكْرِهِ وَٱلنَّاسُ فِي

---

(١) ويروى على جهة الاغتراض (٢) وفي نسخة الاستطراف والتطرّف

(٣) ويروى في اقدار

صِناعَةِ ٱلْكَلامِ عَلَى طَبَقاتٍ مِنْهُمْ مَنْ إِذَا حاوَرَ وَنَاظَرَ أَبْلَغَ وَأَجادَ وَإِذَا كَتَبَ وَأَمْلَى أَخَلَّ وَتَخَلَّفَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا أَمْلَى بَرَّزَ وَإِذَا حاوَرَ وَكَتَبَ قَصَّرَ . وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا كَتَبَ أَحْسَنَ وَإِذَا حاوَرَ وَأَمْلَى أَسَاءَ . وَمِنْهُمْ مَنْ يُحْسِنُ فِي جَمِيعِ هٰذِهِ ٱلْحالاتِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُسِيءُ فِيهَا كُلِّهَا فَأَحْسَنُ حالاتِ ٱلْمُسِيءِ ٱلْإِمْسَاكُ وَأَحْسَنُ حالاتِ ٱلْمُحْسِنِ ٱلتَّوَسُّطُ فَإِنَّ ٱلْإِكْثَارَ يُورِثُ ٱلْإِمْلالَ وَقَلَّ مَا يَنْجُو صَاحِبُهُ مِنَ ٱلزَّلَلِ وَٱلْعَيْبِ وَٱلْخَطَلِ . وَلَيْسَ يَنْبَغِي لِلْمُحْسِنِ فِي أَحَدِ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ ٱلْمُسِيءِ فِي غَيْرِهِ أَنْ يَتَجاوَزَ مَا هُوَ مُحْسِنٌ فِيهِ إِلَى مَا هُوَ مُسِيءٌ فِيهِ فَإِنِ ٱضْطُرَّ فِي بَعْضِ ٱلْأَحْوَالِ إِلَى تَجاوُزِهِ فَخَيْرُ سُبُلِهِ فِيهِ قَصْدُ ٱلْاِخْتِصَارِ وَتَجَنُّبُ ٱلْإِكْثَارِ وَٱلْإِهْذَارِ لِيَقِلَّ ٱلسَّقَطُ فِي كَلامِهِ وَلَا يَكْثُرَ ٱلْعَيْبُ فِي مَنْطِقِهِ . وَقِيلَ لِٱبْنِ ٱلْمُقَفَّعِ لِمَ لَا تُطِيلُ ٱلْقَصائِدَ . قَالَ : لَوْ أَطَلْتُهَا عُرِفَ صَاحِبُهَا . يُرِيدُ أَنَّ ٱلْمُحْدَثَ يَتَشَبَّهُ بِٱلْقَدِيمِ فِي ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْكَلامِ فَإِذَا طالَ ٱخْتَلَّ فَعُرِفَ أَنَّهُ كَلامٌ مَوْلُودٌ عَلَى أَنَّ ٱلسَّابِقَ فِي مَيادِينِ ٱلْبَلاغَةِ إِذَا كَثَّرَ سَقَطَ فَكَيْفَ ٱلْمُقَصِّرُ عَنْ غَايَتِهَا وَٱلْمُتَخَلِّفُ عَنْ أَمَدِهَا . وَمِنْ تَمَامِ آلاتِ ٱلْبَلاغَةِ ٱلتَّوَسُّعُ فِي مَعْرِفَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَوُجُوهِ ٱلْاِسْتِعْمَالِ لَهَا وَٱلْعِلْمِ بِفَاخِرِ ٱلْأَلْفَاظِ وَسَاقِطِهَا وَمُتَخَيَّرِهَا وَرَدِيئِهَا وَمَعْرِفَةِ ٱلْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ ٱلْكَلامِ فِي غَيْرِ ذٰلِكَ

وَقَوْلُهُ : (وَهُوَ أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ رَابِطَ ٱلْجَأْشِ سَاكِنَ ٱلنَّفْسِ) هٰذَا لِأَنَّ ٱلْحَيْرَةَ وَٱلدَّهَشَ يُورِثَانِ ٱلْحُبْسَةَ وَٱلْحَصَرَ وَهُمَا سَبَبَا ٱلْإِرْتَاجِ

وَٱلْإِفْحَامِ . وَبَلَغَكَ مَا أَصَابَ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ أَوَّلَ مَا صَعِدَ ٱلْمِنْبَرَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ : إِنَّ ٱلَّذَيْنِ قَبْلِي كَانَا يُعِدَّانِ لِهٰذَا ٱلْمَقَامِ مَقَالًا وَأَنْتُمْ إِلَى إِمَامٍ عَادِلٍ أَحْوَجُ مِنْكُمْ إِلَى إِمَامٍ قَائِلٍ وَسَتَأْتِيكُمُ ٱلْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا . وَصَعِدَ بَعْضُ ٱلْعَرَبِ مِنْبَرًا بِخُرَاسَانَ فَأُرْتِجَ عَلَيْهِ فَقَالَ حِينَ نَزَلَ :

فَإِنْ لَمْ أَكُنْ فِيكُمْ خَطِيبًا فَإِنَّنِي   بِسَيْفِي إِذَا جَدَّ ٱلْوَغَى لَخَطِيبُ

وَمِنْ حُسْنِ ٱلْاِعْتِذَارِ عِنْدَ ٱلْاِرْتِتَاجِ مَا أَخْبَرَنَا أَبُو أَحْمَدَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ قَالَ : فَلَمَّا قَالَ (أَمَّا بَعْدُ) ٱمْتَنَعَ عَلَيْهِ ٱلْكَلَامُ ثُمَّ قَالَ : أَمَّا بَعْدُ فَقَدْ يَجِدُ ٱلْمُعْسِرُ وَيُعْسِرُ ٱلْمُوسِرُ وَيُفَلُّ ٱلْحَدِيدُ وَيَقْطَعُ ٱلْكَلِيلُ . وَإِنَّمَا ٱلْكَلَامُ بَعْدَ ٱلْإِفْحَامِ كَٱلْإِشْرَاقِ بَعْدَ ٱلظَّلَامِ وَقَدْ يَعْزُبُ ٱلْبَيَانُ وَيَعْتَقِمُ ٱلصَّوَابُ وَإِنَّمَا ٱللِّسَانُ مُضْغَةٌ مِنَ ٱلْإِنْسَانِ يَفْتُرُ بِفُتُورِهِ (١) إِذَا نَكَلَ وَيَثُوبُ بِٱنْبِسَاطِهِ إِذَا ٱرْتَجَلَ . أَلَا وَإِنَّا لَا نَنْطِقُ بَطَرًا وَلَا نَسْكُتُ حَصَرًا بَلْ نَسْكُتُ مُعْتَبِرِينَ وَنَنْطِقُ مُرْشِدِينَ . وَنَحْنُ بَعْدَ ذٰلِكَ أُمَرَاءُ ٱلْقَوْلِ فِينَا وَشَجَتْ أَعْرَاقُهُ وَعَلَيْنَا عُطِفَتْ أَغْصَانُهُ وَلَنَا تَهَدَّلَتْ ثَمَرَتُهُ فَنَتَخَيَّرُ مِنْهُ مَا ٱحْلَوْلَى وَعَذُبَ وَنَطْرَحُ مِنْهُ مَا ٱمْلَوْلَحَ وَخَبُثَ . وَمِنْ بَعْدِ مُقَامِنَا هٰذَا مُقَامٌ وَمِنْ بَعْدِ أَيَّامِنَا أَيَّامٌ . وَعَلَامَةُ سُكُونِ نَفْسِ ٱلْخَطِيبِ وَرَبَاطَةِ جَأْشِهِ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ. قَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى جَأْشُهُ هُدُوُّهُ فِي كَلَامِهِ وَتَمَهُّلُهُ فِي مَنْطِقِهِ. وَقَالَ ثُمَامَةُ : كَانَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ قَدْ جَمَعَ ٱلْهُدُوَّ

---

(١) ويروى : يعثر بعثوره

وَٱلتَّمَهُّلَ وَٱلْجَزَالَةَ وَٱلْحَلَاوَةَ وَلَوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ نَاطِقٌ يَسْتَغْنِي عَنِ ٱلْإِشَارَةِ لَكَانَهُ

وَقَوْلُهُ: (مُتَخَيِّرَ ٱلْأَلْفَاظِ) فَلِأَنَّ مَدَارَ ٱلْبَلَاغَةِ عَلَى تَخَيُّرِ ٱللَّفْظِ وَتَخَيُّرُهُ أَصْعَبُ مِنْ جَمْعِهِ وَتَأْلِيفِهِ. وَقَوْلُهُ: (وَيَكُونَ فِي قَوْلِهِ فَضْلُ ٱلتَّصَرُّفِ فِي كُلِّ طَبَقَةٍ) وَهُوَ أَنْ يَكُونَ صَانِعُ ٱلْكَلَامِ قَادِرًا عَلَى جَمِيعِ ضُرُوبِهِ مُتَمَكِّنًا مِنْ جَمِيعِ فُنُونِهِ لَا يَعْتَاصُ عَلَيْهِ قِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِهِ فَإِنْ كَانَ شَاعِرًا تَصَرَّفَ فِي وُجُوهِ ٱلشِّعْرِ مَدِيحِهِ وَهِجَائِهِ وَمَرَاثِيهِ وَصِفَاتِهِ وَمَفَاخِرِهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ أَصْنَافِهِ. وَلِٱخْتِلَافِ قُوَى ٱلنَّاسِ فِي ٱلشِّعْرِ وَفُنُونِهِ مَا قِيلَ: كَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ أَشْعَرَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَكِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ. وَكَذٰلِكَ ٱلْكَاتِبُ رُبَّمَا تَقَدَّمَ فِي ضَرْبٍ مِنَ ٱلْكِتَابَةِ وَتَأَخَّرَ فِي غَيْرِهِ وَسَهُلَ عَلَيْهِ نَوْعٌ مِنْهَا وَعَسُرَ نَوْعٌ آخَرُ وَأَخْبَرَ أَحْمَدُ بْنُ يُوسُفَ قَالَ: أَمَرَنِي ٱلْمَأْمُونُ أَنْ أَكْتُبَ إِلَى ٱلنَّوَاحِي فِي ٱلْإِسْتِكْثَارِ مِنَ ٱلْقَنَادِيلِ فِي ٱلْمَسَاجِدِ. فَبِتُّ لَا أَدْرِي كَيْفَ أَحْتَذِي فَأَتَانِي آتٍ فِي مَنَامِي فَقَالَ: قُلْ فَإِنَّ فِي ذٰلِكَ عِمَارَةَ ٱلْمَسَاجِدِ وَأُنْسًا لِلسَّابِلَةِ وَإِضَاءَةً لِلْمُتَهَجِّدِينَ وَنَفْيًا لِمَكَامِنِ ٱلرِّيَبِ وَتَنْزِيهًا لِبُيُوتِ ٱللهِ جَلَّ وَعَزَّ مِنْ وَحْشَةِ ٱلظَّلَامِ. فَٱنْتَبَهْتُ وَقَدِ ٱنْفَتَحَ لِي مَا أُرِيدُ فَٱبْتَدَأْتُ بِهٰذَا وَأَتْمَمْتُ عَلَيْهِ. وَٱلْمُقَدَّمُ فِي صَنْعَةِ ٱلْكَلَامِ هُوَ ٱلْمُسْتَوْلِي عَلَيْهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ ٱلْمُتَمَكِّنُ مِنْ جَمِيعِ أَنْوَاعِهِ وَبِهٰذَا فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى ٱلْفَرَزْدَقِ وَقَالُوا: كَانَ لَهُ فِي ٱلشِّعْرِ ضُرُوبٌ لَا يَعْرِفُهَا ٱلْفَرَزْدَقُ. وَسُئِلَ

بَعْضُهُمْ عَنْ أَبِي نُوَاسٍ وَمُسْلِمٍ فَذَكَرَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ أَشْعَرُ لِتَصَرُّفِهِ فِي وُجُوهِ الشِّعْرِ وَكَثْرَةِ مَذَاهِبِهِ فِيهِ. (قَالَ) وَمُسْلِمٌ جَارٍ عَلَى وَتِيرَةٍ لَا يَتَغَيَّرُ عَنْهَا. وَأَبْلَغُ مِنْ هٰذِهِ الْمَنْزِلَةِ أَنْ يَتَفَنَّنَ صَانِعُ الْكَلَامِ فِي قَوْلِهِ أَيْ يَأْتِيَ مَرَّةً بِالْجَزْلِ وَأُخْرَى بِالسَّهْلِ فَيَلِينُ إِذَا شَاءَ وَيَشْتَدُّ إِذَا أَرَادَ. وَمِنْ هٰذَا الْوَجْهِ فَضَّلُوا جَرِيرًا عَلَى الْفَرَزْدَقِ وَأَبَا نُوَاسٍ عَلَى مُسْلِمٍ . . .

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يُكَلِّمَ سَيِّدَ الْأُمَّةِ بِكَلَامِ الْأُمَّةِ وَلَا الْمُلُوكَ بِكَلَامِ السُّوقَةِ) لِأَنَّ ذَاكَ جَهْلٌ بِالْمَقَامَاتِ وَمَا يَصْلُحُ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مِنَ الْكَلَامِ. وَقَدْ أَحْسَنَ الَّذِي قَالَ: لِكُلِّ مَقَامٍ مَقَالٌ. وَرُبَّمَا غَلَبَ سُوءُ الرَّأْيِ وَقِلَّةُ الْعَقْلِ عَلَى بَعْضِ عُلَمَاءِ الْعَرَبِيَّةِ فَيُخَاطِبُونَ السُّوقِيَّ وَالْمَمْلُوكَ الْأَعْجَمِيَّ بِأَلْفَاظِ أَهْلِ نَجْدٍ وَمَعَانِي أَهْلِ السَّرَاةِ. كَأَبِي عَلْقَمَةَ إِذْ قَالَ لِحَجَّامِهِ: اُشْدُدْ قَصَبَ الْمَلَازِمِ وَأَرْهِفْ ظُبَاتِ الْمَشَارِطِ وَأَمِرَّ الْمَسْحَ وَاسْتَحِلَ الرَّشْحَ وَخَفِّفِ الْوَطْءَ وَعَجِّلِ النَّزْعَ وَلَا تُكْرِهَنَّ آبِيًا وَلَا تَمْنَعَنَّ آتِيًا. فَقَالَ لَهُ الْحَجَّامُ: لَيْسَ لِي عِلْمٌ بِالْحُرُوبِ. وَأَخْبَرَ أَبُو الْمَغَازِلِ الضَّبِّيُّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: كَانَ لَنَا جَارٌ بِالْكُوفَةِ لَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا بِالْغَرِيبِ فَخَرَجَ إِلَى ضَيْعَةٍ لَهُ عَلَى حِجْرٍ مَعَهَا مُهْرٌ. فَأَفْلَتَتْ فَذَهَبَتْ وَمَعَهَا مُهْرُهَا فَخَرَجَ يَسْأَلُ عَنْهَا فَمَرَّ بِخَيَّاطٍ فَقَالَ: يَا ذَا النِّصَاحِ وَذَاتِ السَّمِّ الطَّاعِنَ بِهَا فِي غَيْرِ وَغًى لِغَيْرِ عِدًى هَلْ رَأَيْتَ الْخَيْفَانَةَ الْقَبَّاءَ يَتْبَعُهَا الْحَاسِنُ الْمُسَرْهَفُ (١) كَأَنَّ

(١) ويروى: الحالس المرهف

غُرَّتهُ ٱلقمرُ ٱلازهرُ يُنيرُ فِي حُضرهِ كَالْخُلَّبِ ٱلاجرَدِ (١). فقَال ٱلخيَّاطُ اَطْلُبهَا فِي برّ لخَّخ (٢). فقَالَ: وَيلَكَ وَمَا تقُولُ قَبَّحكَ ٱللهُ فَمَا اعلمُ رَطانَتكَ. فقَالَ: لَعنَ ٱللهُ اَبغَضنَا لفظًا وَاخطَانا مَنطِقًا

وَقَولُهُ: (وَلَا يُدقِّقَ ٱلمَعَانِي كُلَّ ٱلتَّدقيقِ) قَالَ اَبو هِلَالٍ: لِاَنَّ ٱلغَايَةَ فِي تَدقِيقِ ٱلمَعْنَى سَبِيلٌ اِلَى تَعمِيتِهِ وَتَعمِيَةُ ٱلمعنَى لُكنَةٌ اِلَّا اِذَا اُرِيدَ بِهِ ٱلالغَازُ وَكَانَ فِي تَعمِيتِهِ فَائِدَةٌ مِثلُ اثبَاتِ (٣) ٱلمَعَانِي ومَا يَجرِي مَعهَا مِنَ ٱللُّحُونِ ٱلَّتِي ٱستَعمَلُوهَا وَكَنَوا بِهَا عَن ٱلمرَادِ لِبَعض ٱلغَرَضِ. فَامَّا مَنْ ارَادَ ٱلابَانَةَ فِي مَديحٍ اَوْ صِفَةِ شَيءٍ فَاَتَى بِاِغلَاقٍ دَلَّ عَلَى عَجزِهِ فِي ٱلابَانَةِ وَقُصُورِهِ عَن ٱلافصَاحِ

وَقَولُهُ: (وَلَا يُنقِّحَ ٱلالفَاظَ كُلَّ ٱلتَّنقِيحِ) فَتَنقيحُ ٱللَّفظِ اَنْ يُبنَى مِنهُ بِنَاء لَا يَكثُرُ فِي ٱلاستِعمَالِ كَمَا قَالَ بَعضُهُمْ لِبَعضِ ٱلوُزرَاء: اَحسَنَ ٱللهُ اِبَانَتَكَ. فقَالَ لَهُ ٱلوَزِيرُ: عَجَّلَ ٱللهُ اِمَاتَتَكَ. وَيَدخُلُ فِي تَنقِيحِ ٱللَّفظِ ٱستِعمَالُ وَحشِيِّهِ وَتَركُ سَلِسِهِ. وَقَدْ اَخَذَ ٱلرُّوَاةُ عَلَى زُهَيرٍ قَولَهُ:

تَقِيٌّ نَقِيٌّ لَمْ يُكَثِّرْ غَنِيمَةً بِنَهكَةِ ذِي ٱلقُربَى وَلَا بِحَقَلَّدِ

فَٱستَبشَعُوا (ٱلحَقَلَّدَ) وَهُوَ ٱلسَّيِّئُ ٱلخُلقِ وَقَالُوا: لَيسَ فِي لَفظِ زُهَيرٍ اَنكَرُ مِنهُ. قَالَ اَبو عُثمَانَ: رَاَيتُهم يَزِيدُونَ فِي كُتُبِهِمْ هٰذَا ٱلكَلَامَ فَاِنْ كَانُوا اِنَّمَا رَوَوهُ وَدَوَّنُوهُ لِاَنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَصَاحَةٍ وَبَلَاغَةٍ فَقَدْ

---

(١) وفي رواية: ينير في خضره كالخلّب الاخرز (٢) ويروى: في غر بلخ
(٣) وفي رواية: ابيات المعاني

بَاعَدَهُ ٱللهُ مِنْ صِفَةِ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْفَصَاحَةِ. وَإِنْ كَانُوا فَعَلُوا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ غَرِيبٌ فَأَبْيَاتٌ مِنْ شِعْرِ ٱلْعَجَّاجِ وَٱلطِّرِمَّاحِ وَأَشْعَارِ هُذَيْلٍ يَأْتِي لَهُمْ مَعَ ٱلرَّصْفِ ٱلْحَسَنِ عَلَى أَكْثَرِ مِنْ ذٰلِكَ. وَلَوْ خَاطَبْتُ ٱلْأَصْمَعِيَّ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْكَلَامِ لَظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَجْهَلُ بَعْضَهُ وَهٰذَا خَارِجٌ عَنْ عَادَةِ ٱلْبُلَغَاءِ

وَقَوْلُهُ: (وَيُصَفِّيهَا كُلَّ ٱلتَّصْفِيَةِ وَيُهَذِّبُهَا كُلَّ ٱلتَّهْذِيبِ) فَتَصْفِيَتُهُ تَعْرِيَتُهُ مِنَ ٱلْوَحْشِيِّ وَنَفْيُ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْهُ وَتَهْذِيبُهُ وَتَبْرِئَتُهُ مِنَ ٱلرَّدِيِّ ٱلْمَرْذُولِ وَٱلسُّوقِيِّ ٱلْمَرْدُودِ فَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُهَذَّبِ قَوْلُ بَعْضِ ٱلْكُتَّابِ: مِثْلُكَ أَوْجَبَ حَقًّا لَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَسَمَحَ بِحَقٍّ يَجِبُ لَهُ وَقَبِلَ وَاضِحَ ٱلْعُذْرِ وَٱسْتَكْثَرَ قَلِيلَ ٱلشُّكْرِ لَا زَالَتْ أَيَادِيكَ فَوْقَ شُكْرِ أَوْلِيَائِكَ وَنِعْمَةُ ٱللهِ عَلَيْكَ فَوْقَ آمَالِهِمْ فِيكَ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ آخَرَ: مَا أَنْتَهِي إِلَى غَايَةٍ مِنْ شُكْرِكَ إِلَّا وَجَدْتُ وَرَاءَهَا حَادِثًا مِنْ بِرِّكَ فَلَا زَالَتْ أَيَادِيكَ مَمْدُودَةً بَيْنَ أَمَلٍ لَكَ تَبْلُغُهُ وَأَمَلٍ فِيكَ تُحَقِّقُهُ حَتَّى تَتَمَلَّى مِنَ ٱلْأَعْمَارِ أَطْوَلَهَا وَتَنَالَ مِنَ ٱلدَّرَجَاتِ أَفْضَلَهَا. وَقَوْلُ أَحْمَدَ بْنِ يُوسُفَ: يَوْمُنَا يَوْمٌ لَيِّنُ ٱلْحَوَاشِي وَطِيءُ ٱلنَّوَاحِي وَهٰذِهِ سَمَاءٌ قَدْ تَهَلَّلَتْ بِوَدْقِهَا وَضَحِكَتْ لِعَابِسِ غَيْمِهَا وَلَامِعِ بَرْقِهَا وَأَنْتَ قُطْبُ ٱلسُّرُورِ وَنِظَامُ ٱلْأُمُورِ فَلَا تَغِبْ عَنَّا فَنَغِلَّ (١) وَلَا تُفْرِدْنَا (٢) فَنَسْتَوْحِشَ فَإِنَّ ٱلْحَبِيبَ بِحَبِيبِهِ كَثِيرٌ وَبِمُسَاعَدَتِهِ جَدِيرٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا تَفْعَلَ ذٰلِكَ حَتَّى تُصَادِفَ حَكِيمًا وَفَيْلَسُوفًا عَظِيمًا وَمَنْ

(١) وفي رواية: فنقل (٢) ويروى: ولا تفرّد عنّا

تَعوَّدَ حذفَ فُضولِ ٱلكَلامِ وَمُشتَرَكاتِ ٱلأَلفاظِ وَمَنْ نَظَرَ فِي ٱلْمَنطِقِ عَلَى جِهَةِ ٱلصِّناعَةِ فِيهَا لَا عَلَى جِهَةِ ٱلِاسْتِطرَافِ وَٱلتَّطرُّفِ لَهَا) فَنَقُولُ يَنبَغِي أَنْ يَتَكَلَّمَ بِفَاخِرِ ٱلكَلامِ وَنَادِرِهِ وَرَصِينِهِ وَمُحْكَمِهِ عِنْدَ مَنْ يَفهَمُهُ عَنْهُ وَيَقبَلُهُ مِنْهُ مِمَّنْ عَرَفَ ٱلْمَعَانِي وَٱلأَلفَاظَ عِلمًا شَافِيًا لِنَظَرِهِ فِي ٱللُّغَةِ وَٱلإِعرَابِ وَٱلْمَعَانِي عَلَى جِهَةِ ٱلصِّناعَةِ لَا كَمَنِ ٱستَطرَفَ شَيئًا مِنهَا نَنظُرُ فِيهِ نَظَرًا غَيرَ كَامِلٍ أَوْ أَخذَ مِنْ أَطرَافِهِ وَتَنَاوَلَ مِنْ أَطرَارِهِ فَتَحَلَّى بِٱسْمِهِ وَخَلَا مِنْ وَسْمِهِ. فَإِذَا سَمِعَ لَمْ يَفقَهْ وَإِذَا سُئِلَ لَمْ يَنفُقْ وَإِذَا تَكَلَّمَ عِنْدَ مَنْ هٰذِهِ صِفَتُهُ ذَهَبَتْ فَائِدَةُ كَلَامِهِ وَضَاعَتْ مَنفَعَةُ مَنطِقِهِ. لِأَنَّ ٱلعَامِّيَ إِذَا كَلَّمتَهُ بِكَلامِ ٱلعِلْيَةِ سَخِرَ مِنكَ وَزَرَى عَلَيكَ. كَمَا رُوِيَ عَنْ بَعضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِبَعضِ ٱلعَامَّةِ: بِمَ كُنتُمْ تَنتَقِلُونَ ٱلبَارِحَةَ (يَعنِي عَلَى ٱلنَّبِيذِ). فَقَالَ: بِٱلْحَمَّالِينَ. وَلَوْ قَالَ لَهُ: (أَيشْ كَانَ نَقلُكُمْ) لَسَلِمَ مِنْ سُخرِيَتِهِ. فَيَنبَغِي أَنْ يُخَاطِبَ كُلَّ فَرِيقٍ بِمَا يَعرِفُونَ وَيَتَجَنَّبَ مَا يَجهَلُونَ

وَأَمَّا قَولُهُ: (مَنْ تَعوَّدَ حَذفَ فُضُولِ ٱلكَلامِ الخ) هُوَ أَنْ يُسقِطَ مِنَ ٱلكَلامِ مَا يَكُونُ ٱلكَلامُ مَعَ إِسقَاطِهِ تَامًّا غَيرَ مَنقُوصٍ وَلَا يَكُونُ فِي زِيَادَتِهِ فَائِدَةٌ). وَذٰلِكَ مِثلُ مَا رُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ أَنَّهُ قَالَ لِصُحَارٍ ٱلعَبدِيِّ: مَا ٱلبَلَاغَةُ فَقَالَ: أَنْ تَقُولَ فَلَا تُخطِئَ وَتُسرِعَ فَلَا تُبطِئَ. ثُمَّ قَالَ: أَقِلْنِي هَوَانَ (لَا تُخطِئَ وَلَا تُبطِئَ). فَأَلقَى ٱللَّفظَتَينِ لِأَنَّ فِي ٱلَّذِي أَبقَى غِنًى عَنهُمَا وَعِوَضًا مِنهُمَا.

فأمّا إذا كانَ في زيادةِ الألفاظِ فائدةٌ فذلكَ محمودٌ وهو مِنْ باب التذييلِ . وقولُهُ : (ومُشتركاتِ الألفاظِ) فهو أنْ يُريدَ الإبانةَ عنْ معنى فيأتي بالألفاظِ لا تدلُّ عليهِ خاصّةً بلْ يشتركُ معهُ معانٍ أُخرُ فلا يعرفُ السامعُ أيّها أرادَ . ورُبّما استبهمَ الكلامُ في نوعٍ مِنْ هذا الجنسِ حتّى لا يُوقفَ على معناهُ إلّا بالتوهُّمِ . فمِنَ الجنسِ الأوّلِ قولُ جريرٍ :

لوْ كُنتُ أعلمُ أنَّ آخرَ عهدِكُمْ   يومُ الرحيلِ فعلتُ ما لمْ أفعلِ

فوجهُ الاشتراكِ في هذا أنَّ السامعَ لا يدري إلى أيِّ شيءٍ أشارَ منْ أفعالِهِ في قولِهِ (فعلتُ ما لمْ أفعلِ) أأرادَ أنْ يبكي إذا رحلوا أوْ يهيمَ على وجهِهِ منَ الغمِّ الذي لحقَهُ أوْ يتبعهُمْ في المضيِّ على عزمةِ الرحيلِ أوْ يأخذَ منهمْ شيئاً يتذكّرُهمْ بهِ أوْ يدفعَ إليهمْ شيئاً يذكرونَهُ بهِ أوْ غيرَ ذلكَ ممّا يجوزُ أنْ يفعلَهُ الخليلُ عندَ فراقِ أحبّتِهِ . فلمْ يُبِنْ عنْ غرضِهِ وأحوجَ إلى أنْ يسألَهُ عمّا أرادَ فعلَهُ عندَ رحيلِهِمْ . وليسَ هذا كقولِهِمْ : (لوْ رأيتَ عليّاً بينَ الصفّينِ) . لأنَّ دليلَ البسالةِ والنكايةِ في هذا الكلامِ بيّنٌ وأمارةَ النقصانِ في بيتِ جريرٍ واضحةٌ فمَنْ يسمعُهُ وإنْ لمْ يكنْ منْ أهلِ البلاغةِ يستبردُهُ ويستغثُّهُ ويسترجحُ الآخرَ ويستجيدُهُ . ومثلُهُ قولُ سعيدِ بنِ مالكٍ الأزديّ

فإنّكَ لوْ لاقيتَ سعدَ بنَ مالكٍ   للاقيتَ منهُ بعضَ ما كانَ يفعلُ

فلمْ يُبِنْ عمّا أرادَ بقولِهِ : (للاقيتَ) أخيراً أرادَ أمْ شرّاً إلّا

انْ تَسمعَ مَا قَبلَهُ وَمَا بَعْدَهُ فَيتَبيَّنَ مَعْنَاهُ وَامَّا فِي نَفسِ البَيْتِ فَلا يَتَبيَّنُ مَغْزَاهُ . وَمِثْلُهُ قَوْلُ ابي تمَّامٍ :

وَقُمْنَا فَقُلْنَا بَعْدَ انْ أُودِعَ الثَّرَى ‏ ‏ ‏ ‏ بِهِ مَا يُقَالُ فِي السَّحَابَةِ تُقْلِعُ

فَقَوْلُ النَّاسِ فِي السَّحَابِ اذا انْقَلَعَ عَلَى وُجُوهٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْدَحُهُ وَمِنْهُمْ مَن يَذُمُّهُ وَمِنهم مَنْ كَانَ يُحِبُّ انْقِلَاعَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْرَهُ انْقِشَاعَهُ عَلَى حَسَبِ مَا كَانَتْ حَالَاتُها عِنْدَهُمْ وَمَوَاقِعُها مِنْهُمْ فَلَمْ يُبيِّنْ بِقَوْلِهِ مَعْنًى يَعْتَمِدُهُ السَّامِعُ . عَلَى انَّ المُحْتَجَّ لَهُ لَوْ قَالَ : انَّ اكْثَرَ العَادَةِ فِي السَّحَابِ انْ يُحْمَدَ اثَرُهُ وَيُثْنَى عَلَيْهِ بَعْدَهُ لَمَا كَانَ مُبْعِدًا . وَلَمْ أُرِدْ عَيْبَ ابي تمَّامٍ بِمَا قُلْتُ وَانَّمَا ارَدتُّ الاخبَارَ عَنْ وُجُوهِ الاشْتِرَاكِ وَذِكْرِ مَا يَتَشَعَّبُ مِنْهُ وَمَا يَقْرُبُ مِنْ بَابِهِ وَيَنظُرُ اليهِ مِنْ قَرِيبٍ اوْ بَعِيدٍ . وَمِنَ اللَّفظِ المُشْتَرَكِ قَوْلُ ابي نُوَاس :

وَخَبْزُ مَا يَخْبَزْنَ مِنْ آخِرٍ ‏ ‏ ‏ ‏ مِنْهُ وَالطَّابِنُ امْهَارُ (١)

الامْهَارُ هَاهُنَا جَمْعُ مُهْرٍ مِن قَوْلِهِمْ : مَهَرَ يَمْهَرُ مَهْرًا . وَالمَصَادِرُ لَا تُجْمَعُ وَلَا يَشُكُّ سَامِعُ هٰذَا الكَلَامِ انَّهُ يُرِيدُ جَمعَ مُهْرٍ فَيُشْكِلُ المَعْنَى عَلَيْهِ . وَخَطَبَ بَعْضُ المُتَكَلِّمِينَ فَقَالَ فِي صِفَةِ اللهِ تَعَالَى : لَا يُقَاسُ بِالقِيَاسِ وَلَا يُدْرَكُ بِالالْمَاسِ . ارَادَ جَمْعَ لَمْسٍ فَاعَابَ السَّجْعَ وَاخطَأَ المَعْنَى . وَامَّا مَا بَيْنَهُمْ فَلَا يُعْرَفُ مَعْنَاهُ الَّا بِالتَّوَهُّمِ . وَمِنَ الكَلَامِ الخَالِي مِنَ الاشْتِمَالِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ لِآخَرَ لَهُ ارَادَ فِرَاقَهُ :

---

(١) كذا في الاصل وفي ديوان ابي نوَّاس :

وخبز ما يخبز من بعده ‏ ‏ ‏ ‏ منهُ والطابن امهار

لَمَّا تَصَفَّحْتُ اخلاقَكَ فَوَجَدتُّها مُبايِنَةً لِمُشَاكَلَتِي زَائِغَةً عَنْ قَصْدِ طَرِيقَتِي صِرْتُ عَلَيْهَا رِيَاضَةً لِنَفْسِي عَلَى ٱلصَّبْرِ لِمَسَاوِئِ اخلاقِ ٱلْمُعَاشِرِينَ وَلِعِلْمِي بِكَامِنِ ٱلْعُدْوَانِ فِي جَمِيعِ ٱلعَالَمِينَ. وَٱلَّذِي رَجَوْتُ مِنْ مَرَمَّةِ خِصَالِكَ بِمَا اُقَابِلُهَا بِهِ مِنَ ٱلتَّجَاوُزِ وَاَسْحَبُ عَنْ سُوءِ آثَارِهَا اذْيَالَ ٱلتَّغَاضِي. وَانْتَ مَعَ ذٰلِكَ لَا تُقَوِّمُ اعْوِجَاجَ مَذَاهِبِكَ وَلَا يَعْطِفُ بِكَ ٱلرَّأْيُ عَلَى رُشْدِكَ. فَلَمَّا فَنِيَتْ حِيلَتِي فِيكَ وَٱنْقَطَعَتْ اَسْبَابُ امَلِي مِنْكَ وَرَاَيْتُ ٱلدَّاءَ لَا يَزِيدُ عَلَى ٱلتَّعَهُّدِ بِٱلدَّوَاءِ اِلَّا فَسَادًا وَٱلْخَرْقَ عَلَى ٱلتَّرْقِيعِ اِلَّا ٱتِّسَاعًا قَدَّمْتُ ٱلْيَأْسَ مِنْكَ عَلَى ٱلرَّجَاءِ فِيكَ فَٱحْتَسَبْتُ اَيَّامِي ٱلسَّالِفَةَ فِي ٱسْتِصْلَاحِي لَكَ

وَقَوْلُهُ: (وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِاسْمُ طِبْقًا) اَيْ يَكُونَ ٱلِاسْمُ طِبْقًا لِلَّفْظِ بِقَدْرِ ٱلْمَعْنَى غَيْرَ زَائِدٍ عَلَيْهِ وَلَا نَاقِصٍ عَنْهُ فَكَانَ كَالطَّبَقِ عَلَى ٱلْإِنَاءِ لَا يَنْقُصُ مِنْهُ شَيْءٌ

وَقَوْلُهُ: (وَلَا يَكُونَ ٱلِاسْمُ فَاضِلًا وَلَا مُقَصِّرًا) فَهٰذَا دَاخِلٌ فِي ٱلْاَوَّلِ مِنْ قَوْلِهِ: وَحَقُّ ٱلْمَعْنَى اَنْ يَكُونَ لَهُ ٱلِاسْمُ طِبْقًا. وَمِثَالُ ٱلْفَاضِلِ مِنَ ٱللَّفْظِ عَنِ ٱلْمَعْنَى قَوْلُ عُرْوَةَ بْنِ اُذَيْنَةَ:

وَٱسْقِ ٱلْعَدُوَّ بِكَأْسِهِ وَٱعْلَمْ لَهُ ... بِٱلْغَيْبِ اَنْ قَدْ كَانَ قَبْلُ سَقَاكَهَا

وَٱجْزِ ٱلْكَرَامَةَ مَنْ تَرَى اَنْ لَوْ لَهُ ... يَوْمًا بَذَلْتَ كَرَامَةً لَجَزَاكَهَا

وَمَعْنَى هٰذَا ٱلْكَلَامِ مَحْصُورٌ تَحْتَ ثَلَاثِ كَلِمَاتٍ: اِجْزِ كُلًّا بِفِعْلِهِ. وَكَانَ ٱلسُّكُوتُ لِعُرْوَةَ خَيْرًا مِنْهُ. وَمِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلْفَاضِلِ عَنْ مَعْنَاهُ قَوْلُ اَبِي ٱلْعِيَالِ ٱلْهُذَلِيِّ.

ذَكَرْتُ اَخي فعَاوَدَني صُدَاعُ ٱلرَّأْسِ وَٱلْوَصَبُ

فَذِكْرُ ٱلرَّأْسِ مَعَ ٱلصُّدَاعِ فَضْلٌ

وَٱلْمُقَصِّرُ مِنَ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُنْبِئُكَ بِمَعْنَاهُ عِنْدَ سَمَاعِكَ اِيَّاهُ وَيُحْوِجُكَ اِلَى شَرْحٍ كَبَيْتِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَٱلْعَيْشُ خَيْرٌ فِي ظِلَالِ ٱلنُّوكِ مِمَّنْ رَامَ كَدَّا

وَقَوْلُهُ : (وَلَا مُضَمَّنًا) ٱلتَّضْمِينُ اَنْ يَكُونَ ٱلْفَصْلُ ٱلْاَوَّلُ مُفْتَقِرًا اِلَى ٱلْفَصْلِ ٱلثَّانِي وَٱلْبَيْتُ ٱلْاَوَّلُ مُحْتَاجًا اِلَى ٱلْاَخِيرِ كَقَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

كَاَنَّ ٱلْقَلْبَ لَيْلَةَ قِيلَ يُغْدَى بِلَيْلَى ٱلْعَامِرِيَّةِ اَوْ يُرَاحُ

قَطَاةٌ غَرَّهَا شَرَكٌ فَبَاتَتْ تُجَاذِبُهُ وَقَدْ عَلِقَ ٱلْجَنَاحُ

فَلَمْ يَتِمَّ ٱلْمَعْنَى اِلَّا فِي ٱلْبَيْتِ ٱلثَّانِي وَهُوَ قَبِيحٌ . وَمِثَالُهُ مِنْ نَثْرِ ٱلْكُتَّابِ قَوْلُ بَعْضِهِمْ : وَجَعَلَ سَيِّدَنَا آخِذًا مِنْ كُلِّ مَا دُعِيَ وَيُدْعَى بِهِ فِي ٱلْاَعْيَادِ بِاَجْزَلِ ٱلْاَقْسَامِ وَاَوْفَرِ ٱلْاَعْدَادِ

وَقَدْ تُسَمَّى ٱسْتِعَارَتُكَ ٱلْاَنْصَافَ وَٱلْاَبْيَاتَ مِنْ شِعْرِ غَيْرِكَ وَاِدْخَالُكَ اِيَّاهُ فِي اَثْنَاءِ قَصِيدَتِكَ تَضْمِينًا . وَبَاقِي كَلَامِهِ يَتَضَمَّنُ صِفَةَ ٱلْمُتَكَلِّمِ لَا صِفَةَ ٱلْكَلَامِ اِلَّا قَوْلَهُ :(وَيَكُونَ تَصَفُّحُهُ لِمَوَارِدِهِ بِقَدْرِ تَصَفُّحِهِ لِمَصَادِرِهِ) وَسَنَأْتِي عَلَى ٱلْكَلَامِ فِي هٰذَا وَنَسْتَقْصِيهِ فِي فَصْلِ ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَبَادِئِ



البحث الثاني

في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

اَمَّا ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَفْعَلُ ٱلتَّصْدِيقَاتِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَمِنْهَا مَا هِيَ صِنَاعِيَّةٌ وَتِلْكَ هِيَ ٱلَّتِي وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا وَنَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا. وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ صِنَاعِيَّةٍ وَهِيَ ٱلَّتِي لَيْسَ وُجُودُهَا لِٱخْتِيَارِنَا وَرَوِيَّتِنَا مِثْلُ ٱلشُّهُودِ وَٱلتَّعْذِيبِ وَٱلْعُقُودِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ ٱلَّتِي نَحْنُ ٱلْفَاعِلُونَ لَهَا مِنْهَا اَشْيَاءُ قَدْ تَقَدَّمَ غَيْرُنَا فَصَنَعَهَا مِثْلَ ٱلِٱحْتِجَاجِ بِٱلْاَمْثَالِ ٱلسَّائِرَةِ ٱلَّتِي قَدْ وُضِعَتْ وَٱشْتُهِرَتْ وَمِنْهَا مَا نَخْتَرِعُهَا نَحْنُ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْاِقْنَاعُ وَنَسْتَنْبِطُهَا. فَاَمَّا ٱلتَّصْدِيقَاتُ ٱلَّتِي نَفْعَلُهَا نَحْنُ وَنَخْتَرِعُهَا فَهِيَ ثَلَاثَةُ اَنْوَاعٍ: (اَحَدُهَا) اِثْبَاتُ ٱلْمُتَكَلِّمِ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا اَهْلًا اَنْ يُصَدَّقَ وَاَنْ يَكُونَ عِنْدَ ٱلتَّكَلُّمِ بِهَيْئَةٍ فِي وَجْهِهِ وَاَعْضَائِهِ شَأْنُهَا اَنْ تُوقِعَ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلْمُتَكَلَّمِ فِيهِ مِثْلَ ٱلتُّؤَدَةِ وَٱلْوَقَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. وَٱلْفَضِيلَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هِيَ ٱلَّتِي يَعْنِي اَرِسْطُو بِٱلْكَيْفِيَّةِ. وَٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي شَأْنُهَا هٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يَعْنِي بِٱلسَّمْتِ. وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ لِلْفَضِيلَةِ تَأْثِيرًا فِي ٱلتَّصْدِيقِ اَنَّ ٱلصَّالِحِينَ ٱلْفَاضِلِينَ يُصَدَّقُونَ سَرِيعًا

دُونَ قَوْلٍ يَتَكَلَّفُونَهُ فِي ٱلشَّيْءِ. وَإِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلظَّاهِرَةِ لِلْحِسِّ ٱلَّتِي يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ أَحَسُّوهَا مِثْلُ قَوْلِهِمْ: إِنَّهُ شَرِبَ أَوْ قَتَلَ. فَأَمَّا إِخْبَارُهُمْ عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْخَفِيَّةِ عِنْدَ ٱلْحِسِّ وَهِيَ ٱلَّتِي يُظَنُّ أَنَّهُ خَفِيَ عَنْهُمْ مَا أَحَسُّوا مِنْ ذٰلِكَ أَوْ وَهِمُوا فِيهِ إِذَا كَانَ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ مُمْكِنًا أَنْ يَهِمَ فِيهِ ٱلْحِسُّ فَلَيْسَ يُصَدِّقُونَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَدَّعُونَهَا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ دُونَ أَن يَسْتَعْمِلُوا فِي تَثْبِيتِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْقَوْلَ. وَعَلَيْهِ قَدْ أَخْطَأَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي ٱلْخِطَابَةِ فَذَهَبُوا إِلَى أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْأَنَاةَ إِنَّمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِي بَابِ ٱلْإِنْفِعَالِ فَقَطْ. وَأَمَّا (ٱلصَّنْفُ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِي يَكُونُ بِأَنْ يَكْسِبَ ٱلسَّامِعُ بِٱلْقَوْلِ ٱنْفِعَالًا مَا يُوجِبُ لَهُ ٱلتَّصْدِيقَ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْقَوْلُ. فَإِنَّهُ لَيْسَ تَصْدِيقُنَا بِٱلشَّيْءِ وَإِقْرَارُنَا بِهِ وَنَحْنُ فِي حَالِ ٱلْفَرَحِ أَوِ ٱلْحُزْنِ تَصْدِيقًا وَاحِدًا. وَكَذٰلِكَ إِذَا كُنَّا فِي حَالِ ٱلسُّخْطِ عَلَى ٱلشَّيْءِ أَوْ حَالِ ٱلرِّضَا عَنْهُ. وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكَلَّمَ فِيهَا أُولَائِكَ ٱلَّذِينَ ذَكَرْنَا أَنَّهُمْ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا (ٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنْ هٰذِهِ ٱلتَّصْدِيقَاتِ) فَهُوَ تَثْبِيتُ ٱلشَّيْءِ بِٱلْكَلَامِ ٱلْمُقْنِعِ أَوْ مَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مُقْنِعٌ وَذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْجُزْئِيَّةِ ٱلَّتِي تُقْنِعُ فِيهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ. وَإِذَا كَانَتِ ٱلتَّصْدِيقَاتُ إِنَّمَا تَكُونُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ ٱلَّذِي يَقْدِرُ أَنْ يُقْنِعَ ٱلْإِقْنَاعَ ٱلْمُمْكِنَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِنَّمَا هُوَ ٱلَّذِي يَكُونُ عَالِمًا بِثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: (أَوَّلُهَا) مَعْرِفَةُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُقْنِعَةِ. (وَثَانِيهَا)

مَعرِفَةُ ٱلأَخلَاقِ وَٱلفَضَائِلِ . (وَثَالِثُهَا) مَعرِفَةُ ٱلِانفِعَالَاتِ (١) وَذٰلِكَ بِأَن يَعرِفَ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلِانفِعَالَاتِ مَا هُوَ وَمِن أَيِّ شَيءٍ يَكُونُ وَمَتَى يَكُونُ وَكَيفَ يَكُونُ . وَإِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ كَأَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِن صِنَاعَةِ ٱلكَلَامِ وَٱلصِّنَاعَةِ ٱلخُلقِيَّةِ أَعنِي ٱلمَدَنِيَّةَ . وَإِنَّمَا لَم يُوجَد لِمَن تَقَدَّمَ قَولٌ مُستَوفٍ فِي أَجزَائِهَا إِمَّا مِن قِبَلِ جَهلِهِم وَإِمَّا مِن قِبَلِ أَنَّهُم ضَنُّوا عَلَى غَيرِهِم وَبَخِلُوا عَلَيهِم بِمَا وَقَفُوا عَلَيهِ مِن ذٰلِكَ لِمَكَانِ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي مِن خَارِجٍ . فَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هِيَ جُزءٌ مِن صِنَاعَةِ ٱلمَنطِقِ وَهِيَ شَبِيهَةٌ بِٱلجَدَلِ فِي أَنَّهَا تَنظُرُ فِي كِلَا ٱلمُتَقَابِلَينِ وَفِي أَنَّهُمَا لَيسَا يَنظُرَانِ فِي شَيءٍ مَحدُودٍ نَظَرًا يَبلُغَانِ بِهِ ٱليَقِينَ لٰكِن إِنَّمَا يَبلُغَانِ مِنَ ٱلنَّظَرِ مَا دُونَ ٱليَقِينِ

---

(١) هذا التقسيم قد اخذهُ عن ارسطاطاليس كل من تكلموا في الخطابة . وناهيك بهِ من تقسيم يفي بالمقصود ويشمل كل اجزاء الخطابة والفرنج يدعون هذه الاقسام الثلاثة (Preuves, mœurs oratoires, passions)



الفصل الثالث

في الاقاويل المقنعة

البحث الاوَّل

في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة ٱلقياس وعلم المنطق

(من تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الخطابة لابن رشد)

مِنْ اَجلِ اَنَّهُ معلومٌ انَّ ٱلاَشياءَ ٱلمَنسوبةَ اِلى هٰذِهِ ٱلصِناعةِ اِنَّما يُقصَدُ بِها ٱلتَّصدِيقُ وَٱلاعترافُ مِنَ ٱلمُخاطِبِ بِالشَّيْءِ ٱلَّذي فيهِ ٱلدَّعوى وَذٰلِكَ لا يَكُونُ اِلّا بتَثبيتِ ٱلشَّيْءِ عِندَ ٱلمُعترِفِ بِهِ. وَذٰلِكَ اَنّا اِنَّما نَعترِفُ بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذي رَاَينا اَنَّهُ قَدْ ثَبتَ عِندَنا وَٱلشَّيْءُ ٱلَّذي تَثبُتُ بِهِ ٱلاَشياءُ عَلى طَريقِ ٱلخَطابَةِ هُوَ ٱلضَّمِيرُ (١) لِاَنَّ هٰذا هُو اَصلُ ٱلتَّصديقِ وَعَمُودُهُ فِي ٱلاُمورِ ٱلَّتي تُوقِعُ هٰذا ٱلنَّحوَ مِنَ ٱلتَّصدِيقِ اَعنِي ٱلتَّصدِيقَ ٱلبلاغِيَّ. وَٱلضَّمِيرُ هُوَ نَوعٌ مِنَ ٱلقِياسِ وَمَعرِفَةُ ٱلقِياسِ جُزءٌ مِنْ صِناعَةِ ٱلمَنطِقِ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ صاحِبُ ٱلمَنطِقِ هُوَ ٱلَّذي يَنظُرُ فِي هٰذِهِ ٱلصِناعَةِ اِمّا فِي كُلِّها وَاِمّا فِي اَجزاءٍ مِنها. وَبَيِّنٌ اَنَّ ٱلَّذي يَعرِفُ ٱلقِياسَ مِن كَمْ شَيْءٍ يَلتَئِمُ وَيَكُونُ وَمَتى يَكُونُ فَهُوَ اَقدَرُ عَلى عَمَلِ ٱلضَّمِيرِ مِمَّنْ يَعرِفُ ٱلضَّمِيرَ فَقَطْ دُونَ اَنْ

---

(١) يريد بالضمير القياس الاضماري (Enthymème) وهو القياس الذي قدّرت احدى مقدّمتيهِ امّا الكبرى وامّا الصغرى

نعرفَ ٱلقياسَ ٱلّذي هُوَ جنسُهُ . وٱلّذي يَزِيدُ على هٰذا فيعلمُ لماذا تُعمَلُ ٱلضمائرُ وٱلفصولُ ٱلّتي بينَ ٱلضميرِ وبينَ سائرِ ٱلمقاييسِ ٱلّتي تُستَعمَلُ في ٱلصنائعِ ٱلأُخَرِ فهوَ أقدرُ من ذينكَ . وٱلمعرفةُ بهذا كلّهِ إنّما هوَ لصناعةِ ٱلمنطقِ . فإنّ للقوّةِ ٱلواحدةِ بعينها أعني للصناعةِ ٱلواحدةِ بعينها أن تعرفَ ٱلشيءَ ٱلّذي هوَ حقٌّ وٱلّذي هوَ شبيهٌ بٱلحقِّ وٱلتصديقاتُ ٱلخطبيّةُ وإن لم تكن حقًّا فهي شبيهةٌ بٱلحقِّ وأيضًا فإنّ ٱلناسَ متهيّئونَ بطبيعتهم كلَّ ٱلتهيئةِ نحوَ ٱلوقوفِ على ٱلحقِّ نفسهِ . وهم أكثرُ ذلكَ يؤمّونهُ ويفعلونَ عنهُ . وٱلمحمودات وهي ٱلّتي تكونُ منها ٱلضمائرُ شبيهةٌ بٱلحقِّ من قبلِ أنّها نائبةٌ عندَ ٱلجمهورِ منابَ ٱلحقِّ . وٱلشبيهُ بٱلحقِّ قد يدخلُ في علمِ ٱلحقِّ ٱلّذي هوَ علمُ ٱلمنطقِ . وإذا كانَ ٱلأمرُ هكذا فقدِ ٱستبانَ أنّ قصورَ هؤلاءِ فيما تكلّموا فيهِ من أمرِ ٱلخطابةِ إنّما كانَ من أجلِ أنّهُ لم يكن عندهم علمٌ بٱلمنطقِ وأنّ سائرَ من تكلّمَ في ٱلخطابةِ ومن يستعملُ ٱلأقاويلَ ٱلخطبيّةَ فقط من غيرِ أن يتقدّموا فيعرفوا هٰذهِ ٱلأشياءَ ٱلّتي هي عمودُ ٱلبلاغةِ إنّهم إنّما يتكلّمونَ في أشياءَ تجري منَ ٱلبلاغةِ مجرى ٱلتزيينِ وٱلتنسيقِ ٱلّذي يكونُ في ظاهرِ ٱلشيءِ وصفحتهِ لا في ٱلأشياءِ ٱلّتي تتنزّلُ منها منزلةَ ما بهِ قوامُ ٱلشيءِ ووجودُهُ وإن كانَ قد يُظَنُّ بما فعلوا من ذلكَ أنّهم قد بلغوا ٱلغايةَ منَ ٱلأقاويلِ ٱلإقناعيّةِ وجروا في ذلكَ على طريقِ ٱلصوابِ وٱلعدلِ

البحث الثاني

في الطريق اي الدليل وتقسيمه (*)

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

(راجع صفحة ١١ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلطَّرِيقُ هُوَ ٱلْمُوَصِّلُ إِلَى ٱلْمَقْصُودِ وَحَدُّهُ هُوَ مَا يُمْكِنُ ٱلتَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ ٱلنَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ . وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِدْرَاكُ إِمَّا تَصَوُّرًا أَوْ تَصْدِيقًا فَكَذَا ٱلْمَطْلُوبُ . فَإِنْ كَانَ تَصَوُّرًا سُمِّيَ طَرِيقُهُ مُعَرِّفًا وَإِنْ كَانَ تَصْدِيقًا سُمِّيَ دَلِيلًا وَهُوَ يَشْمَلُ ٱلظَّنِّيَّ وَٱلْقَطْعِيَّ وَقَدْ يُخَصُّ بِٱلْقَطْعِيِّ . وَيُسَمَّى ٱلظَّنِّيُّ إِمَارَةً وَقَدْ يُخَصُّ بِمَا يَكُونُ مِنَ ٱلْمَعْلُولِ عَلَى ٱلْعِلَّةِ وَيُسَمَّى عَكْسُهُ تَعْلِيلًا

شرح هذه المقالة للسيد الجرجاني

(*) قال : (الطريق) اي ما يقع فيه النظر (وهو الموصل الى المقصود) بتوسط النظر .(وحدُّه) اي تحديده وتقسيمه الى اقسامه الاولية (هو) اي الطريق (ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيهِ الى مطلوب) اعتبر الامكان لان الطريق لا يخرج عن كونه طريقاً بعدم التوصل بل يكفيه امكانهُ . وقيَّد النظر بالصحيح لان الفاسد لا يستلزم المطلوب فلا يمكن ان يتوصل بهِ اليهِ اذ ليس في نفسه وسيلة لهُ . واراد بالنظر فيهِ ما يعمُّ النظر في نفسهِ والنظر في احواله ليتناول المفرد الذي من شانه انه اذا نظر في احواله اوصل الى المطلوب كالعالم مثلًا فانه يسمى عندهم دليلًا . ويتناول ايضًا التصورات المتعددة غير مأخوذة مع الترتيب وحينئذٍ يلزم تناولهُ للمقدمات اذ لم تؤخذ مع ترتيبها . واطلق المطلوب

البحث الثالث

في المواضع

(عن تلخيص كتاب ارسطو في الخطابة لابن رشد)

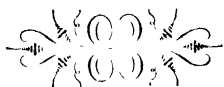
(راجع صفحة ٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

(قَالَ) كُلَّ مَا كَانَ ٱلْقَوْلُ اَكْثَرَ عُمُومًا كَانَ اَكْثَرَ مُؤَاتَاةً وَتَاتِيهَا لِاَنْ يُسْتَعْمَلُ فِي اَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ . وَكُلَّمَا كَانَ اَقَلَّ عُمُومًا كَانَ اَحْرَى اَنْ يَكُونَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ مَخْصُوصَةٍ . وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْمَوَاضِعُ مِنَ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ وَٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْجَدْلِيَّةِ . وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْمَوَاضِعَ تُوجَدُ تَعُمُّ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَنْطِقِيَّةَ وَٱلطَّبِيعِيَّةَ وَٱلسِّيَاسِيَّةَ اَعْنِي ٱلْاِرَادِيَّةَ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْاَقَلِّ وَٱلْاَكْثَرِ (*) فَاِنَّهَا لَيْسَ

(*) يريد بمواضع الاقل والاكثر المقابلة في غير الاضداد (راجع الجزء الثاني من علم الادب صفحة ٢٩

ليتناول المطلوب التصوري والتصديقي . (ولما كان الادراك اما تصورًا او تصديقًا فكذا المطلوب) الادراكي الذي يطلب بالنظر . (فان كان) المطلوب (تصورًا سمي طريقهُ) الذي يمكن ان يتوصل بالنظر فيه اليهِ (معرفًا) . (وان كان) المطلوب (تصديقًا سمي) طريقهُ (دليلًا وهو) اي الدليل بالمعنى المذكور (يشمل الظني) الموصل الى الظن كالغيم الرطب الموصل الى ظن المطر . (والقطعي) الموصل الى الجزم والقطع كالعالم الموصل الى العلم بوجود الصانع . (وقد يخص) الدليل (بالقطعي) . (ويسمى الظني امارة وقد يخص) الدليل ايضًا مع التخصيص الاول (بما يكون الاستدلال فيهِ (من المعلول) كالحمى (على العلة) كتعفن الاخلاط ويسمى هذا برهانًا انيًا (ويسمى عكسه) وهو ما يستدل فيهِ من العلة على المعلول (تعليلًا) وبرهانًا لميًا

تُعمَلُ مِنهَا ٱلمَقَايِيسُ فِي صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا بَلْ فِي جَمِيعِهَا اِذْ كَانَتْ لَا تُستَعمَلُ نَفسُهَا وَاِنَّمَا تُستَعمَلُ قُوَّتُهَا. وَامَّا ٱلأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلمُقَدَّمَاتُ ٱلخَاصَّةُ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلجُزْئِيَّةِ مِثلُ ٱلمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تُعمَلُ مِنهَا ٱلمَقَايِيسُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ فَاِنَّهَا لَا تُعمَلُ مِنهَا ٱلمَقَايِيسُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلخُلُقِيَّةِ وَلَا ٱلَّتِي فِي ٱلأُمُورِ ٱلخُلُقِيَّةِ تُعمَلُ مِنهَا ٱلمَقَايِيسُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ. وَاِذَا كَانَ ٱلأَمْرُ هٰكَذَا فَاِذَنِ ٱلمَوَاضِعُ لَا يُؤَلَّفُ مِنهَا قِيَاسٌ فِي صِنَاعَةٍ مَخصُوصَةٍ اِذْ مَا يُتَصَوَّرُ مِنهَا هُوَ عَامٌّ لِأَكْثَرَ مِنْ صِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ. وَامَّا ٱلأَنْوَاعُ فَهِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنهَا ٱلمَقَايِيسُ ٱلَّتِي تَلتَئِمُ مِنهَا ٱلصِّنَاعَةُ ٱلَّتِي تِلْكَ ٱلأَنْوَاعُ مَخصُوصَةٌ بِهَا. لٰكِنَّ ٱلأَنْوَاعَ ٱلَّتِي نَحنُ عَازِمُونَ فِي هٰذَا ٱلكِتَابِ عَلَى ذِكرِهَا لَيسَتْ هِيَ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةً لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لَكَانَتِ ٱلمَقَايِيسُ ٱلخُطَبِيَّةُ مَقَايِيسَ يَقِينِيَّةً وَلَمْ تَكُنْ مَقَايِيسَ جَدَلِيَّةً فَضلًا عَنْ خُطَبِيَّةٍ. وَٱلضَّمَائِرُ ٱلمَعمُولَةُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَكْثَرُ ذٰلِكَ اِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَنْوَاعِ مَا كَانَ مِنهَا خَاصًّا بِجِنْسٍ جِنْسٍ مِنْ اَجنَاسِ ٱلخِطَابَةِ ٱلثَّلَاثَةِ وَمَا كَانَ مِنهَا عَامًّا لِلأَجنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي تُحَدَّدُ بَعدُ



البحث الرابع

في التعريف والحد والرسم

(من كتاب الشفاء لابن سينا والمواقف للايجي وغيرهما)

(راجع صفحة ١٤ من علم الخطابة)

اَلتَّعْرِيفُ عِنْدَ اَهْلِ اَلْعَرَبِيَّةِ هُوَ جَعْلُ اَلذَّاتِ مُشَارًا بِهَا اِلَى خَارِجٍ اِشَارَةً وَضْعِيَّةً وَيُقَابِلُهَا اَلتَّنْكِيرُ. وَعِنْدَ اَلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ الطَّرِيقُ اَلْموصِلُ اِلَى اَلْمَطْلُوبِ اَلتَّصَوُّرِيِّ وَيُسَمَّى مُعَرِّفًا وَقَوْلًا شَارِحًا اَيْضًا وَيُسَمَّى حَدًّا اَيْضًا عِنْدَ اَلْاُصُولِيِّينَ. وَذَلِكَ اَلْمَطْلُوبُ اَلتَّصَوُّرِيُّ يُسَمَّى مُعَرَّفًا وَمَحْدُودًا. وَبِالْجُمْلَةِ فَالْمُعَرِّفُ مَا يُكْتَسَبُ بِهِ اَلتَّصَوُّرُ فَخَرَجَ مَا يَحْصُلُ بِطَرِيقِ اَلْحَدْسِ وَمَا يَحْصُلُ مِنَ اَلْمَلْزُومَاتِ اَلْبَيِّنَةِ مِنَ اَلْعِلْمِ بِاللَّوَازِمِ فَاِنَّ اَلْاِكْتِسَابَ اِنَّمَا هُوَ بِالنَّظَرِ. وَقَالَ اَلْمَنْطِقِيُّونَ: لَا بُدَّ فِي اَلْمُعَرِّفِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ اَلْمُمَيِّزُ ذَاتِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ حَدًّا وَاِنْ كَانَ عَرَضِيًّا سُمِّيَ اَلْمُعَرِّفُ رَسْمًا. وَقَالَ اَلْمُتَقَدِّمُونَ: اِنَّ اَلرَّسْمَ مِنْهُ تَامٌّ يُمَيِّزُ اَلْمَرْسُومَ مِنْ كُلِّ مَا يُغَايِرُهُ وَهُوَ يَتَرَكَّبُ مِنَ اَلْجِنْسِ اَلْقَرِيبِ وَالْخَاصَّةِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالْحَيَوَانِ اَلضَّاحِكِ. وَمِنْهُ نَاقِصٌ يُمَيِّزُهُ عَنْ بَعْضِ مَا يُغَايِرُهُ وَيَكُونُ بِالْخَاصَّةِ وَحْدَهَا اَوْ بِهَا وَبِالْجِنْسِ اَلْبَعِيدِ كَتَعْرِيفِ اَلْاِنْسَانِ بِالضَّاحِكِ اَوْ بِالْجِسْمِ اَلضَّاحِكِ اَوْ بِعَرَضِيَّاتٍ تَخْتَصُّ جُمْلَتُهَا بِحَقِيقَةٍ وَاحِدَةٍ كَقَوْلِنَا فِي

تَعْرِيفِ ٱلْإِنْسَانِ : إِنَّهُ مَاشٍ عَلَى قَدَمَيْهِ عَرِيضُ ٱلْأَظْفَارِ بَادِي ٱلْبَشَرَةِ مُسْتَقِيمُ ٱلْقَامَةِ ضَحَّاكٌ بِٱلطَّبْعِ . وَصَرَّحُوا بِأَنَّ ٱلْمُسَاوَاةَ شَرْطٌ لِجُودَةِ ٱلرَّسْمِ وَجَوَّزُوا ٱلرَّسْمَ بِٱلْأَعَمِّ وَٱلْأَخَصِّ وَأَيَّدَ ذٰلِكَ بِأَنَّ ٱلْمُعَرِّفَ لَا بُدَّ أَنْ يُفِيدَ ٱلتَّمَيُّزَ عَنْ بَعْضِ ٱلْأَغْيَارِ كَمَا يَقْتَضِيهِ تَعْرِيفُهُمْ لِلْمُعَرِّفِ بِمَا يَسْتَلْزِمُ مَعْرِفَتَهُ . فَإِنَّ ٱلْمَعْرِفَةَ تَقْتَضِي ٱلتَّمْيِيزَ فِي ٱلْجُمْلَةِ . وَأَمَّا ٱلتَّمْيِيزُ عَنْ جَمِيعِهَا فَلَيْسَ بِشَرْطٍ لِأَنَّ ٱلتَّصَوُّرَاتِ ٱلْمُكْتَسَبَةَ كَمَا قَدْ تَكُونُ بِوَجْهٍ خَاصٍّ بِٱلشَّيْءِ إِمَّا ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ كَذٰلِكَ تَكُونُ بِوَجْهٍ عَامٍّ ذَاتِيٍّ أَوْ عَرَضِيٍّ . فَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ كَاسِبُ كُلٍّ مِنْهُمَا مُعَرِّفًا فَٱلْمُسَاوَاةُ شَرْطٌ لِلْمُعَرِّفِ ٱلتَّامِّ دُونَ غَيْرِهِ حَدًّا كَانَ أَوْ رَسْمًا

قَالَ ٱلْإِيجِيُّ : (*) ٱلْمُعَرِّفُ تَجِبُ مَعْرِفَتُهُ قَبْلَ ٱلْمُعَرَّفِ فَيَكُونُ غَيْرَهُ أَوْ أَجْلَى مِنْهُ فَلَا يُعَرَّفُ بِمَا لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِهِ بِمَرْتَبَةٍ أَوْ أَكْثَرَ .

شرح مقالة الايجي للجرجاني

يقول : (المعرِّف تجب معرفتهُ قبل) معرفة (المعرَّف) لان معرفتهُ طريقٌ الى معرفتهِ وسببٌ لها فلا بد ان تتقدمها . (فيكون غيرهُ) اذ لو كان عينه لزم كون الشيء معلومًا قبل ان يكون معلومًا (او) يكون ايضًا (اجلى منه) اذ لو ساواه في الجلاء او كان اخفى منهُ لم يكن معلومًا قبله . (فلا يعرَّف) هذا تفريع على كونه اجلى اي لا يعرَّف الشيء (بما لا يُعرَف الا بهِ) فانه لا يكون اجلى منه سواء توقف معرفته على معرفته (بمرتبة) واحدة ويسمى دورًا صريحًا كقولك : الشمس كوكب نهاري والنهار زمان كون الشمس طالعة . (او اكثر) ويسمى دورًا مضمرًا كقولك : الحركة خروج الشيء من القوة الى الفعل بالتدريج والتدريج وقوع الشيء في زمان والزمانُ مقدار الحركة . (ولا بد) اشارةٌ الى شرط آخر للمعرِّف اي لا بد من (ان يساويه في العموم والخصوص ليحصل) بهِ (التميز) . (اذ لولاه)

وَلَا بُدَّ اَنْ يُسَاوِيَهُ فِي ٱلْعُمُومِ وَٱلْخُصُوصِ لِيَحْصُلَ ٱلتَّمَيُّزُ اِذْ لَوْلَاهُ لَدَخَلَ فِيهِ غَيْرُ ٱلْمُعَرَّفِ فَلَمْ يَكُنْ مَانِعًا وَمُطَّرِدًا . اَوْ خَرَجَ عَنْهُ بَعْضُ اَفْرَادِهِ فَلَمْ يَكُنْ جَامِعًا وَمُنْعَكِسًا وَلَا بُدَّ فِيهِ مِنْ مُمَيِّزٍ فَاِنْ كَانَ ذَاتِيًّا سُمِّيَ حَدًّا وَاِلَّا سُمِّيَ رَسْمًا . وَعَلَى ٱلتَّقْدِيرَيْنِ فَاِنْ ذُكِرَ فِيهِ تَمَامُ ٱلذَّاتِيِّ ٱلْمُشْتَرَكِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ غَيْرِهِ ٱلْمُسَمَّى بِٱلْجِنْسِ ٱلْقَرِيبِ فَتَامٌّ وَاِلَّا فَنَاقِصٌ . وَٱلْمُرَكَّبُ يُحَدُّ دُونَ ٱلْبَسِيطِ فَاِنْ تَرَكَّبَ عَنْهُمَا غَيْرُهُمَا حُدَّ بِهِمَا وَاِلَّا فَلَا . وَكُلُّ كَسْبِيٍّ لَهُ خَاصَّةٌ بَيِّنَةٌ يُرْسَمُ وَاِلَّا فَلَا.

اي لو لا كونهُ مساويًا (لدخل فيه غير المعرَّف) على تقدير كونه اعمَّ مطلقًا او من وجه (فلم يكن مانعًا) من دخول غير المعرف فيهِ (و) لا (مطردًا) وهو ان يكون بحيث كلما صدق على شيء صدق عليهِ المعرَّف ايضًا. (او خرج عنهُ بعض افراده) على تقدير كونه اخص اما مطلقًا او من وجه (فلم يكن جامعًا) لجميع افراد المعرَّف (و) لا (منعكسًا) وهو ان يكون بحيث يصدق على كل ما صدق عليه المعرَّف. واعلم ان اشتراط المساواة في الصدق ما ذهب اليهِ المتأخرون اذ حينئذٍ يحصل التمييز التام بحيث يمتاز جميع افراد المعرف عن جميع ما عداها ولا يلتبس شيء منها بغيرها... (ولا بد فيهِ) اي في المعرِّف (من مميز مساوٍ للمعرَّف (فان كان) المميز (ذاتيًا سمي) المعرِّف (حدًّا) (والا سمي رسمًا. وعلى التقديرين فان ذكر فيهِ تمام الذاتي المشترك بينهُ وبين غيره المسمى بالجنس القريب فتامٌّ) إمّا حد تامٌّ مركب من الجنس والفصل القريبين واما رسم تام مركب من الخاصة والجنس القريب. (والا فناقص) اما حد ناقص سواء كان بالفصل وحده او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوّز اخذه في الحد. واما رسم ناقص بالخاصة وحدها او مع الجنس البعيد او العرض العام عند من يجوز اخذهُ في الرسم. (والمركب) اذا لم يكن بديهيَّ التصور (يحد) باجزائه حدًّا تامًا وناقصًا (دون البسيط) فانه لا يمكن تحديده اذ لا جزء لهُ (فان تركب عنهما) عن المركب والبسيط (غيرهما) ولا يكون ذلك الغير بديهي التصور (حدَّ بهما والا فلا) يحد بهما اذ لم يقعا جزء الشيء (وكل) متصور (كسبي) مركب او بسيط (لهُ خاصة) شاملة لازمة (بينة) بحيث يكون تصورها

فَإِنْ كَانَ مُرَكَّبًا أَمْكَنَ رَسْمُهُ ٱلتَّامُّ وَإِلَّا فَٱلنَّاقِصُ. وَهٰهُنَا نَوْعَانِ آخَرَانِ مِنَ ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْأَوَّلُ بِٱلْمِثَالِ وَهُوَ بِٱلْحَقِيقَةِ تَعْرِيفٌ بِٱلْمُشَابَهَةِ. فَإِنْ كَانَتْ مُفِيدَةً لِلتَّمْيِيزِ فَهِيَ خَاصَّةٌ فَيَكُونُ رَسْمًا نَاقِصًا وَإِلَّا لَمْ تَصْلُحْ لِلتَّعْرِيفِ. وَٱلثَّانِي ٱلتَّعْرِيفُ ٱللَّفْظِيُّ وَهُوَ أَنْ لَا يَكُونَ ٱللَّفْظُ

مستلزمًا لتصوره (يرسم. والا) اي وان لم تكن لهُ خاصة كذلك (فلا) يرسم. (فان كان) ذلك الكسبي الذي له تلك الخاصة (مركبًا امكن رسمه التام) بتركيب جنسه القريب مع خاصته (والا فالناقص. وههنا نوعان آخران من التعريف الاول) التعريفَ (بالمثال) سواء كان جزئيًا للمعرَّف كقولك الاسم كزيد والفعل كضرب او لا يكون جزئيًا له كقولك: العلم كالنور والجهل كالظلمة. (وهو بالحقيقة تعريف بالمشابهة) التي بين ذلك المعرَّف وبين المثال. (فان كانت) تلك المشابهة (مفيدة للتميز فهي خاصة) لذلك المعرَّف (فيكون) التعريف بها (رسمًا ناقصًا) داخلًا في الاقسام الاربعة المذكورة للمعرَّف (والّا) اي وان لم تكن تلك المشابهة مفيدة للتمييز (لم تصلح التعريف) بها فليس التعريف بالمثال قسيمًا على حدة. ولما كان استيناس العقول القاصرة بالامثلة اكثر شاع في مخاطبات المتعلمين التعريفات بها. (والثاني التعريف اللفظي. وهو ان لا يكون اللفظ واضح الدلالة) على معنى (فيفسَّر بلفظ اوضح دلالة) على ذلك المعنى كقولك: الغضنفر الاسد. وليس هذا تعريفًا حقيقيًا يراد بهِ افادة تصور غير حاصل. انما المراد تعيين ما وضع له لفظ الغضنفر من بين سائر المعاني ليلتفت اليهِ ويعلم انهُ موضوع بازائهِ. فمآلهُ الى التصديق وهو طريقة اهل اللغة وخارج عن المعرَّف الحقيقي واقسامهِ الاربعة التي ذُكرت. وحقهُ ان يكون بالفاظ مفردة مرادفة فان لم يوجد ذُكر مركبٌ يقصد بهِ تعيين المعنى لا تفصيلهُ. واعلم ان التعريف الحقيقي الذي يقصد بهِ تحصيل ما ليس بحاصل من التصورات ينقسم الى قسمين: احدهما ما يقصد بهِ تصور مفهومات غير معلومة الوجود في الخارج ويسمى تعريفًا بحسب الاسم. فاذا عُلم مثلًا مفهوم الجنس اجمالًا واريد تصورهُ بوجه اكمل فان فصل نفس مفهومهِ باجزائه كان ذلك حدًّا له اسميًا. وان ذكر في تعريفه عوارضه كان ذلك له رسمًا اسميًّا. والثاني ما يقصد بهِ تصور حقائق موجودة ويسمى تعريفًا بحسب الحقيقة اما حدًّا او رسمًا...

وَاضِحِ ٱلدَّلَالَةِ فَيُفَسَّرَ بِلَفْظٍ اَوْضَحَ دَلَالَةً. ثُمَّ اِنَّهُ يُقَدَّمُ فِي ٱلتَّعْرِيفِ ٱلْاَعَمُّ وَيُحْتَرَزُ عَنِ ٱلْاَلْفَاظِ ٱلْغَرِيبَةِ ٱلْوَحْشِيَّةِ وَعَنِ ٱلْمُشْتَرَكِ وَٱلْمَجَازِ بِلَا قَرِينَةٍ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَعَنْ كُلِّ لَفْظٍ غَيْرِ ظَاهِرِ ٱلدَّلَالَةِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ

البحث الخامس

في الكلي والجزئي

(من كتاب الشفاء لابن سينا وتعريفات السيد الجرجاني وشرح الشمسيّة

(راجع صفحة ١٦ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْكُلِّيُّ عِنْدَ ٱلْمَنْطِقِيِّينَ هُوَ ٱلْمَفْهُومُ ٱلَّذِي لَا يَمْنَعُ تَصَوُّرُهُ مِنْ وُقُوعِ شَرِكَةِ كَثِيرِينَ فِيهِ بِحَيْثُ يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ اِلَى اَجْزَاءٍ. وَٱلْمُعْتَبَرُ فِي ٱلْكُلِّيِّ اِمْكَانُ فَرْضِ صِدْقِهِ عَلَى كَثِيرِينَ سَوَاءٌ كَانَ صَادِقًا اَوْ لَمْ يَكُنْ وَسَوَاءٌ فَرَضَ ٱلْعَقْلُ صِدْقَهُ اَوْ لَمْ يَفْرِضْ قَطُّ. وَيُقَابِلُهُ

(ثم انهُ يقدم في التعريف الاعم) لكونه اظهر عند العقل فتقديمهُ اولى ولان الاخص قيد لهُ مخصّص اياه فكان تقديمه عليه انسب وما يقال من انه واجب في الحد التام محصل لجزئه الصوري حتى اذا أُخّر الجنس فيه كان حدًّا ناقصاً فليس بشيء اذ ليس للحد التام جزء خارج عن اجزاء الماهية المحصرة في الجنس والفصل. (ويحترز) فيه (عن الالفاظ الغريبة الوحشية) التي لا يفهم السامع معناها فيحتاج الى تفسيرها فتطول المسافة ولذلك ما يختلف بالقياس الى السامعين فان اصطلاحات كل قوم مشهورة عند اربابها غريبة عند غيرهم. (وعن المشترك والمجاز بلا قرينة) ظاهرة فيتردد السامع حينئذٍ في المشترك بين المصور وغيره ويتبادر ذهنه في المجاز الى غيرهِ. (وبالجملة فمن كل لفظ غير ظاهر الدلالة على المقصود) وذلك لانه بصدد الاظهار والتوضيح فلا بد من ظهور الدلالة

اَلْجُزْئِيُّ وَهُوَ ٱلْمَفْهُومُ مِمَّا يَتَرَكَّبُ مِنْهُ وَمِنْ غَيْرِهِ شَيْءٌ سَوَاءٌ كَانَ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ فِي ٱلْعَقْلِ. وَلِلْكُلِّيِّ تَقْسِيمَاتٌ فَهُوَ اِمَّا حَقِيقِيٌّ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَّ تَحْدِيدُهُ. وَاِمَّا اِضَافِيٌّ وَهُوَ مَا ٱنْدَرَجَ تَحْتَهُ شَيْءٌ آخَرُ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ وَهُوَ اَخَصُّ مِنَ ٱلْكُلِّيِّ ٱلْحَقِيقِيِّ. وَٱلْكُلِّيُّ اَيْضًا اِمَّا جِنْسٌ اَوْ نَوْعٌ اَوْ فَصْلٌ اَوْ خَاصَّةٌ اَوْ عَرَضٌ عَامٌّ. وَيُقْسَمُ اَيْضًا اِلَى كُلِّيٍّ طَبِيعِيٍّ اَوْ عَقْلِيٍّ عَلَى حَسَبِ مَا يَكُونُ مَوْجُودًا فِي ٱلْخَارِجِ اَوْ يَفْتَرِضُهُ ٱلْعَقْلُ وَٱعْلَمْ اَنَّ كُلَّ مَفْهُومٍ آخَرَ سَوَاءٌ كَانَا كُلِّيَّيْنِ اَوْ جُزْئِيَّيْنِ اَحَدُهُمَا كُلِّيًّا وَٱلْآخَرُ جُزْئِيًّا فَٱلنِّسْبَةُ بَيْنَهُمَا مُنْحَصِرَةٌ فِي اَرْبَعٍ : ٱلْمُسَاوَاةُ. وَٱلْعُمُومُ مُطْلَقًا. وَٱلْعُمُومُ مِنْ وَجْهٍ. وَٱلْمُبَايَنَةُ ٱلْكُلِّيَّةُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنْ لَمْ يَتَصَادَقَا عَلَى شَيْءٍ اَصْلًا فَهُمَا مُتَبَايِنَانِ تَبَايُنًا كُلِّيًّا. وَاِنْ تَصَادَقَا فَاِنْ تَلَازَمَا فِي ٱلصِّدْقِ فَهُمَا مُتَسَاوِيَانِ وَاِلَّا فَاِنِ ٱسْتَلْزَمَ صِدْقُ اَحَدِهِمَا صِدْقَ ٱلْآخَرِ فَبَيْنَهُمَا عُمُومٌ وَخُصُوصٌ مِنْ وَجْهٍ وَكُلٌّ مِنْهُمَا : (اَعَمُّ) مِنَ ٱلْآخَرِ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ شَامِلًا لِلْآخَرِ وَلِغَيْرِهِ. (وَاَخَصُّ) مِنْهُ مِنْ وَجْهٍ وَهُوَ كَوْنُهُ مَشْمُولًا لِلْآخَرِ فَٱلْمُسَاوَاةُ بَيْنَهُمَا اَنْ يَصْدِقَ كُلٌّ مِنْهُمَا بِٱلْفِعْلِ عَلَى كُلِّ مَا صَدَقَ عَلَيْهِ ٱلْآخَرُ سَوَاءٌ وَجَبَ ذٰلِكَ ٱلصِّدْقُ اَوْ لَا

وَٱعْلَمْ اَنَّ فِي ٱلْكِتَابَةِ وَٱلْخَطَابَةِ وَٱلشِّعْرِ مَوْقِعًا لِلْكُلِّيِّ وَٱلْجُزْئِيِّ. وَعِنْدَ ٱلْبَدِيعِيِّينَ نَوْعٌ يَعْرِفُونَهُ بِحَصْرِ ٱلْجُزْئِيِّ وَاِلْحَاقِهِ بِٱلْكُلِّيِّ. فَحَصْرُ ٱلْجُزْئِيِّ هُوَ اَنْ يَأْتِيَ ٱلْمُتَكَلِّمُ اِلَى نَوْعٍ مِنْ

ٱلأَنواعِ فيجعلهُ جنسًا تعظيمًا لهُ وتفخيمًا لأمرهِ بعد ان يحصر جميع اقسامهِ. وٱلمرادُ عندهم بٱلنوعِ اعمُّ من ان يكون صادقًا على متعددٍ ذهنًا كما هو ٱلنوعُ ٱلمعهودُ عند علماء ٱلمنطقِ او لا يصدقُ الّا على فردٍ واحدٍ كٱلجزئيِ ٱلمعروفِ عندهم. وٱلمرادُ بٱلكليِ ٱلجنسُ وهو ما صدق على متعددٍ ٱختلفت حقيقةُ افرادهِ. ومثالُ ذلك عندهم كقولِ ٱلمتنبي:

هِيَ ٱلغرضُ ٱلأقصى ورؤيتُك ٱلمُنى
ومنزِلُكَ ٱلدُّنيا وانتَ ٱلخلائقُ

فقد قصد تعظيم ممدوحهِ فجعل منزلهُ ٱلذي هو جزئيٌّ كليًا وهو ٱلدنيا وجعل ذاتهُ ٱلتي هي جزئيةٌ كليةً وهي ٱلخلائقُ. واما حصرُ اقسامِ ٱلجزئيِ فلأنَّ ٱلعالمَ عبارةٌ عن حيوانٍ ونباتٍ وجمادٍ. وٱلمنزلُ شاملٌ لها

البحث السادس

في الجنس والنوع

(عن السيف الآمدي وشرح الشمسيَّة والنجاة لابن سينا)

(راجع صفحة ١٧ من علم الخطابة)

ٱلجنسُ في ٱللغةِ ٱلضربُ في كلِ شيءٍ وهو اعمُّ من ٱلنوعِ. يقالُ: ٱلإنسانُ نوعٌ وٱلحيوانُ جنسٌ. ويرادُ بهِ عند اهلِ ٱلعربيةِ ٱلماهيةُ. وكلُّ ما دلَّ على شيءٍ. وعلى كلِ ما اشبههُ وبٱلنظرِ الى

هٰذَا قِيلَ اسْمُ الْجِنْسِ اسْمٌ مَوْضُوعٌ لِلْمَاهِيَّةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ . وَالْجِنْسُ عِبَارَةٌ عَنْ كُلِّيٍّ مَقُولٍ عَلَى كَثِيرِينَ مُخْتَلِفِينَ بِالْأَغْرَاضِ دُونَ الْحَقَائِقِ . وَقِيلَ أَيْضًا : الْجِنْسُ هُوَ الْمَقُولُ عَلَى أَفْرَادٍ مُخْتَلِفَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ وَالْأَحْكَامِ . وَالنَّوْعُ كُلِّيٌّ مَقُولٌ عَلَى أَفْرَادٍ مُتَّفِقَةٍ مِنْ حَيْثُ الْمَقَاصِدِ وَالْأَحْكَامِ مُخْتَلِفِينَ بِالْعَدَدِ فَقَطْ كَالْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ مَقُولٌ عَلَى زَيْدٍ وَعَمْرٍو وَبَكْرٍ فِي جَوَابِ مَا هُوَ . وَرُبَّمَا أُطْلِقَ الْجِنْسُ عَلَى الْأَعَمِّ سَوَاءٌ كَانَ جِنْسًا عِنْدَ الْفَلَاسِفَةِ أَوْ نَوْعًا . كَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ مَثَلًا فَهُمَا نَوْعَانِ يَنْدَرِجَانِ فِي حُكْمٍ وَاحِدٍ وَيَشْتَرِكَانِ فِي الْإِنْسَانِيَّةِ . ثُمَّ إِنَّ الْجِنْسَ يُقْسَمُ إِلَى قَرِيبٍ وَبَعِيدٍ لِأَنَّهُ إِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنِ الْمَاهِيَّةِ وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ الْجِنْسِ وَاحِدًا فَهُوَ قَرِيبٌ . وَيَكُونُ الْجَوَابُ ذٰلِكَ الْجِنْسَ فَقَطْ كَالْحَيَوَانِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ وَعَنْ جَمِيعِ مَا يُشَارِكُهُ فِي الْحَيَوَانِيَّةِ كَالْفَرَسِ وَالْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَنَحْوِهَا . وَإِنْ كَانَ الْجَوَابُ عَنْهَا وَعَنْ جَمِيعِ مُشَارِكَاتِهَا فِي ذٰلِكَ الْجِنْسِ مُتَعَدِّدًا فَهُوَ بَعِيدٌ وَيَكُونُ الْجَوَابُ هُوَ غَيْرُهُ كَالْجِسْمِ النَّامِي بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْإِنْسَانِ فَإِنَّهُ جَوَابٌ عَنِ الْإِنْسَانِ وَعَنْ بَعْضِ مُشَارِكَاتِهَا فِيهِ كَالنَّبَاتَاتِ . . وَالْأَجْنَاسُ تَتَرَتَّبُ مُتَصَاعِدَةً وَالْأَنْوَاعُ مُتَنَازِلَةً إِلَى أَنْ تَبْلُغَ إِلَى جِنْسٍ لَيْسَ فَوْقَهُ جِنْسٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ الْعَالِي وَإِلَى نَوْعٍ لَيْسَ تَحْتَهُ نَوْعٌ آخَرُ وَهُوَ الْجِنْسُ الْمُفْرَدُ



البحث السابع

في تعريف العلة والمعلول

(من كتاب المواقف لعبد الرحمان الايجي)

راجع صفحة ٢٠ من علم الخطابة

اِعلَمْ اَنَّ ٱلعِلّيَّةِ وَٱلْمَعْلُولِيَّةَ مِنَ ٱلعَوَارِضِ ٱلشَّامِلَةِ لِلْمَوْجُودَاتِ عَلَى سَبِيلِ ٱلتَّقَابُلِ كَٱلْإِمكَانِ وَٱلْوُجُوبِ. وَتَصَوُّرُ ٱحْتِيَاجِ ٱلشَّيْءِ اِلَى غَيْرِهِ ضَرُورِيٌّ. فَٱلمُحْتَاجُ اِلَيْهِ يُسَمَّى عِلَّةً وَٱلمُحْتَاجُ مَعْلُولًا. وَٱلعِلَّةُ اِمَّا جُزْءُ ٱلشَّيْءِ اَوْ خَارِجٌ عَنْهُ. (وَٱلاَوَّلُ) اِنْ كَانَ بِهِ ٱلشَّيْءُ بِٱلفِعْلِ كَٱلْهَيْئَةِ لِلسَّرِيرِ فَهُوَ ٱلصُّورَةُ. وَاِنْ كَانَ بِٱلقُوَّةِ كَٱلْخَشَبِ لَهُ فَهُوَ ٱلْمَادَّةُ. وَلَهَا اَسْمَاءٌ بِٱعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ: فَمَادَّةٌ اِذْ تَتَوَارَدُ عَلَيْهَا ٱلصُّوَرُ ٱلمُخْتَلِفَةُ. وَقَابِلٌ مِنْ جِهَةِ ٱسْتِعْدَادِهَا لِلصُّوَرِ. وَعُنْصُرٌ اِذْ مِنْهَا يُبْتَدَأُ ٱلتَّرْكِيبُ. وَاسْطَقِسٌ اِذْ اِلَيْهَا يَنْتَهِي ٱلتَّحْلِيلُ. وَهَاتَانِ عِلَّتَانِ لِلْمَاهِيَّةِ كَمَا اَنَّهُمَا عِلَّتَانِ لِلْوُجُودِ فَيُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْمَاهِيَّةِ. (وَٱلثَّانِي) اِمَّا مَا بِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلنَّجَّارِ لِلسَّرِيرِ وَهُوَ ٱلفَاعِلُ. وَاِمَّا لِاَجْلِهِ ٱلشَّيْءُ كَٱلْجُلُوسِ عَلَيْهِ لَهُ وَهُوَ ٱلغَايَةُ. وَهَاتَانِ تُخَصَّانِ بِٱسْمِ عِلَّةِ ٱلْوُجُودِ. وَٱلْاُولَيَانِ لَا تُوجَدَانِ اِلَّا لِلْمُرَكَّبِ. وَٱلغَايَةُ لَا تَكُونُ اِلَّا لِفَاعِلٍ بِٱلِاخْتِيَارِ. وَقَدْ تُسَمَّى فَائِدَةُ فِعْلِ ٱلْمُوجِبِ غَايَةً اَيْضًا تَشْبِيهًا. وَٱلغَايَةُ مَعْلُولَةٌ فِي ٱلْخَارِجِ وَاِنْ كَانَتْ عِلَّةً فِي ٱلذِّهْنِ فَلَهَا عَلَاقَةُ

ٱلعِلِّيَّةِ وَٱلمَعْلُولِيَّةِ. وَيُسمَّى جَمِيعُ مَا يَحْتَاجُ إِلَيهِ ٱلشَّيْءُ عِلَّةً تَامَّةً وَهِيَ قَدْ تَكُونُ عِلَّةً فَاعِلِيَّةً أَوْ مَعَ ٱلغَايَةِ كَمَا فِي ٱلبَسِيطِ. وَقَدْ تَكُونُ مُجْتَمِعَةً مِنَ ٱلأَرْبَعِ كَمَا فِي ٱلْمُرَكَّبِ... وَٱلفَرْقُ بَيْنَ ٱلعِلَّةِ وَٱلشَّرْطِ أَنَّ ٱلعِلَّةَ مُطَّرِدَةٌ فَحَيْثُمَا وُجِدَتْ وُجِدَ ٱلْحُكْمُ وَتَأْثِيرُهَا بِٱلذَّاتِ. أَمَّا ٱلشَّرْطُ فَيَتَوَقَّفُ عَلَيهِ تَأْثِيرُ ٱلمُؤَثِّرِ لَا ذَاتُهُ كَيُبُوسَةِ ٱلْحَطَبِ لِلْإِحْرَاقِ إِذِ ٱلنَّارُ لَا تُؤَثِّرُ فِي ٱلْحَطَبِ بِٱلْإِحْرَاقِ إِلَّا بَعْدَ أَنْ يَكُونَ يَابِسًا

الفصل الرابع

في آداب الخطابة

البحث الاوّل

في آداب كلام الخطيب

(من كتاب الدنيا والدين للماوردي)

(راجع صفحة ٣٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

اعْلَمْ أَنَّ لِلْكَلَامِ آدَابًا إِنْ أَغْفَلَهَا ٱلْمُتَكَلِّمُ أَذْهَبَ رَوْنَقَ كَلَامِهِ وَطَمَسَ بَهْجَةَ بَيَانِهِ وَلَهَا ٱلنَّاسَ عَنْ مَحَاسِنِ فَضْلِهِ بِمَسَاوِئِ أَدَبِهِ فَعَدَلُوا عَنْ مَنَاقِبِهِ بِذِكْرِ مَثَالِبِهِ. (فَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَتَجَاوَزَ فِي مَدْحٍ وَلَا يُسْرِفَ فِي ذَمٍّ وَإِنْ كَانَتِ ٱلنَّزَاهَةُ عَنِ ٱلذَّمِّ كَرَمًا. وَٱلتَّجَاوُزُ فِي ٱلْمَدْحِ مَلَقًا يَصْدُرُ عَنْ مَهَانَةٍ وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلذَّمِّ ٱنْتِقَامًا

يَصْدُرُ عَنْ شَرٍّ . وَكِلَاهُمَا شَيْنٌ وَإِنْ سَلِمَ مِنَ ٱلْكَذِبِ . عَلَى أَنَّ ٱلسَّلَامَةَ مِنَ ٱلْكَذِبِ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ مُتَعَذِّرَةٌ لَاسِيَّمَا إِذَا مَدَحَ تَقَرُّبًا وَذَمَّ تَحَنُّقًا. وَحُكِيَ عَنِ ٱلْأَحْنَفِ بْنِ قَيْسٍ أَنَّهُ قَالَ سَهِرْتُ لَيْلَتِي أُفَكِّرُ فِي كَلِمَةٍ أُرْضِي بِهَا سُلْطَانِي وَلَا أُسْخِطُ بِهَا رَبِّي فَمَا وَجَدْتُهَا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ مَسْعُودٍ: إِنَّ ٱلرَّجُلَ لَيَدْخُلُ عَلَى ٱلسُّلْطَانِ وَمَعَهُ دِينُهُ فَيَخْرُجُ وَمَا مَعَهُ دِينُهُ . قِيلَ : وَكَيْفَ ذٰلِكَ . قَالَ : يُرْضِيهِ بِمَا يُسْخِطُ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ . وَسَمِعَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ رَجُلًا يَصِفُ رَجُلًا وَيُبَالِغُ فِي مَدْحِهِ فَأَنْشَأَ يَقُولُ :

إِذَا مَا وَصَفْتَ ٱمْرَءًا لِٱمْرِئٍ … فَلَا تَغْلُ فِي وَصْفِهِ وَٱقْصِدِ
فَإِنَّكَ إِنْ تَغْلُ تَغْلُ ٱلظُّنُو … نُ فِيهِ إِلَى ٱلْأَمَدِ ٱلْأَبْعَدِ
فَيَضْؤُلُ مِنْ حَيْثُ عَظَّمْتَهُ … لِفَضْلِ ٱلْمَغِيبِ عَلَى ٱلْمَشْهَدِ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا تَبْعَثَهُ ٱلرَّغْبَةُ وَٱلرَّهْبَةُ عَلَى ٱلِٱسْتِرْسَالِ فِي وَعْدٍ أَوْ وَعِيدٍ يَعْجِزُ عَنْهُمَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَى ٱلْوَفَاءِ بِهِمَا . فَإِنَّ مَنْ أَطْلَقَ بِهِمَا لِسَانَهُ وَأَرْسَلَ فِيهِمَا عِنَانَهُ وَلَمْ يَسْتَثْقِلْ مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَسْتَثْقِلُهُ مِنَ ٱلْعَمَلِ صَارَ وَعْدُهُ نَكْثًا وَوَعِيدُهُ عَجْزًا . (وَمِنْ آدَابِهِ) إِنْ قَالَ قَوْلًا حَقَّقَهُ بِفِعْلِهِ وَإِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ صَدَّقَهُ بِعَمَلِهِ فَإِنَّ إِرْسَالَ ٱلْقَوْلِ ٱخْتِيَارٌ وَٱلْعَمَلَ بِهِ ٱضْطِرَارٌ وَلَأَنْ يَفْعَلَ مَا لَمْ يَقُلْ أَجْمَلُ مِنْ أَنْ يَقُولَ مَا لَمْ يَفْعَلْ . وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ : أَحْسَنُ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يُحْتَاجُ فِيهِ إِلَى ٱلْكَلَامِ أَيْ يَكْتَفِي بِٱلْفِعْلِ مِنَ ٱلْقَوْلِ . وَقَالَ مَحْمُودٌ ٱلْوَرَّاقُ :

اَلْقَوْلُ مَا صَدَّقَهُ ٱلْفِعْلُ ... وَٱلْفِعْلُ مَا وَكَّدَهُ ٱلْعَقْلُ
لَا يَثْبُتُ ٱلْقَوْلُ إِذَا لَمْ يَكُنْ ... يُقِلُّهُ مِنْ تَحْتِهِ ٱلْأَصْلُ

(وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يُرَاعِيَ مَخَارِجَ كَلَامِهِ بِحَسَبِ مَقَاصِدِهِ وَأَغْرَاضِهِ فَإِنْ كَانَ تَرْغِيبًا قَرَنَهُ بِٱللِّينِ وَٱللُّطْفِ. وَإِنْ كَانَ تَرْهِيبًا خَلَطَهُ بِٱلْخُشُونَةِ وَٱلْعُنْفِ. فَإِنَّ لِينَ ٱللَّفْظِ فِي ٱلتَّرْهِيبِ وَخُشُونَتَهُ فِي ٱلتَّرْغِيبِ خُرُوجٌ عَنْ مَوْضِعِهِمَا وَتَعْطِيلٌ لِلْمَقْصُودِ بِهِمَا فَيَصِيرُ ٱلْكَلَامُ لَغْوًا وَٱلْغَرَضُ ٱلْمَقْصُودُ لَهْوًا. وَقَدْ قَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ لِٱبْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنْ كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَلَا تَتَكَلَّمْ بِكَلَامِ مَنْ هُوَ فَوْقَكَ فَيَمْقُتُوكَ. وَلَا بِكَلَامِ مَنْ هُوَ دُونَكَ فَيَزْدَرُوكَ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ لَا يَرْفَعَ بِكَلَامِهِ صَوْتًا مُسْتَنْكَرًا وَلَا يَنْزَعِجَ لَهُ ٱنْزِعَاجًا مُسْتَهْجَنًا وَلْيَكُفَّ عَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ طَيْشًا وَعَنْ حَرَكَةٍ تَكُونُ عِيًّا. فَإِنْ نَقَصَ ٱلطَّيْشِ أَكْثَرُ مِنْ فَضْلِ ٱلْبَلَاغَةِ. وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ ٱلْحَجَّاجَ قَالَ لِأَعْرَابِيٍّ: أَخَطِيبٌ أَنَا. قَالَ: نَعَمْ لَوْلَا أَنَّكَ تُكْثِرُ ٱلرَّدَّ وَتُشِيرُ بِٱلْيَدِ وَتَقُولُ أَمَّا بَعْدُ. (وَمِنْ آدَابِهِ) أَنْ يَتَجَافَى هُجْرَ ٱلْقَوْلِ وَمُسْتَقْبَحَ ٱلْكَلَامِ وَلْيَعْدِلْ إِلَى ٱلْكِنَايَةِ عَمَّا يُسْتَقْبَحُ صَرِيحُهُ وَيُسْتَهْجَنُ فَصِيحُهُ لِيَبْلُغَ ٱلْغَرَضَ وَلِسَانُهُ نَزِهٌ وَأَدَبُهُ مَصُونٌ كَمَا أَنَّهُ يَصُونُ لِسَانَهُ عَنْ ذٰلِكَ فَهٰكَذَا يَصُونُ عَنْهُ سَمْعَهُ فَلَا يَسْمَعُ خَنًا وَلَا يُصْغِي إِلَى فُحْشٍ فَإِنَّ سَمَاعَ ٱلْفُحْشِ دَاعٍ إِلَى إِظْهَارِهِ وَذَرِيعَةٌ إِلَى إِنْكَارِهِ وَإِذَا وُجِدَ عَنِ ٱلْفُحْشِ مُعْرِضًا كَفَّ قَائِلُهُ وَكَانَ إِعْرَاضُهُ أَحَدَ ٱلنَّكِيرَيْنِ كَمَا أَنَّ سَمَاعَهُ أَحَدُ ٱلْبَاعِثَيْنِ. وَأَنْشَدَنِي أَبُو ٱلْحَسَنِ

ٱبْنُ ٱلْحَارِثِ ٱلْهَاشِمِيُّ :

تَحَرَّ مِنَ ٱلطُّرْقِ أَوْسَاطَهَا وَعَدِّ عَنِ ٱلْمَوْضِعِ ٱلْمُشْتَبِهْ

وَسَمْعَكَ صُنْ عَنْ قَبِيحِ ٱلْكَلَامِ كَصَوْنِ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلنُّطْقِ بِهِ

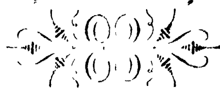
فَإِنَّكَ عِنْدَ ٱسْتِمَاعِ ٱلْقَبِيحِ شَرِيكٌ لِقَائِلِهِ فَٱنْتَبِهْ

وَمِمَّا يَجْرِي مَجْرَى فُحْشِ ٱلْقَوْلِ وَهُجْرِهِ فِي وُجُوبِ ٱجْتِنَابِهِ وَلُزُومِ تَنَكُّبِهِ مَا كَانَ شَنِيعَ ٱلْبَدِيهَةِ مُسْتَنْكَرَ ٱلظَّاهِرِ وَإِنْ كَانَ عَقِبَ ٱلتَّأَمُّلِ سَلِيمًا وَبَعْدَ ٱلْكَشْفِ وَٱلرَّوِيَّةِ مُسْتَقِيمًا كَٱلَّذِي رَوَاهُ ٱلْأَزْدِيُّ عَنِ ٱلصُّولِيِّ لِبَعْضِ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ :

إِنَّنِي شَيْخٌ كَبِيرٌ كَافِرٌ بِٱللهِ سِيرِي

أَنْتَ رَبِّي وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ

يُرِيدُ بِقَوْلِهِ (كَافِرٌ) أَيْ لَابِسٌ لِأَنَّ ٱلْكُفْرَ ٱلتَّغْطِيَةُ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَ ٱلْكَافِرُ بِٱللهِ كَافِرًا لِأَنَّهُ قَدْ غَطَّى نِعْمَةَ ٱللهِ بِمَعْصِيَتِهِ. وَقَوْلُهُ : (بِٱللهِ سِيرِي) يُقْسِمُ عَلَيْهَا أَنْ تَسِيرَ. وَقَوْلُهُ : (أَنْتَ رَبِّي) يَعْنِي رَبِّي وَلَدِكِ مِنَ ٱلتَّرْبِيَةِ. وَإِلٰهِي رَازِقُ ٱلطِّفْلِ ٱلصَّغِيرِ كَمَا أَنَّهُ رَازِقُ ٱلْوَلَدِ ٱلْكَبِيرِ . فَٱنْظُرْ إِلَى هٰذَا ٱلتَّكَلُّفِ ٱلشَّنِيعِ وَٱلتَّعَمُّقِ ٱلْبَشِيعِ مَا ٱعْتَاضَ مِنْ حَيْثُ ٱلْبَدِيهَةِ إِذَا سَلِمَ بَعْدَ ٱلْفِكْرِ وَٱلرَّوِيَّةِ إِلَّا لُؤْمًا إِنْ حَسُنَ فِيهِ ٱلظَّنُّ أَوْ ذَمًّا إِنْ قَوِيَ فِيهِ ٱلِٱرْتِيَابُ. وَقَلَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ إِلَّا مِنْ خَامِعٍ بَطِرٍ أَوْ مُرْتَابٍ أَشِرٍ



البحث الثاني

في خصال الخطيب

(عن الماوردي والغزالي ببعض تصرف)

(راجع صفحة ٣٩ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْخَطِيبَ ٱلْحَرِيَّ بِٱلْإِرْشَادِ مَنْ قَدِ ٱسْتَكْمَلَتْ فِيهِ خَمْسُ خِصَالٍ: (إِحْدَاهُنَّ) عَقْلٌ كَامِلٌ مَعَ تَجْرِبَةٍ سَالِفَةٍ فَإِنَّ بِكَثْرَةِ ٱلتَّجَارِبِ تَصِحُّ ٱلرَّوِيَّةُ. وَقَدْ جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ: ٱسْتَرْشِدُوا ٱلْعَاقِلَ تُرْشَدُوا وَلَا تَعْصُوهُ فَتَنْدَمُوا. وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ ٱلْحَسَنِ لِٱبْنِهِ مُحَمَّدٍ: ٱحْذَرُوا مَشُورَةَ ٱلْجَاهِلِ وَإِنْ كَانَ نَاصِحًا كَمَا تَحْذَرُ عَدَاوَةَ ٱلْعَاقِلِ إِذَا كَانَ عَدُوًّا فَإِنَّهُ يُوشِكُ أَنْ يُوَرِّطَكَ بِمَشُورَتِهِ فَيَسْبِقَ إِلَيْكَ مَكْرُ ٱلْعَاقِلِ وَتَوْرِيطُ ٱلْجَاهِلِ. وَقِيلَ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْسٍ: مَا أَكْثَرَ صَوَابَكُمْ. قَالَ: نَحْنُ أَلْفُ رَجُلٍ وَفِينَا حَازِمٌ وَنَحْنُ نُطِيعُهُ فَكَأَنَّا أَلْفُ حَازِمٍ. وَكَانَ يُقَالُ إِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ رَجُلَيْنِ شَابٍّ مُعْجَبٍ بِنَفْسِهِ قَلِيلِ ٱلتَّجَارِبِ فِي غَيْرِهِ أَوْ كَبِيرٍ قَدْ أَخَذَ ٱلدَّهْرُ مِنْ عَقْلِهِ كَمَا أَخَذَ مِنْ جِسْمِهِ. وَقِيلَ فِي مَنْثُورِ ٱلْحِكَمِ: كُلُّ شَيْءٍ لَا يَحْتَاجُ إِلَى ٱلْعَقْلِ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَاجُ إِلَى ٱلتَّجَارِبِ. وَلِذَلِكَ قِيلَ: ٱلْأَيَّامُ تَهْتِكُ لَكَ عَنِ ٱلْأَسْتَارِ ٱلْكَامِنَةِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: ٱلتَّجَارِبُ لَيْسَ لَهَا غَايَةٌ وَٱلْعَاقِلُ مِنْهَا فِي زِيَادَةٍ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: مَنِ ٱسْتَعَانَ بِذَوِي ٱلْعُقُولِ فَازَ بِدَرْكِ ٱلْمَأْمُولِ. وَقَالَ أَبُو ٱلْأَسْوَدِ ٱلدِّيلِيُّ:

وَمَا كُلُّ ذِي نُصْحٍ بِمُؤْتِيكَ نُصْحَهُ ... وَلَا كُلُّ مُؤْتٍ نُصْحَهُ بِلَبِيبِ
وَلٰكِنْ إِذَا مَا ٱسْتَجْمَعَا عِنْدَ صَاحِبٍ ... فَحَقٌّ لَهُ مِنْ طَاعَةٍ بِنَصِيبِ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّانِيَةُ) أَنْ يَكُونَ ٱلْخَطِيبُ ذَا دِينٍ وَتُقًى فَإِنَّ ذَاكَ عِمَادُ كُلِّ صَلَاحٍ وَبَابُ كُلِّ نَجَاحٍ وَمَنْ غَلَبَ عَلَيْهِ ٱلدِّينُ فَهُوَ مَأْمُونُ ٱلسَّرِيرَةِ مُوَفَّقُ ٱلْعَزِيمَةِ. (وَٱلْخَصْلَةُ ٱلثَّالِثَةُ) أَنْ يَكُونَ نَاصِحًا وَدُودًا فَإِنَّ ٱلنُّصْحَ وَٱلْمَوَدَّةَ يُصْدِقَانِ ٱلْفِكْرَةَ وَيُمْحِضَانِ ٱلرَّأْيَ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: لَا تُشَاوِرْ إِلَّا ٱلْحَازِمَ غَيْرَ ٱلْحَسُودِ وَٱللَّبِيبَ غَيْرَ ٱلْحَقُودِ وَإِيَّاكَ وَمُشَاوَرَةَ ٱلنِّسَاءِ فَإِنَّ رَأْيَهُنَّ إِلَى ٱلْأَفْنِ وَعَزْمَهُنَّ إِلَى ٱلْوَهْنِ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْأُدَبَاءِ مَشُورَةُ ٱلْمُشْفِقِ ٱلْحَازِمِ ظَفَرٌ وَمَشُورَةُ غَيْرِ ٱلْحَازِمِ خَطَرٌ وَقَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

أَصْفِ ضَمِيرًا لِمَنْ تُعَاشِرُهُ ... وَٱسْكُنْ إِلَى نَاصِحٍ تُشَاوِرُهُ
وَٱرْضَ مِنَ ٱلْمَرْءِ فِي مَوَدَّتِهِ ... بِمَا يُؤَدِّي إِلَيْكَ ظَاهِرُهُ
مَنْ يَكْشِفِ ٱلنَّاسَ لَمْ يَجِدْ أَحَدًا ... تَصِحُّ مِنْهُمْ لَهُ سَرَائِرُهُ
أَوْشَكَ أَنْ لَا يَدُومَ وَصْلُ أَخٍ ... فِي كُلِّ زَلَّاتِهِ تُنَافِرُهُ

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلرَّابِعَةُ) أَنْ يَكُونَ سَلِيمَ ٱلْفِكْرِ مِنْ هَمٍّ قَاطِعٍ وَغَمٍّ شَاغِلٍ. فَإِنَّ مَنْ عَارَضَتْ فِكْرَهُ شَوَائِبُ ٱلْهُمُومِ لَا يَسْلَمُ لَهُ رَأْيٌ وَلَا يَسْتَقِيمُ لَهُ خَاطِرٌ. وَكَانَ كِسْرَى إِذَا دَهَمَهُ أَمْرٌ بَعَثَ إِلَى مَرَازِبَتِهِ فَٱسْتَشَارَهُمْ فَإِنْ قَصَّرُوا بِٱلرَّأْيِ ضَرَبَ قَهَارِمَتَهُ وَقَالَ: أَبْطَأْتُمْ بِأَرْزَاقِهِمْ فَأَخْطَأُوا فِي آرَائِهِمْ. وَقَالَ صَالِحُ بْنُ عَبْدِ ٱلْقُدُّوسِ:

وَلَا مُشِيرَ كَذِي نُصْحٍ وَمَقْدُرَةٍ ... فِي مُشْكِلِ ٱلْأَمْرِ فَٱخْتَرْ ذَاكَ مُنْتَصِحَا

(وَٱلْخَصْلَةُ ٱلْخَامِسَةُ) أَنْ لَا يَكُونَ لَهُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْمُسْتَشَارِ غَرَضٌ يُتَابِعُهُ وَلَا هَوًى يُسَاعِدُهُ فَإِنَّ ٱلْأَغْرَاضَ جَاذِبَةٌ وَٱلْهَوَى صَادٌّ وَٱلرَّأْيَ إِذَا عَارَضَهُ ٱلْهَوَى وَجَاذَبَتْهُ ٱلْأَغْرَاضُ فَسَدَ. وَقَدْ قَالَ ٱلْفَضْلُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ بْنُ عُتْبَةَ بْنُ أَبِي لَهَبٍ :

وَقَدْ يُحْكِمُ ٱلْأَيَّامُ مَنْ كَانَ جَاهِلًا
وَيُرْدِي ٱلْهَوَى ذَا ٱلرَّأْيِ وَهُوَ لَبِيبُ
وَيُحْمَدُ فِي ٱلْأَمْرِ ٱلْفَتَى وَهُوَ مُخْطِئٌ
وَيُعْذَلُ فِي ٱلْإِحْسَانِ وَهُوَ مُصِيبُ

فَإِذَا ٱسْتَكْمَلَتْ هٰذِهِ ٱلْخِصَالُ ٱلْخَمْسُ فِي رَجُلٍ كَانَ أَهْلًا لِلْإِرْشَادِ وَٱلْمَشُورَةِ وَمَعْدِنًا لِلرَّأْيِ فَلَا تَعْدِلْ عَنِ ٱسْتِشَارَتِهِ ٱعْتِمَادًا عَلَى مَا تَتَوَهَّمُهُ مِنْ فَضْلِ رَأْيِكَ وَثِقَةً بِمَا تَسْتَشْعِرُهُ مِنْ صِحَّةِ رَوِيَّتِكَ. فَإِنَّ رَأْيَ غَيْرِ ذِي ٱلْحَاجَةِ أَسْلَمُ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّوَابِ أَقْرَبُ لِخُلُوصِ ٱلْفِكْرِ وَخُلُوِّ ٱلْخَاطِرِ مَعَ عَدَمِ ٱلْهَوَى وَٱرْتِفَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَقَدْ وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ: إِنَّ رَأْسَ ٱلْعَقْلِ بَعْدَ ٱلْإِيمَانِ بِٱللّٰهِ ٱلتَّوَدُّدُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَمَا ٱسْتَغْنَى مُسْتَبِدٌّ بِرَأْيِهِ وَمَا هَلَكَ أَحَدٌ عَنْ مَشُورَةٍ فَإِذَا أَرَادَ ٱللّٰهُ بِعَبْدٍ هَلَكَةً كَانَ أَوَّلَ مَا يُهْلِكُهُ رَأْيُهُ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ: ٱلْاِسْتِشَارَةُ عَيْنُ ٱلْهِدَايَةِ وَقَدْ خَاطَرَ مَنِ ٱسْتَغْنَى بِرَأْيِهِ. وَقَالَ لُقْمَانُ ٱلْحَكِيمُ لِٱبْنِهِ: شَاوِرْ مَنْ جَرَّبَ ٱلْأُمُورَ فَإِنَّهُ يُعْطِيكَ مِنْ رَأْيِهِ مَا قَامَ عَلَيْهِ بِٱلْغَلَاءِ وَأَنْتَ تَأْخُذُهُ مَجَّانًا. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْحُكَمَاءِ: نِصْفُ رَأْيِكَ مَعَ أَخِيكَ فَشَاوِرْهُ لِيَكْمُلَ ٱلرَّأْيُ

البحث الثالث

في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة

(من كتاب مشهد الاحوال لفتح الله مراش)

(راجع صفحة ٤٣ من علم الخطابة)

(حَالُ ٱلطُّفُولِيَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلْأَوَّلُ لِحَيَاةِ ٱلْإِنْسَانِ. وَٱلْغَلْوَةُ ٱلْأُولَى فِي طَرِيقِ ٱلزَّمَانِ. حَيْثُمَا يُقَالُ لِلدَّاخِلِ طِفْلٌ مَوْلُودٌ. وَلِلْخَارِجِ شَيْخٌ مَفْقُودٌ. وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنْسَانُ فِي هٰذَا ٱلْمَدْخَلِ عَدِيمَ ٱلْبَصِيرَةِ. خَالِيَ ٱلسَّرِيرَةِ. عَارِيًا مِنْ كُلِّ ٱلْكَمَالَاتِ ٱلْأَدَبِيَّةِ. غَيْرَ حَاصِلٍ عَلَى تَمَامِ ٱلْوَظَائِفِ ٱلْعَقْلِيَّةِ. فَلَا يَرَى إِلَّا مَا يَقُومُ قُرْبَهُ. وَلَا يَشْعُرُ إِلَّا بِمَا يَسْتَعْطِفُ قَلْبَهُ. فَيَلْعَبُ بِٱلتُّرَابِ وَيَذْرِيهِ. وَيَعْبَثُ بِٱلتِّبْرِ وَيُزْرِيهِ. وَيَنْسَخِرُ بِٱلْمَقْبُولَاتِ وَٱلْمَرْدُودَاتِ. وَيَضْحَكُ عَلَى كُلِّ ٱلْمَوْجُودَاتِ. فَلَا يَهْتَمُّ إِلَّا بِطَلَبِ ٱلْغِذَاءِ. وَلَا يَحْفِلُ إِلَّا بِمَا يُورِثُ ٱلْأَذَى. وَإِذْ لَا يَبْرَحُ طَائِشًا بِخِفَّةِ بُنْيَتِهِ. وَضَائِعًا فِي تِيهِ نِيَّتِهِ. فَلَا يَسْمَعُ دَوِيَّ ضَوْضَاءِ ٱلْعَوَالِمِ. وَلَا رَوِيَّ قَوَافِي ٱلْعَظَائِمِ. بَيْنَمَا يَكُونُ بَاكِيًا تَحْتَ تَأْثِيرَاتِهَا وَفَوَاعِلِهَا. وَمُتَحَرِّكًا وَسَاكِنًا تَحْتَ جَوَازِمِهَا وَعَوَامِلِهَا. وَمُسْرِعًا فِي طَرِيقِ حَيَاتِهِ إِلَى ٱلدُّخُولِ فِي أَبْوَابِهَا. وَٱلْغَوْصِ فِي عُبَابِهَا. فَلَيْتَ عَيْنَهُ تَرَى مَا يَسْتَقْبِلُهُ مِنَ ٱلْأَوْصَابِ. وَمَا يَنْتَظِرُهُ مِنَ ٱلْأَتْعَابِ. فَمَا ٱلثَّدْيُ إِلَّا رَمْزُ ٱلرَّدَى فِي طَلَبِ ٱلْقُوتِ. وَمَا ٱلْمَهْدُ إِلَّا إِشَارَةُ ٱلتَّابُوتِ

(حَالُ ٱلْفُتُوَّةِ) هٰذَا هُوَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّانِي لِلْحَيَاةِ ٱلْاِنْسَانِيَّةِ . وَٱلْمَسَاحَةُ ٱلْأُولَى لِٱنْتِشَارِ ٱلْقُوَى ٱلْعَقْلِيَّةِ اَوِ ٱلتَّلُّ ٱلْأَوَّلُ فِي طَرِيقِ ٱلْأَجَلِ . وَمَسْلَكِ ٱلْعَمَلِ . فَيَصْعَدُ ٱلْاِنْسَانُ عَلَيْهِ وَيَنْظُرُ ٱلْعَالَمَ بِعَيْنَيْهِ . فَيَرَاهُ مَشْهَدًا بَدِيعَ ٱلْجَمَالِ . وَمَلْعَبًا تَلْعَبُ بِهِ ٱلْآمَالُ . وَتَرْقُصُ فِيهِ ٱلْمَلَذَّاتُ وَٱلْأَمَانِي . وَتَحُومُ حَوْلَهُ ٱلْبَشَائِرُ وَٱلتَّهَانِي . فَتَشْمُلُهُ شُمُولُ هٰذَا ٱلظُّهُورِ . وَتَلْعَبُ بِرَأْسِهِ حَمِيَّةُ هٰذِهِ ٱلْأُمُورِ . فَيَبِيتُ سَكْرَانَ بِٱلْأَفْرَاحِ . وَمَأْخُوذًا بِرَنِينِ تِلْكَ ٱلْأَقْدَاحِ . فَيَبْسِمُ مَدَى ٱلْأَوْقَاتِ . وَلَا يَعْلَمُ مَا ٱلْآفَاتُ . اِذْ يَظَلُّ مُلْتَفًّا بِكِسَاءِ ٱلْآمَالِ . وَمُحْتَفًّا بِأَوْهَامِ ٱلْأَعْمَالِ . فَلَا يَنْظُرُ اِلَّا اِلَى ذَاتِهِ . وَلَا يَحْفِلُ اِلَّا بِصِفَاتِهِ . هَائِمًا فِي مَلَاهِي دُنْيَاهُ . وَمُتَهَافِتًا عَلَى حَدَاثَةِ قُوَاهُ . وَهٰكَذَا يَهِيطُ فِي وَادِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلْمُلِمِّ . وَيَخْبِطُ فِي ذٰلِكَ ٱلْبَحْرِ ٱلْخِضَمِّ . وَلَا يَزَالُ بَيْنَ هُبُوبٍ وَٱنْكِبَابٍ . اِلَى اَنْ يَنْشُلَهُ ٱلصَّوَابُ . وَيُدْرِكَهُ ٱلشَّبَابُ

(حَالُ ٱلشُّبُوبِيَّةِ) اَمَّا ٱلشُّبُوبِيَّةُ فَهِيَ ٱلدَّوْرُ ٱلثَّالِثُ لِلْاَجَلِ . وَمَحَلُّ ٱلْكَدِّ وَٱلْعَمَلِ . وَمَوْقِعُ ٱلْيَأْسِ وَٱلْاَمَلِ . حَيْثُمَا يُوجَدُ ٱلْاِنْسَانُ ضَائِعًا فِي مَفَازَةِ ٱلْعُمْرِ . حَائِرًا فِي تَنُوفَةِ ٱلنَّهْيِ وَٱلْاَمْرِ . فَيَرَى نَفْسَهُ قَائِمًا فِي وَسَطِ هٰذِهِ ٱلدُّنْيَا . مُمْنْطَقًا بِكَافَّةِ ٱلْاَشْيَاءِ . مُلْتَطِمًا بِأَمْوَاجِ ٱلْعَالَمِ وَاَهْوَائِهِ . مَصْرُوعًا وَمَأْخُوذًا بِضَجَّاتِهِ وَضَوْضَائِهِ . وَهٰكَذَا تَنْهَضُ فِي قَلْبِهِ ثَوْرَةُ ٱلْحَوَاسِ . وَتَشُبُّ فِي دِمَاغِهِ نَارُ ٱلْوَسْوَاسِ . وَتَصْفِرُ فِي سَرِيرَتِهِ رِيحُ ٱلْاَهْجَاسِ . فَيَنْدَفِعُ اِلَى مُنَازَلَةِ ٱلْاَقْدَارِ وَٱلْاَيَّامِ . وَمُقَاتَلَةِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْاَوْهَامِ . فَتَارَةً تَهُبُّ بِهِ ٱلْآمَالُ اِلَى اَوْجِ ٱلْاَفْرَاحِ وَٱلْمَسَرَّاتِ .

وَطَوراً تَكُبُّ بِهِ ٱلخَيبَاتُ فِي حَضِيضِ ٱلاَتْرَاحِ وَٱلحَسَرَاتِ. يَرَى ٱلعَالَمَ قَرِيبَ ٱلمَنَالِ. فَيَندَفِعُ وَرَاءَهُ عَلَى مُتُونِ ٱلاَهوَالِ. حَتَّى اِذَا مَا ظَفِرَ بِٱلبَعضِ طَمِعَ بِٱلكُلِّ. وَاِذَا فَازَ بِٱلشَّبَحِ رَغِبَ فِي ٱلظِّلِّ. فَلَا يَكُونُ اِلَّا مُضغَةً فِي اَفوَاهِ ٱلمَطَامِعِ. وَكُرَةً تَتَلَقَّفُهَا ٱلقَوَامِعُ. وَذٰلِكَ اِنَّمَا يُوجَدُ مُهبِطًا لِحَوَادِثِ ٱلحَدَثَانِ. وَمُسقَطًا لِمَصَائِبِ ٱلزَّمَانِ. وَلَا تَزَالُ زَهرَةُ هٰذَا ٱلشَّبَابِ ٱلزَّاهِي بَينَ ذُبُولٍ وَٱفتِرَارٍ. وَلَا يَبرَحُ بَدرُ هٰذَا ٱلعَصرِ ٱلبَاهِي بَينَ خُسُوفٍ وَٱسفِرَارٍ. اِلَى اَن تَنثُرَ ٱلشَّيخُوخَةُ تَاجَ تِلكَ ٱلزَّهرَةِ. وَيَصنَعَ ٱلهَرَمُ وَجهَ هَاتِيكَ ٱلقَمَرَةِ. حَيثُمَا يَسقُطُ ٱلشَّبَابُ مِن فَرشِهِ. وَيَرتَفِعُ ٱلمَشِيبُ عَلَى عَرشِهِ

(حَالُ ٱلشَّيخُوخَةِ) فَلَا يَزَالُ ٱلاِنسَانُ سَائِرًا فِي طَرِيقِ عُمرِهِ سَيرَ ٱلمُسَافِرِ فِي ٱلقِفَارِ. اِلَى اَن يَبلُغَ رَابِعَ ٱلاَدوَارِ. وَهُوَ دَورُ ٱلدُّثَارِ. هٰذَا اِذَا اَمكَنَهُ ٱلخَلَاصُ مِن لُصُوصِ ٱلحَوَادِثِ. وَٱلمَنَاصُ مِن اُسدِ ٱلكَوَارِثِ. وَنُهبَةِ ٱلاَعرَاضِ. وَقَتَلَةِ ٱلاَمرَاضِ. فَيَلبَثُ هُنَاكَ مَنهُوكًا مِن تَعَبِ ٱلمَسِيرِ. وَمَضَضِ ٱلتَّأثِيرِ. اِذ يَعُودُ مُنحَنِيًا تَحتَ اَحمَالِ ٱلحَيَاةِ وَاَثقَالِهَا. وَمَرضُوضًا مِن صَدَمَاتِ ٱلدُّنيَا وَاَهوَالِهَا. فَتَضعُفُ ضَوضَاءُ حَوَاسِّهِ وَهَوَاجِسِهِ. وَيَخرُسُ رَنِينُ اَنفَاسِهِ وَوَسَاوِسِهِ. فَيَكُفُّ بَصَرُهُ. وَتَجِفُّ فِكَرُهُ. وَيَقِلُّ ذَوقُهُ. وَيَكثُرُ شَوقُهُ. وَيَبخَلُ حَتَّى بِٱلفَلسِ. وَيَزِيدُ حِرصُهُ عَلَى ٱلنَّفسِ. وَيَجُودُ بِٱلقَلسِ. فَاِذَا ٱلتَفَتَ اِلَى وَرَائِهِ وَرَاَى ٱلدُّنيَا ٱلَّتِي قَطَعَهَا. وَٱلطَّرِيقَ ٱلَّتِي تَتَبَّعَهَا. ظَهَرَت لَهُ ٱلاَشيَاءُ اَشبَاحَ اَحلَامٍ. وَمَلَاعِبَ اَوهَامٍ. وَكُلُّهَا تَجرِي نَظِيرَهُ اِلَى ٱلزَّوَالِ.

كَالطَّيْفِ وَالْخَيَالِ. فَيَضْحَكُ عَلَى الْجَمِيعِ. ضَحِكَ الطِّفْلِ الرَّضِيعِ. امَّا اِذَا الْتَفَتَ اِلَى الْأَمَامِ. وَطَمِعَ بِبَقِيَّةِ الْأَيَّامِ. حَنَّ اِلَى الْوُجُودِ. وَهَامَ بِحُبِّ الْخُلُودِ. وَلَا يَزَالُ الْمَاضِي يَدْفَعُهُ. وَالْحَاضِرُ يَرْدَعُهُ. وَالْمُسْتَقْبَلُ يُطْمِعُهُ. حَتَّى تَخْتَطِفَ حَمَامَةَ نَفْسِهِ بُزَاةُ الْمَنِيَّةِ. وَتَسْلُبَهُ كُلَّ بُغْيَةٍ وَأُمْنِيَةٍ. فَيَهْبِطَ هُبُوطَ الْبُنْيَانِ. وَيَغُورَ فِي قَبْرِ النِّسْيَانِ. حَيْثُمَا تَسْتَرْجِعُ الْكُلِّيَّاتُ جُزْئِيَّاتِهَا. وَتَسْتَرِدُّ الْمَجْمُوعَاتُ مُفْرَدَاتِهَا

البحث الرابع

في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم

(عن رسائل خط للفارابي بتصرف)

(راجع صفحة ٤٥ من الجزء الثاني من علم الادب)

اِنَّ الْخَطِيبَ اِذَا مَا ارَادَ بُلُوغَ غَايَتِهِ وَحُسْنَ سِيَاسَةِ نَفْسِهِ فِي أُمُورِهِ فَلْيَتَوَخَّ طِبَاعَهُمْ وَتَلَوُّنَ اَخْلَاقِهِمْ وَتَبَايُنَ اَحْوَالِهِمْ. قَالَ افْلَاطُونُ: لِكُلِّ اَمْرٍ حَقِيقَةٌ. وَلِكُلِّ زَمَانٍ طَرِيقَةٌ. وَلِكُلِّ اِنْسَانٍ خَلِيقَةٌ. فَعَامِلِ النَّاسَ عَلَى خَلَائِقِهِمْ وَالْتَمِسْ مِنَ الْأُمُورِ حَقَائِقَهَا وَاجْرِ مَعَ الزَّمَانِ عَلَى طَرَائِقِهِ (اه). وَهٰذِهِ قَوَانِينُ تَنْفَعُ الْخَطِيبَ فِي مُتَصَرَّفَاتِهِ مَعَ كُلِّ طَائِفَةٍ مِنْ اَهْلِ طَبَقَتِهِ وَمَنْ دُونَهُ وَمَنْ فَوْقَهُ عَلَى سَبِيلِ الْإِيجَازِ وَالْاِخْتِصَارِ. عَلَى اَنَّهُ لَا يَمْنَعُ قَوْلُنَا هٰذَا مِنْ ذِكْرِ مَا يَخْتَصُّ بِاسْتِعْمَالِهِ طَائِفَةٌ دُونَ طَائِفَةٍ وَوَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ فِي وَقْتٍ

دُونَ وَقْتٍ ومعَ قَوْمٍ دُونَ قَوْمٍ . اِذِ ٱلْوَاحِدُ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يُمكِنُهُ اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي كُلِّ وَقْتٍ معَ كُلِّ اَحَدٍ كُلَّ ضَرْبٍ مِنْ ضُرُوبِ ٱلسِّيَاسَاتِ . وَنُقَدِّمُ لِذٰلِكَ مُقَدِّمات مِنْها اَنْ نَقُولَ اِنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاس مَتَى مَا رَجَعَ اِلَى نَفْسِهِ وَتَأَمَّلَ اَحوَالَهَا وَاَحوَالَ غَيْرِهِ مِنْ فِئَاتِ ٱلنَّاسِ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي رُتبَةٍ يَشرَكُهُ فِيهَا طَائِفَةٌ مِنْهُمْ . وَوَجَدَ فَوْقَ رُتْبَتِهِ طَائِفَةً هُمْ اَعلَى مَنزِلَةً مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . وَوَجَدَ دُونَهَا طَائِفَةً هُمْ اَوضَعُ مِنْهُ بِجِهَةٍ اَوْ جِهَاتٍ . لِاَنَّ ٱلْمَلِكَ ٱلْاَعظَمَ مَثَلًا وَاِنْ وَجَدَ نَفْسَهُ فِي مَحَلٍّ لَا يَرَى لِاَحَدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي زَمَانِهِ مَنزِلَةً اَعلَى مِنْ مَنزِلَتِهِ فَاِنَّهُ مَتَى تَأَمَّلَ حَالَهُ نِعِمَّا وَجَدَ مِنْهُمْ مَنْ يَفضُلُهُ بِنَوْعٍ مِنَ ٱلْفَضِيلَةِ ٱلْفَضْلِيَّةِ . اِذْ لَيسَ فِي اَجزَاءِ ٱلعَالَمِ مَا هُوَ كَامِلٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلْجِهَاتِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْوَضِيعُ ٱلْخَامِلُ ٱلذِّكْرِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ اَشيَاءَ لَمْ يَفُزْ بِهَا مَنْ هُوَ فَوْقَهُ . فَقَدْ صَحَّ مَا وَصَفْنَا . وَيَنْتَفِعُ ٱلْخَطِيبُ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلسِّيَاسَاتِ معَ هٰؤُلَاءِ ٱلطَّبَقَاتِ ٱلثَّلَاثِ . . . وَنَقُولُ اَيضًا اِنَّ اَنفَعَ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يَسْلُكُهَا ٱلخَطِيبُ فِي ذٰلِكَ تَأَمُّلُ اَحوَالِ ٱلنَّاسِ وَاَعْمَالِهِمْ وَمُتَصَرَّفَاتِهِمْ مَا شَهِدَهَا وَمَا غَابَ عَنْهَا مِمَّا سَمِعَهُ وَتَنَامَى اِلَيْهِ مِنهَا وَاَنْ يُمْعِنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَيُمَيِّزَ مَحَاسِنَهَا وَمَسَاوِئَهَا وَبَيْنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ لَهُمْ مِنهَا . ثُمَّ لِيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّمَسُّكِ بِمَحَاسِنِهَا وَحَضِّ ٱلنَّاسِ عَلَى طَلَبِهَا لِيَنَالُوا مِنْ مَنَافِعِهَا مِثْلَ مَا نَالَهُ مَنْ تَقَدَّمَهُمْ وَيَجْتَهِدْ فِي ٱلتَّنَكُّبِ عَنْ مَسَاوِئِهَا لِيَأْمَنَ مِنْ مَضَارِّهَا وَيَسْلَمَ مِنْ غَوَائِلِهَا مِثْلَ مَا سَلِمُوا . وَنَقُولُ اَيضًا اِنَّ لِكُلِّ شَخْصٍ مِنَ ٱلْاَشْخَاصِ

النَّاس قُوَّتَيْنِ إحداهما ناطِقَةٌ وَالأُخرى بهيمِيَّةٌ وَلِكُلّ واحدةٍ مِنهما نِزاعٌ غالِبٌ. فَنِزاعُ القُوَّةِ البَهِيمِيَّةِ نَحْوَ اللَّذاتِ العاجِلَةِ الشَّهْوانِيَّةِ مِثْلَ أَنْواعِ الغِذاءِ وَنِزاعُ القُوَّةِ النّاطِقَةِ نَحْوَ الأُمورِ المَحْمُودَةِ العَواقِبِ.. فَعلى كُلِّ مَنْ يُرشِدُ الجُمهورَ وَيَحُضُّهُمْ عَلى نَيْلِ الفَضائِلِ أَنْ لا يَتَغافَلَ عَنْ تَحْرِيضِهِمْ عَلَى ما هُوَ أَصْلَحُ لَهُمْ وَأَنْ لا يُهْمِلَهُمْ فَإِنَّهُ مَتى ما أَهْمَلَهُمْ تَحَرَّكُوا نَحْوَ الطَّرَفِ الآخَرِ الَّذي هُوَ البَهِيمِيُّ. وَإِذا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ تَشَبَّثُوا بِبَعْضٍ مِنْهُ حَتَّى إِذا أَرادَ رَدَّهُمْ عَمَّا تَحَرَّكُوا نَحْوَهُ لَحِقَهُ مِنَ النَّصَبِ أَضْعافَ ما كانَ يَلْحَقُهُ إِذا لَمْ يَكُنْ أَهْمَلَهُمْ. وَنَقُولُ أَيضًا إِنَّ الخَطِيبَ لا يَنْبُو في جَمِيعِ مُتَصَرَّفاتِهِ مِنْ أَنْ يَلْقَى الجُمْهُورَ مائِلًا إِلَى أَمْرٍ مَحْمُودٍ أَوْ أَمْرٍ مَذْمُومٍ. وَلَهُ في كُلِّ واحِدٍ مِنَ الأَمْرَيْنِ فائِدَةٌ وَمَوْضِعُ رِياضَةٍ لِلتَّصَرُّفِ وَهُوَ أَنْ يُحاوِلَ دَفْعَ السّامِعِينَ إِلَى ذلِكَ الأَمْرِ المَحْمُودِ الَّذي يَلْقاهُ إِنْ وَجَدَ السَّبِيلَ إِلَى الدَّفْعِ إِلَيْهِ وَيُنَبِّهَهُمْ عَلَى فَضِيلَتِهِ وَيُوجِبَ عَلَيْهِمِ التَّمَسُّكَ بِها مَتى وَجَدَ الفُرْصَةَ لِذلِكَ. وَإِذا يَلْقاهُ الأَمْرُ المَذْمُومُ فَلْيَجْتَهِدْ فِي التَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالتَّجْنِيبِ مِنْهُ. وَإِنْ لَمْ يَجِدْ إِلَى ذلِكَ سَبِيلًا فَلْيُنَبِّهْهُمْ عَلَى الاعْتِبارِ بِمَنْ نالَهُمْ مَضارُّ مِثْلِها. فَقَدْ ظَهَرَ أَنَّ لِلْخَطِيبِ فِي جَمِيعِ أَحْوالِهِ جُلِّها وَدِقِّها خَيْرِها وَشَرِّها مَوْضِعَ الرِّياضَةِ لِنَفْسِهِ وَإِرْشادِ الجُمْهُورِ. وَإِذا تَيَقَّنَ ذلِكَ فَيَنْبَغِي أَنْ يُقْدِمَ عَلى سِياسَةِ الأَحْوالِ بِقَلْبٍ قَوِيٍّ وَنِيَّةٍ صادِقَةٍ وَصَدْرٍ واسِعٍ وَثِقَةٍ أَنَّ ما يَأْتِيهِ مِنْ ذلِكَ وَإِنْ قَلَّ يُجْدِي عَلَيْهِ نَفْعًا يَجِلُّ. وَنَبْدَأُ بِتَعَهُّدِ الخَطِيبِ لِلرُّؤَساءِ إِنَّهُ

يجب عليه ان يكون ملازما لما هو في صدده مواظبا على ما فوض اليه ولا يخشى الملال وخصوصا من الملوك. وان يكون مجتهدا في طلب وجوه حسان لكل ما يطالبه منهم اذ لا شيء من الامور في العالم الا وله وجهان احدهما جميل والآخر قبيح فليطلب لكل امر من اموره وجها جميلا يصرفه اليه ويتكلف لذكره بحضرته فان الخطيب المفوض اليه تدبير ذلك الرئيس كالسيل المنحدر من الربوة ان اراد المرء ان يواجهه اهلك نفسه واتى عليه السيل فاغرقه. وان سعى معه وعلى جانبيه وتلطف ليصرفه الى الناحية بان يطرح في بعض جوانبه مقدارا من السدد ويطرق له من الجانب الآخر لا ينشب ان يصرفه الى حيث شاء. فينبغي له كذلك ان يستعمل مع الرئيس في صرف وجهه عما يريد صرفه عن امر يريد ان يجري معه فيما هو جار نحوه ولا يواجهه وان كان في غاية الانبساط معه ولا يقر بما يلقي منه الى الناس مما يستقبح فسيان بين الخبر والاقرار.. وينبغي ان يتلطف كل التلطف في مثل المنافع من جهة الرؤساء بان لا يلح في السؤال ولا يديمه ولا يظهر الطمع والشره من نفسه ويجتهد في ان يطلب من الرؤساء اسباب المنافع لا المنافع انفسها.. وليجتهد في ان يظهر في كل ما يقول ويفعل انه انما يفعله زينة وجمالا للرئيس لا لنفسه وانه يريد وجه الصلاح في خلاف ما يأبيه ويذكر له في الوقت بعد الوقت على سبيل الحكايات عن غيره والحيل اللطيفة

بَعضَ مَا يَعرِضُ مِمَّا هُوَ فِيهِ. فَإِنَّهُ مَتَى مَا اسْتَعْمَلَ هٰذِهِ الطَّرِيقَ لَا يَنْشَبُ أَنْ يَعُودَ الحَالُ بُرَادِهِ.. وَأَنْ يَعْلَمَ أَنَّ لِلرُّؤَسَاءِ هِمَماً يَنفَرِدُونَ بِهَا عَمَّنْ سِوَاهُمْ مِنَ النَّاسِ وَهِيَ أَنَّهُمْ يَعْتَقِدُونَ فِي جَمِيعِ مَنْ دُونَهُمُ الاِسْتِخْدَامَ وَالاِسْتِعْبَادَ وَفِي أَنفُسِهِمِ الإِصَابَةَ فِي جَمِيعِ مَا يَأْتُونَ وَإِنَّمَا يَحْدُثُ هٰذَا بِهِمَّتِهِمْ لِكَثْرَةِ مَدْحِ النَّاسِ لَهُمْ وَإِطْرَائِهِمْ أَعْمَالَهُمْ وَتَصْوِيبِهِمْ آرَاءَهُمْ

فَهٰذِهِ قَوَانِينُ يَنْتَفِعُ بِاسْتِعْمَالِهَا الخَطِيبُ فِي مَعَاشِرِ الرُّؤَسَاءِ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا المَرْءُ مَعَ الأَكْفَاءِ فَسَنَذْكُرُ مِنْهَا جُمَلًا وَنَقُولُ إِنَّ الأَكْفَاءَ لَا يَخْلُو مِنْ أَنْ يَكُونُوا أَصْدِقَاءَ أَوْ أَعْدَاءَ أَوْ لَيْسُوا بِأَصْدِقَاءَ وَلَا أَعْدَاءَ. وَالأَصْدِقَاءُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الأَصْفِيَاءُ المُخْلِصُونَ فِي الصَّدَاقَةِ فَيَنْبَغِي لِلْمُتَكَلِّمِ أَنْ يُدِيمَ مُلَاطَفَتَهُمْ وَتَعَهُّدَ أَسْبَابِهِمْ وَإِهْدَاءَ مَا يَسْتَحْسِنُهُ وَمَا يَتَيَسَّرُ لَهُ إِلَيْهِمْ فِي كُلِّ وَقْتٍ. وَيَجْرِيَ الحَالُ فِيمَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ بِذٰلِكَ بِغَيْرِ أَنْ يُظْهِرَ مِنْهُ مَلَالًا أَوْ تَقْصِيرًا وَيَجْتَهِدَ فِي الإِكْثَارِ مِنْهُمْ غَايَةَ الجُهْدِ فَإِنَّ الصَّدِيقَ زَيْنُ المَرْءِ وَعَضُدُهُ وَعَوْنُهُ وَنَاصِرُهُ وَمُذِيعُ فَضَائِلِهِ وَكَاتِمُ هَفَوَاتِهِ وَمُخْفِي زَلَّاتِهِ وَمَهْمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ أَكْثَرَ كَانَتْ أَحْوَالُ الخَطِيبِ فِيمَا بَيْنَهُمْ أَحْسَنَ وَأَقْوَمَ. وَالصِّنْفُ الآخَرُ أَيِ الأَصْدِقَاءُ فِي الظَّاهِرِ عَنْ لَا صِدْقٍ فِيمَا يُظْهِرُونَهُ بَلْ بِتَشَبُّهٍ وَتَصَنُّعٍ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يُعَامِلَهُمْ بِمُدَارَاةٍ وَيُحْسِنَ إِلَيْهِمْ وَلَا يُطْلِعَهُمْ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَسْرَارِهِ وَخُصُوصاً مِنْ عُيُوبِهِ. وَلْيَجْتَهِدْ فِي اسْتِمَالَتِهِمْ وَالصَّبْرِ مَعَهُمْ وَمُعَامَلَتِهِمْ بِحَسَبِ الظَّاهِرِ

دُونَ اَخذِهِمْ بِالْبَاطِنِ وَلَا يَأْخُذَهُمْ بِالتَّقْصِيرِ فَاِنَّهُ مَهْمَا عَمِلَ ذٰلِكَ
يُرْجَى صَلَاحُهُمْ وَرُجُوعُهُمْ اِلَى مُرَادِهِ وَلَعَلَّهُمْ يَصِيرُونَ فِي رُتْبَةِ
اَلْاَصْفِيَاءِ لَهُ . اَمَّا اَلْاَكْفَاءُ اَلْاَعْدَاءُ فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَتَجَلَّدَ لَهُمْ
وَيَكْشِفَ دَسَائِسَهُمْ وَدَغَلَ نِيَّاتِهِمْ . وَاَمَّا سَائِرُ اَلنَّاسِ اَلَّذِينَ لَيْسُوا
بِصَدِيقٍ وَلَا عَدُوٍّ فَهُمْ طَبَقَاتٌ سَنَذْكُرُ جُلَّهَا فَمِنْهُمْ اَلنُّصَحَاءُ اَلَّذِينَ
يَتَبَرَّعُونَ بِالنَّصِيحَةِ فَالْوَاجِبُ اَنْ لَا يَذْكُرَ كُلَّ مَا يُنْهَى اِلَيْهِ
وَيَعْزِمَ عَلَى قَلْبِهِ اَوَّلًا بِاَنْ لَا يَغْتَرَّ بِكُلِّ قَوْلٍ يَسْمَعُهُ بَلْ يَتَأَمَّلَ
اَقَاوِيلَهُمْ وَيَتَعَرَّفَ اَغْرَاضَهُمْ غَايَةَ اَلتَّعَرُّفِ لِيَقِفَ مَعَ مَعْرِفَةِ اَغْرَاضِهِمْ
عَلَى حَقِيقَةِ اَقَاوِيلِهِمْ فَاِذَا لَاحَ لَهُ وَجْهُ اَلصَّوَابِ حَقِيقَةً بَادَرَ اِلَى
اِنْفَاذِ اَلْاَمْرِ . وَمِنْهُمْ اَلصُّلَحَاءُ وَهُمْ اُنَاسٌ يَتَبَرَّعُونَ لِاِصْلَاحِ
مَا بَيْنَ اَلنَّاسِ فَيَجِبُ عَلَى اَلْخَطِيبِ اَنْ يَمْدَحَهُمْ اَبَدًا عَلَى مَا يَفْعَلُونَهُ
وَاَنْ يَتَشَبَّهَ بِهِمْ فِي جَمِيعِ اَحْوَالِهِ فَاِنَّ مَذَاهِبَهُمْ مَرْضِيَّةٌ عِنْدَ
كُلِّ اَلنَّاسِ وَمَهْمَا مَالَ اَلْخَطِيبُ اِلَيْهِمْ عُرِفَ بِالْخَيْرِ وَحُسْنِ
اَلنِّيَّةِ . وَمِنْهُمْ اَلسُّفَهَاءُ فَيَجِبُ عَلَى اَلْخَطِيبِ اَنْ لَا يُؤَاتِيَهُمْ وَلَا
يُقَابِلَهُمْ بِمَا هُمْ فِيهِ مِنَ اَلسَّفَاهَةِ بَلْ يَتَلَقَّاهُمْ اَبَدًا بِحِلْمٍ رَزِينٍ
وَسُكُونٍ بَلِيغٍ لِيَيْأَسُوا مِنْ مَنَالَاتِهِمْ بِمَا هُمْ فِيهِ وَلَا يُؤْذُوهُ بَعْدَ
ذٰلِكَ مَتَى يَلْقَوْهُ بِالْمُشَاتَمَةِ فَيَجِبُ اَنْ يَتَلَقَّاهُمْ بِقِلَّةِ اَلْاِكْتِرَاثِ .
وَمِنْهُمْ اَهْلُ اَلْكِبْرِ وَالْمُنَاقَشَةِ فَيَجِبُ اَنْ يُقَابِلَهُمْ بِمِثْلِهِ لِاَنَّهُ اِنْ
تَوَاضَعَ لَهُمْ اَحَسُّوا مِنْهُ بِضُعْفٍ وَتَوَهَّمُوا اَنَّ فِعْلَهُمْ ذٰلِكَ صَوَابٌ
وَاَنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنَ اَلتَّوَاضُعِ لَهُمْ . وَمَتَى تَكَبَّرَ اَلْمَرْءُ عَلَيْهِمْ

وَكَاثَرُهُمْ فِي ٱلْأَحْوَالِ وَتَأَذَّوْا بِهِ عَلِمُوا أَنَّ ٱلذَّنْبَ فِي ذٰلِكَ لَهُمْ وَرَجَعُوا إِلَى ٱلتَّوَاضُعِ

وَأَمَّا ٱلَّذِي يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهُ مَعَ مَنْ دُونَهُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّا نَصِفُ مِنْهُ مَا تَيَسَّرَ وَنَقُولُ : فَمِنْهُمُ ٱلضُّعَفَاءُ فَيَجِبُ أَنْ يَتَعَهَّدَهُمْ بِٱلْمُوَاسَاةِ وَرِقَّةِ ٱلْكَلَامِ بِغَايَةِ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُخِلَّ بِأَحْوَالِ نَفْسِهِ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ فَإِنْ كَانُوا أُولِي طَبَائِعَ رَدِيئَةٍ يَقْصِدُونَ ٱلْعُلُومَ لِيَسْتَعْمِلُوهَا فِي ٱلشُّرُورِ فَعَلَى ٱلْخَطِيبِ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى تَهْذِيبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَلَا يُعَلِّمَهُمْ شَيْئًا يَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِيمَا لَا يَجِبُ وَيَجْتَهِدَ فِي كَشْفِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ رَدَاءَةِ ٱلطَّبْعِ لِيُحَذِّرَهُمْ مِنْهُ. وَمِنْهُمُ ٱلْبُلَدَاءُ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى ذَكَاؤُهُمْ وَبَرَاعَتُهُمْ فَيَنْبَغِي أَنْ يَحُثَّهُمْ عَلَى مَا هُوَ أَعْوَدُ عَلَيْهِمْ . وَمِنْهُمُ ٱلْمُتَعَلِّمُونَ ذَوُو ٱلْأَخْلَاقِ ٱلطَّاهِرَةِ وَٱلطَّبَائِعِ ٱلْجَيِّدَةِ فَيَجِبُ أَنْ لَا يَدَّخِرَهُمْ شَيْئًا مِمَّا عِنْدَهُ مِنَ ٱلْعُلُومِ.. فَهٰذِهِ أُصُولٌ وَقَوَانِينُ مَتَى مَا ٱسْتَعْمَلَهَا ٱلْخَطِيبُ فِي كَلَامِهِ وَقَاسَ عَلَيْهَا فِي مُتَصَرَّفَاتِ أُمُورِهِ وَأَسْبَابِهِ ٱسْتَقَامَتْ بِهِ أَحْوَالُهُ وَنَجَعَ فِي ٱلْقَوْمِ كَلَامُهُ



الفصل الخامس

في الاخلاق والاهواء

البحث الاول

في تعريف الاخلاق

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريّا بن عدي)

(راجع صفحة ٣ من الجزء الثاني من علم الادب)

إنَّ ٱلْخُلُقَ هُوَ حالٌ بِهِ يَفعلُ ٱلإنسانُ أفعالَهُ بِلَا رَوِيَّةٍ وَلَا ٱختِيارٍ. وَٱلْخُلُقُ قَدْ يَكُونُ في بَعْضِ ٱلناسِ غَرِيزَةً وطَبْعًا وَفي بَعْضِ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُ إلَّا بِٱلرِّيَاضَةِ وَٱلِاجْتِهَادِ. وَقَدْ يُوجَدُ فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلناسِ بِغَيْرِ رِيَاضَةٍ وَلَا تَعَلُّمٍ كَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلْعِفَّةِ وَٱلْعَدْلِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلأَخْلَاقِ ٱلمَحْمُودَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلناسِ مَنْ يُوجَدُ فِيهِم ذٰلِكَ. فَمِنْهُمْ مَنْ يَصِيرُ إلَيْهِ بِٱلرِّيَاضَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَبْقَى عَلَى عَادَتِهِ وَيَجْرِي عَلَى مَسِيرَتِهِ. فَأَمَّا ٱلأَخلَاقُ ٱلْمَذْمُومَةُ فَإنَّها فِي كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ كَٱلبُخْلِ وَٱلْجُبْنِ وَٱلتَّشَرُّرِ فَإنَّ هٰذِهِ ٱلعَادَاتِ غَالِبَةٌ عَلَى أَكْثَرِ ٱلنَّاسِ مَالِكَةٌ لَهُمْ مُتَسَلِّطَةٌ عَلَيْهِمْ بَلْ قِيلَ لَا يُوجَدُ فِي ٱلنَّاسِ مَنْ يَخْلُو مِنْ خُلُقٍ مَكْرُوهٍ وَيَسْلَمُ مِنْ جَمِيعِ ٱلْعُيُوبِ وَلٰكِنَّهُمْ يَتَفَاضَلُونَ

فِي ذٰلِكَ كَمَا يَتَفَاضَلُونَ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ. وَقَدْ يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ بِٱلتَّفَاضُلِ إِلَّا أَنَّ ٱلْمَجْبُولِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْجَمِيلَةِ قَلِيلُونَ جِدًّا وَٱلْمُبْغِضِينَ لَهَا كَثِيرُونَ. فَأَمَّا ٱلْمَجْبُولُونَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلسَّيِّئَةِ فَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ لِأَنَّ ٱلْغَالِبَ عَلَى طَبِيعَةِ ٱلْإِنْسَانِ ٱلشَّرُّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا ٱسْتَرْسَلَ مَعَ طَبْعِهِ وَلَمْ يَسْتَعْمِلِ ٱلْفِكْرَ وَلَا ٱلتَّمْيِيزَ وَلَا ٱلْحَيَاءَ وَلَا ٱلتَّحَفُّظَ فِي جَمِيعِ أَعْمَالِهِ كَانَ ٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ أَخْلَاقَ ٱلْبَهَائِمِ وَذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَتَمَيَّزُ عَنِ ٱلْبَهَائِمِ بِٱلْفِكْرِ وَٱلتَّمْيِيزِ فَقَطْ فَإِذَا لَمْ يَسْتَعْمِلْهُمَا كَانَ مُشَارِكًا لَهَا فِي عَادَاتِهَا وَٱلشَّهَوَاتُ مُسْتَوْلِيَةٌ عَلَيْهِ وَٱلْحَيَاءُ غَائِبٌ عَنْهُ وَٱلْغَضَبُ مُسْتَقِرٌّ بِهِ وَٱلسَّكِينَةُ غَيْرُ حَاضِرَةٍ عِنْدَهُ وَٱلْحِرْصُ وَٱلِاحْتِشَادُ دَيْدَنُهُ وَٱلشَّرَهُ لَا يُفَارِقُهُ. وَإِذَا كَانَ ٱلنَّاسُ مَطْبُوعِينَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ مُنْقَادِينَ لِلشَّهَوَاتِ ٱلدَّنِيئَةِ وَقَعَ ٱلِافْتِقَارُ إِلَى ٱلشَّرَائِعِ وَٱلسُّنَنِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَعَظُمَ ٱلِانْتِفَاعُ بِٱلْمُلُوكِ ٱلْحِسَانِ ٱلسِّيرَةِ لِيَرْدَعُوا ٱلظَّالِمَ عَنْ ظُلْمِهِ وَيَمْنَعُوا ٱلْغَاصِبَ عَنْ غَصْبِهِ وَيُعَاقِبُوا ٱلْفَاجِرَ عَلَى فُجُورِهِ وَيَقْمَعُوا ٱلْجَائِرَ حَتَّى يَعُودَ إِلَى ٱلِاعْتِدَالِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ. أَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي طِبَاعِ ٱلنَّاسِ فَمِنْهُمْ مَنْ يَتَظَاهَرُ بِهَا وَيَنْقَادُ إِلَيْهَا وَهُمْ أَشْرَارُ ٱلنَّاسِ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَتَنَبَّهُ بِجُودَةِ ٱلْفِكْرِ وَقُوَّةِ ٱلتَّمْيِيزِ عَلَى قُبْحِهَا فَيَأْنَفُ مِنْهَا وَيَتَصَنَّعُ لِاجْتِنَابِهَا (١) وَذٰلِكَ يَكُونُ عَنْ طَبْعٍ كَرِيمٍ وَنَفْسٍ شَرِيفَةٍ. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يَتَنَبَّهُ لِذٰلِكَ إِلَّا أَنَّهُ

(١) ويروى: ويتضع لاجتنابها

إِذَا نُبِّهَ عَلَيْهِ أَحَسَّ بِقُبْحِهِ فَرُبَّمَا حَمَلَ نَفْسَهُ عَلَى تَرْكِهِ. وَمِنْهُمْ مَنْ إِذَا تَنَبَّهَ إِلَى مَا فِيهِ مِنَ ٱلنَّقَائِصِ أَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا وَرَامَ ٱلْعُدُولَ عَنْهَا تَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ وَلَمْ يُطَاوِعْهُ طَبْعُهُ وَلَوْ كَانَ مُؤْثِرًا لِلْعُدُولِ عَنْهَا مُجْتَهِدًا فِي ذٰلِكَ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ تَحْتَاجُ أَنْ تُرْشَدَ إِلَى طَرِيقِ ٱلتَّدَرُّبِ وَٱلتَّعَلُّمِ بِٱلْعَادَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ حَتَّى تَصِيرَ إِلَيْهَا عَلَى ٱلتَّدْرِيجِ. وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ إِذَا تَنَبَّهَ عَلَى ٱلْأَخْلَاقِ ٱلرَّدِيئَةِ أَوْ نُبِّهَ عَلَيْهَا فَلَا يَحِنُّ إِلَى تَجَنُّبِهَا وَلَا تَسْمَحُ نَفْسُهُ بِمُفَارَقَتِهَا بَلْ يُؤْثِرُ ٱلْإِصْرَارَ عَلَيْهَا مَعَ عِلْمِهِ بِرَدَاءَتِهَا وَقُبْحِهَا وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ لَيْسَ إِلَى تَهْذِيبِهَا طَرِيقٌ إِلَّا بِٱلْقَهْرِ وَٱلْعُقُوبَةِ إِنْ لَمْ يَرْدَعْهَا ٱلتَّخْوِيفُ وَٱلتَّرْهِيبُ. فَأَمَّا ٱلْأَخْلَاقُ ٱلْمَحْمُودَةُ فَإِنَّهَا وَإِنْ كَانَتْ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ غَرِيزِيَّةً فَلَيْسَتْ فِي جَمِيعِهِمْ فَعَلَى ٱلْبَاقِينَ أَنْ يَصِيرُوا إِلَيْهَا بِٱلتَّدَرُّبِ وَٱلرِّيَاضَةِ وَيَرْتَقُوا إِلَيْهَا بِٱلْاِعْتِيَادِ وَٱلتَّأَلُّفِ وَقَدْ يُوجَدُ فِي بَعْضِ ٱلنَّاسِ مَنْ لَا يَقْبَلُ طَبْعُهُ ٱلْعَادَاتِ ٱلْحَسَنَةَ وَلَا ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْجَمِيلَةَ وَذٰلِكَ يَكُونُ لِرَدَاءَةِ جَوْهَرِهِ وَخُبْثِ عُنْصُرِهِ. وَهٰذِهِ ٱلطَّائِفَةُ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْأَشْرَارِ ٱلَّذِينَ لَا يُرْجَى صَلَاحُهُمْ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقْبَلُ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَيَأْنَفُ طَبْعُهُ عَنْ بَعْضِهَا فَلَا يُعَدُّ هٰذَا شِرِّيرًا بَلْ تَكُونُ رُتْبَتُهُ فِي ٱلْخَيْرِ وَٱلتَّهْذِيبِ بِحَسَبِ مَحَاسِنِهِ



البحث الثاني

في الاخلاق الحسنة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(راجع صفحة ٤٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

امَّا ٱلأَخلَاقُ ٱلَّتِي تُعَدُّ فَضَائِلَ فَانَّ مِنْهَا (ٱلْعِفَّةَ) وَهِيَ ضَبْطُ ٱلنَّفْسِ عَنِ ٱلشَّهَوَاتِ وَقَسْرُهَا عَلَى ٱلِاكْتِفَاءِ بِمَا يُقِيمُ اوَدَ ٱلْجَسَدِ وَيَحْفَظُ صِحَّتَهُ فَقَط وَٱجْتِنَابُ ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّقْصِيرِ فِي جَمِيعِ ٱللَّذَّاتِ وَقَصْدِ ٱلِاعْتِدَالِ . وَانْ يَكُونَ مَا يُقْتَصَرُ عَلَيْهِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُسْتَحَبِّ ٱلْمُتَّفَقِ عَلَى ٱلِارْتِضَاءِ بِهِ وَفِي اوْقَاتِ ٱلْحَاجَةِ ٱلَّتِي لَا غِنَاءَ عَنْهَا وَعَلَى ٱلْقَدْرِ ٱلَّذِي لَا يَحْتَاجُ إِلَى اكْثَرَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ ٱلْحَالَةُ هِيَ غَايَةُ ٱلْعِفَّةِ

(وَمِنْهَا ايْضًا ٱلْقَنَاعَةُ) وَهِيَ ٱلِاقْتِصَارُ عَلَى مَا سَنَحَ مِنَ ٱلْعَيْشِ وَٱلرِّضَى بِمَا تَسَهَّلَ مِنَ ٱلْمَعَاشِ وَتَرْكُ ٱلْحِرْصِ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْاموَالِ وَطَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ مَعَ ٱلرَّغْبَةِ فِي جَمِيعِ ذٰلِكَ وَايْثَارِهِ وَٱلْمَيْلِ إِلَيْهِ وَقَهْرِ ٱلنَّفْسِ عَلَى ذٰلِكَ وَٱقْتِنَعِ بِٱلْيَسِيرِ مِنْهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ اوَاسِطِ ٱلنَّاسِ وَاصَاغِرِهِمْ فَامَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَلَيْسَ ذٰلِكَ مُسْتَحْسَنًا مِنْهُمْ وَلَا تُعَدُّ ٱلْقَنَاعَةُ مِنْ فَضَائِلِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّصَوُّنُ) وَهُوَ ٱلتَّحَفُّظُ مِنَ ٱلتَّبَذُّلِ . فَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلتَّحَفُّظُ

مِنَ ٱلْهَزْلِ ٱلْقَبِيحِ وَمُخَالَطَةِ اَهْلِهِ وَحُضُورِ مَجَالِسِهِ وَضَبْطُ ٱللِّسَانِ عَنِ ٱلْفُحْشِ وَذِكْرِ ٱلْخَنَا وَٱلْمَزْحِ وَٱلسَّخِيفِ وَخَاصَّةً فِي ٱلْمَحَافِلِ وَمَجَالِسِ ٱلْمُحْتَشِمِينَ اِذْ لَا اُبَّهَةَ لِمَنْ يُسْرِفُ فِي ٱلْمَزْحِ وَيُفْحِشُ فِيهِ . وَمِنَ ٱلتَّصَوُّنِ ٱلِانْقِبَاضُ عَنْ اَدْنِيَاءِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَمُصَادَقَتِهِمْ وَمُجَالَسَتِهِمْ وَٱلتَّحَرُّزُ مِنَ ٱلْعِيشَةِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱكْتِسَابِ ٱلْاَمْوَالِ مِنَ ٱلْوُجُوهِ ٱلْخَسِيسَةِ وَٱلتَّرَفُّعُ عَنْ طَلَبِ ٱلْحَاجَاتِ مِنْ لِئَامِ ٱلنَّاسِ وَسَفَلَتِهِمْ وَٱلتَّوَاضُعِ لِمَنْ لَا قَدْرَ لَهُ وَٱلْاِقْلَالُ مِنَ ٱلْبُرُوزِ اَعْنِي ٱلطَّوَافَ مِنْ غَيْرِ اضْطِرَارٍ وَٱلتَّبَذُّلَ بِٱلْجُلُوسِ فِي ٱلْاَسْوَاقِ وَقَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ حَيْثُ اِنَّ ٱلْاِكْثَارَ مِنْ ذٰلِكَ لَا يَخْلُو مِنَ ٱلْعُيُوبِ فَاِنَّ اَعْظَمَ ٱلنَّاسِ قَدْرًا كَمَا قِيلَ مَنْ ظَهَرَ اسْمُهُ وَخَفِيَ جِسْمُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْحِلْمُ) وَهُوَ تَرْكُ ٱلِانْتِقَامِ عِنْدَ شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ مَعَ ٱلْقُدْرَةِ عَلَى ذٰلِكَ وَهٰذَا ٱلْحَالُ مَحْمُودٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ اِلَى ثَلْمِ جَاهٍ اَوْ فَسَادِ سِيَاسَةٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ اَحْسَنُ لِاَنَّهُمْ اَقْدَرُ عَلَى ٱلِانْتِقَامِ مِنْ مُغْضِبِيهِمْ . وَلَا يُعَدُّ فَضِيلَةً حِلْمُ ٱلصَّغِيرِ عَلَى ٱلْكَبِيرِ وَاِنْ كَانَ قَادِرًا عَلَى مُقَابَلَتِهِ فِي ٱلْحَالِ فَاِنَّهُ وَاِنْ اَمْسَكَ عَنْهُ فَاِنَّمَا يُعَدُّ ذٰلِكَ مِنْهُ خَوْفًا لَا حِلْمًا

(وَمِنْهَا ٱلْوَقَارُ) وَهُوَ ٱلْاِمْسَاكُ عَنْ فُضُولِ ٱلْكَلَامِ وَٱلْعَبَثِ وَكَثْرَةِ ٱلْاِشَارَةِ وَٱلْحَرَكَةِ فِيمَا يُسْتَغْنَى عَنِ ٱلتَّحَرُّكِ فِيهِ وَقِلَّةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلْاِصْغَاءُ عِنْدَ ٱلِاسْتِفْهَامِ وَٱلتَّوَقُّفُ عِنْدَ ٱلْجَوَابِ وَٱلتَّحَفُّظُ عِنْدَ ٱلسُّرْعَةِ وَٱلْمُبَادَرَةِ فِي جَمِيعِ ٱلْاُمُورِ . وَمِنْ قَبِيلِ ٱلْوَقَارِ اَيْضًا ٱلْحَيَاءُ وَهُوَ غَضُّ ٱلطَّرْفِ وَٱلِانْقِبَاضُ مِنَ ٱلْكَلَامِ حِشْمَةً لِلْمُسْتَحْيِينَ مِنْهُ وَهٰذِهِ

ٱلعَادَةُ مَحْمُودَةٌ مَا لَمْ تَكُنْ صَادِرَةً عَنْ عِيٍّ اَوْ عَجْزٍ

(وَمِنْهَا ٱلوُدُّ) وَهُوَ ٱلمَحَبَّةُ ٱلْمُعْتَدِلَةُ مِنْ غَيْرِ اِتِّبَاعِ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْوُدُّ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْاِنْسَانِ اِذَا كَانَ لِاَهْلِ ٱلْفَضْلِ وَٱلنُّبْلِ وَذَوِي ٱلْوَقَارِ وَٱلْاُبَّهَةِ وَٱلْمُتَمَيِّزِينَ مِنَ ٱلنَّاسِ. فَاَمَّا ٱلتَّوَدُّدُ اِلَى اَرَاذِلِ ٱلنَّاسِ وَاَصَاغِرِهِمْ وَاَهْلِ ٱلخَلَاعَةِ وَمَا شَابَهَهُمْ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا. وَحُسْنُ ٱلْوُدِّ مَا نَسَجْتَهُ عَلَى مِنْوَالٍ مُنَاسِبٍ لِلْفَضَائِلِ وَهُوَ اَوْثَقُ ٱلْوُدِّ وَاَثْبَتُهُ فَاَمَّا مَا كَانَ ٱبْتِدَاؤُهُ ٱجْتِمَاعًا عَلَى هَزْلٍ اَوْ طَلَبِ لَذَّةٍ وَمَا شَابَهَ ذٰلِكَ فَلَيْسَ بِمَحْمُودٍ وَلَا بَاقٍ وَلَا ثَابِتٍ وَرُبَّمَا اَفْضَى اِلَى ٱلشَّرِّ

(وَمِنْهَا ٱلرَّحْمَةُ) وَهِيَ خُلُقٌ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوُدِّ وَٱلْجَزَعِ وَٱلرَّحْمَةُ لَا يَكُونُ اِلَّا لِمَنْ يَظْهَرُ مِنْهُ لِرَاحِمِهِ خَلَّةٌ مَكْرُوهَةٌ اِمَّا نَقِيصَةٌ فِي نَفْسِهِ وَاِمَّا مِحْنَةٌ عَارِضَةٌ لَهُ. فَٱلرَّحْمَةُ هِيَ مَحَبَّةٌ لِلْمَرْحُومِ مَعَ جَزَعٍ مِنَ ٱلحَالَةِ ٱلَّتِي رُحِمَ لِاَجْلِهَا . وَهٰذِهِ ٱلحَالَةُ مُسْتَحْسَنَةٌ مَا لَمْ تَخْرُجْ بِصَاحِبِهَا عَنِ ٱلْعَدْلِ وَلَمْ تَنْتَهِ بِهِ اِلَى ٱلْجَوْرِ وَاِلَى فَسَادِ ٱلسِّيَاسَةِ. وَلَيْسَتْ بِمَحْمُودَةٍ رَحْمَةُ ٱلْقَاتِلِ عِنْدَ ٱلْقَوَدِ وَٱلْجَانِي عِنْدَ ٱلْقِصَاصِ

(وَمِنْهَا ٱلْوَفَاءُ) وَهُوَ ٱلصَّبْرُ عَلَى مَا يَبْذُلُهُ ٱلْاِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَرْهَنُ بِهِ لِسَانَهُ وَعَدَمُ ٱلْخُرُوجِ مِمَّا يَضْمَنُهُ وَلَوْ كَانَ مُفْرِطًا وَلَا يُعَدُّ وَفِيًّا مَنْ لَمْ يَلْحَقْهُ بِوَفَائِهِ اَذِيَّةٌ وَلَوْ قَلِيلَةٌ وَكُلَّمَا اَضَرَّ بِهِ ٱلدُّخُولُ تَحْتَ مَا حَكَمَ بِهِ عَلَى نَفْسِهِ كَانَ اَبْلَغَ فِي ٱلْوَفَاءِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ يَنْتَفِعُ بِهِ جَمِيعُ ٱلنَّاسِ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ بِٱلْوَفَاءِ كَانَ مَقْبُولَ ٱلْقَوْلِ عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِي جَمِيعِ مَا يَعِدُ بِهِ وَمَنْ كَانَ مَقْبُولًا كَانَ عَظِيمَ

الجاه الّا انّ انتفاع الملوك بهذا الخلق انفع وحاجتهم اليه اشدّ لانّه متى عرف منهم قلّة الوفاء لم يوثق بمواعيدهم ولم تتم اغراضهم ولم تسكن اليهم جندهم واعوانهم

(ومنها اداء الامانة) وهو التعفّف عمّا يتصرف الانسان فيه من مال غيره وما يوثق به عليه من الاعراض والحرم مع القدرة عليه وردّ ما يستودع الى مودعه

(ومنها كتمان السرّ) وهذا الخلق مركّب من الوقار واداء الامانة. فانّ اظهار السرّ من فضول الكلام. وليس بوقور من تكلّم بالفضول والفضولي ناقص الشرف. فكما انّ من استودع مالا فاخرجه الى غير مودعه قد حقر الامانة كذلك من استودع سرّا فاخرجه الى غير صاحبه فقد حقر الامانة ايضا. وكتمان السرّ محمود من جميع الناس وخاصة من يصحب السلطان واولياء الامور فانّ اخراجه اسرارهم قبيح في نفسه يؤدّي الى ضرر عظيم وبلاء جسيم

(ومنها التواضع) وهو ترك الترؤّس واظهار الخمول وكراهية التعظيم والزيادة في الاكرام وان يتجنّب الانسان المباهاة بما فيه من الفضائل والمفاخرة بالمال والجاه وان يتحرّز من الاعجاب والكبر. ولا يحمد التواضع الّا من اكابر الناس ورؤسائهم واهل الفضل والعلم واما ما سوى هؤلاء فلا يكونون متواضعين بالتواضع لانّ الضعة هي محلّهم ومرتبتهم ولو كانوا غير متضعين

(وَمِنْهَا ٱلْبِشْرُ) وَهُوَ إِظْهَارُ ٱلسُّرُورِ لِمَنْ يَلْقَاهُ ٱلإِنْسَانُ مِنْ إِخْوَانِهِ وَأَوِدَّائِهِ وَأَصْحَابِهِ وَأَوْلِيَائِهِ وَمَعَارِفِهِ وَٱلتَّبَسُّمُ عِنْدَ ٱللِّقَاءِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ لِأَنَّ ٱلْبِشْرَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْوُلَاةِ تَتَأَلَّفُ بِهِ قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْأَعْوَانِ وَٱلْحَاشِيَةِ وَيَزْدَادُ بِهِ تَحَبُّبًا إِلَيْهِمْ وَلَا يُعَدُّ سَعِيدًا مِنَ ٱلْمُلُوكِ أَوِ ٱلْوُلَاةِ مَنْ كَانَ مُبْغِضًا لِرَعِيَّتِهِ لِأَنَّ ذٰلِكَ رُبَّمَا أَدَّى إِلَى فَسَادِ أَمْرِهِ وَزَوَالِ حُكْمِهِ وَمُلْكِهِ

(وَمِنْهَا صِدْقُ ٱللَّهْجَةِ) وَهُوَ ٱلْإِخْبَارُ عَنِ ٱلشَّيْءِ عَلَى مَا هُوَ عَلَيْهِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يُؤَدِّ إِلَى ضَرَرٍ مُفْرِطٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ بِمُسْتَحْسَنٍ عِنْدَ ٱلْإِنْسَانِ إِنْ سُئِلَ عَنْ فَاحِشَةٍ كَانَ ٱرْتَكَبَهَا فَإِنَّهُ لَا يَفِي حُسْنُ صِدْقِهِ بِمَا يَلْحَقُهُ فِي ذٰلِكَ مِنَ ٱلْعَارِ وَٱلْمَنْقَصَةِ ٱلْبَاقِيَةِ ٱللَّازِمَةِ. وَكَذٰلِكَ لَيْسَ يَحْسُنُ صِدْقُهُ إِذَا سُئِلَ عَنْ مُسْتَجِيرٍ ٱسْتَجَارَهُ فَأَخْفَاهُ وَلَا إِنْ سُئِلَ عَنْ جِنَايَةٍ مَتَى صَدَقَ عَنْهَا عُوقِبَ عَلَيْهَا عُقُوبَةً مُؤْلِمَةً. وَٱلصِّدْقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَحْسَنُ فَلَا يَسَعُهُمُ ٱلْكَذِبُ مَا لَمْ يَعُدِ ٱلصِّدْقُ عَلَيْهِمْ بِضَرَرٍ

(وَمِنْهَا سَلَامَةُ ٱلنِّيَّةِ) وَهُوَ ٱعْتِقَادُ ٱلْخَيْرِ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَتَنَكُّبُ ٱلْخُبْثِ وَٱلْغِيلَةِ وَٱلْمَكْرِ وَٱلْخَدِيعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ يَصْلُحُ لِلْمُلُوكِ ٱلتَّخَلُّقُ بِهِ دَائِمًا وَقَدْ لَا يَتِمُّ ٱلْحُكْمُ إِلَّا بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيَلِ وَٱلِاغْتِيَالِ مَعَ ٱلْأَعْدَاءِ وَلٰكِنْ لَا يَحْسُنُ بِهِمِ ٱسْتِعْمَالُهُ مَعَ أَخِصَّائِهِمْ وَأَصْفِيَائِهِمْ وَأَهْلِ طَاعَتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلسَّخَاءُ) وَهُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ وَلَا ٱسْتِحْقَاقٍ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مَا لَمْ يَنْتَهِ الى ٱلسَّرَفِ وَٱلتَّبْذِيرِ فَإِنَّ مَنْ بَذَلَ جَمِيعَ مَا يَمْلِكُهُ لِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّهُ لَا يُسَمَّى سَخِيًّا بَلْ يُسَمَّى مُبَذِّرًا وَمُضَيِّعًا. وَٱلسَّخَاءُ فِي سَائِرِ ٱلنَّاسِ فَضِيلَةٌ مُسْتَحْسَنَةٌ وَأَمَّا فِي ٱلْمُلُوكِ وَٱلْأَوْلِيَاءِ فَأَمْرٌ وَاجِبٌ لِأَنَّ ٱلْبُخْلَ يُؤَدِّي إِلَى ٱلضَّرَرِ ٱلْعَظِيمِ فِي ٱلْأَحْكَامِ. وَٱلسَّخَاءُ وَٱلْبَذْلُ تَرْتَبِطُ بِهِمَا قُلُوبُ ٱلرَّعِيَّةِ وَٱلْجُنْدِ وَٱلْأَعْوَانِ فَيَعْظُمُ ٱلِٱنْتِفَاعُ بِهِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّجَاعَةُ) وَهِيَ ٱلْإِقْدَامُ عَلَى ٱلْمَكَارِهِ وَٱلْمَهَالِكِ عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ إِلَى ذٰلِكَ وَثَبَاتُ ٱلْجَأْشِ اي ٱلْقَلْبِ عِنْدَ ٱلْمَخَاوِفِ وَٱلِٱسْتِهَانَةُ بِٱلْمَوْتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَأَعْوَانِهِمْ أَلْيَقُ وَأَحْسَنُ بَلْ لَيْسَ يَسْتَحِقُّ لِلْمُلْكِ مَنْ عَدِمَ هٰذِهِ ٱلْخَلَّةَ. وَأَكْثَرُ ٱلنَّاسِ أَخْطَارًا وَأَحْوَجُهُمْ إِلَى ٱقْتِحَامِ ٱلْغَمَرَاتِ هُمُ ٱلْمُلُوكُ وَٱلْحُكَّامُ فَٱلشَّجَاعَةُ إِذًا مِنْ أَخْلَاقِهِمِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْمُنَافَسَةُ) وَهِيَ مُنَازَعَةُ ٱلنَّفْسِ إِلَى ٱلتَّشَبُّهِ بِٱلْغَيْرِ فِيمَا يَرَاهُ وَيَرْغَبُ فِيهِ لِنَفْسِهِ وَٱلِٱجْتِهَادُ فِي ٱلتَّرَقِّي إِلَى دَرَجَةٍ أَعْلَى مِنْ دَرَجَتِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَحْمُودٌ إِذَا كَانَتِ ٱلْمُنَافَسَةُ فِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ أَوْ فِيمَا يُكْسِبُ مَجْدًا وَسُؤْدُدًا فَأَمَّا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنِ ٱتِّبَاعِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلْمُبَاهَاةِ بِٱللَّذَّاتِ وَٱلزِّينَةِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ فَمَكْرُوهٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلصَّبْرُ عِنْدَ ٱلشَّدَائِدِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْوَقَارِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مَا لَمْ يَكُنِ ٱلْجَزَعُ نَافِعًا وَٱلْحُزْنُ وَٱلْقَلَقُ

مُجْدِيًا وَالِاجْتِهَادُ دَافِعَةَ ضَرَرِ تِلْكَ الشَّدَائِدِ فَمَا أَحْسَنَ الصَّبْرَ إِذَا عَدِمَتِ الْحِيلَةَ وَمَا أَقْبَحَ الْجَزَعَ إِذَ لَمْ يَكُنْ مُفِيدًا

(وَمِنْهَا عِظَمُ الْهِمَّةِ) وَهُوَ اسْتِصْغَارُ مَا دُونَ النِّهَايَةِ مِنْ مَعَالِي الْأُمُورِ وَطَلَبُ الْمَرَاتِبِ السَّامِيَةِ وَاسْتِحْقَارُ مَا يَجُودُ بِهِ الْإِنْسَانُ عِنْدَ الْعَطِيَّةِ وَالِاسْتِخْفَافُ بِأَوَاسِطِ الْأُمُورِ وَطَلَبِ الْغَايَاتِ وَالتَّهَاوُنُ بِمَا يَمْلِكُهُ وَبَذْلُهُ لِمَنْ يَسْأَلُهُ مِنْ غَيْرِ امْتِنَانٍ وَلَا اعْتِدَادٍ بِهِ. وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ خُصُوصِيَّاتِ الْمُلُوكِ وَالْحُكَّامِ وَقَدْ يَحْسُنُ بِالرُّؤَسَاءِ وَالْعُظَمَاءِ وَمَنْ تَسْمُو نَفْسُهُ إِلَى مَرَاتِبِهِمْ . وَمِنْ عِظَمِ الْهِمَّةِ الْأَنَفَةُ وَالْحَمِيَّةُ وَالْغَيْرَةُ . فَالْأَنَفَةُ هِيَ بُعْدُ النَّفْسِ عَنِ الْأُمُورِ الدَّنِيَّةِ وَالْحَمِيَّةُ وَالْغَيْرَةُ مَعًا وَالْغَضَبُ عِنْدَ الْإِحْسَاسِ بِالنَّقْصِ . وَتَلْحَقُ الْإِنْسَانَ الْغَيْرَةُ عَلَى الْحُرَمِ لِأَنَّ فِي التَّعَرُّضِ لَهُنَّ عَارًا وَمَنْقَصَةً فَإِنَّ الْمُتَعَرِّضَ لِلْحُرَمِ مُهْتَضِمٌ لِصَاحِبِهَا وَمُتَصَرِّفٌ فِي غَيْرِ حَقٍّ لَهُ وَالِاهْتِضَامُ نَقِيصَةٌ وَمِنْ أَعْظَمِ الْهِمَّةِ الْأَنَفَةُ مِنْهُ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ

(وَمِنْهَا الْعَدْلُ) وَهُوَ التَّقَسُّطُ اللَّازِمُ لِلِاسْتِوَاءِ وَاسْتِعْمَالُ الْأُمُورِ فِي مَوَاضِعِهَا وَأَوْقَاتِهَا وَوُجُوهِهَا وَمَقَادِيرِهَا مِنْ غَيْرِ سَرَفٍ وَلَا تَقْصِيرٍ وَلَا تَقْدِيمٍ وَلَا تَأْخِيرٍ



البحث الثالث

في الاخلاق الرديئة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

فَأَمَّا ٱلأَخْلَاقُ ٱلرَّدِيئَةُ ٱلَّتِي تُعَدُّ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَإِنَّ مِنْهَا ٱلْفُجُورَ وَهُوَ ٱلِانْهِمَاكُ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنْهَا وَإِيثَارُ ٱللَّذَّاتِ وَٱلِادْمَانُ عَلَيْهَا وَٱرْتِكَابُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِهَا وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلسَّرَفُ فِي جَمِيعِ ٱلشَّهَوَاتِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا يَهْدِمُ ٱلْحَيَاءَ وَيُذْهِبُ مَاءَ ٱلْوَجْهِ وَيَخْرِقُ حِجَابَ ٱلْحِشْمَةِ

(وَمِنْهَا ٱلشَّرَهُ) وَهُوَ ٱلْحِرْصُ عَلَى ٱكْتِسَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَجَمْعِهَا وَطَلَبِهَا مِنْ كُلِّ وَجْهٍ وَلَوْ قَبُحَ طَرِيقُ ٱكْتِسَابِهَا وَٱلْمُنَاوَشَةُ عَلَيْهَا وَٱلِاسْتِكْثَارُ مِنَ ٱلْقُنْيَةِ وَٱدِّخَارُ ٱلْأَعْرَاضِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ إِلَّا مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْحُكَّامِ فَإِنَّ كَثْرَةَ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلذَّخَائِرِ وَٱلْأَعْرَاضِ تُعِينُهُمْ وَتَزِيدُهُمْ هَيْبَةً فِي نُفُوسِ رَعِيَّتِهِمْ وَأَعْوَانِهِمْ وَأَعْدَائِهِمْ وَأَضْدَادِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلتَّبَذُّلُ) وَهُوَ ٱطِّرَاحُ ٱلْحِشْمَةِ وَتَرْكُ ٱلتَّحَفُّظِ وَٱلْإِكْثَارُ مِنَ ٱلْهَزْلِ وَٱللَّهْوِ وَمُخَالَطَةُ ٱلسُّفَهَاءِ وَحُضُورُ مَجَالِسِ ٱلسُّخْفِ وَٱلْهَزْلِ وَٱلْفُحْشِ وَٱلتَّفَوُّهُ بِٱلْخَنَا وَذِكْرُ ٱلْأَعْرَاضِ وَٱلْمَزْحِ وَٱلْجُلُوسُ فِي ٱلْأَسْوَاقِ وَعَلَى قَوَارِعِ ٱلطُّرُقِ وَٱلتَّكَسُّبُ بِٱلْمَعَايِشِ ٱلزَّرِيَّةِ وَٱلتَّوَاضُعُ

لِلسُّفَلَاءِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(وَمِنْهَا ٱلسَّفَهُ) وَهُوَ ضِدُّ ٱلْحِلْمِ وَهُوَ سُرْعَةُ ٱلْغَضَبِ وَٱلطَّيْشِ مِنْ يَسِيرِ ٱلْأُمُورِ وَٱلْمُبَادَرَةُ فِي ٱلْبَطْشِ وَٱلْإِيقَاعُ بِٱلْمُؤْذِي وَٱلسَّرَفُ فِي ٱلْعُقُوبَةِ وَإِظْهَارُ ٱلْجَزَعِ مِنْ أَدْنَى ضَرَرٍ وَٱلسَّبُّ ٱلْفَاحِشُ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ أَقْبَحُ مِنْهُ بِغَيْرِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْخُرْقُ) وَهُوَ كَثْرَةُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْحَرَكُ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ وَشِدَّةُ ٱلضَّحِكِ وَٱلْمُبَادَرَةُ إِلَى ٱلْأُمُورِ مِنْ غَيْرِ تَوَقُّفٍ وَسُرْعَةُ ٱلْجَوَابِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِأَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَذَوِي ٱلنَّبَاهَةِ أَقْبَحُ. وَمِنْ قَبِيلِهِ قِلَّةُ ٱلْاِحْتِشَامِ لِمَنْ يَجِبُ ٱحْتِشَامُهُ وَٱلْمُجَاهَرَةُ بِٱلْأَجْوِبَةِ ٱلْغَلِيظَةِ ٱلْفَظَّةِ ٱلْمُسْتَشْنَعَةِ وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً بِذَوِي ٱلْوَقَارِ

(وَمِنْهَا ٱلْهَوَى) وَهُوَ إِفْرَاطُ ٱلْحُبِّ وَٱلسَّرَفُ فِيهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَى ٱلْفُجُورِ وَٱرْتِكَابِ ٱلْفَوَاحِشِ وَكَثْرَةِ ٱلتَّبَذُّلِ وَقِلَّةِ ٱلْحَيَاءِ وَهُوَ يَشِينُ ٱلْإِنْسَانَ كَثِيرًا

(وَمِنْهَا ٱلْقَسَاوَةُ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْبُغْضِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَهُوَ ٱلتَّهَاوُنُ بِمَا يَلْحَقُ ٱلْغَيْرَ مِنَ ٱلْأَلَمِ وَٱلْأَذَى. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ إِلَّا مِنَ ٱلْجُنْدِ وَأَصْحَابِ ٱلسِّلَاحِ وَٱلْمُتَوَلِّينَ ٱلْحُرُوبَ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مَكْرُوهٍ مِنْهُمْ إِذَا كَانَ فِي مَوْضِعِهِ

(وَمِنْهَا ٱلْغَدْرُ) وَهُوَ ٱلرُّجُوعُ عَمَّا يَبْذُلُهُ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَضْمَنُ ٱلْوَفَاءَ بِهِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ إِنْ كَانَ لِصَاحِبِهِ فِيهِ مَصْلَحَةٌ

وَمَنفعةٌ. وهُوَ بِالْمُلوكِ وَالْحُكَّامِ اَقبَحُ وَاَضرُّ فَاِنَّ مَنْ عُرِفَ مِنْهُمْ بِالْغَدْرِ لَمْ يَرْكُنْ اِلَيْهِ اَحَدٌ وَلَمْ يَثِقْ بِهِ اِنْسَانٌ فَاِذَا كَانَ كَذٰلِكَ فَسَدَ نِظَامُ مُلْكِهِ

(وَمِنْهَا اَلْخِيَانَةُ) وَهِيَ اَلاِسْتِبْدَالُ بِمَا يُؤْتَمَنُ اَلاِنْسَانُ عَلَيْهِ مِنَ اَلْاَمْوَالِ وَاَلْاَعْرَاضِ وَاَلْحُرَمِ وَتَمَلُّكُ مَا يُسْتَوْدَعُ وَمُجَاحَدَةُ مُودِعِهِ. وَمِنَ اَلْخِيَانَةِ اَيْضًا طَيُّ اَلْاَخْبَارِ اِذَا نُدِبَ اَلاِنْسَانُ لِتَأْدِيَتِهَا وَتَحْرِيفُ اَلرَّسَائِلِ اِذَا حَمَلَهَا وَصَرْفُهَا عَنْ وَجْهِهَا. وَهٰذَا اَلْخُلُقُ اَعْنِي اَلْخِيَانَةَ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ اَلنَّاسِ وَيَثْلِمُ اَلْجَاهَ وَيَقْطَعُ وُجُوهَ اَلْمَعَاشِ

(وَمِنْهَا اِفْشَاءُ اَلسِّرِّ) وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ اَلْخُرْقِ وَاَلْخِيَانَةِ فَاِنَّهُ لَيْسَ بِمَوْثُوقٍ مَنْ لَمْ يَضْبُطْ لِسَانَهُ وَلَمْ يَتَّسِعْ صَدْرُهُ لِحِفْظِ مَا يُسْتَسَرُّ بِهِ وَاَلسِّرُّ اَحَدُ اَلْوَدَائِعِ وَاِفْشَاؤُهُ نَقِيصَةٌ عَلَى صَاحِبِهِ فَاَلْمُفْشِي بِاَلسِّرِّ خَائِنٌ وَهٰذَا اَلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَخَاصَّةً بِمَنْ يَصْحَبُ اَلْمُلُوكَ وَاَوْلِيَاءَ اَلْاُمُورِ وَيَتَدَاخَلُ مَعَهُمْ. وَمِنْ قَبِيلِ اِفْشَاءِ اَلسِّرِّ اَيْضًا اَلْغِيبَةُ وَاَلنَّمِيمَةُ وَهِيَ اَنْ يَبْلُغَ اِنْسَانٌ اِنْسَانًا عَنْ آخَرَ قَوْلًا مَكْرُوهًا وَهٰذَا اَلْخُلُقُ قَبِيحٌ جِدًّا وَلَوْ لَمْ يُسْتَسَرَّ اَيْضًا بِمَا يَسْمَعُهُ اَوْ يَبْلُغُهُ فَنَقْلُهُ اِلَى مَنْ يَكْرَهُ قَبِيحٌ لِاَنَّ فِي ذٰلِكَ اِيقَاعَ وَحْشَةٍ بَيْنَ اَلْمُبَلِّغِ وَاَلْمُبَلَّغِ عَنْهُ وَذٰلِكَ غَايَةُ اَلشَّرِّ

(وَمِنْهَا اَلْكِبْرُ) وَهُوَ اَسْتِعْظَامُ اَلاِنْسَانِ نَفْسَهُ وَاَسْتِحْسَانُ مَا فِيهِ مِنَ اَلْفَضَائِلِ وَاَلاِسْتِهَانَةُ بِاَلنَّاسِ وَاَسْتِصْغَارُهُمْ وَاَلتَّرَفُّعُ عَلَى مَا يَجِبُ اَلتَّوَاضُعُ لَهُ. وَهٰذَا اَلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا وَمُضِرٌّ بِصَاحِبِهِ لِاَنَّ

مَنْ اَعْجَبَتْهُ نَفْسُهُ لَمْ يَسْتَزِدْ مِنِ اكْتِسَابِ الْأَدَبِ وَمَنْ لَمْ يَسْتَزِدْ بَقِيَ عَلَى نَقْصِهِ اِذْ اِنَّ الْاِنْسَانَ لَا يَخْلُو مِنَ النَّقْصِ قَبْلَ مَا يَنْتَهِي اِلَى غَايَةِ الْكَمَالِ . وَاَيْضًا فَاِنَّ هٰذَا الْفِعْلَ يُبْغِضُهُ عِنْدَ النَّاسِ وَمَنْ تَبْغَضُهُ النَّاسُ سَاءَتْ اَحْوَالُهُ

(وَمِنْهَا الْعُبُوسُ) وَهُوَ التَّقَطُّبُ عِنْدَ اللِّقَاءِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ وَاِظْهَارُ الْكَرَاهِيَةِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ الْكِبْرِ وَغِلَظِ الطَّبْعِ فَاِنَّ قِلَّةَ الْبَشَاشَةِ هِيَ اسْتِهَانَةٌ بِالنَّاسِ وَالْاِسْتِهَانَةُ بِالنَّاسِ تَكُونُ مِنَ الْاِعْجَابِ وَالْكِبْرِ وَقِلَّةُ التَّبَسُّمِ اَيْضًا خَاصَّةً عِنْدَ لِقَاءِ الْاِخْوَانِ تَكُونُ مِنْ غِلَظِ الطَّبْعِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مُسْتَقْبَحٌ وَخَاصَّةً بِالرُّؤَسَاءِ وَالْاَفَاضِلِ

(وَمِنْهَا الْكَذِبُ) وَهُوَ الْاِخْبَارُ عَنِ الشَّيْءِ بِخِلَافِ مَا هُوَ عَلَيْهِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَهُوَ بِالْمُلُوكِ وَالرُّؤَسَاءِ اَكْثَرُ قُبْحًا لِاَنَّ الْيَسِيرَ مِنَ النَّقْصِ يَشِينُهُمْ

(وَمِنْهَا الْخُبْثُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْغَيْرِ وَاِظْهَارُ الْخَيْرِ لَهُ رِيَاءً وَاسْتِعْمَالُ الْحِيلَةِ وَالْمَكْرِ وَالْخَدِيعَةِ فِي الْمُعَامَلَاتِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ جِدًّا . (وَمِنْ قَبِيلِ الْخُبْثِ الْحِقْدُ) وَهُوَ اِضْمَارُ الشَّرِّ لِلْجَانِي اِذَا لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنَ الْاِنْتِقَامِ مِنْهُ فَيُخْفِي اِلَى وَقْتِ الْفُرْصَةِ وَهٰذَا الْخُلُقُ مِنْ اَخْلَاقِ الْاَشْرَارِ وَهُوَ مَذْمُومٌ جِدًّا

(وَمِنْهَا الْبُخْلُ) وَهُوَ مَنْعُ الْمُسْتَعْطِي مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى اِعْطَائِهِ . وَهٰذَا الْخُلُقُ مَكْرُوهٌ مِنْ جَمِيعِ النَّاسِ وَخَاصَّةً الْمُلُوكَ وَالْعُظَمَاءِ وَذٰلِكَ لِاَنَّ الْبُخْلَ يُبْغَضُ مِنْهُمْ اَكْثَرُ مِمَّا يُبْغَضُ مِنْ غَيْرِهِمْ وَيَقْدَحُ

فِي حُكْمِهِمْ وَيُبَغِّضُهُمْ إِلَى رَعِيَّتِهِمْ

(وَمِنْهَا ٱلْجُبْنُ) وَهُوَ تَوَهُّمُ ٱلْمَخَاوِفِ وَتَمَكُّنِهَا فِي ٱلْعَقْلِ بِدُونِ طَائِلٍ وَعَدَمُ ٱلْإِقْدَامِ عَلَى ٱلْأُمُورِ عِنْدَ ٱللُّزُومِ وَٱلرُّعْبُ مِنْ مُوَاجَهَةِ ذَوِي ٱلْأَمْرِ عِنْدَ ٱلْاِقْتِضَاءِ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ إِلَّا أَنَّهُ بِٱلْجُنُودِ وَأَصْحَابِ ٱلْحُرُوبِ مُضِرٌّ جِدًّا

(وَمِنْهَا ٱلْحَسَدُ) وَهُوَ ٱلتَّأَلُّمُ مِمَّا يَرَاهُ ٱلْإِنْسَانُ لِغَيْرِهِ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَيَجِدُهُ فِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْاِجْتِهَادُ فِي إِعْدَامِ ٱلْغَيْرِ مَا هُوَ لَهُ . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مَكْرُوهٌ وَقَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ

(وَمِنْهَا ٱلْجَزَعُ عِنْدَ ٱلشِّدَّةِ) وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُرَكَّبٌ مِنَ ٱلْخُرْقِ وَٱلْجُبْنِ . وَهُوَ مُسْتَقْبَحٌ جِدًّا إِذَا لَمْ يَكُنْ مُجْدِيًا نَفْعًا وَأَمَّا إِظْهَارُهُ لِلْحِيلَةِ عِنْدَ ٱلْوُقُوعِ فِي ٱلشِّدَّةِ أَوْ لِاسْتِغَاثَةِ مُغِيثٍ أَوِ ٱجْتِلَابِ مُعِينٍ لِلْمُسَاعَدَةِ فَغَيْرُ مَكْرُوهٍ وَلَا يُعَدُّ نَقِيصَةً

(وَمِنْهَا صِغَرُ ٱلْهِمَّةِ) وَهُوَ ضَعْفُ ٱلنَّفْسِ عَنْ طَلَبِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَقُصُورُ ٱلْآمَالِ عَنْ بُلُوغِ ٱلْغَايَاتِ وَٱسْتِكْثَارُ ٱلْيَسِيرِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱسْتِعْظَامُ ٱلْقَلِيلِ مِنَ ٱلْعَطَايَا وَٱلْاِعْتِدَادُ بِذٰلِكَ وَٱلرِّضَى بِأَوَاسِطِ ٱلْأُمُورِ وَأَصَاغِرِهَا . وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ قَبِيحٌ بِكُلِّ أَحَدٍ وَهُوَ بِٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ أَقْبَحُ بَلْ لَيْسَ بِمُسْتَحِقٍّ لِلْاِعْتِبَارِ مَنْ صَغُرَتْ هِمَّتُهُ

(وَمِنْهَا ٱلْجَوْرُ) وَهُوَ ٱلْخُرُوجُ عَنِ ٱلْعَدْلِ فِي جَمِيعِ ٱلْأُمُورِ كَأَخْذِ ٱلْأَمْوَالِ مِنْ غَيْرِ وَجْهِهَا ٱلْحَلَالِ وَٱلْمُطَالَبَةِ بِمَا لَا يَجِبُ مِنَ ٱلْحُقُوقِ وَفِعْلِ ٱلْأَشْيَاءِ فِي غَيْرِ مَوَاضِعِهَا وَلَا أَوْقَاتِهَا وَلَا عَلَى ٱلْقَدْرِ

ٱلَّذي يَجِبُ لَهَا وَعَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يُسْتَحَبُّ فِيهَا وَمِنْ قَبِيلِ ذٰلِكَ ٱلسَّرَفُ وَٱلتَّبْذِيرُ ايضاً

البحث الرابع

في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

(مِنْهَا حُبُّ ٱلْكَرَامَةِ) وَهُوَ أَنْ يُسَرَّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلتَّعْظِيمِ وَٱلتَّبْجِيلِ وَٱلْمُقَابَلَةِ بِٱلْمَدْحِ وَٱلثَّنَاءِ ٱلْجَمِيلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلْقُ مَحْمُودٌ فِي ٱلْأَحْدَاثِ وَٱلصِّبْيَانِ لِأَنَّ مَحَبَّةَ ٱلْكَرَامَةِ تَحُثُّهُمْ عَلَى ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱكْتِسَابِ ٱلْفَضَائِلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحَدَثَ وَٱلصَّبِيَّ إِذَا مُدِحَا عَلَى فَضِيلَةٍ وُجِدَتْ فِيهِمَا كَانَ ذٰلِكَ دَاعِيًا لَهُمَا إِلَى ٱلِٱزْدِيَادِ فِي ٱلْفَضَائِلِ. وَأَمَّا ٱلْأَفَاضِلُ مِنَ ٱلنَّاسِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يُعَدُّ مِنْهُمْ نَقِيصَةً. لِأَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يُمْدَحُ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ إِذَا كَانَتْ مُسْتَغْرَبَةً مِنْهُ أَمَّا إِذَا كَانَ مِنْ أَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُسَرَّ أَوْ يَسْتَغْرِبَ مَا يَظْهَرُ مِنْهُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ ٱلْإِكْرَامُ وَٱلتَّبْجِيلُ إِذَا كَانَ زَائِدًا عَلَى ٱسْتِحْقَاقِهِ فَإِنَّهُ يَجْرِي مَجْرَى ٱلْمَلَقِ وَٱلسُّرُورُ بِٱلْمَلَقِ غَيْرُ مَحْمُودٍ لِأَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْخَدِيعَةِ

(وَمِنْهَا حُبُّ ٱلزِّينَةِ) وَهُوَ ٱلتَّصَنُّعُ بِلُبْسِ ٱلثِّيَابِ ٱلْفَاخِرَةِ وَرُكُوبِ ٱلْخَيْلِ وَكَثْرَةِ ٱلْخَدَمِ وَٱلْحَشَمِ وَهٰذَا مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلْعُظَمَاءِ وَٱلْأَحْدَاثِ وَٱلظُّرَفَاءِ وَٱلنِّسَاءِ. فَأَمَّا ٱلرُّهْبَانُ وَٱلزُّهَّادُ

وَٱلشُّيُوخُ وَاهْلُ ٱلعِلْمِ وَخَاصَّةً ٱلْخُطَبَاءُ وَٱلْوَاعِظُونَ وَرُؤَسَاءُ ٱلدِّينِ فَانَّ ٱلتَّصَنُّعَ بِٱلزِّينَـةِ مُسْتَقْبَحٌ مِنْهُمْ وَٱلْمُسْتَحْسَنُ بِهِمْ هُوَ لُبْسُ ٱلخَشِنِ وَكَرَاهِيَةُ ٱلتَّنَعُّمِ وَلُزُومُ بُيُوتِ ٱلصَّلَاةِ

(وَمِنْهَا ٱلْمُجَازَاةُ عَلَى ٱلْمَدْحِ) وَهُوَ مُجَازَاةُ مَنْ يَمْـدَحُ ٱلْاِنْسَانَ وَيَشْـكُرُهُ فِي ٱلمَجَالِسِ وَٱلمَحَافِلِ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ لِاَنَّهُ يَدْعُو ٱلْمَادِحَ اِلَى ٱلاِزْدِيَادِ فِي مَدْحِهِ فَيَـكْتَسِبُ ٱلْمَمْدُوحُ ذِكْرًا جَمِيلًا يَبْقَى اِلَى ٱلدَّهْرِ. وَمِنْ فَضَائِلِ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ بَقَاءُ ذِكْرِهِمِ ٱلْجَمِيلِ. وَاَمَّا مَحَبَّتُهُمْ سَمَاعَ ٱلْمَدْحِ مِنَ ٱلْمَادِحِ مُوَاجَهَةً فَذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحَبٍ مِنْهُمْ لِاَنَّهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَلَقِ وَحُبُّ ٱلْمَلَقِ مَكْرُوهٌ لِـكَوْنِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْخَدِيعَةِ كَمَا تَقَدَّمَ. فَاَمَّا اِيثَارُهُمُ ٱنْتِشَارَ ذِكْرِهِمْ وَمَدْحِهِمْ وَتَنَاوُلَ ٱلنَّاسِ لَهُ وَبَقَاؤُهُ بَعْدَهُمْ فَاِنَّهُ مَحْمُودٌ. وَمُجَازَاةُ ٱلْمَادِحِ مُسْتَحْسَنَةٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَمَنْعُهُمْ مُسْتَقْبَحٌ وَعَارٌ عَلَيْهِمْ لِاَنَّ ذٰلِكَ يَدْعُو اِلَى ذَمِّهِمْ وَذَمُّهُمْ يَبْقَى اَيْضًا اِلَى ٱلدَّهْرِ فَيُنْشِئُ لَهُمْ ذِكْـرًا قَبِيحًا وَذٰلِكَ مَـكْرُوهٌ مِنَ ٱلْمُلُوكِ وَٱلرُّؤَسَاءِ. اَمَّا اَصَاغِرُ ٱلنَّاسِ فَمَحَبَّتُهُمْ جَزَاءَ ٱلْمَادِحِ لَهُمْ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ لِاَنَّ ٱلْمَادِحَ اِذَا مَدَحَ ٱلدَّنِيءَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَاِنَّمَا يَخْدَعُهُ فَاِذَا اَجَازَهُ اعْتَقَدَ اَنَّهُ اَخَذَ مِنْهُ تِلْكَ ٱلْجَائِزَةَ بِٱلْحِيلَةِ. وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ اِذَا مُدِحُوا بِمَـا لَيْسَ فِيهِمْ يُبَادِرُونَ اِلَى مُجَازَاةِ ٱلْمَادِحِ فَيَـكُونُونَ قَدْ وَضَعُوا ٱلشَّيْءَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ فَلَوْ صَرَفُوا ذٰلِكَ ٱلشَّيْءَ اِلَى ٱلضُّعَفَاءِ وَاَهْلِ ٱلْمَسْكَنَةِ كَانَ ذٰلِكَ اَجْمَلَ بِهِمْ وَاَلْيَقَ

(وَمِنْهَا ٱلزُّهْدُ) وَهُوَ قِلَّةُ ٱلرَّغْبَةِ فِي ٱلْاَمْوَالِ وَٱلْاِدِّخَارِ وَغَيْرِهَا

وَإِيثَارُ ٱلْقَنَاعَةِ بِمَا يُقِيمُ ٱلرَّمَقَ وَٱلِٱسْتِخْفَافُ بِٱلدُّنْيَا وَمَحَاسِنِهَا وَلَذَّاتِهَا وَقِلَّةُ ٱلِٱكْتِرَاثِ بِٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَٱسْتِصْغَارُ ٱلْمُلُوكِ وَمَمَالِكِهِمْ وَأَرْبَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَأَمْوَالِهِمْ. وَهٰذَا ٱلْخُلُقُ مُسْتَحْسَنٌ جِدًّا مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَرُؤَسَاءِ ٱلدِّينِ وَٱلْخُطَبَاءِ وَٱلْوَاعِظِينَ وَمَنْ يُرَغِّبُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَعَادِ وَٱلْبَقَاءِ بَعْدَ ٱلْمَوْتِ. فَأَمَّا ٱلْمُلُوكُ وَٱلْعُظَمَاءُ فَإِنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُسْتَحْسَنٍ مِنْهُمْ وَلَا لَائِقٌ بِهِمْ لِأَنَّ ٱلْمَلِكَ إِذَا أَظْهَرَ ٱلزُّهْدَ صَارَ نَاقِصًا إِذْ إِنَّ مُلْكَهُ لَا يَتِمُّ إِلَّا بِٱحْتِشَادِ ٱلْأَمْوَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ وَٱدِّخَارِهَا لِيُدَبِّرَ بِهَا مُلْكَهُ وَيَصُونَ بِوَاسِطَتِهَا حَوْزَتَهُ وَيَفْتَقِدَ بِهَا رَعِيَّتَهُ وَهٰذَا مُضَادٌّ لِلزُّهْدِ فَإِنَّهُ إِذَا تَرَكَ ٱلِٱدِّخَارَ أَبْطَلَ مُلْكَهُ وَصَارَ مَعْدُودًا فِي جُمْلَةِ ٱلْمُلُوكِ ٱلْحَائِدِينَ عَنْ طَرِيقِ ٱلسِّيَاسَةِ

فَهٰذِهِ ٱلْأَقْسَامُ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا هِيَ أَخْلَاقُ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ أَمَّا ٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ فَضَائِلَ فَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ كُلُّهَا فِي إِنْسَانٍ وَاحِدٍ وَأَمَّا ٱلْمَذْمُومَةُ مِنْهَا ٱلْمَعْدُودَةُ نَقَائِصَ وَمَعَائِبَ فَقَلَّمَا يُوجَدُ إِنْسَانٌ يَخْلُو مِنْ جَمِيعِهَا حَتَّى لَا يَكُونَ فِيهِ خُلُقٌ مَكْرُوهٌ وَخَاصَّةً مَنْ يُرَوِّضُ نَفْسَهُ وَيُؤَدِّبُهَا. فَإِنَّ مَنْ لَا يَتَعَمَّلُ لِضَبْطِ نَفْسِهِ وَتَفَقُّدِ عُيُوبِهِ لَمْ يَخْلُ مِنْ عُيُوبٍ كَثِيرَةٍ وَإِنْ لَمْ يُحِسَّ بِهَا وَلَمْ يَفْطَنْ إِلَيْهَا. وَإِذَا كَانَ ٱلْحَالُ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ كَانَ أَوْلَى ٱلْأُمُورِ بِٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَتَفَقَّدَ أَخْلَاقَهُ وَيَتَأَمَّلَ عُيُوبَهُ وَيَجْتَهِدَ فِي إِصْلَاحِهَا وَنَفْيِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَيَتَّبِعَ ٱلْأَخْلَاقَ ٱلْمَحْمُودَةَ وَيَحْمِلَ نَفْسَهُ عَلَى ٱعْتِيَادِهَا وَٱلتَّخَلُّقِ بِهَا لِأَنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يَتَفَاضَلُونَ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ بِفَضَائِلِهِمْ

لا كما يعتقد الجهال والعامة انهم يتفاضلون باحوالهم واموالهم وكثرة ذخائرهم. وافتخار اكثر الناس بالاموال والذخائر والآلات وتعظيمهم الاغنياء وذوي الجاه ليس في محله. وذلك لان كثرة المال انما تتفاضل بها احوال الناس واما نفوسهم فلا تكون افضل من نفوس غيرهم بكثرة المال. وذلك لان الفاجر السفيه الجاهل الشرير وان حوى اموالا عظيمة فلا تكون بافضل من العفيف الحكيم الخير العالم ولو كان فقيرا بل انما يكون بكثرة امواله اغنى منه اذا كان ذاك معسرا وفقيرا واما التفضيل فلا يكون الا بكثرة الفضائل فقط. ولكن ان اجتمع بالانسان مع الاخلاق الجميلة والعادات المستحسنة الغنى والثروة ايضا فلعمري انه يكون احسن حالا من الفاضل المعسر لان ذلك من جملة سعادات الانسان وخاصة اذا كان فاضلا عادلا عفيفا يصرف ماله في وجهه وينفقه في حقه ويتفقد به من يجب عليه ولا يتهامل في مكرمة تزيد في محاسنه

اما الناقص الجاهل السيء العادات فان الغنى ربما زاده نقصا وعيوبا واضاف الى معائبه عيوبا اخرى. ولا يعد بخيلا من لا مال له وان كان البخل من طبعه لان فقره يخفي ذلك منه ومتى لم يظهر منه هذا الامر فلا يعاب عليه لان الانسان انما يعاب بما يظهر منه واما من كان ذا مال وايسار ولم يجد به ظهر بخله فيصير المال جالبا عليه عارا. وايضا فان اكثر الفجور

وَٱلمحظُورَاتِ وَٱلشَّهوَاتِ ٱلرَّدِيئَةِ لَا تُنالُ غَالبًا اِلَّا بِالأَموالِ فَٱلفقِيرُ ٱلمُعسِرُ وَانْ كَانَ فَجُورًا فَلَا يَكَادُ يظْهَرُ ذٰلكَ مِنْهُ اما اِذَا كَانَ ذَا مَالٍ تَمكَّنَ مِنْ شَهوَاتِهِ فتَظْهَرُ حِينَئذٍ عُيوبُهُ . وَبنَاء عَلَيهِ يَكُونُ ٱلغِنَى مُكسِبًا لِصَاحِبِهِ اَحيَانًا عُيوبًا وَنقَائِصَ وَٱلفَقرُ فضَائِلَ وَمَحَاسِنَ . فيُنْتَجُ مِنْ ذٰلِكَ اِذًا انَّ ٱلنَاسَ لَا تَتَفاضَلُ حقِيقَةً بِٱلأَموالِ وَٱلذَّخَائِرِ بَلْ اِنَّمَا يَتفاضَلُونَ بِٱلآدَابِ وَٱلمحَاسنِ ٱلذَّاتِيَّة . فَٱلخَلِيقُ بِٱلاِنسَانِ اَنْ يَسُوسَ نَفسَهُ بِٱلآدَابِ ٱلمُستَحسَنَةِ وَيَسْلُكَ بِهَا ٱلطَّرِيقَ ٱلمحمُودَةَ فَانَهُ بِذٰلِكَ يَكُونُ مَحْبُوبًا عِنْدَ ٱلنَّاس مَقْبُولًا لَدَيْهِمْ مُعظَّمًا فِي نُفُوسِهِم مُفضَّلًا عَنْ غَيرِهِ مُوقَّرًا عِنْدَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلمُلُوكِ مَقْبُولَ ٱلقولِ عَظِيمَ ٱلجَاهِ

فَهذِهِ حَالَةُ ٱلعَظَمَةِ ٱلحَقِيقَةِ ٱلمُكتَسَبَةِ بِٱلأَموالِ لِاَنَّ ٱلمَال قَدْ تَلحَقُهُ ٱلمَصَائِبُ فَاذَا فارَقَ صَاحِبَهُ سَقَطَتْ مَنْزِلَتُهُ مِنْ نُفوسِ ٱلنَّاسِ وَسَاوَى ٱلعَامَّةَ وَٱلسُّوقَةَ وَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلمُعظَّمَ لَهُ كَانَ مَالَهُ لَا نَفسَهُ فَمَتَى زَالَ ذٰلِكَ ٱلمَالُ لَمْ يَبْقَ لَهُ شَيْءٌ يُعظَّمُ مِنْ اَجلِهِ . وَلَيسَ كَذٰلِكَ ٱلعَالِمُ ٱلنَّفيسُ ٱلفَاضِلُ ٱلمُهذَّبُ ٱلاخلَاقِ لِاَنَّ عَظَمَتَهُ بِفَضَائِلِهِ وَهِيَ غَيرُ مُفَارِقَةٍ لهُ فَهُوَ مُعتَبَرٌ دَائِمًا وَمُعظَّمٌ مِنْ اَجلِ ذَاتِهِ لَا لِشَيْءٍ خَارِجٍ عَنْهُ



البحث الخامس

في الارتياض بمكارم الاخلاق (٭)

(من كتاب تهذيب الاخلاق لزكريا بن عدي)

وبما انّ الرّاغب في سياسة نفسه المؤثر تهذيب اخلاقه اذا نُبّه على خُلقٍ مذمومٍ وُجد فيه واحبّ اجتنابه رُبّما صعب عليه الانتقال عنه من اوّل وهلة وربّما لم ينل التخلّص منه ولم يطاوعه طبعه او ربّما استحسن ايضًا خُلقًا محمودًا لا يجده لنفسه وآثر التخلّق به لم تسمح له عادته ولم يصل الى مراده. لذلك وجب ان نرسم للرّاغبين في السّياسة المحمودة طرقًا يتدبّرون بها ويتدرّجون فيها حتّى ينتهوا الى مرادهم من اعتياد الاخلاق الجميلة والانطباع عليها وتجنّب الاخلاق القبيحة والتفرّغ منها ولهذا نذكر طريق الارتياض بالاخلاق المحمودة والتعمّل لاعتيادها لكي يمكن للرّاغب ان يتخلّق بها فنقول:

انه لامرٌ مقرّرٌ انّ سبب اختلاف الاخلاق في النّاس هو اختلاف قوى النفس الثلاث فيهم وهي الشّهوانيّة والغضبيّة والنّاطقة وانّ اصلاح الاخلاق هو تذليل الشّهوانيّة منها والغضبيّة وتمييز

(٭) اعلم ان ما يقولهُ هنا لزكريّا بن عدي في سياسة الانسان نفسهُ يصلح للخطيب لسياسة غيرهِ. لانهُ موكول بتحسين طباع الجمهور مفوّض اليهِ حملهم على الخير وصرفهم عن مضارّ الاهواء المنحرفة

عَادَاتِ ٱلنَّفسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ ٱلمَحْمُودِ مِنْ افعَالِهَا. فَطَرِيقُ ٱلتَّدرُّجِ لِاستِعْمَالِ ٱلعَادَاتِ ٱلجَمِيلَةِ وَٱلعُدُولُ عَنِ ٱلعَادَاتِ ٱلقَبِيحَةِ هُوَ ٱلتَّدرُّجُ فِي تَذلِيلِ هَاتَينِ ٱلقُوَّتَينِ

امَّا ٱلنَّفسُ ٱلشَّهْوَانِيَّةُ فَٱلطَّرِيقُ اِلَى قَمْعِهَا انْ يَتَذَكَّرَ ٱلإِنْسَانُ فِي اوقَاتِ شَهَوَاتِهِ وَعِندَ شِدَّةِ ٱلعَزمِ اِلَى لَذَاتِهِ انَّهُ يُرِيدُ تَذلِيلَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ فَيَعْدِلُ عَمَّا تَاقَتْ نَفسُهُ اِلَيهِ مِنَ ٱلشَّهْوَةِ ٱلرَّدِيئَةِ اِلَى مَا هُوَ مُستَحْسَنٌ مِنْ جِنسِ تِلْكَ ٱلشَّهْوَةِ وَيَتَّفِقُ عَلَى ارتِضَائِهِ وَيَقتَصِرُ عَلَيهِ. فَاِنْ لَمْ تَنكَسِرْ شَهَوَاتُهُ بِعِلَلِهَا وَبِعَدِّهَا فَاِنْ سَكَنَتِ اقتَصَرَ وَاِلَّا عَاوَدَ الفِعلَ مِنَ ٱلوَجهِ ٱلمُستَحسَنِ. فَاِنَّهُ اذَا فَعَلَ ذٰلِكَ وَكَرَّرَهُ كَفَّتِ ٱلنَّفسُ وَاِذَا ٱستَمَرَّ عَلَى هٰذَا ٱلحَالِ اَلِفَت هٰذِهِ ٱلعَادَةَ وَتَانَستْ بِهَا وَٱستَوحَشَتْ مِمَّا سِوَاهَا. وَيَنبَغِي لِمَنْ ارَادَ قَمْعَ نَفسِهِ ٱلشَّهوَانِيَّةِ انْ يُكثِرَ مِنْ مُجَالَسَةِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ وَٱلوَاعِظِينَ وَيُلَازِمَ مَجَالِسَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَاهلِ ٱلعِلمِ فَاِنَّ هٰؤُلَاءِ وَخَاصَّةً رُؤَسَاءَ ٱلدِّينِ يُعَظِّمُونَ مَنْ كَانَ مَعرُوفًا بِالعِفَّةِ وَيَستَزرُونَ مَنْ كَانَ فَاجِرًا مُنهَمِكًا. فَمُجَالَسَتُهُ وَمُلَازَمَتُهُ لِهٰذِهِ ٱلمَجَالِسِ تَضطَرُّهُ اِلَى ٱلتَّصَوُّنِ وَٱلتَّعَفُّفِ وَٱلتَّجَمُّلِ لِذَوقِهِمْ لِئَلَّا يَستَزرُوهُ وَيَغضَبُوا مِنهُ وَيَلحَقُ بِرُتبَةِ مَنْ يُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ وَٱلمَجَالِسِ. وَيَنبَغِي لَهُ ايضًا انْ يُدِيمَ ٱلنَّظَرَ فِي كُتُبِ ٱلأَخلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَاخبَارِ ٱلزُّهَّادِ وَٱلرُّهبَانِ وَٱلنُّسَّاكِ وَاهلِ ٱلوَرَعِ. وَيَتَجَنَّبَ مَجَالِسَ ٱلخُلَعَاءِ وَٱلسُّفَهَاءِ وَٱلمُنهَمِكِينَ وَمَنْ يُكثِرُ ٱلهَزلَ وَٱللَّعِبَ وَحِينَئِذٍ يَلحَقُ بِرُتبَةِ وَيُعَظَّمُ فِي ٱلمَحَافِلِ. وَاكثَرُ مَا

يجب لهُ ان يتجنّبَ السُّكرَ فإنّه مِمّا يُثيرُ نفسهُ الشّهوانيّةَ ويُقوّيها ويَحملها على التّهتّكِ وارتكابِ الفواحشِ والمجاهرةِ بها . . ويَنبغي لِمَنْ ارادَ قمعَ نفسهِ الشّهوانيّةِ انْ يُقلَّ مِنِ استماعِ الغناءِ وخاصّةً مِنَ النّساءِ المتصنّعاتِ والشّبانِ الظّرفاءِ فإنَّ للسّماعِ قوّةً عظيمةً في اثارةِ الشّهوةِ . . . امّا الطّعامُ فينبغي انْ تعلمَ انَّ غايتهُ هو الشّبعُ لدفعِ الَمِ الجوعِ . وفاخرُ الطّعامِ ودنيئهُ جميعهُما مُشبعانِ فليسَ للمبالغةِ في تجويدِ الطّعامِ الكثيرِ حظٌّ ولا فائدةٌ . والاولى هُوَ التّوسّطُ في انواعِ المآكلِ وانْ يكونَ مِنَ الجنسِ الّذي نشأَ عليهِ الانسانُ واعتادهُ وألفهُ . . . وطريقُ التّدرّجِ الى الاقتصارِ في الطّعامِ هُوَ ان يُبادِرَ ذو الشّهوةِ الى ايّ شيءٍ وجدهُ مِنَ المآكلِ فانْ كانَ المشتهى الّذي تاقتْ نفسهُ اليهِ حلوًا فالى ايّ حلاوةٍ وجدها وانْ كانَ غيرَ ذلكَ فالى ما يشتهيهِ مِنَ الطّعامِ فانّهُ اذا تناولَ الانسانُ مِنْ ذلكَ تكرارًا وشبعَ منهُ سكنتْ شهوتهُ وكفّتْ نفسهُ بعدَ ذلكَ

ويَنبغي لِمَنْ احبَّ العفّةَ انْ يكونَ ابدًا مُتيقّظًا ذاكرًا لِما يلحقُ الفاجرَ والنّهمَ والشّرهَ والمتهتّكَ مِنَ القباحةِ والعارِ في الدّنيا جاعلًا ذلكَ ديدنهُ وشعارهُ ومُداومًا على ذكرهِ . فانَّ نفسهُ حينئذٍ تُبغضُ الشّهواتِ الرّديئةَ وتشتاقُ الى التّعفّفِ والقناعةِ وتطربُ عِندَ العدولِ عَنِ الفواحشِ مع القُدرةِ عليها وترتاحُ لِما يُنشرُ عنها وما يبلغُها عَنِ النّاسِ مِنَ الثّناءِ الجميلِ على صاحبِها . فهذا هُوَ طريقُ رياضةِ النّفسِ

إلى قهر القوة الشهوانية وتذليلها وقمعها أعني طريق الارتياض بالعادات المحمودة المرضية فيما يتعلق بالشهوات واللذات الدنيئة

فأما النفس الغضبية فإن طريق قمعها وتذليلها هو أن يصرف الإنسان همته إلى تفقد السفهاء الذين يسرع إليهم الغضب في أوقات طيشهم وحدتهم ويلاحظ تسفههم على أخصامهم وعقوبتهم لخدمهم وعبيدهم فإنه يشاهد إذ ذاك منظرًا شنيعًا يأنف منه الخاص والعام وأن يتذكر في أوقات غضبه وعند جنايات خدمه وعبيده ووثوب إخوانه وأودائه في جميع محاوراته ومعاملاته ما شاهده من أولئك. فإنه إذا تفكر فيما كان استخفه منهم فتنكسر بذلك سورة غضبه ويحجم عما هم بالإقدام عليه من السب والوثوب فإن لم يكف بالكلية قصر ولم ينته إلى غاية الفحش

وينبغي لمن أراد أن يقهر نفسه الغضبية أن يتذكر في أوقات غضبه على من يؤذيه أو يتجنى عليه أنه لو كان هو الجاني ما الذي كان يستحق أن يقابل به على جنايته فإنه بهذا الفعل يعتقد أن دَرَك تلك الجناية وذلك الأذى يسير جدًا فإذا اعتقد ذلك كانت مقابلته للجاني المؤذي بحسب اعتقاده خفيفة وحينئذ لا يسرف في الانتقام ولا يفحش في الغضب فمتى فعل ذلك دائمًا وجعله ديدنًا وتفقد معايب السفهاء ومن يسرع إليه الغضب لم يبعد أن تنكسر نفسه الغضبية وتنقاد إليه وإذا استمر على هذا

ٱلعَمَلِ مُدَّةً صَارَ لَهُ خُلقًا وَعَادَةً

وَيَنْبَغِي لِمَنْ رَغِبَ فِي تَذْلِيلِ قُوَّتِهِ ٱلغَضَبِيَّةِ اَنْ يَتَجَنَّبَ حَمْلَ ٱلسِّلَاحِ فِي مَجَالِسِ ٱلشَّرَابِ وَحُضُورَ مَوَاضِعِ ٱلفِتَنِ وَمَقَامَاتِ ٱلحُرُوبِ وَفِي مُجَالَسَةِ ٱلأَشْرَارِ وَيَتَجَنَّبَ مُعَاشَرَتَهُمْ وَمُخَالَطَةَ ٱلشُّرَطِ فَاِنَّ هٰذِهِ ٱلمَوَاضِعَ تُكْسِبُ قَسَاوَةَ ٱلقَلْبِ وَتُغَلِظُهُ وَتُعْدِمُهُ ٱلرَّأْفَةَ فَتَشْتَدُّ لِذٰلِكَ ٱلقُوَّةُ ٱلغَضَبِيَّةُ فَاِذَا اَرَادَ تَذْلِيلَهَا وَتَسْكِينَهَا يَجِبُ اَنْ يَجْعَلَ مُجَالَسَتَهُ لِأَهْلِ ٱلوَقَارِ وَٱلشُّيُوخِ وَٱلرُّؤَسَاءِ وَٱلأَفَاضِلِ وَمَنْ يَقِلُّ غَضَبُهُ وَيَكْثُرُ حِلْمُهُ وَوَقَارُهُ

وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَتَجَنَّبَ ٱلمُسْكِرَ مِنَ ٱلشَّرَابِ فَاِنَّهُ يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلغَضَبِيَّةَ اَكْثَرَ مِمَّا يُهَيِّجُ ٱلقُوَّةَ ٱلشَّهْوَانِيَّةَ . . .

وَيَنْبَغِي لِمَنْ اَرَادَ تَذْلِيلَ قُوَّتَيْهِ ٱلغَضَبِيَّةِ وَٱلشَّهْوَانِيَّةِ مَعًا اَنْ يَسْتَعْمِلَ فِي جَمِيعِ مَا يَفْعَلُهُ ٱلفِكْرَ وَلَا يُقْدِمُ عَلَى شَيْءٍ اِلَّا بَعْدَ اَنْ يُرَوِّيَ فِيهِ وَيَجْعَلَ ٱلفِكْرَةَ وَٱتِّبَاعَ ٱلرَّأْيِ دَيْدَنَهُ وَعَادَتَهُ فَاِنَّ ٱلرَّأْيَ وَجَوْدَةَ ٱلفِكْرِ يُقَبِّحَانِ لَهُ ٱلسَّفَهَ وَسُرْعَةَ ٱلغَضَبِ وَٱلِانْهِمَاكَ فِي ٱلشَّهَوَاتِ وَٱتِّبَاعِ ٱللَّذَّاتِ . فَاِذَا ٱسْتَقْبَحَ ذٰلِكَ اَحْجَمَ عَنْهُ وَعَدَلَ اِلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلرَّأْيُ وَٱلفِكْرُ وَاِنْ لَمْ يَرْتَدِعْ بِٱلكُلِّيَّةِ لَا بُدَّ اَنْ يُؤَثِّرَ فِيهِ ذٰلِكَ فَيَقْتَصِرَ عَمَّا يُرِيدُ ٱلتَّسَرُّعَ اِلَيْهِ

وَمِلَاكُ ٱلأَمْرِ فِي تَهْذِيبِ ٱلأَخْلَاقِ وَضَبْطِ ٱلقُوَّةِ ٱلشَّهْوَانِيَّةِ وَٱلقُوَّةِ ٱلغَضَبِيَّةِ هِيَ ٱلقُوَّةُ ٱلنَّاطِقَةُ فَاِنَّ بِهٰذِهِ ٱلقُوَّةِ تَكُونُ جَمِيعُ ٱلسِّيَاسَاتِ فَاِذَا كَانَتْ قَوِيَّةً مُتَمَكِّنَةً مِنْ صَاحِبِهَا اَمْكَنَهُ اَنْ

يَسُوسَ بِهَا قُوَّتَيْهِ ٱلْبَاقِيَتَيْنِ وَيَكُفَّ نَفْسَهُ عَنْ جَمِيعِ ٱلْقَبَائِحِ وَيَتَّبِعَ أَبَدًا مَحَاسِنَ ٱلْأَخْلَاقِ وَإِذَا لَمْ تَكُنْ قَوِيَّةً فِي صَاحِبِهَا كَانَتْ مَغْمُورَةً خَافِيَةً

فَاوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْتَمِدَهُ فِي سِيَاسَةِ أَخْلَاقِهِ هُوَ أَنْ يُرَوِّضَ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ. وَتَرْوِيضُهَا إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ فَإِنَّهُ إِذَا نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ وَدَقَّقَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا وَدَرَسَ كُتُبَ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَةِ وَدَاوَمَ عَلَيْهَا تَيَقَّظَتْ نَفْسُهُ وَتَنَبَّهَتْ مِنْ شَهَوَاتِهَا وَٱنْتَعَشَتْ مِنْ خُمُولِهَا وَأَحَسَّتْ بِفَضَائِلِهَا وَأَنِفَتْ مِنْ رَذَائِلِهَا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةَ إِنَّمَا تَضْعُفُ وَتَخِفُّ إِذَا عَدِمَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلْمَنَاقِبَ وَٱسْتَوْلَتْ عَلَيْهَا ٱلرَّذَائِلُ. أَمَّا إِذَا ٱقْتَنَتِ ٱلْفَضَائِلَ وَٱكْتَسَبَتِ ٱلْآدَابَ تَيَقَّظَتْ مِنْ غَشْيَتِهَا وَثَارَتْ مِنْ سُكْرِهَا وَقَوِيَتْ بَعْدَ ضَعْفِهَا. وَفَضَائِلُ هٰذِهِ ٱلْقُوَّةِ هِيَ ٱلْعُلُومُ ٱلْعَقْلِيَّةُ وَخَاصَّةً مَا دَقَّ مِنْهَا فَإِذَا ٱرْتَاضَ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا شَرُفَتْ نَفْسُهُ وَعَظُمَتْ هِمَّتُهُ وَقَوِيَ فِكْرُهُ وَتَمَكَّنَ مِنْ نَفْسِهِ وَمَلَكَ أَخْلَاقَهُ وَقَدَرَ عَلَى إِصْلَاحِهَا وَٱنْقَادَ لَهُ طَبْعُهُ وَسَهُلَ عَلَيْهِ تَهْذِيبُهُ وَأَذْعَنَتْ لَهُ ٱلْقُوَّةُ ٱلْغَضَبِيَّةُ وَٱلشَّهْوَانِيَّةُ وَهَانَ عَلَيْهِ قَمْعُهُمَا وَتَهْذِيبُهُمَا

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِئَ بِهِ مَنْ يُحِبُّ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ هُوَ ٱلنَّظَرُ فِي كُتُبِ ٱلْأَخْلَاقِ وَٱلسِّيَاسَاتِ ثُمَّ ٱلْإِرْتِيَاضُ بِعُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ فَإِنَّ أَشْرَفَ مَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ إِدْرَاكُهَا حَقَائِقَ ٱلْأُمُورِ وَٱطِّلَاعُهَا عَلَى هَيْئَاتِ ٱلْمَوْجُودَاتِ فَمَتَى شَرُفَتْ نَفْسُ ٱلْإِنْسَانِ وَعَلَتْ هِمَّتُهُ رَقِيَ إِلَى مَرَاتِبِ ٱلْفَضْلِ

وَمِمَّا يُصْلِحُ ٱلنَّفْسَ ٱلنَّاطِقَةَ وَيُقَوِّيهَا أَيْضًا مُجَالَسَةُ أَهْلِ ٱلْعِلْمِ وَمُخَالَطَتُهُمْ وَٱلِاقْتِدَاءُ بِأَخْلَاقِهِمْ وَعَوَائِدِهِمْ وَخَاصَّةً أَصْحَابُ عُلُومِ ٱلْحَقَائِقِ وَٱلْمُتَيَقِّظُونَ مِنْهُمُ ٱلْمُسْتَعْمِلُونَ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِمْ مَا تَقْتَضِيهِ عُلُومُهُمْ وَتُوجِبُهُ عُقُولُهُمْ

أَمَّا تَمْيِيزُ عَادَاتِ ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ وَٱسْتِعْمَالُ مَا حَسُنَ فِيهَا وَٱطِّرَاحُ مَا قَبُحَ فَإِنَّمَا يُمْكِنُ وَيَتَسَهَّلُ إِذَا رَاضَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ ٱلنَّاطِقَةَ · فَإِنَّهَا إِذَا ٱرْتَاضَتْ بِٱلْعُلُومِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ وَتَيَقَّظَتْ وَتَشَرَّفَتْ أَنِفَتْ مِنَ ٱلْعَادَاتِ ٱلْمُسْتَقْبَحَةِ وَتَنَزَّهَتْ عَنِ ٱلتَّدْنِيسِ بِهَا فَيَهُونُ حِينَئِذٍ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ تَجَنُّبُ مَا يُسْتَنْكَرُهُ مِنَ ٱلْعَادَاتِ وَيَغْلِبُ عَلَيْهِ ٱسْتِحْسَانُ ٱلْأَخْلَاقِ ٱلْحَمِيدَةِ ٱلْجَمِيلَةِ وَٱلتَّخَلُّقُ بِهَا

فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ جَمِيعِ مَا ذَكَرْنَاهُ أَنَّ طَرِيقَ ٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَخْلَاقِ ٱلْمَحْمُودَةِ وَٱلتَّصَنُّعَ لِٱعْتِيَادِهَا وَٱتِّبَاعَ ٱلْمَحْمُودِ ٱلْمَرْضِيِّ مِنْهَا وَتَرْكَ ٱلْمَذْمُومِ ٱلْمُسْتَقْبَحِ وَتَذْلِيلَ قُوَّةِ ٱلشَّهْوَةِ ٱلْغَضَبِيَّةِ وَضَبْطَهَا وَقَهْرَهَا هُوَ إِصْلَاحُ ٱلْقُوَّةِ ٱلنَّاطِقَةِ وَتَقْوِيَتُهَا وَتَحْلِيَتُهَا بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْآدَابِ وَٱلْمَحَاسِنِ فَإِنَّ ذٰلِكَ هُوَ آلَةُ ٱلسِّيَاسَةِ وَمَرْكَبُ ٱلرِّيَاضَةِ

وَمَنْ يَتَمَكَّنُ مِنِ ٱكْتِسَابِ ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيَّةِ وَٱلْإِمْعَانِ فِيهَا وَتَعَذَّرَ عَلَيْهِ ذٰلِكَ فَلْيَبْذُلْ جُهْدَهُ فِي تَدْقِيقِ ٱلْفِكْرَةِ وَمُجَاهَدَةِ ٱلنَّفْسِ وَيُصَوِّرِ ٱلْفَرْقَ مَا بَيْنَ عَادَتِهِ ٱلْقَبِيحَةِ وَٱلْجَمِيلَةِ وَيَنْظُرْ أَيُّهُمَا أَجْدَى عَلَيْهِ وَأَنْفَعُ وَأَيُّهُمَا أَجْدَرُ عَاقِبَةً وَأَبْقَى عَلَى ٱلْأَيَّامِ فَإِنَّهُ إِذَا صَدَقَ مَا تَأَكَّدَتْهُ نَفْسُهُ وَجَدَ أَنَّ شَهَوَاتِهِ وَلَذَّاتِهِ إِنَّمَا هِيَ مُدَّةُ

وَقْتِ اسْتِعْمَالِهَا فَقَطْ أَمَّا بَعْدَ مُفَارَقَتِهَا فَلَيْسَتْ بِبَاقِيَةٍ عَلَيْهِ وَلَا نَافِعَةٍ لَهُ وَيَجِدُ عَارَهَا وَشَيْنَهَا بَاقِيًا إِلَى ٱلدَّهْرِ مُتَدَاوَلًا فِيمَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ يُعَابُ بِهِ وَيُزْرَى عَلَيْهِ. وَكَذَٰلِكَ فِي شِدَّةِ ٱلْغَضَبِ وَٱلْإِسْرَاعِ إِلَى ٱلْاِنْتِقَامِ وَٱلسَّبِّ وَٱلْفُحْشِ فَمَتَى ٱنْحَلَّتْ غَمْرَتُهُ وَسَكَنَتْ ثَوْرَتُهُ تَأَمَّلَ أَمْرَهُ فَرَأَى أَنَّ مَا فَعَلَهُ كَانَ قَبِيحًا وَلَمْ يَجِدْهُ مُجْدِيًا وَلَا مُفِيدًا وَقَدْ صَارَ مَا فَعَلَهُ وَقْتَ ٱلْغَضَبِ نَقِيصَةً يُوسَمُ بِهَا وَمَعَيَرَةً يُسَبُّ عَلَيْهَا. وَرُبَّمَا ٱرْتَكَبَ حَالَ ٱلْغَضَبِ جِنَايَاتٍ كَثِيرَةٍ يُعَاقَبُ عَلَيْهَا وَيُؤَدَّبُ مِنْ أَجْلِهَا. كَذَٰلِكَ ٱلْعَادَاتُ ٱلْمَكْرُوهَةُ فِي ٱلنَّفْسِ ٱلنَّاطِقَةِ هِيَ أَيْضًا غَيْرُ نَافِعَةٍ وَلَا مُجْدِيَةٍ لِلْإِنْسَانِ نَفْعًا كَٱلْحَسَدِ مَثَلًا وَٱلْحِقْدِ وَٱلْخُبْثِ وَأَمْثَالِ هَٰذِهِ إِذْ لَا يَنْتَفِعُ بِهَا صَاحِبُهَا وَإِنِ ٱنْتَفَعَ كَانَ شَرَّ مَنْفَعَةٍ وَمَعَ ذَٰلِكَ فَهِيَ مُضِرَّةٌ لَهُ لِأَنَّ مَنْ تَشَرَّرَ قَصَدَهُ ٱلنَّاسُ بِٱلشَّرِّ وَٱسْتَعَدُّوا لِأَذِيَّتِهِ وَتَعَمَّدُوا لِلْإِضْرَارِ بِهِ وَتَوَقَّوْهُ وَٱحْتَرَزُوا مِنْهُ وَكَرِهُوا نَفْعَهُ وَقَصَرُوا عَلَيْهِ وُجُوهَ ٱلْخَيْرِ.. فَإِذَا حَاسَبَ ٱلْإِنْسَانُ نَفْسَهُ وَأَجَادَ فِكْرَتَهُ وَتَمْيِيزَهُ عَلِمَ أَنَّ ٱلضَّرَرَ فِي مَسَاوِئِ ٱلْأَخْلَاقِ أَكْثَرُ مِنَ ٱلنَّفْعِ بِهَا وَأَنَّ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ فِيهَا نَفْعًا فَلَيْسَ هُوَ بِنَفْعٍ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَإِذَا كَانَ نَفْعًا فَهُوَ يَسِيرٌ جِدًّا وَغَيْرُ بَاقٍ وَلَا مُسْتَمِرٍّ وَأَنَّ هَٰذَا ٱلْيَسِيرَ ٱلَّذِي يَعُدُّهُ نَفْعًا لَا يَفِي بِٱلضَّرَرِ ٱلْكَثِيرِ وَٱلْعَارِ ٱلدَّائِمِ ٱلْمُتَّصِلِ...

وَيَنْبَغِي لِمَنْ أَرَادَ سِيَاسَةَ أَخْلَاقِهِ أَنْ يَجْعَلَ غَرَضَهُ مِنْ كُلِّ فَضِيلَةٍ غَايَتَهَا وَنِهَايَتَهَا وَلَا يَقْنَعَ مِنْهَا بِمَا دُونَ ٱلْغَايَةِ وَلَا يَرْضَى إِلَّا

باعلى درجة فانه اذا جعل ذلك غرضه كان حريا ان يتوسط في الفضائل ويبلغ فيها رتبة مرضية ان فاتته الدرجة العليا واما ان قنع بالتوسط يا من ان يقصر عن بلوغه فيبقى في ادنى المراتب ويفوته المطلوب ولا يطمع ابدا في التمام.

فهذا الذي ذكرناه هو طريق الارتياض بمكارم الاخلاق ومنهج التدرج في محمودها وكيفية تهذيبها فاذا اخذ الانسان بتدريب نفسه به واكثر من مراعاته وتعهده صارت له الفضائل ديدنا والمحاسن خلقا وطبعا

هذا وقد بقي علينا ان نذكر اوصاف الانسان التام الجامع لمحاسن الاخلاق... فنقول ان الانسان التام هو الذي لم تفته فضيلة من الفضائل ولم تشنه رذيلة من الرذائل وهذا الحد قلما ينتهي اليه انسان واذا انتهى اليه افتراضا كان اشبه منه بالناس. وذلك لان الانسان مضروب بانواع النقص مستول على طبعه ضروب الشر وبناء على ذلك فقلما يخلص من جميعها حتى تسلم نفسه من كل عيب ومنقصة وتحيط به كل فضيلة ومنقبة حسنة فالتمام وان كان عزيزا بعيد التناول الا انه ممكن وهو غاية ما ينتهي اليه الانسان فاذا صدقت عزيمته واعطى الاجتهاد حقه كان ممكنا له ان ينتهي الى الغاية المقصودة المتهيء هو لها تلك التي تسمو نفسه اليها

اما تفصيل ذلك هو ان يكون متفقدا لجميع اخلاقه متيقظا

لِسَائِرِ مَعَايِبِهِ مُتَحَرِّزًا مِنْ دُخُولِ نَقْصٍ عَلَيْهِ مُسْتَعْمِلًا لِكُلِّ فَضِيلَةٍ مُجْتَهِدًا فِي بُلُوغِ ٱلْغَايَةِ عَاشِقًا لِصُورَةِ ٱلْكَمَالِ مُسْتَلِذًّا بِمَحَاسِنِ ٱلْأَخْلَاقِ مُتَيَقِّظًا لِمَذْمُومِ ٱلْعَادَاتِ مُعْتَنِيًا بِتَهْذِيبِ نَفْسِهِ غَيْرَ مُسْتَكْثِرٍ لِمَا يَقْتَنِيهِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ مُسْتَعْظِمًا لِلْيَسِيرِ مِنَ ٱلرَّذَائِلِ مُسْتَصْغِرًا لِلرُّتْبَةِ ٱلْعُلْيَا مُسْتَحْقِرًا لِلْغَايَةِ ٱلْقُصْوَى يَرَى ٱلتَّمَامَ دُونَ مَحَلِّهِ وَٱلْكَمَالَ أَقَلَّ أَوْصَافِهِ . .

فَمَا أَوْلَى مَنْ نَظَرَ فِي هٰذِهِ ٱلْأَقْوَالِ وَتَصَفَّحَهَا وَفَهِمَ مَضْمُونَهَا وَتَدَبَّرَهَا وَأَخَذَ نَفْسَهُ بِٱسْتِعْمَالِ مَا تَبَيَّنَ فِي فُصُولِهِ وَسَاقَ أَخْلَاقَهُ عَلَى ٱلتَّطَرُّقِ إِلَى مَا فُنِّنَ فِي أَبْوَابِهِ وَٱجْتَهَدَ كُلَّ ٱلْاجْتِهَادِ فِي تَكْمِيلِ نَفْسِهِ وَٱسْتَفْرَغَ غَايَةَ ٱلْوُسْعِ فِي طَلَبِ ٱلتَّمَامِ . وَمَا أَقْبَحَ ٱلنَّقْصَ بِٱلْقَدِرِ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَٱلْعَجْزَ عَنِ ٱلْمُقْتَدِرِ



الفصل السادس

في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس

البحث الاوّل

في مبادئ الخطابة والافتتاحات

من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري بتصرّف

(راجع صفحة ٧٧ من علم الخطابة)

قَالَ بَعضُ ٱلكُتَّابِ : اَمعَاشِرَ ٱلكُتَّابِ اَحسِنُوا ٱلاِبتِدَاءَاتِ فَاِنَّهُنَّ دَلَائِلُ ٱلبَيَانِ . وَذٰلِك اَنْ يَجعَل ٱلخَطِيبُ فَاتِحَةَ كَلَامِهِ وَاَوَّلَهُ دَلِيلًا عَلَى ٱلمَقصُودِ ٱلَّذِي دعَاهُ لِإِلقَائِهِ فَينظُرُ إِلَى ٱلغَرَضِ ٱلمَطلُوبِ فَيجعَلَ ٱلتَّحمِيدَ اوِ ٱلدُّعَاءَ اوِ ٱلتَّضمِينَ مُشعِرًا بِذٰلِكَ فَاِنَّهُ مِنْ اَعلَى مَرَاتِبِ ٱلبَلَاغَةِ وَاِنَّمَا خُصَّتِ ٱلاِبتِدَاءَاتُ بِٱلاِختِيَارِ لِاَنَّهَا اَوَّلُ مَا يَطرُقُ ٱلسَّمعَ مِنَ ٱلكَلَامِ فَاِذَا كَانَ ٱلاِبتِدَاءُ مُؤْنِقًا بَدِيعًا رَشِيقًا لَائِقًا بِٱلمَعنَى ٱلوَارِدِ بَعدَهُ تَوفَّرَتِ ٱلدَّوَاعِي لِاستِمَاعِ مَا يَجِيءُ بَعدَهُ فَيَقرَعُ اَسمَاعَهُمْ شَيْءٌ بَدِيعٌ لَيسَ لَهُمْ بِمِثلِهِ عَهدٌ فَيَرغَبُونَ اَنْ يَستَمِعُوا مَا بَعدَهُ لِفَهمِهِ . وَلِذَا جَعَلَ ٱلكُتَّابُ وَٱلوَاعِظُونَ اَكثَرَ ٱلاِبتِدَاءَاتِ بِٱلحَمدِ لِلّٰهِ لِاَنَّ ٱلنَّفسَ تَتَشَوَّقُ لِلثَّنَاءِ عَلَى ٱللّٰهِ فَهُوَ دَاعِيَةٌ

إلى الاستماع. وقد قيل: كلُّ كلامٍ لا يُبتدأ فيه بالحمدلة فهو أبترُ. وحقيقة هذا الباب ان يُجعل مطلعُ الكلامِ من الخطبِ او الرسائلِ او الشعرِ دالًّا على المعنى المقصودِ من ذلك الكلامِ إن فتحًا ففتحًا وإن كان هناء فهناء او كان عزاء فعزاء وكذلك يجري الحكمُ في غيرِ ذلك من المعاني. وفائدتهُ ان يُعرف من الكلامِ ما المرادُ به ويستفتح المتكلمُ ابوابَ الأسماعِ ويستحضر الأذهان للاستماعِ. وهذا الشعبُ عظيمُ النفعِ لمن حققهُ ولا يُفتح بابُهُ إلا لمن طرقهُ وقد يُسمى ايضًا هذا النوعُ ببراعة الاستهلالِ وسيأتي عنهُ الكلامُ في القسمِ الثاني من هذا المجموعِ عند الكلامِ عن الشعرِ

البحث الثاني

في القضية والقياس

(من كتاب شرح مطالع السعود وكليات ابي البقاء والشفاء لابن سينا باختصار)

(راجع صفحة ٩٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

القضيةُ قولٌ يصحُّ ان يُقال لقائلهِ إنهُ صادقٌ فيه او كاذبٌ وهي مجموعُ المعلوماتِ الاربعةِ وهي المحكومُ عليهِ والمحكومُ بهِ والنسبةُ الحكميةُ والحكمُ وادراكُ هذهِ الاربعةِ تصديقٌ. والقضيةُ إما حمليةٌ وإما شرطيةٌ. قالوا: إن كان المحكومُ عليهِ والمحكومُ بهِ قضيتين عند التحليلِ اي عند حذفِ ما يدلُّ على العلاقةِ بينهما من النسبةِ

ٱلحكمية سميت شرطيةً وإلا سميت حمليةً. فإن قولنا مثلا: (زيدٌ نائمٌ). قضيةٌ حمليةٌ. لأن طرفيها مفردان عند ٱلتحليل ويسمى ٱلطرف ٱلأول من ٱلقضية ٱلحملية وهو ٱلمخبر عنه موضوعا وٱلثاني محمولا. وقولنا: (إن كانت ٱلشمس طالعةً فٱلنهار موجودٌ) قضيةٌ شرطيةٌ. لأنه إذا حذفنا (إن وٱلفاء) ٱلموجبتين للربط بقي: (ٱلشمس طالعةٌ) (وٱلنهار موجودٌ) وهما قضيتان. وٱلقضية ٱلحملية إما شخصيةٌ وهي ٱلتي يكون ٱلمحكوم عليه فيها جزئيا معينا كقولك: زيدٌ كاتبٌ. وإما كليةٌ وهي ٱلتي يكون ٱلمحكوم عليه فيها كليا يشمل جميع أفراد ٱلموضوع. وتكون كلاهما إما موجبةً وإما سالبةً. وإنما يحكم في ٱلقضية ٱلشرطية على ٱلتعليق وهو وجود إحدى قضيتيها معلقٌ على وجود ٱلأخرى أو على نفيها وهي قسمان متصلةٌ وهي ٱلتي يحكم فيها بلزوم قضية أخرى أو لا لزومها وهي ٱلتي توجب ٱلتلازم بين جزئيها نحو: لو كان في ٱلسماء وٱلأرض آلهةٌ إلا ٱلله لفسدتا. ومنفصلةٌ وهي ٱلتي يحكم فيها بٱمتناع ٱجتماع قضيتين فأكثر في ٱلصدق وهي ٱلتي جزءاها متعاندان نحو: ٱلعالم إما قديمٌ أو حادثٌ. ويسمى ٱلطرف ٱلأول من ٱلقضية ٱلشرطية مقدما وٱلثاني تاليا. ولا بد من رابط بين ٱلموضوع وٱلمحمول

وللقضية أقسامٌ غير هذه منها (ٱلقضية ٱلبسيطة) وهي ٱلتي حقيقتها أو معناها إما إيجابٌ فقط نحو: كل إنسان حيوانٌ بٱلضرورة.

وَامَّا سَلْبٌ فَقَطْ نَحْوُ: لا شَيْءَ مِنَ ٱلإِنْسَانِ بِحَجَرٍ بِٱلضَّرُورَةِ. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلْمُرَكَّبَةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي حَقِيقَتُهَا مُلْتَئِمَةٌ مِنْ إِيجَابٍ وَسَلْبٍ مَعًا نَحْوُ: كُلُّ إِنْسَانٍ ضَاحِكٌ لا دَائِمًا. وَمِنْهَا (ٱلْقَضِيَّةُ ٱلنَّظَرِيَّةُ) وَهِيَ ٱلَّتِي يُسْأَلُ عَنْهَا وَيُطْلَبُ بِٱلدَّلِيلِ إِثْبَاتُهَا فِي ٱلْعِلْمِ. فَهِيَ مِنْ حَيْثُ أَنَّهَا يُسْأَلُ عَنْهَا تُسَمَّى مَسْأَلَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُطْلَبُ حُصُولُهَا مَطْلَبًا. وَمِنْ حَيْثُ تُسْتَخْرَجُ مِنَ ٱلْبَرَاهِينِ نَتِيجَةً. وَمِنْ حَيْثُ يُبْتَنَى عَلَيْهَا ٱلشَّيْءُ أُصُولًا. وَمِنْ حَيْثُ أَنَّهَا مُنْطَبِقَةٌ عَلَى جُزْئِيَّاتٍ مَوْضُوعَةٍ تَتَعَرَّفُ أَحْكَامُهَا مِنْهَا قَاعِدَةً. وَمِنْ حَيْثُ يَتَأَلَّفُ مِنْهَا ٱلْحُجَّةُ مُقَدَّمَةً وَقَضِيَّةً. وَمِنْ حَيْثُ تَحْتَمِلُ ٱلصِّدْقَ وَٱلْكَذِبَ خَبَرًا

البحث الثالث

في القياس واقسامهِ وانواعهِ

(من كتاب النجاة لابن سينا والكليّات لابي البقا)

(راجع صفحة ٩٧ من علم الخطابة)

وَامَّا ٱلْقِيَاسُ فَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا إِذَا وُضِعَتْ لَزِمَ عَنْهَا بِذَاتِهَا لَا بِٱلْعَرَضِ قَوْلٌ آخَرُ ٱضْطِرَارًا كَقَوْلِنَا: ٱلْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ وَكُلُّ مُتَغَيِّرٍ حَادِثٌ فَإِنَّهُ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضِيَّتَيْنِ وَلَزِمَ عَنْهُمَا أَنَّ ٱلْعَالَمَ حَادِثٌ وَهُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْعَقْلِيُّ وَٱلْمَنْطِقِيُّ. وَٱلْقَوْلُ ٱلآخِرُ يُسَمَّى مَطْلُوبًا قَبْلَ إِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ عَلَيْهِ. وَنَتِيجَةً بَعْدَ تَرْكِيبِ ٱلْقِيَاسِ لَهُ وَإِقَامَةِ ٱلدَّلِيلِ

عَلَيهِ وَيُسَمَّى بِٱلرِّدْفِ ايضًا. وَمَوضُوعُ ٱلنَّتيجَةِ هُوَ ٱلْحَدُّ ٱلأَصغَرُ وَٱلمَحكُومُ فِيهَا هُوَ ٱلحَدُّ ٱلاكبرُ. وَمَا كُرِّرَ فِي ٱلقَضِيَّتَيْنِ ٱلأُولَيَيْنِ يُسَمَّى حَدًّا اوسَط. ويَدعُونَ ٱلقَضِيَّةَ ٱلمُشتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلاكبرِ مُقَدَّمَةً كُبرَى وَٱلمُشتَمِلَةَ عَلَى ٱلحَدِّ ٱلاصغَرِ مُقَدَّمَةً صُغرَى. وَمَجمُوعُ ٱلمُقَدِّمَةِ ٱلصُّغرَى بِٱلكُبرَى فِي ٱلقِيَاسِ يُعرَفُ بِٱلضَّربِ. وَنِسبَةُ ٱلحَدِّ ٱلأَوسَطِ إِلَى ٱلأَصغَرِ وَٱلأَكبرِ هُوَ ٱلشَّكلُ. وَاشكَالُ ٱلقِيَاسِ اربَعَةٌ لِأَنَّ ٱلأَوسَطَ إِنْ كَانَ مَحمُولًا فِي ٱلصُّغرَى مَوضُوعًا فِي ٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلاوَّلُ) كَقَولِكَ: كُلُّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي ٱلنَّارِ. وَشَرطُ إِنتَاجِ هٰذَا ٱلشَّكلِ إِيجَابُ ٱلصُّغرَى وَكُلِّيَّةُ ٱلكُبرَى وَهُوَ يَختَصُّ بِأَنَّهُ يُنتِجُ ٱلمُوجِبَةَ ٱلكُلِّيَّةَ. وَبَاقِي ٱلأَشكَالِ لَا يُنتِجُ ٱلمُوجِبَةَ ٱلكُلِّيَّةَ بَلْ إِمَّا مُوجِبَةً جُزئِيَّةً اوْ سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ ٱلحَدُّ ٱلأَوسَطُ مَحمُولًا فِي ٱلصُّغرَى وَٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلثَّانِي) كَقَولِكَ: كُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَلَا شَيءَ مِنَ ٱلجَمَادِ بِحَيَوَانٍ فَلَا شَيءَ مِنَ ٱلجَمَادِ بِإِنسَانٍ. وَكَقَولِ ٱلبَعضِ: كُلُّ غَائِبٍ مَجهُولُ ٱلصِّفَةِ وَكُلُّ مَا يَصِحُّ بَيعُهُ لَيسَ بِمَجهُولِ ٱلصِّفَةِ فَٱلنَّتِيجَةُ كُلُّ غَائِبٍ لَا يَصِحُّ بَيعُهُ. وَشَرطُ إِنتَاجِهِ ٱختِلَافُ مُقَدَّمَتَيهِ فِي ٱلإِيجَابِ وَٱلسَّلبِ وَكُلِّيَّةُ كُبرَاهُ وَمِنْ خَوَاصِّهِ أَنَّهُ لَا يُنتِجُ إِلَّا سَالِبَةً. وَإِنْ كَانَ ٱلأَوسَطُ مَوضُوعًا فِي ٱلصُّغرَى وَٱلكُبرَى فَهُوَ (ٱلشَّكلُ ٱلثَّالِثُ) نَحوَ كُلُّ إِنسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ إِنسَانٍ نَاطِقٌ فَبَعضُ ٱلحَيَوَانِ نَاطِقٌ. وَشَرطُ إِنتَاجِهِ أَنْ تَكُونَ صُغرَاهُ مُوجِبَةً

وَانْ تكُونَ اِحْدَى مُقَدِّمَتَيهِ كُلِّيَّةً وَمِنْ خَوَاصِّهِ اَنَّ نَتِيجَتَهُ لَا تَكُونُ اِلَّا جُزْئِيَّةً. وَاِنْ كَانَ ٱلْحَدُّ ٱلاوْسَطُ عَكْسَ ٱلْاَوَّلِ بِاَنْ يَكُونَ مَوْضُوعًا فِي ٱلصُّغْرَى مَحْمُولًا فِي ٱلْكُبْرَى فَهُوَ (ٱلشَّكْلُ ٱلرَّابِعُ) كَقَوْلِكَ: كُلُّ اِنْسَانٍ حَيَوَانٌ وَكُلُّ نَاطِقٍ اِنْسَانٌ فَبَعْضُ ٱلْحَيَوَانِ نَاطِقٌ

وَٱلْقِيَاسُ يُقْسَمُ اِلَى كَامِلٍ وَغَيْرِ كَامِلٍ فَٱلْقِيَاسُ ٱلْكَامِلُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلَّذِي يَكُونُ لُزُومُ مَا يَلْزَمُ عَنْهُ بَيِّنًا عِنْدَ وَضْعِهِ فَلَا يَحْتَاجُ اَنْ نُبَيِّنَ اَنَّ ذٰلِكَ لَازِمٌ عَنْهُ. وَٱلْغَيْرُ ٱلْكَامِلِ هُوَ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ شَيْءٌ وَلٰكِنْ لَا يَكُونُ بَيِّنًا فِي اَوَّلِ ٱلْاَمْرِ اَنَّ ذٰلِكَ يَلْزَمُ عَنْهُ. بَلْ اِذَا اُرِيدَ اَنْ نُبَيِّنَ ذٰلِكَ بُيِّنَ بِشَيْءٍ آخَرَ لٰكِنَّهُ غَيْرُ خَارِجٍ مِنْ جُمْلَةِ مَا قِيلَ بَلْ اِمَّا نَقِيضُ مَا قِيلَ اَوْ عَكْسُهُ تَغْيِيرُ شَيْءٍ مِنْهُ وَٱقْتِرَانُهُ. وَٱلْقِيَاسُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ لَيْسَ هُوَ وَلَا نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ بِوَجْهٍ بَلْ بِٱلْقُوَّةِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱقْتِرَانِيًّا كَقَوْلِكَ: كُلُّ جِسْمٍ مُؤَلَّفٌ وَكُلُّ مُؤَلَّفٍ مُحْدَثٌ سُمِّيَ بِهِ لِٱقْتِرَانِ ٱلْحُدُودِ فِيهِ. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ مَا يَلْزَمُهُ هُوَ اَوْ نَقِيضُهُ مَقُولًا فِيهِ بِٱلْفِعْلِ وَيُسَمَّى قِيَاسًا ٱسْتِثْنَائِيًّا كَقَوْلِكَ: اِنْ كَانَتِ ٱلنَّفْسُ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا لٰكِنْ لَهَا فِعْلٌ بِذَاتِهَا فَهِيَ قَائِمَةٌ بِذَاتِهَا



البحث الثالث

في ملحقات القياس

(من كتاب شرح المطالع وشرح الشمسيّة والكليات لابي البقا)

(راجع صفحة ١١١ من علم الخطابة)

وَلِأَقسام ِالقياس مُلحقاتٌ اخَر يُقسم اليها . (اوّلها) القياسُ المُركَّب وهو قياسٌ رُكّب من مقدَّماتٍ يُنتج مقدَّمتان منها نتيجة وهي مع المقدَّمة الأُخرى نتيجةٌ أُخرى ولا تزال نتائج بعضها مقدَّمات لبعض الى ان يحصل المطلوب . فان صرّح بنتائج تلك الاقيسة سُمّي موصول النتائج لوصل تلك النتائج بالمقدَّمات كقولك : كلُّ كاتب انسانٌ وكلُّ انسانٍ حيوانٌ فكلُّ كاتب حيوانٌ . وكلُّ حيوانٌ ذو حسٍّ فكلُّ كاتب ذو حسٍّ . وكلُّ ذو حسٍّ جسمٌ فكلُّ كاتبٍ جسمٌ . وان لم يُصرّح بنتائج تلك الاقيسة سُمّي مفصول النتائج ومطويّها كقولك : كلُّ كاتبٍ انسانٌ . وكلُّ انسانٍ حيوانٌ . وكلُّ حيوانٍ ذو حسٍّ . وكلُّ ذي حسٍّ نامٍ . وكلُّ نامٍ جسمٌ فكلُّ كاتب جسمٌ . (والثاني) قياسُ الخلف . وهو قياسٌ استثنائيٌّ يُقصد فيه اثبات المطلوب بابطال نقيضه كما اذا قيل كلُّ نباتٍ نامٍ ولا شيءَ من الجمادِ بنامٍ فلا شيءَ من النبات بجمادٍ . فيُقال لو لم يكن المطلوب حقًّا اي لا شيءَ من النبات بجمادٍ لصدق نقيضُه اي بعض النبات جمادٌ . لكن لو كان هذا

اَلنَّقِيضُ حَقًّا لَمَا صَدَقَ كَوْنُ كُلِّ نَبَاتٍ نَامِيًا . وَقَدْ سُمِّيَ هٰذَا ٱلْقِيَاسُ خَلْفًا لِاَنَّ ٱلْمُتَمَسِّكَ بِهِ يُثْبِتُ مَطْلُوبَهُ مِنْ خَلْفِهِ اَيْ مِنْ وَرَائِهِ .

(وَٱلثَّالِثُ) قِيَاسُ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَهُوَ قَوْلٌ مُؤَلَّفٌ مِنْ قَضَايَا تَشْتَمِلُ عَلَى ٱلْحُكْمِ عَلَى ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِاِثْبَاتِ ٱلْحُكْمِ ٱلْكُلِّيِّ . وَيُحَدُّ اَيْضًا ٱلْحُكْمُ عَلَى كُلِّيٍّ لِوُجُودِهِ فِي اَكْثَرِ جُزْئِيَّاتِهِ وَقِيلَ اَيْضًا : هُوَ تَصَفُّحُ ٱلْجُزْئِيَّاتِ لِاِثْبَاتِ حُكْمٍ كُلِّيٍّ ثُمَّ ٱلِاسْتِقْرَاءُ قِسْمَانِ (تَامٌّ) وَيُسَمَّى قِيَاسًا مُقَسِّمًا وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِجَمِيعِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَلِيلُ ٱلِاسْتِعْمَالِ كَمَا يُقَالُ : كُلُّ جِسْمٍ اِمَّا حَيَوَانٌ اَوْ نَبَاتٌ اَوْ جَمَادٌ وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُتَحَيِّزٌ فَيُنْتِجُ اَنَّ كُلَّ جِسْمٍ مُتَحَيِّزٌ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ . (وَنَاقِصٌ) وَهُوَ اَنْ يُسْتَدَلَّ بِاَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ فَقَطْ وَيُحْكَمَ عَلَى ٱلْكُلِّ وَهُوَ قَسِيمُ ٱلْقِيَاسِ وَلِذَا عَدُّوهُ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلْقِيَاسِ وَتَوَابِعِهِ وَهُوَ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ كَقَوْلِنَا : كُلُّ حَيَوَانٍ يَتَحَرَّكُ فَكُّهُ ٱلْاَسْفَلُ عِنْدَ ٱلْمَضْغِ لِاَنَّ ٱلْاِنْسَانَ وَٱلْفَرَسَ وَٱلْحِمَارَ وَٱلْبَقَرَ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا تَتَبَّعْنَاهُ كَذٰلِكَ . فَاِنَّهُ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ بِجَوَازِ ٱلتَّخَلُّفِ كَمَا فِي ٱلتِّمْسَاحِ . (وَٱلرَّابِعُ) قِيَاسُ ٱلتَّمْثِيلِ وَهُوَ اِثْبَاتُ حُكْمٍ فِي جُزْئِيٍّ لِثُبُوتِهِ فِي جُزْئِيٍّ آخَرَ لِمَعْنًى مُشْتَرَكٍ بَيْنَهُمَا مُؤَثِّرٍ فِي ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ كَقَوْلِكَ : اَلْعَالَمُ مُؤَلَّفٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ كَالْمَدِينَةِ لِاَنَّ كِلَيْهِمَا مُرَكَّبٌ مِنْ اَجْزَاءٍ وَهُوَ يُقْسَمُ اِلَى تَمْثِيلٍ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلْيَقِينَ وَاِلَى غَيْرِ قَطْعِيٍّ يُفِيدُ ٱلظَّنَّ

اَمَّا اَنْوَاعُ ٱلْقِيَاسِ فَخَمْسَةٌ . (اَحَدُهَا) ٱلْقِيَاسُ ٱلْبُرْهَانِيُّ وَهُوَ

مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ يَقِينِيَّةٍ كَقَوْلِكَ : زَيْدٌ إِنْسَانٌ فَهُوَ قَابِلُ الْعِلْمِ . (وَالثَّانِي) الْجَدَلِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَشْهُورَةٍ يُسَلِّمُ بِهَا الْخَصْمُ وَلَا يَقْوَى عَلَى إِنْكَارِهَا لِشُهْرَتِهَا بَيْنَ الْجُمْهُورِ نَحْوُ : الْعَالَمُ مُتَغَيِّرٌ فَهُوَ مُحْدَثٌ . (وَالثَّالِثُ) الْخَطَابِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مَقْبُولَةٍ يُرَادُ بِهَا تَرْغِيبُ السَّامِعِ أَوْ تَرْهِيبُهُ نَحْوُ : الصَّلَاةُ بِرٌّ فَهِيَ مَنْجَاةٌ لِلْإِنْسَانِ . وَإِهْمَالُهَا مَعْصِيَةٌ فَهُوَ مُهْلِكٌ . (وَالرَّابِعُ) الشِّعْرِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ مُخَيَّلَةٍ تُؤَثِّرُ فِي النَّفْسِ بَسْطًا أَوْ قَبْضًا صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً نَحْوُ : الْخَمْرُ قِرْمِزِيَّةٌ سَاطِعَةٌ فَهِيَ تُبْهِجُ النَّظَرَ أَوْ هِيَ مُرَّةٌ مُهَوِّعَةٌ فَهِيَ تُزْعِجُ النَّفْسَ . (وَالْخَامِسُ) الْمُغَالَطِيُّ وَهُوَ مَا رُكِّبَ مِنْ مُقَدَّمَاتٍ كَاذِبَةٍ شَبِيهَةٍ بِالصَّادِقَةِ كَقَوْلِكَ عَنْ بُرْجِ الْأَسَدِ : هٰذَا أَسَدٌ فَهُوَ يَزْأَرُ . وَالْعُمْدَةُ فِي الْخَطَابَةِ عَلَى الْبُرْهَانِ الْخَطَابِيِّ أَيْ ذِي الْمُقَدَّمَاتِ الْمَقْبُولَةِ

البحث الرابع

في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل

(من تلخيص خطابة ارسطو لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٠٨ من الجزء الثاني من علم الادب)

نَقُولُ إِنَّ الْأَقَاوِيلَ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِثْبَاتُ وَالْإِبْطَالُ كَمَا أَنَّهَا فِي صِنَاعَةِ الْجَدَلِ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا الْاسْتِقْرَاءُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ

اَسْتِقْرَاءٌ وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّانِي ٱلْقِيَاسُ وَمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ قِيَاسٌ كَذٰلِكَ
ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُثْبِتَةُ فِي ٱلصِّنَاعَةِ وَٱلْمُبْطِلَةُ صِنْفَانِ أَحَدُهُمَا شَبِيهٌ بِٱلْاِسْتِقْرَاءِ
وَهُوَ ٱلْمِثَالُ وَٱلْآخَرُ شَبِيهٌ بِٱلْقِيَاسِ وَهُوَ ٱلضَّمِيرُ. وَٱلضَّمِيرُ ٱلَّذِي
يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ضَمِيرٌ وَلَيْسَ بِضَمِيرٍ يُشْبِهُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ هُنَالِكَ أَنَّهُ
قِيَاسٌ وَلَيْسَ بِقِيَاسٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْمِثَالُ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مِثَالٌ
وَلَيْسَ بِمِثَالٍ يُشْبِهُ ٱلْاِسْتِقْرَاءَ ٱلَّذِي يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ ٱسْتِقْرَاءٌ وَلَيْسَ
بِٱسْتِقْرَاءٍ. فَٱلضَّمِيرُ هُوَ ٱلْقِيَاسُ ٱلْخُطْبِيُّ وَٱلْمِثَالُ هُوَ ٱلْاِسْتِقْرَاءُ ٱلْخُطْبِيُّ.
وَٱلْخُطَبَاءُ إِذَا تُؤُمِّلَ أَمْرُهُمْ ظَهَرَ أَنَّهُمْ يَفْعَلُونَ جَمِيعَ ٱلتَّصْدِيقَاتِ
ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْقَوْلِ بِهٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ أَعْنِي إِمَّا بِٱلْمِثَالِ وَإِمَّا بِٱلضَّمِيرِ.
وَذٰلِكَ أَنَّهُمْ يَؤُمُّونَ بِفِعْلِهِمْ هٰذَا أَنْ يَتَشَبَّهُوا بِٱلْاِسْتِقْرَاءِ وَٱلْقِيَاسِ.
وَٱلَّذِي يَفْعَلُونَ مِنْ ذٰلِكَ إِنَّمَا يَفْعَلُونَهُ بِمَا هُوَ مِثَالٌ فِي ٱلْحَقِيقَةِ أَوْ
بِمَا يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ كَذٰلِكَ وَتَبَيَّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ أَنَّ كُلَّ تَصْدِيقٍ
فَإِنَّهُ يَكُونُ بِٱلْقِيَاسِ وَأَنَّ ٱلْاِسْتِقْرَاءَ وَٱلْمِثَالَ إِنَّمَا يُفِيدَانِ
ٱلتَّصْدِيقَ بِمَا فِيهِمَا مِنْ قُوَّةِ ٱلْقِيَاسِ. فَأَمَّا مَا هُوَ ٱلْقِيَاسُ وَمَا ٱلْفَصْلُ
بَيْنَهُ وَبَيْنَ ٱلْبُرْهَانِ فَقَدْ قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْجَدَلِ وَقَدْ تَبَيَّنَ هُنَالِكَ
أَيْضًا ٱلْفَرْقُ بَيْنَ ٱلْقِيَاسِ وَٱلْاِسْتِقْرَاءِ. وَٱلْاِسْتِقْرَاءُ وَٱلْمِثَالُ يَشْتَرِكَانِ
فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا يُثْبِتَانِ أَنَّ هٰذَا ٱلشَّيْءَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ كَذَا
مِنْ أَجْلِ وُجُودِ ذٰلِكَ ٱلشَّيْءِ أَوْ لَا وُجُودِهِ فِي شَبِيهِهِ. وَٱلضَّمِيرُ
وَٱلْقِيَاسُ يَشْتَرِكَانِ فِي أَنَّ كِلَيْهِمَا قَوْلٌ يُوضَعُ فِيهِ شَيْءٌ فَيَلْزَمُ عَنْهُ
شَيْءٌ آخَرُ. وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ

هٰذَيْنِ ٱلْجِنْسَيْنِ مِنَ ٱلْقَوْلِ نَوْعًا خُطَبِيًّا وَنَوْعًا جَدَلِيًّا وَنَوْعًا بُرْهَانِيًّا وَنَوْعًا سُوفِسْطَائِيًّا . فَإِنَّهُ كَمَا يُوجَدُ ٱلِاسْتِقْرَاءُ وَٱلْقِيَاسُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ كَذٰلِكَ يُوجَدُ فِي ٱلْخَطَابَةِ ٱلْمِثَالُ وَٱلضَّمِيرُ وَإِنَّمَا يَخْتَلِفُ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ بِجِهَةِ ٱلِاسْتِعْمَالِ أَعْنِي فِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ وَصِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ . وَٱلْقِيَاسُ فِي ٱلْجَدَلِ أَوْثَقُ مِنَ ٱلِاسْتِقْرَاءِ وَٱلْمِثَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَقْنَعُ مِنَ ٱلضَّمِيرِ لِأَنَّ ٱلضَّمِيرَ يَتَطَرَّقُ إِلَيْهِ ٱلْعِنَادُ أَكْثَرَ مِنْ تَطَرُّقِهِ إِلَى ٱلْمِثَالِ وَسَبَبُ هٰذَا سَنُخْبِرُ بِهِ فِيمَا بَعْدُ وَكَذٰلِكَ كَيْفَ نَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ . فَأَمَّا ٱلْآنَ فَيَنْبَغِي أَنْ نُحَدِّدَ هٰذَيْنِ ٱلطَّرِيقَيْنِ مِنَ ٱلْإِقْنَاعِ أَعْنِي ٱلضَّمِيرَ وَٱلْمِثَالَ فَنَقُولُ :

إِنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلْمُقْنِعَ إِمَّا أَنْ يَكُونَ مُقْنِعًا لِوَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِجَمَاعَةٍ مِنَ ٱلنَّاسِ أَوْ لِأَكْثَرِ ٱلنَّاسِ . وَأَيْضًا مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ فِي أَمْرٍ جُزْئِيٍّ . وَكِلَا هٰذَيْنِ مِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بَيِّنًا بِنَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ . وَٱلَّذِي يَكُونُ إِقْنَاعُهُ بِغَيْرِهِ فِي ٱلْجُزْئِيَّاتِ ضَرْبَانِ (أَحَدُهُمَا) أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ : إِنَّ كَذَا إِنَّمَا هُوَ كَذَا لِمَوْضِعِ كَذَا . مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ : إِنَّ شَرَابَ ٱلسَّكَنْجَبِينِ يَنْفَعُ فُلَانًا لِأَنَّهُ مَحْمُومٌ . وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلضَّمِيرَ . (وَٱلضَّرْبُ ٱلثَّانِي) أَنْ يَقُولَ : إِنَّ كَذَا إِنَّمَا كَانَ كَذَا لِأَنَّهُ مِثْلُ كَذَا . مِثْلُ أَنْ يَقُولَ . إِنَّ فُلَانًا يَنْتَفِعُ بِشَرَابِ لسَّكَنْجَبِينِ لِأَنَّ فُلَانًا ٱنْتَفَعَ بِهِ . وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمِثَالَ . وَٱلْمُقْنِعَاتُ ٱلَّتِي هِيَ مُقْنِعَةٌ عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَلَيْسَ تَسْتَعْمِلُهَا

هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ لِأَنَّ ذٰلِكَ غَيْرُ مُتَنَاهٍ وَغَيْرُ مَعْلُومٍ عِنْدَ ٱلْمُسْتَعْمِلِ
لَهَا وَلِذٰلِكَ لَيْسَتْ تَسْتَعْمِلُ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ
أَعْنِي ٱلْمَقْبُولَةَ مَا كَانَ مَقْبُولًا عِنْدَ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ . وَتِلْكَ هِيَ
ٱلْآرَاءُ ٱلْحَادِثَةُ لِلنَّاسِ عِنْدَ ٱلشَّوْقِ وَٱلْهَوَى بَلْ إِنَّمَا تَسْتَعْمِلُ
ٱلْمَحْمُودَ عِنْدَ ٱلْأَكْثَرِ أَوِ ٱلْجَمِيعِ عَلَى مِثْلِ مَا تَسْتَعْمِلُهُ صِنَاعَةُ
ٱلْجَدَلِ . وَإِذَا كَانَ ٱلْأَمْرُ هٰكَذَا فَٱلَّذِي يَفْتَرِقُ بِهِ ٱلْقِيَاسُ
ٱلْمُسْتَعْمَلُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْجَدَلِ وَفِي صِنَاعَةِ ٱلْبُرْهَانِ مِنَ ٱلضَّمِيرِ ٱلْمُسْتَعْمَلِ
فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ يُرَتَّبُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي يَكُونُ بِهِ ٱلْقَوْلُ
مُنْتِجًا بِٱلضَّرُورَةِ . وَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ فَإِنَّهُ تَتَرَتَّبُ مُقَدِّمَاتُهُ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلَّذِي
هُوَ مُعْتَادٌ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ أَنْ يَقْبَلَ . وَذٰلِكَ هُوَ بِخِلَافِ ٱلتَّرْتِيبِ
ٱلصِّنَاعِيِّ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ يَسْتَرِيبُونَ بِٱلْقَوْلِ ٱللَّازِمِ عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلصِّنَاعِيِّ
وَيَرَوْنَ أَنَّ ذٰلِكَ إِنَّمَا لَزِمَ مِنْ جِهَةِ ٱلصِّنَاعَةِ لَا مِنْ جِهَةِ ٱلْأَمْرِ فِي
نَفْسِهِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلتَّرْتِيبَ ٱلصِّنَاعِيَّ يَقْتَضِي أَنْ يُصَرَّحَ فِيهِ بِجَمِيعِ
ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلضَّرُورِيَّةِ فِي بَيَانِ ذٰلِكَ ٱلْمَطْلُوبِ وَٱلْجُمْهُورُ لَا
يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَفْهَمُوا لُزُومَ ٱلنَّتِيجَةِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ عَنْ مُقَدِّمَاتٍ كَثِيرَةٍ .
وَأَيْضًا فَإِنَّهُمْ لَا يُبَاعِدُونَ بَيْنَ ٱلنَّتِيجَةِ وَٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ ٱلنَّتِيجَةُ
أَعْنِي أَنَّهُمْ لَا يُصَرِّحُونَ فِي ٱلْمَقَايِيسِ بِٱلْمُقَدِّمَتَيْنِ جَمِيعًا مَعَ ٱلنَّتِيجَةِ
بَلْ إِنَّمَا يَأْتُونَ بِمُقَدِّمَةٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ يُرْدِفُونَهَا بِٱلنَّتِيجَةِ . مِثْلَ أَنَّهُمْ
يَقُولُونَ : هٰذَا يَدُورُ بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ . وَلَا يَقُولُونَ : كُلُّ مَنْ يَدُورُ
بِٱللَّيْلِ فَهُوَ لِصٌّ وَهِيَ ٱلْمُقَدِّمَةُ ٱلْكُبْرَى . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلضَّمَائِرَ لَمَّا

كانت تصنع في الأكثر في الأمور الممكنة وذلك بيّن في الأمور المشاورية فإنه ليس يشير أحد على أحد بأمر ضروري الوجود ولا ممتنع الوجود وكانت المقدمة الكبرى في أمثال هذه المواد كاذبة بالجزء لم يصرّحوا بها في المقاييس التي يستعملونها في هذه الصناعة لئلا يُفطن لكذبها . وأيضاً فلما كانت المقاييس الجيدة الصنعة في هذه الصناعة إنما هي أحد صنفين إما المقاييس التي تؤلف من المقدمات البينة إقناعها بنفسه وإما من مقدمات تتبين مقدماتها بمقدمات أخر تختلط بها وإلا لم يتبين حمدها . فقد يلحق ضرورة في هذا الصنف الثاني أن يعسر تأليف المقدمات وترتيبها الترتيب الصناعي لمكان كثرة المقدمات وطول الزمان الذي يصرح فيه بجميعها وترتب ترتيباً صناعياً وذلك الشيء لا يساعد عليه الحكام بل يحبون المتكلم بين أيديهم أن يكون كلامه بسيطاً غير متكلف فيه صنعة على الجمهور في ذلك فإنه متى كان الكلام ليس على هذه الصفة كان غير مقنع . وذلك في الأمرين اللذين يكون فيهما الإقناع أعني في أن الشيء موجود أو غير موجود وفي أنه إذا وجد محمود أو غير محمود . وكذلك إذا استعمل التصديق بطريق أخذ الأشباه فنستقصي وجعل على طريق الاستقراء عرض العسر الذي وصفناه من الطول والكثرة . وإذا كان هذا هكذا فإذن القياس الخطبي وهو الضمير والمثال إنما يكونان في الأشياء التي يكون فيها القياس والاستقراء بإطلاق وتلك

ٱلْأَشْيَاء مَأْخُوذَةٌ بِحَالٍ غَيْرِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي أُخِذَتْ بِهَا فِي ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاسْتِقْرَاء. فَإِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاء بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي بُيِّنَ فِي كِتَابِ ٱلْقِيَاسِ عَادَ ٱلْمِثَالُ ٱسْتِقْرَاءً وَٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا. وإذَا أُخِذَتْ بِهَذِهِ ٱلْحَالِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا عَادَ ٱلِاسْتِقْرَاء مِثَالًا وَٱلْقِيَاسُ ضَمِيرًا. وتِلْكَ ٱلْحَالُ هِيَ أَخْذُ ٱلْقِيَاسِ وَٱلِاعْتِبَارِ بِمُقَدَّمَاتٍ قَلِيلَةٍ وَجِيزَةٍ فَإِنَّ ٱلْإِقْنَاعَ إِنَّمَا يَكُونُ أَكْثَرَ ذَلِكَ بِٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي هِيَ فِي غَايَةِ ٱلظُّهُورِ وَحَذْفِ مَا خَفِيَ مِنْهَا وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْمَحْمُودَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ يُحْذَفَ ٱللَّازِمُ عَنْهُ وَيُؤْتَى بِٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَلْزَمُ إِذَا أُخْبِرَ بِٱللَّازِمِ وَٱلْمَلْزُومِ فَكَأَنَّهُ قَدْ ذَكَرَ ٱلشَّيْءَ مَرَّتَيْنِ فَيَكُونُ هَذَرًا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. وَعَلَى هٰذَا فَلَا يُصَرَّحُ بِٱلْحَدِّ ٱلْأَوْسَطِ فِي ٱلْقِيَاسِ إِلَّا مَرَّةً وَاحِدَةً وَلَا فِي ٱلِاعْتِبَارِ إِلَّا بِشَبِيهٍ وَاحِدٍ فَيَكُونُ ٱلْقِيَاسُ ضَرُورَةً ضَمِيرًا أَيْ مَحْذُوفًا إِحْدَى مُقَدَّمَتَيْهِ وَبِهٰذَا سُمِّيَ ضَمِيرًا إِذْ كَانَتْ إِحْدَاهُمَا مُضْمَرَةً وَيَكُونُ ٱلِاسْتِقْرَاء ضَرُورَةً تَمْثِيلًا

البحث الخامس

في مقدمات القياسات الخطبية

(من الكتاب نفسهُ)

(قَالَ) وَمُقَدَّمَاتُ ٱلْقِيَاسَاتِ ٱلْخُطْبِيَّةِ قَدْ تَكُونُ ضَرُورِيَّةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَقَلِّ وَتَكُونُ مُمْكِنَةً وَذٰلِكَ فِي ٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ أَكْثَرَ ٱلْفَحْصِ ٱلْجُمْهُورِيِّ إِنَّمَا هُوَ فِيمَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ بِحَالٍ وَيُمْكِنُ أَلَّا يَكُونَ

بِتِلْكَ ٱلْحَالِ . وَذٰلِكَ بَيِّنٌ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا وَذٰلِكَ أَنَّهَا كُلَّهَا أُمُورٌ مَفْعُولَةٌ لِلْإِنْسَانِ لَا ضَرُورِيَّةُ ٱلْوُجُودِ وَلَا مُمْتَنِعَةُ ٱلْوُجُودِ . وَٱلنَّتَائِجُ ٱلضَّرُورِيَّةُ فَإِنَّهَا تَكُونُ بِٱلذَّاتِ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ ضَرُورِيَّةٍ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مُمْكِنَةٍ . وَٱلضَّمَائِرُ مِنْهَا مَا يَكُونُ عَنْ مُقَدَّمَاتٍ مَحْمُودَةٍ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ مِنَ ٱلدَّلَائِلِ . وَأَعْنِي بِٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَحْمُودَةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ دَلَائِلَ . مِثْلَ أَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يُشْكَرَ ٱلْمُنْعِمُ وَأَنْ يُسَاءَ إِلَى ٱلْمُسِيءِ . وَأَعْنِي بِٱلدَّلَائِلِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى وُجُودِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ . وَهٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلْمُقَدَّمَاتِ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلضَّرُورِيَّةِ وَٱلْمُمْكِنَةِ أَعْنِي ٱلْمَحْمُودَاتِ وَٱلدَّلَائِلَ . وَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَهِيَ ٱلَّتِي نِسْبَتُهَا إِلَى ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ نِسْبَةُ ٱلَّتِي عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِلَى ٱلضَّرُورِيِّ وَهِيَ نِسْبَةُ ٱلْكُلِّ مِنَ ٱلْبَعْضِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي ٱلضَّرُورِيَّةِ أَعَمُّ مِنَ ٱلصِّدْقِ فِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ إِذْ كَانَتِ ٱلضَّرُورِيَّةُ تُوجَدُ لِكُلِّ ٱلْمَوْضُوعِ وَٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ لَا تُوجَدُ لِكُلِّهِ . وَكَذٰلِكَ نِسْبَةُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي إِلَى ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ هِيَ هٰذِهِ ٱلنِّسْبَةُ أَعْنِي أَنَّ ٱلْمُمْكِنَةَ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ تَصْدُقُ مِنْ مَوْضُوعَاتِهَا عَلَى أَكْثَرَ مِمَّا تَصْدُقُ ٱلْمُمْكِنَةُ عَلَى ٱلتَّسَاوِي . وَٱلدَّلَائِلُ ٱلْمَأْخُوذَةُ حَدًّا أَوْسَطَ مِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ . وَمِنْهَا مَا هُوَ أَخَصُّ مِنْهُمَا . أَمَّا ٱلَّذِي هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفِ

ٱلْأَصْغَرِ وَأَخَصُّ مِنَ ٱلْأَكْبَرِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ ضَرُورَةً فِي ٱلشَّكْلِ ٱلْأَوَّلِ. وَإِذَا كَانَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ فَهُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُهُ ٱلْقُدَمَاءُ بِٱلْأَشْبَهِ. وَمِثَالُهُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ: هٰذِهِ أُنْثَى ٱلْحَيَوَانِ لَهَا لَبَنٌ فَهِيَ قَدْ وَلَدَتْ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ. فُلَانٌ يُعِدُّ ٱلسِّلَاحَ وَيَجْمَعُ ٱلرِّجَالَ وَلَيْسَ قُرْبَهُ عَدُوٌّ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَعْصِيَ ٱلْمَلِكَ. وَمِثَالُ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلتَّسَاوِي: فُلَانٌ قَدْ تَعِبَ وَٱلْمَتْعُوبُ مَحْمُومٌ فَفُلَانٌ مَحْمُومٌ. وَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُشَبَّهِ. وَأَمَّا مَا هُوَ أَعَمُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَإِنَّهُ يَأْتَلِفُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّانِي إِلَّا أَنَّهُ غَيْرُ مُنْتِجٍ إِلَّا فِي بَادِي ٱلرَّأْيِ. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلْمُمْكِنَةِ عَلَى ٱلْأَكْثَرِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: سُقْرَاطُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا وَٱلْمَحْمُومُ يَتَنَفَّسُ مُتَوَاتِرًا فَسُقْرَاطُ مَحْمُومٌ. فَهَاتَانِ ٱلْمُقَدِّمَتَانِ صَادِقَتَانِ وَٱلنَّتِيجَةُ قَدْ تَكُونُ كَاذِبَةً إِذْ قَدْ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ تَنَفُّسُ سُقْرَاطَ مُتَوَاتِرًا لِمَوْضِعِ إِحْضَارِهِ. وَلَمَّا كَانَ ذٰلِكَ خَافِيًا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ ٱلنَّاسِ إِذَا رَأَوْا فِي أَمْثَالِ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلصَّادِقَةِ أَنَّهَا تُنْتِجُ كَذِبًا ظَنُّوا لِذٰلِكَ أَنَّهُ قَدِ ٱنْطَوَى فِيهَا كَذِبٌ فَيَرُومُونَ أَنْ يُعَانِدُوا ٱلْمُقَدِّمَاتِ فَيَعْسُرُ ذٰلِكَ عَلَيْهِمْ لِمَكَانِ صِدْقِهَا فَيَتَحَيَّرُونَ لِذٰلِكَ. وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَخَصُّ مِنَ ٱلطَّرَفَيْنِ فَتُنْتِجُ فِي ٱلشَّكْلِ ٱلثَّالِثِ جُزْئِيًّا لَا كُلِّيًّا لٰكِنْ تُؤْخَذُ نَتِيجَتُهُ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ كُلِّيَّةً. مِثَالُ ذٰلِكَ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلضَّرُورِيَّةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي كُرَةِ ٱلْعَالَمِ وَٱلْأَشْيَاءُ كُلُّهَا فِي ٱلزَّمَانِ فَٱلزَّمَانُ كُرَةُ ٱلْعَالَمِ. وَفِي ٱلْمُمْكِنَةِ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ: ٱلْحُكَمَاءُ عُدُولٌ لِأَنَّ سُقْرَاطَ حَكِيمٌ وَعَدْلٌ.

والدلائل التي تكون في الشكل الثالث والثاني تخص باسم العلامة وما كان منها في الشكل الاول يخص باسم الدليل . والذي في الشكل الثاني هو اخص باسم العلامة من الثالث كما انه ما كان من ذلك في الممكنة الاكثرية يخص باسم الاشبه وان كان في الممكنة على التساوي خص باسم الضمير المشتبه . فقد تبين من هذا القول ما هي المحمودات والدلائل والعلامات وما الفرق بينهما . لكن الذي تبين من الاقاويل القياسية على الحقيقة انما هو في كتاب القياس فانه هنالك تبين ما هو القياس وكم اجناس الاقاويل القياسية وتبين في جنس جنس منها ما هو قياس وما ليس بقياس . واما (المثال) فقد بينا فيما تقدم انه استقراء ما لكن يباين الاستقراء بانه ليس يصار فيه لا من الجزئي الى بيان الامر الكلي كما يصار في بعض انواع الاستقراء ولا من الكلي الى الجزئي كما قد يصار في بعض انواع الاستقراء . وذلك اذا بينا بالكلي الذي اثبتناه بالاستقراء جزئيا آخر غير الجزئيات التي اثبتها الكلي باستقرائها ويوافقه في انه يصير من جزئي الى جزئي لاجتماعهما في امر كلي . وذلك اذا جمعنا في الاستقراء الامرين جميعا اعني ان نصير فيه من الجزئي الى الكلي ثم من الكلي الى جزئي آخر فانا في هذا الفعل قد صرنا من جزئي الى جزئي يتوسط الكلي كالحال في المثال فان المثال انما يصير فيه من جزئي الى جزئي

لِأشْتِرَاكِهِمَا فِي أَمْرٍ كُلِّيٍّ إِذَا كَانَ ٱلْحُكْمُ ٱلْمَنْقُولُ مِنْ أَحَدِهِمَا إِلَى ٱلْآخَرِ مَوْجُودًا لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ مِنْ أَجْلِ ذٰلِكَ ٱلْكُلِّيِّ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يُوجَدُ لَهُ مِنْ جِهَتِهِ وَإِلَّا لَمْ تَصِحَّ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ أَعْنِي إِنْ لَمْ يَكُنْ هُنَالِكَ كُلِّيٌّ وَكَانَ وُجُودُ ذٰلِكَ ٱلْحُكْمِ مِنْ أَجْلِهِ لِلْجُزْئِيِّ ٱلْأَعْرَفِ. وَمِثَالُ مَا يَعْرِضُ مِنْ هٰذَا فِي ٱلْاِسْتِقْرَاءِ أَعْنِي إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلنَّقْلَةِ إِلَى ٱلْكُلِّيِّ قَوْلُ مَنْ قَالَ: أَيُّهَا ٱلْمَلِكُ إِنَّ فُلَانًا طَلَبَ أَنْ يَكُونَ مِنْ جُمْلَةِ ٱلْعَسَسِ وَقَدْ كَانَ مِنْ جُمْلَةِ عَدُوِّكَ فَلَا تُبِحْ لَهُ ذٰلِكَ فَإِنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِٱلْمَلِكِ لِأَنَّ فُلَانًا طَلَبَ ذٰلِكَ مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ وَفُلَانًا مِنْ فُلَانٍ ٱلْمَلِكِ لِأَقْوَامٍ يَعُدُّهُمْ فَفَتَكُوا بِمُلُوكِهِمْ. فَإِنَّ قَائِلَ هٰذَا ٱلْقَوْلِ قَدْ جَعَلَ ٱلنَّقْلَةَ فِيهِ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ بِتَوَسُّطِ ٱلْكُلِّيِّ ٱلَّذِي هُوَ: إِنَّ كُلَّ مَنْ طَلَبَ أَنْ يَدْخُلَ فِي ٱلْحَرَسِ مِمَّنْ كَانَ فِي جُمْلَةِ عَدُوِّ ٱلْمَلِكِ فَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَفْتِكَ بِهِ. إِلَّا إِنَّ هٰذَا ٱلْكُلِّيَّ ٱلَّذِي ٱرْتَسَمَ فِي ٱلنَّفْسِ بِٱلْقُوَّةِ وَإِنْ لَمْ يُصَرَّحْ بِهِ يَسْتَعْمِلُ ٱلنَّقْلَةَ مِنْ جُزْئِيٍّ إِلَى جُزْئِيٍّ إِذَا كَانَتِ ٱلنَّقْلَةُ إِلَيْهِ فِي ٱلذِّهْنِ مِنْ أَكْثَرِ ٱلْجُزْئِيَّاتِ كَانَ ٱسْتِقْرَاءً وَإِنْ كَانَ مِنْ وَاحِدٍ مِنْهَا أَوْ مِنَ ٱلْأَقَلِّ كَانَ تَمْثِيلًا. (قَالَ) فَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُقَالُ لَهَا مِثَالَاتٌ فَقَدْ يُكْتَفَى هَا هُنَا بِهٰذَا ٱلْقَدْرِ ٱلْمُعْطَى مِنْهَا

وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي فُصُولِ ٱلضَّمَائِرِ مِنْ جِهَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تُعْمَلُ فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ فِيهَا غَامِضٌ وَخَفِيٌّ وَهُوَ عَظِيمُ ٱلْغَنَاءِ فِيمَا نَقْصِدُهُ

هَاهُنَا . وَسَبَبُ غُمُوضِهِ اَنَّ ٱلضَّمَائِرَ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْمَقُولَاتِ ٱلْعَشْرِ كَمَا تَكُونُ ٱلْقِيَاسَاتُ ٱلْجَدَلِيَّةُ لَكِنَّ مِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي فِي ٱلصَّنَائِعِ مِثْلَ ٱلضَّمَائِرِ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ وَٱلْجُزْئِيَّةِ فِي صِنَاعَةِ ٱلطِّبِّ وَغَيْرِهَا مِنَ ٱلصَّنَائِعِ . وَهٰذِهِ فَيَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ فِي هٰذِهِ ٱلصَّنَائِعِ عَلَى نَحْوِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْبَرَاهِينِ فِي تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ لَا عَلَى مَا يَسْتَعْمِلُهَا ٱلْخَطِيبُ فِي ٱلْمَادَّةِ ٱلَّتِي تَخُصُّ ٱلْخَطَابَةَ مِثْلَ اَنْ يَأْتِيَ بِهَا جُزْءًا مِنَ خُطْبَةٍ . وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِهَا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ اَتَمَّ فِعْلًا وَاَنْفَذَ مِمَّا يُذْكَرُ بَعْدُ . وَمِنَ ٱلضَّمَائِرِ مَا يَكُونُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تَخُصُّ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةَ بِحَسَبِ مَا تَبَيَّنَ مِنْ مَنْفَعَتِهَا وَهِيَ ٱلْأُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ وَهٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يَنْبَغِي اَنْ تُسْتَعْمَلَ عَلَى جِهَةِ مَا يَسْتَعْمِلُ ٱلْخُطَبَاءُ ٱلْأَقَاوِيلَ ٱلْخُطْبِيَّةَ . وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ يَنْبَغِي اَنْ تُعَدَّدَ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي هِيَ فُصُولُ ٱلضَّمَائِرِ لَا مِنْ تِلْكَ ٱلْمَوَادِّ ٱلَّتِي تَحْتَوِي عَلَيْهَا صِنَاعَةٌ صِنَاعَة



الفصل السابع

في التفنيد

البحث الاوّل

في المناظرة والجدال

(عن رسائل الفارابي وابن سينا ومقدمة ابن خلدون وآداب البحث للسمرقندي)

(راجع الصفحة ١١٦ من علم الخطابة)

اَلْمُنَاظَرَةُ عِلْمٌ يُعرَفُ بِهِ كَيْفِيَّةُ اِثْبَاتِ ٱلمطْلُوبِ وَنَفْيِهِ اوْ نَفْيِ دَلِيلِهِ مَعَ ٱلْخَصْمِ. وَٱلْآدَابُ ٱلطُّرُقُ. وَمَوْضُوعُ هٰذَا ٱلْعِلْمِ ٱلْأَدِلَّةُ مِنْ حَيْثُ اَنَّهَا يُثْبِتُ بِهَا ٱلْمُدَّعِي عَلَى ٱلْغَيْرِ. وَمَبَادِئُهُ أُمُورٌ بَيِّنَةٌ بِنَفْسِهَا. وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ طُرُقِ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِئَلَّا يَقَعَ ٱلْخَبْطُ فِي ٱلْبَحْثِ فَيَتَّضِحَ ٱلصَّوَابُ. وَتُطْلَقُ ٱلْمُنَاظَرَةُ اَيْضًا فِي اَصْطِلَاحِ اَهْلِ هٰذَا ٱلْعِلْمِ عَلَى ٱلنَّظَرِ مِنَ ٱلْجَانِبَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ. وَقِيلَ اَيْضًا هِيَ تَوَجُّهُ ٱلْخَصْمَيْنِ فِي ٱلنِّسْبَةِ بَيْنَ ٱلشَّيْئَيْنِ اِظْهَارًا لِلصَّوَابِ اي تَوَجُّهُ ٱلْمُتَخَاصِمَيْنِ ٱللَّذَيْنِ مَطْلَبُ اَحَدِهِمَا غَيْرُ مَطْلَبِ ٱلْآخَرِ اِذَا تَوَجَّهَا فِي ٱلنِّسْبَةِ وَاِنْ كَانَ ذَاكَ ٱلتَّوَجُّهُ فِي ٱلنَّفْسِ كَمَا كَانَ لِلْحُكَمَاءِ ٱلْإِشْرَاقِيِّينَ وَكَانَ غَرَضُهُمْ مِنْ ذٰلِكَ اِظْهَارُ ٱلْحَقِّ وَٱلصَّوَابِ. وَٱلْمَسَائِلُ ٱلْعِلْمِيَّةُ تَتَزَايَدُ يَوْمًا فَيَوْمًا بِتَلَاحُقِ ٱلْأَفْكَارِ

وَٱلأَنْظَارِ فَلِتَفَاوُتِ مَرَاتِبِ ٱلطَّبَائِعِ وَٱلأَذْهَانِ لَا يَخْلُو عِلْمٌ مِنَ ٱلْعُلُومِ عَنْ تَصَادُمِ ٱلآرَاءِ وَتَبَايُنِ ٱلأَفْكَارِ وَإِدَارَةِ ٱلْكَلَامِ مِنَ ٱلْجَرْحِ وَٱلتَّعْدِيلِ وَٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ إِلَّا أَنَّهُ بِشُرُوطٍ مُعْتَبَرَةٍ مَشْرُوطٌ وَبِرِعَايَةِ ٱلأُصُولِ مَنُوطٌ وَإِلَّا لَكَانَ مُكَابَرَةً غَيْرَ مَسْمُوعَةٍ • فَلَا بُدَّ مِنْ قَانُونٍ يُعَرِّفُ مَرَاتِبَ ٱلْبَحْثِ عَلَى وَجْهٍ يَتَمَيَّزُ بِهِ ٱلْمَقْبُولُ عَمَّا هُوَ مَرْدُودٌ وَتِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ هِيَ عِلْمُ آدَابِ ٱلْبَحْثِ

أَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ عِلْمٌ يَبْحَثُ عَنِ ٱلطُّرُقِ ٱلَّتِي يُقْتَدَرُ بِهَا عَلَى إِبْرَامٍ وَنَقْضٍ وَهُوَ مِنْ فُرُوعِ عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَمَبْنَى لِعِلْمِ ٱلْخِلَافِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي هُوَ أَحَدُ أَجْزَاءِ مَبَاحِثِ ٱلْمَنْطِقِ • وَمَبَادِئُهُ بَعْضُهَا مُبَيَّنَةٌ فِي عِلْمِ ٱلنَّظَرِ وَبَعْضُهَا خَطَابِيَّةٌ وَبَعْضُهَا أُمُورٌ عَادِيَّةٌ • وَلَهُ ٱسْتِمْدَادٌ مِنْ عِلْمِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلْمَشْهُورِ بِآدَابِ ٱلْبَحْثِ • وَمَوْضُوعُهُ تِلْكَ ٱلطُّرُقُ وَٱلْغَرَضُ مِنْهُ تَحْصِيلُ مَلَكَةِ ٱلنَّقْضِ وَٱلإِبْرَامِ وَفَائِدَتُهُ كَثِيرَةٌ فِي ٱلأَحْكَامِ ٱلْعِلْمِيَّةِ وَٱلْعَمَلِيَّةِ مِنْ جِهَةِ ٱلإِلْزَامِ عَلَى ٱلْمُخَالِفِينَ. وَلَا يَبْعُدُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ عِلْمَ ٱلْجَدَلِ هُوَ عِلْمُ ٱلْمُنَاظَرَةِ لِأَنَّ ٱلْمَآلَ مِنْهُمَا وَاحِدٌ إِلَّا أَنَّ ٱلْجَدَلَ أَخَصُّ مِنْهُ • وَيُؤَيِّدُهُ كَلَامُ ٱبْنِ خَلْدُونَ فِي ٱلْمُقَدِّمَةِ حَيْثُ قَالَ : وَأَمَّا ٱلْجِدَالُ فَهُوَ مَعْرِفَةُ آدَابِ ٱلْمُنَاظَرَةِ ٱلَّتِي تَجْرِي بَيْنَ أَهْلِ ٱلْمَذَاهِبِ ٱلْفِقْهِيَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَإِنَّهُ لَمَّا كَانَ بَابُ ٱلْمُنَاظَرَةِ فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ مُتَّسِعًا وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْمُنَاظِرِينَ فِي ٱلِٱسْتِدْلَالِ وَٱلْجَوَابِ يُرْسِلُ عِنَانَهُ فِي ٱلِٱحْتِجَاجِ • وَمِنْهُ مَا يَكُونُ صَوَابًا وَمِنْهُ مَا يَكُونُ خَطَأً فَٱحْتَاجَ ٱلأَئِمَّةُ إِلَى أَنْ يَضَعُوا آدَابًا وَأَحْكَامًا يَقِفُ ٱلْمُتَنَاظِرَانِ

عِنْدَ حُدُودِهَا فِي ٱلرَّدِّ وَٱلْقَبُولِ وَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ ٱلْمُسْتَدِلِّ وَٱلْمُجِيبِ وَحَيْثُ يَسُوغُ لَهُ انْ يَكُونَ مُسْتَدِلاً وَكَيْفَ يَكُونُ مَخْصُوصًا مُنْقَطِعًا وَمَحَلُّ ٱعْتِرَاضِهِ اَوْ مُعَارَضَتِهِ وَايْنَ يَجِبُ عَلَيْهِ ٱلسُّكُوتُ وَلِخَصْمِهِ ٱلْكَلَامُ وَٱلِاسْتِدْلَالُ. وَلِذٰلِكَ قِيلَ فِيهِ اِنَّهُ مَعْرِفَةٌ بِالْقَوَاعِدِ مِنَ ٱلْحُدُودِ وَٱلْآدَابِ فِي ٱلِاسْتِدْلَالِ ٱلَّتِي يُتَوَصَّلُ بِهَا اِلَى حِفْظِ رَأْيٍ وَهَدْمِهِ كَانَ ذٰلِكَ ٱلرَّأْيُ مِنَ ٱلْفِقْهِ اَوْ غَيْرِهِ. وَهِيَ طَرِيقَتَانِ طَرِيقَةُ ٱلْبَزْدَوِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٤٨٢ هـ (١٠٩٠م) وَهِيَ خَاصَّةٌ بِالْأَدِلَّةِ ٱلشَّرْعِيَّةِ مِنَ ٱلنَّصِّ وَٱلْاِجْمَاعِ وَٱلِاسْتِدْلَالِ. وَطَرِيقَةُ رُكْنِ ٱلدِّينِ ٱلْعَمِيدِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٦١٥ هـ (١٢١٨م) وَهِيَ عَامَّةٌ فِي كُلِّ دَلِيلٍ يُسْتَدَلُّ بِهِ مِنْ اَيِّ عِلْمٍ كَانَ. وَاَكْثَرُهُ ٱسْتِدْلَالٌ وَهُوَ مِنَ ٱلْمَنَاحِي ٱلْحَسَنَةِ وَٱلْمُغَالَطَاتُ فِيهِ فِي نَفْسِ ٱلْاَمْرِ كَثِيرَةٌ وَاِذَا ٱعْتَبَرْنَا ٱلنَّظَرَ ٱلْمَنْطِقِيَّ كَانَ فِي ٱلْغَالِبِ اَشْبَهَ بِالْقِيَاسِ ٱلْمُغَالَطِيِّ وَٱلسُّوفِسْطَائِيِّ . اِلَّا اَنَّ صُوَرَ ٱلْاَدِلَّةِ وَٱلْاَقْيِسَةِ فِيهِ مَحْفُوظَةٌ مُرَاعَاةٌ تُتَحَرَّى فِيهَا طُرُقُ ٱلِاسْتِدْلَالِ كَمَا يَنْبَغِي وَهٰذَا ٱلْعَمِيدِيُّ هُوَ اَوَّلُ مَنْ كَتَبَ فِيهَا وَنُسِبَتِ ٱلطَّرِيقَةُ اِلَيْهِ وَوَضَعَ ٱلْكِتَابَ ٱلْمُسَمَّى بِالْاِرْشَادِ مُخْتَصَرًا وَتَبِعَهُ مَنْ جَاءَ بَعْدَهُ مِنَ ٱلْمُتَاخِّرِينَ كَالنَّسَفِيِّ ٱلْمُتَوَفَّى سَنَةَ ٧١٠هـ (١٣١٠م) وَغَيْرُهُ جَاءُوا عَلَى اَثَرِهِ وَسَلَكُوا مَسْلَكَهُ وَكَثُرَتْ فِي ٱلطَّرِيقَةِ ٱلتَّآلِيفُ وَهِيَ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ مَهْجُورَةٌ لِنَقْصِ ٱلْعِلْمِ وَٱلتَّعْلِيمِ فِي ٱلْاَمْصَارِ ٱلْاِسْلَامِيَّةِ

البحث الثاني

في آداب المناظرة

(من كتاب ايها الولد للغزالي)

(راجع الصفحة ١٢٤ من علم الخطابة)

لَوْ وَقَعَ مَسْئَلَةٌ بَيْنَكَ وَبَيْنَ شَخْصٍ اَوْ قَوْمٍ وَكَانَ اِرَادَتُكَ فِيهَا اَنْ تَظْهَرَ ٱلْحَقَّ وَلَا تُضَيِّعَ جَازَ لَكَ ٱلْبَحْثُ. لٰكِنْ لِتِلْكَ ٱلْإِرَادَةِ عَلَامَتَانِ اِحْدَاهُمَا اَنْ لَا تَفْرِقَ بَيْنَ اَنْ يَنْكَشِفَ ٱلْحَقُّ عَلَى لِسَانِكَ اَوْ عَلَى لِسَانِ غَيْرِكَ. وَثَانِيهِمَا اَنْ يَكُونَ ٱلْبَحْثُ فِي ٱلْخَلَاءِ اَحَبَّ اِلَيْكَ مِنْ اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَلَإِ وَٱسْمَعْ اِنِّي اَذْكُرُ لَكَ هُنَا فَائِدَةً. اَعْلَمْ اَنَّ ٱلسُّؤَالَ عَنِ ٱلْمُشْكِلَاتِ عَرْضُ مَرَضِ ٱلْقَلْبِ اِلَى ٱلطَّبِيبِ وَٱلْجَوَابُ لَهُ سَعْيٌ لِاِصْلَاحِ مَرَضِهِ وَٱعْلَمْ اَنَّ ٱلْجَاهِلِينَ ٱلْمَرْضَى قُلُوبُهُمْ وَٱلْعُلَمَاءَ ٱلْاَطِبَّاءُ. وَٱلْعَالِمَ ٱلنَّاقِصَ لَا يُحْسِنُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْعَالِمَ ٱلْكَامِلَ لَا يُعَالِجُ كُلَّ مَرَضٍ بَلْ يُعَالِجُ مَنْ يَرْجُو فِيهِ قَبُولَ ٱلْمُعَالَجَةِ وَٱلصَّلَاحِ وَإِذَا كَانَتِ ٱلْعِلَّةُ مُزْمِنَةً اَوْ عَقِيمًا لَا تَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَحَذَاقَةُ ٱلطَّبِيبِ فِيهِ اَنْ يَقُولَ: هٰذَا لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَلَا يَشْتَغِلُ بِدَوَائِهِ وَمُعَالَجَتِهِ لِاَنَّ فِيهِ تَضْيِيعَ ٱلْعُمْرِ

اِعْلَمْ اَنَّ مَرَضَ ٱلْجَهْلِ عَلَى اَرْبَعَةِ اَنْوَاعٍ اَحَدُهُمْ يَقْبَلُ ٱلْمُعَالَجَةَ وَٱلْبَاقِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ. وَاَمَّا ٱلْمَرَضُ ٱلَّذِي يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ

فَهُوَ أَنَّ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا عَالِمًا عَاقِلًا فَهِمًا لَا يَكُونُ مَغْلُوبَ ٱلْحَسَدِ وَٱلْغَضَبِ وَمُحِبَّ ٱلْجَاهِ وَٱلْمَالِ وَٱلشَّهْوَةِ وَيَكُونَ طَالِبَ ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ وَلَمْ يَكُنْ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدٍ وَتَعَنُّتٍ وَٱمْتِحَانٍ وَبَحْثٍ. وَهٰذَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ فَيَجُوزُ أَنْ تَشْتَغِلَ بِجَوَابِ سُؤَالِهِ بَلْ يَجِبُ عَلَيْكَ إِجَابَتُهُ . أَمَّا ٱلَّذِي لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ أَحَدُهُمْ مَنْ كَانَ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ عَنْ حَسَدِهِ وَبُغْضِهِ وَٱلْحَسَدُ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ لِأَنَّهُ مِنَ ٱلْعِلَّةِ ٱلْمُزْمِنَةِ فَكُلَّمَا تُجِيبُهُ بِأَحْسَنِ ٱلْجَوَابِ وَأَفْصَحِهِ وَأَوْضَحِهِ لَا يَزِيدُ لَهُ ذٰلِكَ إِلَّا غَيْظًا وَحَسَدًا فَٱلطَّرِيقُ أَنْ لَا تَشْتَغِلَ بِجَوَابِهِ:

كُلُّ ٱلْعَدَاوَةِ قَدْ تُرْجَى إِزَالَتُهَا ... إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ عَنْ حَسَدِ

فَيَنْبَغِي لَكَ أَنْ تُعْرِضَ عَنْهُ وَتَتْرُكَهُ مَعَ مَرَضِهِ قَالَ : فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَاةَ وَٱلدُّنْيَا وَتَبِعَ هَوَاهُ فَتَرَدَّى وَٱلْحَسُودُ بِكُلِّ مَا يَقُولُ وَيَفْعَلُ يُوقِدُ ٱلنَّارَ فِي زَرْعِ عَمَلِهِ كَمَا جَاءَ فِي ٱلْحَدِيثِ : ٱلْحَسَدُ يَأْكُلُ ٱلْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ ٱلنَّارُ ٱلْحَطَبَ. وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ عِلَّةً مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ وَهُوَ أَيْضًا كَٱلْحَسُودِ لَا يَقْبَلُ ٱلْعِلَاجَ كَمَا قَالَ عِيسَى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ : (١) إِنِّي مَا عَجَزْتُ عَنْ إِحْيَاءِ ٱلْمَوْتَى وَقَدْ عَجَزْتُ عَنْ مُعَالَجَةِ ٱلْأَحْمَقِ وَذَاكَ رَجُلٌ يَشْتَغِلُ لِطَلَبِ ٱلْعِلْمِ زَمَانًا قَلِيلًا وَيَتَعَلَّمُ شَيْئًا مِنَ ٱلْعِلْمِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ فَيَسْأَلُ وَيَعْتَرِضُ مِنْ حَمَاقَتِهِ لَا يَعْلَمُ وَلَا يَفْهَمُ عَلَى ٱلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ

---

(١) لم يرو هذا الكلام للسيد المسيح لذكره السجود لا في الانجيل ولا في التقليد . ولا نعلم عمّنْ رواه الغزّالي

فِي ٱلْعُلُومِ ٱلْعَقْلِيِّ وَٱلشَّرْعِيِّ . وَهٰذَا ٱلْأَحْمَقُ لَا يَعْلَمُ وَيَظُنُّ أَنَّ مَا أَشْكَلَ عَلَيْهِ هُوَ أَيْضًا مُشْكِلٌ لِلْعَالِمِ ٱلْكَبِيرِ فَإِذَا لَمْ يَتَفَكَّرْ هٰذَا ٱلْقَدْرَ يَكُونُ سُؤَالُهُ وَٱعْتِرَاضُهُ مِنَ ٱلْحَمَاقَةِ فَيَنْبَغِي أَنْ لَا يُشْتَغَلَ بِجَوَابِهِ . وَٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مُسْتَرْشِدًا وَيَحْمِلَ كُلَّ مَا لَا يَفْهَمُ مِنْ كَلَامِ ٱلْأَكَابِرِ عَلَى قُصُورِ فَهْمِهِ وَيَكُونُ سُؤَالُهُ لِلْاِسْتِفَادَةِ لٰكِنْ يَكُونُ بَلِيدًا لَا يُدْرِكُ ٱلْحَقَائِقَ فَلَا يَنْبَغِي ٱلْاِشْتِغَالُ بِجَوَابِهِ أَيْضًا وَفِي ٱلْحَدِيثِ : نَحْنُ مَعَاشِرَ ٱلْحُكَمَاءِ أُمِرْنَا أَنْ نُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِمْ

وَعَنْ بَعْضِ ٱلْعُلَمَاءِ : إِيَّاكَ أَنْ تَشْتَغِلَ بِهٰذَا ٱلْجَدَلِ ٱلَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ ٱنْقِرَاضِ ٱلْأَكَابِرِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ فَإِنَّهُ يُبْعِدُ عَنِ ٱلْفِقْهِ وَيُضَيِّعُ ٱلْعُمْرَ وَيُورِثُ ٱلْوَحْشَةَ وَٱلْعَدَاوَةَ وَهُوَ مِنْ أَشْرَاطِ ٱلسَّاعَةِ كَذَا وَرَدَ فِي ٱلْحَدِيثِ وَلِلّٰهِ دَرُّ ٱلْقَائِلِ :

أَرَى فُقَهَاءَ هٰذَا ٱلْعَصْرِ طُرًّا   أَضَاعُوا ٱلْعِلْمَ وَٱشْتَغَلُوا بِلِمْ لِمْ
إِذَا نَاظَرْتَهُمْ لَمْ تَلْقَ مِنْهُمْ   سِوَى حَرْفَيْنِ لِمْ لِمْ لَا نُسَلِّمْ

وَٱلْإِنْصَافُ أَنَّ ٱلْجَدَلَ لِإِظْهَارِ ٱلصَّوَابِ لَا بَأْسَ بِهِ وَرُبَّمَا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي تَشْحِيذِ ٱلْأَذْهَانِ . وَٱلْمَمْنُوعُ ٱلْجَدَلُ ٱلَّذِي يُضَيِّعُ ٱلْأَوْقَاتَ وَلَا يَحْصُلُ مِنْهُ طَائِلٌ . قَالَ مُوَفَّقُ ٱلدِّينِ ٱلْبَغْدَادِيُّ : إِيَّاكَ ٱلْغِلْظَةَ فِي ٱلْخِطَابِ . وَٱلْجَفَاءَ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَإِنَّ ذٰلِكَ يَذْهَبُ بِبَهْجَةِ ٱلْكَلَامِ وَيُسْقِطُ فَائِدَتَهُ . وَيُعْدِمُ حَلَاوَتَهُ . وَيَجْلِبُ ٱلضَّغَائِنَ . وَيَمْحَقُ ٱلْمَوَدَّاتِ . وَيُصَيِّرُ ٱلْقَائِلَ مُسْتَثْقَلًا . سُكُوتُهُ أَشْهَى إِلَى ٱلسَّامِعِ مِنْ كَلَامِهِ . وَيُثِيرُ ٱلنُّفُوسَ عَلَى مُعَانَدَتِهِ وَيَبْسُطُ ٱلْأَلْسُنَ بِمُخَاشَنَتِهِ وَإِذْهَابِ حُرْمَتِهِ

البحث الثالث

في الجوابات على الخصم

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع صفحة ١١٣ من علم الخطابة)

إِنَّ ٱلْجَوَابَاتِ هِيَ أَصْعَبُ ٱلْكَلَامِ كُلِّهِ مَرْكَبًا وَأَعَزُّهُ مَطْلَبًا وَأَغْمَضُهُ مَنْصَبًا وَأَضْيَقُهُ مَسْلَكًا لِأَنَّ صَاحِبَهُ يُعْجَلُ مُنَاجَاةَ ٱلْفِكْرَةِ وَٱسْتِعْمَالَ ٱلْقَرِيحَةِ يَرُومُ فِي بَدِيهَتِهِ نَقْضَ مَا أَبْرَمَ ٱلْقَائِلُ فِي رَوِيَّتِهِ فَهُوَ كَمَنْ أُخِذَتْ عَلَيْهِ ٱلْفِجَاجُ وَسُدَّتْ لَهُ ٱلْمَخَارِجُ قَدِ ٱعْتَرَضَ ٱلْأَسِنَّةَ وَٱسْتَهْدَفَ لِلْمَرَامِي لَا يَدْرِي مَا يُقْرَعُ لَهُ فَيَتَأَهَّبَ لَهُ وَلَا مَا يَفْجَأُهُ مِنْ خَصْمِهِ فَيَقْرَعُهُ بِمِثْلِهِ • وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْقَائِلُ قَدْ أَخَذَ بِمَجَامِعِ ٱلْكَلَامِ فَقَادَهُ بِزِمَامِهِ بَعْدَ أَنْ رَأَى فِيهِ وَٱحْتَفَلَ وَجَمَعَ خَوَاطِرَهُ وَٱجْتَهَدَ وَتَرَكَ ٱلرَّأْيَ يَغِبُّ حَتَّى يَخْتَمِرَ فَقَدْ كَرِهُوا ٱلرَّأْيَ ٱلْفَطِيرَ كَمَا كَرِهُوا ٱلْجَوَابَ ٱلدَّبَرِيَّ فَلَا يَزَالُ فِي نَسْجِ ٱلْكَلَامِ وَٱسْتِتْنَائِهِ حَتَّى إِذَا ٱطْمَأَنَّ شَارِدُهُ وَسَكَنَ نَافِرُهُ صَكَّ بِهِ خَصْمَهُ جُمْلَةً وَاحِدَةً ثُمَّ قِيلَ لَهُ أَجِبْ وَلَا تُخْطِئْ وَأَسْرِعْ وَلَا تُبْطِئْ • فَتَرَاهُ بِجَوَابٍ مِنْ غَيْرِ أَنَاةٍ وَلَا ٱسْتِعْدَادٍ يُطَبِّقُ ٱلْمَفَاصِلَ وَيَنْفُذُ ٱلْمَقَاتِلَ كَمَا يُرْمَى ٱلْجَنْدَلُ بِٱلْجَنْدَلِ وَيُقْرَعُ ٱلْحَدِيدُ بِٱلْحَدِيدِ فَيَحُلُّ بِهِ عُرَاهُ وَيَنْقُضُ بِهِ مَرَائِرَهُ وَيَكُونُ جَوَابُهُ عَلَى أَكْثَرِ كَلَامِهِ كَسَحَابَةٍ لَبَّدَتْ عَجَاجَتَهُ فَلَا شَيْءَ أَعْضَلُ مِنَ ٱلْجَوَابِ ٱلْحَاضِرِ وَلَا أَعَزُّ مِنَ ٱلْخَصْمِ ٱلْأَلَدِّ ٱلَّذِي يَقْرَعُ

صَاحِبَهُ وَيَصْرَعُ مُنَازِعَهُ يَقُولُ كَمِثْلِ ٱلنَّارِ فِي ٱلْحَطَبِ ٱلْجَزْلِ

البحث الرابع

في المغالطة

(من كتاب كشف اصطلاحات العلوم للتهانوي وكتاب شرح المطالع)

(راجع صفحة ١١٧ من الجزء الثاني من علم الادب)

اَلْمُغَالَطَةُ هِيَ قِيَاسٌ فَاسِدٌ اِمَّا مِنْ جِهَةِ ٱلصُّورَةِ اَوْ مِنْ جِهَةِ ٱلْمَادَّةِ اَوْ مِنْ جِهَتِهِمَا مَعًا وَٱلْآتِي بِهَا غَالِطٌ فِي نَفْسِهِ مُغَالِطٌ لِغَيْرِهِ. وَلَوْلَا ٱلْقُصُورُ وَهُوَ عَدَمُ ٱلتَّمْيِيزِ بَيْنَ مَا هُوَ هُوَ وَبَيْنَ مَا هُوَ غَيْرُهُ لَمَا تَمَّ لِلْمُغَالِطِ صِنَاعَةٌ فَهِيَ صِنَاعَةٌ كَاذِبَةٌ تَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ اِذِ ٱلْغَرَضُ مِنْ مَعْرِفَتِهَا ٱلِٱحْتِرَازُ عَنِ ٱلْخَطَإِ وَرُبَّمَا يُمْتَحَنُ بِهَا مَنْ يُرَادُ ٱمْتِحَانُهُ فِي ٱلْعِلْمِ لِيُعْلَمَ بِهِ بِعَدَمِ ذَهَابِ ٱلْغَلَطِ عَلَيْهِ كَمَالُهُ وَبِذَهَابِهِ عَلَيْهِ قُصُورُهُ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا ٱمْتِحَانِيًّا. وَقَدْ تُسْتَعْمَلُ فِي تَبْكِيتِ مَنْ يُوهِمُ ٱلْعَوَامَّ اَنَّهُ عَالِمٌ لِيُظْهِرَ لَهُمْ عَجْزَهُ عَنِ ٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلصَّوَابِ وَٱلْخَطَإِ فَيَصُدُّونَ عَنِ ٱلِٱقْتِدَاءِ بِهِ وَبِهٰذَا ٱلِٱعْتِبَارِ تُسَمَّى قِيَاسًا عِنَادِيًّا. قَالَ شَارِحُ اِشْرَاقِ ٱلْحِكْمَةِ: مَوَادُّ ٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُشْبِهَاتُ لَفْظًا اَوْ مَعْنًى وَلِهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَجْزَاءٌ ذَاتِيَّةٌ صِنَاعِيَّةٌ وَخَارِجِيَّةٌ. وَٱلْاَوَّلُ مَا يَتَعَلَّقُ بِٱلتَّبْكِيتِ ٱلْمُغَالَطِيِّ.

وَعَلَى هٰذَا فَنَقُولُ: اِنَّ اَسْبَابَ ٱلْغَلَطِ عَلَى كَثْرَتِهَا تَرْجِعُ اِلَى

أمرٍ واحدٍ وهو عدمُ التمييزِ بينَ الشيء وأشباهِهِ ثمَّ إنها تنقسمُ إلى ما يتعلّقُ بالألفاظِ وإلى ما يتعلّقُ بالمعاني. (والأولُ) ينقسمُ إلى ما يتعلّقُ بالألفاظ لا من حيثُ تركُّبها وإلى ما يتعلّقُ بها من حيثُ تركُّبها. (والأوّلُ) لا يخلو إمّا أنْ يتعلّقَ بالألفاظِ أنفسها وهو أنْ تكونَ مختلفةَ الدلالة فيقعَ الاشتباهُ بينَ ما هو المرادُ وبينَ غيرِهِ. ويدخلُ فيه الاشتراكُ والتشابهُ والمجازُ والاستعارةُ وما يجري مجراها ويُسمّى جميعًا بالاشتراكِ اللفظيّ. وإمّا أنْ يتعلّقَ بأحوالِ الألفاظِ وهي إمّا أحوالٌ ذاتيّةٌ داخلةٌ في صيغِ الألفاظِ قبلَ تحصُّلِها كالاشتباهِ في اللفظِ المختار بسبب التصريفِ إذا كانَ بمعنى الفاعلِ أو المفعولِ. وإمّا أحوالٌ عارضةٌ لها بعدَ تحصُّلِها كالاشتباه بسببِ الإعجامِ والإعرابِ. (والمتعلّقةُ بالتركيب) تنقسمُ إلى ما يتعلّقُ الاشتباهُ فيه بنفسِ التركيب كما يُقالُ: كلُّ ما يتصوّرُهُ العاقلُ فهو كما يتصوّرُهُ. فإنَّ لفظَ (هو) يعودُ تارةً إلى المعقولِ وتارةً أخرى إلى العاقلِ وإلى ما يتعلّقُ بوجودِهِ وعدمِهِ أي بوجودِ التركيبِ وعدمِهِ. وهذا الآخرُ ينقسمُ إلى ما لا يكونُ التركيبُ فيه موجودًا فيظنُّ معدومًا ويُسمّى تفصيلَ المركّبِ. وإلى عكسِهِ ويُسمّى تركيبَ المفصّلِ وأمّا (المتعلّقةُ بالمعاني) فلا بُدَّ أنْ تتعلّقَ بالتأليفِ بينَ المعاني إذِ الأفرادُ لا يُتصوّرُ فيها غلطٌ لو لم يقعْ في تأليفِها بنحوٍ ما ولا يخلو من أنْ تتعلّقَ بتأليفٍ يقعُ بينَ القضايا أو بتأليفٍ يقعُ في قضيّةٍ واحدةٍ. والواقعةُ بينَ القضايا إمّا قياسيٌّ

اوْ غيرُ قياسيٍّ . وٱلْمتعلقةُ بالتأليف ٱلقياسيّ إمّا انْ تقعَ في القياسِ نفسهِ لا بقياسهِ إلى نتيجتهِ اوْ تقعَ فيهِ بقياسهِ إلى نتيجتهِ . وٱلواقعةُ في نفسِ ٱلقياس إمّا انْ تتعلّقَ بمادتهِ او بصورتهِ . امّا (ٱلمادّيّةُ) فكما تكونُ مثلًا بحيثُ اذا رتّبت ٱلمعاني فيها على وجهٍ يكونُ صادقًا لمْ تكُن قياسا واذا رُتّبتْ على وجهٍ يكونُ قياسا لمْ يكنْ صادقًا كقولنا : كلُّ انسانٍ ناطقٌ منْ حيثُ هوَ ناطقٌ ولا شيءَ منَ النّاطق منْ حيثُ هوَ ناطقٌ بحيوانٍ إذْ معَ إثباتِ قيدِ (منْ حيثُ هوَ ناطقٌ) فيهما تكذبُ ٱلصغرى ومعَ حذفهِ عنهما تكذبُ ٱلكبرى . وانْ حُذفَ منَ ٱلصغرى واُثبتَ في ٱلكبرى تنقلبُ صورةُ ٱلقياس لعدمِ ٱشتراكِ ٱلاوسطِ . وامّا (ٱلصوريّةُ) فكما تكونُ منهُ على ضربٍ غيرِ منتجٍ تكونُ ايضًا على ضربٍ منتجٍ . وهذا يسمّى سوءَ التأليف بإعتبارِ ٱلبرهانِ وسوءَ ٱلتركيبِ بإعتبارِ غيرهِ . وامّا (ٱلواقعةُ في ٱلقياس بٱلقياس الى ٱلنّتيجةِ) فتنقسمُ الى ما لا يكونُ ٱلنتيجةُ مغايرةً لأحدِ اجزاءِ ٱلقياس فلا يحصُلُ بٱلقياسِ علمٌ زائدٌ على ما في ٱلمقدّماتِ وتسمّى مصادرةً على ٱلمطلوبِ . والى ما تكونُ مغايرةً لكنّها لا تكونُ ما هيَ ٱلمطلوبُ منْ ذلكَ ٱلقياس ويسمّى وضعَ ما ليسَ بعلّةٍ علّةً كقولنا : ٱلإنسانُ وحدهُ ضحّاكٌ وكلُّ ضحّاكٍ حيوانٌ . وامّا (ٱلواقعةُ في قضايا ليستْ بقياسٍ) فتُسمّى جمعَ ٱلمسائلِ في مسئلةٍ كما يُقالُ : زيدٌ وحدهُ كاتبٌ فإنّهُ قضيّتانِ لإفادتهِ انهُ ليس غيرهُ كاتبًا . وامّا (ٱلمتعلّقةُ

بِٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ) فَاما انْ تقعَ فِيمَا يَتعلَّقُ بِجُزْئَي ٱلْقَضِيَّةِ جَمِيعًا وَذٰلكَ يَكُونُ بِوُقُوعِ اَحدِهِمَا مَكَانَ ٱلآخرِ وَيُسَمَّى اِيهَامَ ٱلعَكْسِ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْجِنْسِ بِحُكْمِ نَوعٍ مِنْهُ مُندرجٍ تَحْتَهُ نَحْوَ: هٰذَا لَوْنٌ وَٱللَّوْنُ سَوَادٌ فَهٰذَا سَوَادٌ. وَمِنْهُ ٱلْحُكْمُ عَلَى ٱلْمُطلَقِ بِحُكْمِ ٱلْمُقيَّدِ بِحَالٍ اَوْ وَقْتٍ نَحْوُ: هٰذِهِ رَقَبَةٌ وَٱلرَّقَبَةُ مُؤْمِنَةٌ. وَامَّا انْ تَقعَ فِيمَا يَتَعلَّقُ بِجُزْءٍ وَاحِدٍ مِنهَا. وَتَنْقَسِمُ اِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ بَدَلَ ٱلْجُزْءِ غَيْرُهُ مِمَّا يُشْبِهُهُ كَعَوَارِضِهِ اَوْ مَعْرُوضَاتِهِ مِنْهُ وَيُسَمَّى اَخْذَ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ كَمَنْ رَاى ٱلإِنْسَانَ اَنَّهُ يَلْزَمُ لَهُ ٱلتَّوَهُّمُ وَٱلتَّكْلِيفُ فَظَنَّ اَنَّ كُلَّ مُتَوَهِّمٍ مُكَلَّفٌ. وَاِلَى مَا يُورَدُ فِيهِ ٱلْجُزْءُ نَفْسُهُ وَلٰكِنْ لَا عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلَّذِي يَنبَغِي كَمَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا لَيسَ فِيهِ نَحْوُ: زَيدٌ ٱلْكَاتِبُ اِنسَانٌ. اَوْ لَا يُؤْخَذُ مَعَهُ مَا هُوَ مِنَ ٱلشُّرُوطِ اَوِ ٱلْقُيُودِ كَمَنْ يَأْخُذُ غَيْرَ ٱلْمَوْجُودِ كَاتِبًا غَيْرَ مَوْجُودٍ مُطْلَقًا وَيُسَمَّى سُوءَ اعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَقَدْ حَصَلَ مِنَ ٱلْجَمِيعِ ثَلَاثَةَ عَشَرَ نَوعًا سِتَّةٌ مِنْهَا لَفظِيَّةٌ يَتعَلَّقُ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بِٱلْبَسَائِطِ هِيَ ٱلاشْتِرَاكُ فِي جَوْهَرِ ٱللَّفْظِ وَفِي اَحْوَالِهِ ٱلذَّاتِيَةِ وَفِي اَحْوَالِهِ ٱلْعَرَضِيَّةِ وَثَلَاثَةٌ مِنهَا بِٱلتَّرْكِيبِ وَهِيَ ٱلَّتِي فِي نَفْسِ ٱلتَّرْكِيبِ وَتَفصِيلِ ٱلْمُرَكَّبِ وَتَرْكِيبِ ٱلْمُفَصَّلِ. وَسَبْعَةٌ مَعْنَوِيَّةٌ. اَرْبَعَةٌ مِنهَا بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضَايَا ٱلْمُرَكَّبَةِ وَهِيَ سُوءُ ٱلتَّأْلِيفِ وَٱلْمُصَادَرَةُ عَلَى ٱلْمَطْلُوبِ وَوَضْعُ مَا لَيسَ بِعِلَّةٍ عِلَّةً وَجَمْعُ ٱلْمَسَائِلِ فِي مَسْئَلَةٍ وَاحِدَةٍ. وَثَلَاثَةٌ بِٱعْتِبَارِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَهِيَ اِيهَامُ ٱلْعَكْسِ وَاَخْذُ مَا بِٱلْعَرَضِ مَكَانَ مَا بِٱلذَّاتِ وَسُوءُ اعْتِبَارِ ٱلْحَمْلِ. فَهٰذِهِ هِيَ ٱلاَجْزَاءُ

ٱلذَّاتِيَّةُ ٱلصِّنَاعِيَّةُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. وَأَمَّا ٱلْخَارِجِيَّاتُ فَمَا يَقْتَضِي ٱلْمُغَالَطَةَ بِٱلْعَرَضِ كَٱلتَّشْنِيعِ عَلَى ٱلْمُخَاطَبِ وَسَوْقِ كَلَامِهِ إِلَى ٱلْكَذِبِ بِزِيَادَةٍ أَوْ تَأْوِيلٍ وَإِيرَادِ مَا يُحَيِّرُهُ أَوْ يُجَبِّنُهُ مِنْ إِغْلَاقِ ٱلْعِبَارَةِ أَوِ ٱلْمُبَالَغَةِ فِي أَنَّ ٱلْمَعْنَى دَقِيقٌ أَوْ مَا يَمْنَعُهُ مِنَ ٱلْفَهْمِ كَٱلْخَلْطِ بِٱلْحَشْوِ وَٱلْهَذَيَانِ ٱلتَّكْرَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا ٱشْتَمَلَ عَلَيْهِ كِتَابُ ٱلشِّفَاءِ وَغَيْرُهُ مِنَ ٱلْمُطَوَّلَاتِ

البحث الخامس

في مقاطيع الكلام

(من كتاب الصناعتين لابن هلال العسكري)

(راجع الصفحة ١٢٥ من علم الخطابة)

قَالَ ٱلْمَأْمُونُ لِبَعْضِهِمْ: مَنْ أَبْلَغُ ٱلنَّاسِ قَالَ مَنْ قَرَّبَ ٱلْأَمْرَ ٱلْبَعِيدَ وَٱلْمُتَنَاوَلَ ٱلصَّعْبَ ٱلدَّرْكِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْيَسِيرَةِ. قَالَ: مَا عَدَلَ سَهْمُكَ عَنِ ٱلْغَرَضِ وَلٰكِنَّ ٱلْبَلِيغَ مَنْ كَانَ كَلَامُهُ فِي مِقْدَارِ حَاجَتِهِ لَا يُجِيلُ ٱلْفِكْرَةَ فِي ٱخْتِلَاسِ مَا صَعُبَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَلَا يُكْرِهُ ٱلْمَعَانِيَ عَلَى إِنْزَالِهَا فِي غَيْرِ مَنْزِلِهَا وَلَا يَتَعَمَّدُ ٱلْغَرِيبَ ٱلْوَحْشِيَّ وَلَا ٱلسَّاقِطَ ٱلسُّوقِيَّ فَإِنَّ ٱلْبَلَاغَةَ إِذَا ٱعْتَزَلَتْهَا ٱلْمَعْرِفَةُ بِمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ كَانَتْ كَٱللَّآلِئِ بِلَا نِظَامٍ. وَقَالَ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلسَّفَّاحُ لِكَاتِبِهِ: قِفْ عِنْدَ مَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ وَحُدُودِهِ وَإِيَّاكَ أَنْ تَخْلِطَ ٱلْمَرْعِيَّ بِٱلْمُهْمَلِ. وَمِنْ حِلْيَةِ ٱلْبَلَاغَةِ ٱلْمَعْرِفَةُ

بمَوَاضِعِ ٱلْفَصْلِ وَٱلْوَصْلِ . وَقَالَ ٱلْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ مَا رَأَيْتُ رَجُلًا تَكَلَّمَ فَأَحْسَنَ ٱلْوُقُوفَ عِنْدَ مَقَاطِيعِ ٱلْكَلَامِ وَلَا عَرَفَ حُدُودَهُ إِلَّا عَمْرُو بْنُ ٱلْعَاصِ كَانَ إِذَا تَكَلَّمَ تَفَقَّدَ مَقَاطِيعَ ٱلْكَلَامِ وَأَعْطَى حَقَّ ٱلْمَقَامِ وَغَاصَ فِي ٱسْتِخْرَاجِ ٱلْمَعَانِي بِأَلْطَفِ مَخْرَجٍ حَتَّى كَانَ يَقِفُ عِنْدَ ٱلْمَقَاطِيعِ وُقُوفًا يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ مَا يَتْبَعُهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ وَكَانَ كَثِيرًا مَا يُنْشِدُ :

إِذَا مَا بَدَا بَيْنَ ٱلْمَنَابِرِ قَائِلًا ... أَصَابَ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ ٱلْمَفَاصِلَا

وَلَا أَعْرِفُ فَصْلًا فِي كَلَامٍ مَنْثُورٍ أَحْسَنَ مِمَّا أُخْبِرَ عَنْ شَبِيبِ أَبْنِ شَبَّةَ فَإِنَّهُ إِذْ كَانَ يَوْمًا قَاعِدًا بِبَابِ ٱلْمَهْدِيِّ أَقْبَلَ عَبْدُ ٱلصَّمَدِ بْنُ ٱلْفَضْلِ ٱلرَّقَاشِيُّ فَلَمَّا رَآهُ شَبِيبٌ قَالَ : أَتَاكُمْ وَٱللهِ كَلِيمُ ٱلنَّاسِ . فَلَمَّا جَلَسَ قَالَ لَهُ شَبِيبٌ : تَكَلَّمْ يَا أَبَا ٱلْعَبَّاسِ . فَقَالَ : أَمَعَكَ يَا أَبَا مَعْمَرٍ وَأَنْتَ خَطِيبُنَا وَسَيِّدُنَا . قَالَ : نَعَمْ فَوَٱللهِ مَا رَأَيْتُ قَلْبًا أَقْرَبَ مِنْ لِسَانٍ مِنْ قَلْبِكَ مِنْ لِسَانِكَ . فَقَالَ أَيَّ شَيْءٍ تُحِبُّ أَنْ أَتَكَلَّمَ . (قَالَ) وَإِذَا شَيْخٌ مَعَهُ عَصًا يَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا فَقَالَ شَبِيبٌ : صِفْ هٰذِهِ ٱلْعَصَا . فَحَمِدَ ٱللهَ عَزَّ وَجَلَّ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ ذَكَرَ ٱلسَّمَاءَ فَقَالَ : رَفَعَهَا ٱللهُ بِغَيْرِ عَمَدٍ وَجَعَلَ فِيهَا نُجُومَ رَجْمٍ وَنُجُومَ ٱهْتِدَاءٍ وَأَدَارَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا لِتَعْلَمُوا عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَأَنْزَلَ مِنْهَا مَاءً مُبَارَكًا أَحْيَا بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلضَّرْعَ وَأَدَرَّ بِهِ ٱلْأَقْوَاتَ وَحَفِظَ بِهِ ٱلْأَرْوَاحَ وَأَنْبَتَ بِهِ أَنْوَاعًا مُخْتَلِفَةً يُصَرِّفُهَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ تَكُونُ حَبَّةً ثُمَّ يَجْعَلُهَا عِرْقًا ثُمَّ يُقِيمُهَا عَلَى سَاقٍ . فَبَيْنَا نَرَاهَا خَضْرَاءَ تَرِفُّ إِذْ

صَارَتْ يَابِسَةً تَتَقَصَّفُ بِهَا ٱلعِبَادُ وَيُعْمَرُ بِهَا ٱلْبِلَادُ وَجَعَلَ مِنْ نَسْلِهَا هٰذِهِ ٱلْعَصَاهْ (ثُمَّ اَقْبَلَ عَلَى ٱلشَّيْخِ وَقَالَ) : فَكَانَ هٰذَا اَوْجَدَهُ ٱللّٰهُ بَعْدَ عَدَمٍ وَاَنْشَأَهُ اَمْرَدَ وَشَابًا وَبَعْدَهُ مُكْتَهِلًا ثُمَّ شَيْخًا حَتَّى صَارَ اِلَى هٰذِهِ ٱلْحَالِ مِنَ ٱلْكِبَرِ فَٱحْتَاجَ فِي آخِرِ حَالَاتِهِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْعَصَا فَتَبَارَكَ ٱللّٰهُ ٱلْمُدَبِّرُ لِلْعِبَادِ . قَالَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ : فَمَا سَمِعْتُ كَلَامًا عَلَى بَدِيهِهِ اَحْسَنَ مِنْهُ . وَلَمَّا اَقَامَ اَبُو جَعْفَرٍ دَالِحًا خَطِيبًا بِحَضْرَةِ شَبِيبِ بْنِ شَبَّةَ وَاَشْرَافِ قُرَيْشٍ فَتَكَلَّمَ اَقْبَلَ شَبِيبٌ فَقَالَ : يَا اَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَا رَاَيْتُ كَٱلْيَوْمِ اَبْيَنَ بَيَانًا وَلَا اَرْبَطَ جَنَانًا وَلَا اَفْصَحَ لِسَانًا وَلَا اَبَلَّ رِيقَةً وَلَا اَغْمَضَ عُرُوقًا وَلَا اَحْسَنَ طَرِيقًا اِلَّا اَنَّ ٱلْجَوَادَ عَسِيرٌ لَمْ يُرَضْ فَحَمَلَتْهُ ٱلْقُوَّةُ عَلَى تَعَسُّفِ ٱلْآكَامِ وَخَبْطِهَا وَتَرْكِ ٱلطَّرِيقِ ٱلْاَحَبِّ وَاَيْمُ ٱللّٰهِ اِنْ لَوْ عَرَفَ فِي خُطْبَتِهِ مَقَاطِعَ ٱلْكَلَامِ لَكَانَ اَفْصَحَ مَنْ نَطَقَ بِلِسَانٍ . وَقَالَ ٱلْمَأْمُونُ : مَا اُعْجَبُ بِكِتَابِ اَحَدٍ كَاعْجَابِي بِكِتَابِ ٱلْقَسَمِ بْنِ عِيسَى فَاِنَّهُ فِي غُرَّةِ عُمْرِهِ وَيُصِيبُ مَفَاصِلَ ٱلْكَلَامِ وَلَا تَدْعُوهُ ٱلْمَقْدُرَةُ اِلَى ٱلْاِطْنَابِ وَلَا تَمِيلُ بِهِ ٱلْغَزَارَةُ اِلَى ٱلْاِسْهَابِ يُجْلِي عَنْ مُرَادِهِ فِي كُتُبِهِ وَيُصِيبُ ٱلْمَغْزَى فِي اَلْفَاظِهِ . وَكَانَ يَزِيدُ بْنُ مُعَاوِيَةَ يَقُولُ : اِيَّاكُمْ اَنْ تَجْعَلُوا ٱلْفَصْلَ وَصْلًا فَاِنَّهُ اَشَدُّ وَاَعْجَبُ وَاَعْيَبُ مِنَ ٱللَّحْنِ . وَلْيَكُنِ ٱلتَّفَقُّدُ لِمَقَاطِعِ ٱلْكَلَامِ مِنْكُمْ عَلَى بَالٍ . وَكَانَ اَكْثَمُ بْنُ صَيْفِيٍّ اِذَا كَانَتْ مُلُوكُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْتَكْتِبُهُ قَالَ لِكَاتِبِهِ : اَفْصِلُوا بَيْنَ مُنْقَضَى فَصْلٍ وَصِلُوا اِذَا كَانَ ٱلْكَلَامُ مَعْجُونًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ . وَكَانَ

ٱلحارثُ بنُ أبي شَمِرَ ٱلغَسَّانيُّ يقولُ لِكاتِبهِ ٱلمُرَقِّش: إذا نَزَعَ بِكَ ٱلكلامُ إلى ٱبتداءِ معنًى غيرِ ما أنتَ فيهِ فَصِلْ بينَهُ وبينَ ما تَتبَعُهُ مِنَ ٱلألفاظِ فإنَّكَ إنْ مَذَقتَ ألفاظَكَ بغيرِ ما يَحسُنُ أنْ تَمذُقَ بهِ نَفرَتِ ٱلقُلوبُ عَنْ وَعيِها وَمَلَّتهُ ٱلأسماعُ وَٱستَثقَلَتهُ ٱلرُّواةُ. وَكانَ بَزَرْجَمِهر يقولُ: إذا مدحتَ رجُلًا وهجوتَ آخرَ فٱجعلْ بينَ ٱلقولَينِ فَصلًا حتَّى تَعرِفَ ٱلمَدحَ مِنَ ٱلهِجاءِ كما تَفعَلُ في كُتُبِكَ إذا ٱستأنَفتَ ٱلقَولَ وَأكمَلتَ ما سَلَفَ مِنَ ٱللَّفظِ. وَقالَ ٱلحسنُ بنُ سَهلٍ لِكاتِبهِ ٱلحَرَّانيِّ: ما مَنزِلَةُ ٱلكاتِبِ في قَولِهِ وَفِعلِهِ. قالَ: أنْ يَكونَ مَطبوعًا مُحتَنِكًا بِٱلتَّجرِبَةِ سالِمًا بِحَلالِ ٱلكِتابِ وَٱلسُّنَّةِ وَحَرامِها بِٱلدُّهورِ في تَداوُلِها وَتَصَرُّفِها وَبِٱلمُلوكِ في سِيَرِها وَأيَّامِها مَعَ بَراعَةِ ٱللَّفظِ وَحُسنِ ٱلنَّسَقِ وَتأليفِ ٱلأوصالِ بِمُشاكَلَةِ ٱلاستِعارَةِ وَبِشَرحِ ٱلمَعنَى حتَّى يُنصَبَ صُوَرُها. وَبِمَقاطِعِ ٱلكلامِ وَمَعرِفَةِ ٱلفَصلِ مِنَ ٱلوَصلِ وَإذا كانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَهُوَ كاتِبٌ مُجيدٌ. وَقالَ ٱلمأمونُ: ما أتَحَفَّظُ مِنْ رَجُلٍ شيئًا كَتَحَفُّظي عَنِ ٱلفَصلِ وَٱلوَصلِ في كِتابِهِ وَٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلمَحلولِ إلى ٱلمَعقودِ وَإنَّ لِكُلِّ شيءٍ جَمالًا وَحِليَةَ ٱلكِتابِ وَجَمالُهُ إيقاعُ ٱلفَصلِ وَقعَهُ وَشَحذُ ٱلفِكرِ وَإجالَتُها في لُطفِ ٱلتَّخَلُّصِ مِنَ ٱلمَعقودِ إلى ٱلمَحلولِ. (قُلنا): وَمَعنَى ٱلمَعقودِ وَٱلمَحلولِ ها هُنا هُوَ أنَّكَ إذا ٱبتَدأتَ مُخاطَبَةً ثُمَّ لَمْ تَنتَهِ إلى مَوضِعِ ٱلتَّخَلُّصِ فَما عَقَدتَ عَلَيهِ كَلامَكَ سُمِّيَ ٱلكَلامُ مَعقودًا. وَإذا شَرَحتَ ٱلسُّتُورَ وَأبَنتَ عَنِ ٱلغَرَضِ ٱلمَنزوعِ إلَيهِ

سُمِّيَ ٱلْكَلَامُ مُحَاوَلًا مِثَالُ ذٰلِكَ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ أُنْظُرْ سَدَّدَ ٱللهُ رَأْيَكَ أَنْ لَا تَدْعُوكَ مَقْدَرَتُكَ عَلَى ٱلْكَلَامِ إِلَى إِطَالَةِ ٱلْمَعْقُودِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِنْسَاءٌ مَا أَكْنَنْتَهُ فِي صَدْرِكَ وَأَوْرَدتَّ تَضْمِينَهُ فِي كِتَابِكَ. وَٱعْلَمْ أَنَّ إِطَالَةَ ٱلْمَعْقُودِ تُورِثُ نِسْيَانَ مَا عَقَدتَّ عَلَيْهِ كَلَامَكَ وَٱرْتَهَنْتَ بِهِ فِكْرَتَكَ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ يَقُولُ لَمْ أَرَ مُتَكَلِّمًا قَطُّ أَذْكَرَ لِمَا عَقَدَ عَلَيْهِ كَلَامَهُ وَلَا أَحْفَظَ لِمَا سَلَفَ مِنْ نُطْقِهِ مِنْ خَالِدِ بْنِ صَفْوَانَ يُشَبِّعُ ٱلْمَعْقُودَ بِٱلْمَعَانِي يَصْعُبُ ٱلْخُرُوجُ مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا ثُمَّ يَأْتِي بِٱلْمُحَاوَلِ وَاضِحًا بَيِّنًا وَمَشْرُوحًا مُنَوَّرًا وَكَانَ ٱلسَّامِعُ لَا يَعْرِفُ مَغْزَاهُ وَمَقْصِدَهُ فِي أَوَّلِ كَلَامِهِ حَتَّى يَصِيرَ إِلَى آخِرِهِ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: لَبِئْسَ عَمَلٌ مِنَ ٱلْقَائِلِ أَنْ يَكْتُمَ مَغْزَاهُ عَنِ ٱلسَّامِعِ لِكَلَامِهِ فِي أَوَّلِ ٱبْتِدَائِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى آخِرِهِ بَلِ ٱلْأَحْسَنُ أَنْ يَكُونَ فِي صَدْرِ كَلَامِهِ دَلِيلٌ عَلَى حَاجَتِهِ وَمُبَيِّنٌ لِمَغْزَاهُ وَمَقْصِدِهِ كَمَا أَنَّ أَخْيَرَ أَبْيَاتِ ٱلشِّعْرِ مَا إِذَا سَمِعْتَ صَدْرَهُ عَرَفْتَ قَافِيَتَهُ. وَكَانَ شَبِيبُ بْنُ شَبَّةَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَعْظِيمِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ وَخَيْرُ ٱلْكَلَامِ مَا وُقِفَ عِنْدَ مَقَاطِعِهِ وَبُيِّنَ مَوْقِعُ فُصُولِهِ



الفصل الثامن

في التعبير

البحث الاول

في خواصّ تعبير الخطيب

(من كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه)

(راجع الصفحة ١٣٢ من علم الخطابة)

مَرَّ بِشْرُ بْنُ ٱلْمُعْتَمِرِ بِإِبْرَاهِيمَ بْنِ جَبَلَةَ بْنِ مَخْرُمَةَ ٱلسَّكُونِيِّ ٱلْخَطِيبِ وَهُوَ يُعَلِّمُ فِتْيَانَهُمُ ٱلْخَطَابَةَ فَوَقَفَ بِشْرٌ يَسْتَمِعُ فَظَنَّ إِبْرَاهِيمُ أَنَّهُ إِنَّمَا وَقَفَ لِيَسْتَفِيدَ أَوْ يَكُونَ رَجُلًا مِنَ ٱلنَّظَّارَةِ فَقَالَ بِشْرٌ: اِضْرِبُوا عَمَّا قَالَ صَفْحًا وَٱطْوُوا عَنْهُ كَشْحًا. ثُمَّ دَفَعَ إِلَيْهِمْ صَحِيفَةً مِنْ تَنْمِيقِهِ وَتَحْبِيرِهِ فِيهَا: خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ نَفْسَكَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةَ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ حَسَبًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلِاسْتِمَاعِ وَأَحْلَى فِي ٱلصُّدُورِ وَأَسْلَمُ مِنْ فَاحِشِ ٱلْخَطَإِ وَأَجْلَبُ لِكُلِّ عَيْنٍ مِنْ لَفْظٍ شَرِيفٍ وَمَعْنًى بَدِيعٍ. وَٱعْلَمْ أَنَّ ذٰلِكَ أَجْدَى عَلَيْكَ مِمَّا يُعْطِيكَ يَوْمُكَ ٱلْأَطْوَلُ بِٱلْكَدِّ وَٱلْمُطَاوَلَةِ وَٱلْمُجَاهَدَةِ بِٱلتَّكْلِيفِ وَٱلْمُعَاوَدَةِ. وَمَهْمَا أَخْطَاكَ

لم يخطئك ان يكون مقبولا قصدا وخفيفا على اللسان سهلا وكما
خرج من ينبوعه ونجم من معدنه . واياك والتوعر فان التوعر
يسلمك الى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين
الفاظك ومن اذاع معنى كريما فليلتمس له لفظا كريما فان حق
المعنى الشريف اللفظ الشريف ومن حقها ان تصونها عما يفسدها
ويهجنها وعما تعود من اجله الى ان تكون اسوأ حالا منك قبل
ان تلتمس اظهارها وترهن نفسك بملابستها وقضاء حقها . فكن
في ثلاثة منازل فاول ذلك ان يكون لفظك رشيقا عذبا او
فخما سهلا ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا اما عند
الخاصة ان كنت للخاصة قصدت واما عند العامة ان كنت للعامة
اردت . والمعنى ليس يتضع ان يكون من معاني العامة . وانما
مدار الامر على الشرف مع الصواب واحراز المنفعة مع موافقة
الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامي
والخاصي فان امكنك ان تبلغ من بيان لسانك وبلاغة لفظك
ولطف مداخلك وقدرك في نفسك على ان تفهم العامة معاني
الخاصة وتكسوها الالفاظ المتوسطة التي لا تلطف عن الدهاء ولا
تجفو عن الاكفاء وانت البليغ التام . فقال له ابراهيم بن جبلة
جعلت فداك انا احوج الى تعلمي هذا الكلام من هؤلاء الغلمة

البحث الثاني

في بلاغة كلام العرب وكلام العجم

(من رسالة)

(راجع الصفحة ٢٠٧ من علم الادب)

كُنتُ ذَكَرتُ لَكَ اَسعدكَ ٱللّٰهُ إِكْثَارَ ٱلنَّاسِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا فِي وَصْفِ ٱلْبَلَاغَةِ وَتَعْرِيفِهِم ٱلقَوْلَ فِي اقسامها وَانواعها وَانها الفاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّظْمِ وَمِنْهَا مَا يَكُونُ فِي ٱلنَّثْرِ وَيَكُونُ فِي ٱلْمُكَاتَبَةِ وَٱلرَّسَائِلِ وَٱلْخُطَبِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلْأَوْصَافِ وَفِي ٱلسُّؤَالِ وَٱلْجَوَابِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ. فَامَّا بَلَاغَةُ ٱلشِّعْرِ فَعُذُوبَةُ ٱلْأَلفاظِ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي وَٱتِّسَاقُ ٱلنَّظْمِ وَرَشَاقَةُ ٱلْمَعْرِضِ كَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَوْلِ ٱمرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي وَصْفِ فَرَسِهِ وَٱلتَّشْبِيهِ (بِقَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ). وَقَوْلِ ٱلْأَعْشَى: (فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ). وَمِنْهَا مَا يَكُونُ بِإِصَابَةِ ٱلْمَعْنَى وَقَرْعِ ٱلْحُجَّةِ وَٱلْأَصْلُ عِنْدَهُمْ فِيهَا انها الفاظٌ يُعَبَّرُ بِهَا عَنِ ٱلْمَعَانِي فَاحسنها مَا يَزِيدُ فِي كَشْفِ ٱلْمَعْنَى مَعَ ٱخْتِصَارِهِ بِاقَلِّ مَا يُمْكِنُ مِنَ ٱلْعِبَارَةِ بِاعذَبِ ٱلْأَلفاظِ وَاحقها عَلَى ٱلْأَسْمَاعِ وَاقربها إِلَى ٱلْقُلُوبِ ثُمَّ ذَكَرْتُ لَكَ انَّ ٱلْبَلَاغَةَ لَيْسَتْ مَقْصُورَةً عَلَى أُمَّةٍ دُونَ أُمَّةٍ وَلَا عَلَى مَلِكٍ دُونَ سُوقَةٍ وَلَا عَلَى لِسَانٍ دُونَ

لِسانٍ بَلْ هِيَ مَقْسُومَةٌ عَلَى أَكْثَرِ الأَلْسُنَةِ فَهُم فِيهَا مُشتَرِكُونَ وَهِيَ مَوْجُودَةٌ فِي كَلَامِ اليُونَانِيَّةِ وَكَلَامِ العَجَمِ وَكَلَامِ الهِنْدِ وَغَيْرِهِمْ وَلٰكِنَّهَا فِي العَرَبِ أَكْثَرُ لِكَثْرَةِ تَصَرُّفِهَا فِي النَّثْرِ وَالنَّظْمِ وَالخُطَبِ وَالكُتُبِ وَالسَّجْعِ وَالمُزْدَوَجِ وَالرَّجَزِ. وَهُمْ أَيضًا مُتَفَاوِتُونَ فِيهَا فَقَدْ يَكُونُ العَبْدُ بَلِيغًا وَلَا يَكُونُ سَيِّدُهُ وَتَكُونُ الأَمَةُ بَلِيغَةً وَلَا تَكُونُ رَبَّتُهَا. فَالبَلَاغَةُ قَدْ تَكُونُ فِي أَعْرَابِ البَادِيَةِ دُونَ مُلُوكِهَا وَقَدْ يُحْسِنُهَا الصَّبِيُّ وَالمَرْأَةُ... قَالَ الشَّيْخُ أَبُو أَحْمَدَ: وَمِنْ عَجِيبِ مَا فِيهِ وَبُعْدِ تَنَافِيهِ أَنْ يَأْتِيَ بَدَوِيٌّ أُمِّيٌّ جِلْفٌ جَافٍ فَيَبْتَدِعَ بِفِكْرِهِ وَقَرِيحَتِهِ المَعْنَى البَدِيعَ وَالتَّشْبِيهَ المُصِيبَ وَالسُّؤَالَ اللَّطِيفَ وَالمَدْحَ الشَّرِيفَ وَالغَزَلَ الرَّقِيقَ وَالهِجَاءَ المُوجِعَ وَالذَّمَّ المُقْلِقَ بِنَظْمٍ عَجِيبٍ وَقَوَافٍ مُنْتَظِمَةٍ وَأَوْزَانٍ تَامَّةٍ وَأَقْسَامٍ مُعَدَّلَةٍ وَأَلْفَاظٍ فَصِيحَةٍ عَذْبَةٍ يَشْتَهِي سَامِعُهَا أَنْ يَحْفَظَهَا ثُمَّ يَشْتَهِي أَنْ يُحَاضِرَ أَهْلَ المُرُوَّاتِ بِهَا مُتَمَثِّلًا أَوْ شَاكِرًا أَوْ عَاتِبًا أَوْ مُهَنِّئًا أَوْ مُعَزِّيًا فَلَا يَزْدَادُ عَلَى الدَّهْرِ إِلَّا نَضَارَةً وَجِدَّةً وَيَكُونُ مَنْ خَلَا مِنْهَا نَاقِصَ الأَدَبِ وَالمَعْرِفَةِ كَقَوْلِ امْرِئِ القَيْسِ:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابِسًا ... لَدَى وَكْرِهَا العُنَّابُ وَالحَشَفُ البَالِي

وَكَقَوْلِ النَّابِغَةِ: فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي. وَكَقَوْلِ الحُطَيْئَةِ: لَا يَذْهَبُ العُرْفُ بَيْنَ اللهِ وَالنَّاسِ. ثُمَّ يَجْتَهِدُ العَارِفُ المُصِيبُ وَالعَالِمُ الأَدِيبُ وَالرَّيِّضُ الحَاذِقُ أَنْ يُدْرِكَ شَأْوَهُ فَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ. قَالَ: سُئِلَ بَعْضُ العُلَمَاءِ عَنْ حَدِّ البَلَاغَةِ فَقَالَ:

اَلتَّقرُّبُ مِنْ مَعْنَى ٱلْبُغْيَةِ وَٱلتَّبَاعُدُ مِنْ حَشْوِ ٱلْكَلَامِ وَٱلدَّلَالَةُ بِقَلِيلٍ عَلَى كَثِيرٍ . قَالَ ٱلشَّيْخُ : وَاكْثَرُ مَا عَلَيْهِ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْبَلَاغَةِ انَّهَا ٱلِاخْتِصَارُ وَتَقْرِيبُ ٱلْمَعَانِي بِٱلْالْفَاظِ ٱلْقِصَارِ وَٱلِاقْتِصَارُ عَلَى ٱلْإِشَارَةِ إِلَى مَعَانِيهَا وَٱلدَّلَالَةِ بِٱلْقَلِيلِ عَلَى ٱلْكَثِيرِ . وَقَدْ سُئِلَ بَعْضُهُمْ عَنْ ذٰلِكَ فَقَالَ : لَمْحَةٌ دَالَّةٌ . وَإِلَى هٰذَا ذَهَبَ اكْثَرُهُمْ فِي ٱلْحَذْفِ وَٱلِاخْتِصَارِ وَكَذٰلِكَ جَعَلَ امْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِحْضَارَ فَرَسِهِ وَسُرْعَةَ لِحَاقِهِ لِلصَّيْدِ وَانَّ ٱلْاوَابِدَ لَا تَطْمَعُ فِي تَّخَلُّصٍ مِنْهُ فَجَمَعَ هٰذَا فِي قَوْلِهِ : (قَيْدُ ٱلْاوَابِدِ) . وَكَذٰلِكَ قَوْلُ زُهَيْرٍ : (إِنَّ ٱلْجَوَادَ عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمُ) . فَفِي قَوْلِهِ (عَلَى عِلَّاتِهِ) مَا يَنُوبُ عَنْ كُلِّ مَانِعٍ كَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْاعْشَى : فَهُمْ سَاكِنُونَ وَٱلْمَنِيَّةُ تَنْطِقُ وَهٰذَا يَكْثُرُ وَفِي مَا اوْرَدْنَاهُ بَلَاغٌ . . . . وَلِهٰذَا وَقَّعَ جَعْفَرُ بْنُ يَحْيَى إِلَى كُتَّابِهِ لِيَكُنْ كَلَامُكُمْ فِي كُتُبِكُمْ مِثْلَ ٱلتَّوْقِيعِ يَحُضُّ بِذٰلِكَ عَلَى غَايَةِ ٱلْحَذْفِ وَٱلِاخْتِصَارِ . وَمِنْ هٰذَا انَّ ٱلْمَأْمُونَ امَرَ عَمْرَو بْنَ مَسْعَدَةَ ٱلْكَاتِبَ انْ يَكْتُبَ لِرَجُلٍ لَهُ بِهِ عِنَايَةٌ إِلَى بَعْضِ ٱلْعُمَّالِ بِقَضَاءِ حَقِّهِ وَانْ يَخْتَصِرَ كِتَابَهُ مَا امْكَنَهُ حَتَّى تَكُونَ كِتَابَتُهُ فِي سَطْرٍ وَاحِدٍ بِلَا زِيَادَةٍ فَكَتَبَ عَمْرٌو : كِتَابِي إِلَيْكَ كِتَابُ وَاثِقٍ بِمَنْ كُتِبَ إِلَيْهِ مَعْنِيٌّ بِمَنْ كُتِبَ لَهُ وَلَنْ يَضِيعَ بَيْنَ ٱلثِّقَةِ وَٱلْعِنَايَةِ حَامِلُهُ . وَمِنْ هٰذَا مَا كَتَبَ ٱلْوَلِيدُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ إِلَى ٱلْحَجَّاجِ وَقَدْ تَلَكَّأَ عَنْ بَيْعَتِهِ : امَّا بَعْدُ فَإِنِّي ارَاكَ تُقَدِّمُ رِجْلًا وَتُؤَخِّرُ اخْرَى فَإِذَا اتَاكَ كِتَابِي فَٱعْتَمِدْ عَلَى ايِّهِمَا شِئْتَ وَٱلسَّلَامُ . وَسَاذْكُرُ فِي هٰذَا

ٱلْمَوْضِعِ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْمُخْتَارَةِ مِنْ غَيْرِ ٱللِّسَانِ ٱلْعَرَبِيِّ . ثُمَّ أَذْكُرُ بَعْدَهُ صَدْرًا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْعَرَبِيَّةِ مِمَّا يَصْلُحُ لِلْمُذَاكَرَةِ وَيَبْعَثُ عَلَى ٱلنَّشَاطِ فَإِذَا قَرَأَهَا قَارِئٌ دَلَّتْ عَلَى أَنْفُسِهَا فِي ٱلْإِيجَازِ وَٱلْحَذْفِ وَٱلْجَمْعِ لِلْمَعَانِي ٱلْكَثِيرَةِ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْقَلِيلَةِ . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . فَجَمَعَ بِثَلَاثِ لَفَظَاتٍ خِفَافٍ مَعَانِيَ كَثِيرَةً جَلِيلَةَ ٱلْقَدْرِ لِأَنَّ ٱلْجِسْمَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَصْنَعْ نَفْسَهُ وَأَنَّ لَهُ صَانِعًا حَكِيمًا كَمَا يَدُلُّ ٱلْبِنَاءُ عَلَى ٱلْبَانِي وَٱلْكِتَابُ عَلَى ٱلْكَاتِبِ . فَٱنْظُرْ كَمْ بَيْنَ هٰذَا وَبَيْنَ مَا يُحْكَى عَنْ بَعْضِ مُلُوكِهِمْ أَنَّهُ سُئِلَ مَا ٱلَّذِي يَدُلُّ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱللهِ وَيُثْبِتُ ٱلْعِلْمَ بِٱلْغَيْبِ فَقَالَ : إِنَّ لِكُلِّ ظَاهِرٍ مِنْ صَغِيرٍ أَوْ كَبِيرٍ عِلْمًا فَهُوَ يَعْرِفُهُ وَيَحُوطُهُ فَمَنْ كَانَ مُعْتَبِرًا بِٱلْجَلِيلِ مِنْ ذٰلِكَ فَلْيَنْظُرْ إِلَى ٱلسَّمَاءِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا بَارِئًا يُجْرِي فَلَكَهَا وَيُدَبِّرُ أَمْرَهَا . وَمَنِ ٱعْتَبَرَ بِٱلصَّغِيرِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى حَبَّةِ ٱلْخَرْدَلِ فَيَعْلَمَ أَنَّ لَهَا مُدَبِّرًا يُنْشِئُهَا وَيُرَكِّبُهَا وَيُقَدِّرُ لَهَا أَقْوَاتًا مِنَ ٱلْأَرْضِ وَٱلْمَاءِ وَيُوَقِّتُ لَهَا زَمَانًا لِهَشِيمِهَا . وَأَمْرُ ٱلنُّبُوَّةِ وَٱلْآيَاتِ وَمَا يَحْدُثُ فِي أَنْفُسِ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ يَعْلَمُونَ ثُمَّ ٱجْتِمَاعُ ٱلْعُلَمَاءِ وَٱلْجُهَّالِ وَٱلْمُهْتَدِينَ وَٱلضُّلَّالِ عَلَى ذِكْرِ ٱللهِ تَعَالَى وَتَعْظِيمِهِ وَٱجْتِمَاعُ مَنْ شَكَّ فِي ٱللهِ وَكَذَّبَ بِهِ عَلَى أَنَّهُمْ لَمْ يُحْدِثُوا أَنْفُسَهُمْ فَكُلُّ ذٰلِكَ يَهْدِيكَ إِلَى ٱللهِ وَيَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ أَنْشَأَ ٱلْخَلْقَ وَدَبَّرَ هٰذِهِ ٱلْأُمُورَ . (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ عَلَى طُولِهِ قَدِ ٱنْتَظَمَ أَكْثَرُ مَعَانِيهِ فِي قَوْلِ سُقْرَاطَ : دَلَّ ٱلْجِسْمُ عَلَى صَانِعِهِ . (وَقَالَ ٱلْإِسْكَنْدَرُ) وَعَظَكَ

فِكْرُكَ وَارْشَدَكَ عَقْلُكَ حِينَ حَيَّرَكَ سَمْعُكَ وَغَشَّكَ مُخْبِرُكَ وَانَّ الْانْسَانَ بِاخْتِلَافِ الْمَسْمُوعِ يَتَحَيَّرُ وَيَضِلُّ بِغِشِّ الْمُخْبِرِينَ وَيَسُومُهُمْ فِي مَا يُخْبِرُونَ بِهِ فَيُمَيِّزُ لَهُ عَقْلُهُ الصَّوَابَ مِنَ الْخَطَإِ وَيُرْشِدُهُ الَى الْحَقَائِقِ وَيُخْرِجُهُ مِنَ الْحَيْرَةِ. وَقَالَ مُطَّلِبُ الْعِرَاقِيُّ لِلْاسْكَنْدَرِ: اَخْلَاقُكَ تَجْعَلُ الْعَدُوَّ صَدِيقًا وَاحْكَامُكَ تَجْعَلُ الصَّدِيقَ عَدُوًّا وَيَشْهَدُ لَكَ عَدَمُ مِثْلِكَ فِي مَا يَكُونُ. (قَالَ الشَّيْخُ) فَانْظُرِ الْآنَ كَمْ مَعْنًى حَسَنٍ تَحْتَ هٰذِهِ الْالْفَاظِ الْقَلِيلَةِ يَعْنِي اَنَّ حُسْنَ خُلْقِهِ يَرُدُّ عَدُوَّهُ الَى صَدَاقَتِهِ وَانَّ عَدْلَ حُكْمِهِ لَا يُفَرِّقُ بَيْنَ عَدُوٍّ وَصَدِيقٍ وَانَّ عَدَمَ مِثْلِهِ فِي مَاضِي الدُّهُورِ قَدْ شَهِدَ بِاَنَّ مِثْلَهُ لَا يَكُونُ فِي مُسْتَقْبِلِ الْعُصُورِ. وَهٰذَا كَلَامٌ مَنْقُولٌ الَى الْعَرَبِيَّةِ وَلَعَلَّهُ بِلُغَتِهِ كَانَ اَفْصَحَ وَاحْسَنَ. وَلَمَّا شَاوَرَ اَبُو مُسْلِمٍ بَعْضَ الْفُرْسِ فِي اَمْرِهِ قَالَ لَهُ: قُلْ مَا يُقْبَلُ وَخُذْ مَا يَسْهُلُ وَاعْمَلْ مَا يَجْمُلُ. فَجَمَعَ لَهُ بِهٰذِهِ الْكَلِمَاتِ الثَّلَاثِ اَكْثَرَ مَعَانِي السِّيَاسَةِ. وَفِي مَا يُرْوَى اَنَّ بَعْضَهُمْ رَاَى شَابًّا لَا اَدَبَ لَهُ وَعَلَيْهِ خَاتَمُ ذَهَبٍ فَقَالَ: حِمَارٌ عَلَيْهِ لِجَامُ ذَهَبٍ. وَنَظَرَ الَى شَابٍّ اَحْمَقَ قَاعِدًا عَلَى حَجَرٍ فَقَالَ: هٰذَا حَجَرٌ قَاعِدٌ عَلَى حَجَرٍ. وَقَالَ ارِسْطَاطَالِيسُ: الْحَاجَةُ الَى الْعَقْلِ اَقْبَحُ مِنَ الْحَاجَةِ الَى الْمَالِ. وَقَالَ: غَيْرُ مُحِبِّ الشَّرَفِ هُوَ الَّذِي يُتْعِبُ نَفْسَهُ بِالنَّظَرِ فِي الْعِلْمِ. وَقَالَ سُقْرَاطُ: اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. وَرَاَى سُقْرَاطُ طَبِيبًا جَاهِلًا فَقَالَ: هٰذَا مُسْتَحِثٌّ. يَعْنِي يُعَجِّلُ بِمَنْ يُعَالِجُ الَى الْمَوْتِ. وَقِيلَ لِبَعْضِ تَلَامِذَتِهِ: قَدْ مَاتَ اُسْتَاذُكَ. فَقَالَ: الْوَيْحُ لِي

لَقَدْ ضَاعَ مِسَنُّ عَقْلِي

(قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَهٰذَا اَكْثَرُ مِنْ اَنْ يُحْصَى فِي كَلَامِ ٱلْعَجَمِ وَلَاسِيَّمَا فِي عُلَمَائِهِمْ وَوُزَرَائِهِمُ ٱلَّذِينَ اَخْرَجُوا كَلَامَهُمْ مُخْرَجَ ٱلتَّوْقِيعِ. فَمِنْ ذٰلِكَ مَا يُحْكَى اَنَّ اَنُوشِرْوَانَ وَقَّعَ فِي وِلَايَةِ ٱلْخَرَاجِ: ٱلْخَرَاجُ عَمُودُ ٱلْمُلْكِ وَمَا ٱسْتُنْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْجَوْرِ وَلَا ٱسْتُغْزِرَ بِمِثْلِ ٱلْعَدْلِ. وَوَقَّعَ اَيْضًا فِي رُقْعَةِ رَجُلٍ وَكِيلٍ لَهُ اَمَرَهُ بِبِنَاءِ قَصْرٍ فَاَخَّرَهُ: اَنْتَ مَاشٍ وَٱلْاَيَّامُ رَاكِضَةٌ وَٱلْعَمَلُ بَاعٌ وَٱلْعِنَايَةُ فِتْرٌ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَاَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ كَثَّرَتْ اَمْثَالَ ٱلْعَرَبِ وَزَادَتْ عَلَى اَمْثَالِ سَائِرِ ٱلْاُمَمِ وَاِنْ كَانَ فِي غَيْرِ ٱلْعَرَبِ ٱلشِّعْرُ اَيْضًا عَلَى قَدِيمِ ٱلْوَقْتِ فَلِلْفُرْسِ اَشْعَارٌ لَا تُضْبَطُ كَثْرَةً وَلِلْيُونَانِيِّينَ اَشْعَارٌ دُونَ ٱلْفُرْسِ. وَكَانَ اَفْلَاطُونُ يُبْغِضُ مَنْ يَقُولُ ٱلشِّعْرَ وَيَقُولُ فِي ذَمِّهِ: اِنَّ ٱلشَّاعِرَ مُصَوِّرٌ لِلسَّمْعِ وَٱلْمُزَوِّقَ مُصَوِّرٌ لِلْبَصَرِ. فَاَمَّا ٱلْفُرْسُ فَفِي مَنْثُورِ اَخْبَارِهِمْ وَذِكْرِ حُرُوبِهِمْ اَشْعَارٌ كَانَتْ تُدَوَّنُ وَتُخَلَّدُ فِي ٱلْخَزَائِنِ ٱلَّتِي كَانَتْ بُيُوتَ ٱلْحِكْمَةِ ثُمَّ دَرَسَ اَكْثَرُهَا مَعَ دَرْسِ كَلَامِهِمْ وَبَقِيَ مِنْ اَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ ٱلسَّوَائِرِ مِنَ ٱلْاَمْثَالِ تَجْرِي عَلَى اَفْوَاهِ اَهْلِ زَمَانِهِمْ. وَحَكَى اَبُو حَاتِمٍ عَنْ اَبِي عُبَيْدَةَ اَنَّهُ اُوصِلَ اِلَى اَحْمَدَ بْنِ سَعِيدِ بْنِ سَهْلٍ ٱلْبَاهِلِيِّ اَرْبَعَةَ عَشَرَ اَلْفَ مَثَلٍ عَرَبِيٍّ بَعْضُهَا فِي ٱلْجُلُودِ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقُطْنِيِّ وَبَعْضُهَا فِي ٱلْقِرْطَاسِ فَتَفَرَّدَتِ ٱلْعَرَبُ مِنْ بَيْنِ ٱلْاُمَمِ بِكَثْرَةِ ٱلْاَمْثَالِ... وَمِنْ تَوْقِيعَاتِ ٱلْعَجَمِ تَوْقِيعُ اَرْدَشِيرَ بْنِ بَابَكَ وَكَانَ اَهْلُ زَمَانِهِ قَحَطُوا فَرَفَعُوا اِلَيْهِ قِصَّةً يَشْكُونَ ذٰلِكَ فَوَقَّعَ

إلى صاحب بيت المال : إذا قحط المطر جادت سحاب الملك . ففرّق فيهم ما قاتهم ومانهم . وشكي مثل ذلك إلى قباذ بن كسرى فوقّع ليكن بنا البرّ للرعيّة والاحسان إليهم فإنّي وإيّاهم في نفع ذلك مستوون . ومدح رجل من الخاصّة كسرى بن قباذ بمدح أطنب فيه وأسهب وذهب كلّ مذهب وكان المدح في رقعة . فوقّع فيها كسرى إنّي للمدح مستصغرٌ لعلمي بأشياء قد مدحت وكانت بأن تذمّ محقوقة . ووقّع أنوشروان في رقعة متنصّح : ثمرات النصائح شكر الجوارح وخرج التوقيع إلى وزير له أمر له بجائزة وأثنى عليه وقال : قد جمعنا إلى شكر اللسان شكر اليد وهو البذل . ووقّع كسرى في رقعة رجل سأله فيها النقلة عن صناعته إلى صناعة غيرها وكانت صناعته خسيسة فاختار صناعة رفيعة فوقّع في رقعته . أنا حامل للرعيّة على لزوم منازلهم وصنائعهم ولنفسي على ما يحمل على اللزوم لها

ومن حدّ البلاغة جمع المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة فقد سئل خلف الأحمر فقيل له : ما لنا نرى في الكلام القليل عدّة معان . فقال : انّ كلام العرب أوعية والمعاني أمتعة فربّما جعلت ضروب من الأمتعة في وعاء واحد ... وحكي عن جعفر ابن يحيى وكان قريع دهره بلاغة في المكاتبة وجودة لسان في المخاطبة انّه قال : اذا كان الايجاز كافيا كان التطويل عيًّا وان كان التطويل واجبا كان التقصير عجزًا . وحكى المفضّل قال : قلت

لِلأعرابي: مَا ٱلبَلاغةُ . فقالَ : ٱلايجازُ مِنْ غَيرِ عَجزٍ وَٱلاطنابُ فِي غيرِ خطَلٍ . ووصفَ ٱلجاحِظُ يَحيى بنَ خالدٍ فقالَ : كانَ لا يتوقفُ ولا يستدعي معنًى مِنْ بُعدٍ . قالوا : وَٱلبليغُ ٱلكامِلُ هُوَ ٱلذي تكونُ ٱلالفاظُ عِندهُ عزيزةً وَٱلمعاني فِي نفسِهِ جَمَّةً كثيرةً . وقالوا : وَمحصورُ ٱلبلاغةِ انَّ لهَا ثلاثَ حالاتٍ : حالًا يحتاجُ إلى ٱلنظرِ فِي ٱلمعاني مِنْ اجلِها . وحالًا يحتاجُ إلى ٱلنظرِ فِي ٱلالفاظِ . وحالًا مُركَّبةً مِنَ ٱلالفاظِ وَٱلمعاني وهِيَ ذاتُ ٱلبلاغةِ ٱلَّتي تختصُّ بِاسمِها . وَلِلبلاغةِ ثلاثةُ مذاهِبَ تُقصَدُ فِي ٱستعمالِها . احدُها ٱلمُساواةُ وهِيَ انْ يكونَ ٱللفظُ كَٱلقالَبِ لِلمعنَى لا يفضُلُ عنهُ ولَا ينقصُ منهُ . وَٱلثاني ٱلاشارةُ وهُوَ انْ يكونَ ٱللفظُ مُشارًا بِهِ إلى ٱلمعنَى بِٱللمحةِ ٱلدالَّةِ . وَٱلثالثُ ٱلتبديلُ وهُوَ إعادةُ ٱلالفاظِ ٱلمترادِفةِ على ٱلمعنى ٱلواحِدِ بعينِهِ حتَّى يظهرَ لِمَنْ لَمْ يفهمْهُ ويتوكَّدَ عِندَ مَنْ فهِمَهُ . وَلِكُلِّ واحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلمذاهِبِ موطِنٌ يليقُ بِهِ ووقتٌ لا يصلُحُ فِيهِ غيرُهُ وسأذكُرُ هٰهنَا صدَدًا مِنَ ٱلفصولِ ٱلقِصارِ مِنْ كلامِ ٱلعرَبِ وغيرِهِمْ مِمَّا يتضمَّنُ ٱلفِقَرَ ٱلمختارةَ وَٱلمعانِيَ ٱلمجموعةَ بِٱللفظِ فمِنْ ذلِكَ قولُهم: قيمةُ كُلِّ ٱمرئٍ مَا يُحسِنُهُ . وكَقولِ اميرِ ٱلمؤمنينَ عليِّ بنِ ابي طالِبٍ ستَّ كلِماتٍ ما سبقَهُ إليها احدٌ نُوزَنُ كُلُّ كلِمةٍ مِنها بِألفِ كلِمةٍ ورواها عنهُ كثيرٌ مِنْ اصحابِهِ ومِنَ ٱلأدباءِ وهِيَ : ٱلأولى قولُهُ : قيمةُ كُلِّ ٱمرئٍ مَا يُحسِنُهُ . ٱلثانيةُ : ٱلناسُ اعداءُ لِما جهِلُوا . ٱلثالثةُ : لِسانُكَ يقتضيكَ ما عوَّدتَهُ .

الرَّابِعَةُ: رَحِمَ اللهُ امْرَءًا عَرَفَ قَدْرَهُ. الْخَامِسَةُ: لَا رَأْيَ لِمَنْ لَا يُطَاعُ. السَّادِسَةُ: الْمَرْءُ مَخْبُوءٌ تَحْتَ لِسَانِهِ. وَمِنْهَا قَوْلُهُمْ الشِّعْرُ مِيزَانُ الْقَوْمِ وَالْعَرُوضُ مِيزَانُ الشِّعْرِ. وَقَوْلُ عُمَرَ: هَاجِرُوا وَلَا تَهَجَّرُوا وَالسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ. وَقَوْلُهُمْ: السَّعِيدُ مَنْ كُفِيَ. وَقَوْلُهُمْ: إِيَّاكَ وَمَا تَعْتَذِرُ مِنْهُ. وَقَوْلُهُمْ: رُبَّ سَاعٍ لِقَاعِدٍ. رُبَّ مَلُومٍ غَيْرُ مُلِيمٍ. رُبَّمَا قَتَلَ الْبَلِيغَ لِسَانُهُ. الْعُيُونُ عُنْوَانُ الْقُلُوبِ. الْقُلُوبُ أَبْصَرُ مِنَ الْعُيُونِ. مَنْ ضَاقَ قَلْبُهُ اتَّسَعَ لِسَانُهُ. وَقَوْلُ الْأَعْرَابِيِّ وَقَدْ سَأَلَهُ بَعْضُهُمْ عَنْ حُضْرِ فَرَسِهِ فَقَالَ: يُحْضِرُ مَا وَجَدَ أَرْضًا. وَقَالَ آخَرُ: يَسْبِقُ الطَّرْفَ وَيَسْتَغْرِقُ الْوَصْفَ. عُوجُ اللَّبَانِ طَوْعُ الْعِنَانِ كَأَنَّهُ مَوْجٌ يَمُورُ أَوْ سَيْلٌ فِي حُدُورٍ. وَقَوْلُهُمْ: الْفِكْرَةُ مُخُّ الْعَمَلِ. وَقِيلَ لِأَعْرَابِيٍّ إِنَّكَ لَتُحْسِنُ الْكِدْيَةَ. فَقَالَ: ذَاكَ عُنْوَانُ نِعْمَةِ اللهِ عِنْدِي. وَقَوْلُهُمْ: حَسْبُكَ مِنْ شَرٍّ اسْتِمَاعُهُ. دَلَّ الشَّرُّ عَلَى نَفْسِهِ. الْبَادِئُ أَظْلَمُ. حِفْظُ الْمَوْجُودِ أَيْسَرُ مِنْ طَلَبِ الْمَفْقُودِ. مَنْ عَزَّ بَزَّ. سِرُّكَ مِنْ دَمِكَ غُنْمٌ سَالِمٌ. سُئِلَ رَجُلٌ رَكِبَ الْبَحْرَ عَنْ أَعْجَبِ مَا رَأَى فَقَالَ: سَلَامَتِي. الْمَلَقُ شُكْرُ الضَّعِيفِ. الصَّدِيقُ يَصْدُقُ وَالْعَدُوُّ يَتَمَلَّقُ. اقْضِ دُيُونَ الْإِحْسَانِ إِلَيْكَ بِاللِّسَانِ قَبْلَ فَقْدِ الْإِمْكَانِ. مَنْ وَاكَلَكَ فِي الرَّخَاءِ خَذَلَكَ فِي الْبَلَاءِ. عَجَبًا لِلْخَيْرِ الْمَمْدُوحِ الْمَتْرُوكِ وَالشَّرِّ الْمَذْمُومِ الْمَفْعُولِ. مَنْ نَمَّ إِلَيْكَ نَمَّ عَلَيْكَ مَنْ أَسَاءَ اسْتَوْحَشَ. سَاعَاتُ اللَّذَّةِ هِيَ سَاعَاتُ الْغَفْلَةِ. (قَالَ الشَّيْخُ) هٰذَا مِثْلُ قَوْلِ سُقْرَاطَ اللَّذَّةُ خِنَاقٌ مِنْ عَسَلٍ. عِنْدَ صَفْوِ

ٱلْعَيْشِ يَكْدُرُ. ٱلْمُرِيبُ مُخِيفٌ. ٱلْمَحْبُوبُ مَذْكُورٌ. مَنْ لَكَ بِأَخِيكَ كُلِّهِ. صَدِيقُ ٱلرَّجُلِ عَقْلُهُ وَعَدُوُّهُ جَهْلُهُ. (قَالَ ٱلشَّيْخُ) وَمِثْلُ هٰذَا قَوْلُ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي مَا يَرُدُّ أَفْلَاطُونَ: إِنْ كَانَ أَفْلَاطُونُ لَنَا صَدِيقًا فَٱلْحَقُّ أَصْدَقُ لَنَا مِنْهُ

وَمِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلْكِتَابِيَّةِ مَا كَتَبَ بَعْضُهُمْ: قَلْبِي يُحْيِي ذِكْرَكَ. وَلِسَانِي خَادِمُ شُكْرِي وَكَتَبَ آخَرُ: فُلَانٌ أَذَلُّ مِنْ شَاهِدِ زُورٍ عِنْدَ مَنْ شَهِدَ لَهُ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلِاسْتِطَالَةُ لِسَانُ ٱلْجَهَالَةِ. وَكَتَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى عَامِلٍ: ٱعْلَمْ أَنَّ ٱلنَّظَرَ إِذَا أَخْلَفَ لَكَ أَخْلَفَ مِنْكَ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ وَقَدْ كَانَ جَرَى ذِكْرُ ٱلْبَلَاغَةِ وَأَنَّ بَعْضَ وُلْدِهِ بَلِيغٌ: إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَطُولَ لِسَانُهُ. وَقَالَ آخَرُ: فَضْلُ ٱلْفِعَالِ عَلَى ٱلْمَقَالِ مَكْرُمَةٌ وَفَضْلُ ٱلْمَقَالِ عَلَى ٱلْفِعَالِ خَدِيعَةٌ. وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ: تَرْكُ ٱلشُّكْرِ كُفْرُ ٱلنِّعْمَةِ. وَقَالَ آخَرُ: ٱلشُّكْرُ نَسِيمُ ٱلنِّعْمَةِ. ٱلْهَيْبَةُ خَيْبَةٌ وَٱلْحَيَاءُ حِرْمَانٌ. ٱلْحِكْمَةُ ضَالَّةُ ٱلْمُؤْمِنِ. وَقَالَ إِسْحَاقُ يَوْمًا لِلْعَبَّاسِ بْنِ ٱلْحَسَنِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ. فَقَالَ: رَائِدُ ذَاكَ مَعِي. قَرَأْتُ فِي فَصْلٍ لِسَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ: نَحْنُ فِي زَمَانٍ ٱلْمَعْرُوفُ فِيهِ زَلَلٌ وَٱلصَّوَابُ فِيهِ خَطَلٌ وَٱلْإِنْعَامُ مَثَلٌ. وَقَالَ بَعْضُ ٱلْبُلَغَاءِ: قَدْ رَخَّصَتِ ٱلضَّرُورَةُ فِي ٱلْإِلْحَاحِ. أَرْجُو أَنْ تُحْسِنَ ٱلنَّظَرَ كَمَا أَحْسَنْتَ ٱلِانْتِظَارَ. وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى: لِسَانُ ٱلْحَالِ أَفْصَحُ مِنْ لِسَانِ ٱلشَّكْوَى. وَكَتَبَ آخَرُ: أَشْكُرُ لِمَنْ أَنْعَمَ عَلَيْكَ وَأَنْعِمْ عَلَى مَنْ شَكَرَكَ. وَكَتَبَ آخَرُ: إِذَا كُنْتَ لَا تُؤْتَى مِنْ ضَعْفِ سَبَبٍ فَكَيْفَ أَخَافُ مِنْكَ

خَيْبَةَ أَمَلٍ أَوْ عُدُولًا عَنِ ٱغْتِفَارِ زَلَلٍ أَوْ فُتُورًا عَنْ لَمِّ شَعَثٍ وَإِصْلَاحِ خَلَلٍ . كَتَبَ آخَرُ : أَنَا أَسْأَلُ ٱلَّذِي رَحِمَ ٱلْعِبَادَ بِكَ عَلَى حِينِ ٱفْتِقَارِهِمْ إِلَيْكَ أَنْ يَرْحَمَهُمْ مِنْ بَعْدِكَ فَلَا يُعِيدَهُمْ إِلَى ٱلْمَكَارِهِ ٱلَّتِي ٱسْتَنْقَذَهُمْ مِنْهَا بِيَدِكَ . وَقَالَ ٱلْحَسَنُ بْنُ وَهْبٍ لِلْمَأْمُونِ فِي رَجُلٍ مُذْنِبٍ : هَبْهُ لِي . فَقَالَ : كَيْفَ لَا أَهَبُهُ لِمَنْ بِهِ قَدِرْتُ عَلَيْهِ . وَقَالَ عَبْدُ ٱللهِ بْنُ طَاهِرٍ : ٱلْقَلَمُ يُحَرِّكُ وَشْيَ ٱلْمَمْلَكَةِ . وَنَظَرَ إِلَى خَطِّ بَعْضِ كُتَّابِهِ فَلَمْ يَرْضَهُ فَقَالَ : نَحُّوا هٰذَا عَنْ مَرْتَبَةِ ٱلدِّيوَانِ فَإِنَّهُ عَلِيلُ ٱلْخَطِّ وَلَا نَأْمَنُ أَنْ يُعْدِيَ غَيْرَهُ . وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ ٱلْعَبَّاسِ ٱلصَّوْلِيُّ : ٱلْخَطُّ لِسَانُ ٱلْيَدِ . وَقَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ : مَطْلُ ٱلْغَرِيمِ أَحْسَنُ مِنْ مَطْلِ ٱلْكَرِيمِ . وَكَانَ يَحْيَى يَقُولُ : مِنْ حُقُوقِ ٱلنُّبْلِ أَنْ تَتَوَاضَعَ لِمَنْ هُوَ دُونَكَ وَتَتَصَدَّقَ عَلَى ضَعِيفِكَ وَتُنْصِفَ مَنْ هُوَ مِثْلُكَ وَتَتَنَبَّلَ عَلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكَ



الفصل التاسع

في اجناس الخطابة الثلاثة

البحث الاول

في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس

(من كتاب تعريب خطابة ارسطاطاليس لابن رشد)

(راجع الصفحة ١٣٤ من الجزء الثاني من علم الادب)

قَدْ تُوجَدُ اَجْنَاسُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَنْظُرُ فِيهَا ٱلْخَطَابَةُ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ثَلَاثَةً كَمَا يُوجَدُ عَدَدُ اَصْنَافِ ٱلسَّامِعِينَ لِلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةً. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْكَلَامَ مُرَكَّبٌ مِنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ قَائِلٍ وَهُوَ ٱلْخَطِيبُ وَمِنْ مَقُولٍ فِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعْمَلُ فِيهِ ٱلْقَوْلُ وَمِنَ ٱلَّذِينَ يُوَجَّهُ اِلَيْهِمِ ٱلْقَوْلُ وَهُمُ ٱلسَّامِعُونَ. وَٱلْغَايَةُ بِٱلْقَوْلِ اِنَّمَا هِيَ مُتَوَجِّهَةٌ نَحْوَ هٰؤُلَاءِ ٱلسَّامِعِينَ. وَٱلسَّامِعُونَ لَا مَحَالَةَ اِمَّا مُنَاظِرٌ وَاِمَّا حَاكِمٌ وَاِمَّا ٱلْمَقْصُودُ اِقْنَاعُهُ. وَٱلْحَاكِمُ اِمَّا اَنْ يَكُونَ حَاكِمًا فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ وَٱلضَّارَّةُ. وَاِمَّا فِي ٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ. وَٱلْاُمُورِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ مِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِٱخْتِيَارِهِ وَتِلْكَ هِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَٱلرَّذَائِلُ وَمِنْهَا مَا تُوجَدُ فِي ٱلْاِنْسَانِ بِغَيْرِ ٱخْتِيَارِهِ بَلْ مِنْ اِنْسَانٍ آخَرَ وَهُوَ ٱلْجَوْرُ وَٱلْعَدْلُ. وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلْاُمُورِ ٱلْمُسْتَقْبَلَةِ هُوَ

ٱلرَّئِيسُ وَٱلْحَاكِمُ فِي ٱلأُمُورِ ٱلْكَائِنَةِ هُوَ ٱلَّذِي يَنْصِبُهُ ٱلرَّئِيسُ (مِثْلُ ٱلْقَاضِي فِي مُدُنِنَا هذِهِ وَهِيَ مُدُنُ ٱلْإِسْلَامِ) . وَأَمَّا ٱلْمُنَاظِرُ فَإِنَّمَا يُنَاظِرُ بِقُوَّةِ ٱلْمَلَكَةِ ٱلْخُطْبِيَّةِ فَإِنَّ أَجْنَاسَ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ ثَلَاثَةٌ مَشُورِيٌّ وَمُشَاجَرِيٌّ وَتَثْبِيتِيٌّ

فَأَمَّا ٱلضَّمِيرُ ٱلْمَشُورِيُّ فَمِنْهُ إِذْنٌ وَمِنْهُ مَنْعٌ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ مَنْ يُشِيرُ إِمَّا عَلَى وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَخُصُّهُ أَوْ عَلَى جَمِيعِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِمَا يَعُمُّهُمْ فَإِنَّمَا يُشِيرُ أَبَدًا بِقَوْلٍ هُوَ إِذْنٌ أَوْ مَنْعٌ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ شِكَايَةٌ وَتَنَصُّلٌ مِنَ ٱلشِّكَايَةِ . وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلتَّثْبِيتِيُّ فَهُوَ أَيْضًا صِنْفَانِ إِمَّا مَدْحٌ وَإِمَّا ذَمٌّ وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمُسْتَقْبَلُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُشِيرُ إِنْسَانٌ عَلَى إِنْسَانٍ بِأَشْيَاءَ مَعْدُومَةٍ . وَٱلزَّمَانُ ٱلْخَاصُّ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْمَاضِي لِأَنَّهُ إِنَّمَا يُتَشَكَّى مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ وَقَعَتْ وَإِنْ تُشُكِّيَ مِنْ أُمُورٍ تُتَوَقَّعُ مِنَ ٱلْمُشْتَكَى بِهِ فَإِنَّمَا تِلْكَ شِكَايَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلْإِشَارَةِ بِٱلنَّافِعِ فِي ذٰلِكَ . وَكَذٰلِكَ قَدْ يَعْرِضُ أَنْ تَكُونَ ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قَدْ كَانَتْ لٰكِنْ مِنْ جِهَةِ مَا يُتَوَقَّعُ مِنْهَا فَمَتَى كَانَتِ ٱلشَّكْوَى فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَإِنَّمَا تَكُونُ أَبَدًا فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي قَدْ وَقَعَ . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلتَّثْبِيتِيَّةُ فَإِنَّ أَوْلَى ٱلْأَزْمِنَةِ بِهَا هُوَ ٱلزَّمَانُ ٱلْحَاضِرُ أَعْنِي ٱلْقَرِيبَ مِنَ ٱلْآنِ فَإِنَّ ٱلنَّاسَ إِنَّمَا يُمْدَحُونَ وَيُذَمُّونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي حِينِ ٱلْمَدْحِ وَحِينِ ٱلذَّمِّ فِي ٱلْمَمْدُوحِ وَٱلْمَذْمُومِ وَرُبَّمَا

مُدِحَ بَعْضُهُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحِيلَةِ فِي ٱسْتِكْثَارِ فَضَائِلِ ٱلْمَمْدُوحِ وَمَذَامِّهِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ حُدُوثُهَا مِنْهُ اوْ يُرْجَى حُدُوثُهَا مِنْهُ فَيَخْلِطُونَ مَعَ ٱلْمَدْحِ ٱلْإِشَارَةَ عَلَى ٱلْمَمْدُوحِ بِفِعْلِ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءِ

البحث الثاني

في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها

(من الكتاب نفسهِ)

وَأَمَّا ٱلْغَايَاتُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ فَهِيَ ثَلَاثُ غَايَاتٍ لِهٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشِيرُ فَغَايَتُهُ ٱلنَّافِعُ وَٱلضَّارُّ. فَإِنَّ ٱلَّذِي يُشِيرُ فَإِنَّمَا يَأْذَنُ فِي ٱلنَّافِعِ أَوْ فِي ٱلَّذِي هُوَ أَنْفَعُ وَيَمْنَعُ مِنَ ٱلضَّارِّ أَوْ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ أَضَرُّ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُشَاجَرِيُّ فَغَايَتُهُ ٱلْعَدْلُ وَٱلْجَوْرُ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ ٱلْمُثْبِتُ فَغَايَتُهُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلَ وَاحِدٌ مِنْ هٰذِهِ غَايَةَ صَاحِبِهِ فَلَيْسَ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ ٱلْخَاصَّةِ بِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُشِيرَ قَدْ يُقْنِعُ أَنَّ هٰذَا عَدْلٌ أَوْ جَوْرٌ لِيُشِيرَ بِٱلْإِذْنِ فِيمَا يَكُونُ عَنِ ٱلْعَدْلِ مِنَ ٱلْمَنْفَعَةِ وَبِٱلْمَنْعِ عَنْ مَا يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْجَوْرِ لِمَا فِي ٱلْجَوْرِ مِنَ ٱلْمَضَرَّةِ ٱلَّتِي تُتَوَقَّعُ. وَكَذٰلِكَ قَدْ تُسْتَعْمَلُ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلرَّذِيلَةُ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا يَلْحَقُهَا مِنَ ٱلنَّافِعِ وَٱلضَّارِّ. وَإِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتُ ٱلثَّلَاثُ تَخُصُّ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا وَاحِدًا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ أَعْنِي مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ غَايَاتٌ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ فَٱلْحُدُودُ ٱلْمُمَيِّزَةُ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ

ٱلثَّلَاثَةِ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلْفُصُولُ ٱلْمُعْطَاةُ فِيهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ . وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ خَاصَّةٌ بِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْنَاسِ ٱلثَّلَاثَةِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ أَنَّهُ إِذَا أَقْنَعَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا فِي غَايَةِ ٱلْجِنْسِ ٱلْآخَرِ رُبَّمَا لَمْ يَكُنْ لِلْمُنَاظِرِ فِي ذٰلِكَ مُعَاسَرَةٌ وَمُشَاكَسَةٌ بَلْ كَثِيرًا مَا يُسَلِّمُ لَهُ ذٰلِكَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ غَايَةَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلِ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْمُدَّعِي إِذَا ٱدَّعَى أَنَّ فُلَانًا أَخَذَ ٱلْمَالَ مِنْ فُلَانٍ وَذٰلِكَ لَا شَكَّ ضَرَرٌ بِهِ فَرُبَّمَا يُسَلِّمُ لَهُ ٱلْخَصْمُ أَنَّ ذٰلِكَ كَانَ وَلٰكِنْ لَا يُسَلِّمُ لَهُ أَنَّ أَخْذَهُ ٱلْمَالَ مِنْهُ كَانَ عَلَى جِهَةِ ٱلْجَوْرِ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمُشِيرُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلْفِعْلَ ٱلْمُمْكِنَ جَوْرٌ وَلَا يُسَلِّمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلِمَكَانِ تَدَاخُلِ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ يَعْرِضُ لِلْمُشِيرِينَ كَثِيرًا أَنْ يُشِيرُوا بِأَشْيَاءَ ضَارَّةٍ عَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ قِبَلِ أَنَّهَا عَدْلٌ أَوْ أَنَّهَا لَيْسَتْ بِجَوْرٍ وَلٰكِنْ لَا يُقِرُّونَ بِأَنَّهَا ضَارَّةٌ بَلْ رُبَّمَا ٱحْتَالُوا فِي دَعْوَى وُجُودِ ٱلنَّفْعِ فِيهَا . مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُمْ قَدْ يُشِيرُونَ بِٱلصَّبْرِ عَلَى ٱلْمَوْتِ فِي ٱلْحَرْبِ وَأَلَّا يَفِرُّونَ لِكَوْنِ ٱلْفِرَارِ جَوْرًا فِي ٱلشَّرِيعَةِ . وَكَذٰلِكَ مَتَى قَهَرَ قَوْمٌ قَوْمًا وَٱسْتَوْلَوْا عَلَيْهِمْ رُبَّمَا أَشَارَ ٱلْمُشِيرُ عَلَيْهِمْ أَلَّا يَمْتَعِضُوا لِذٰلِكَ ٱلْقَهْرِ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ جَوْرًا وَرُبَّمَا أَوْهَمَ فِيهِ أَنَّهُ غَيْرُ ضَارٍّ لَهُمْ . وَكَذٰلِكَ ٱلْمَادِحُ قَدْ يُسَلِّمُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَدَّعِي أَنَّهُ فَضِيلَةٌ مِثْلُ مَنْ يُخَلِّصُ إِنْسَانًا مِنَ ٱلْمَوْتِ وَيَعْلَمُ أَنَّهُ يَمُوتُ بِتَخْلِيصِهِ ذٰلِكَ ٱلْإِنْسَانَ . فَٱلْمَوْتُ يُسَلِّمُ ٱلْخَصْمُ أَنَّهُ ضَارٌّ وَلٰكِنْ يَرَى أَنَّهُ فَضِيلَةٌ . وَكَذٰلِكَ رُبَّمَا مَدَحَ بِٱلرَّذِيلَةِ عَلَى جِهَةِ

ٱلْمُغَالَطَةِ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا نَافِعَةٌ لٰكِنْ لَا يُقِرُّ أَنَّهَا رَذِيلَةٌ بَلْ يَدَّعِي فِيهَا أَنَّهَا فَضِيلَةٌ مَا لِمَكَانِ ٱلنَّفْعِ ٱلَّذِي فِيهَا فَإِذَنْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُخَاطَبَاتِ قَدْ تَسْتَعْمِلُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا بِٱلْعَرَضِ وَلِذٰلِكَ لَا تُشَاكِسُ فِيهَا وَتُشَاكِسُ وَلَا بُدَّ فِي غَايَتِهَا. وَإِذَا ٱسْتَعْمَلَتِ ٱلْوَاحِدَةُ غَايَةَ صَاحِبَتِهَا فَعَلَى جِهَةِ ٱلْمُغَالَطَةِ. (قَالَ) وَلَمَّا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ قِيَاسِيَّةً فَمَعْلُومٌ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ فِيهَا مُقَدِّمَاتٌ وَمُقَدِّمَاتُهَا هِيَ ٱلثَّلَاثُ ٱلَّتِي وَصَفْنَا: ٱلْمَحْمُودَاتُ وَٱلدَّلَائِلُ وَٱلْعَلَامَاتُ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمُطْلَقَ يَكُونُ مِنَ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلْمُطْلَقَةِ وَٱلْقِيَاسَ ٱلْخَاصَّ بِصِنَاعَةٍ صِنَاعَةٍ يَكُونُ مِنْ مُقَدِّمَاتٍ خَاصَّةٍ. وَلِذٰلِكَ كَانَ ٱلضَّمِيرُ قِيَاسًا يَأْتَلِفُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَا وَلِأَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي يُشِيرُ بِهِ يَحْتَاجُ أَنْ يُعْرَفَ مِنْ أَمْرِهِ أَوَّلًا أَنَّهُ مُمْكِنٌ لِأَنَّ ٱلْأُمُورَ ٱلْغَيْرَ ٱلْمُمْكِنَةِ لَا يُسْتَطَاعُ أَنْ تُفْعَلَ لَا فِي ٱلْحَاضِرِ وَلَا فِي ٱلْمُسْتَقْبَلِ. وَكَذٰلِكَ يَحْتَاجُ فِي ٱلْجِنْسَيْنِ ٱلْبَاقِيَيْنِ مِنْ أَجْنَاسِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَعْنِي إِنْ نُمَيِّزَ أَوَّلًا أَنَّ ٱلْأَمْرَ قَدْ كَانَ وَوَقَعَ أَعْنِي ٱلْجِنْسَ ٱلتَّثْبِيتِيَّ وَٱلْجِنْسَ ٱلْمُشَاجِرِيَّ. فَإِذَنْ لَا بُدَّ لِصَاحِبِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ أَنْ تَكُونَ عِنْدَهُ مُقَدِّمَاتٌ يُقْنِعُ بِهَا فِي أَنَّ ٱلْأَمْرَ مُمْكِنٌ أَوْ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَفِي أَنَّهُ قَدْ كَانَ أَوْ لَمْ يَكُنْ سِوَى ٱلْمُقَدِّمَاتِ ٱلَّتِي يُبَيِّنُ بِهَا تِلْكَ ٱلْغَايَاتِ ٱلثَّلَاثَ. ثُمَّ أَيْضًا لَمَّا كَانَ ٱلْخُطَبَاءُ لَيْسَ يَقْتَصِرُونَ عَلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْإِذْنِ وَٱلْمَنْعِ وَٱلشِّكَايَةِ وَٱلِٱعْتِذَارِ بَلْ يَتَكَلَّفُونَ مَعَ هٰذَا أَنْ يُثْبِتُوا أَنَّ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَوْ شَرٌّ عَظِيمٌ أَوْ صَغِيرٌ

شَرِيفٌ اَوْ خَسِيسٌ وَلَائِقٌ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ وَذٰلِكَ اِمَّا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَاِمَّا بِٱلْمُقَايَسَةِ اَعْنِي اَنَّهُ اَعْظَمُ وَاَشْرَفُ اَوْ بِٱلضِّدِّ فَمَعْلُومٌ اَنَّهُ يَنْبَغِي اَنْ تَكُونَ عِنْدَ ٱلْخُطَبَاءِ مُقَدَّمَاتٌ يُثْبِتُونَ بِهَا اَنَّ ٱلْخَيْرَ اَوِ ٱلشَّرَّ عَظِيمٌ اَوْ صَغِيرٌ وَخَسِيسٌ اَوْ شَرِيفٌ وَلَائِقٌ بِٱلْمَنْسُوبِ اِلَيْهِ اَوْ غَيْرُ لَائِقٍ فَهٰذِهِ هِيَ جَمِيعُ اَنْوَاعِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ

البحث الثالث

في مقدمات الجنس المشوري

(من الكتاب نفسهِ)

وَاِذْ قَدْ تَبَيَّنَ ذٰلِكَ فَيَنْبَغِي اَنْ نَبْتَدِئَ بِتَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي تَخُصُّ غَرَضًا غَرَضًا مِنَ ٱلْاَغْرَاضِ ٱلثَّلَاثَةِ وَنَجْعَلَ ٱلْكَلَامَ اَوَّلًا فِي تَعْدِيدِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلْمَشُورِيَّةِ ثُمَّ ثَانِيًا فِي ٱلتَّثْبِيتِيَّةِ ثُمَّ ثَالِثًا فِي ٱلْمُشَاجَرِيَّةِ

فَاَوَّلُ مَا يَجِبُ اَنْ نَنْظُرَ فِيهِ مِنْ اَمْرِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُشَارُ بِهَا مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي يُشَارُ بِهِ فَاِنَّهُ لَيْسَ تَكُونُ ٱلْمَشُورَةُ فِي كُلِّ خَيْرٍ لٰكِنْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَسْتَطِيعُ اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ فَاَمَّا ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي كَوْنُهَا اَوْ لَا كَوْنُهَا مِنَ ٱلِاضْطِرَارِ فَلَيْسَ تَكُونُ فِيهَا مَشُورَةٌ وَلَا اَيْضًا ٱلْمَشُورَةُ تَكُونُ فِي جَمِيعِ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ. فَاِنَّ هَاهُنَا خَيْرَاتٍ مُمْكِنَةً وُجُودُهَا عَنِ ٱلطَّبِيعَةِ بَلْ فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْمُمْكِنَةِ ٱلَّتِي اِلَيْنَا اَنْ تَكُونَ اَوْ اَنْ لَا تَكُونَ وَهِيَ ٱلْاَشْيَاءُ

اَلَّتِي بَدْءُ كَوْنِهَا مِن قِبَلِ ٱلْاخْتِيَارِ وَٱلْإِرَادَةِ • وَمِنْ هٰذِهِ فِيَا كَانَ وُجُودُهُ اوْ لَا وُجُودُهُ تَابِعًا لِرَوِيَّتِنَا وَافْعَالِنَا عَلَى ٱلْاَكْثَرِ وَامَّا مَا كَانَ مِنْهَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ بِٱلِاتِّفَاقِ وَاقَلَّ ذٰلِكَ فَلَيْسَتْ هِيَ فِي ٱلْاَكْثَرِ مِمَّا يُشَارُ بِهَا اِلَّا حَيْثُ لَا يُمْكِنُ اَنْ يُوجَدَ ٱلْجِنْسُ ٱلْآخَرُ وَقَدْ يَدُلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْإِشَارَةَ اِنَّمَا تَكُونُ بِهٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اَنَّ ٱلْاِنْسَانَ اِنَّمَا يَنظُرُ اَوَّلًا هَلِ ٱلْاَمْرُ ٱلَّذِي يُرِيدُ اَنْ يَفْعَلَهُ مُمْكِنٌ ثُمَّ اِنْ كَانَ مُمْكِنًا بِاَيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ فَاِذَا تَبَيَّنَ لَهُ ذٰلِكَ شَرَعَ فِي ٱلسَّعْيِ فِيهِ وَاِنْ تَبَيَّنَ لَهُ اَنَّهُ غَيْرُ مُمْكِنٍ خَلَّى عَنْهُ • وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا نُشِيرُ هِيَ ٱلَّتِي فِيهَا نَرْوِي. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مَا هُوَ ٱلْخَيْرُ ٱلَّذِي نُشِيرُ بِهِ وَفِي اَيِّ ٱلْاَشْيَاءِ يَكُونُ وَٱلْاُمُورُ ٱلْإِرَادِيَّةُ ٱلَّتِي مَبْدَأُ وُجُودِهَا مِنَّا لَا ٱلْاُمُورُ ٱلْاِضْطِرَارِيَّةُ ٱلَّتِي لَيْسَ اِلَيْنَا وُجُودُهَا وَاِعْطَاءُ ٱلْفَرْقِ ٱلتَّامِّ بَيْنَ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَغَيْرِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَتَصْحِيحُ عَدَدِ اَنْوَاعِهَا وَمَعْرِفَةُ مَاهِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا عَلَى اَقْصَى مَا فِي طِبَاعِهَا اَنْ تُعْلَمَ فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ اَنْ تَبْلُغَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَلٰكِنْ ذٰلِكَ مِنْ شَأْنِ صِنَاعَةِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱلَّتِي لَهَا ٱلْفَضْلُ عَلَى هٰذِهِ فِي ٱلتَّصَوُّرِ وَٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْمُقَدَّمَاتُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ فِيهَا اَصْدَقُ وَاَصَحُّ مِنْ هٰذِهِ • وَذٰلِكَ اَنَّ هُنَا لَسْنَا نَتَكَلَّمُ مِنْ مَعْرِفَةِ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْاَحْوَالَ ٱلذَّاتِيَّةَ ٱلْمُنَاسِبَةَ لَهَا بَلِ ٱلْاُمُورَ ٱلْمَشْهُورَةَ • وَاِذَا كَانَ ٱلْاَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ كَمَا وَصَفْنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ اَيْضًا مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ اَنَّ جَمِيعَ مَا قُلْنَاهُ فِي اَجْزَاءِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ هُوَ حَقٌّ اَعْنِي اَنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنْ عِلْمِ

ٱلْمَنطِقِ وَمِنْ عِلمِ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْخُلُقِيَّةِ وَانَّ فِيهَا اشْيَاءَ جَدَلِيَّةً اوْ شَبِيهَةً بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْجَدَلِيَّةِ وَايضًا سُوفِسْطَائِيَّةً اوْ شَبِيهَةً بِٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي صَنَائِعَ كَثِيرَةٍ انَّمَا تَكُونُ اجْزَاءً لِصِنَاعَةٍ وَاحِدَةٍ مَتَى اُخِذَ جَمِيعُهَا بِٱلْجِهَةِ وَٱلْحَالِ ٱلَّتِي بِهَا تَكُونُ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْكَثِيرَةُ مُتَعَاوِنَةً وَنَافِعَةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ وَطُرِحَ مِنْهَا ٱلْأَحْوَالُ ٱلَّتِي بِهَا تَخْتَلِفُ اعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي لَيْسَتْ تَكُونُ بِهَا مَعْنِيَّةً فِي غَرَضِ تِلْكَ ٱلصِّنَاعَةِ ٱلْوَاحِدَةِ • وَاذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْخُلُقِيَّةُ انَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ مُعَدَّةٌ نَحْوَ ٱلْكَلَامِ وَٱلْمُخَاطَبَةِ وَهِيَ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلسِّيَاسَةِ مِنْ حَيْثُ هِيَ احَدُ ٱلْمَوْجُودَاتِ ٱلَّتِي نَقْصِدُ مَعْرِفَتَهَا وَعِلْمَهَا • وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلْجَدَلِيَّةُ وَٱلسُّوفِسْطَائِيَّةُ انَّمَا صَارَتْ جُزْءًا مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مِنْ حَيْثُ انَّهُ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ هُوَ سَابِقُ ٱلْمَعْرِفَةِ ٱلْأُولَى لِلْإِنْسَانِ لَا مَا هُوَ بَعِيدٌ عَنْ مَعْرِفَةِ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ انَّهَا انَّمَا تَسْتَعْمِلُ مِنَ ٱلْقِيَاسِ ٱلْقِيَاسَ ٱلْمَعْرُوفَ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُوَ ٱلتَّمْثِيلُ وَٱلضَّمِيرُ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلسُّوفِسْطَائِيَّةِ انَّمَا تُسْتَعْمَلُ مِنْهَا مَا جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِٱسْتِعْمَالِهِ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مِثْلُ مَوَاضِعِ ٱلْإِطْلَاقِ وَٱلتَّقْيِيدِ وَغَيْرُ ذٰلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلُهُ بِطِبَاعِهِمِ ٱلْجُمْهُورُ فَهِيَ انَّمَا تُخَالِفُ هٰذِهِ بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ وَقَدْ تُخَالِفُ ايضًا بِمِقْدَارِ ٱلنَّظَرِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي لِلْعِلْمِ ٱلسِّيَاسِيِّ فِيهَا اعْنِي انَّهَا انَّمَا تَنْظُرُ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْإِرَادِيَّةِ ٱلنَّظَرَ ٱلَّذِي هُوَ فِي سَابِقِ ٱلْمَعْرِفَةِ لِلْإِنْسَانِ وَتَدَعُ تَقَصِّيَ ٱلنَّظَرِ فِي ذٰلِكَ

لِلعلمِ ٱلسِّيَاسِيِّ مِنهَا. وَٱلأُمورُ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا ٱلخَطِيبُ مِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى اَهلِ مَدِينَةٍ بِاَسْرِهِمْ وَمِنهَا مَا يُشِيرُ بِهِ عَلَى وَاحِدٍ مِنْ اَهلِ تِلْكَ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ جَمَاعَةٍ

البحث الرابع

في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) : فَاَمَّا ٱلاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِيهَا ٱلْمَشُورَةُ فِي ٱلأُمورِ ٱلعِظَامِ مِنْ اُمورِ ٱلْمُدُنِ فَهِيَ قَرِيبَةٌ مِنْ اَنْ تَكُونَ خَمْسَةً . اَحَدُهَا ٱلاِشَارَةُ بِٱلعُدَّةِ ٱلْمُدَّخَرَةِ مِنَ ٱلأَموَالِ لِلمَدِينَةِ . وَٱلثَّانِي ٱلاِشَارَةُ بِٱلحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلمِ . وَٱلثَّالِثُ ٱلاِشَارَةُ بِحِفظِ ٱلبَلَدِ مِمَّا يَرِدُ عَلَيهِ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلرَّابِعُ ٱلاِشَارَةُ بِمَا يَدْخُلُ فِي ٱلبَلَدِ وَيَخْرُجُ عَنهُ . وَٱلخَامِسُ ٱلاِشَارَةُ بِٱلتِزَامِ ٱلسُّنَنِ . فَٱلَّذِي يُشِيرُ بِٱلعُدَّةِ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ ثَلَاثَةَ اُمورٍ اَحَدُهَا اَنْ يَعْرِفَ غَلَّاتِ ٱلْمَدِينَةِ مَا هِيَ اَعْنِي هَلْ هِيَ نَبَاتٌ اَوْ حَيَوَانٌ اَوْ مَعْدِنٌ اَوْ جَمِيعُ هٰذِهِ اَوِ ٱثْنَانِ مِنهَا كَيْمَا اِنْ نَقَصَ مِنَ ٱلفَاضِلِ مِنهَا لِلعُدَّةِ شَيْءٌ اَشَارَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا . وَٱلثَّانِي اَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ نَفَقَاتِ اَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ كُلِّهَا . وَٱلثَّالِثُ اَنْ يَعْرِفَ اَصْنَافَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ فِي ٱلْمَدِينَةِ فَاِنْ كَانَ فِيهَا اِنسَانٌ بَطَّالٌ

وَهُوَ ٱلَّذِي لَا فَضِيلَةَ عِنْدَهُ اَوْ عَاطِلٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا صِنَاعَةَ لَهُ اَشَارَ بِتَنْحِيَتِهِ مِنَ ٱلْبَلَدِ. وَاِنْ كَانَ هُنَالِكَ عَظِيمُ ٱلنَّفَقَاتِ فِي غَيْرِ ٱلْجَمِيلِ اَوْ غَيْرِ ٱلضَّرُورِيِّ اَشَارَ بِاَخْذِ ذٰلِكَ ٱلْفَضْلِ مِنَ ٱلْمَالِ مِنْهُ فَاِنَّهُ لَيْسَ يَكُونُ ٱلْغِنَاءُ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلْمَالِ بَلْ وَبِٱلنُّقْصَانِ مِنَ ٱلنَّفَقَةِ وَلِذٰلِكَ قِيلَ: قِلَّةُ ٱلْعِيَالِ اَحَدُ ٱلْيَسَارَيْنِ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلضَّرُورَةِ ٱلدَّاعِيَةِ اِلَى هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا يَقِفُ ٱلْخَطِيبُ عَلَى مَا يَحْتَاجُ اَنْ يُشِيرَ بِهِ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ. وَلَيْسَ يَحْتَاجُ عِنْدَ ٱلْاِشَارَةِ بِٱلزِّيَادَةِ فِي ٱلنَّبَاتِ اَنْ يَكُونَ فَلَّاحًا وَلَا فِي ٱلْحَيَوَانِ اَنْ يَكُونَ رَاعِيًا لٰكِنْ يَكْفِيهِ فِي ذٰلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِمِقْدَارِ ٱلْحَاجَةِ اِلَيْهَا لٰكِنْ يَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ عَالِمًا بِٱلسِّيَرِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَمَا عِنْدَ ٱلنَّاسِ فِيهَا. وَاَمَّا ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ قُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَقُوَّةَ مَنْ يُحَارِبُ وَمِقْدَارَ ٱلْاَمْرِ ٱلَّذِي يُنَالُ بِٱلْمُحَارَبَةِ هَلْ هُوَ يَسِيرٌ اَوْ عَظِيمٌ وَحَالُ ٱلْمَدِينَةِ فِي وَثَاقَتِهَا وَحَصَانَتِهَا وَضَعْفِ اَهْلِهَا وَقُوَّتِهِمْ. وَفِي صِغَرِ ٱلْمَدِينَةِ اَوْ فِي عِظَمِهَا اَعْنِي هَلْ مِقْدَارُهُمْ مِقْدَارُ مَنْ يَسْتَطِيعُ ٱلْمُحَارَبَةَ اَمْ لَيْسَ مِقْدَارُهُمْ ذٰلِكَ ٱلْمِقْدَارَ. وَهَلْ هُمْ بِصِفَةِ مَنْ تُمَكِّنُهُمُ ٱلْمُحَارَبَةُ اَمْ لَيْسَ هُمْ. وَاَنْ يَعْرِفَ مَعَ ذٰلِكَ شَيْئًا مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ لِيَصِفَ لَهُمْ كَيْفَ يُحَارِبُوا اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ وَيُهَوِّنَ عَلَيْهِمْ اَمْرَ ٱلْحَرْبِ. اَوْ يُعَرِّفَهُمْ بِمَا فِي ٱلْحَرْبِ مِنْ مَكْرُوهٍ اِنْ اَشَارَ عَلَيْهِمْ بِتَرْكِ ٱلْحَرْبِ. وَقَدْ يَحْتَاجُ اَنْ يَعْرِفَ لَيْسَ

حَالَ اَهْلِ مَدِينَتِهِ فَقَطْ بَلْ وَحَالَ مَنْ فِي تُخُومِهِ وَثَغْرِهِ اَعْنِي كَيْفَ حَالُهُمْ فِي هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ وَحَالُهُمْ مَعَ عَدُوِّهِمْ فِي ٱلظَّفَرِ بِهِ اَوِ ٱلْعَجْزِ عَنْهُ فَاِنَّهُ يَأْخُذُ مِنْ هَا هُنَا مُقَدَّمَاتٍ نَافِعَةً فِي ٱلْاِشَارَةِ عَلَيْهِمْ بِٱلْحَرْبِ اَوِ ٱلسِّلْمِ. وَيَحْتَاجُ مَعَ هٰذَا اَنْ يَعْلَمَ ٱلْحُرُوبَ ٱلْجَمِيلَةَ مِنَ ٱلْحُرُوبِ ٱلْجَائِرَةِ وَاَنْ يَعْلَمَ حَالَ ٱلْاَجْنَادِ هَلْ هُمْ مُتَشَابِهُونَ فِي ٱلْقُوَّةِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلرَّأْيِ وَاِجَادَةِ مَا فُوِّضَ اِلَى صِنْفٍ صِنْفٍ مِنْهُمْ مِنَ ٱلْقِيَامِ بِجُزْءٍ جُزْءٍ مِنْ اَجْزَاءِ ٱلْحَرْبِ. اَعْنِي اَنْ يَكُونُوا فِي ذٰلِكَ مُتَشَابِهِينَ فَاِنَّهُ رُبَّمَا كَثُرُوا وَتَنَاسَلُوا حَتَّى يَكُونَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحَرْبِ اَوْ لِلْجُزْءِ مِنَ ٱلْحَرْبِ ٱلَّذِي فُوِّضَ اِلَيْهِ ٱلْقِيَامُ بِهِ. وَقَدْ يَنْبَغِي مَعَ هٰذَا اَنْ يَكُونَ نَاظِرًا لَيْسَ فِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ مُحَارَبَتُهُمْ بَلْ وَفِيمَا اَفْضَتْ اِلَيْهِ حُرُوبُ سَائِرِ ٱلنَّاسِ مِنَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ ٱلْمُشَابِهِينَ لَهُمْ فَاِنَّ ٱلشَّبِيهَ يُحْكَمُ مِنْهُ عَلَى ٱلشَّبِيهِ. اَعْنِي اَنَّهُ اِنْ كَانَ اَفْضَتِ ٱلْحُرُوبُ ٱلشَّبِيهَةُ بِحَرْبِهِمْ اِلَى مَكْرُوهٍ اَنْ يُشِيرَ بِٱلسِّلْمِ وَاِنْ كَانَتْ اَفْضَتْ اِلَى ٱلظَّفَرِ اَنْ يُشِيرَ بِٱلْحَرْبِ. وَاَمَّا حِفْظُ ٱلْبِلَادِ فَاِنَّهُ يَحْتَاجُ ٱلْمُشِيرُ بِٱلْحِفْظِ اَنْ يَعْرِفَ كَيْفَ تُحْفَظُ ٱلْبِلَادُ وَمَا مِقْدَارُ ٱلْحِفْظِ ٱلْمُحْتَاجِ اِلَيْهِ فِي طَارِئٍ طَارِئٍ وَكَمْ اَنْوَاعُ ٱلْحِفْظِ. وَيَعْرِفَ مَعَ هٰذَا ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَكُونُ حِفْظُهَا بِٱلرِّجَالِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْمَسَالِحَ. فَاِنْ كَانَ ٱلْحِفْظُ لِتِلْكَ ٱلْمَوَاضِعِ قَلِيلًا زَادَ فِيهِمْ وَاِنْ كَانَ فِيهِمْ مَنْ لَا يَصْلُحُ لِلْحِفْظِ نَحَّاهُ مِمَّنْ لَيْسَ يَقْصِدُ قَصْدَ ٱلْمُحَامَاةِ عَنِ ٱلْمَدِينَةِ بَلْ يَقْصِدُ قَصْدَ نَفْسِهِ. وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ يَحْفَظَ اَكْثَرَ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلْخَفِيَّةَ

اعني التي المنفعة بحفظها اكثر . فمن عرف هذا فقد يمكنه ان يشير بالحفظ وان يكون خبيرا بالبلاد التي يشير بحفظها . واما الاشارة بالقوت وسائر الاشياء الضرورية التي تحتاجها المدينة فانه يحتاج المشير فيه ان يعرف مقدارها وكم يكفي المدينة منها وكم الحاضر الموجود في المدينة من ذلك وهل ادخل الكافي من ذلك في المدينة واحرز ام لم يدخل . وما الاشياء التي ينبغي ان تخرج من المدينة وهو الفاضل عن اهل المدينة . وما الاشياء التي ينبغي ان تدخل وهو ما قصر عن الضروري لتكون مشورته وما يعهد به على حسب ذلك فانه قد يحتاج المرء ان يحفظ اهل مدينته لامرين: احدهما لمكان ذوي الفضائل والثاني لمكان ذوي المال الذين من اجل ذوي الفضائل . والحافظ للمدن يحتاج بالجملة الى ان يكون عارفا بجميع هذه الانواع الخمسة عند حفظه لها

(قال) واما النظر في وضع السنن والاشارة بها فليس بيسير في امر المدن فان المدن انما تسلم ويلتئم وجودها بالسنن ولذلك قد ينبغي لواضع السنن ان يعرف كم اصناف السياسات واي سنة تنفع في سياسة سياسة واي سنة لا تنفع واي ناس تصلح بهم سنة سنة وسياسة سياسة واي ناس لا تصلح بهم وان يكون يعرف الاشياء التي يخاف ان يدخل منها الفساد على المدينة . وذلك اما من الاضداد من خارج واما من اهل المدينة فان سائر المدن ما عدا المدينة الفاضلة قد تفسد من قبل السنن

ٱلْمَوْضُوعَةِ فِيهَا وَذٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلسُّنَّةُ مُفْرِطَةَ ٱلضَّعْفِ وَٱللِّينِ أَوْ مُفْرِطَةَ ٱلشِّدَّةِ وَسَوَاءٌ كَانَتْ فِي رَأْيٍ أَوْ فِي خُلُقٍ أَوْ فِي فِعْلٍ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلسِّيَاسَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْحُرِّيَّةَ قَدْ يَظْهَرُ مِنْ أَمْرِهَا أَنَّهَا تَنْتَقِلُ كَثِيرًا مِنْ قِبَلِ هٰذَا ٱلْمَعْنَى إِلَى رِئَاسَةِ ٱلْخِسَّةِ أَعْنِي رِئَاسَةَ ٱلشَّهَوَاتِ أَوْ رِئَاسَةَ ٱلْمَالِ وَٱلَّذِي قَالَهُ ظَاهِرٌ عِنْدَنَا مِنْ أَمْرِ ذَوِي ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي وَصَلَتْنَا أَخْبَارُهُمْ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَؤُولُ ٱلْأَمْرُ فِي هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَةِ أَعْنِي سِيَاسَةَ ٱلْحُرِّيَّةِ إِلَى سِيَاسَةِ ٱلْأَخِسَّاءِ مِنْ قِبَلِ ٱسْتِرْخَاءِ ٱلسُّنَنِ وَلِينِهَا وَإِنْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلْأَكْثَرَ بَلْ وَمِنْ قِبَلِ ٱلْإِفْرَاطِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ إِذَا أُفْرِطَتْ بَطَلَ وُجُودُهَا كَمَا يَبْطُلُ وُجُودُهَا مِنْ قِبَلِ ٱلضَّعْفِ وَٱلتَّقْصِيرِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَطَسَ إِذَا أَفْرَطَ وَتَفَاقَمَ كَانَ قَرِيبًا مِنْ أَنْ يُظَنَّ أَنَّهُ لَيْسَ هُنَالِكَ أَنْفٌ وَإِذَا كَانَ غَيْرُ مُفْرِطٍ قَرُبَ مِنَ ٱلِٱعْتِدَالِ

(قَالَ) وَيَحْتَاجُ مَعَ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي وَضَعَهَا كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ فَٱنْتَفَعُوا بِهَا فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ مِنَ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلْمَشْهُورَةِ وَفِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ لِيَسْتَعْمِلَ مِنْهَا ٱلنَّافِعَ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ وَٱلْأُمَّةَ ٱلَّتِي تَخُصُّهُ. وَلِذٰلِكَ تَبَيَّنَ أَنَّ مَعْرِفَةَ وَاضِعِ ٱلسُّنَنِ بِأَمْزِجَةِ ٱلنَّاسِ وَأَخْلَاقِهِمْ وَعَادَاتِهِمْ مِمَّا يُنْتَفَعُ بِهِ فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ فَإِنَّ مِنْ هَا هُنَا يُمْكِنُ أَنْ يَضَعَ ٱلسُّنَنَ ٱلنَّافِعَةَ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ ٱلطَّبَائِعِ. وَأَمَّا ٱلْفَسَادُ ٱلدَّاخِلُ عَلَى ٱلْمُدُنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي مِنَ ٱلْأَعْدَاءِ فَأَمْرٌ ظَاهِرٌ بِنَفْسِهِ

وَقَدْ كَتَبَ ٱلنَّاسُ فِي ٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَوَقَّعُ مِنْهَا غَلَبَةُ ٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْاَوْجُهِ ٱلَّتِي يُتَحَرَّزُ بِهَا مِنْهُمْ. وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ يَأْخُذُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي يُشِيرُ بِهَا عَلَى اَهْلِ مَدِينَتِهِ بِٱلتَّحَفُّظِ مِنَ ٱلْاَعْدَاءِ وَمَا قُلْنَا فِي وَضْعِ ٱلسُّنَنِ وَمَا يُحْتَاجُ اِلَيْهِ وَاضِعُهَا هُوَ مِنْ عِلْمِ ٱلسِّيَاسَةِ لَا مِنْ عِلْمِ ٱلْخَطَابَةِ. وَاِنَّمَا يُذْكَرُ مِنْهَا هَاهُنَا مَا يَكْفِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ

البحث الخامس

في السبب الذي من اجله يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْاُمُورُ ٱلْعُظْمَى ٱلَّتِي بِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ عَلَى اَهْلِ ٱلْمُدُنِ وَفِيهَا دَلَالَةٌ عَلَى ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُشَارُ عَلَى وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَنَحْنُ قَائِلُونَ ٱلْآنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا يَكُونُ ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَمُبْتَدِئُونَ اَوَّلًا بِٱلْاِخْبَارِ عَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُونَ فَيَأْذَنُونَ فِيهَا اَوْ يَمْنَعُونَ مِنْ اَضْدَادِهَا. وَيُشْبِهُ اَنْ يَكُونَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱنْفِعَالٌ مَا وَتَشَوُّقٌ بِٱلطَّبْعِ لِلْخَيْرِ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلْكُلُّ لِنَفْسِهِ وَيُشِيرُ بِهِ عَلَى غَيْرِهِ مِنْ غَيْرِ اَنْ يَعْرِفَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ مَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْخَيْرُ فَيَخْتَارُونَهُ وَيُؤْثِرُونَهُ عَلَى غَيْرِهِ. اَوْ اذَا سُئِلَ عَنْهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ مُنْبِئٍ عَنْ

طَبِيعَتِهِ بَلْ اِنَّمَا عِنْدَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ وُجُودُهُ فَقَطْ . وَاِذَا سُئِلَ وَاحِدٌ وَاحِدٌ مِنْهُمْ عَمَّا يَدُلُّ عَلَيْهِ اَسْمُهُ اَجَابَ فِيهِ بِجَوَابٍ غَيْرِ ٱلْجَوَابِ ٱلَّذِي يُجِيبُ فِيهِ ٱلْآخَرُ . وَاِنَّمَا يُؤْثِرُهُ ٱلْجَمِيعُ لِمَكَانِ هٰذَا ٱلِانْفِعَالِ ٱلْمَوْجُودِ لَهُ بِٱلطَّبْعِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ وَهٰذَا ٱلْخَيْرُ فِي ٱلْجُمْلَةِ هُوَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ وَاَجْزَاءُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ . وَلِذٰلِكَ فَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نُفَصِّلَ اَوَّلًا مَا هُوَ صَلَاحُ ٱلْحَالِ بِقَوْلٍ عَامٍّ ثُمَّ نُفَصِّلَ اَجْزَاءَهُ وَنُخْبِرَ عَنْ اَضْدَادِهَا وَعَنِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي يَكُونُ فِيهَا ٱلْاِذْنُ وَٱلْمَنْعُ وَهِيَ ٱلنَّافِعَةُ فِي صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوِ ٱلْاَنْفَعُ فِيهِ اوِ ٱلضَّارَّةُ فِيهِ اَوِ ٱلْاَضَرُّ فِيهِ فَاِنَّ بِهٰذَا يَتِمُّ لَنَا ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْهَا تَلْتَئِمُ ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْمَشُورِيَّةُ ٱلْمُسْتَعْمَلَةُ مَعَ جَمِيعِ ٱلنَّاسِ

(قَالَ) وَٱلَّذِينَ تَكَلَّمُوا فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَلَمْ يَتَكَلَّمُوا مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءِ اِلَّا فِيمَا يَجْرِي مَجْرَى ٱلْاُمُورِ ٱلْكُلِّيَّةِ مِثْلَ اَنَّهُمْ قَالُوا : يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يُعَظِّمَ ٱلشَّيْءَ ٱلصَّغِيرَ اِذَا اَرَادَ تَفْخِيمَهُ وَيُصَغِّرَ ٱلشَّيْءَ ٱلْكَبِيرَ اِذَا اَرَادَ تَهْوِينَهُ . وَيَنْبَغِي لَهُ اَنْ لَا يَأْذَنَ فِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُفْسِدُ صَلَاحَ ٱلْحَالِ وَفِي ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَعُوقُ عَنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوْ تَتَجَاوَزُ صَلَاحَ ٱلْحَالِ اِلَى ضِدِّهِ . وَلَمْ يَقُولُوا مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِهَا يُعَظَّمُ ٱلشَّيْءُ اَوْ يُصَغَّرُ وَلَا مَا هِيَ ٱلْاَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجِبُ اَخْتِلَالَ صَلَاحِ ٱلْحَالِ اَوْ تَعُوقُهُ اَوْ تَتَجَاوَزُهُ اِلَى ضِدِّهِ

(قَالَ) فَاَمَّا صَلَاحُ ٱلْحَالِ فَهُوَ حُسْنُ ٱلْفِعْلِ مَعَ فَضِيلَةٍ وَطُولٍ مِنَ ٱلْعُمْرِ وَحَيَاةٍ لَذِيذَةٍ مَعَ ٱلسَّلَامَةِ وَٱلسَّعَةِ فِي ٱلْمَالِ وَحُسْنِ ٱلْحَالِ

عِنْدَ ٱلنَّاسِ مَعَ تَحْصِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْحَافِظَةِ لِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهَا .
وَقَدْ يَشْهَدُ أَنَّ هٰذَا هُوَ رَسْمُ صَلَاحِ ٱلْحَالِ ٱلْمَشْهُورُ أَنَّ جَمِيعَ ٱلنَّاسِ
يَرَوْنَ أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا أَوْ شَيْءٌ قَرِيبٌ مِنْ هٰذَا وَإِذَا كَانَ
صَلَاحُ ٱلْحَالِ هُوَ هٰذَا فَأَجْزَاؤُهُ هِيَ كَرَمُ ٱلْحَسَبِ وَكَثْرَةُ ٱلْإِخْوَانِ
وَٱلْأَوْلَادِ وَٱلْيَسَارُ وَحُسْنُ ٱلْفِعْلِ وَٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ وَفَضَائِلُ ٱلْجَسَدِ
مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْجَزَالَةِ وَٱلْبَطْشِ وَٱلْمَجْدِ وَٱلْجَلَالَةِ
وَٱلسَّعَادَةِ وَٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَاؤُهَا مِثْلُ ٱلْعَقْلِ وَٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَفَافِ وَٱلْعَدَالَةِ
وَٱلْبِرِّ فَإِنَّهُ هٰكَذَا أَحْرَى أَنْ يَكُونَ ٱلْإِنْسَانُ مَوْفُورًا مُكْتَفِيًا
أَعْنِي إِذَا كَانَتْ لَهُ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلْمَوْجُودَةُ مِنْ خَارِجٍ . وَٱلْخَيْرَاتُ
ٱلْمَوْجُودَةُ فِيهِ ٱلنَّفْسَانِيَّةُ وَٱلْجَسَدَانِيَّةُ وَٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ هِيَ ٱلْحَسَبُ
وَٱلْإِخْوَانُ وَٱلْمَالُ وَٱلْكَرَامَةُ وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّهُ يُعَدُّ مَعَ هٰذِهِ نُفُوذُ
ٱلْأَمْرِ وَٱلنَّهْيِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْجَمِيلَةُ وَهِيَ ٱلْمُسَمَّاةُ عِنْدَ ٱلنَّاسِ سَعَادَةً
فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تَكُونُ حَيَاةُ ٱلْمَرْءِ فِي سِيرَتِهِ حَيَاةَ مَنْ لَا
يَنْقُصُهُ شَيْءٌ مِنْ خَارِجٍ وَلَا يَشُوبُ خَيْرَهُ شَيْءٌ مُضَادٌّ . وَإِذَا كَانَ
هٰذَا هٰكَذَا فَيَجِبُ أَنْ نَنْظُرَ فِي كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ مَا هُوَ بِحَسَبِ
ٱلنَّظَرِ ٱلْمَقْصُودِ هُنَا وَهُوَ ٱلنَّظَرُ ٱلْمَشْهُورُ . فَأَمَّا ٱلْحَسَبُ فَهُوَ أَنْ يَكُونَ
ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ هُمْ أَوَّلَ مَنْ نَزَلَ ٱلْمَدِينَةَ أَوْ يَكُونُوا قُدَمَاءَ
ٱلنُّزُولِ فِيهَا وَيَكُونُوا مَعَ هٰذَا حُكَّامًا أَوْ رُؤَسَاءَ ذَوِي ذِكْرٍ جَمِيلٍ
وَكَثْرَةِ عَدَدٍ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ هٰذَا أَحْرَارًا لَمْ يَجُزْ عَلَيْهِمْ سِبَاءٌ أَوْ
يَكُونُوا مِمَّنْ نَالَ ٱلْأُمُورَ ٱلْجَمِيلَةَ ٱلْمَقْبُولَةَ عِنْدَ ٱلنَّاسِ وَإِنْ لَمْ

يَكُونُوا حُكَّامًا وَلَا رُؤَسَاءَ . فَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فِي ٱلْحَسَبِ هَلْ هُوَ مِنَ ٱلرِّجَالِ فَقَطْ أَوْ مِنَ ٱلنِّسَاءِ فَٱلظَّاهِرُ مِنْ ذٰلِكَ وَٱلْمُتَّفَقُ عَلَيْهِ عِنْدَ ٱلْجَمِيعِ أَنَّهُ يَكُونُ أَتَمَّ إِذَا كَانَ مِنْ كِلَيْهِمَا . وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَعْمِلَ ٱلْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْمَشْهُورَ فِي أُمَّةٍ أُمَّةٍ . وَمِنْ شُرُوطِ ٱلْحَسَبِ أَنْ يَكُونَ ٱلرُّؤَسَاءُ وَٱلْأَحْرَارُ مِنْ أُولٰئِكَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ شُهِرُوا بِٱلْفَضِيلَةِ وَٱلْيَسَارِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْمَكْرُمَاتِ لَمْ يَنْقَطِعْ وُجُودُهُمْ فِي ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ هُوَ مِنْهُمْ إِلَى وُجُودِهِ هُوَ بَلْ يُوجَدُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ أَبَدًا أَشْيَاخٌ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ يَخْلُفُهُمْ غِلْمَانٌ فِي تِلْكَ ٱلْخِصَالِ . فَإِنَّهُ إِنِ ٱنْقَطَعَ ٱلشَّرَفُ فِي ذٰلِكَ ٱلْجِنْسِ ٱلَّذِي هُوَ مِنْهُمْ لَمْ يَكُنْ حَسِيبًا وَإِنْ لَمْ يَنْقَطِعْ مِنْهُمْ فَهُوَ حَسِيبٌ وَإِنِ ٱنْقَطَعَ فِيمَنْ وَلَدَ مِنْهُمْ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْأَوْلَادِ وَكَثْرَتِهِمْ فَهُوَ مِمَّا لَا خَفَاءَ بِهِ وَحُسْنُ ٱلْحَالِ بِٱلْأَوْلَادِ ٱلْمُشْتَرَكُ لِلْجَمِيعِ هُوَ كَثْرَةُ ٱلْفِتْيَانِ وَصَلَاحُهُمْ فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ وَفَضَائِلِ ٱلنَّفْسِ . أَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلْجَسَدِ فَأَرْبَعٌ إِحْدَاهَا ٱلْجَزَالَةُ وَهِيَ أَنْ تَكُونَ خِلْقَتُهُمْ خَلْقًا طَبِيعِيَّةً يَفُوقُونَ فِيهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَٱلثَّانِيَةُ ٱلْجَمَالُ . وَٱلثَّالِثَةُ ٱلشِّدَّةُ . وَٱلرَّابِعَةُ ٱلْبَطْشُ فَبِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعِ يَكُونُ ٱلْغِلْمَانُ صَالِحِينَ فِي فَضَائِلِ أَجْسَامِهِمْ . وَأَمَّا فِي فَضَائِلِ ٱلنُّفُوسِ فَيَكُونُونَ بِٱثْنَتَيْنِ بِٱلْعَفَافِ وَٱلشَّجَاعَةِ . وَأَمَّا مَا قَدْ يَكُونُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ بَعْضِ ٱلنَّاسِ فَكَثْرَةُ ٱلْأَوْلَادِ مِنَ ٱلذُّكُورِ وَٱلْإِنَاثِ . وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِٱلْإِنَاثِ أَيْضًا يَكُونُ بِفَضِيلَتَيْنِ فِي ٱلْجَسَدِ وَٱلنَّفْسِ . أَمَّا فِي ٱلْجَسَدِ فَٱثْنَتَانِ ٱلْعَبَالَةُ وَهُوَ عِظَمُ ٱلْأَعْضَاءِ ٱلْعِظَمَ ٱلطَّبِيعِيَّ

وَكَثْرَةُ ٱللَّحْمِ ٱلطَّبِيعِيِّ لَا ٱللَّوْنُ وَٱلْجَمَالُ . وَامَّا فِي ٱلنَّفْسِ فَثَلَاثٌ ٱلْعَفَافُ وَحُبُّ ٱلْأُلْفَةِ وَحُبُّ ٱلْكَدِّ فَإِنَّ بِهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ يَكْمُلُ ٱلْمَنْزِلُ وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قُلْنَا سَبِيلُهَا اَنْ تُوجَدَ فِي ٱلنِّسَاءِ كُلِّهِنَّ ٱللَّاتِي مِنْ نَسَبِ ذٰلِكَ ٱلرَّجُلِ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي ٱلرِّجَالِ كُلِّهِمْ عَلَى ٱلْعُمُومِ وَفِي اَوْلَادِهِ ٱلذُّكُورِ خَاصَّةً اِذْ كَانَ ٱلْوَلَدُ بِهِ ٱلْصَق . وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ اَنْ يَنْظُرَ هَلِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي هُوَ مِنْهَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ عِنْدَهُمْ اَعْنِي فِي اَوْلَادِهِمْ اَمْ لَيْسَ هِيَ هٰذِهِ فَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلْأُمَمِ يُرَبُّونَ اَوْلَادَهُمُ ٱلذُّكُورَ وَٱلْإِنَاثَ بِٱلزِّينَةِ وَٱلسِّمَنِ وَهٰؤُلَاءِ يَقُولُ فِيهِمْ اَرِسْطُو اِنَّهُ قَدْ فَاتَهُمُ ٱلنِّصْفُ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ بِٱلْأَبْنَاءِ . فَامَّا اَجْزَاءُ ٱلْيَسَارِ فَبِكَثْرَةِ ٱلدَّنَانِيرِ وَٱلْأَرَضِينَ وَٱلْعَقَارِ وَٱلْأَثَاثِ وَٱلْأَمْتِعَةِ وَٱلْمَوَاشِي وَجَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فِي ٱلنَّوْعِ وَٱلْجِنْسِ . وَكُلُّ ذٰلِكَ اِذَا كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ فِي حِفْظٍ وَمَعَ حُرِّيَّةٍ وَاَنْ يَكُونَ فِيهَا مُتَمَتِّعًا اَيْ مُلْتَذًّا لَا حَافِظًا لَهَا فَقَطْ اَوْ مُنْمِيًا

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْيَسَارِ وَٱلْفَاعِلَةِ لَهُ ٱلْأَشْجَارُ ٱلْمُثْمِرَةُ وَٱلْغَلَّاتُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ . وَٱللَّذِيذُ مِنْ هٰذِهِ هُوَ مَا يُجْنَى بِغَيْرِ تَعَبٍ وَلَا نَفَقَةٍ وَحَدُّ ٱلْحِفْظِ وَٱلْإِحْرَازِ لِلْمَالِ هُوَ اَنْ يَكُونَ فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي لَا يَتَعَذَّرُ مِنْهُ عَلَيْهِ وَاَنْ يَكُونَ بِٱلْحَالِ ٱلَّتِي يُمْكِنُ اَنْ يَنْتَفِعَ بِهَا مِثْلَ اَنْ اِذَا كَانَتْ اَرْضًا اَلَّا تَكُونَ سَبِخَةً وَاِنْ كَانَ فَرَسًا اَلَّا يَكُونَ جَمُوحًا . وَحَدُّ ٱلْحُرِّيَّةِ فِي ٱلْمَالِ اَنْ يَكُونَ اِلَيْهِ ٱلتَّصَرُّفُ فِي ٱلْمَالِ بِٱلْإِعْطَاءِ وَٱلْبَيْعِ وَٱلشِّرَاءِ وَامَّا ٱلتَّنَعُّمُ بِٱلْمَالِ

فَهوَ ٱستِعمَالُهُ عَلى طَرِيقِ ٱلتَّلَذُّذِ بِهِ . وَإِنَّمَا ٱشتَرَطَ فِي ٱلغِنَى هٰذَا ٱلشَّرطَ لِأَنَّهُ أَن يَكُونَ ٱلغِنَى فِي ٱستِعمَالِ ٱلمَالِ أَحرَى مِنهُ أَن يَكُونَ فِي ٱقتِنَائِهِ لِأَنَّ ٱلاقتِنَاءَ هُوَ فَاعِلُ ٱلغِنَى وَأَمَّا ٱلاستِعمَالُ فَهوَ ٱلغِنَى بِعَينِهِ وَأَمَّا حُسنُ ٱلفِعلِ عَلَى ٱلرَّأيِ ٱلصَّوَابِ فَهوَ ٱلَّذِي يَظُنُّهُ ٱلكُلُّ فَاضِلًا وَهُوَ ٱلَّذِي يَقتَنِي ٱلشَّيءَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلأَكثَرُ لَا مَحَالَةَ أَوِ ٱلأَخيَارُ مِنَ ٱلنَّاسِ وَذَوُو ٱلكَيسِ وَٱلفِطنَةِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلكَرَامَةُ فَإِنَّهَا فِي زَمَانِنَا هٰذَا لِلمُعتَنِي بِحُسنِ ٱلفِعلِ وَإِكرَامِ ٱلنَّاسِ ٱللَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِهِم هِيَ مُكَافَأَةٌ عَلَى طَرِيقِ ٱلعَدلِ وَٱلحَقِّ إِذ كَانَت هٰذِهِ ٱلأَفعَالُ لَيسَ تُكَافِئُهَا ٱلدَّنَانِيرُ وَٱلدَّرَاهِمُ . وَلَيسَ يُكرَمُ ٱلَّذِينَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ بِٱلنَّاسِ فَقَط بَل وَٱلَّذِينَ يَستَطِيعُونَ أَن تَكُونَ لَهُمُ ٱلعِنَايَةُ ٱلحَسَنَةُ أَعنِي ٱلَّذِينَ لَهُم قُوَّةٌ عَلَى ذٰلِكَ وَإِن لَم يَفعَلُوا ذٰلِكَ فِي حَالِ ٱلإِكرَامِ وَٱلعِنَايَةِ بِٱلنَّاسِ ٱلَّتِي تَستَوجِبُ ٱلكَرَامَةَ هِيَ ٱلعِنَايَةُ تُخَلِّصُهُم مِنَ ٱلشُّرُورِ ٱلَّتِي لَيسَ ٱلتَّخلِيصُ مِنهَا بِهَيِّنٍ أَو إِفَادَتُهُمُ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي لَيسَ إِفَادَتُهَا بِٱلسَّهلِ . وَهٰذِهِ ٱلأَفعَالُ ٱلجَمِيلَةُ هِيَ تَكُونُ عَنِ ٱلغِنَى أَوِ ٱلسُّلطَانِ أَو مَا أَشبَهَ ذٰلِكَ مِمَّا يَكُونُ لِلإِنسَانِ بِهِ ٱلقُدرَةُ عَلَى أَمثَالِ هٰذِهِ ٱلأَفعَالِ وَقَد يُكرَمُ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ عَلَى خَيرَاتٍ يَسِيرَةٍ لٰكِنَّهَا تَكُونُ كَثِيرَةً بِٱلإِضَافَةِ إِلَى ذٰلِكَ ٱلزَّمَانِ وَإِلَى تِلكَ ٱلحَالِ . فَكَانَ ٱلكَرَامَةُ عَلَى ٱلأَشيَاءِ ٱليَسِيرَةِ هِيَ بِٱلعَرَضِ أَي مِن جِهَةِ مَا عَرَضَ لِتِلكَ ٱلأَشيَاءِ أَن تَكُونَ كَثِيرَةً بِٱلإِضَافَةِ

الى ذالك الوقت او الحال . واما الاشياء التي تكون بها الكرامة فمنها مشتركة لجميع الامم ومنها خاصة . فالخاصة مثل الذبائح والقرابين التي كانت قد جرت عادة اليونانيين ان يكرموا بها الاموات . ومنها عامة وهي المراتب في المجالس والمسارعة الى اقواله وترك مخالفته والهدايا التي توجب المحبة والقرب . فان الهدية جمعت امرين بذل المال والكرامة ولذلك كانت مستحبة لجميع الناس وكل انسان يجد فيها ما يتشوقه وذلك ان الناس ثلاثة اصناف اما صنف يحب الكرامة واما صنف يحب المال واما صنف يجمع الامرين . والهدية قد جمعت متشوق هذه الاصناف الثلاثة

(قال) واما فضيلة الجسد فالصحة وذلك ان يكونوا عريين من الاسقام البتة وان يستعملوا ابدانهم لان من لا يستعمل صحته فليس تغبط نفسه بالصحة اي ليس هو حسن الحال بها وهو بعيد من جميع الافعال الانسانية او من اكثرها

(قال) واما الحسن فانه مختلف باختلاف اصناف الاسنان فحسن الغلمان وجمالهم هو ان تكون ابدانهم وخلقهم بهيئة يعسر بها قبولهم الآلام والانفعال اي لا يكونون غير محتملين للاذى وان يكونوا بحيث يستلذ ان ينظر اليهم عند الجري والغلبة

(قال) ولذلك ما يرى الناس الغلمان الذين هم مهيأون نحو الخمس

ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ حِسَانًا جِدًّا وَنَعْنِي بِٱلْخَمْسِ ٱلْمُزَاوَلَاتِ وَٱللَّعِبَاتِ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْيُونَانِيُّونَ يُرَوِّضُونَ بِهَا صِبْيَانَهُمْ وَهِيَ ٱلْعَدْوُ وَٱلرُّكُوبُ وَٱلْمُثَاقَفَةُ وَٱلصِّرَاعُ وَٱلْمُلَاكَزَةُ

(قَالَ) وَإِنَّمَا كَانَ ٱلنَّاسُ يَرَوْنَ فِيمَنْ كَانَ مُهَيَّأً نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْخَمْسَةِ أَنَّهُ جَمِيلٌ لِأَنَّهُ مُهَيَّأٌ بِهَا نَحْوَ ٱلْخِفَّةِ وَٱلْغَلَبَةِ وَإِذَا شَبَّ أَمْثَالُ هٰؤُلَاءِ ٱلْغِلْمَانِ كَانُوا لَذِيذِي ٱلْمَنْظَرِ عِنْدَ ٱلْعَمَلِ فِي ٱلْحَرْبِ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْهَيْئَةِ ٱلَّتِي كَانُوا مُعَدِّينَ بِهَا نَحْوَ ٱلْحَرْبِ. وَأَمَّا ٱلشُّيُوخُ فَجَمَالُهُمْ هُوَ ٱسْتِلْذَاذُ أَفْعَالِهِمْ فِي ٱلْأَعْمَالِ ٱلَّتِي هِيَ جِدٌّ وَهِيَ ٱلَّتِي مِنْ أَجْلِهَا يُرَاضُ ٱلصِّبْيَانُ عَلَى هٰذِهِ ٱللَّعِبَاتِ ٱلْخَمْسِ وَهِيَ ٱلْحُرُوبُ وَأَنْ يَكُونُوا مَعَ ذٰلِكَ يُرَوْنَ غَيْرَ ذَوِي أَحْزَانٍ وَلَا غَمٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْحُزْنَ وَٱلْغَمَّ إِذَا ظَهَرَ بِٱلشَّيْخِ ظُنَّ بِهِ أَنَّ ذٰلِكَ ٱلطَّارِئَ ٱلَّذِي طَرَأَ عَلَيْهِ مِمَّا يَضُرُّ فِي شَيْخُوخَتِهِ مِثْلَ ٱلْفَقْرِ وَٱلْهَوَانِ أَوْ غَيْرِ ذٰلِكَ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلْبَطْشُ فَإِنَّهُ قُوَّةٌ يُحَرِّكُ ٱلْمَرْءُ بِهَا غَيْرَهُ كَيْفَ شَاءَ. فَإِنَّهُ إِذَا جَذَبَ غَيْرَهُ أَوْ دَفَعَهُ أَوْ أَشَالَهُ أَوْ أَخْرَجَهُ أَوْ ضَغَطَهُ وَكَانَ هٰذَا ٱلْفِعْلُ مِنْهُ بِكُلِّ مَنْ يَتَصَدَّى لَهُ أَوْ بِأَكْثَرِهِمْ فَهُوَ ذُو بَطْشٍ

(قَالَ) وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلضَّخَامَةِ فَهُوَ أَنْ يَفُوتَ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ وَيُجَاوِرَهُمْ فِي ٱلطُّولِ وَٱلْعَرْضِ وَٱلْعُمْقِ وَتَكُونَ مَعَ ضَخَامَتِهِ حَرَكَاتُهُ غَيْرَ مُتَكَلِّفَةٍ لِجُودَةِ هٰذِهِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَكُونَ ضَخَامَتُهُ لَيْسَ سَبَبُهَا سِمَنًا

وَلَا اَمرًا مُكتَسبًا

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلْهَيْئَةُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْجِهَادِيَّةَ فَاِنَّهَا مُرَكَّبَةٌ مِنَ ٱلضَّخَامَةِ وَٱلْجَلَدِ وَٱلْخِفَّةِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا ٱقْتَرَنَتِ ٱلْخِفَّةُ مَعَ ٱلْقُوَّةِ اَمكَنَ اَنْ يَبلُغَ بِٱلسُّرعَةِ آمَدًا بَعِيدًا لِاَنَّهُ اِنْ كَانَ خَفِيفًا دُونَ جَلَدٍ لَمْ يَبلُغْ بِٱلسُّرعَةِ آمَدًا بَعِيدًا. وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ هُوَ مُصَارِعٌ وَٱلَّذِي جَمَعَ ٱلضَّخَامَةَ وَٱلْقُوَّةَ وَٱلْخِفَّةَ هُوَ مُجَاهِدٌ. وَاَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ ٱلصِّرَاعَ وَٱلْخِفَّةَ مَعًا فَيُسَمَّى عِندَهُمْ بِٱسْمٍ مُشتَقٍّ مِنَ ٱلْحِذقِ بِٱستِعمَالِ ٱلْقُوَّةِ وَٱلْخِفَّةِ وَاَمَّا ٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلْخِصَالَ كُلَّهَا فَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِندَهُمْ ذَا ٱلْخَمسِ ٱللُّعَبِ

(قَالَ) وَاَمَّا ٱلشَّيْخُوخَةُ ٱلصَّالِحَةُ فَاِنَّهَا دَوَامُ ٱلْكِبَرِ مَعَ ٱلْبَرَاءَةِ مِنَ ٱلْحُزْنِ لِاَنَّهُ اِنْ عَجِلَتْ وَفَاةُ ٱلْاِنسَانِ قَبلَ اَنْ يَبْلُغَ مُنْتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ لَمْ يَكُنْ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ وَاِنْ كَانَ بَرِيئًا مِنَ ٱلْاَحزَانِ وَلَا اَنْ اُمهِلَ اِلَى مُنتَهَى ٱلشَّيْخُوخَةِ وَكَانَ فِي كَرْبٍ وَحُزْنٍ كَانَ ذَا شَيْخُوخَةٍ صَالِحَةٍ. وَاِنَّمَا يَكُونُ بَرِيئًا مِنَ ٱلْاَحزَانِ اِذَا كَانَ ذَا حَظٍّ مِنَ ٱلْجَدِّ وَفَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ اَعنِي اَنْ يَكُونَ صَحِيحًا وَلَمْ تَعتَرِهِ مَصَائِبُ تُكَدِّرُ شَيْخُوخَتَهُ. وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِذَا كَانَ مِمْرَاضًا اَوْ كَانَ ٱلْجَدُّ غَيرَ مُسَاعِدٍ لَهُ بِاَنْ يَكُونَ قَدِ ٱعتَرَتْهُ مَصَائِبُ فَاِنَّهُ لَيسَ بِصَالِحِ ٱلشَّيْخُوخَةِ وَاِنْ كَانَ مُعَمَّرًا. وَكَذٰلِكَ اِنْ كَانَ مِمْرَاضًا وَقَدْ يُشَكُّ كَيفَ يَكُونُ طُولُ ٱلْعُمرِ مَعَ ٱلْاَمرَاضِ لٰكِنْ يُشبِهُ اَنْ تَكُونَ قُوَّةُ طُولِ ٱلْعُمرِ غَيرَ قُوَّةِ ٱلصِّحَّةِ فَاِنَّا نَرَى قَومًا كَثِيرِينَ تَطُولُ

أعمارُهم مع أنهم مِسقامون . وتصحيحُ هذا هو للعلم الطبيعيّ وليس في تصحيحه في هذا العلم منفعةٌ والخطيبُ إنما يكتفي من ذلك بالشيء الظاهر

(قال) وأما كثرة الخلّة وصلاح حال الإنسان بالإخوان فذلك أيضاً غيرُ خفيّ إذا حُدَّ ما هو الخليلُ والصاحبُ . وهو أن يكونَ كلُّ واحدٍ منهما يفعلُ الخيرَ الذي يظنُّ أنه ينفعُ به الآخرَ لا الخيرَ الذي ينتفعُ به في نفسه فقط . وإذا كانت الخلّةُ والصُّحبةُ هي هذه فبيّنٌ أنّ المرءَ يكونُ صالحَ الحالِ بالإخوانِ الكثيرة

(قال) وأمّا صلاحُ الجَدّ فهو أن يكونَ الاتّفاقُ لإنسانٍ ما علّةً لوجودِ الخيرِ له . وذلك إمّا من الخيراتِ الموجودةِ في ذاته وإمّا من الخيراتِ الموجودةِ له من خارج . وعلّةُ الاتفاقِ قد تكونُ الصناعةَ وقد تكونَ الطبيعةَ وهو الأكثر . فمثالُ ما يكونُ عن الاتفاقِ الطبيعيّ أن يولدَ الإنسانُ ذا قوّةٍ وهيئةٍ يعسُرُ بها قبولُه الأمورَ الواردةَ عليه من خارج . فأمّا أن يكونَ الإنسانُ صحيحاً فقد يكونُ سببُه الاتفاقَ الطبيعيَّ مثلَ أن يولدَ صحيحاً . وقد يكونُ الاتفاقَ الصناعيَّ مثلَ أن يُسقى سمّاً فيبرأ من مرضٍ كانَ به . وأمّا الجمالُ والضخامةُ فعلّتُهما الاتفاقُ الصناعيُّ والطبيعيُّ وجملةُ الأمرِ أنّ الخيراتِ التي سببُها الجَدُّ الذي هو حسنُ الاتفاقِ هي الخيراتُ التي يكونُ المرءُ مغبوطاً بها محسوداً عليها . وقد يكونُ

ٱلْجدُّ عِلَّةً لِخيْرَاتٍ لَيستْ هي خيْرَاتٍ بِٱلْحقيقَـةِ وَإِنَّمَا تُرَى خيْرَاتٍ بِٱلْإضَافَةِ وَٱلْمُقَايَسَـةِ إِلَى ٱلْغيْرِ. كَمَا قَدْ يَكُونُ ٱلْقُبْحُ فِي حقّ إِنْسَانٍ خيْرًا مَا إِذَا رُئِيَ غيْرُهُ أَقبحُ مِنْهُ وَمِثْلَ أَنْ يكُونَ إِنسانَانِ وَقفَا مِنَ ٱلْحَرْبِ فِي مَوْضعٍ وَاحِدٍ فَأَصَابَ أَحدَهُمَا ٱلسَّهْمُ وَلَمْ يُصِبِ ٱلثَّانِيَ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ يَرَى أَنَّهُ قَدْ نَالَهُ بِٱلْإضَافَةِ إِلَى صَاحِبِهِ خيْرٌ كَثِيرٌ. وَبِخَاصَّةٍ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ ٱلَّذِي لَمْ يُصِبْهُ ٱلسَّهْمُ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يَشْهَدَ ٱلْحُرُوبَ كَثِيرًا وَٱلْآخَرُ لَمْ يَشْهَـدْ قَطُّ إِلَّا تِلْكَ ٱلْحَرْبَ وَكَذٰلِكَ إِذَا وَجَدَ ٱلْـكَنْزَ وَاحِدٌ مِمَّنْ طَلَبَـهُ. قَدْ يَرَى أَنَّهُ خيْرٌ بِٱلْإضَافَةِ إِلَى مَنْ لَمْ يُصِبْهُ وَإِنْ كَانَ ٱلْـكَنْزُ يَسِـيرًا فَمِنْ هٰذَا وَنَحْوِهِ يَنظُرُ ٱلْخَطِيبُ فِي سَعَادَةِ ٱلْجدِّ. وَأَمَّا تَعْرِيفُ ٱلْفَضِيلَةِ فَأَوْلَى ٱلْمَوَاضِعِ بِذِكْرِهَا هُوَ عِنْدَ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْـدَحُ بِهَا. لِأَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ خَاصَّةٌ بِٱلْمَادِحِ وَلِذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَـكُونَ ٱلْمَادِحُ هُوَ ٱلَّذِي يَعْرِفُ بِٱسْتِقْصَاءِ ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلْفَضَائِلَ وَإِنْ كَانَ مِنْهَا مُسْتَقْبِلٌ وَحَاضِرٌ فَٱلْمَادِحُ إِنَّمَا يَنظُرُ فِيهَا مِنْ جِهَةِ مَا هِيَ حَاضِرَةٌ وَٱلْمُشِيرُ مِنْ جِهَـةِ أَنَّهَا مُسْتَقْبِلَةٌ أَيْ نَافِعَةٌ



البحث السادس

في الفرق بين الخير والسعادة

(من كتاب تهذيب الاخلاق لابن مسكويه)

نَبدَأُ بمعونة ٱللهِ تعَالَى فِي هٰذهِ ٱلمقَالَةِ بِذكرِ ٱلفرقِ بَينَ ٱلخَيرِ وَٱلسَّعادَةِ بَعدَ اَن نذكُرَ اَلفاظَ اَرِسطَاطَاليسَ ٱقتِداءً بِهِ وَتوفِيَةً لِحقهِ فنقُولُ: اِنَّ ٱلخَيرَ عَلَى مَا حَدَّهُ وَٱستَحسَنهُ مِن آرَاءِ ٱلمتَقدِمِينَ هُوَ ٱلمقصُودُ مِنَ ٱلكلِّ وَهِيَ ٱلغَايَةُ ٱلاخِيرَةُ وَقَد يُسَمَّى ٱلشَّيءُ ٱلنَّافِعُ فِي هٰذهِ ٱلغَايَةِ خيرًا فَامَّا ٱلسَّعادَةُ فَهِيَ ٱلخَيرُ بِٱلاضَافَةِ اِلى صَاحِبِهَا وَهِيَ كَمَالٌ لَهُ فَٱلسَّعادَةُ اِذًا خيرٌ مَا. وَقد تكُونُ سَعادَةُ ٱلانسَانِ غَيرَ سَعادَةِ ٱلفرَسِ وَسَعادَةُ كُلِّ شَيءٍ فِي تَمامِهِ وَكَمالِهِ ٱلَّذِي يَخُصُّهُ. فَامَّا ٱلخَيرُ ٱلَّذِي يَقصِدُهُ ٱلكُلُّ بِٱلشَّوقِ فَهُوَ طَبِيعَةٌ تُقصَدُ وَلَهَا ذَاتٌ وَهُوَ ٱلخَيرُ ٱلعَامُّ لِلنَّاسِ مِن حَيثُ هُم نَاسٌ فَهُم بِاَجمَعِهِم مُشتَرِكُونَ فِيهَا. فَامَّا ٱلسَّعادَةُ فَهِيَ خيرٌ مَا لِوَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلنَّاسِ فَهِيَ اِذًا بِٱلاضَافَةِ لَيسَ لَهَا ذَاتٌ مُعيَّنَةٌ وَهِيَ تَختَلِفُ بِٱلاضَافَةِ اِلَى قَاصِدِيهَا. فَلِذٰلِكَ يَكُونُ ٱلخَيرُ ٱلمُطلَقُ غَيرَ مُختَلِفٍ فِيهِ وَقَد يُظَنُّ بِٱلسَّعادَةِ اَنَّهَا تَكُونُ لِغَيرِ ٱلنَّاطِقِينَ فَاِن كَانَ ذٰلِكَ فَاِنَّمَا هِيَ ٱستِعدَادَاتٌ فِيهَا لِقَبُولِ تَمامَاتِهَا وَكَمَالَاتِهَا مِن غَيرِ قَصدٍ وَلَا رَوِيَّةٍ وَلَا اِرَادَةٍ وَتِلكَ ٱلاستِعدَادَاتُ هِيَ ٱلشَّوقُ اَو مَا يَجرِي مَجرَى ٱلشَّوقِ

مِنَ ٱلنَّاطِقِينَ بِالإِرادَةِ . فَامَّا مَا يَتَأَتَّى لِلْحَيَوَانَاتِ فِي مَآكِلِهَا وَمَشَارِبِهَا وَرَاحَاتِهَا فَيَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى بَخْتًا اوِ ٱتِّفَاقًا وَلَا يُؤَهَّلُ لِاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ كَمَا يُسَمَّى فِي ٱلإِنْسَانِ أَيْضًا . وَإِنَّمَا ٱسْتُحْسِنَ ٱلْحَدُّ ٱلَّذِي ذَكَرْنَا لِلْخَيْرِ ٱلْمُطْلَقِ لِأَنَّ ٱلْعَقْلَ لَا يُطَاقُ ٱلسَّعْيَ وَٱلْحَرَكَةَ إِلَى لَا نِهَايَةٍ وَهٰذَا اوَّلُ فِي ٱلْعَقْلِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّنَاعَاتِ وَٱلْهِمَمَ وَٱلتَّدَابِيرَ ٱلاِخْتِيَارِيَّةَ كُلَّهَا يُقْصَدُ بِهَا خَيْرٌ مَا وَمَا لَمْ يُقْصَدْ بِهِ خَيْرٌ مَا فَهُوَ عَبَثٌ وَٱلْعَقْلُ يَحْتَذِرُهُ وَيَمْتَنِعُ مِنْهُ وَبِالْوَاجِبِ صَارَ ٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلْمَقْصُودَ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ ٱلنَّاسِ . وَلٰكِنْ بَقِيَ أَنْ يُعْلَمَ مَا هُوَ وَمَا ٱلْغَايَةُ ٱلأَخِيرَةُ مِنْهُ ٱلَّتِي هِيَ غَايَةُ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي تَرْتَقِي ٱلْخَيْرَاتُ كُلُّهَا إِلَيْهَا حَتَّى نَجْعَلَهُ غَرَضَنَا وَنَتَوَجَّهَ إِلَيْهِ وَلَا نَلْتَفِتَ إِلَى غَيْرِهِ وَلَا تَنْتَشِرَ أَفْكَارُنَا فِي ٱلْخَيْرَاتِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَيْهِ إِمَّا تَأْدِيَةً بَعِيدَةً وَإِمَّا تَأْدِيَةً قَرِيبَةً وَلَا نَغْلَطَ أَيْضًا فِيمَا لَيْسَ بِخَيْرٍ فَنَظُنَّهُ خَيْرًا ثُمَّ تَفْنَى أَعْمَارُنَا فِي طَلَبِهِ وَٱلتَّعَبِ بِهِ وَكُلًّا سَنُبَيِّنُ بِمَشِيئَةِ ٱللهِ وَعَوْنِهِ

البحث السابع

في اقسام الخير والسعادة

(من ٱلكتاب نفسهِ)

اَلْخَيْرُ عَلَى مَا قَسَمَهُ أَرِسْطَاطَالِيسُ وَحَكَاهُ عَنْهُ فُرْفُورِيُوسُ وَغَيْرُهُ هٰكَذَا قَالَ : اَلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ شَرِيفَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ

مَمْدُوحَةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ بِٱلْقُوَّةِ كَذٰلِكَ وَمَا هِيَ نَافِعَةٌ فِيهَا . فَٱلشَّرِيفَةُ مِنْهَا هِيَ ٱلَّتِي شَرَفُهَا مِنْ ذَاتِهَا وَتَجْعَلُ مَنِ ٱقْتَنَاهَا شَرِيفًا وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْعَقْلُ . وَٱلْمَمْدُوحَةُ مِنْهَا مِثْلُ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَفْعَالِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْإِرَادِيَّةِ . وَٱلَّتِي هِيَ بِٱلْقُوَّةِ مِثْلُ ٱلتَّهَيُّؤِ وَٱلِٱسْتِعْدَادِ لِنَيْلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَقَدَّمَتْ . وَٱلنَّافِعَةُ هِيَ جَمِيعُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُطْلَبُ لَا لِذَاتِهَا بَلْ لِيُتَوَصَّلَ بِهَا إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ لَيْسَتْ بِغَايَاتٍ . وَٱلْغَايَاتُ مِنْهَا مَا هِيَ تَامَّةٌ وَمِنْهَا مَا هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ . فَٱلَّتِي هِيَ تَامَّةٌ كَٱلسَّعَادَةِ وَذٰلِكَ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا لَمْ نَحْتَجْ أَنْ نَسْتَزِيدَ إِلَيْهَا شَيْئًا آخَرَ . وَٱلَّتِي هِيَ غَيْرُ تَامَّةٍ فَكَٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ مِنْ قِبَلِ أَنَّا إِذَا وَصَلْنَا إِلَيْهَا ٱحْتَجْنَا أَنْ نَسْتَزِيدَ فَنَقْتَنِيَ أَشْيَاءَ أُخَرَ . وَأَمَّا ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِغَايَةٍ ٱلْبَتَّةَ فَكَٱلْعِلَاجِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَٱلرِّيَاضَةِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ ذَاتِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِأَجْلِ غَيْرِهِ وَمِنْهَا مَا هُوَ مُؤْثَرٌ لِلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا وَمِنْهَا مَا هُوَ خَارِجٌ عَنْهُمَا . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَمِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ عِنْدَ ٱلضَّرُورَةِ وَٱلِٱتِّفَاقَاتِ ٱلَّتِي تَتَّفِقُ لِبَعْضِ ٱلنَّاسِ وَفِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ وَأَيْضًا مِنْهَا مَا هُوَ خَيْرٌ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَمِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ وَفِي جَمِيعِ ٱلْأَوْقَاتِ وَمِنْهَا مَا لَيْسَ بِخَيْرٍ لِجَمِيعِ ٱلنَّاسِ وَلَا مِنْ جَمِيعِ ٱلْوُجُوهِ . (وَعَلَى جِهَةٍ أُخْرَى) ٱلْخَيْرَاتُ مِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْجَوْهَرِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَمِنْهَا مَا هُوَ فِي ٱلْكَيْفِيَّةِ وَفِي سَائِرِ ٱلْمَقُولَاتِ فَمِنْهَا كَٱلْقُوَى وَٱلْمَلَكَاتِ وَمِنْهَا

كَالْأَحوَالِ وَمِنهَا كَالْأَفعَالِ وَمِنهَا كَالْغَايَاتِ وَمِنهَا كَالْمَوَادِّ وَمِنهَا كَالْآلَاتِ. وَوُجُودُ الْخَيْرَاتِ فِي الْمَقُولَاتِ كُلِّهَا يَكُونُ عَلَى هٰذَا الْمِثَالِ امَّا فِي الْجَوْهَرِ اعْنِي مَا لَيسَ بِعَرَضٍ فَاللّٰهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هُوَ الْخَيْرُ الْاَوَّلُ فَاِنَّ جَمِيعَ الْاَشْيَاءِ تَتَحَرَّكُ نَحْوَهُ بِالشَّوْقِ اِلَيهِ وَلِاَنَّ مَآلَ الْخَيْرَاتِ الْالٰهِيَّةِ مِنَ الْبَقَاءِ وَالسَّرْمَدِيَّةِ وَالتَّمَامِ مِنْهُ. وَامَّا فِي الْكَمِيَّةِ فَالْعَدَدُ الْمُعْتَدِلُ وَالْمِقْدَارُ الْمُعْتَدِلُ وَامَّا فِي الْكَيْفِيَّةِ فَكَاللَّذَّاتِ. وَامَّا فِي الْاِضَافَةِ فَكَالصَّدَقَاتِ وَالرِّئَاسَاتِ. وَامَّا فِي الْاَيْنِ وَالْمَتَى فَكَالْمَكَانِ الْمُعْتَدِلِ وَالزَّمَانِ الْاَنِيقِ الْبَهِجِ. وَامَّا فِي الْوَضْعِ فَكَالْقُعُودِ وَالْاِضْطِجَاعِ وَالْاِتِّكَاءِ الْمُوَافِقِ. وَامَّا فِي الْمِلْكِ فَكَالْاَمْوَالِ وَالْمَنَافِعِ. وَامَّا فِي الْاِنْفِعَالِ فَكَالسَّمَاعِ الطَّيِّبِ وَسَائِرِ الْمَحْسُوسَاتِ الْمُؤَثِّرَةِ. وَامَّا فِي الْفِعْلِ فَمِثْلُ نَفَاذِ الْاَمْرِ وَرَوَاجِ الْفِعْلِ. (وَعَلَى جِهَةٍ اُخرَى) الْخَيْرَاتُ مِنهَا مَعْقُولَاتٌ وَمِنهَا مَحْسُوسَاتٌ

(وَامَّا السَّعَادَةُ) فَقَدْ قُلنَا اِنَّهَا خَيْرٌ مَا وَهِيَ تَمَامُ الْخَيْرَاتِ وَغَايَاتُهَا وَالتَّمَامُ هُوَ الَّذِي اِذَا بَلَغنَا اِلَيهِ لَمْ نَحْتَجْ مَعَهُ اِلَى شَيْءٍ آخَرَ فَلِذٰلِكَ نَقُولُ اِنَّ السَّعَادَةَ هِيَ اَفْضَلُ الْخَيْرَاتِ وَلٰكِنَّا نَحْتَاجُ فِي هٰذَا التَّمَامِ الَّذِي هُوَ الْغَايَةُ الْقُصْوَى اِلَى سَعَادَاتٍ اُخَرَ وَهِيَ الَّتِي فِي الْبَدَنِ وَالَّتِي خَارِجَ الْبَدَنِ. (وَارِسْطَاطَالِيسُ) يَقُولُ اِنَّهُ يَعْسُرُ عَلَى الْاِنْسَانِ اَنْ يَفْعَلَ الْاَفْعَالَ الشَّرِيفَةَ بِلَا مَادَّةٍ مِثْلِ اتِّسَاعِ الْيَدِ وَكَثْرَةِ الْاَصْدِقَاءِ وَجُودَةِ الْبَخْتِ

(وَامَّا اَقسَامُ) السَّعَادَةِ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا الْحَكِيمِ فَهِيَ خَمْسَةُ

اَقْسَامٍ : (اَحَدُهَا) فِي صِحَّةِ ٱلْبَدَنِ وَلُطْفِ ٱلْحَوَاسِّ وَيَكُونُ ذٰلِكَ مِنِ ٱعْتِدَالِ ٱلْمِزَاجِ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ ٱلسَّمْعِ وَٱلْبَصَرِ وَٱلشَّمِّ وَٱلذَّوْقِ وَٱللَّمْسِ . (وَٱلثَّانِي) فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْاَعْوَانِ وَاَشْبَاهِهِمَا حَتَّى يَتَّسِعَ لِاَنْ يَضَعَ ٱلْمَالَ فِي مَوْضِعِهِ وَيَعْمَلَ بِهِ سَائِرَ ٱلْخَيْرَاتِ وَيُوَاسِيَ مِنْهُ اَهْلَ ٱلْخَيْرَاتِ خَاصَّةً وَٱلْمُسْتَحِقِّينَ عَامَّةً وَيَعْمَلَ بِهِ كُلَّ مَا يَزِيدُ فِي فَضَائِلِهِ وَيَسْتَحِقُّ ٱلثَّنَاءَ وَٱلْمَدْحَ عَلَيْهِ . (وَٱلثَّالِثُ) اَنْ تَحْسُنَ اُحْدُوثَتُهُ فِي ٱلنَّاسِ وَيَنْتَشِرَ ذِكْرُهُ بَيْنَ اَهْلِ ٱلْفَضْلِ فَيَكُونَ مَمْدُوحًا بَيْنَهُمْ يُكْثِرُونَ ٱلثَّنَاءَ عَلَيْهِ لِمَا يَتَصَرَّفُ فِيهِ مِنَ ٱلْاِحْسَانِ وَٱلْمَعْرُوفِ . (وَٱلرَّابِعُ) اَنْ يَكُونَ مُنْجِحًا فِي ٱلْاُمُورِ وَذٰلِكَ اِذَا ٱسْتَتَمَّ كُلَّ مَا رَوَّى فِيهِ وَعَزَمَ عَلَيْهِ حَتَّى يَصِيرَ اِلَى مَا يَأْمُلُهُ مِنْهُ . (وَٱلْخَامِسُ) اَنْ يَكُونَ جَيِّدَ ٱلرَّأْيِ صَحِيحَ ٱلْفِكْرِ سَلِيمَ ٱلْاِعْتِقَادَاتِ فِي دِينِهِ بَرِيئًا مِنَ ٱلْخَطَإِ وَٱلزَّلَلِ جَيِّدَ ٱلْمَشُورَةِ فِي ٱلْآرَاءِ . فَمَنِ ٱجْتَمَعَتْ لَهُ هٰذِهِ ٱلْاَقْسَامُ كُلُّهَا فَهُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلْكَامِلُ عَلَى مَذْهَبِ هٰذَا ٱلرَّجُلِ ٱلْفَاضِلِ وَمَنْ حَصَلَ لَهُ بَعْضُهَا كَانَ حَظُّهُ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ بِحَسَبِ ذٰلِكَ .

(وَاَمَّا ٱلْحُكَمَاءُ) قَبْلَ هٰذَا ٱلرَّجُلِ مِثْلُ فِيثَاغُورِسَ وَبُقْرَاطَ وَاَفْلَاطُونَ وَاَشْبَاهِهِمْ فَاِنَّهُمْ اَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ ٱلْفَضَائِلَ وَٱلسَّعَادَةَ كُلَّهَا فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَلِذٰلِكَ لَمَّا قَسَمُوا ٱلسَّعَادَةَ جَعَلُوهَا كُلَّهَا فِي قُوَى ٱلنَّفْسِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا فِي اَوَّلِ ٱلْكِتَابِ (وَهِيَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ) . وَاَجْمَعُوا عَلَى اَنَّ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلَ هِيَ كَافِيَةٌ فِي ٱلسَّعَادَةِ وَلَا يُحْتَاجُ مَعَهَا اِلَى غَيْرِهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلْبَدَنِ

وَلَا مَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِذَا حَصَّلَ تِلْكَ ٱلْفَضَائِلَ لَمْ يَضُرَّهُ فِي سَعَادَتِهِ أَنْ يَكُونَ سَقِيمًا نَاقِصَ ٱلْأَعْضَاءِ مُبْتَلًى بِجَمِيعِ أَمْرَاضِ ٱلْبَدَنِ ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَلْحَقَ ٱلنَّفْسَ مِنْهَا مَضَرَّةٌ فِي خَاصِّ أَفْعَالِهَا مِثْلُ فَسَادِ ٱلْعَقْلِ وَرَدَاءَةِ ٱلذِّهْنِ وَمَا أَشْبَهَهُمَا. وَأَمَّا ٱلْفَقْرُ وَٱلْخُمُولُ وَسُقُوطُ ٱلْحَالِ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْخَارِجَةِ عَنْهَا فَلَيْسَتْ عِنْدَهُمْ بِقَادِحَةٍ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْبَتَّةَ. وَأَمَّا ٱلرِّوَاقِيُّونَ وَجَمَاعَةٌ مِنَ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّهُمْ جَعَلُوا ٱلْبَدَنَ جُزْءًا مِنَ ٱلْإِنْسَانِ وَلَمْ يَجْعَلُوهُ آلَةً كَمَا شَرَحْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَلِذٰلِكَ ٱضْطَرُّوا إِلَى أَنْ يَجْعَلُوا ٱلسَّعَادَةَ ٱلَّتِي فِي ٱلنَّفْسِ غَيْرَ كَامِلَةٍ إِذَا لَمْ يَقْتَرِنْ بِهَا سَعَادَةُ ٱلْبَدَنِ وَمَا هُوَ خَارِجَ ٱلْبَدَنِ أَيْضًا أَعْنِي ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلْبَخْتِ وَٱلْجَدِّ. وَٱلْمُحَقِّقُونَ مِنَ ٱلْفَلَاسِفَةِ يَحْقِرُونَ أَمْرَ ٱلْبَخْتِ وَكُلَّ مَا يَكُونُ بِهِ وَمَعَهُ وَلَا يُؤَهِّلُونَ تِلْكَ ٱلْأَشْيَاءَ لِاسْمِ ٱلسَّعَادَةِ لِأَنَّ ٱلسَّعَادَةَ شَيْءٌ ثَابِتٌ غَيْرُ زَائِلٍ وَلَا مُتَغَيِّرٍ وَهِيَ أَشْرَفُ ٱلْأُمُورِ وَأَكْرَمُهَا وَأَرْفَعُهَا فَلَا يَجْعَلُونَ لِأَخَسِّ ٱلْأَشْيَاءِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَغَيَّرُ وَلَا يَثْبُتُ وَلَا يَتَحَصَّلُ بِرَوِيَّةٍ وَلَا فِكْرٍ وَلَا يَتَأَتَّى بِعَقْلٍ وَفَضِيلَةٍ فِيهَا نَصِيبًا

وَلِهٰذَا ٱلنَّظَرِ ٱخْتَلَفَ ٱلْقُدَمَاءُ فِي ٱلسَّعَادَةِ ٱلْعُظْمَى فَظَنَّ قَوْمٌ أَنَّهَا لَا تَحْصُلُ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا بَعْدَ مُفَارَقَةِ ٱلْبَدَنِ وَٱلطَّبِيعِيَّاتِ كُلِّهَا. وَهٰؤُلَاءِ هُمُ ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ حَكَيْنَا عَنْهُمْ أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ ٱلْعُظْمَى هِيَ فِي ٱلنَّفْسِ وَحْدَهَا وَسَمَّوْا ٱلْإِنْسَانَ ذٰلِكَ ٱلْجَوْهَرَ وَحْدَهُ دُونَ ٱلْبَدَنِ وَلِذٰلِكَ حَكَمُوا إِنَّهَا مَا دَامَتْ فِي ٱلْبَدَنِ وَمُتَّصِلَةً بِٱلطَّبِيعَةِ وَكَدَرِهَا

ونجاسات البدن وضروراته وحاجات الانسان به وافتقاراته الى الاشياء الكثيرة فليست سعيدة على الاطلاق. وايضاً لما راوها لا تكمل لوجود الاشياء العقلية لانها لا تستتر عنها بظلمة الهيولى اعني قصورها ونقصانها ظنوا انها اذا فارقت هذه الكدورة فارقت الجهالات وصفت وخاصت وقبلت الاضاءة والنور الالهي اعني العقل التام. ويجب على رأي هؤلاء ان الانسان لا يسعد السعادة التامة الا في الآخرة بعد موته. واما الفرقة الاخرى فانها قالت انه من القبيح الشنيع ان يظن ان الانسان ما دام حيا يعمل الاعمال الصالحة ويعتقد الآراء الصحيحة ويسعى في تحصيل الفضائل كلها لنفسه اولا ثم لابناء جنسه ثانيا ويخلف رب العزة تقدس ذكره في خلقه بهذه الافعال المرضية فهو شقي ناقص حتى اذا مات وعدم هذه الاشياء صار سعيدا تام السعادة وارسطاطاليس يتحقق بهذا الرأي. وذلك انه تكلم في السعادة الانسانية والانسان هو المركب عنده من بدن ونفس ولذلك حد الانسان بالناطق المائت وبالناطق الماشي برجلين وما اشبه ذلك. وهذه الفرقة وهي التي رئيسها ارسطاطاليس رات ان السعادة الانسانية تحصل للانسان اذا سعى لها وتعب بها حتى يصير الى اقصاها. ولما راى الحكيم ذلك وان الناس مختلفون في هذه السعادة الانسانية وانها قد اشكلت عليهم اشكالا شديدا احتاج ان يتعب في الابانة عنها واطالة الكلام فيها. وذلك ان الفقير يرى ان السعادة العظمى

فِي ٱلثَّرْوَةِ وَٱلْيَسَارِ وَٱلْمَرِيضَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلسَّلَامَةِ وَٱلذَّلِيلَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلْجَاهِ وَٱلسُّلْطَانِ وَٱلْخَلِيعَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلتَّمَكُّنِ مِنَ ٱلشَّهَوَاتِ كُلِّهَا عَلَى ٱخْتِلَافِهَا وَٱلْعَاشِقَ يَرَى أَنَّهَا فِي ٱلظَّفَرِ بِٱلْمَعْشُوقِ وَٱلْفَاضِلَ يَرَى أَنَّهَا فِي إِفَاضَةِ ٱلْمَعْرُوفِ عَلَى ٱلْمُسْتَحِقِّينَ وَٱلْفَيْلَسُوفَ يَرَى أَنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِذَا كَانَتْ مُرَتَّبَةً بِحَسَبِ تَقْسِيطِ ٱلْعَدْلِ أَعْنِي عِنْدَ ٱلْحَاجَةِ وَفِي ٱلْوَقْتِ ٱلَّذِي يَجِبُ وَكَمَا يَجِبُ وَعِنْدَ مَنْ يَجِبُ فَهِيَ سَعَادَاتٌ كُلُّهَا وَمَا كَانَ مِنْهَا يُرَادُ لِشَيْءٍ آخَرَ فَذٰلِكَ ٱلشَّيْءُ أَحَقُّ بِٱسْمِ ٱلسَّعَادَةِ

وَلَمَّا كَانَ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْ هَاتَيْنِ ٱلْفِرْقَتَيْنِ نَظَرَتْ نَظَرًا مَا وَجَبَ أَنْ نُثْبِتَ فِي ذٰلِكَ مَا نَرَاهُ صَوَابًا وَجَامِعًا لِلرَّأْيَيْنِ فَنَقُولُ:

إِنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ رُوحَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَرْوَاحَ ٱلطَّيِّبَةَ ٱلَّتِي تُسَمَّى مَلَائِكَةً وَذُو فَضِيلَةٍ جِسْمَانِيَّةٍ يُنَاسِبُ بِهَا ٱلْأَنْعَامَ لِأَنَّهُ مُرَكَّبٌ مِنْهُمَا فَهُوَ بِٱلْخَيْرِ ٱلْجِسْمَانِيِّ ٱلَّذِي يُنَاسِبُ بِهِ ٱلْأَنْعَامَ مُقِيمٌ فِي هٰذَا ٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ مُدَّةً قَصِيرَةً لِيَعْمُرَهُ وَيُنَظِّمَهُ وَيُرَتِّبَهُ حَتَّى إِذَا ظَفِرَ بِهٰذِهِ ٱلْمَرْتَبَةِ عَلَى ٱلْكَمَالِ ٱنْتَقَلَ إِلَى ٱلْعَالَمِ ٱلْعُلْوِيِّ وَأَقَامَ فِيهِ دَائِمًا سَرْمَدًا فِي صُحْبَةِ ٱلْمَلَائِكَةِ وَٱلْأَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُفْهَمَ مِنْ قَوْلِنَا ٱلْعَالَمَ ٱلسُّفْلِيَّ وَٱلْعَالَمَ ٱلْعُلْوِيَّ مَا ذَكَرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ فَإِنَّا قَدْ قُلْنَا هُنَاكَ إِنَّا لَسْنَا نَعْنِي بِٱلْعُلْوِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَعْلَى فِي ٱلْحِسِّ وَلَا بِٱلْعَالَمِ ٱلسُّفْلِيِّ ٱلْمَكَانَ ٱلْأَسْفَلَ فِي ٱلْحِسِّ بَلْ كُلُّ مَحْسُوسٍ فَهُوَ أَسْفَلُ وَإِنْ كَانَ مَحْسُوسًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْأَعْلَى وَكُلُّ مَعْقُولٍ فَهُوَ

اَعلَى وَاِنْ كَانَ مَعقُولًا فِي ٱلْمَكَانِ ٱلْاَسْفَلِ. وَيَنْبَغِي اَنْ يُعْلَمَ اَنَّهُ لَيْسَ يُحْتَاجُ فِي صِحَّةِ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ ٱلْمُسْتَغْنِيَةِ عَنِ ٱلْاَبْدَانِ اِلَى شَيْءٍ مِنَ ٱلسَّعَادَاتِ ٱلْبَدَنِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا سِوَى سَعَادَةِ ٱلنَّفْسِ فَقَطْ اَعْنِي ٱلْمَعْقُولَاتِ ٱلْاَبَدِيَّةَ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْحِكْمَةُ فَقَطْ. فَاِذًا مَا دَامَ ٱلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا فَلَيْسَ تَتِمُّ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ اِلَّا بِتَحْصِيلِ ٱلْحَالَيْنِ جَمِيعًا وَلَيْسَ يَحْصُلَانِ عَلَى ٱلتَّمَامِ اِلَّا بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلنَافِعَةِ فِي ٱلْوُصُولِ اِلَى ٱلْحِكْمَةِ ٱلْاَبَدِيَّةِ. فَٱلسَّعِيدُ اذا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ فِي اِحْدَى مَرْتَبَتَيْنِ اِمَّا فِي مَرْتَبَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاَحْوَالِهَا ٱلسُّفْلَى سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يُطَالِعُ ٱلْاُمُورَ ٱلشَرِيفَةَ بَاحِثًا عَنْهَا مُشْتَاقًا اِلَيْهَا مُتَحَرِّكًا نَحْوَهَا مُغْتَبِطًا بِهَا. وَاِمَّا اَنْ يَكُونَ فِي رُتْبَةِ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلرُّوحَانِيَّةِ مُتَعَلِّقًا بِاَحْوَالِهَا ٱلْعُلْيَا سَعِيدًا بِهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ يُطَالِعُ ٱلْاُمُورَ ٱلْبَدَنِيَّةَ مُعْتَبِرًا بِهَا نَاظِرًا فِي عَلَامَاتِ ٱلْقُدْرَةِ ٱلْاِلٰهِيَّةِ وَدَلَائِلِ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْبَالِغَةِ مُقْتَدِيًا بِهَا نَاظِمًا لَهَا مُفِيضًا لِلْخَيْرَاتِ عَلَيْهَا سَابِقًا لَهَا نَحْوَ ٱلْاَفْضَلِ فَٱلْاَفْضَلِ بِحَسَبِ قَبُولِهَا وَعَلَى نَحْوِ ٱسْتِطَاعَتِهَا. وَاَيُّ ٱمْرِىءٍ لَمْ يَحْصُلْ فِي اِحْدَى هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ فَهُوَ فِي رُتْبَةِ ٱلْاَنْعَامِ بَلْ هُوَ اَضَلُّ وَاِنَّمَا صَارَ اَضَلَّ لِاَنَّ تِلْكَ غَيْرُ مُعَرَّضَةٍ لِهٰذِهِ ٱلْخَيْرَاتِ وَلَا اُعْطِيَتِ ٱسْتِطَاعَةً تَتَحَرَّكُ بِهَا نَحْوَ هٰذِهِ ٱلْمَرَاتِبِ ٱلْعَالِيَةِ وَاِنَّمَا تَتَحَرَّكُ بِقُوَاهَا نَحْوَ كَمَالَاتِهَا ٱلْخَاصَّةِ بِهَا وَٱلْاِنْسَانُ مُعَرَّضٌ لَهَا مَنْدُوبٌ اِلَيْهَا مُزَاحُ ٱلْعِلَّةِ فِيهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ غَيْرُ مُحَصِّلٍ لَهَا وَلَا سَاعٍ نَحْوَهَا وَهُوَ مَعَ ذٰلِكَ مُؤْثِرٌ اِضْدَهَا يَسْتَعْمِلُ قُوَاهُ ٱلشَّرِيفَةَ فِي

ٱلأُمورِ ٱلدَّنيئةِ وَتِلكَ مُحَصِّلَةٌ لِكَمالاتِها ٱلَّتِي تَخُصُّها. فَإِذًا ٱلأَنعامُ إِذا مُنِعَتِ ٱلخَيْرَاتِ ٱلإِنْسِيَّةَ حُرِمَتْ جِوارَ ٱلأَرواحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَدُخولَ ٱلجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ بِها ٱلمُتَّقونَ فَهِيَ مَعْذُورَةٌ وَٱلإِنْسانُ غَيْرُ مَعْذُورٍ. وَمَثَلُ ٱلأَوَّلِ مَثَلُ ٱلأَعمَى إِذا جارَ عَنِ ٱلطَّريقِ فَتَرَدَّى فِي بِئْرٍ فَهُوَ مَرحُومٌ غَيْرُ مَلُومٍ. وَمَثَلُ ٱلثَّانِي مَثَلُ بَصِيرٍ يَجُورُ عَلَى بَصِيرَةٍ حَتَّى يَتَرَدَّى فِي ٱلبِئْرِ فَهُوَ مَمْقُوتٌ مَلُومٌ. وَإِذْ قَدْ تَبَيَّنَ أَنَّ ٱلسَّعِيدَ لَا مَحَالَةَ فِي إِحْدَى ٱلمَرْتَبَتَيْنِ ٱللَّتَيْنِ ذَكَرْنَاهُمَا فَقَدْ تَبَيَّنَ أَيْضًا أَنَّ أَحَدَهُمَا نَاقِصٌ مُقَصِّرٌ عَنِ ٱلآخَرِ وَأَنَّ ٱلأَنْقَصَ مِنْهُمَا لَيْسَ يَخْلُو وَلَا يَتَعَرَّى مِنَ ٱلآلامِ وَٱلحَسَرَاتِ لِأَجلِ خَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَٱلزَّخَارِفِ ٱلحِسِّيَّةِ ٱلَّتِي تَعْتَرِضُهُ فِيمَا يُلَابِسُهُ وَتَعُوقُهُ عَمَّا يُلَاحِظُهُ وَتَمْنَعُهُ مِنَ ٱلتَّرَقِّي فِيهَا عَلَى مَا يَنْبَغِي وَتَشْغَلُهُ بِمَا يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ ٱلأُمُورِ ٱلجُسْمَانِيَّةِ فَصَاحِبُ هٰذِهِ ٱلمَرْتَبَةِ غَيْرُ كَامِلٍ عَلَى ٱلإِطْلَاقِ وَلَا سَعِيدٍ تَامٍّ. وَأَنَّ صَاحِبَ ٱلمَرْتَبَةِ ٱلأُخْرَى هُوَ ٱلسَّعِيدُ ٱلتَّامُّ وَهُوَ ٱلَّذِي تَوَفَّرَ حَظُّهُ مِنَ ٱلحِكْمَةِ فَهُوَ مُقِيمٌ بِرُوحَانِيَّتِهِ بَيْنَ ٱلمَلَإِ ٱلأَعْلَى يَسْتَمِدُّ مِنْهُمْ لَطَائِفَ ٱلحِكْمَةِ وَيَسْتَنِيرُ بِٱلنُّورِ ٱلإِلٰهِيِّ وَيَسْتَزِيدُ مِنْ فَضَائِلِهِ بِحَسَبِ عِنَايَتِهِ بِهَا وَقِلَّةِ عَوَائِقِهِ عَنْهَا وَلِذٰلِكَ يَكُونُ أَبَدًا خَالِيًا مِنَ ٱلآلَامِ وَٱلحَسَرَاتِ ٱلَّتِي لَا يَخْلُو صَاحِبُ ٱلمَرْتَبَةِ ٱلأُولَى مِنْهَا. وَيَكُونُ مَسْرُورًا أَبَدًا بِذَاتِهِ مُغْتَبِطًا بِحَالِهِ وَبِمَا يَحْصُلُ لَهُ دَائِمًا مِنْ فَيْضِ نُورِ ٱلأَوَّلِ فَلَيْسَ يُسَرُّ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلأَحْوَالِ وَلَا يَغْتَبِطُ إِلَّا بِتِلْكَ ٱلمَحَاسِنِ وَلَا يَهَشُّ إِلَّا لِإِظْهَارِ تِلْكَ ٱلحِكْمَةِ بَيْنَ أَهْلِهَا وَلَا يَرْتَاحُ إِلَّا لِمَنْ نَاسَبَهُ أَوْ قَارَبَهُ

وَاَحَبَّ ٱلِاقْتِبَاسَ مِنْهُ . وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْمَرْتَبَةُ ٱلَّتِي مَنْ وَصَلَ اِلَيْهَا فَقَدْ وَصَلَ اِلَى آخِرِ ٱلسَّعَادَاتِ وَاَقْصَاهَا وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يُبَالِي بِفِرَاقِ ٱلْاَحْبَابِ مِنْ اَهْلِ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى مَا يَفُوتُهُ مِنَ ٱلتَّنَعُّمِ فِيهَا وَهُوَ ٱلَّذِي يَرَى جِسْمَهُ وَمَالَهُ وَجَمِيعَ خَيْرَاتِ ٱلدُّنْيَا ٱلَّتِي عَدَدْنَاهَا فِي ٱلسَّعَادَاتِ ٱلَّتِي فِي بَدَنِهِ وَٱلْخَارِجَةِ عَنْهُ كُلَّهَا كَلًّا عَلَيْهِ اِلَّا فِي ضَرُورَاتٍ يَحْتَاجُ اِلَيْهَا لِبَدَنِهِ ٱلَّذِي هُوَ مَرْبُوطٌ بِهِ لَا يَسْتَطِيعُ ٱلِانْحِلَالَ عَنْهُ اِلَّا عِنْدَ مَشِيئَةِ خَالِقِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَشْتَاقُ اِلَى صُحْبَةِ اَشْكَالِهِ وَمُلَاقَاةِ مَنْ يُنَاسِبُهُ مِنَ ٱلْاَرْوَاحِ ٱلطَّيِّبَةِ وَٱلْمَلَائِكَةِ ٱلْمُقَرَّبِينَ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَفْعَلُ اِلَّا مَا اَرَادَهُ ٱللّٰهُ مِنْهُ وَلَا يَخْتَارُ اِلَّا مَا قَرَّبَ اِلَيْهِ وَلَا يُخَالِفُهُ اِلَى شَيْءٍ مِنْ شَهَوَاتِهِ ٱلرَّدِيئَةِ وَلَا يَنْخَدِعُ بِخَدَائِعِ ٱلطَّبِيعَةِ وَلَا يَلْتَفِتُ اِلَى شَيْءٍ يَعُوقُهُ عَنْ سَعَادَتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا يَحْزَنُ عَلَى فَقْدِ مَحْبُوبٍ وَلَا يَتَحَسَّرُ عَلَى فَوْتِ مَطْلُوبٍ . اِلَّا اَنَّ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ تَتَفَاوَتُ تَفَاوُتًا عَظِيمًا اَعْنِي اَنَّ مَنْ يَصِلُ اِلَيْهَا مِنَ ٱلنَّاسِ يَكُونُ عَلَى طَبَقَاتٍ كَثِيرَةٍ غَيْرِ مُتَقَارِبَةٍ وَهَاتَانِ ٱلْمَرْتَبَتَانِ هُمَا ٱللَّتَانِ سَاقَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْكَلَامَ اِلَيْهِمَا وَٱخْتَارَ ٱلْمَرْتَبَةَ ٱلْاَخِيرَةَ مِنْهُمَا . .

(وَاِذْ قَدْ لَخَّصْنَا اَمْرَ هَاتَيْنِ ٱلْمَنْزِلَتَيْنِ مِنَ ٱلسَّعَادَةِ ٱلْقُصْوَى) فَقَدْ تَبَيَّنَ بَيَانًا كَافِيًا اَنَّ اِحْدَاهُمَا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَيْنَا اُولَى وَٱلْاُخْرَى ثَانِيَةٌ وَمِنَ ٱلْمُحَالِ اَنْ نَسْلُكَ اِلَى ٱلثَّانِيَةِ مِنْ غَيْرِ اَنْ نَمُرَّ بِٱلْاُولَى . . ثُمَّ اَعْلَمُ اَنَّ مَنْ عُنِيَ بِبَعْضِ ٱلْقُوَى ٱلَّتِي ذَكَرْنَاهَا دُونَ بَعْضٍ اَوْ تَعَمَّدَ لِاِصْلَاحِهَا فِي وَقْتٍ دُونَ وَقْتٍ لَمْ تَحْصُلْ لَهُ ٱلسَّعَادَةُ ٱلتَّامَّةُ . . .

البحث الثامن

في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها

(من كتاب خطابة ارسطاطاليس تعريب ابن رشد)

قَدْ تَبَيَّنَتِ ٱلْغَايَاتُ ٱلَّتِي مِنْ اجلِهَا يُشِيرُ ٱلْمُشِيرُ وَمِنْهَا تَتَبَيَّنُ اَضْدَادُهَا ٱلَّتِي مِنْ اَجْلِهَا يَمْنَعُ ٱلْمُشِيرُ وَهِيَ تُؤَلَّفُ مِنْهَا اَقَاوِيلُ ٱلْمَنْعِ اِذْ كَانَ عَدَدُهَا هُوَ ذٰلِكَ ٱلْعَدَدَ بِعَيْنِهِ وَوَضْعُهَا مِنَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلْمَشُورِيَّةِ هُوَ ذٰلِكَ ٱلْوَضْعُ بِعَيْنِهِ. وَمِنْ اَجْلِ اَنَّ ٱلْمُشِيرَ اِنَّمَا غَرَضُهُ ٱلْمُقَدَّمُ فِي فِكْرِهِ هُوَ اَنْ يُشِيرَ بِٱلشَّيْءِ ٱلنَّافِعِ ٱلَّذِي تَلْزَمُ عَنْهُ وَاحِدَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ وَذٰلِكَ اَنَّ هٰذِهِ ٱلْغَايَاتِ هِيَ اوَّلُ ٱلْفِكْرَةِ وَآخِرُ ٱلْعَمَلِ وَٱلْاَشْيَاءُ ٱلنَّافِعَةُ هِيَ آخِرُ ٱلْفِكْرَةِ وَاَوَّلُ ٱلْعَمَلِ وَاَعْنِي بِاَوَّلِ ٱلْفِكْرِ ٱلنَّتِيجَةَ وَبِآخِرِ ٱلْفِكْرِ ٱلْمُقَدَّمَاتِ

فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْخَطِيبِ اُصُولٌ وَقَوَانِينُ يَعْرِفُ بِهَا ٱلْاَشْيَاءَ ٱلنَّافِعَةَ فِي ٱلْغَايَاتِ وَهِيَ ٱلْعَوَاقِبُ اِذْ كَانَتْ هِيَ اَوَّلَ ٱلْعَمَلِ وَٱلنَّافِعَاتُ وَاِنْ لَمْ تَكُنْ خَيْرًا مُطْلَقًا فَهِيَ خَيْرٌ لِاَنَّهَا طَرِيقٌ اِلَى ٱلْخَيْرِ بِاِطْلَاقٍ. فَٱلْخَيْرُ ٱلْمُطْلَقُ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ اَجْلِ نَفْسِهِ وَيُخْتَارُ غَيْرُهُ مِنْ اَجْلِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُ اِلَيْهِ ٱلْكُلُّ. وَاَعْنِي هَا هُنَا بِٱلْكُلِّ ذَوِي ٱلْفَهْمِ ٱلْحَسَنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلذَّكَاءِ. وَذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلْحَقِيقَةِ وَقَدْ يَكُونُ خَيْرًا فِي ٱلظَّنِّ وَذٰلِكَ بِحَسَبِ اَعْتِقَادِ اِنْسَانٍ اِنْسَانٍ فِي هٰذَا ٱلْخَيْرِ. وَلِذٰلِكَ اِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ ٱلَّذِي

يعتقد فيه الانسان هذا الاعتقاد موجود له فقد اكتفى به ونال حاجته ولم يبق له تشوق الى شيء اصلاً. والاشياء النافعة في هذا الخير هي بالجملة اربعة اجناس الاشياء الفاعلة والاشياء الحافظة له وما يلزم الفاعلة وذلك ان لازم الشيء يعد مع الشيء. وكذلك ايضاً لازم المفسد للشيء يعد مع المفسد. ولازم ضد الفاعل مع ضد الفاعل في الاشياء التي ينهى عنها ولزوم الغاية للفاعل ربما كان معاً مثل ما يلزم المدح اقتناء الاشياء الممدوحة وربما كان متاخراً مثل العلم الذي يتبع التعلم بآخرة. والاشياء الفاعلة ثلاثة اصناف اما بالذات واما بالعرض. والذي بالذات اثنان اما قريب مثل فعل الغذاء للصحة. واما بعيد مثل الطبيب. والذي بالعرض مثل فعل التعب في الرياضة للصحة. واذا كان واجباً ان تكون اصناف الاشياء الفاعلة للخير هي هذه الاصناف الثلاثة فباضطرار ان تكون الامور النافعة في الخير بعضها خير في ذاتها مثل نفع الغذاء في الصحة وبعضها شر في ذاتها وخير ما بحسب نفعها في الخير مثل شرب الدواء للصحة. والشرور التي تنفع في الخير هي نافعة على وجهين احدهما ان يستفاد بها خير هو اعظم من الشر اللاحق من استعمالها مثل استفادة الصحة عن شرب الدواء ومثل المشقة اليسيرة في استفادة المال الكثير. ومنها ما تنال به السلامة من شر هو اعظم من الشر الذي ينال منها مثل ما ينال ركاب البحر من السلامة اذا طرحوا امتعتهم فان

طَرحَ أَمتِعَتِهِمْ شَرٌّ لٰكِنْ تُستَفَادُ مِنهِ ٱلسَّلَامَةُ مِنْ شَرٍّ هُوَ أَعظَمُ وَهُوَ ٱلعَطَبُ . وَٱلخَيرَاتُ ٱلَّتِي تُستَفَادُ مِنَ ٱلخَيرَاتِ يُسَمِّيهَا أَرِسطُو فَوَائِدَ بِإِطلَاقٍ وَأَمَّا تِلكَ فَيُسَمِّيهَا ٱنتِقَالًا وَيَعنِي بِذٰلِكَ أَنَّهَا ٱنتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ أَخَفُّ شَرًّا مِنهُ أَوِ ٱنتِقَالٌ مِنْ شَرٍّ إِلَى مَا هُوَ خَيرٌ

(قَالَ) وَٱلفَضَائِلُ وَإِنْ كَانَتْ غَايَاتٍ فَهِيَ أَيضًا خَيرَاتٌ فِي أَنفُسِهَا وَنَافِعَةٌ فِي ٱلخَيرِ فَإِنَّ ٱلمُقتَنِينَ لَهَا هُمْ بِهَا حَسَنُو ٱلأَحوَالِ وَهِيَ مَعَ هٰذَا فَاعِلَةٌ لِلخَيرِ وَمُستَعمَلَةٌ فِيهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنبَغِي أَنْ نُخبِرَ عَنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ وَكَيفَ هِيَ خَيرٌ فِي نَفسِهَا وَكَيفَ هِيَ فَاعِلَةٌ لِلخَيرِ وَنُفَصِّلَ ٱلأَمرَ فِي ذٰلِكَ . وَٱللَّذَّاتُ أَيضًا هِيَ خَيرٌ بِنَفسِهَا لِأَنَّ جَمِيعَ ٱلحَيَوَانِ يَشتَاقُ إِلَيهَا . وَٱلأُمُورُ ٱللَّذِيذَةُ إِنَّمَا تَكُونُ خَيرًا إِذَا كَانَ بِهَا ٱلمُلتَذُّ حَسَنَ ٱلحَالِ وَقَدْ يَستَبِينُ مِنَ ٱلتَّصَفُّحِ أَنَّهَا خَيرٌ وَأَنَّهَا قَدْ تَكُونُ نَافِعَةً فِي ٱلخَيرِ وَأَجزَاءِ صَلَاحِ ٱلحَالِ . وَبِٱلجُملَةِ مِنهَا مَا هِيَ غَايَاتٌ فَقَطْ . وَمِنهَا مَا قَدْ تُعَدُّ غَايَاتٍ وَهِيَ نَافِعَةٌ أَيضًا فِي ٱلغَايَاتِ . وَذٰلِكَ أَنَّ لِبَعضِهَا تَرتِيبًا عِندَ بَعضٍ أَعنِي أَنَّ بَعضَهَا عِلَّةٌ لِوُجُودِ بَعضٍ وَمُتَقَدِّمٌ عَلَيهِ . وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلحِكمَةَ وَٱلعَفَافَ وَكِبَرَ ٱلنَّفسِ وَٱلنُّبلَ وَمَا أَشبَهَهَا مِنْ فَضَائِلِ ٱلنَّفسِ قَدْ تُختَارُ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ مِنْ أَجزَاءِ صَلَاحِ ٱلحَالِ مِنْ أَجلِهَا . وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ وَٱلجَمَالُ مِنْ فَضَائِلِ ٱلجَسَدِ قَدْ تُختَارُ أَشيَاءُ مِنْ أَجلِهَا هِيَ مِنْ صَلَاحِ ٱلحَالِ وَهِيَ فَاعِلَاتُهَا وَكَذٰلِكَ تُختَارُ

فَاعِلَاتٌ أَشْيَاءَ أُخَرَ مِنْ صَلَاحِ ٱلْحَالِ مِثْلُ فَاعِلَاتِ ٱللَّذَّةِ وَفَاعِلَاتِ ٱلسِّيرَةِ ٱلْحَسَنَةِ . وَلِذَٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلْيَسَارِ أَنَّهُ خَيْرٌ إِذْ كَانَ سَبَبًا لِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ ٱلشَّرِيفَيْنِ أَحَدُهُمَا ٱللَّذَّةُ وَٱلْآخَرُ حُسْنُ ٱلسِّيرَةِ وَصَلَاحُ ٱلْحَالِ بِكَثْرَةِ ٱلْإِخْوَانِ قَدْ يُوجَدُ فَاعِلًا لِأَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذَٰلِكَ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّدَاقَةُ ٱلَّتِي بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ ٱلْمَحَبَّةِ نَفْسِهَا لَا أَنْ تَكُونَ ٱلْمَحَبَّةُ بَيْنَهُمَا مِنْ أَجْلِ شَيْءٍ آخَرَ فَإِنَّ ٱلْإِخْوَانَ ٱلَّذِينَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ هُمْ يَفْعَلُونَ ٱلْكَرَامَةَ وَٱلتَّمْجِيدَ وَغَيْرَ ذَٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ وَذَٰلِكَ يَكُونُ مِنْهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ فَإِنَّ ٱلْأَقْوَالَ وَٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي تُفْعَلُ بِهَا ٱلْكَرَامَةُ وَٱلتَّمْجِيدُ وَغَيْرُ ذَٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي مَجْرَاهُمَا هِيَ خَيْرٌ وَنَافِعٌ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلنَّافِعَاتِ بِذَاتِهَا ٱلْمَلَكَاتُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ ٱلَّتِي يَكُونُ ٱلْإِنْسَانُ بِهَا مُسْتَعِدًّا لِأَشْيَاءَ حَسَنَةٍ مِثْلِ ٱلذَّكَاءِ وَٱلْحِفْظِ وَٱلتَّعَلُّمِ وَخِفَّةِ ٱلْحَرَكَاتِ . وَكَذَٰلِكَ ٱلْكَمَالَاتُ مِثْلُ ٱلْعُلُومِ وَٱلصَّنَائِعِ وَكَذَٰلِكَ ٱلسِّيَرُ ٱلْمَحْمُودَةُ وَهٰذِهِ كُلُّهَا مَعَ أَنَّهَا نَافِعَةٌ فِي غَيْرِهَا هِيَ خَيْرٌ فِي نَفْسِهَا وَإِنْ لَمْ يَتَّصِلْ بِهَا خَيْرٌ آخَرُ فَهِيَ خَيْرَاتٌ مُنْفَرِدَةٌ بِأَنْفُسِهَا مُخْتَارَةٌ لِذَاتِهَا وَٱلْبُرْءُ أَيْضًا خَيْرٌ نَافِعٌ

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ ٱلْخَيْرَاتُ ٱلَّتِي يُعْتَرَفُ بِهَا وَيُجْتَمَعُ أَنَّهَا خَيْرَاتٌ وَنَافِعَاتٌ وَمَتَى بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْهَا أَنَّهَا خَيْرٌ فَذَٰلِكَ بَيَانٌ لَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ وَٱلْمُغَالَطَةِ ٱلْمُسْتَعْمَلَةِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا إِذَا بُيِّنَ فِي شَيْءٍ مِنْ أَضْدَادِ هٰذِهِ أَنَّهَا خَيْرٌ وَفِيهَا أَنَّهَا شَرٌّ فَذَٰلِكَ يَكُونُ فِي هٰذِهِ

ٱلصِّنَاعَةِ عَلَى طَرِيقِ ٱلْمِرَاءِ أَعْنِي بِبَيَانٍ سُوفِسْطَائِيٍّ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلشَّرَّ إِنَّمَا يَنْفَعُ بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ أَنْ يُبَيِّنَ خَطِيبٌ لِأَهْلِ مَدِينَةٍ مَا أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنَّهُمْ إِنْ شَجُعُوا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ فَنَالَ مِنْهُمُ ٱلْعَدُوُّ وَلٰكِنِ ٱلْجُبْنُ لَيْسَ هُوَ خَيْرًا عَلَى ٱلْإِطْلَاقِ وَإِنَّمَا كَانَ خَيْرًا بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ عُرِضَ لَهُمْ هٰذَا. وَأَمَّا ٱلنَّافِعُ فِي ٱلْأَكْثَرِ وَبِٱلذَّاتِ لِلْإِنْسَانِ فَهُوَ ٱلْخَيْرُ كَمَا أَنَّ ٱلشَّرَّ ٱلْمُضَادَّ لِلْخَيْرِ هُوَ نَافِعٌ لِلْأَعْدَاءِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجُبْنَ لَمَّا كَانَ شَرًّا لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ بِٱلْعَرَضِ كَانَ نَافِعًا لِلْأَعْدَاءِ. وَٱلشَّجَاعَةُ لَمَّا كَانَتْ بِٱلذَّاتِ خَيْرًا لَهُمْ كَانَتْ ضَارَّةً بِٱلْأَعْدَاءِ إِلَّا أَنَّهُ قَدْ يَلْحَقُ مَا هُوَ شَرٌّ مَا لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَكُونَ ضَارًّا لِعَدُوِّهِ وَمَا هُوَ خَيْرٌ مَا لَهُ أَنْ يَكُونَ نَافِعًا لِعَدُوِّهِ مِثْلُ ٱلْجُبْنِ لِأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ٱلَّذِينَ إِذَا خَرَجُوا عَنِ ٱلْمَدِينَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ قُوَّةٌ يُقَاوِمُونَ بِهَا عَدُوَّهُمْ. فَيَنْبَغِي لِلْخَطِيبِ أَنْ يَتَحَرَّى فِي كُلِّ وَقْتٍ ٱلنَّافِعَ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ وَهٰذِهِ ٱلْقَضِيَّةُ أَيْضًا لَيْسَتْ كُلِّيَّةً أَعْنِي ٱلْقَائِلَةَ أَنَّ كُلَّ مَا يَضُرُّ ٱلْعَدُوَّ وَيَكْرَهُهُ نَافِعٌ وَكُلُّ مَا يَنْفَعُ ٱلْعَدُوَّ وَيَسُرُّهُ ضَارٌّ فَإِنَّ كَثِيرًا مَا يَكُونُ ٱلْأَمْرُ ٱلْوَاحِدُ ضَارًّا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ وَنَافِعًا لِلْإِنْسَانِ وَعَدُوِّهِ. فَمِثَالُ مَا هُوَ نَافِعٌ لِكِلَيْهِمَا وَيُسَرُّ بِهِ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مُفَارَقَةُ ٱلْعَدُوِّ عَدُوَّهُ إِذَا كَانَتْ بَعْدَ مُقَاتَلَةٍ شَدِيدَةٍ بَيْنَهُمَا وَمُقَاوَمَةٍ أَشْفَى كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى ٱلْعَطَبِ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَظْفَرَ أَحَدُهُمَا بِصَاحِبِهِ فَإِنَّهُمَا إِذَا ٱفْتَرَقَا فِي إِثْرِ هٰذِهِ ٱلْحَالِ سُرَّ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا بِٱلْإِفْتِرَاقِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يَكُونُ ٱلنَّافِعُ

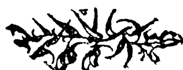
نافعًا للأعداء أيضًا . وأمّا ما هو ضارٌّ لكليهما فكثيرًا ما يوجب صداقة العدوّ . وذلك إذا كانا متساويين في نزول الشرّ الوارد بهما من غير أن يفضل أحدهما في ذلك صاحبه . وكثيرٌ من الأمم المختلفة كان اتفاقهم بهذا السبب ولذلك قيل إنّ الشرّ قد يجمع الناس فهذا أيضًا أحد ما يكون به الشرّ نافعًا أعني أن يكون الضرّ النازل بالإنسان نازلًا بعدوّه . فإنّ ذلك يوجب صداقة العدوّ وحينئذ يهوى العدوّ الوارد ضدّ ما يهواه كلّ واحدٍ من المتعاديين اللذين ورد عليهما العدوّ من خارجٍ . وذلك أنّ كلّ واحدٍ من المتعاديين يهوى صداقة صاحبه لمكان تعاونهما على العدوّ الوارد عليهما من خارجٍ . والعدوّ الوارد يهوى بقاء عداوتهما على حالها أو تأكّدها . وأرسطو يقول : ولذلك كثيرًا ما تنفق النفقات العظيمة وتفعل الأفعال الكثيرة في مثل هذا الخير الذي يدفع به الشرّ العظيم وإنّما تطيب النفس بالنفقات في مثل هذه الأشياء لظهور ما يلزم عنها من الغاية المطلوبة وقربها حتّى كأنّها إذا وجدت هذه الأشياء وجدت الغاية . وقد يكون الشرّ المفرط النازل بالعدوّ أيضًا سببًا للاعتراف بالخير اليسير الذي ناله من عدوّه ولولاه لم يعترف به العدوّ . مثل ما حكى أرسطو أنّه عرض لبعض الملوك الذين كانوا أعداء اليونانيّين أنّه اشتدّت محاربتهم له وحصرهم إيّاه سنين كثيرة وقتلوا في ذلك الحصار ابنه فسألهم أن يعطوه جثّته ليحرقها على عادتهم في موتاهم ففعلوا

ذٰلِكَ فَشَكَرَهُمْ عَلَى ذٰلِكَ وَاَظهر شُكْرَهُمْ عِنْدَ جَمِيعِ قَوْمِهِ وَاَهلِ مَدِينَتِهِ . فَلَوْلَا مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ ٱلشَّرِّ ٱلْعَظِيمِ لَمَا شَكَرَهُمْ عَلَى هٰذَا ٱلشَّيْءِ ٱلْيَسِيرِ ٱلَّذِي سَمَحُوا لَهُ بِهِ كَمَا قَالَ ذٰلِكَ اُومِيرُوسُ ٱلشَّاعِرُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلِاصْطِنَاعَاتِ ٱلنَّافِعَةِ وَٱلْاَفعَالِ ٱلَّتِي يَعْظُمُ قَدْرُهَا عِنْدَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ فَيَصِيرُ بِهِ ٱلْمُصْطَنِعُ اِلَى خَيْرٍ عَظِيمٍ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ اِلَيْهِمْ اَنْ يَخْتَارَ ٱلْاِنْسَانُ اِنْسَانًا عَظِيمَ ٱلْقَدْرِ مِنْ جِنْسٍ مَا مِنَ ٱلنَّاسِ لَهُ اَيْضًا عَدُوٌّ عَظِيمُ ٱلْقَدْرِ فِي جِنْسٍ آخَرَ مِنَ ٱلنَّاسِ فَيَفْعَلَ بِعَدُوِّ ذٰلِكَ ٱلْاِنْسَانِ ٱلشَّرَّ وَبِاَصْدِقَائِهِ ٱلْخَيْرَ . مِثْلَ مَا عَرَضَ لِاُومِيرُوشَ مَعَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَاَعْدَائِهِمْ فَاِنَّهُ قَصَدَ اِلَى عَظِيمٍ مِنْ عُظَمَاءِ ٱلْيُونَانِيِّينَ فِي ٱلْقَدِيمِ وَخَصَّهُ بِٱلْمَدْحِ وَاَصْدِقَاءَهُ مِنَ ٱلْيُونَانِيِّينَ . وَخَصَّ عَدُوًّا لَهُ عَظِيمًا بِٱلْهَجْوِ هُوَ وَقَوْمَهُ ٱلْمُعَادِينَ لِلْيُونَانِيِّينَ فِي حُرُوبٍ وَقَعَتْ بَيْنَهُمَا فَكَانَ رَبَّ ٱلنِّعْمَةِ ٱلْعَظِيمَةِ بِذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ وَعَظَّمُوهُ كُلَّ ٱلتَّعْظِيمِ حَتَّى اَعْتَقَدُوا فِيهِ اَنَّهُ كَانَ رَجُلًا اِلٰهِيًّا وَاَنَّهُ كَانَ ٱلْمُعَلِّمَ ٱلْاَوَّلَ لِجَمِيعِ ٱلْيُونَانِيِّينَ . وَبِٱلْجُمْلَةِ فَفِعْلُ ٱلشَّرِّ بِٱلْاَعْدَاءِ وَٱلْخَيْرِ بِٱلْاَصْدِقَاءِ مِنَ ٱلْاُمُورِ ٱلنَّافِعَةِ . وَمِنْ شَرْطِ هٰذَا ٱلْفِعْلِ ٱلَّذِي يَعْظُمُ مَوْقِعُهُ اَنْ يَكُونَ مَا فُعِلَ مِنْهُ يُرَى اَنَّهُ لَمْ يُمْكِنِ ٱلْفَاعِلَ وَلَا تَيَسَّرَ لَهُ غَيْرُهُ وَسَوَاءٌ كَانَ ٱلْفِعْلُ كَثِيرًا فِي نَفْسِهِ اَوْ يَسِيرًا وَاَنْ يُظَنَّ اَنَّ فِعْلَهُ لَمْ يَكُنْ لِمَكَانِ خَوْفٍ وَلَا شَيْءٍ يَرْجُوهُ بَلْ لِاَنَّ شَوْقَهُ وَهَوَاهُ قَادَهُ اِلَى ذٰلِكَ فَاِنَّ بِهٰذَا يَكُونُ ٱلْفِعْلُ مُدَاوَمًا عَلَيْهِ مِنَ ٱلْفَاعِلِ وَهُوَ ٱلسَّهْلُ عَلَيْهِ لِاَنَّ

ٱلْأَفعالَ ٱلَّتي تَكُونُ مِنْ اَجلِ خوفٍ إِنَّمَا تَكُونُ غيرَ شاقَّةٍ زَمانًا يسيرًا وَإِذَا طالَ بِها ٱلزَّمانُ كانَتْ شاقَّةً فَٱنقطعَتْ وَإِذَا ٱنقطعَتْ كانَ مِنْ ذٰلِكَ عداوةٌ مِنَ ٱلْمُصْطَنِعِ إِلَيْهِ لِلْمُصْطَنِعِ. فَلِذٰلِكَ يُشْتَرَطُ فِي هٰذَا ٱلفعلِ اَنْ يَكُونَ سَهلًا عَلَى ٱلْفَاعِلِ فَهٰذِهِ هِيَ شُرُوطُ ٱلِٱبْتِدَاءِ بِٱلصَّنائِعِ ٱلَّتي يَعظُمُ مَوقِعُها ويُوجَدُ نَفعُها. وَامّا ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتي لَا يَعظُمُ مَوقِعُها فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتي لَا تَكُونُ بِحَسَبِ مَا يَهْوَى ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبعِ مِنْ اَكْثَرِ ٱلنَّاسِ وَهُوَ اَنْ تَكُونَ نَاقِصَةً عَنِ ٱلصَّنيعَةِ ٱلَّتي اُسْدِيَتْ إِلَيْهِ إِمَّا فِي ٱلْكَمِّيَّةِ وَإِمَّا فِي ٱلْمَنْفَعَةِ وَإِمَّا لِأَنَّهَا قَدْ فَضَلَتْ عِنْدَ ٱلْمُكَافِئِ وَلَيْسَ يَحْتَاجُ إِلَيْهَا وَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلَّتي يُغَالَطُ فِيهَا وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْمُكَافِئُ بِٱلطَّبْعِ ٱلَّذِي يَشْتَهِي اَنْ تَكُونَ مُكَافَاتُهُ بِاَحَدِ هٰذِهِ ٱلثَّلاثَةِ ٱلْأَحْوَالِ لِأَنَّ ٱلْمُكَافِئَ كَأَنَّهُ مَقْصُورٌ عَلَى ٱلْإِعْطَاءِ فَهُوَ إِنَّمَا يَشْتَهِي إِمَّا أَلَّا يَلْحَقَهُ نَقْصٌ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ وَإِمَّا اَنْ يَكُونَ ٱلنَّقْصُ اَقَلَّ مِنَ ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي وَصَلَ إِلَيْهِ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ بَلْ كَانَتْ مُقَارِنَةً لِلصَّنيعَةِ إِمَّا فِي ٱلْجِنْسِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلدَّنَانِيرِ بِدَرَاهِمَ وَإِمَّا فِي ٱلْقُوَّةِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمَالِ بِكَرَامَةٍ يُقْتَنَى بِهَا مِثْلُ ذٰلِكَ ٱلْمَالِ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْعَادِلَةُ لٰكِنَّهَا سُوقِيَّةٌ. فَإِذَا لَمْ تَكُنِ ٱلْمُكَافَاةُ لَا سُوقِيَّةً وَلَا فِيهَا غَبْنٌ بَلْ كَانَ ٱلْمُكَافِئُ يُعْتَقَدُ فِيهِ اَنَّهُ لَيْسَ ٱخْتِيَارُهُ فِي ٱلْمُكَافَاةِ لِمَا هُوَ اَنْقَصُ اَكْثَرَ مِنِ ٱخْتِيَارِهِ لِمَا هُوَ

أَزْيَدُ وَسَوَاءٌ وَقَعَتْ مُكَافَاتُهُ بِمَا هُوَ أَنْقَصُ أَوْ بِمَا هُوَ مُسَاوٍ. أَوْ بِمَا هُوَ شَبِيهٌ فَهِيَ ٱلْمُكَافَاةُ ٱلْجَمِيلَةُ لِأَنَّ مُكَافَاتَهُ بِالْأَنْقَصِ لَمْ تَكُنْ مِنْهُ بِٱخْتِيَارٍ لِذَلِكَ بَلْ لِأَنَّهُ لَمْ يَتَيَسَّرْ ذَلِكَ فَإِذَا ٱتَّفَقَ أَنْ يَكُونَ مَعَ هٰذَا ذَلِكَ ٱلْفَضْلُ مِمَّا يَسُرُّ بِهِ ٱلْأَصْدِقَاءَ أَعْنِي أَصْدِقَاءَ ٱلْمُكَافِىءِ بِٱلْفِعْلِ وَيَسُوءُ أَعْدَاءَهُ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا مُتَعَجَّبًا مِنْهُ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ. وَذَلِكَ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَنْ صَدَرَ عَنْهُ عَظِيمٌ. وَقْعُهُ مِنَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ وَبِخَاصَّةٍ إِذَا كَانَتِ ٱلصَّنِيعَةُ مِمَّا تُوَافِقُ شَهْوَةَ ٱلْمُصْطَنَعِ إِلَيْهِ مِثْلَ أَنْ يُكَافِئَ أَوْ يَبْدَأَ مُحِبَّ ٱلْكَرَامَةِ بِٱلْكَرَامَةِ وَمُحِبَّ ٱلْمَالِ بِٱلْمَالِ وَمُحِبَّ ٱلْغَلَبَةِ بِٱلْغَلَبَةِ فَإِنَّ هٰذِهِ ٱلصَّنِيعَةَ لَيْسَتْ هِيَ لَذِيذَةً فَقَطْ عِنْدَ ٱلَّذِي تُصْطَنَعُ إِلَيْهِ أَوْ يُكَافَأُ بِهَا بَلْ هِيَ عِنْدَهُ فَاضِلَةٌ وَكَذَلِكَ ٱلْأَمْرُ فِي سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلْخَيْرَاتِ وَإِنَّمَا تَكُونُ أَفْعَالُ ٱلصَّنَائِعِ وَٱلْمُكَافَاةُ عَلَى ٱلْمُبْتَدِىءِ وَٱلْمُكَافِىءِ أَفْعَالًا سَهْلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُدَاوِمُوا عَلَيْهَا مَتَى كَانُوا بِٱسْتِعْدَادِهِمِ ٱلطَّبِيعِيِّ مُهَيَّئِينَ لِتِلْكَ ٱلْأَفْعَالِ وَكَانَتْ قَدْ حَصَلَتْ لَهُمُ ٱلْمَلَكَةُ ٱلَّتِي بِهَا تَصْدُرُ مِنْهُمْ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَمِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا لَيْسَ تُنْقِصُ ٱلْمُصْطَنِعَ شَيْئًا ٱلِٱصْطِنَاعَ بِٱلتَّأْدِيبِ وَٱلْمَوْعِظَةِ



البحث التاسع

في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَمِنْ هٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ يَأْخُذُ ٱلْخَطِيبُ ٱلْمُقَدَّمَاتِ ٱلَّتِي مِنْهَا يُقْنِعُ انَّ ٱلشَّيْءَ نَافِعٌ اوْ غَيْرُ نَافِعٍ. وَمِنْ اجْلِ انَّ ٱلْخَطِيبَ قَدْ يَعْتَرِفُ احْيَانًا بِانَّ ٱلْامْرَ نَافِعٌ وَلٰكِنْ يَدَّعِي انَّ هَا هُنَا شَيْئًا هُوَ انْفَعُ فَقَدْ يَحْتَاجُ انْ تَكُونَ عِنْدَهُ مَوَاضِعُ يَقْدِرُ انْ يُبَيِّنَ بِهَا انَّ ٱلْامْرَ انْفَعُ وَافْضَلُ. فَمِنْهَا انَّ مَا كَانَ نَافِعًا فِي كُلِّ ٱلْاشْيَاءِ فَهُوَ انْفَعُ مِمَّا هُوَ نَافِعٌ فِي بَعْضِ ٱلْاشْيَاءِ. وَٱلَّذِي هُوَ ادْوَمُ نَفْعًا هُوَ انْفَعُ مِنَ ٱلَّذِي هُوَ اقْصَرُ نَفْعًا. وَٱلَّذِي هُوَ اكْبَرُ هُوَ انْفَعُ مِنَ ٱلْاصْغَرِ. وَٱلَّذِي هُوَ اكْثَرُ هُوَ انْفَعُ مِنَ ٱلْاقَلِّ. وَٱلَّذِي جَمَعَ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ ٱلْكَثْرَ اوْ جَمَعَ صِفَاتِهِ كُلَّهَا فَهُوَ انْفَعُ. وَصِفَاتُ ٱلْخَيْرِ ٱلتَّامِّ هُوَ انْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ مُخْتَارًا مِنْ اجْلِ نَفْسِهِ لَا مِنْ اجْلِ غَيْرِهِ وَانْ يَكُونَ مُتَشَوَّقًا عِنْدَ ٱلْكُلِّ وَانْ يَكُونَ ذَوُو ٱلْفَضْلِ وَٱللُّبِّ يَخْتَارُونَهُ وَٱلَّذِي جَمَعَ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ كُلَّهَا اوْ اكْثَرَهَا فَهُوَ ٱلْخَيْرُ وَٱلنَّافِعُ ٱلَّذِي فِي ٱلْغَايَةِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ لِسَائِرِ ٱلْاشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوصَفُ بِٱلْخَيْرِ. وَٱلْاشْيَاءُ ٱلْمُتَّصِفَةُ بِٱلْخَيْرِ ٱلْمُتَعَلِّقَةُ بِهٰذَا ٱلْخَيْرِ ٱلَّذِي

جَمعَ هٰـذِهِ ٱلصِّفَاتِ إِنَّمَا يُقَالُ فِيهَا أَنَّهَا أَنفَعُ إِذَا وُجِدَ فِي وَاحِدٍ مِنْهَا صِفَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ هٰذِهِ ٱلصِّفَاتِ أَوْ أَكْثَرُ مِنْ صِفَةٍ وَاحِدَةٍ. وَكُلُّ مَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءِ تُوجَدُ فِيهِ صِفَاتٌ أَكْثَرُ مِنْ صِفَاتِ ٱلْخَيْرِ فَهُوَ أَنفَعُ مَا لَمْ تَكُنِ ٱلصِّفَةُ ٱلْوَاحِدَةُ أَنفَعَ مِنِ ٱثْنَتَيْنِ أَوْ مِنْ ثَلَاثٍ. وَأَيضًا فَمَا كَانَ ٱلعَظِيمُ فِيهِ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَظِيمِ فِي جِنْسٍ آخَرَ فَٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي فِيهِ ٱلْعَظِيمُ ٱلأَفْضَلُ هُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلآخَرِ وَمَا كَانَ ٱلْجِنْسُ مِنْهُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلأَفْضَلِ فَٱلعَظِيمُ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلأَفْضَلِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعَظِيمِ مِنَ ٱلْجِنْسِ ٱلآخَرِ وَهُوَ عَكْسُ ٱلأَوَّلِ. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلإِنَاثِ فَٱلرَّجُلُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ وَإِنْ كَانَ ٱلرَّجُلُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْمَرْأَةِ فَٱلذُّكْرَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلإِنَاثِ. وَإِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْعَظِيمِ إِلَى جِنْسِهِ هِيَ كَنِسْبَةِ ٱلعَظِيمِ ٱلآخَرِ إِلَى جِنْسِهِ فَتَكُونُ نِسْبَةُ ٱلْجِنْسِ إِلَى ٱلْجِنْسِ هِيَ نِسْبَةُ ٱلْعَظِيمِ إِلَى ٱلعَظِيمِ. ثُمَّ إِذَا كَانَ ٱلشَّيْءُ لَازِمًا لِشَيْءٍ مَا وَٱلآخَرُ غَيْرَ لَازِمٍ لَهُ فَإِنَّ ٱلَّذِي يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ آثَرُ مِنَ ٱلَّذِي لَا يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلشَّيْءُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ وَٱلثَّرْوَةُ فَإِنَّ ٱلثَّرْوَةَ تَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانَ وَلَيْسَ يَلْزَمُ ٱلسُّلْطَانُ ٱلثَّرْوَةَ. فَلِذٰلِكَ ٱلسُّلْطَانُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلثَّرْوَةِ وَكَذٰلِكَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْمَضَارِّ فَإِنَّ ٱلفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ ٱلْبُخْلُ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ ٱلْفَقْرُ. فَٱلفَقْرُ أَكْثَرُ شَرًّا مِنَ ٱلْبُخْلِ وَٱللَّازِمُ يُوجَدُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ: إِمَّا أَنْ يُوجَدَا مَعًا أَعْنِي ٱللَّازِمَ وَٱلْمَلْزُومَ مِثْلُ وُجُودِ ٱلأَبْيَضِ وَٱلْبَيَاضِ

مَعًا وَمِثْلُ لُزُومِ ٱلْإِنْسَانِ وَٱلْحَيَوَانِ. وَإِمَّا أَنْ يُوجَدَ ٱللَّازِمُ تَابِعًا بِآخِرَةٍ مِثْلُ لُزُومِ ٱلْعِلْمِ عَنِ ٱلتَّعَلُّمِ. وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ تَلَازُمُهُمَا فِي ٱلْقُوَّةِ أَيْ يَكُونَ أَحَدُهُمَا يَفْعَلُ فِعْلَ ٱلْآخَرِ وَلَا يَنْعَكِسُ أَعْنِي أَلَّا يَفْعَلَ ٱلْآخَرُ فِعْلَ ٱلْأَوَّلِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْفَقْرُ وَٱلْبُخْلُ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَلْزَمُ عَنْهُ أَنْ يَفْعَلَ ٱلْإِنْسَانُ فِعْلَ ٱلْبُخْلِ وَلَيْسَ يَلْزَمُ عَنِ ٱلْبُخْلِ فِعْلُ ٱلْفَقْرِ فَإِنَّ ٱلْفَقْرَ يَعُوقُ عَنْ أَشْيَاءَ أَكْثَرَ مِنْ عَدَمِ ٱسْتِعْمَالِ ٱلْمَالِ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْبُخْلُ وَأَيْضًا ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْخَيْرَ ٱلْأَنْفَعَ هُوَ أَنْفَعُ مِنَ ٱلنَّافِعِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْجَلَدُ وَٱلْجَمَالُ فَإِنَّ كِلَيْهِمَا نَافِعٌ وَخَيْرٌ وَٱلْجَلَدُ يُفْعَلُ بِهِ خَيْرٌ أَعْظَمُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱلْجَمَالِ فَهُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا. وَكَذٰلِكَ ٱلصِّحَّةُ أَيْضًا أَعْظَمُ نَفْعًا مِنَ ٱللَّذَّةِ لِأَنَّ ٱلصِّحَّةَ يُفْعَلُ بِهَا خَيْرَاتٌ أَكْثَرُ مِمَّا يُفْعَلُ بِٱللَّذَّاتِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مُفْرَدًا أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلَّذِي لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ذٰلِكَ ٱلْمُخْتَارِ مُفْرَدًا. وَمِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلْجَمَالَ لَا يُخْتَارُ إِلَّا مَعَ ٱلصِّحَّةِ وَٱلصِّحَّةُ تُخْتَارُ دُونَ ٱلْجَمَالِ فَٱلصِّحَّةُ أَفْضَلُ نَفْعًا مِنَ ٱلْجَمَالِ. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا كَمَالٌ وَٱلْآخَرُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ فَٱلَّذِي هُوَ كَمَالٌ أَفْضَلُ. مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ وَٱللَّذَّةِ فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ كَمَالٌ وَٱللَّذَّةَ كَوْنٌ وَٱلْكَوْنُ طَرِيقٌ إِلَى ٱلْكَمَالِ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُخْتَارُ لِذَاتِهِ وَٱلْآخَرُ يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ فَٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ غَيْرِهِ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْحِكْمَةُ وَٱلْيَسَارُ فَإِنَّ ٱلْحِكْمَةَ تُخْتَارُ لِذَاتِهَا وَٱلْيَسَارَ يُخْتَارُ لِغَيْرِهِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلَّذِي يَجْعَلُ ٱلْمَرْءَ إِذَا ٱقْتَنَاهُ أَقَلَّ

حَاجَةً إِلَى أَصْدِقَائِهِ أَوْ إِلَى الإِنْسَانِ فَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّذِي يَجْعَلُهُ أَكْثَرَ حَاجَةً. فَإِنَّ مَنْ هُوَ أَكْثَرُ كِفَايَةً وَٱسْتِغْنَاءً عَنِ ٱلنَّاسِ هُوَ ٱلَّذِي يَحْتَاجُ إِلَى أَشْيَاءَ قَلِيلَةِ ٱلْعَدَدِ سَهْلٍ وُجُودُهَا. وَأَيْضًا إِذَا كَانَ شَيْئَانِ أَحَدُهُمَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلثَّانِي وَٱلثَّانِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ فَإِنَّ ٱلَّذِي لَا يُحْوِجُ ٱقْتِنَاؤُهُ إِلَى ٱلْآخَرِ هُوَ آثَرُ. مِثَالُ ذٰلِكَ ٱلْيَسَارُ وَٱلْبَنُونَ فَإِنَّ ٱلْبَنِينَ يُحْوِجُونَ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْمَالِ وَٱلْيَسَارُ لَيْسَ يُحْوِجُ إِلَى ٱقْتِنَاءِ ٱلْبَنِينَ فَٱلْيَسَارُ أَفْضَلُ نَفْعًا

(قَالَ) وَيَسْتَبِينُ أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لَيْسَ يَلْزَمُ أَنْ يَكُونَ أَعْظَمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ مَبْدَأٌ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِرَادَةَ مَبْدَأُ ٱلْخَيْرِ وَفِعْلُ ٱلْخَيْرِ أَعْظَمُ مِنْ إِرَادَةِ ٱلْخَيْرِ. وَكَذٰلِكَ ٱلتَّعَلُّمُ وَٱلْعِلْمُ وَإِنْ كَانَ لَيْسَ يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ ٱلشَّيْءُ ٱلنَّافِعُ دُونَ مَبْدَإٍ. وَإِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ وَاحِدُ ٱلْمَبْدَأَيْنِ أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي يَكُونُ عَنِ ٱلْمَبْدَإِ ٱلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَعَكْسُ هٰذَا أَيْضًا وَهُوَ إِذَا كَانَ شَيْئَانِ مَبْدَأَيْنِ لِشَيْئَيْنِ عَلَى أَنَّهُمَا فَاعِلٌ وَأَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ ٱلثَّانِي فَإِنَّ ٱلَّذِي هُوَ مَبْدَأٌ لِلْأَعْظَمِ أَعْظَمُ. وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ مَبْدَآنِ عَلَى أَنَّهُمَا غَايَةٌ وَإِذَا قِيسَ ٱلْمَبْدَأُ ٱلْفَاعِلُ إِلَى ٱلْغَايَةِ أَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْغَايَةِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْفَاعِلَ هُوَ ٱلَّذِي يَفْعَلُ ٱلْغَايَةَ وَلَوْلَا هُوَ لَمْ تُوجَدِ ٱلْغَايَةُ وَأَمْكَنَ أَنْ يُتَوَهَّمَ أَيْضًا أَنَّ ٱلْغَايَةَ أَعْظَمُ مِنَ ٱلْمَبْدَإِ. وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَوْلَا ٱلْغَايَةُ لَكَانَ ٱلْفَاعِلُ فَضْلًا. فَمِثَالُ مَا تُجْعَلُ ٱلْغَايَةُ فِيهِ أَعْظَمَ مِنَ ٱلْفَاعِلِ قَوْلُ مَنْ يَقُولُ فِي ٱلذَّمِّ: إِنَّ

فُلَانًا اولى بِانْ يُنسب الى الجَوْر في فِعْلِه كذا مِنْ فلانٍ الّذي اشار عَلَيه بذلك لِأنّه لو لم يكن منه ذلك الفعل اذ لو لم يفعل هو ذلك الفعل لم يقع ذلك الضرر. ومثال ما يجعل الفاعل فيه اعظم من الغاية قول القائل: فلانٌ احقّ بالشكر على هذا الفعل من فلانٍ لانّ فلانًا هو الّذي اشار عليه بذلك الفعل ولولا اشارتُه لم يكن ليفعل ذلك الفعل المحمود وفي كلا الموضوعين ما قبل الغاية انّما يفعل لمكان الغاية. وايضا فانّ الّذي وجوده اقلّ فهو افضل مثل الذهب والحديد غير انّه ان كان الذهب اقلّ وجودًا من الحديد فليس هو انفع. وايضا مقابل هذا وهو انّ ما كثُر وجوده فهو افضل ممّا قلّ وجوده لكثرة منافعه ومن هنا يقال انّ الماء خيرٌ لكثرة وجوده وعموم منافعه. وايضا فانّ ما هو اعسر وجودًا فهو افضل لانّ ما عسر وجوده قلّ وجوده وما قلّ وجوده فهو غريبٌ ويتنافس فيه. ومقابل هذا وهو انّ ما سهل وجوده فهو افضل لانّه يوجد في كلّ حين يتشوّق اليه. وايضا الشيء الّذي ضدّه اعظم فهو افضل. وايضا الّذي عدمه اشدّ ضررًا فهو انفع. وليس ينبغي ان يفهم ها هنا من الاعظم والاقلّ عظم المقايسة في الخير فقط بل وفي الشرّ وفيما هو لا خيرٌ ولا شرٌّ. وايضا فانّ الغايات والاشياء الّتي من اجلها تفعل الافعال اذا كانت الغايات بعضها ازيد خيرًا من بعض او ازيد شرًّا من بعض فانّ الامور المتقدّمة لتلك الغايات الازيد هي

أَزْيَدُ. وَأَيْضًا فَإِنَّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْمَلَكَاتِ وَٱلْفَضَائِلِ وَبِٱلْجُمْلَةِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ أَعْظَمُ فَإِنَّ أَفْعَالَهَا ٱلصَّادِرَةَ عَنْهَا تَكُونُ أَعْظَمَ لِأَنَّ نِسْبَةَ ٱلْأَفْعَالِ إِلَى مَبَادِئِهَا هِيَ نِسْبَةُ ٱلْمَبَادِئِ بَعْضِهَا إِلَى بَعْضٍ. فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ ٱلْبَصَرُ آثَرَ مِنَ ٱلشَّمِّ فَإِنَّ ٱلْإِبْصَارَ آثَرُ مِنَ ٱلشَّمِّ وَهٰكَذَا يُوجَدُ ٱلْأَمْرُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَفْعَالِ مَعَ أَسْبَابِهَا ٱلْفَاعِلَةِ لَيْسَ فِي ٱلذَّاتِيَّةِ فَقَطْ بَلْ وَفِيمَا يَعْرِضُ عَنِ ٱلشَّيْءِ بِٱلْإِتِّفَاقِ فَإِنَّ ٱلْعَظِيمَ يَكُونُ ٱلْإِتِّفَاقُ ٱلَّذِي يَعْرِضُ لَهُ عَظِيمًا وَفِي ٱلْأَعْرَاضِ ٱلْمَوْجُودَةِ فِي ٱلشَّيْءِ أَعْنِي أَنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْأَعْظَمَ ٱلْعَرَضُ ٱلْمَوْجُودُ فِيهِ أَعْظَمُ. وَأَيْضًا أَنْ يُحِبَّ ٱلْإِنْسَانُ صَاحِبُ ٱلْمَالِ أَفْضَلُ مِنْ أَنْ يُحِبَّ ٱلْمَالَ لِأَنَّ حُبَّ ٱلْإِنْسَانِ أَفْضَلُ مِنْ حُبِّ ٱلْمَالِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْفَضَائِلَ أَفْضَلُ مِنْ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي شَهْوَتُهَا فَاضِلَةٌ أَفْضَلُ مِنَ ٱلَّتِي شَهْوَتُهَا غَيْرُ فَاضِلَةٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ شَهْوَةَ ٱلْعُلُومِ فَاضِلَةٌ وَشَهْوَةَ ٱلْأَكْلِ وَٱلشُّرْبِ غَيْرُ فَاضِلَةٍ فَٱلْعُلُومُ أَفْضَلُ مِنَ ٱلْأَكْلِ وَٱلشُّرْبِ. وَأَيْضًا عَكْسُ هٰذَا وَهُوَ أَنَّ مَا هُوَ أَفْضَلُ فَشَهْوَتُهُ أَفْضَلُ مِثْلَ أَنَّ ٱلْحِكْمَةَ أَفْضَلُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فَشَهْوَتُهَا أَفْضَلُ مِنْ شَهْوَةِ ٱلصِّحَّةِ. وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْعُلُومَ ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ وَأَفْضَلُ فَأَفْعَالُهَا خَيْرٌ وَأَفْضَلُ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَتِ ٱلْعُلُومُ ٱلْعِلْمِيَّةُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَمَلِيَّةِ كَانَ فِعْلُهَا ٱلَّذِي هُوَ ٱلصِّدْقُ أَفْضَلَ مِنَ ٱلَّتِي فِعْلُهَا ٱلْعَمَلُ. وَعَكْسُ هٰذَا وَهُوَ أَنَّ ٱلَّتِي فِعْلُهَا أَفْضَلُ مِنَ ٱلْعُلُومِ فَهِيَ أَفْضَلُ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلْحَقِّ لَمَّا كَانَ أَفْضَلَ مِنَ ٱلْعَمَلِ كَانَتِ

اَلصَّنائِعُ ٱلعِلمِيَّةُ اَفضَلَ مِنَ ٱلعَمَلِيَّـةِ وَاِنَّمَا كَانَا هٰذَانِ ٱلمَوْضِعَانِ مُتَلَازِمَيْنِ لِاَنَّ نِسبَةَ ٱلصِّنَاعَةِ اِلَى ٱلصِّنَاعَةِ هِيَ نِسبَةُ فِعلِهَا اِلَى فِعلِهَا

(قَالَ) وَٱلَّذِي يَحكُمُ بِهِ ٱلكُلُّ مِنَ ٱلجُمهُورِ اَوِ ٱلاَكثَرُ اَوْ ذَوُو ٱلاَلبَابِ وَٱلاَخيَارُ ٱلصَّالِحُونَ اَنَّهُ خَيرٌ وَاَفضَلُ فَهُوَ اَفضَلُ بِاِطْلَاقٍ وَفِي نَفسِهِ اِذَا كَانَ حُكمُهُمْ فِي ٱلاَشيَاءِ بِحَسَبِ فِطَرِهِمْ وَكَانُوا ذَوِي لُبٍّ لَا بِحَسَبِ مَا ٱستَفَادُوهُ مِنَ ٱلآرَاءِ مِنْ خَارِجٍ. فَاِنَّ ذَوِي ٱلاَلبَابِ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ يَقُولُونَ بِفِطَرِهِمْ فِي ٱلفَضَائِلِ وَٱلخَيرَاتِ مَا هِيَ وَكَمْ هِيَ وَعِندَ اَيِّ شَيْءٍ هِيَ وَاِنْ كَانَ مَا يَقِفُونَ عَلَيـهِ بِفِطَرِهِمْ دُونَ مَا يُوقَفُ عَلَيهِ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلعُلُومِ. وَمَا قِيلَ فِي حَدِّ ٱلخَيرِ مِنْ اَنَّهُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ اِنَّمَا يُرَادُ بِذٰلِكَ ٱلخَـيرُ ٱلَّذِي يَتَشَوَّقُهُ ٱلكُلُّ بِحَسَبِ فِطَرِهِمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ اَعنِي ٱللَّبِيبَةَ فَاِنَّ مَا تَتَشَوَّقُهُ ٱلفِطَرُ ٱللَّبِيبَةُ بِمَا هِيَ فِطَرٌ لَبِيبَةٌ هُوَ خَيرٌ مُطلَقٌ اَوْ خَيرٌ اَفضَـلُ مِنْ خَيرٍ مِثلُ عِلمِهِمْ اَنَّ ٱلشَّجَاعَةَ وَٱلاَدَبَ وَٱلجَلَدَ خَيرَاتٌ وَتَشَوُّقِهِمْ اِيَّاهَا. وَاَمَّا ٱلَّذِي هُوَ خَيرٌ بِٱلاِضَافَةِ اِلَى اِنسَانٍ مَا مِثلُ مَنْ يُرَى مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلفَاضِلِينَ اَنَّهُ اَنْ يُجَارَ عَلَيهِ اَفضَلُ مِنْ اَنْ يَجُورَ هُوَ فَاِنَّ هٰذَا ٱلخَيرَ لَا يُدرِكُهُ ٱلنَّاسُ بِحَسَبِ طِبَاعِهِمْ وَاِنَّمَـا يُرَى هٰذَا ٱلرَّأْيُ ٱلَّذِي هُوَ مِنَ ٱلنَّاسِ فِي غَايَةِ ٱلعَدلِ وَٱلفَضلِ. وَاَيضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلخَيرَاتِ مَعَـهُ اَكثَرُ لَذَّةً فَهُوَ آثَرُ. وَاِنَّمَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ لِاَنَّ ٱلكُلَّ مِنَ ٱلجُمهُورِ يَبتَـدِرُونَ اِلَى ٱللَّذَّةِ وَيَطلُبُونَهَا وَطَلَبُهُمُ ٱللَّذَّةَ هُوَ مِنْ اَجلِ ٱللَّذَّةِ نَفسِهَا لَا مِنْ اَجلِ شَيْءٍ آخَرَ غَـيرِهَا. وَمَا

كَانَ بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ اعني مُتَشوَّقًا لِلْكُلِّ فَقَدْ قِيلَ اِنَّهُ ٱلْخَيْرُ وَٱلْغَايَةُ فَٱللَّذَّةُ اِذَنْ خَيْرٌ وَٱلْازْيَدُ لَذَّةً هِيَ ٱلْمَلَذَّاتُ ٱلَّتِي هِيَ ابْرَأُ مِنَ ٱلْاذَى وَٱلْحُزْنِ وَادْوَمُ بَقَاءً.وَٱللَّذَّةُ ٱلْجَمِيلَةُ ٱلَذُّ مِنَ ٱللَّذَّةِ ٱلْقَبِيحَةِ لِانَّ ٱلْجَمِيلَ مِمَّا قَدْ يُخْتَارُ بِذَاتِهِ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ لَذِيذًا وَهُوَ مِنَ ٱلْاشْيَاءِ ٱلَّتِي يَخْتَارُ ٱلْمَرْءُ انْ يَكُونَ عِلَّةً لِكَوْنِهِ اِمَّا لِنَفْسِهِ وَاِمَّا لِصَدِيقِهِ.وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْاشْيَاءِ ٱلْمَلَذَّةِ افْضَلَ فَهُوَ ٱلَذُّ مِمَّا هُوَ اخَسُّ وَكُلُّ مَا هُوَ مِنْهَا اطْوَلُ مُدَّةً فَهُوَ ٱلَذُّ مِنَ ٱلَّتِي هِيَ مِنْهَا اقْصَرُ مُدَّةً وَكُلُّ مَا كَانَ مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ اثْبَتَ فِينَا فَهُوَ ٱلَذُّ مِمَّا هُوَ اقَلُّ ثَبَاتًا وَذٰلِكَ انَّ ٱلصِّحَّةَ لَمَّا كَانَتْ ارْسَخَ فِينَا مِنَ ٱلْجَمَالِ كَانَ وُجُودُ ٱلصِّحَّةِ لَنَا ٱلَذَّ مِنْ وُجُودِ ٱلْجَمَالِ . وَٱلْاشْيَاءُ ٱللَّذِيذَةُ او ٱلْاكْثَرُ لَذَّةً اِنَّمَا ٱلسَّبَبُ فِي وُجُودِهَا لَنَا بِهٰذِهِ ٱلصِّفَةِ احَدُ امْرَيْنِ اِمَّا طُولُ ٱعْتِيَادِ ٱلشَّيْءِ حَتَّى يَصِيرَ لَنَا ٱلِالْتِذَاذُ بِهِ مِنْ قِبَلِ ٱلْعَادَةِ كَٱلْحَالِ فِي ٱللَّذَّةِ ٱلْحَاصِلَةِ عَنِ ٱلْعِلْمِ . وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ انَّهَا لَذِيذَةٌ جِدًّا عِنْدَنَا بِٱلطَّبْعِ وَٱلْهَوَى فَٱلْاشْيَاءُ اِذَنْ اِنَّمَا تَصِيرُ اكْثَرَ لَذَّةً اِمَّا مِنْ قِبَلِ طُولِ ٱلزَّمَانِ وَاِمَّا مِنْ قِبَلِ ٱلْهَوَى وَٱلْمُوَافَقَةِ ٱلَّتِي بِٱلطَّبْعِ.وَجَمِيعُ ٱلْاشْيَاءِ ٱلَّتِي تُلَائِمُ هَوَانَا مُلَائِمَةً اكْثَرَ فَانَّ مَنْفَعَتَهَا لَنَا اِنَّمَا تَكُونُ فِي رُسُوخِهَا وَثُبُوتِهَا. وَقَدْ تُؤْخَذُ مُقَدَّمَاتُ ٱلْانْفَعِ وَٱلْافْضَلِ مِنْ مَوَاضِعِ ٱلنَّظَائِرِ وَٱلتَّصَارِيفِ . وَذٰلِكَ انَّهُ اِنْ كَانَتِ ٱلشَّجَاعَةُ آثَرَ مِنَ ٱلْعَفَافِ فَٱلرَّجُلُ ٱلشُّجَاعُ آثَرُ مِنَ ٱلرَّجُلِ ٱلْعَفِيفِ

(قَالَ) وَمَا ٱخْتَارَهُ ٱلْكُلُّ آثَرُ مِمَّا لَا يَخْتَارُهُ ٱلْكُلُّ مِنَ

الجمهور وما اختاره ايضا كثير من الناس آثر مما يختاره القليل من الناس فان الخير كما قيل هو الذي يشتاق اليه الكل . وما اختاره ايضا الحكام الاول اعني الذين لا يأخذون الاحكام من غيرهم وهم الشرّاع افضل مما لم يختاروه . وما اختاره ايضا الذين يتلقون الاحكام من هؤلاء افضل مما ليس يختاره هؤلاء . والذين يتلقون الاحكام من الحكام الاول وهم الذين تؤخذ عنهم اصول الاحكام صنفان اما سامع فقط مبلغ واما سامع عالم اي قادر على ان يستنبط من تلك الاصول احكاما ما لم يصرح بها الحكام الاول . وهؤلاء صنفان اما مسلطون من قبل الحكام الاول وهم القضاة وما اشبههم واما غير مسلطين وهم الفقهاء . ومن هذه الاشياء ما لجميع اصناف المتلقين من الحكام الاول ان يقولوا فيها . وهو ما سمعوه او ما شاهدوه من الحاكم الاول ومنها ما يختص بذوي العلم منهم وهو القول في الاشياء التي تستنبط عن الاحكام الاول التي صرح بها الحاكم الاول وليس للسامعين دون علم ان يقولوا في هذه الاشياء . واما الذي يخص الحكام الاول القول فيه فهي الاصول التي تتنزل منزلة المبادئ لسائر ما يحكم به السامعون ذوو العلم اعني المسلطين والفقهاء وهي التي يسميها ارسطو الامور العظمى . والفضلاء الابرار الذين جرت العادة ان يأخذ عنهم الجميع او الاكثر فحكمهم افضل فان عدم الاخذ قد يخيل هوانا ونقصا في المرء الفاضل البر

وَقِلَّةَ قَبُولٍ لِقَوْلِهِ وَقَدْ يُخَيَّلُ ٱلْأَمْرُ بِعَكْسِ هٰذَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ رُبَّمَا كَانَ هٰؤُلَاءِ ٱلْأَبْرَارُ ٱلْفَاضِلُونَ مَقْبُولِي ٱلْقَوْلِ مَعَ أَنَّهُ لَمْ يَأْخُذْ أَحَدٌ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ عَنْهُمْ أَصْلًا شَيْئًا أَوْ إِنَّمَا أَخَذَ عَنْهُمْ قَلِيلٌ . وَذٰلِكَ أَنَّ أَقَاوِيلَ هٰؤُلَاءِ قَدْ يُظَنُّ بِهَا أَنَّهَا مَقْبُولَةٌ بِجِهَةٍ أُخْرَى وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ ٱلْمَرْضِيُّ عِنْدَ ٱلْجُمْهُورِ مَنْ لَيْسَ مَرْضِيًّا فِي نَفْسِهِ وَٱلْأَقَلَّ مِنَ ٱلْجُمْهُورِ وَهُمْ ذَوُو ٱلتَّمْيِيزِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْفَاضِلِينَ ٱلَّذِينَ كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ هُمْ مَمْدُوحُونَ أَكْثَرَ وَهُمْ أَقَلُّ وُجُودًا وَأَعَزُّ لِأَنَّهُمْ إِنَّمَا كَتَمُوا فَضَائِلَهُمْ عَنِ ٱلْجُمْهُورِ لِمَا خَافُوا أَنْ يَلْحَقَهُمْ مِنَ ٱلْكَرَامَاتِ وَٱلرِّئَاسَاتِ ٱلَّتِي يُخَافُ إِذَا لَحِقَتِ ٱلْمَرْءَ أَنْ تَكُونَ سَبَبًا لِأَنْ تَكُونَ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ٱللَّاحِقَةُ لِلْفَضَائِلِ هِيَ ٱلْمَقْصُودَةَ عِنْدَهُ بِٱلْفَضَائِلِ . فَمِنْ هَا هُنَا صَارَتْ أَقْوَالُ هٰذَا ٱلصِّنْفِ مَقْبُولَةً كَمَا صَارَتْ أَقْوَالُ ٱلصِّنْفِ ٱلْأَوَّلِ ٱلْمُضَادِّ لِهٰذَا مَقْبُولَةً وَهُمُ ٱلَّذِينَ أَخَذَ عَنْهُمُ ٱلْجُمْهُورُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلصِّنْفِ ٱلْمَقْبُولِ ٱلْقَوْلِ مِنَ ٱلنَّاسِ جِدًّا جِدًّا ٱلصِّنْفُ ٱلَّذِينَ كَرَامَاتُهُمْ أَعْظَمُ لِأَنَّ ٱلْكَرَامَةَ لَمَّا كَانَتْ مُكَافَأَةَ ٱلْفَضِيلَةِ كَانَ ٱلْمَرْءُ كُلَّمَا عَظُمَتْ كَرَامَتُهُ ظُنَّ بِهِ أَنَّهُ قَدْ عَظُمَتْ فَضِيلَتُهُ . وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ نَالَتْهُمُ ٱلْمَضَرَّةُ ٱلْعَظِيمَةُ وَٱلشَّقَاءُ ٱلْكَبِيرُ لِمَكَانِ ٱلْفَضَائِلِ هُمْ أَيْضًا مَقْبُولُو ٱلْأَقْوَالِ جِدًّا جِدًّا بِمَنْزِلَةِ سُقْرَاطَ وَغَيْرِهِ وَٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلنَّاسِ ٱلَّذِينَ يُرَى فِيهِ هٰذَانِ ٱلصِّنْفَانِ مِنَ ٱلنَّاسِ أَعْنِي ٱلَّذِينَ كَرَامَتُهُمْ أَعْظَمُ وَٱلَّذِينَ نَالَهُمُ ٱلضَّرَرُ

ٱلكبير من قبل ٱلفضائل انهم فاضلون ويعترفون لهم بالفضل هم ايضًا افضل واعظم . فهؤلاء هم اصناف ٱلناس ٱلذين اذا ٱختاروا شيئًا وٱختار غيرهم سواه كان ما يختاره هؤلاء افضل وآثر

(قال) وقسمة ٱلشيء إلى جزئياته يخيل في ٱلشيء انه اعظم ولذلك لما اراد اوميروش ٱلشاعر ان يعظم ٱلشر ٱلذي لحق ٱلمدينة اخذ بدله جزئياته فذكر قتل ٱلاولاد وٱلنوح عليهم وحرق ٱلمدينة بالنار وغير ذلك من اصناف ٱلشرور ٱللاحقة لها

(قال) وكذلك ٱلتركيب قد يخيل في ٱلشيء انه اعظم وهو عكس . هذا اعني ان يؤخذ بدل ٱلجزئيات ٱلكلي ٱلذي يعمها وٱلسبب في ٱلاقناع في هذين ٱلصنفين هو ٱلتغيير وٱلابدال

(قال) ولما كانت ٱلاشياء ٱلاعسر وجودًا في نفسها وٱلاقل وجودًا يظن بها انها افضل كانت ٱلاشياء ٱلكثيرة ٱلوجود في نفسها وٱلسهلة ٱلوجود قد ترى عظيمة اذا وجدت في ٱلمواضع ٱلتي يقل فيها وجودها او في ٱلازمنة ٱلتي يقل وجودها فيها ايضًا او في ٱلاسنان من ٱلناس ٱلتي يقل وجودها فيها مثل وجود ٱلانسان خطيبًا في سن ٱلصبا او في ٱلمدد ٱلتي ليس من شأنها ان توجد فيه . ومثل من يفعل ما شأنه ان يفعل في زمان طويل في زمان قصير او تكون صادرة عن ٱلقوى ٱلتي يقل صدورها عنها مثل ان يفعل ٱلضعيف فعل ٱلقوي وٱلمريض فعل

ٱلصَّحِيحِ . وَكُلُّ هٰذِهِ وَأَشْبَاهُهَا مِمَّا يُصَيِّرُ ٱلْأَمْرَ ٱلَّذِي لَيْسَ بِعَظِيمٍ عَظِيمًا وَمُسْتَغْرَبًا . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلْجُزْءَ ٱلْعَظِيمَ مِنَ ٱلشَّيْءِ هُوَ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ أَعْظَمُ مِثْلُ ٱلْقَلْبِ مِنَ ٱلْحَيَوَانِ وَٱلدِّمَاغِ أَوِ ٱلرَّبِيعِ مِنَ ٱلسَّنَةِ وَٱلشَّبَابِ مِنَ ٱلْمَدِينَةِ . وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَ فِيمَا ٱلْحَاجَةُ إِلَيْهِ أَشَدُّ هُوَ أَعْظَمُ نَفْعًا وَٱلضَّارَّ فِيهِ أَكْثَرُ ضَرَرًا مِثْلُ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلشَّيْخُوخَةِ وَٱلْمَرَضِ فِيهَا . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ فِيهَا آثَرُ مِنَ ٱلصِّحَّةِ فِي ٱلصِّبَا وَٱلْمَرَضُ فِيهَا أَضَرُّ . وَأَيْضًا مَا كَانَ مِنَ ٱلْأَمْرَيْنِ أَقْرَبَ إِلَى ٱلْغَايَةِ فَهُوَ أَفْضَلُ . وَأَيْضًا مَا كَانَ فِي آخِرِ ٱلْعُمْرِ فَهُوَ أَفْضَلُ فَإِنَّ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي سَبِيلُهَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّاسِ فِي آخِرِ أَعْمَارِهِمْ هِيَ أَفْضَلُ مِثْلَ ٱلْحِكْمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي تَكْمُلُ مَعَ طُولِ ٱلْعُمْرِ . وَأَيْضًا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فُعِلَتْ أَوْ قُبِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا أَعْظَمَ مِنَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ لَمْ يَكُنْ فِعْلُهَا حَقِيقَةَ تَمَامِهَا . وَأَرِسْطُو يُسَمِّي ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ كَانَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ وَيُسَمِّي ٱلْآخَرَ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَ فِعْلُهَا حَقِيقَتَهَا

(قَالَ) وَحَدُّ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ أَنَّهَا ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ بِجَهْلٍ أَوْ بِغَلَطٍ لَمْ تُمْدَحْ أَصْلًا وَٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْحَقِيقَةُ هِيَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي كَيْفَ مَا فُعِلَتْ فَقَدْ حَصَلَتْ عَلَى ٱلتَّمَامِ

(قَالَ) وَلِذٰلِكَ كَانَ حُسْنُ قَبُولِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ آثَرَ مِنْ فِعْلِ ٱلشَّيْءِ ٱلْجَمِيلِ لِأَنَّ فِعْلَ ٱلْجَمِيلِ إِذَا فُعِلَ عَنْ غَلَطٍ أَوْ جَهْلٍ لَمْ يُقْبَلْ وَلَا مُدِحَ فَاعِلُهُ . وَأَمَّا حُسْنُ ٱلْاِنْفِعَالِ وَٱلْقَبُولِ فَكَيْفَ مَا

حَصَلَ فَقَدِ ٱسْتَفَادَ ٱلْخَيْرَ مِنْهُ ٱلْقَابِلُ لَهُ . وَأَيْضًا مَا أُوْثِرَ فِعْلُهُ لِنَفْسِهِ
وَإِنْ لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَحَدٌ آثَرُ مِمَّا لَا يُخْتَارُ إِلَّا مِنْ جِهَةِ مَا يُعْلَمُ كَٱلْحَالِ
فِي ٱلصِّحَّةِ وَٱلْجَمَالِ . فَإِنَّ ٱلصِّحَّةَ مُؤَثَّرَةٌ بِذَاتِهَا وَٱلْجَمَالَ مُؤَثَّرٌ لِلْغَيْرِ .
وَأَيْضًا فَإِنَّ ٱلنَّافِعَةَ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ فَهِيَ أَنْفَعُ كَٱلنَّافِعَةِ فِي طُولِ
ٱلْعُمْرِ وَفِي حُسْنِ ٱلْعَيْشِ أَعْنِي ٱلْعَيْشَ ٱلرَّغَدَ وَفِي ٱللَّذَّاتِ وَفِي
ٱصْطِنَاعِ ٱلْخَيْرَاتِ . وَلِذَٰلِكَ مَا يُظَنُّ بِٱلصِّحَّةِ وَٱلْيَسَارِ أَنَّهُمَا عَظِيمَانِ لِأَنَّهُمَا
يَجْمَعَانِ ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْحُزْنِ وَٱلْفِعْلَ بِلَذَّةٍ أَعْنِي أَنَّ ٱلصِّحَّةَ هِيَ سَبَبُ
ٱلْفِعْلِ بِلَذَّةٍ وَٱلْيَسَارَ سَبَبُ ٱلْخُلُوِّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ . وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنْ
هٰذَيْنِ عَلَى ٱلْإِنْفِرَادِ فَاضِلٌ وَمُخْتَارٌ بِنَفْسِهِ أَعْنِي ٱلْخُلُوَّ مِنَ ٱلْأَحْزَانِ
وَٱلْأَفْعَالَ ٱللَّذِيذَةَ فَإِذَا ٱجْتَمَعَا لِٱمْرِئٍ جَعَلَاهُ أَعْظَمَ مِنْ كُلِّ
شَيْءٍ سَوَاءٌ عَلِمَ ذَٰلِكَ مِنْ عِلْمِهِ أَوْ جَهِلَهُ مِنْ جَهْلِهِ لِأَنَّ هٰذِهِ
خَيْرَاتٌ مُسْتَفَادَةٌ بِٱلْحَقِيقَةِ لَا مِنَ ٱلْخَيْرَاتِ ٱلَّتِي يُتَعَمَّدُ بِهَا ٱلْمَدْحُ .
وَلِكَوْنِ ٱلْيَسَارِ سَبَبًا لِدَفْعِ ٱلْأَحْزَانِ ظَنَّ بِهِ أَنَّهُ ٱلسَّعَادَةُ قَوْمٌ
وَآخَرُونَ رَأَوْا أَنَّ ٱلسَّعَادَةَ هِيَ أَنْ يَقْتَرِنَ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ وَذٰلِكَ
وَاجِبٌ مِنْ قِبَلِ أَنَّهُ أَحْرَى أَنْ تَكُونَ ٱلسَّعَادَةُ ثَابِتَةً وَمَأْمُونَةَ
ٱلزَّوَالِ . فَإِنَّهُ لَيْسَ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ لِمَنْ لَهُ عَيْنَانِ فَفَقَدَ إِحْدَاهُمَا كَمَنْ لَهُ
عَيْنٌ وَاحِدَةٌ فَفَقَدَهَا لِأَنَّ ٱلَّذِي لَهُ عَيْنٌ وَاحِدَةٌ سُلِبَ أَحَبَّ مِمَّا سُلِبَ
مَنْ لَهُ عَيْنَانِ . وَكَذٰلِكَ إِنْ كَانَتِ ٱلسَّعَادَةُ فِي ٱلْمَالِ وَفِي شَيْءٍ آخَرَ
لَمْ يَكُنِ ٱلضَّرَرُ ٱللَّاحِقُ عَنْ سَلْبِ ٱلْمَالِ كَٱلضَّرَرِ ٱللَّاحِقِ عَنْ سَلْبِهِ
إِنْ كَانَ هُوَ ٱلسَّعَادَةَ وَحْدَهُ

(قَالَ) وَالْكَلَامُ فِي هٰذِهِ الْأَشْيَاءِ كُلِّهَا هَا هُنَا لَيْسَ هُوَ عَلَى جِهَةِ التَّصْحِيحِ وَإِنَّمَا الْكَلَامُ فِيهَا بِالْقَدْرِ الَّذِي يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَطِيبُ مِنْ ذٰلِكَ وَيَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَبَدًا مَتَى أَتَى بِالنَّتَائِجِ مِنْ أَمْثَالِ هٰذِهِ الْمُقَدَّمَاتِ أَنْ يُرْفِدَهَا بِالْمِثَالَاتِ الْمَأْخُوذَةِ مِنَ النَّاسِ الَّذِينَ فَعَلُوا تِلْكَ الْأَفَاعِيلَ فَلَحِقَهُمُ النَّفْعُ أَوِ الضَّرَرُ فَلِذٰلِكَ مَا يَجِبُ لِلْخَطِيبِ أَنْ يَكُونَ حَافِظًا لِلْقَصَصِ وَالْأَخْبَارِ

البحث العاشر

في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَهٰذِهِ هِيَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي يُثْبَتُ بِهَا أَنَّ الشَّيْءَ أَنْفَعُ أَوْ أَضَرُّ. وَأَمَّا الْأَشْيَاءُ الَّتِي يَكُونُ بِهَا الْإِذْنُ وَالْمَنْعُ فَقَدْ قِيلَ فِيهَا قَبْلَ هٰذَا بِمَا فِيهِ كِفَايَةٌ. لٰكِنْ أَهَمُّ وَأَعْظَمُ مَا فِيهَا هُوَ الْقَوْلُ فِي الْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا يَقْدِرُ عَلَى جُودَةِ الْإِقْنَاعِ فِي السُّنَنِ وَالْإِشَارَةِ بِالسُّنَنِ الَّتِي لَا يُوجَدُ أَنْفَعَ مِنْهَا. وَلِذٰلِكَ قَدْ يَجِبُ أَنْ نَسْتَقْصِيَ الْقَوْلَ فِيهَا هَا هُنَا فَنَقُولُ: إِنَّ الْإِشَارَةَ بِالسُّنَنِ النَّافِعَةِ وَالْإِقْنَاعَ التَّامَّ فِيهَا يَتَأَتَّى بِمَعْرِفَةِ أَصْنَافِ السِّيَاسَاتِ وَالْأَخْلَاقِ وَالسُّنَنِ الَّتِي تَخُصُّ سِيَاسَةً سِيَاسَةً. وَذٰلِكَ أَنَّ فِي كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنَ السِّيَاسَاتِ سُنَنًا نَافِعَةً فِيهَا وَهِيَ السُّنَنُ الَّتِي بِهَا

يكونُ خلاصُ تلكَ المدينةِ وقوامُها . والسُّنَنُ النفيسةُ الخطيرةُ هي السُّنَنُ العادلةُ اعني الموضوعةَ في العدلِ التي رسمها الرئيسُ الاوّلُ في تلكَ المدينةِ او المسلَّطُ عليها من قِبَلِ الرئيسِ الاوّلِ . وهذهِ السُّنَنُ النفيسةُ اعني السُّنَنَ العادلةَ تختلفُ في السياساتِ بحسبِ اختلافِ غاياتِها . وعددُها على عددِ السياساتِ . مثالُ ذلكَ انَّ العدلَ في سياسةِ التغلُّبِ انَّهُ لا شيءَ على الرئيسِ اذا لطمَ المرؤوسَ . وفي سياسةِ الحرّيةِ العدلُ في ذلكَ ان يُلطَمَ الرئيسُ مثلَ اللطمةِ التي لطمها . والسياساتُ بالجملةِ اربعٌ السياسةُ الجماعيةُ وسياسةُ الخسّةِ وسياسةُ جودةِ التسلّطِ وسياسةُ الوحدانيّةِ وهي الكراميّةُ . وهذهِ السياساتُ كلُّها المقصودُ بالسُّنَنِ الموضوعةِ فيها انما هو المدينةُ والكلُّ لا الشخصُ . فامّا المدينةُ الجماعيةُ فهي التي تكونُ الرئاسةُ فيها بالاتفاقِ والبختِ لا عن استئهالٍ اذ كانَ ليسَ في هذهِ المدينةِ لاحدٍ على احدٍ فضلٌ . وامّا خسّةُ الرئاسةِ فهي التي يتسلّطُ فيها المتسلّطونَ على المدنيينَ باداءِ الإتاوةِ والتغريمِ لا على جهةِ انْ تكونَ نفقةٌ للحماةِ والحفظةِ ولا عدّةٌ للمدينةِ على ما عليهِ الامرُ في السياساتِ الأُخَرِ بل على جهةِ ان تحصلَ الثروةُ للرئيسِ الاوّلِ . فانْ جعلَ لهم حظًّا من الثروةِ كانتْ رئاسةَ الثروةِ . وانْ لم يجعلْ لهم حظًّا من الثروةِ كانتْ رئاسةَ التغلّبِ وكانوا بمنزلةِ العبيدِ للرئيسِ الاوّلِ . وكانتْ محاماتُهُ عنهم بمنزلةِ محاماةِ الانسانِ عن عبيدِهِ . وامّا جودةُ التسلّطِ فهو التسلّطُ الذي

يَكُونُ عَلَى طَرِيقِ ٱلْأَدَبِ وَٱلِاقْتِدَاءِ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ فَإِنَّ ٱلَّذِينَ يُشِيرُونَ بِمَا تُوجِبُهُ ٱلسُّنَّةُ هُمْ مُتَسَلِّطُونَ بِجُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ. وَهٰذَا هُوَ ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي يَحْصُلُ بِهِ صَلَاحُ حَالِ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَٱلسَّعَادَةُ ٱلْإِنْسَانِيَّةُ. وَلِذٰلِكَ كَانَ هٰؤُلَاءِ أَهْلَ فَضَائِلَ وَٱقْتِدَارٍ عَلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تُصْلِحُ ٱلْمَدِينَةَ وَأَهْلَ حَزْمٍ وَتَحَرُّزٍ مِمَّا شَأْنُهُ أَنْ يُفْسِدَ ٱلْمَدِينَةَ مِنْ خَارِجٍ أَوْ مِنْ دَاخِلٍ. وَلِذٰلِكَ سُمِّيَتْ هٰذِهِ ٱلْمَدِينَةُ بِهٰذَا ٱلِاسْمِ. وَهٰذَا ٱلتَّسَلُّطُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ صِنْفَانِ رِئَاسَةُ ٱلْمَلِكِ وَهِيَ ٱلْمَدِينَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ آرَاؤُهَا وَأَفْعَالُهَا بِحَسَبِ مَا تُوجِبُهُ ٱلْعُلُومُ ٱلنَّظَرِيَّةُ. وَٱلثَّانِيَةُ رِئَاسَةُ ٱلْأَخْيَارِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ أَفْعَالُهَا فَاضِلَةً فَقَطْ. وَهٰذِهِ تُعْرَفُ بِٱلْإِمَامِيَّةِ وَيُقَالُ إِنَّهَا كَانَتْ مَوْجُودَةً فِي ٱلْفُرْسِ ٱلْأُوَلِ فِيمَا حَكَاهُ أَبُو نَصْرٍ

(قَالَ) وَأَمَّا وَحْدَانِيَّةُ ٱلتَّسَلُّطِ فَهِيَ ٱلرِّئَاسَةُ ٱلَّتِي يُحِبُّ ٱلْمَلِكُ أَنْ يَتَوَحَّدَ فِيهَا بِٱلْكَرَامَةِ ٱلرِّئَاسِيَّةِ وَأَلَّا يَنْقُصَهُ مِنْهَا شَيْءٌ بِأَنْ يُشَارِكَهُ فِيهَا غَيْرُهُ وَذٰلِكَ بِضِدِّ مَدِينَةِ ٱلْأَخْيَارِ. وَهٰذِهِ ٱلْمُدُنُ رُبَّمَا كَانَتِ ٱلسُّنَنُ ٱلْمَوْضُوعَةُ فِيهَا مَحْدُودَةً غَيْرَ مُتَبَدِّلَةٍ وَاحِدَةً فِي ٱلدُّهُورِ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي سُنَنِنَا ٱلْإِسْلَامِيَّةِ. وَرُبَّمَا كَانَتْ غَيْرَ ذَاتِ سُنَنٍ مَحْدُودَةٍ بَلْ يُفَوَّضُ ٱلْأَمْرُ فِيهَا إِلَى ٱلْمُتَسَلِّطِينَ عَلَيْهَا بِحَسَبِ ٱلْأَنْفَعِ فِي وَقْتٍ وَقْتٍ عَلَى مَا عَلَيْهِ ٱلْأَمْرُ فِي كَثِيرٍ مِنْ سُنَنِ ٱلرُّومِ ٱلْيَوْمَ

(قَالَ) وَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يَخْفَى عَلَيْنَا مِنْ هٰذَا ٱلَّذِي رَسَمْنَا بِهِ هٰذِهِ

ٱلسِّيَاسَاتِ غَايَةُ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا لأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْغَايَةَ عَلِمْنَا ٱلأَشْيَاءَ ٱلْمُخْتَارَةَ مِنْ أَجْلِ ٱلْغَايَةِ فَغَايَةُ ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْجَمَاعِيَّةِ ٱلْحُرِّيَّةُ. وَغَايَةُ خِسَّةِ ٱلرِّئَاسَةِ ٱلثَّرْوَةُ وَغَايَةُ جُودَةِ ٱلتَّسَلُّطِ ٱلْفَضِيلَةُ وَٱلتَّمَسُّكُ بِٱلسُّنَّةِ. وَغَايَةُ ٱلْوَحْدَانِيَّةِ ٱلْكَرَامَةُ وَٱلسِّيَاسَاتُ ٱلَّتِي لَيْسَ يُوضَعُ فِيهَا سُنَنٌ غَيْرُ مُتَبَدِّلَةٍ فَغَايَةُ وَاضِعِهَا هُوَ ٱلتَّحَفُّظُ وَٱلِاحْتِرَاسُ مِنَ ٱلْخَلَلِ ٱلْوَاقِعِ فِي ٱلسُّنَنِ بِتَبَدُّلِ ٱلأَزْمِنَةِ وَٱلأَمْكِنَةِ. وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا أَرِسْطُو لَيْسَ تُلْفَى بَسِيطَةً وَإِنَّمَا تُلْفَى أَكْثَرَ ذٰلِكَ مُرَكَّبَةً كَٱلْحَالِ فِي ٱلسِّيَاسَةِ ٱلْمَوْجُودَةِ ٱلآنَ فَإِنَّهَا إِذَا تُؤُمِّلَتْ تُوجَدُ مُرَكَّبَةً مِنْ فَضِيلَةٍ وَكَرَامَةٍ وَحُرِّيَّةٍ وَتَغَلُّبٍ

(قَالَ) وَإِذَا كَانَتْ أَصْنَافُ ٱلسِّيَاسَاتِ مَعْلُومَةً عِنْدَنَا فَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّا نَسْتَطِيعُ أَنْ نَعْرِفَ ٱلأَخْلَاقَ وَٱلسُّنَنَ ٱلَّتِي تُؤَدِّي إِلَى غَايَةِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلسِّيَاسَاتِ أَعْنِي ٱلنَّافِعَةَ فِيهَا وَأَنْ نَعْتَمِدَ فِي أَنْفُسِنَا ٱلتَّخَلُّقَ بِتِلْكَ ٱلأَخْلَاقِ وَٱلتَّمَسُّكَ بِٱلصِّنْفِ مِنَ ٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي نَرُومُ ٱلإِقْنَاعَ فِيهَا. فَإِنَّهُ إِنَّمَا تَكُونُ ٱلأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي يُحَثُّ بِهَا عَلَى ٱلسُّنَنِ مُقْنِعَةً إِذَا كَانَ ٱلْمُشِيرُونَ بِهَا ذَوِي صَلَاحٍ وَحُسْنِ فِعْلٍ حَتَّى تَكُونَ هٰذِهِ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمَذْكُورَةُ هَا هُنَا مَعْلُومَةً لَنَا وَمَوْجُودَةً فِينَا. فَإِنَّهُ إِذَا وُجِدَ فِينَا. ٱلْخُلُقُ ٱلَّذِي نَحُثُّ عَلَيْهِ كَانَ قَوْلُنَا فِي ٱلْحَثِّ عَلَيْهِ أَشَدَّ إِقْنَاعًا وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا نُشِيرَ إِلَّا بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ لَنَا أَوْ نَحْنُ عَازِمُونَ عَلَى أَنْ يُوجَدَ لَنَا. وَمَعْلُومٌ أَنَّ ٱلْوُقُوفَ عَلَى ٱلسُّنَنِ

ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْغَايَةِ إِنَّهَا إِنَّمَا تُستَنبَطُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّحْلِيلِ مِنَ ٱلنَّظَرِ إِلَى ٱلْغَايَةِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ مِنْ أَيْنَ تُوجَدُ ٱلْمُقْنِعَاتُ فِي ٱلنَّافِعِ مِنَ ٱلسُّنَنِ فِي سِيَاسَةٍ سِيَاسَةٍ وَكَمْ أَنْحَاءُ ٱلسِّيَاسَاتِ وَٱلسُّنَنِ ٱلَّتِي تُحْتَذِي فِيهَا وَذٰلِكَ بِحَسَبِ ٱلْكَافِي فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ. وَأَمَّا ٱلْقَوْلُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ عَلَى ٱلتَّحْقِيقِ فَفِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمَدَنِيَّةِ

البحث الحادي عشر

في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي • وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذمّ وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَأَمَّا بَعْدَ هٰذَا فَنَحْنُ قَائِلُونَ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَٱلنَّقِيصَةِ وَٱلْجَمِيلِ وَٱلْقَبِيحِ لِأَنَّ هٰذِهِ هِيَ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَيُذَمُّ. وَيَلْحَقُ مِنْ تَعْرِيفِنَا هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءَ أَنْ نَعْرِفَ ٱلْأُمُورَ ٱلَّتِي بِهَا يُثْبِتُ ٱلْمَرْءُ فَضِيلَةَ نَفْسِهِ إِذْ كَانَ ذٰلِكَ هُوَ ٱلطَّرِيقَ ٱلثَّانِي مِنَ ٱلطُّرُقِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلَّتِي يَقَعُ بِهَا ٱلْإِقْنَاعُ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِنَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ نَوْعٌ مِنَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي نَقْدِرُ بِهَا عَلَى مَدْحِ غَيْرِنَا نَقْدِرُ بِهَا أَنْفُسَهَا عَلَى مَدْحِ أَنْفُسِنَا. وَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذٰلِكَ يَتَّفِقُ فِي جَمِيعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْغَيْرُ بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ذٰلِكَ بِٱلْفَضِيلَةِ فَقَطْ

وَهِيَ ٱلْأُمورُ ٱلرَّاجِعَةُ إِلَى ٱلْاخْتِيَارِ

(قَالَ) وَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُ يَعْرِضُ كَثِيرًا أَنْ يُمْدَحَ ٱلنَّاسُ وَٱلرُّوحَانِيُّونَ بِٱلْفَضِيلَةِ وَبِأَشْيَاءَ غَيْرِ ٱلْفَضِيلَةِ وَلَيْسَ يَعْرِضُ هٰذَا فِي مَدْحِ هٰؤُلَاءِ فَقَطْ بَلْ وَفِي مَدْحِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ وَغَيْرِ ٱلْمُتَنَفِّسَةِ. أَعْنِي أَنَّهَا تُمْدَحُ بِأَشْيَاءَ خَارِجَةٍ عَنِ ٱلْفَضِيلَةِ. فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ هَا هُنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُؤْخَذُ مِنْهَا ٱلْمُقَدِّمَاتُ فِي ٱلْمَدْحِ بِٱلْفَضَائِلِ وَبِغَيْرِ ٱلْفَضَائِلِ لِيَكُونَ ٱلْقَوْلُ فِي ذٰلِكَ عَامًّا فَنَقُولُ: إِنَّ ٱلْجَمِيلَ هُوَ ٱلَّذِي يُخْتَارُ مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ وَهُوَ مَمْدُوحٌ وَخَيْرٌ وَلَذِيذٌ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ خَيْرٌ. وَإِذَا كَانَ ٱلْجَمِيلُ هُوَ هٰذَا فَبَيِّنٌ أَنَّ ٱلْفَضِيلَةَ جَمِيلَةٌ لَا مَحَالَةَ لِأَنَّهَا خَيْرٌ وَهِيَ مَمْدُوحَةٌ. وَٱلْفَضِيلَةُ هِيَ مَلَكَةٌ مُقَدِّرَةٌ لِكُلِّ فِعْلٍ هُوَ خَيْرٌ مِنْ جِهَةِ ذٰلِكَ ٱلتَّقْدِيرِ أَوْ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ خَيْرٌ أَعْنِي ٱلْحَافِظَةَ لِهٰذَا ٱلتَّقْدِيرِ وَٱلْفَاعِلَةَ لَهُ. وَلِذٰلِكَ كَانَتْ مُوجِدَةً لِكُلِّ فِعْلٍ يُقْصَدُ بِهِ نَحْوُ غَايَةٍ مَا جَلِيلَ ٱلْقَدْرِ عَظِيمَ ٱلشَّأْنِ فِي حُصُولِ تِلْكَ ٱلْغَايَةِ عَنْهُ. فَأَمَّا أَجْزَاءُ ٱلْفَضِيلَةِ فَٱلْبِرُّ أَيِ ٱلْعَدْلُ ٱلْعَامُّ وَٱلشَّجَاعَةُ وَٱلْمُرُوءَةُ وَٱلْعِفَّةُ وَكِبَرُ ٱلْهِمَّةِ وَٱلْحِلْمُ وَٱلسَّخَاءُ وَٱللُّبُّ وَٱلْحِكْمَةُ. وَهٰذِهِ ٱلْفَضَائِلُ مِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ فِي ذَاتِ ٱلْفَاضِلِ فَقَطْ وَمِنْهَا مَا هِيَ فَضَائِلُ مِنْ جِهَةِ أَنَّهَا تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ وَهٰذِهِ ٱلَّتِي تُفْعَلُ فِي أُنَاسٍ آخَرِينَ تَكُونُ أَعْظَمَ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْهَا عِنْدَ آخَرِينَ وَفِي حَالٍ دُونَ حَالٍ. مِثَالُ ذٰلِكَ أَنَّ فَضِيلَةَ ٱلشَّجَاعَةِ آثَرُ فِي وَقْتِ ٱلْحَرْبِ مِنْهَا فِي وَقْتِ ٱلسِّلْمِ. وَأَمَّا فَضِيلَةُ ٱلْعَدْلِ فَمُؤْثَرَةٌ فِي ٱلسِّلْمِ وَٱلْحَرْبِ

جَمِيعًا . وَفَضِيلَةُ ٱلسَّخَاءِ وَٱلْمُرُوءَةِ عِنْدَ ٱلْمَحَاوِيجِ آثَرُ مِنْهَا عِنْدَ غَيْرِ ٱلْمَحَاوِيجِ .
وَإِنَّمَا تَنْفَصِلُ فَضِيلَةُ ٱلْمُرُوَّةِ مِنَ ٱلسَّخَاءِ بِٱلْأَقَلِّ وَٱلْأَكْثَرِ لِأَنَّ
فِعْلَ كِلْتَيْهِمَا هُوَ فِي ٱلْمَالِ لٰكِنَّ ٱلْمُرُوءَةَ هِيَ فِعْلٌ أَكْثَرُ مِنْ فِعْلِ
ٱلسَّخَاءِ . فَأَمَّا ٱلْبِرُّ فَهُوَ فَضِيلَةٌ عَادِلَةٌ يُعْطِي ٱلْفَاضِلُ بِهَا لِكُلِّ ٱمْرِئٍ
مِنَ ٱلنَّاسِ مَا يَسْتَحِقُّ وَذٰلِكَ بِقَدْرِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلْجَوْرُ هُوَ ٱلْخُلُقُ
ٱلَّذِي يَأْخُذُ بِهِ ٱلْمَرْءُ ٱلْأَشْيَاءَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلَّتِي لَيْسَ لَهُ أَنْ يَأْخُذَهَا فِي
ٱلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلشَّجَاعَةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ ٱلْمَرْءُ بِهَا فَعَّالًا لِلْأَفْعَالِ ٱلصَّالِحَةِ
ٱلنَّافِعَةِ فِي ٱلْجِهَادِ عَلَى حَسَبِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ حَتَّى يَكُونَ بِفِعْلِهِ ذٰلِكَ
خَادِمًا لِلسُّنَّةِ . وَأَمَّا ٱلْجُبْنُ فَضِدُّ هٰذَا . وَأَمَّا ٱلْعِفَّةُ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا ٱلْمَرْءُ
فِي شَهَوَاتِ ٱلْبَدَنِ عَلَى مِقْدَارِ مَا تَأْمُرُ بِهِ ٱلسُّنَّةُ . وَٱلْفُجُورُ ضِدُّ هٰذَا .
وَأَمَّا ٱلسَّخَاءُ فَفَضِيلَةٌ تَفْعَلُ ٱلْجَمِيلَ ٱلْمَشْهُورَ فِي ٱلْمَالِ . وَٱلدَّنَاءَةُ ضِدُّ
هٰذَا . وَأَمَّا كِبَرُ ٱلْهِمَّةِ فَفَضِيلَةٌ يَكُونُ بِهَا حُسْنُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْعَظِيمَةِ
وَصِغَرُ ٱلنَّفْسِ . وَٱلنَّذَالَةُ ضِدُّهَا . وَأَمَّا ٱللُّبُّ فَفَضِيلَةُ ٱلْعَقْلِ ٱلَّذِي يَكُونُ
بِهِ حُسْنُ ٱلْمَشُورَةِ وَٱلرَّوِيَّةِ مَعَ وُجُودِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْخُلُقِيَّةِ لَهُ ٱلَّتِي هِيَ مِنْ
صِلَاحِ ٱلْحَالِ . فَهٰذَا هُوَ ٱلْقَوْلُ فِي ٱلْفَضِيلَةِ وَأَجْزَائِهَا بِقَدْرِ مَا يُحْتَاجُ إِلَيْهِ
فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ . وَأَمَّا سَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا مِمَّا عَدَا ٱلْفَضِيلَةَ
فَلَيْسَ يَعْسُرُ ٱلْوُقُوفُ عَلَيْهَا . وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَعْلُومٌ أَنَّ فَاعِلَاتِ ٱلْفَضَائِلِ
مِثْلَ ٱلتَّأَدُّبِ وَٱلِٱرْتِيَاضِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا تَحْصُلُ ٱلْفَضَائِلُ هِيَ أُمُورٌ
حِسَانٌ وَمَمْدُوحٌ بِهَا . وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِي ٱلْفَضَائِلِ أَنْفُسِهَا
أَعْنِي ٱلْأَعْرَاضَ ٱلَّتِي تُوجَدُ فِيهَا . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي تُوجَدُ تَابِعَةً

لِلْفَضَائِلِ فَهِيَ ٱلَّتِي يُقَالُ فِيهَا ٱلْآنَ وَهِيَ عَلَامَاتُ ٱلْفَضَائِلِ وَأَعْرَاضُهَا ٱللَّاحِقَةُ لَهَا. وَأَفْعَالُهَا إِنَّمَا يُمْدَحُ بِهَا إِذَا كَانَتْ حَسَنَةً مَحْمُودَةً فَإِنَّ كَثِيرًا مِنْ أَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ قَدْ لَا يُمْدَحُ بِهَا وَكَذَلِكَ كَثِيرٌ مِنَ ٱلْأَعْرَاضِ. فَمِثَالُ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْأَعْرَاضِ ٱلَّتِي هِيَ مَحْمُودَةٌ أَفْعَالُ ٱلشُّجْعَانِ فِي ٱلْحَرْبِ أَوْ مَنْ فَعَلَ فِي ٱلْحَرْبِ فِعْلَهُمْ وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَلَكَةُ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذَلِكَ ٱلْأَعْرَاضُ ٱلَّتِي تَلْحَقُ ٱلشُّجْعَانَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهَا. وَمِثَالُ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا فِي وَقْتٍ مَا بَذْلُ ٱلْمَالِ فَإِنَّهُ فِعْلٌ مِنْ أَفْعَالِ ٱلسَّخَاءِ لَكِنْ رُبَّمَا كَانَ ذَلِكَ ٱلْفِعْلُ عَلَى جِهَةِ ٱلتَّبْذِيرِ. وَمِثَالُ ٱلْأَعْرَاضِ ٱلَّتِي لَا يُمْدَحُ بِهَا ٱنْفِعَالُ ٱلْمَرْءِ عَنِ ٱلْعَدْلِ وَقَبُولُهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ أَنَّ فِعْلَ ٱلْعَدْلِ مَمْدُوحٌ وَأَمَّا ٱلِٱنْفِعَالُ عَنْهُ فَلَيْسَ بِمَمْدُوحٍ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ مَهَانَةٌ وَضَيْمٌ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَأَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ إِنَّمَا تَكُونُ مَمْدُوحَةً إِذَا كَانَتْ مُقَدَّرَةً تَقْدِيرَ ٱلْعَدْلِ وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهَا ٱلْأَفْعَالُ ٱلْعَظِيمَةُ ٱلشَّاقَّةُ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةُ فَقَطْ. فَإِنَّ ٱلْأَفْعَالَ ٱلَّتِي يَكُونُ جَزَاؤُهَا ٱلْكَرَامَةَ خَيْرٌ مِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي جَزَاؤُهَا ٱلْمَالُ. وَلِذَلِكَ إِذَا كَانَ فِعْلٌ يُجَازَى عَلَيْهِ بِٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا فَفَعَلَهُ فَاعِلٌ مِنْ أَجْلِ ٱلْكَرَامَةِ فَقَطْ مُدِحَ بِهِ وَكُلُّ مَا يَفْعَلُهُ ٱلْمَرْءُ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ لَا مِنْ أَجْلِ نَفْسِهِ مُدِحَ بِهِ. وَفِعْلُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي هِيَ خَيْرَاتٌ بِإِطْلَاقٍ كَذَلِكَ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي فِي طَبِيعَتِهَا خَيْرَاتٌ وَإِنْ كَانَتْ ضَارَّةً لِلْفَاعِلِ يُمْدَحُ بِهَا أَيْضًا. مِثْلُ فِعْلِ ٱلْعَدْلِ فَإِنَّ ٱلْعَادِلَ كَثِيرًا مَا يَسْتَضِرُّ بِهِ.

وَٱلْأَفعَالُ ٱلَّتِي تَخْتَصُّ بِإِكْرَامِ ٱلْأَمْوَاتِ مَمْدُوحَةٌ لِأَنَّ ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلْأَحْيَاءِ إِنَّمَا يَقْصِدُ مِنْهَا ٱلْمَرْءُ أَكْثَرَ ذٰلِكَ مَنْفَعَةَ نَفْسِهِ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكُلُّ فِعْلٍ كَانَ ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْغَيْرَ وَلَمْ يَكُنْ يَنْتَفِعْ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ أَوْ كَانَ يَلْحَقُهُ مِنْهُ ضَرَرٌ فَهُوَ مَمْدُوحٌ بِهِ. وَٱلْفِعْلُ ٱلَّذِي يَكُونُ إِلَى ٱلْمُحْسِنِينَ إِلَى ٱلنَّاسِ مَمْدُوحٌ بِهِ أَيْضًا لِأَنَّ هٰذَا هُوَ عَدْلٌ إِذْ كَانَ لَيْسَ يَنْتَفِعُ بِهِ ٱلْفَاعِلُ لَهُ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ ذُو فَضِيلَةٍ أَنْ لَا يَفْعَلَ ٱلْأَفعَالَ ٱلَّتِي يَفْتَضِحُ بِهَا أَهْلُ ٱلْفَوَاحِشِ وَأَنْ يُؤَدِّبَهُمْ بِٱلْقَوْلِ وَٱلْفِعْلِ. وَكَذٰلِكَ نُصْرَةُ ذَوِي ٱلْفَضَائِلِ وَمُحْمَدَتُهُمْ مِمَّا يُمْدَحُ بِهِ. وَٱلْخَجَلُ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ مِمَّا قَدْ يَدُلُّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ لِأَنَّهُ يُظَنُّ بِهِ أَنَّ ٱلْحَيَاءَ يَمْنَعُهُ عَنْ إِتْيَانِ تِلْكَ ٱلرَّذِيلَةِ. وَقَدْ يَكُونُ أَيْضًا عَدَمُ ٱلْحَيَاءِ عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْفَوَاحِشِ عَلَامَةً يُمْدَحُ بِهَا. وَذٰلِكَ أَنَّهُ قَدْ يُظَنُّ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ إِنَّمَا يَسْتَحِي عِنْدَ ذِكْرِ ٱلْقَبَائِحِ إِذَا كَانَ قَدْ فَعَلَهَا أَوْ نَالَهَا أَوْ هُوَ مُزْمِعٌ أَنْ يَفْعَلَهَا. مِثْلُ مَا حَكَى أَرِسْطُو أَنَّهُ عَرَضَ لِٱمْرَأَةٍ مَشْهُورَةٍ بِٱلْحِكْمَةِ عِنْدَهُمْ وَذٰلِكَ أَنَّ إِنْسَانًا مَشْهُورًا عَرَّضَ لَهَا بِٱلْقَبِيحِ بِأَنْ قَالَ لَهَا: إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَقُولَ قَوْلًا يَمْنَعُنِي عَنْهُ ٱلْحَيَاءُ، فَحَلُمَتْ عَنْهُ وَلَمْ تُجِبْهُ بِقَوْلٍ قَبِيحٍ وَلَمْ يُدْرِكْهَا مِنْ ذٰلِكَ تَأَلُّمٌ وَلَا ٱنْفِعَالٌ لِأَنَّهَا كَانَتْ تَرَى لِمَكَانِ فَضِيلَتِهَا أَنَّ أَحَدًا لَا يُعَرِّضُ لَهَا لَا بِمِثَالٍ وَلَا بِقَوْلٍ كَانِيٍّ (وَهُمَا صِنْفَا ٱلتَّعْرِيضِ). لٰكِنَّهَا فِي تِلْكَ ٱلْحَالِ جَعَلَتْ تَمُصُّ ٱلْفَضَائِلَ وَتَمْدَحُ أَهْلَهَا وَتَتَعَصَّبُ لَهُمْ وَتُحَامِي عَنْهُمْ. وَكَانَ أَيْضًا مَنْ مَعَهَا لَمْ يَأْنَفُوا

أيضًا لقول ذلك ولا لتعريضه لعلمهم أن مثلها لا يُتّهم بمثل هذا

(قال) ولذلك كان التعصب للأشياء التي تكتسب المجد والمحاماة عنها قد تجعل المتعصب لها والمحامي عنها من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة للطبيعة مثل العفاف والشجاعة وغيرهما. وذلك إذا صارت له ملكة بترداد فعلها والتعصب لها والمحاماة عنها كما عرض لهذه المرأة التي اقتصصنا ذكرها مع ذلك الرجل. وذلك أن أمثال هذه الأفعال قد يصير بها الإنسان من أهل الفضائل التي لا تحصل للإنسان إلا بمجاهدة كبيرة

(قال) والإنعام على الغير إذا لم يستفد المنعم منه شيئًا هو مما يُمدح به ولذلك ما كان العدل والبر يُمدح بهما الإنسان من جهة أنهما نافعان كما يُمدح بهما من جهة ما هما جميلان. والانتقام أيضًا من الأعداء وألا يُرضى عنهم في حال مما يُمدح به. فإن الانتقام منهم هو جزاء والجزاء عدل والعدل جميل. ومحبة الغلبة أيضًا ومحبة الكرامة مما يُمدح بهما لأنهما علامتان تدلان على إيثار الفضائل لا لمكان اكتساب مال بهما. أما محبة الغلبة فتدل على إيثار الشجاعة. وأما محبة الكرامة فعلى إيثار جميع الفضائل ولذلك كانت الفضائل الأثيرة المختارة هي التي ليس يقصد بها مقتنيها إلى اكتساب مال. لأن ذلك يدل على شرف

ٱلْفَضِيلَةِ وَمِنَ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلَّتِي شَأْنُهَا اَنْ يَبْقَى ذِكْرُهَا مَحْفُوظًا اَبَدًا عِنْدَ ٱلنَّاسِ. وَمِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا ٱلْهَيْئَاتُ ٱلْمَحْمُودَةُ عِنْدَ قَوْمٍ ٱلَّتِي يَجْعَلُونَهَا عَلَامَةً لِذَوِي ٱلشَّرَفِ مِثْلُ تَوْفِيرِ ٱلشُّعُورِ عِنْدَ ٱلْيُونَانِيِّينَ فَاِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى ٱلشَّرَفِ اِذْ كَانَ لَيْسَ كُلُّ اَحَدٍ يَسْهُلُ عَلَيْهِ تَوْفِيرُ شَعَرِهِ لِاَنَّ ٱلْمُوفُورِي ٱلشُّعُورِ لَا يَعْمَلُونَ عَمَلَ مَنْ لَيْسَ بِمَوْفُورِ ٱلشَّعَرِ وَلَا يُمْتَهَنُونَ بِاَيِّ مِهْنَةٍ ٱتَّفَقَتْ. وَٱلْأَزْيَاءُ ٱلَّتِي كَانَتْ تُتَّخَذُ عِنْدَنَا هِيَ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ اَرِسْطُو

(قَالَ) وَمِنَ ٱلشَّرَفِ اَلَّا يَحْتَاجَ ٱلْإِنْسَانُ اِلَى آخَرِينَ بَلْ يَكُونَ مُكْتَفِيًا بِنَفْسِهِ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي اَنْ نَأْخُذَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلذَّمِّ وَٱلْأُمُورِ ٱلْقَرِيبَةِ مِنَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلنَّقَائِصِ وَهِيَ ٱلنَّقَائِصُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ اَوِ ٱلْفَضَائِلُ ٱلَّتِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَيُمْدَحُ بِٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضِيلَةِ بِاَنْ يُوهِمَ اَنَّهَا فَضَائِلُ مِنْ اَجْلِ اَنَّ تِلْكَ ٱلْأَفْعَالَ هِيَ مِنْ اَفْعَالِ ٱلْفَضَائِلِ. وَكَذٰلِكَ يُوهِمُ فِي ٱلْفَضَائِلِ اَنَّهَا نَقَائِصُ مِنْ اَجْلِ اَنَّهُ عَرَضَ اَنْ وُجِدَ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلنَّقَائِصِ. فَمِثَالُ ٱلنَّقَائِصِ ٱلَّتِي تُوجَدُ عَنْهَا اَفْعَالُ ٱلْفَضَائِلِ فَتُوهِمُ اَنَّهَا فَضَائِلُ ٱلْعِيُّ ٱلَّذِي قَدْ يَكُونُ عَنْهُ اَفْعَالُ ٱلْحَلِيمِ فَيُوهِمُ بِهِ اَنَّهُ حَلِيمٌ. وَٱلْبَلَهُ ٱلَّذِي قَدْ تُوجَدُ عَنْهُ اَفْعَالُ ذَوِي ٱلسَّمْتِ فَيُوهِمُ بِذٰلِكَ اَنَّهُ ذُو سَمْتٍ. وَكَذٰلِكَ ٱلْعَدِيمُ ٱلْحِسِّ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ اَنَّهُ عَفِيفٌ اِذْ كَانَ قَدْ يُوجَدُ لَهُ فِعْلُ ٱلْعَفِيفِ بِٱلْعَرَضِ. وَكَذٰلِكَ

ٱلْمُتَهَوِّرُ قَدْ يُوهِمُ فِيهِ أَنَّهُ شُجَاعٌ وَٱلسَّفِيهُ أَنَّهُ كَرِيمٌ. وَمِثَالُ مَا يُوهِمُ بِهِ إِنَّهُ نَقِيصَةٌ وَلَيْسَ بِنَقِيصَةٍ مَا يَعْرِضُ لِلْكَبِيرِ ٱلْهِمَّةِ مِنْ أَنْ يَتَجَافَى عَنِ ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ فَيُظَنُّ بِهِ أَنَّهُ يَغْلَطُ وَيَنْخَدِعُ. وَٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ إِنَّمَا يَصْنَعُ ذٰلِكَ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْيَسِيرَةِ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُهُ مِنْهَا خَوْفٌ كَبِيرٌ وَلَا ضَرَرٌ شَدِيدٌ وَذٰلِكَ أَيْضًا فِي ٱلْمَوْضِعِ ٱلَّذِي يَحْسُنُ فِيهِ أَنْ يَتَغَافَلَ عَنْهَا. وَقَدْ يُوهِمُ أَيْضًا هٰذَا ٱلْمَوْضِعُ عَكْسَ هٰذَا. وَهُوَ أَنْ يُقَالَ فِي ٱلْمُنْخَدِعِ إِنَّهُ كَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ. وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ أَنْ يَكُونَ ٱلْمَرْءُ يُعْطِي أَصْدِقَاءَهُ وَغَيْرَ أَصْدِقَائِهِ وَمَنْ يَعْرِفُ وَمَنْ لَا يَعْرِفُ لِأَنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ شَرَفَ فَضِيلَةِ ٱلسَّخَاءِ هُوَ بَذْلُ ٱلْمَالِ لِلْكُلِّ

(قَالَ) وَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلْمَدْحُ بِحَضْرَةِ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ ٱلْمَمْدُوحَ كَمَا قَالَ سُقْرَاطُ: إِنَّهُ يَسْهُلُ مَدْحُ أَهْلِ أَثِينِيَةَ بِأَثِينِيَا. وَيَنْبَغِي أَنْ يُمْدَحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلَّذِي هُوَ مَمْدُوحٌ عِنْدَ قَوْمِهِ وَأَهْلِ مَدِينَتِهِ إِنْ كَانَ ذٰلِكَ يَخْتَلِفُ

(قَالَ) وَمِنَ ٱلْمَدْحِ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ مَدْحُ ٱلْآبَاءِ وَذِكْرُ مَآثِرِهِمُ ٱلْمُتَقَدِّمَةِ وَمَدْحُ ٱلْمَرْءِ بِمَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُهُ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ. وَأَنَّهُ لَيْسَ يَقْتَصِرُ عَلَى مَا حَصَلَ لَهُ مِنْهَا. وَٱلرَّجُلُ ٱلْكَبِيرُ ٱلْهِمَّةِ ٱلَّذِي لَا يَقْتَصِرُ بِهِمَّتِهِ عَلَى مَا نَالَ مِنَ ٱلْمَرَاتِبِ يُمْدَحُ بِهٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ مِنْ خَارِجٍ أَعْنِي بِفَضَائِلِ آبَائِهِ وَبِمَا يُؤَمِّلُ أَنْ يَسْمُوَ نَحْوَهُ كَمَا يُقَالُ مِنْ أَيِّ مَأْثَرٍ ٱبْتَدَأَ مِنْ قِبَلِ آبَائِهِ وَإِلَى أَيِّ مَأْثَرٍ يَنْتَهِي مِنْ قِبَلِ هِمَّتِهِ. وَأَمَّا ٱلَّذِي لَا يَسْمُو بِهِمَّتِهِ إِلَى نَيْلِ أَكْثَرَ مِمَّا

حصل له من المرتبة فانما يمدح من الامرين اللذين من خارج بآبائه فقط. وكانه يرى ها هنا ان المدح بمناقب الآباء ليس ينبغي ان يقتصر عليه دون ان يمدح بفضيلة ذاته كما قال الشاعر:

لسنا وان كرمت اوائلنا يوما على الاحساب نتكل

نبني كما كانت اوائلنا تبني ونفعل مثل ما فعلوا

وانه قد يقتصر بالمدح على الفضيلة دون ذكر الآباء كما قال:

نفس عصام سودت عصاما

(قال) وانما يكون المدح على الحقيقة بالافعال التي تكون عن المشيئة والاختيار فان الفعل الذي يكون بالمشيئة والاختيار هو الفعل الفاضل. والذي يمدح بالاشياء التي تكون بالاتفاق او بالعرض من اجل ان لها اذا اقترنت بالفضائل تزيينا لها وتفخيما بمنزلة الحسب المقترن الى الفضيلة وجودة البخت المقترن بافعال الفضائل. وانما يدخل في المدح الافعال التي تكون بالاتفاق والاعراض التي تقترن بالعرض مع الافعال التي تكون بالمشيئة متى تكررت مرارا كثيرة على صفة واحدة حتى اوهمت انها بالذات. وذلك انه اذا عرض لها ذلك ظن بها انها علامة للفضيلة مثل ان يخجل الانسان مرارا كثيرة بالاتفاق في مواضع يمدح الخجل فيها. وانما دخلت هذه الاشياء في المديح لان المديح هو قول يصف عظم الفضيلة وهذه الاشياء هي مما تعظم بها الفضيلة. واذا استعملت هذه الاشياء في المديح فينبغي ان تستعمل

عَلَى أَنَّهَا حَدَثَتْ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ . وَٱلْأَشْيَاءُ ٱلَّتِي بِٱلِٱتِّفَاقِ مِنْهَا أَشْيَاءُ لَيْسَ ٱلْإِنْسَانُ سَبَبَهَا لَا بِٱلذَّاتِ وَلَا بِٱلْعَرَضِ مِثْلَ ٱلْحَسَبِ وَٱلْمَنْشَإِ ٱلْفَاضِلِ وَمِنْهَا أَشْيَاءُ تَعْرِضُ عَنِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ . فَأَمَّا ٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْجَيِّدَةُ ٱلَّتِي تَعْرِضُ عَنِ ٱلْأَفْعَالِ فَتُؤْخَذُ عَلَامَةً عَلَى ٱلْفَضَائِلِ . وَأَمَّا ٱلِٱتِّفَاقَاتُ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ عَلَى ٱلْإِنْسَانِ فَتُؤْخَذُ فِي تَقْرِيرِ ٱلْفَضِيلَةِ وَتَثْبِيتِهَا مِثْلَ مَا يُقَالُ فِي ٱلْمَدْحِ : إِنَّ ٱلْخِيَارَ يُولَدُ فِي ٱلْخِيَارِ . وَفِي ٱلذَّمِّ : إِنَّ ٱلْحَيَّةَ تَلِدُ ٱلْحَيَّةَ . وَٱلْأَفْعَالُ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي عَلَيْهَا يُحْمَدُ ٱلْفَاعِلُ . وَأَمَّا آثَارُ ٱلْأَفْعَالِ فَهِيَ دَلَائِلُ عَلَى ٱلْفِعْلِ وَإِنَّمَا نَمْدَحُ بِهَا إِذَا أَثْبَتْنَا مِنْهَا ٱلْفِعْلَ

(قَالَ) وَجُودَةُ ٱلْبَخْتِ ٱلَّتِي قِيلَ فِيمَا تَقَدَّمَ إِنَّهَا ٱلسَّعَادَةُ عَلَى مَا يَرَاهُ ٱلْجُمْهُورُ هِيَ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلِٱتِّفَاقِيَّةِ ٱلَّتِي يُمْدَحُ بِهَا وَاحِدَةٌ فِي ٱلْجِنْسِ وَلَيْسَتْ هِيَ وَٱلْفَضَائِلُ وَاحِدَةً بِٱلْجِنْسِ بَلْ كَمَا أَنَّ صَلَاحَ ٱلْحَالِ جِنْسٌ لِلْفَضِيلَةِ أَعْنِي مُحِيطًا بِهَا كَذٰلِكَ مَا يَحْدُثُ بِٱلِٱتِّفَاقِ جِنْسٌ يُحِيطُ بِٱلسَّعَادَةِ . وَهٰذَانِ ٱلْجِنْسَانِ أَعْنِي ٱلْفَضَائِلَ وَمَا بِٱلِٱتِّفَاقِ يَدْخُلَانِ جَمِيعًا فِي بَابِ ٱلْمَدْحِ وَفِي بَابِ ٱلْمَشُورَةِ لٰكِنْ مِنْ جِهَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ . وَإِنَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ كَذٰلِكَ لِأَنَّا إِذَا عَرَفْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي يَجِبُ أَنْ تُفْعَلَ فَقَدْ عَرَفْنَا ٱلْأَشْيَاءَ ٱلَّتِي إِذَا فُعِلَتْ مُدِحَ بِهَا ٱلْإِنْسَانُ . وَلِذٰلِكَ إِذَا ذُكِرَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ ذِكْرًا مُطْلَقًا أَمْكَنَ أَنْ تَدْخُلَ فِي ٱلْمَشُورَةِ وَفِي ٱلْمَدْحِ وَذٰلِكَ بِزِيَادَةِ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي ٱلْمَشُورَةِ أَوِ ٱلْجِهَةِ ٱلَّتِي بِهَا تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ . وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَقُولُ ٱلْقَائِلُ

إِنَّهُ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُوجِبَ ٱلعِظَمُ وَٱلفَضْلُ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ لِلإِنسَانِ بِٱلعَرَضِ بَلْ لِلأَشيَاءِ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنْ رَوِيَّتِهِ وَٱختِيَارِهِ . فَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا . فَلِذٰلِكَ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ بِٱلبَخْتِ وَإِنَّمَا يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ ٱلَّذِينَ سَعَادَتُهُمْ عَنْ رَوِيَّةٍ وَٱختِيَارٍ كَفُلَانٍ كَانَ دَاخِلًا فِي بَابِ ٱلمَدحِ . وَإِذَا زِيدَ إِلَى هٰذَا فَلِذٰلِكَ لَا يَنبَغِي أَنْ تُطلَبَ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلِاتِّفَاقِ بَلِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي تَكُونُ عَنِ ٱلرَّوِيَّةِ دَخَلَ فِي ٱلمَشُورَةِ . وَٱلأَشيَاءُ ٱلِاتِّفَاقِيَّةُ قَدْ يُمكِنُ أَنْ تُستَعمَلَ فِي ٱلمَدِيحِ تَارَةً وَفِي ٱلذَّمِّ أُخرَى . فَإِنَّ ظُنُونَ ٱلنَّاسِ فِيهَا مُختَلِفَةٌ فَإِنَّ قَومًا يَرَونَ أَنَّ ٱلخَيرَاتِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلِاتِّفَاقِ لَيسَ يَنبَغِي أَنْ يُمدَحَ بِهَا إِذْ كَانَتْ شَيئًا غَيرَ مُحَصَّلٍ وَلَا مُكتَسَبٍ لِلإِنسَانِ . وَقَومٌ يَرَونَ أَنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُمدَحَ بِهَا وَأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى عِنَايَةٍ إِلٰهِيَّةٍ بِٱلَّذِي تَعرِضُ لَهُ وَأَمَّا ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي عَنِ ٱلِاختِيَارِ فَٱلمَمدُوحُ مِنهَا يُمدَحُ بِهِ أَبَدًا وَٱلمَذمُومُ مِنهَا يُذَمُّ بِهِ أَبَدًا

(قَالَ) وَيَنبَغِي أَنْ يُستَعمَلَ فِي ٱلمَدحِ ٱلأَشيَاءُ ٱلَّتِي يَكُونُ بِهَا تَعظِيمُ ٱلشَّيءِ وَتَنمِيَتُهُ وَهُوَ أَنْ يُخَيِّلَ فِي ٱلشَّيءِ أَنَّهُ بِٱلقُوَّةِ أَشيَاءُ كَثِيرَةٌ . وَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ فَعَلَ هٰذَا كَمَا قِيلَ فِي قِصَّةِ هَابِيلَ وَقَابِيلَ . أَوْ إِنَّهُ وَحدَهُ فَعَلَ هٰذَا . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَسِيرٍ مَا شَأْنُهُ أَنْ يُفعَلَ فِي زَمَانٍ كَثِيرٍ . أَوْ إِنَّهُ فَعَلَ فِعلًا كَبِيرًا . فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا إِنَّمَا تُفِيدُ عِظَمَ ٱلفِعلِ . وَكَذٰلِكَ إِذَا قِيلَ أَنَّهُ فَعَلَ فِي زَمَانٍ يَعسُرُ فِعلُهُ . وَذٰلِكَ إِذَا كَانَ بِحَسَبِ مَا يُشَاكِلُ إِنسَانًا

إنسانًا. ثمّ إنّه إن كان الفاعل ممّن يُقتدى به في أفعاله وأقواله مرارًا كثيرة فإنّ فعله عظيم كما قيل: إنّكم أيّها الرهط أئمّة يُقتدى بكم. والأفعال التي يُقتدى بها ليست هي الأفعال التي تكون بالاتّفاق بل الأفعال التي تكون عن المشيئة والرويّة. وهذه الأشياء قد يمكن أن تدخل في المشورة أعني الأشياء التي تعظّم الشيء مثل أن يشار على المرء أن يتشبّه بالممدوح الأوّل في ذلك الجنس أو يتشبّه به في المدح أو يشار عليه أن يكون من جملة الممدوحين الذين لا ينازع أحد في حمدهم. مثل الذين يمدحون في الأسواق أو يتشبّه بهم في المدح. وممّا يعظّم الممدوحين أن يقاسوا بالذين يفعلون أضداد أفعالهم وذلك عند ذكر أفعالهم الفاضلة

(قال) والذين شأنهم أن يتشبّهوا بالممدوحين الذين في الغاية ويقايسوا أنفسهم معهم دائمًا فقد ينبغي أن يشبّهوا بأولائك وأن يجروا مجراهم في المدح وإن لم يكونوا وصلوا مراتبهم. فإنّ فضائلهم في نموّ دائم. ومقايسة الإنسان نفسه مع غيره لا تصحّ إلا من الرجل الفاضل لموضع حبّ الإنسان لنفسه فهو يرى نقائصه أقلّ من نقائص غيره وإن كانت أعظم. ويرى فضائله أكثر وإن كانت أصغر ولذلك ليس كلّ أحد يستطيع المقايسة وإنّما يستطيعها الفضلاء من الناس مثل ما حكى ارسطو عن سقراط أنّه كان يقايس بينه وبين غيره ويجري الأحكام

عَلَى أخلاقِ نفسِهِ . بمعنى أنّهُ كانَ ينظُرُ بينَهُ وبينَ غيرِهِ فانْ وجدَ فيهِ فضيلةً أثابَ نفسَهُ عليها وانْ وجدَ فيهِ رذيلةً عاقبَ نفسَهُ عليها . والمُقايسةُ النافعةُ لِمنْ يُريدُ انْ يتزيّدَ في الفضائلِ انّما ينبغي انْ يكونَ بالممدوحينَ جدًّا . وقدْ يدلُّ على انَّ امثالَ هؤلاءِ ممدوحونَ اعني الّذين فضائلُهم في نموٍّ دائمٍ انَّ الّذينَ اجهدوا انفُسهم في انْ يبلُغوا مبلغَ الفاضلينَ فعجَزوا عنْ ذلكَ فهم ممدوحونَ عندَ الجمهورِ . وهو بيّنٌ انَّ تعظيمَ الشيءِ داخلٌ في المدحِ . فانَّ التعظيمَ للشيءِ تشريفٌ لهُ والتشريفُ مِنَ الأمورِ الّتي يُمدحُ بها . وينبغي اذا أُريدَ التعظيمُ بالتشبيهِ انْ يُشبّهَ بكثيرٍ منَ المحمودينَ فانَّ في هذا الفعلِ تشريفًا للممدوحِ ودلالةً للجمهورِ على فضيلتِهِ . وجملةُ القولِ في الانواعِ المُشتركةِ لاجناسِ الاقاويلِ الثلاثةِ انَّ التعظيمَ وانْ كانَ مُشتركًا لاجناسِ الاقاويلِ الخطبيّةِ الثلاثةِ فهوَ اخصُّ بالمدحِ والذمِّ . لانّهُ انّما يُمدحُ الانسانُ او يُذمُّ بالاشياءِ الموجودةِ المُعترفِ بوجودِها . وتعظيمُ الشيءِ اخصُّ بالموجودِ منهُ بالمعدومِ . ولذلكَ قدْ ينبغي للمادحِ انْ يصفَ جلالةَ الشيءِ وبهاءهُ وزينتَهُ . وامّا استعمالُ العلاماتِ والمثالاتِ فهوَ اخصُّ بالمشورةِ لانَّ منَ الامورِ المتصرّمةِ الّتي قدْ سلفتْ يُحدسُ على الّتي ستكونُ واعطاءُ السببِ والعلّةِ منَ الاشياءِ الّتي قدْ سلفتْ نحنُ لهُ اكثرُ قبولًا وتعظيمًا لانقضائهِ وتصرّمِهِ . وامّا معرفةُ العدلِ والجورِ فهوَ خاصٌّ بالمشاجريّةِ . وبالجملةِ فجميعُ المدحِ

وَٱلذَّمِّ إِنَّمَا يَكُونُ بِٱلْمُقَايَسَةِ بِمَنْ سَلَفَ مِنَ ٱلْمَحْمُودِينَ وَٱلْمَذْمُومِينَ. وَقَدْ يَنْبَغِي لِلْمَادِحِ وَٱلذَّامِّ أَنْ يَعْلَمَ بِحَضْرَةِ مَنْ يَكُونُ ٱلْمَدْحُ أَوِ ٱلذَّمُّ أَعْنِي أَنْ يَمْدَحَ بِحَضْرَةِ ٱلْأَصْدِقَاءِ وَيَذُمَّ بِحَضْرَةِ ٱلْأَعْدَاءِ كَمَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَعْلَمَ ٱلْمَوَاضِعَ ٱلَّتِي يَأْخُذُ مِنْهَا ٱلْمَدْحَ وَٱلذَّمَّ وَهِيَ ٱلَّتِي سَلَفَ ذِكْرُهَا وَهِيَ ٱلْفَضَائِلُ وَفَاعِلَاتُهَا وَعَلَامَاتُهَا وَأَعْرَاضُهَا وَهُوَ بَيِّنٌ أَنَّ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ مِن حُدُودِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ تُعْرَفُ حُدُودُ أَضْدَادِهَا إِذْ كَانَ ٱلضِّدُّ يُعْرَفُ مِنْ ضِدِّهِ

الفصل العاشر

في انواع الخطب ومن برع فيها

البحث الاول

في خطب التهانئ

(من كتاب صناعة الترسل)

إِنَّ ٱلتَّهَانِيَ لَيْسَ فِيهَا إِلَّا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي شُكْرِ نِعَمِ ٱللهِ وَٱلتَّبَرُّؤُ مِنَ ٱلْحَوْلِ وَٱلْقُوَّةِ إِلَّا بِهِ وَوَصْفُ مَا أُعْطِيَ مِنَ ٱلنَّصْرِ وَمُنِحَ مِنَ ٱلثَّبَاتِ وَتَعْظِيمُ مَا يُسِّرَ مِنَ ٱلْفَتْحِ ثُمَّ مَا وُصِفَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ عَزْمٍ وَإِقْدَامٍ وَصَبْرٍ وَجَلَدٍ عَنِ ٱلْمَلِكِ وَعَنْ جَيْشِهِ حَسُنَ وَعَمَّهُ فَلَاقَ ذِكْرُهُ وَرَاقَ ٱلتَّوْسِيعُ وَعَذُبَ بَسْطُ

ٱلْكَلَامِ فِيهِ فَإِنَّهُ مُتَرَتِّبٌ عَلَى مَا قَدَّمْنَا مِنْ نِسْبَةِ ٱلنَّصْرِ إِلَى وَاهِبِهِ وَٱلْجَلَدِ إِلَى مُعْطِيهِ وَٱلثَّبَاتِ إِلَى ٱلْمُوَفِّقِ لَهُ ثُمَّ كُلَّمَا ٱتَّسَعَ مَجَالُ ٱلْكَلَامِ فِي ذِكْرِ ٱلْمُوَافَقَةِ وَوَصْفِهَا كَانَ أَحْسَنَ وَأَدَلَّ عَلَى ٱلْبَلَاغَةِ وَأَدْعَى لِسُرُورِ ٱلْمَمْدُوحِ وَأَحْسَنَ لِمَوْقِعِ ٱلنِّعْمَةِ عِنْدَهُ وَأَشْهَى إِلَى سَمْعِهِ وَأَشْفَى لِغَلِيلِ شَوْقِهِ إِلَى مَعْرِفَةِ ٱلْحَالِ عَلَى جَلِيَّتِهِ وَلَا بَأْسَ بِتَهْوِيلِ أَمْرِ ٱلْعَدُوِّ وَوَصْفِ جَمْعِهِ وَإِقْدَامِهِ فَإِنَّ فِي تَصْغِيرِ أَمْرِهِ تَحْقِيرَ ٱلظَّفَرِ بِهِ

البحث الثاني

في خطب التقليد

(من الكتاب نفسه)

ٱلْأَحْسَنُ مِنْهَا بَسْطُ ٱلْكَلَامِ وَتُعْتَبَرُ كَثْرَتُهُ وَقِلَّتُهُ بِحَسَبِ ٱلرُّتَبِ وَيَجِبُ أَنْ يُرَاعَى فِيهَا أُمُورٌ مِنْهَا بَرَاعَةُ ٱلِٱسْتِهْلَالِ بِذِكْرِ ٱلرُّتْبَةِ أَوِ ٱلْحَالِ وَقَدْرِ ٱلنِّعْمَةِ أَوْ لَقَبِ صَاحِبِ ٱلتَّقْلِيدِ أَوِ ٱسْمِهِ لَا يَكُونُ ٱلْمَطْلَعُ أَجْنَبِيًّا مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالِ وَلَا بَعِيدًا مِنْهَا وَلَا مُبَايِنًا لَهَا ثُمَّ يَسْتَصْحِبُ مَا يُنَاسِبُ ٱلْغَرَضَ وَيُوَافِقُ ٱلْمَقْصَدَ مِنْ أَوَّلِ ٱلْخُطْبَةِ إِلَى آخِرِهَا وَيَحْسُنُ أَنْ يَكُونَ ٱلْكَلَامُ مُنْقَسِمًا فِي ٱلتَّقْلِيدِ عَلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ مُتَقَارِبَةِ ٱلْمَقَادِيرِ فَٱلرُّبْعُ ٱلْأَوَّلُ ٱلْخُطْبَةُ وَٱلثَّانِي ذِكْرُ مَوْقِعِ ٱلْإِنْعَامِ فِي حَقِّ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرُ ٱلرُّتْبَةِ وَتَفْخِيمُ أَمْرِهَا

وَٱلثَّالِثُ فِي أَوْصَافِ ٱلْمُقَلَّدِ وَذِكْرِ مَا يُنَاسِبُ تِلْكَ ٱلرُّتْبَةَ وَيُنَاسِبُ حَالَهُ مِنْ عَدْلٍ وَسِيَاسَةٍ وَمَهَابَةٍ وَبُعْدِ صِيتٍ وَسُمْعَةٍ وَشَجَاعَةٍ إِنْ كَانَ نَائِبًا وَوَصْفِ ٱلْعَدْلِ وَٱلرَّأْيِ وَحُسْنِ ٱلتَّدْبِيرِ وَٱلْمَعْرِفَةِ بِوُجُوهِ ٱلْأَقْوَالِ وَعِمَارَةِ ٱلْبِلَادِ وَصَلَاحِ ٱلْأَحْوَالِ وَمَا يُنَاسِبُ ذٰلِكَ إِنْ كَانَ وَزِيرًا وَكَذٰلِكَ فِي كُلِّ رُتْبَةٍ بِحَسَبِهَا. وَٱلرَّابِعُ فِي ٱلْوَصَايَا وَهٰذِهِ هِيَ ٱلْقَاعِدَةُ فِي مِثْلِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا تُرَاعَى ٱلْمُنَاسَبَةُ وَمَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ فَلَا يُعْطِي أَحَدًا فَوْقَ حَقِّهِ وَلَا يَصِفُهُ بِأَكْثَرَ مِمَّا يُرَادُ مِنْ مِثْلِهِ وَيُرَاعِي أَيْضًا مِقْدَارَ ٱلنِّعْمَةِ وَٱلرُّتْبَةِ فَيَكُونُ وَصْفُ ٱلْمِنَّةِ بِهَا عَلَى مِقْدَارِ ذٰلِكَ وَمِنْهَا أَنْ لَا يَصِفَ ٱلْمُتَوَلِّيَ بِمَا يَكُونُ فِيهِ تَعْرِيضٌ بِٱلْمَعْزُولِ وَتَنْقِيصٌ لَهُ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُوغِرُ ٱلصُّدُورَ وَيُورِثُ ٱلضَّغَائِنَ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَدِلُّ عَلَى ضَعْفِ ٱلْآرَاءِ فِي ٱخْتِيَارِ ٱلْأَوَّلِ وَلَهُ أَنْ يَصِفَ ٱلثَّانِيَ بِمَا يَحْصُلُ بِهِ ٱلْمَقْصُودُ مِنْ غَيْرِ تَعْرِيضٍ بِٱلْأَوَّلِ وَمِنْهَا أَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلْكَلَامَ وَٱلْمَعَانِيَ فَإِنَّهُ مِمَّا يَشِيعُ وَيَذِيعُ وَلَا يُعْذَرُ ٱلْمُقَصِّرُ فِي ذٰلِكَ بِعَجَلَةٍ وَلَا ضِيقٍ فَإِنَّ مَجَالَ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ مُتَّسِعٌ وَٱلْبَلَاغَةُ تَظْهَرُ فِي ٱلْقَلِيلِ وَٱلْكَثِيرِ وَٱلْأَمْرُ ٱلْجَارِي فِي ذٰلِكَ عَلَى ٱلْعَادَةِ مَعْرُوفٌ وَفِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ مِمَّا كُتِبَتْ فِيهِ شَيْءٌ كَثِيرٌ لٰكِنْ تَقَعُ أَشْيَاءُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْعَادَةِ فَيَحْتَاجُ ٱلْكَاتِبُ إِلَى ٱلتَّصَرُّفِ فِيهَا عَلَى مَا يَقْتَضِيهِ ٱلْحَالُ



البحث الثالث

في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب

(من كتاب بدائع البدائه والعقد الفريد)

قِيلَ إِنَّ ٱلِارْتِجَالَ فِي ٱللُّغَةِ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلِانْصِبَابِ وَٱلسُّهُولَةِ وَمِنْهُ قِيلَ: شَعْرٌ رَجْلٌ إِذَا كَانَ سَبْطًا غَيْرَ جَعْدٍ وَمُسْتَرْسِلًا غَيْرَ مُنْقَبِضٍ. وَقِيلَ مِنِ ٱرْتَجَلَ ٱلْبِئْرَ وَهُوَ أَنْ يَنْزِلَهَا ٱلرَّجُلُ بِرِجْلَيْهِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ فَكَأَنَّهُمْ شَبَّهُوا ٱقْتِدَارَ ٱلشَّاعِرِ عَلَى ٱلْقَوْلِ مِنْ غَيْرِ فِكْرَةٍ وَلَا أُهْبَةٍ بِٱقْتِدَارِ نَازِلِ ٱلْبِئْرِ عَلَى ٱلنُّزُولِ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ وَلَا آلَةٍ. وَٱلْبَدِيهَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ بَدَهَ يَبْدَهُ بِمَعْنَى بَدَأَ يَبْدَأُ أَبْدَلُوا ٱلْهَمْزَةَ هَاءً لِقُرْبِهَا مِنْهَا كَمَا قَالُوا: لَهَنَّكَ بِمَعْنَى لَأَنَّكَ وَكَمَا أَبْدَلُوا ٱلْحَاءَ أَيْضًا بِٱلْهَاءِ لِقُرْبِهَا مِنْهَا فَقَالُوا مَدَحَ وَمَدَهَ. وَٱشْتِقَاقَا ٱلِارْتِجَالُ وَٱلْبَدِيهَةُ وَإِنْ كَانَا مُتَقَارِبَيْنِ إِلَّا أَنَّ أَهْلَ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ مَيَّزُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ ٱلْآخَرِ بِمَا سَنَذْكُرُهُ فَنَقُولُ:

ٱلِارْتِجَالُ هُوَ أَنْ يَقُولَ ٱلْقَائِلُ مَا يَقُولُ فِي أَوْحَى مِنْ خَطْفِ ٱلْبَارِقِ وَٱخْتِطَافِ ٱلسَّارِقِ وَأَسْرَعَ مِنَ ٱلْتِمَاحِ ٱلْوَامِقِ وَنُفُوذِ ٱلسَّهْمِ ٱلْمَارِقِ حَتَّى يُخَالَ مَا يُعْمَلُ مَحْفُوظًا أَوْ مَرْئِيًّا مَلْحُوظًا مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى كِتَابَةٍ وَلَا تَعَلُّلٍ بِتَقْفِيَةٍ وَتَنْفَرِدُ عِنْدَ ذٰلِكَ قَضِيَّةُ ٱلْحَالِ بِٱخْتِرَاعِ ٱلْوَزْنِ وَٱلْقَافِيَةِ وَهُمُ ٱلشُّهُودُ ٱلْعُدُولُ ٱلَّذِينَ يَجِبُ ٱلرُّجُوعُ

إليهم ولا يجوز عنهم العدول بالشهادة على استطاعته وأن ذلك المنظوم ابن ساعته. والبديهة أن ينزل على هذه الطبقة قليلا ويفكر مقصرًا لا مطيلًا فإن أطال ذو البديهة الفكرة انعكست القضية وخرجت من حد البديهة إلى حد الروية وعند ذلك تقصر نهضة الاقتدار عن بلوغ ذلك المضمار إذ المرتجل والبادِه يقنع منهما بالردي اليسير ولا يقنع من المروي إلا بالجيد الكثير وكفاك في ذكرهما قول ابن المعتز :

وَالْفِكْرُ قَبْلَ الْقَوْلِ يُؤْمِنُ زَيْغَهُ   شَتَّانَ بَيْنَ رَوِيَّةٍ وَبَدِيهِ

وقول ابن جريج :

نَارُ الرَّوِيَّةِ نَارٌ تُلْقِي نُضْجَةً   وَلِلْبَدِيهَةِ نَارٌ ذَاتُ تَلْوِيحِ
وَقَدْ يُفَضِّلُهَا قَوْمٌ لِعَاجِلِهَا   لَكِنَّهَا عَاجِلٌ يَمْضِي مَعَ الرِّيحِ

وحسبك بهرب إمام الشعراء وفاتكهم من البديهة فما ظنك بالارتجال وإذا كان عبد الله بن وهب الراسبي رئيس الخوارج في يوم النهروان يقول وهو البدوي الفصيح والأعرابي الصريح إياكم والرأي الفطير والكلام القضيب يقول هذا في مطلق الكلام وهو غير مقيد بوزن ولا قافية فكيف الظن بالمقيد بهما لعمري أنه لمقام يجبن فيه الشجاع ويكذب فيه رائد الفكر في طلب الانتجاع

قال محمد كاتب إبراهيم وكان شاعرًا راويًا وطالبًا للنحو علامة قال : سمعت أبا داود وجرى شيء من ذكر الخطب وتمييز الكلام

فقال: تلخيص المعاني رفق والاستعانة بالغريب عجز والتشادق في غير اهل البادية نقص والنظر في عيوب الناس عيّ ومس اللحية هلك والخروج مما بني عليه الكلام إسهاب (فقال) وسمعته يقول رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وحليها الاعراب وبهاؤها تخيّر اللفظ والمحبة مقرونة بقلة الاستكراه وانشدني بيتاً في خطبة إياد

يومون باللفظ الخفيّ وتارة   رمي الملاحظ خيفة الرقباء

(وقال) ابن الاعرابي قلت للفضل ما الايجاز عندك قال حذف الفضول وتقريب البعيد (وتكلم) ابن السماك يوماً وجارية له تسمع فلما دخل قال لها كيف سمعت كلامي قالت الى ان تفهمه من لم يفهمه ملّه من فهمه

البحث الرابع

في خطب الوعاظة

(من كتاب التبيان للجاحظ وكتاب العقد الفريد

وزهر الاداب للحصري بتصرّف)

قال ابن الجوزي في المنتخب. لما كانت المواعظ مندوبا اليها بقوله: فذكّر فان الذكرى تنفع المؤمنين وقوله لعماله تعاهدوا الناس بالتذكرة. ولأنّ ادواء القلوب تفتقر الى ادوية كما تحتاج امراض البدن الى معالجة الفت في هذا

الفنّ كتبًا تشتمل على اصوله وفروعه وكان السلف يقتنعون من المواعظ باليسير من غير تحسين لفظ او زخرفة نطق ومن تأمل مواعظ الحسين بن علي وغيره مما اشرت اليه. وكذلك كانت الفقهاء في قديم الزمان يتناظرون من غير معارضة في تسمية قياس علة او قياس شبه ونرجو ان يكون ما اخذت من الالفاظ والاسامي لا يخرج عن مرضاة الاوائل ولذلك ما اخذت من العلماء المذكورين من تحسين لفظ او تسجيع وعظ ولا يخرج من قانون الجواد وما ذاك الا بمثابة جمع القرآن الذي ابتدأ به ابو بكر وثنى به عثمان في شهر رمضان واذن لتميم الداري ان يقص ومثل هذه لا تذم لكونها ابتدعت اذ ليست تخارج عن الاعمال المشروع وقال الحسن القصص بدعة كم من اخ يستفاد ودعوة تستجاب

قال بعض القدماء ان الوعظ حبل الله الممدود وعهده المعهود وظله العميم وصراطه المستقيم وحجته الكبرى ومحجته الوسطى وهو الواضح سبيله الراشد دليله الذي من استضاء بمصابيحه ابصر ونجا ومن اعرض عنه ضل وهوى حجة الله وعهده ووعيده ووعده به يعلم الجاهل ويعمل العالم العامل وينتبه الساهي ويتذكر اللاهي بشير الثواب ونذير العقاب وشفاء الصدور وجلاء الامور من فضائله انه يقرأ دائمًا ويكتب ويملى ولا يمل ما اهون الدنيا على من جعل الدين امامه وتصور الموت امامه قال بعض الحكماء الحكمة موقظة للقلوب من سنة الغفلة ومنقذة للبصائر من سكرة

ٱلْحَيْرَةِ وَمُحْيِيَةٌ لَهَا مِنْ مَوْتِ ٱلْجَهَالَةِ وَمُسْتَخْرِجَةٌ لَهَا مِنْ ضِيقِ ٱلضَّلَالَةِ وَٱلْعِلْمُ دَوَاءٌ لِلْقُلُوبِ ٱلْعَلِيلَةِ وَمَشْحَذٌ لِلْأَذْهَانِ ٱلْكَلِيلَةِ وَنُورٌ فِي ٱلظُّلْمَةِ وَأُنْسٌ فِي ٱلْوَحْشَةِ وَصَاحِبٌ فِي ٱلْوَحْدَةِ وَسَمِيرٌ فِي ٱلْخَلْوَةِ وَوُصْلَةٌ فِي ٱلْمَجْلِسِ وَمَادَّةٌ لِلْعَقْلِ وَتَلْقِيحٌ لِلْفَهْمِ وَنَافٍ لِلْعِيِّ ٱلْمُزْرِي بِأَهْلِ ٱلْأَحْسَابِ ٱلْمُقَصِّرِ بِذَوِي ٱلْأَلْبَابِ أَنْطَقَ ٱللّٰهُ سُبْحَانَهُ أَهْلَهُ بِٱلْبَيَانِ ٱلَّذِي جَعَلَهُ صِفَةً لِكَلَامِهِ فِي تَنْزِيلِهِ وَأَيَّدَهُ رُسُلَهُ إِيضَاحًا لِلْمُشْكِلَاتِ وَفَصْلًا بَيْنَ ٱلشُّبُهَاتِ شَرُفَ بِهِ ٱلْوَضِيعُ وَأَعَزَّ بِهِ ٱلذَّلِيلَ وَسَوَّدَ بِهِ ٱلْمُسَوَّدَ مَنْ تَحَلَّى بِغَيْرِهِ فَهُوَ مُعَطَّلٌ وَمَنْ تَعَطَّلَ مِنْهُ فَهُوَ مُغَفَّلٌ لَا تُبْلِيهِ ٱلْأَيَّامُ وَلَا تَخْتَرِمُهُ ٱلدُّهُورُ يَتَجَدَّدُ عَلَى ٱلْاِبْتِذَالِ وَيَذْكُو عَلَى ٱلْإِنْفَاقِ لِلّٰهِ عَلَى مَنْ بِهِ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْحَمْدُ وَٱلشُّكْرُ. قِيلَ لِعَمْرِو بْنِ عُبَيْدٍ مَا ٱلْبَلَاغَةُ قَالَ: مَا بَلَّغَكَ ٱلْجَنَّةَ وَعَدَلَ بِكَ عَنِ ٱلنَّارِ وَبَصَّرَكَ مَوَاقِعَ رُشْدِكَ وَعَوَاقِبَ عَمَلِكَ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ مَنْ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْكُتَ لَمْ يُحْسِنْ أَنْ يَسْتَمِعَ وَمَنْ لَمْ يُحْسِنِ ٱلِاسْتِمَاعَ لَمْ يُحْسِنِ ٱلْقَوْلَ قَالَ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ قَالَ: قَالَ ٱلنَّبِيُّ إِنَّا مَعْشَرُ ٱلْأَنْبِيَاءِ فِينَا تَلْكَأٌ أَيْ قِلَّةُ ٱلْكَلَامِ وَكَانُوا يَكْرَهُونَ أَنْ يَزِيدَ مَنْطِقُ ٱلرَّجُلِ عَلَى عَقْلِهِ. قَالَ ٱلسَّائِلُ لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ: كَانُوا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلْقَوْلِ وَمِنْ سَقَطَاتِ ٱلْكَلَامِ مَا لَا يَخَافُونَ مِنْ فِتْنَةِ ٱلسُّكُوتِ وَسَقَطَاتِ ٱلصَّمْتِ. قَالَ: لَيْسَ هٰذَا أُرِيدُ. قَالَ عَمْرٌو: يَا هٰذَا فَكَأَنَّكَ تُرِيدُ تَخْيِيرَ ٱللَّفْظِ فِي حُسْنِ ٱلْإِفْهَامِ. قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: إِنَّكَ إِنْ أَرَدْتَ تَقْرِيرَ حُجَّةِ ٱللّٰهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي عُقُولِ

ٱلْمُكَلَّفِينَ وَتَخْفِيفَ ٱلْمَؤُونَةِ عَلَى ٱلْمُسْتَمِعِينَ وَتَزْيِينَ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي فِي قُلُوبِ ٱلْمُرِيدِينَ بِٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَسَنَةِ فِي ٱلْآذَانِ ٱلْمَتْبُولَةِ عِنْدَ ٱلْأَذْهَانِ رَغْبَةً فِي سُرْعَةِ إِجَابَتِهِمْ وَنَفْيِ ٱلشَّوَاغِلِ عَنْ قُلُوبِهِمْ بِٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ عَلَى ٱلْكِتَابِ وَٱلسُّنَّةِ كُنْتَ قَدْ أُوتِيتَ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ وَٱسْتَوْجَبْتَ مِنَ ٱللهِ جَزِيلَ ٱلثَّوَابِ

قَالَ ٱبْنُ عَبْدِ رَبِّهِ: وَأَحْكَمُ ٱلْمَوَاعِظِ مَوَاعِظُ ٱللهِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْأَنْبِيَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْآبَاءِ لِلْأَبْنَاءِ ثُمَّ مَوَاعِظُ ٱلْحُكَمَاءِ وَٱلْأُدَبَاءِ ثُمَّ مَقَامَاتُ ٱلْعُبَّادِ بَيْنَ أَيْدِي ٱلْخُلَفَاءِ ثُمَّ قَوْلُهُمْ فِي ٱلزُّهْدِ وَرِجَالِهِ ٱلْمَعْرُوفِينَ بِهِ ثُمَّ ٱلْمَشْهُورِينَ مِنَ ٱلْمُنْتَسِبِينَ إِلَيْهِ وَٱلْمَوْعِظَةُ ثَقِيلَةٌ عَلَى ٱلسَّمْعِ مُسْتَحْرِجَةٌ عَلَى ٱلنَّفْسِ بَعِيدَةٌ مِنَ ٱلْقَبُولِ لِأَعْتِرَاضِهَا ٱلشَّهْوَةَ وَمُضَادَّتِهَا ٱلْهَوَى ٱلَّذِي هُوَ رَبِيعُ ٱلْقَلْبِ وَمُرَادُ ٱلرُّوحِ وَمَرْبَعُ ٱللَّهْوِ وَمَسْرَحُ ٱلْأَمَانِيِّ إِلَّا مَنْ وَعَظَهُ عِلْمُهُ وَأَرْشَدَهُ قَلْبُهُ وَأَحْكَمَتْهُ تَجْرِبَتُهُ. قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

لَنْ تَرْجِعَ ٱلنَّفْسُ عَنْ غَيِّهَا حَتَّى يُرَى مِنْهَا لَهَا وَاعِظُ

(وَقَالَتِ ٱلْحُكَمَاءُ) ٱلسَّعِيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ وَلَا يَعْنُونَ مَنْ وَعَظَهُ غَيْرُهُ وَلَكِنْ مَنْ رَأَى ٱلْعِبَرَ فِي غَيْرِهِ فَٱتَّعَظَ بِهَا فِي نَفْسِهِ وَلِذَلِكَ كَانَ يَقُولُ ٱلْحَسَنُ: ٱقْرَعُوا هَذِهِ ٱلنُّفُوسَ فَإِنَّهَا طَلِعَةٌ وَحَادِثُوهَا بِٱلذِّكْرِ فَإِنَّهَا سَرِيعَةُ ٱلدُّثُورِ وَٱعْصُوهَا فَإِنَّهَا إِنْ أُطِيعَتْ بَرَعَتْ فِي ٱلشَّرِّ غَايَةً وَكَانَ يَقُولُ عِنْدَ ٱنْقِضَاءِ مَجْلِسِهِ وَخَتْمِ مَوْعِظَتِهِ يَا لَهَا مِنْ مَوْعِظَةٍ لَوْ صَادَفَتْ مِنَ ٱلْقُلُوبِ حَيَاةً. وَكَانَ ٱبْنُ ٱلسَّمَّاكِ يَقُولُ

إِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ: أَلْسُنٌ تَصِفُ وَقُلُوبٌ تَعْرِفُ وَأَعْمَالٌ تُخَالِفُ.
وَقَالَ يُونُسُ بْنُ عُبَيْدٍ: لَوْ أُمِرْنَا بِالْجَزَعِ لَصَبَرْنَا يُرِيدُ ثِقَلَ الْمَوْعِظَةِ عَلَى السَّمْعِ وَجُنُوحَ النَّفْسِ إِلَى مُخَالَفَتِهَا. وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ: (أَحَبُّ شَيْءٍ إِلَى الْإِنْسَانِ مَا مُنِعَا). وَقَوْلُهُمْ: وَالشَّيْءُ يُرْغَبُ فِيهِ حِينَ يُمْتَنَعُ وَالْمَوْعِظَةُ مَانِعَةٌ لَكَ مِمَّا تَشْتَهِي حَامِلَةٌ لَكَ عَلَى مَا تَكْرَهُ إِلَّا أَنْ تَلْقَاهَا بِسَمْعٍ قَدْ فَتَقَتْهُ الْعِبْرَةُ وَقَلْبٍ قَدَحَتْ فِيهِ الْفِكْرَةُ وَنَفْسٍ لَهَا مِنْ عِلْمِهَا زَاجِرٌ وَمِنْ عَقْلِهَا رَادِعٌ فَيُفْتَحُ لَكَ بَابُ التَّوْبَةِ وَيُوضَحُ لَكَ سَبِيلُ الْإِنَابَةِ (قَالَ النَّبِيُّ) حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ يُرِيدُ أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْجَنَّةِ احْتِمَالُ الْمَكْرُوهِ فِي الدُّنْيَا وَالطَّرِيقَ إِلَى النَّارِ رُكُوبُ الشَّهَوَاتِ وَخَيْرُ الْمَوْعِظَةِ مَا كَانَتْ مِنْ قَائِلٍ مُخْلِصٍ إِلَى سَامِعٍ مُنْصِفٍ (وَقَالَ بَعْضُهُمْ) الْكَلِمَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنَ الْقَلْبِ وَقَعَتْ فِي الْقَلْبِ وَإِذَا خَرَجَتْ مِنَ اللِّسَانِ لَمْ تُجَاوِزِ الْآذَانَ. وَقَالُوا مَا أَحْسَنَ التَّاجَ. وَهُوَ عَلَى رَأْسِ الْمَلِكِ أَحْسَنُ. وَمَا أَحْسَنَ الدُّرَّ. وَهُوَ عَلَى نَحْرِ الْفَتَاةِ أَحْسَنُ وَمَا أَحْسَنَ الْمَوْعِظَةَ. وَهِيَ مِنَ الْفَاضِلِ التَّقِيِّ أَحْسَنُ. (وَقَالَ زِيَادٌ) أَيُّهَا النَّاسُ لَا يَمْنَعْكُمْ سُوءُ مَا تَعْلَمُونَ مِنَّا أَنْ تَنْتَفِعُوا بِأَحْسَنِ مَا تَسْمَعُونَ مِنَّا. قَالَ الشَّاعِرُ:

اِعْمَلْ بِقَوْلِي وَإِنْ قَصَّرْتُ فِي عَمَلِي
يَنْفَعْكَ قَوْلِي وَلَا يَضْرُرْكَ تَقْصِيرِي

البحث الخامس

في غاية الوعظ

(من كتاب الغصن الرطيب للمقري)

قَالَ لِسَانُ ٱلدِّينِ بْنُ ٱلْخَطِيبِ فِي ٱلرَّوْضَةِ فِي مُحَرِّكَاتِ ٱلْعَزِيمَةِ وَهِيَ ٱلْيَقْظَةُ مَا نَصُّهُ قُلْتُ وَٱلْمُحَرِّكَاتُ ٱلْمُشْتَرِكَاتُ فِي بَاعِثِ ٱلْيَقْظَةِ كَثِيرَةٌ مِنْهَا ٱلْوَعْظُ ٱلسَّائِقُ بِقُوَدِ ٱلشَّارِدِ عَنِ ٱللهِ تَعَالَى إِلَى مَرْبَطِ ٱلتَّوْبَةِ وَمُحَرِّكُ ٱلْعَزِيمَةِ يُرَدِّدُ آذَانَهُ عَلَى نُوَّامِ أَهْلِ ٱلْكَهْفِ وَقَدْ ضَرَبَ نَوْمُ ٱلْغَفْلَةِ عَلَى آذَانِهِمْ حَتَّى يَحُولَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ آذَانِهِمْ وَيُرْكِبُهُمْ ظَهْرَ ٱلرِّيَاضَةِ حَتَّى تُلْحِقَهُمْ بِٱلْمَجْذُوبِينَ مِنْ إِخْوَانِهِمْ وَلَمَّا كَانَ حُبُّ ٱلدُّنْيَا هُوَ ٱلْمَانِعَ عَنِ ٱلشُّرُوعِ فِي إِطْلَاقِ ٱلْعَمَلِ وَٱلْقَاطِعَ بِهِ لِمَا بَعْدَهُ لَمْ يَجِدْ إِسَاءَةَ خَبَلِ ٱلْهَوَى وَجُنُونَ ٱلْكَسَلِ أَنْجَعَ مِنْ وَقْيِ ٱلْعَذْلِ وَٱلتَّأْنِيبِ وَتَقْبِيحِ ٱلْمَحْبُوبِ سِيَّمَا إِذَا ٱنْتَزَعَتْ نِبَالُ نَبْلِهِ عَنْ حَنِيَّاتِ ضُلُوعِ ٱلصِّدْقِ وَقَالَ بَعْضُهُمْ ٱلْكَلَامُ إِذَا خَرَجَ مِنَ ٱلْقَلْبِ دَخَلَ ٱلْقَلْبَ

أَوْقِدِ ٱلنَّارَ مِنْ رِسَالَةِ لَيْلَى   وَٱحْذَرِ ٱلسَّيْلَ بَعْدَهَا مِنْ دُمُوعِي

وَلَا تَعْدِلِ ٱلْوَعْظَ ٱلْبَلِيغَ بِٱللِّسَانِ ٱلْفَصِيحِ وَٱلْقَلْبِ ٱلْقَرِيحِ فَإِذَا رَأَيْتَ ٱلْأَرْضَ قَدِ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَهِضَابَ ٱلْقُلُوبِ ٱلْقَاسِيَةِ قَدْ تَقَلَّبَتْ فَشَمِّرْ لِلْغِرَاسِ وَٱلزِّرَاعِ عَنِ ٱلذِّرَاعِ وَٱغْتَنِمِ ٱلسِّرَاعَ وَٱلْاِنْتِزَاعَ

إِذَا هَبَّتْ رِيَاحُكَ فَٱغْتَنِمْهَا   فَإِنَّ لِكُلِّ خَافِقَةٍ سُكُونَا

وَكَقَوْلِ ٱلْآخَرِ :

حفّر لها ماءً يُريها بداءةً ... وأضمن لها حوضًا وإن لم تحفرِ
وأربأ بنفسك عن تسامح بائعٍ ... واغنم إذا سامتك شهوةُ مشتري

قالوا الوعظ يضرب وجه النفس عن التثبط في بساط اللذات وينقل خطراتها عن الخطو في ملعب الخطيئات ويمثّل لها الصبر عيانًا ويبيّن العواقب المحجّبة بيانًا وينشئ سحاب الحزن في أجواف أجزائها ويذكّرها بمآلها وانتهائها ويعرض عن مصارع فنائها وخراب بنائها وفراق حبائبها وأبنائها عند نزول هادم اللذات بفنائها فترجع إلى الله تعالى بحكم الاضطرار أفكارها وتخشع من خيفة الله تعالى وجلاله أبصارها والوعظ يكون بلسانين ويوجد فنّين لسان حالٍ ولسان مقالٍ وربّما كان لسان الحال أبلغ وهو يسمع من القبور الموحشة والقصور الخالية والعظام البالية وفيه حكايات وأخبار. ولسان مقالٍ كقوله سبحانه وتعالى وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال وهو سبيل الله تعالى التي بعث بها النبيين وضمّن فصولها الكتاب المبين والسوط الذي يحمل على الأوبة ويسوق ورد المتطهرين إلى غدير التوبة ونحن نجعله هينمةً بين يدي الفراسة لتذكية النفوس إن صدق حكم الفراسة من ذاك فمن ذلك ما صدر عنّي على لسان واعظٍ



البحث السادس

في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن

(من كتاب الكلم الثمان للشيخ الحسين المرصفي)

وَلَمَّا كَانَ ٱلْإِنسَانُ مَوْضِعًا لِلسَّهْوِ وَٱلنِّسيَانِ وَمَحَلًّا لِلذُّهُولِ وَٱلْغَفْلَةِ لِمَا يَعْتَوِرُهُ وَيَكْتَنِفُهُ مِنَ ٱلْأَهْوَاءِ وَٱلشَّهَوَاتِ ٱلَّتِي بِٱتِّبَاعِهَا وَٱلِٱنْقِيَادِ مَعَهَا يَدْخُلُ ٱلِٱخْتِلَالُ عَلَى ٱلنِّظَامِ ٱلْكُلِّيِّ وَٱلْمَصْلَحَةِ ٱلْعَامَّةِ ثُمَّ يَسْرِي بِغَايَةِ ٱلسُّرْعَةِ إِلَى ٱلنِّظَامَاتِ ٱلْجُزْئِيَّةِ وَٱلْمَصَالِحِ ٱلْخَاصَّةِ فَيُصْبِحُ ٱلْغَنِيُّ فَقِيرًا وَٱلْقَادِرُ عَاجِزًا وَٱلشُّجَاعُ جَبَانًا وَٱلذَّكِيُّ غَبِيًّا وَٱلْفَطِنُ بَلِيدًا وَيَصِيرُ ٱسْمُ ٱلْبَهَائِمِ أَوْلَى بِهِمْ مِنِ ٱسْمِ ٱلْأَنَاسِيِّ بَلْ كَانَتِ ٱلْبَهَائِمُ أَحْسَنَ حَالًا مِنْهُمْ كَمَا سَلَفَ وَكَانُوا مَوْضِعَ قَوْلِهِ : إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا . تَعَيَّنَ أَنْ يَصْحَبَهُ مُذَكِّرٌ دَائِمٌ وَوَاعِظٌ مُسْتَمِرٌّ يَهْدِيهِ إِلَى قَصْدِ ٱلسَّبِيلِ وَجَادَّةِ ٱلْمَحَجَّةِ كُلَّمَا جَارَتْ بِهِ ٱلْخَيَالَاتُ ٱلْفَاسِدَةُ وَٱلْوَسَاوِسُ ٱلرَّدِيئَةُ . وَلِتَحْصِيلِ ذٰلِكَ وَرَدَ ٱلْأَمْرُ فِي قَوْلِهِ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ . فَقَدْ أَبَانَ أَنْ لَا صَلَاحَ لِلْكَافَّةِ إِلَّا بِوُجُودِ أُمَّةٍ تَكُونُ وَظِيفَتُهَا دُعَاءَ ٱلنَّاسِ لِلْخَيْرِ وَصَرْفَهُمْ عَنْ نَاحِيَةِ ٱلشَّرِّ وَأَمْرَهُمْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهْيَهُمْ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ . وَنَوَّهَ بِمِقْدَارِ هٰذِهِ ٱلْأُمَّةِ إِذَا وُجِدَتْ وَنَبَّهَ عَلَى شَرَفِهَا وَفَضْلِ مَكَانِهَا حَيْثُ جَعَلَهَا مُخْتَصَّةً بِٱلْفَلَاحِ

وَٱلْفَوْزِ بِحَقِيقَةِ ٱلسَّعَادَةِ إِذْ قَدْ تَكُونُ هِيَ فِي نَفْسِهَا صَالِحَةً وَبِهَا يَعُمُّ ٱلصَّلَاحُ فَيَصِيرُ فَلَاحُهَا أَصْلًا لِفَلَاحِ سِوَاهَا فَٱسْتَحَقَّتْ أَنْ يُقَالَ فِيهَا بِعِبَارَةِ ٱلتَّخْصِيصِ وَأُولَئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ وَإِنَّمَا يُمْكِنُ تَأْدِيَةُ تِلْكَ ٱلْوَظِيفَةِ وَٱلْقِيَامُ بِهَا حَقَّ ٱلْقِيَامِ لِقَوْمٍ تَقَدَّسَتْ نُفُوسُهُمْ وَتَنَقَّتْ طِبَاعُهُمْ وَتَهَذَّبَتْ أَخْلَاقُهُمْ وَتَنَوَّرَتْ عُقُولُهُمْ وَصَحَّتْ أَفْهَامُهُمْ وَرَجَحَتْ أَحْلَامُهُمْ وَصَدَقَتْ عَزَائِمُهُمْ وَعَلَتْ هِمَمُهُمْ وَعَرَفُوا أَجْنَاسَ ٱلْخَيْرِ وَأَحَاطُوا بِأَنْوَاعِهِ وَمَيَّزُوهَا مِنْ أَصْنَافِ ٱلشَّرِّ فَرُبَّمَا ٱشْتَبَهَ ٱلْحَالُ وَتَمَثَّلَ كُلٌّ فِي صُورَةِ ٱلْآخَرِ وَلَوْلَا ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ تَمَيُّزُ ٱلْخَيْرِ مِنَ ٱلشَّرِّ أَمْرًا عَسِرًا إِذْ كَانَ ٱلْأَسَاسُ ٱلضَّرَرَ وَٱلنَّفْعَ وَلَا تَجِدُ أَحَدًا يَجْهَلُهُمَا وَلَكِنْ رُبَّ ضَارٍّ فِي ٱلْحَالِ نَافِعٌ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ خَيْرًا وَرُبَّ نَافِعٍ فِي ٱلْحَالِ ضَارٌّ فِي ٱلْمَآلِ فَيَكُونُ شَرًّا وَرُبَّمَا ٱجْتَمَعَتِ ٱلْمَضَرَّةُ وَٱلْمَنْفَعَةُ وَٱسْتَوَتَا أَوْ غَلَبَتْ إِحْدَاهُمَا وَمِنْ هُنَا ثَبَتَ ٱلِٱحْتِيَاجُ لِوُجُودِ أُمَّةٍ تُفَرِّغُ أَنْفُسَهَا لِلِٱشْتِغَالِ بِذَلِكَ حَتَّى تُحْكِمَ أَمْرَهَا ثُمَّ تُلَاحِظُ ٱلنَّاسَ فِي جَمِيعِ حَرَكَاتِهِمْ لِتَدْعُوَهُمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَتَأْمُرَهُمْ بِمَا عَرَفَتْهُ خَيْرًا وَتَنْهَاهُمْ عَمَّا أَنْكَرَتْهُ وَعَرَفَتْهُ شَرًّا تَنْصَحُهُمْ بِٱلْتِزَامِ مَا عَرَفُوهُ وَتَدُلُّهُمْ عَلَى مَا جَهِلُوهُ فَأَكْثَرُ ٱلْمَنَافِعِ وَٱلْمَضَارِّ مَعْرُوفٌ بَيِّنٌ لَا يَخْتَلِفُ ٱلنَّاسُ عِلْمُهُ حَتَّى قِيلَ إِنَّ ٱلدِّينَ أَمْرٌ تَقْتَضِيهِ ٱلطِّبَاعُ وَتَدْفَعُ إِلَيْهِ ٱلْفِطْرَةُ وَلَكِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لِغَلَبَةِ هَوَاهُ قَدْ يُبِيحُ لِنَفْسِهِ مَا يَحْكُمُ عَقْلُهُ بِمَنْعِهِ وَيَجِدُ فِي طَبْعِهِ ٱسْتِقْبَاحَهُ أَلَا تَرَى إِلَى ٱلسَّارِقِ وَٱلْغَاصِبِ كَيْفَ يَسْتَجِيزُ أَنْ يَفْعَلَ

بغيره ما لا يستجيز ان يفعله به غيره . فمتى سرق ماله او اغتصب منه وجد بذلك في قلبه حرارة وفي نفسه ضيقا وتشوش فكره واختلت حاله و بطل نظام سيره . وهو لا يريد ذلك . بل يريد ان يدوم منشرح الصدر طيب النفس مستقيم الاحوال . فهو يحكم بقبح ذلك وحسن هذا . وان كان لا يعبر عن ذلك لقصوره عن معرفة الالفاظ بالحل والحرمة . والى ذلك المعنى الاشارة بقوله الحلال بين والحرام بين و بينهما امور مشتبهات . وعلى هذه الامة ان تعرف المتجددات الزمانية لتكون اعمالها مطابقة للاحوال الحاضرة . فرب امر يكون خيرا في عصر فيضحي شرا في غيره . وهل هذه الامة كائنة او كانت . لا اثبت ذلك ولا انفيه حتى افاوضك الحديث فيه . ان قلت هذه الامة متحققة في خطباء المنابر . قلت لك : اتريد بهم هؤلاء الذين تراهم وتسمعهم وهم انما تميزوا عن آخر طبقة من طبقات العامة لتمكنهم من قراءة نوع من انواع الخط . فغاية امر الواحد منهم ان يقرأ ديوان خطب صنفه بعض اسلافه كما تخيل مناسبا للشهور والمواسم فيتحفظ ما تعطيه تلك النقوش من مواد الالفاظ . او ينسخ صورة خطبة ليخف حملها عليه اذا قام بها خطيبا . يسرد الفاظا حفظها او نظر حروفها لا يعقل معناها ولا يفهم المراد منها . كما اذا لم يكن الديوان مشكولا ولم يقرإ الخطبة على ذي دراية سمعت منه المعجب والمطرب من اللحن الفاحش والتصحيف القبيح . فان منهم

مَنْ يَخَافُ عَلَى نَفْسِهِ ٱنْتِقَادَ ٱلسَّامِعِينَ فَيَقْرَأُ ٱلْخُطْبَةَ مِرَارًا عَلَى بَعْضِ اَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حَتَّى يَقِفَ عَلَى صِحَّةِ ٱلنُّطْقِ بِهَا. وَمِنْهُمْ مَنْ يَقْتَصِرُ عَلَى تَصْحِيحِ ٱلْحَدِيثِ ٱحْتِرَامًا لِكَلَامِ ٱلنَّبِيِّ. وَرُبَّمَا قَرَأَهُ عَلَى رَجُلٍ يُقِيمُهُ لَهُ بِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ فَيَضِلَّانِ جَمِيعًا. اِذْ لَا عَمَلَ لِصِنَاعَةِ ٱلنَّحْوِ اِلَّا بَعْدَ فَهْمِ ٱلْمَعْنَى. وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُبَالِي بِتَصْحِيحِ آيَةٍ وَلَا حَدِيثٍ. مَا اَظُنُّ اَنَّكَ تَسْتَجِيزُ اَنْ تَقُولَ اَرَدْتُ هٰؤُلَاءِ. فَاِنْ قُلْتَ اِنَّمَا اَرَدْتُ خُطَبَاءَ ٱلْاَسْلَافِ قُلْتُ لَكَ: تَجَاوَزْ عَصْرَ ٱلنَّبِيِّ وَعَصْرَ اَصْحَابِهِ ثُمَّ ٱقْرَأْ خُطَبَ ٱلْخُلَفَاءِ وَنُوَّابِهِمْ فِي ٱلنَّوَاحِي ثُمَّ ٱمْضِ فِي ذٰلِكَ طَبَقَةً بَعْدَ طَبَقَةٍ وَعَصْرًا خَلْفَ عَصْرٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ اِلَى وَقْتِكَ هٰذَا تَجِدْ اَنَّ جَمِيعَ ٱلْخُطَبِ يَدُورُ اَمْرُهَا عَلَى مَعَانٍ وَاحِدَةٍ وَاَلْفَاظٍ مُعَيَّنَةٍ لَا تُجَاوِزُهَا. وَهِيَ ٱلتَّزْهِيدُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلتَّرْغِيبُ فِي ٱلْآخِرَةِ وَتَبْشِيرُ ٱلْمُطِيعِ وَاِنْذَارُ ٱلْعَاصِي. يُكَرِّرُونَ ذٰلِكَ كُلَّ جُمْعَةٍ وَكُلَّ مَوْسِمٍ حَتَّى لَمْ يَبْقَ لَهُ تَأْثِيرٌ وَٱلْتَحَقَ بِٱلْاُمُورِ ٱلْمُعْتَادَةِ. اِنَّمَا يَسْمَعُ ٱلنَّاسُ اَصْوَاتًا ذَاتَ كَيْفِيَّاتٍ مُخْتَلِفَةٍ اِقَامَةً لِذٰلِكَ ٱلرَّسْمِ حَسْبَمَا يَصِلُ اِلَيْهِ فَهْمُ ٱلْعَامَّةِ مِنْ اَنَّ تِلْكَ ٱلصُّورَةَ هِيَ اِقَامَةُ ٱلدِّينِ. وَفِي صِفَةِ خُطَبَاءِ ٱلْعَصْرِ ٱلثَّانِي بَعْدَ عَصْرِ ٱلنَّبِيِّ وَاَصْحَابِهِ يَقُولُ شَاعِرُهُ:

وَدَّنُوا لَنَا ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَرْضَعُونَهَا ... اَفَاوِيقَ حَتَّى مَا يَدُرُّ لَنَا ثُعْلُ

وَٱلثُّعْلُ بِفَتْحِ اَوَّلِهِ اَوْ ضَمِّهِ وَسُكُونِ ثَانِيهِ زِيَادَةٌ فِي اَطْبَاءِ ٱلنَّاقَةِ وَغَيْرِهَا تُشْبِهُ حَلَمَةَ ٱلثَّدْيِ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا فِي ٱلْعَادَةِ لَبَنٌ. وَلَا تَظُنَّ اَنِّي اَنْتَقِصُ بِذٰلِكَ خُطَبَاءَ ٱلْعُصُورِ ٱلْاُولَى فَاِنَّهُمْ كَانُوا يَرَوْنَ

كِفَايَةَ ذٰلِكَ لِكَثْرَةِ أَهْلِ ٱلْمَعْرِفَةِ حِينَ ذَاكَ. وَبِٱلْجُمْلَةِ فَكَيْفَمَا كَانَ ٱلْحَالُ فِي ٱلْخَطَابَةِ فَهِيَ غَيْرُ كَافِيَةٍ فِي تَحَقُّقِ ٱلدُّعَاءِ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَٱلْأَمْرِ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّهْيِ عَنِ ٱلْمُنْكَرِ. فَلَا تَكُونُ ٱلْأُمَّةُ مُتَحَقِّقَةً بِخُطَبَاءِ ٱلْمَنَابِرِ. وَإِنْ قُلْتَ: إِنَّهَا ٱلْعُلَمَاءُ قُلْتُ: هٰذَا قَرِيبٌ وَلٰكِنْ نَنْظُرُ. أَمَّا عُلَمَاءُ ٱلصَّدْرِ ٱلْأَوَّلِ جَزَاهُمُ ٱللّٰهُ عَنِ ٱلدِّينِ وَٱلْأُمَّةِ خَيْرًا فَكَانَ ٱشْتِغَالُهُمْ بِجَمْعِ ٱلْأُصُولِ وَتَنْقِيَتِهَا مِنَ ٱلدَّخِيلِ ٱلَّذِي بَادَرَ بِإِدْخَالِهِ أَهْلُ ٱلنِّفَاقِ وَٱلزَّنْدَقَةِ لِأَغْرَاضٍ شَتَّى. مِنْهَا ٱلتَّشْكِيكُ فِي ٱلدِّينِ. وَمِنْهَا ٱلْتِمَاسُ مَا عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ وَمِنْهَا ٱبْتِنَاءُ مَنْزِلَةٍ فِي قُلُوبِ ٱلْعَامَّةِ إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُحِيطُ بِهِ مَنْ قَرَأَ ٱلتَّوَارِيخَ وَتَأَمَّلَهَا. وَٱجْتِهَادُهُمْ وَبَذْلُ هِمَمِهِمْ فِي تَفْرِيعِ ٱلْفُرُوعِ وَتَقْرِيرِ أَحْكَامِ ٱلْحَوَادِثِ مَا كَانَ مِنْهَا وَمَا لَمْ يَكُنْ يُفْرَضُ وَيُقَدَّرُ حَتَّى إِذَا وَقَعَتِ ٱلْحَادِثَةُ وَجَدَتْ لَهَا حُكْمًا حَاضِرًا وَأَمْرًا كَافِيًا فِي إِنْقَاذِ أَعْمَالِهِمْ مَانِعًا لَهُمْ عَنْ رَاحَةِ أَبْدَانِهِمْ فَكَانَ ٱلْوَاحِدُ مِنْهُمْ يَقُولُ لَا يُنَالُ ٱلْعِلْمُ بِرَاحَةِ ٱلْجِسْمِ. وَأَمَّا مَنْ خَلَفَهُمْ فَكَانَ إِقْبَالُهُمْ عَلَى دَوَاوِينِ مَشْيَخَتِهِمْ يُهَذِّبُونَهَا وَيُجِيدُونَ تَرْتِيبَهَا وَيُوَضِّحُونَ مَا يَحْتَاجُ لِلتَّوْضِيحِ مِنْهَا وَيَسْتَدْرِكُونَ عَلَيْهِمْ مَا فَاتَهُمْ تَخْرِيجًا عَلَى أُصُولِهِمِ ٱلَّتِي قَرَّرُوهَا إِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلْأَعْمَالِ نَاظِمًا لَهُمْ فِي سِلْكِ سَلَفِهِمْ. فَكَانَ حُكْمُهُمْ وَاحِدًا لَا يَفْرُغُ لَهُمْ وَقْتٌ يَسْتَعْمِلُونَهُ فِي تَعَهُّدِ ٱلنَّاسِ وَدُعَائِهِمْ إِلَى ٱلْخَيْرِ كَمَا هُوَ وَظِيفَةُ تِلْكَ ٱلْأُمَّةِ. ثُمَّ جَاءَ مِنْ بَعْدِ هٰؤُلَاءِ خَلَفٌ ٱتَّخَذُوا ٱلْجَدَلَ شِرْعَةً وَٱلْمُنَازَعَةَ سَبِيلًا. وَخَرَجَ بِهِمْ ذٰلِكَ

إلي سباب ومشاتمة واحتقار قوم قوماً ورجع بهم إلى القدح في السلف وصار الاختلاف بين أهل المذاهب منشئاً لعداوة إن لم تكن فوق العداوة بين أهل الأديان فليست دونها. فكثيراً ما كانت سبباً لتجريد السيوف يقاتل بعضهم بعضاً حتى دخل بينهم الحكام لإصلاحهم وكانوا هم الأولى بذلك. وهو حقهم الذي ما كان ينبغي أن يمكنوا منه غيرهم وصاروا أحزاباً ينحاز كل حزب إلى ملك من ملوك النواحي وصارت المدائن بمنزلة المعاقل والحصون حتى دخل أهلها تحت نظر السياسة وقهرها وبدلت سيوف المنابر بقطع خشب في صورتها يتكئ عليها الخطباء حال صعودهم وهبوطهم. وآل أمر العلماء إلى كونهم طائفة من الطوائف المربوبة المسوسة تلحظ حركاتهم أرصاد الحكومة وتأخذهم عيونها منعاً لتعدي بعضهم على بعض وحسماً لمادة الشر بينهم. ولعبت بهم أهواء الملوك الجائرة الجهلة من التتر والديلم وغيرهم. ونشأ من ذلك مفاسد عظيمة منها تمكن كثير من الجهلة الذين أمضوا صدور أعمارهم في اللهو واللعب دون فكرة في تحصيل سبب من أسباب المعيشة حتى دهمهم وقت الاحتياج لذلك من الانتساب إلى العلم وأهله فصنفوا كتباً ملأوها أحاديث كاذبة وحكايات غير معقولة وروجوها على العامة وأكلوا بها الخبز وخلطوا ما ليس من الدين به. فأي مفسدة أكبر من ذلك وليس له سبب إلا افتراق العلماء وإهمالهم أمر الرعاية. ولم يزل الاختلاف الذي هو منشأ تلك

ٱلعَدَاوَةِ مُسْتَتِرًا يُخْفِيهِ ٱلضَّعفُ وَتُظهِرُهُ ٱلقُوَّةُ كَمَا تَرَى. فَهَلْ يَسُوغُ لَكَ بَعدَ مَعرِفَةِ هٰذَا اَنْ تَقُولَ اِنَّهَا ٱلعُلَمَاءُ. وَاِنْ قُلتَ اِنَّهَا ٱلوُعَّاظُ قُلتُ هٰذَا اَقرَبُ فَاِنَّ ٱلوِعَاظَةَ كَانَتْ حِرْفَةً شَائِعَـةً وَصِنَاعَةً فَاشِيَةً كَانَ اَهلُهَا يَتَنَافَسُونَهَا وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ اَخَذَ عَلَيهَا ٱلرَّوَاتِبَ مِنْ بُيُوتِ ٱلأَموَالِ وَاَكثَرُهُمْ كَانَ يَلُمُّ بِهَا ٱلقِطَعَ مِنَ ٱلعَامَّةِ ٱلَّذِينَ يَحضُرُونَ مَجَالِسَهُمْ. فَكَانَ ٱلوَاعِظُ اِذَا فَرَغَ مِنْ كَلَامِهِ ٱلَّذِي اَعَدَّهُ لِذٰلِكَ ٱلمَجلِسِ بَسَطَ مِندِيلَهُ وَطَرَحَ فِيهِ كُلٌّ مَا سَمَحَتْ بِهِ نَفسُهُ

وَصُنِّفَتْ لِاَجلِ ٱلوِعَاظَةِ كُتُبٌ لَقَّبُوهَا بِٱلمَجَالِسِ تَشتَمِـلُ عَلَى تَفسِيرِ آيَاتٍ مِنْ آيَاتِ ٱلتَّرغِيبِ وَٱلتَّرهِيبِ وَبَعضِ اَحَادِيثَ صَحِيحَةٍ وَبَعضِ اَشعَارٍ وَحِكَايَاتٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلوَادِي. وَنَمُوذَجُ ذٰلِكَ مَا تَرَاهُ فِي ٱلمَسجِدِ ٱلحُسَينِيِّ بَعدَ ٱلعَصرِ فِي رَمَضَانَ. وَبِٱلجُمـلَةِ فَمَحصُولُ تِلكَ ٱلكُتُبِ هُوَ مَحصُولُ خُطَبِ ٱلمَنَابِرِ. وَاِنْ كَانَ بَعضُ اَهلِ تِلكَ ٱلصِّنَاعَةِ وَهُمْ قَلِيلٌ كَانُوا مِنَ ٱلفِطنَةِ وَٱلذَّكَاءِ وَبَرَاعَةِ ٱلمَنطِقِ وَبَلَاغَةِ ٱلعِبَارَةِ بِمَكَانٍ رَفِيعٍ. فَاِنَّ اَكثَرَهُمُ ٱلقُصَّاصُ ٱلجَهَلَةُ ٱلَّذِينَ غَايَةُ اَمرِ ٱلوَاحِدِ مِنْهُمْ اَنْ يُلَفِّقَ اَحَادِيثَ يَضَعُهَا اَوْ وَضَعَهَا غَيرُهُ يُفرِحُ بِهَا نُفُوسَ ٱلعَامَّةِ بِمَا يَذكُرُ مِنْ كَثرَةِ ٱلثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ ٱلعَمَلِ وَمَا يُهَوِّنُ مِنْ اَمرِ ٱلمَعصِيَةِ حَتَّى يَكُونَ ذٰلِكَ بِمَنزِلَةِ ٱلتَّحرِيضِ عَلَى ٱرتِكَابِ ٱلشَّهَوَاتِ وَٱلِاستِرسَالِ مَعَ ٱلأَهوَاءِ وَطَرحِ ٱلمُبَالَاةِ ٱعتِمَادًا عَلَى مَا رَكَزُوهُ فِي نُفُوسِهِمْ وَشَغَلُوا بِهِ عُقُولَهُمْ مِنْ كَثرَةِ اَسبَابِ ٱلمَغفِرَةِ وَسَعَةِ ٱلرَّحمَـةِ وَعِظَمِ ٱلعَفوِ اِلَى غَيرِ ذٰلِكَ. لَا

يَتكَلَّمُونَ فِي سِوَاهُ حَتَّى صَارَ سَبَبًا قَوِيًّا فِي خُمُودِ ٱلطِّبَاعِ وَٱسْتِحْكَامِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلِٱنْصِرَافِ عَنْ تَذَكُّرِ مَعْنَى ٱلِٱجْتِمَاعِ ٱلْإِنْسَانِيِّ وَتَعَقُّلِ ضَرُورَةِ ٱلتَّعَاوُنِ وَٱلتَّفَكُّرِ فِي إِحْكَامِ أَسْبَابِ ٱلتَّعَارُفِ وَٱلتَّوَاصُلِ وَمُحَاوَرَةِ ٱلنَّاسِ بَعْضُهُمْ بَعْضًا فِيمَا يُوجِبُ عِزَّ ٱلْأُمَّةِ وَسَعَادَتَهَا وَسُرُورَ آحَادِهَا وَٱبْتِهَاجَهُمْ بِٱلتَّنَاصُفِ وَإِفْضَالَ ٱلْأَقْوِيَاءِ عَلَى ٱلضُّعَفَاءِ مِنْ ثِمَارِ قِوَاهُمْ فَلَا يَتَلَاقَوْنَ إِلَّا وَصُدُورُهُمْ مُنْشَرِحَةٌ وَقُلُوبُهُمْ فَرِحَةٌ وَثُغُورُهُمْ بَاسِمَةٌ وَوُجُوهُهُمْ مُنْبَسِطَةٌ . قَدْ أَمِنَ بَعْضُهُمْ غَوَائِلَ بَعْضٍ وَتَحَقَّقُوا ٱلسَّلَامَةَ مِنْ مَقَاصِدِ ٱلسُّوءِ وَٱلتَّمَاكُرِ بِٱسْتِلَابِ ٱلْأَمْوَالِ وَقَهْرِ ٱلنُّفُوسِ وَتَسْخِيرِ ٱلْأَقْوِيَاءِ ٱلضُّعَفَاءَ فِيمَا يَخْتَصُّونَ بِهِ مِنَ ٱللَّذَّاتِ وَيُحَافِظُونَ عَلَيْهِ بِجُدْرَانِ ٱلصُّخُورِ وَأَبْوَابِ ٱلْحَدِيدِ حَتَّى كَانَ ذٰلِكَ مُوَلِّدًا فِي ٱلنَّاسِ كَثِيرًا مِنْ خَسِيسِ ٱلطِّبَاعِ ٱلَّتِي تَمِيلُ بِأَصْحَابِهَا نَحْوَ ٱلِٱكْتِسَابِ بِجِهَةِ ٱلسَّرِقَةِ وَٱلسُّؤَالِ بِٱلضَّرَاعَةِ وَٱلتَّرَامِي عَلَى أَعْتَابِ ٱلْمُكْثِرِينَ . وَأَنْتَ لِذٰلِكَ عَارِفٌ وَإِلَيْهِ نَاظِرٌ لَا تَجْهَلُ تِلْكَ ٱلطَّوَائِفَ ٱلْكَاسِبَةَ بِهٰذِهِ ٱلْوُجُوهِ ٱلرَّدِيئَةِ . وَأَسْوَأُهَا حَالًا وَأَخَسُّهَا عَمَلًا وَأَبْغَضُهَا مُتَرَدَّدًا هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ أَطْفَأُوا أَنْوَارَ عُقُولِهِمُ ٱلْخَلْقِيَّةِ وَأَخْمَدُوا لَهَبَ قِوَاهُمُ ٱلطَّبِيعِيَّةِ وَعَطَّلُوا جَوَارِحَ أَبْدَانِهِمْ بِمَا يَمْلَأُونَ بِهِ رُؤُوسَهُمْ مِنْ أَشْرِبَةٍ خُرَافَاتٍ تُخْرِجُ بِهِمْ مِنْ نَوْعِ ٱلْحَيَوَانِ لَا يَجُوزُ أَنْ أَقُولَ مِنْ نَوْعِ ٱلْإِنْسَانِ يَؤُولُ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱلِٱحْتِيَاجِ وَطَلَبِ ٱلْمَعَاشِ بِأَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانٍ ٱنْتَقَضَتْ عَنْهُمْ وَشَغَلُوا بِهَا كَثِيرًا مِنَ ٱلْفَرَاغِ أَيْ أَبْدَانِهِمْ وَأَبْدَانَ نَسْلِهِمْ إِلَى أَنْ يَطْرَحُوا نُفُوسَهُمْ بَيْنَ أَيْدِي أَهْلِ ٱلْمَكَاسِبِ بِطُرُقِ

ٱلْأَعْمَالِ ٱلْمُتْعِبَةِ وَٱلْمُحَاوَلَاتِ ٱلشَّاقَّةِ . يُذَكِّرُونَهُمْ ثَوَابَ ٱلصَّدَقَاتِ وَيُلْحِفُونَ فِي ٱلسُّؤَالِ حَتَّى تَمَلَّ ذٰلِكَ نُفُوسُهُمْ وَيَضْعُفَ يَقِينُهُمْ وَتَقْسُوَ قُلُوبُهُمْ وَيَلْتَمِسُوا وُجُوهًا لِلطَّعْنِ عَلَى تِلْكَ ٱلطَّائِفَةِ لَا يَفْرِقُونَ بَيْنَ أَهْلِ ٱلنَّزَاهَةِ مِنْهُمْ وَغَيْرِهِمْ . فَيَكُونُ ٱلْقَدْحُ عَامًّا وَٱلِٱحْتِقَارُ شَامِلًا . وَجِهَةُ ٱلِٱعْتِبَارِ فِيهِ أَنَّ مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِوَظِيفَةِ ٱلْهُدَى وَدُعَاءِ ٱلنَّاسِ إِلَى ٱلْخَيْرِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ أَبْعَدَهُمْ مِنَ ٱلتَّصَنُّعِ وَأَحْرَصَهُمْ عَلَى ٱلْكَمَالِ . فَإِنَّ أَدْنَى هَفْوَةٍ مِنْهُ تُسْقِطُ ٱعْتِبَارَهُ وَتُسَهِّلُ ٱلتَّهَاوُنَ بِهِ فَلَا يَكُونُ لِكَلَامِهِ تَأْثِيرٌ فِي ٱلْقُلُوبِ وَيَصِيرُ مَجْلِسُهُ مَسْلَاةً يُتَلَهَّى بِحُضُورِهِ فَكَثِيرًا مَا كَانَتْ تِلْكَ ٱلْمَجَالِسُ مَوَاعِدَ لِأَهْلِ ٱلْخَلَاعَاتِ وَٱلْمُجُونِ

البحث السابع

في الخطب عند العرب

(نقلًا عن الجاحظ والشريشي والقيرواني)

إِنَّا لَا نَعْرِفُ ٱلْخُطَبَ إِلَّا لِلْعَرَبِ وَٱلْفُرْسِ . فَأَمَّا ٱلْهِنْدُ فَإِنَّمَا لَهُمْ مَعَانٍ مُدَوَّنَةٌ وَكُتُبٌ مُخَلَّدَةٌ لَا تُضَافُ إِلَى رَجُلٍ مَعْرُوفٍ وَلَا إِلَى عَالِمٍ مَوْصُوفٍ . وَإِنَّمَا هِيَ كُتُبٌ مُتَوَارَثَةٌ وَآدَابٌ عَلَى وَجْهِ ٱلدَّهْرِ سَائِرَةٌ مَذْكُورَةٌ . وَلِلْيُونَانِيِّينَ فَلْسَفَةٌ وَصِنَاعَةُ مَنْطِقٍ وَكَانَ صَاحِبُ ٱلْمَنْطِقِ نَفْسُهُ عَيِيَّ ٱللِّسَانِ غَيْرَ مَوْصُوفٍ بِٱلْبَيَانِ مَعَ عِلْمِهِ بِتَمْيِيزِ ٱلْكَلَامِ وَتَفْصِيلِهِ وَمَعَانِيهِ وَبِخَصَائِصِهِ . وَهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ جَالِينُوسَ كَانَ أَنْطَقَ ٱلنَّاسِ وَلَمْ يَذْكُرُوهُ بِٱلْخَطَابَةِ وَلَا بِهٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ

ٱلْبَلَاغَةِ وَفِي ٱلْفُرْسِ خُطَبَاءُ إِلَّا أَنَّ كَلَامَ ٱلْفُرْسِ وَكُلَّ مَعْنًى لَهُمْ فَإِنَّمَا هُوَ عَنْ طُولِ فِكْرَةٍ وَعَنِ ٱجْتِهَادِ رَأْيٍ وَعَنْ مُشَاوَرَةٍ وَمُعَاوَنَةٍ وَعَنْ طُولِ ٱلتَّفَكُّرِ وَدِرَاسَةِ ٱلْكُتُبِ وَحِكَايَةِ ٱلثَّانِي عِلْمَ ٱلْأَوَّلِ وَزِيَادَةِ ٱلثَّالِثِ فِي عِلْمِ ٱلثَّانِي حَتَّى ٱجْتَمَعَتْ ثِمَارُ تِلْكَ ٱلْفِكَرِ عِنْدَ آخِرِهِمْ. وَكُلُّ شَيْءٍ لِلْعَرَبِ فَإِنَّمَا هُوَ بَدِيهَةٌ وَٱرْتِجَالٌ وَكَأَنَّهُ إِلْهَامٌ وَلَيْسَتْ هُنَاكَ مُعَانَاةٌ وَلَا مُكَابَدَةٌ وَلَا إِجَالَةُ فِكْرٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٌ وَإِنَّمَا هُوَ أَنْ يَصْرِفَ أَحَدُهُمْ وَهْمَهُ إِلَى ٱلْكَلَامِ وَإِلَى زَجْرِ يَوْمِ ٱلْخِصَامِ أَوْ حِينَ يَمْتَحُ عَلَى رَأْسِ بِئْرٍ أَوْ يَحْدُو بِبَعِيرٍ أَوْ عِنْدَ ٱلْمُقَارَعَةِ أَوِ ٱلْمُنَاقَلَةِ أَوْ عِنْدَ صِرَاعٍ أَوْ حَرْبٍ فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ يَصْرِفَ وَهْمَهُ إِلَى جُمْلَةِ ٱلْمَذْهَبِ وَإِلَى ٱلْعَمُودِ ٱلَّذِي إِلَيْهِ يَقْصِدُ فَتَأْتِيهِ ٱلْمَعَانِي أَرْسَالًا وَتَنْهَالُ عَلَيْهِ ٱلْأَلْفَاظُ ٱنْثِيَالًا. ثُمَّ لَا يُقَيِّدُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا يَدْرُسُهُ أَحَدٌ مِنْ وَلَدِهِ وَكَانُوا أُمِّيِّينَ لَا يَكْتُبُونَ وَمَطْبُوعِينَ لَا يَتَكَلَّفُونَ وَكَانَ ٱلْكَلَامُ ٱلْجَيِّدُ عِنْدَهُمْ أَظْهَرَ وَأَكْثَرَ وَهُمْ عَلَيْهِ أَقْدَرُ وَلَهُ أَقْهَرُ وَكُلُّ وَاحِدٍ فِي نَفْسِهِ أَنْطَقُ وَمَكَانُهُ مِنَ ٱلْبَيَانِ أَرْفَعُ وَخُطَبَاؤُهُمْ لِلْكَلَامِ أَجْوَدُ وَٱلْكَلَامُ عَلَيْهِمْ أَسْهَلُ وَهُوَ عَلَيْهِمْ أَيْسَرُ مِنْ أَنْ يَفْتَقِرُوا إِلَى تَحَفُّظٍ وَيَحْتَاجُوا إِلَى تَدَارُسٍ. وَلَيْسَ هُمْ كَمَنْ حَفِظَ عِلْمَ غَيْرِهِ وَٱحْتَذَى عَلَى كَلَامِ مَنْ قَبْلَهُ فَمَا يَحْفَظُونَ إِلَّا مَا عَلِقَ بِقُلُوبِهِمْ وَٱلْتَحَمَ بِصُدُورِهِمْ وَٱتَّصَلَ بِعُقُولِهِمْ مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ وَلَا قَصْدٍ وَلَا تَحَفُّظٍ وَلَا طَلَبٍ وَإِنَّ هٰذَا ٱلَّذِي فِي أَيْدِينَا جُزْءٌ مِنْهُ (اه)

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ فِي ٱلْخَطَابَةِ أَيْضًا قُسُّ بْنُ سَاعِدَةَ ٱلْإِيَادِيُّ أُسْقُفُ

نَجْرَانَ خَطِيبُ ٱلْعَرَبِ وَشَاعِرُهَا وَحَاكِمُهَا وَحَكِيمُهَا وَحَكَمُهَا فِي عَصْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ عَلَا عَلَى شَرَفٍ وَخَطَبَ عَلَيْهِ. وَأَوَّلُ مَنْ قَالَ فِي كَلَامِهِ: أَمَّا بَعْدُ. قِيلَ: وَبَعْدُ لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ وَفَصْلُ ٱلْخِطَابِ وَٱلَّذِي أُوتِيَهُ قُسٌّ هُوَ فَصْلُ ٱلْخُصُومَةِ وَهٰذَا يُؤَيِّدُ مَا قِيلَ عَنْهُ إِنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَالَ: ٱلْبَيِّنَةُ عَلَى ٱلْمُدَّعِي وَٱلْيَمِينُ عَلَى مَنْ أَنْكَرَ. وَأَوَّلُ مَنِ ٱتَّكَأَ عِنْدَ خُطْبَتِهِ عَلَى سَيْفٍ أَوْ عَصًا. وَأَوَّلُ مَنْ كَتَبَ: مِنْ فُلَانٍ إِلَى فُلَانٍ. أَدْرَكَهُ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ وَرَآهُ بِعُكَاظَ فَكَانَ يَأْثُرُ عَنْهُ كَلَامًا يَسْمَعُهُ مِنْهُ. وَكَانَ مُؤْمِنًا بِٱللّٰهِ وَٱلْبَعْثِ. بَلِيغَ ٱلنُّطْقِ وَفِيهِ يَقُولُ ٱلْأَعْشَى:

وَأَفْصَحُ مِنْ قُسٍّ وَأَجْرَى مِنَ ٱلَّذِي
بِذِي ٱلْغِيلِ (١) مِنْ خَفَّانَ أَصْبَحَ خَادِرَا

وَكَانَ قُسٌّ يَفِدُ عَلَى قَيْصَرَ زَائِرًا فَيُكْرِمُهُ وَيُعَظِّمُهُ فَقَالَ لَهُ قَيْصَرُ: مَا أَفْضَلُ ٱلْعِلْمِ. قَالَ: مَعْرِفَةُ ٱلرَّجُلِ بِنَفْسِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْعَقْلِ. قَالَ: وُقُوفُ ٱلْمَرْءِ عِنْدَ عِلْمِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْأَدَبِ. قَالَ: ٱسْتِبْقَاءُ ٱلرَّجُلِ مَاءَ وَجْهِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمُرُوءَةِ. قَالَ: قِلَّةُ رَغْبَةِ ٱلْمَرْءِ فِي إِخْلَافِ وَعْدِهِ. قَالَ: فَمَا أَفْضَلُ ٱلْمَالِ. قَالَ: مَا قُضِيَ بِهِ ٱلْحَقُّ

وَقِيلَ إِنَّ ٱلْجَارُودَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ لَمَّا وَفَدَ فِي وَفْدِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ عَلَى رَسُولِ ٱلْمُسْلِمِينَ وَكَانَ سَيِّدًا فِي قَوْمِهِ مُعَظَّمًا فِي عَشِيرَتِهِ فَأَسْلَمَ سَأَلَهُ

---

(١) وروى الميداني: بذي الغيل

ٱلرَّسُولُ: يَا جَارُودُ هَلْ فِي جَمَاعَةِ عَبْدِ ٱلْقَيْسِ مَنْ يَعْرِفُ لَنَا قُسًّا. قَالَ: كُلُّنَا نَعْرِفُهُ. وَأَنَا كُنْتُ مِنْ بَيْنِهِمْ أَقْفُو أَثَرَهُ وَأَطَّلِعُ خَبَرَهُ. كَانَ قُسٌّ سَبْطًا مِنْ أَسْبَاطِ ٱلْعَرَبِ. صَحِيحَ ٱلنَّسَبِ فَصِيحًا ذَا شَيْبَةٍ حَسَنَةٍ يَتَقَفَّرُ ٱلْقِفَارَ. وَلَا تَكُنُّهُ دَارٌ. وَلَا يُقِرُّهُ قَرَارٌ. يَتَحَسَّى فِي تَقَفُّرِهِ بَعْضَ ٱلطَّعَامِ. وَيَأْنَسُ بِٱلْوُحُوشِ وَٱلْهَوَامِّ. يَلْبَسُ ٱلْمُسُوحَ. وَيَتَّبِعُ ٱلسُّيَّاحَ عَلَى مِنْهَاجِ ٱلْمَسِيحِ. لَا يُغَيِّرُ ٱلرَّهْبَانِيَّةَ. مُقِرًّا بِٱلْوَحْدَانِيَّةِ. تُضْرَبُ بِحِكْمَتِهِ ٱلْأَمْثَالُ. وَتُكْشَفُ بِهِ ٱلْأَهْوَالُ. وَتَتْبَعُهُ ٱلْأَبْدَالُ. أَدْرَكَ رَأْسَ ٱلْحَوَارِيِّينَ سِمْعَانَ فَهُوَ أَوَّلُ مَنْ تَأَلَّهَ مِنَ ٱلْعَرَبِ. وَأَعْبَدُ مَنْ تَعَبَّدَ فِي ٱلْحِقَبِ. وَأَيْقَنَ بِٱلْبَعْثِ وَٱلْحِسَابِ. وَحَذِرَ سُوءَ ٱلْمُنْقَلَبِ وَٱلْمَآبِ. وَوَعَظَ بِذِكْرِ ٱلْمَوْتِ. وَأَمَرَ بِٱلْعَمَلِ قَبْلَ ٱلْفَوْتِ. ٱلْحَسَنُ ٱلْأَلْفَاظِ. ٱلْخَاطِبُ بِسُوقِ عُكَاظَ. ٱلْعَارِفُ بِشَرْقٍ وَغَرْبٍ. وَيَابِسٍ وَرَطْبٍ. وَأُجَاجٍ وَعَذْبٍ. كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. وَٱلْعَرَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ يُقْسِمُ بِٱلرَّبِّ ٱلَّذِي هُوَ لَهُ. لَيَبْلُغَنَّ ٱلْكِتَابُ أَجَلَهُ. وَلَيُوَفَّيَنَّ كُلُّ عَامِلٍ عَمَلَهُ. ثُمَّ أَنْشَأَ يَقُولُ:

هَاجَ لِلْقَلْبِ مِنْ هَوَاهُ ٱدِّكَارُ ‏ وَلَيَالٍ خِلَالُهُنَّ نَهَارُ
وَجِبَالٌ شَوَامِخٌ رَاسِيَاتٌ ‏ وَبِحَارٌ مِيَاهُهُنَّ غِزَارُ
وَنُجُومٌ يَحُثُّهَا قَمَرُ ٱللَّيْلِ (١) ‏م وَشَمْسٌ فِي كُلِّ يَوْمٍ تُدَارُ
ضَوْؤُهَا يَطْمِسُ ٱلْعُيُونَ وَإِرْ ‏ عَادٌ شَدِيدٌ فِي ٱلْخَافِقَيْنِ مُثَارُ (٢)
وَغُلَامٌ وَأَشْمَطٌ وَرَضِيعٌ ‏ كُلُّهُمْ فِي ٱلتُّرَابِ يَوْمًا يُزَارُ

(١) وَيُرْوَى: وَنُجُومٌ تَلُوحُ فِي ظُلَمِ ٱللَّيْلِ (٢) وَيُرْوَى: مُطَارُ

وَقُصُورٌ مَشِيدَةٌ حوَتِ ٱلْخَيْـرَ م وَأُخرَى خَوَتْ (١) فَهُنَّ قِفَارُ
وَكَثِـيرٌ مِمَّـا تُقصِّرُ عَنـهُ حَدْسَةُ ٱلنَّاظِرِ ٱلَّذِي لَا يُحَـارُ
وَٱلَّذِي قَدْ ذَكَرْتُ دَلَّ عَلَى ٱللهِ م نُفُوسًا لَهَا هُـدًى وَٱعْتِبَارُ

فَقَالَ رَسُولُ ٱلْمُسْلِمِينَ: يَرْحَمُ ٱللهُ قُسًّا إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يُبْعَثَ يَوْمَ ٱلْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحْدَهُ

وَمِنْ خُطَبِ قُسٍّ ٱلْمَأْثُورَةِ مَا رَوَاهُ أَبُو بَكْرٍ ٱلصِّدِّيقُ قَالَ: لَسْتُ أَنْسَاهُ بِسُوقِ عُـكَاظَ (وَهُوَ سُوقٌ بَيْنَ بَطْنِ ٱلنَّخْلَةِ وَٱلطَّائِفِ كَانَ لِثَقِيفٍ وَقَيْسٍ) عَلَى جَمَلٍ لَهُ أَوْرَقَ. وَهُوَ يَتَـكَلَّمُ بِكَـلَامٍ مُوْنِقٍ. فَقَالَ حِينَ خَطَبَ فَأَطْنَبَ. وَرَغَّبَ وَرَهَّبَ. وَحَذَّرَ وَأَنْذَرَ. وَقَالَ فِي خُطْبَتِـهِ: أَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱسْمَعُوا وَعُوا. وَإِذَا وَعَيْتُمْ فَٱنْتَفِعُوا. إِنَّـهُ مَنْ عَاشَ مَاتَ. وَمَنْ مَاتَ فَاتَ. وَكُلُّ مَا هُوَ آتٍ آتٍ. مَطَرٌ وَنَبَاتٌ. وَأَرْزَاقٌ وَأَقْوَاتٌ. وَآبَاءٌ وَأُمَّهَاتٌ. وَأَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتٌ. وَجَمْعٌ وَشَتَاتٌ. وَآيَاتٌ بَعْدَ آيَاتٍ. لَيْـلٌ مَوْضُوعٌ. وَسَقْفٌ مَرْفُوعٌ. وَنُجُومٌ تَغُورُ. وَأَرَاضٍ تَمُورُ. وَبُحُورٌ تَمُوجُ. وَتِجَارَةٌ تَرُوجُ. وَضَوْءٌ وَظَلَامٌ. وَبِرٌّ وَآثَامٌ. وَمَطْعَمٌ وَمَشْرَبٌ. وَمَلْبَسٌ وَمَرْكَبٌ. أَلَا إِنَّ أَبْلَغَ ٱلْعِظَاتِ. ٱلسَّيْرُ فِي ٱلْفَلَوَاتِ. وَٱلنَّظَرُ إِلَى مَحَلِّ ٱلْأَمْوَاتِ. إِنَّ فِي ٱلسَّمَاءِ لَخَبَرًا. وَإِنَّ فِي ٱلْأَرْضِ لَعِبَرًا. لَيْـلٌ دَاجٍ. وَسَمَاءٌ ذَاتُ أَبْرَاجٍ. وَأَرْضٌ ذَاتُ رِتَاجٍ. وَبِحَارٌ ذَاتُ أَمْوَاجٍ. مَا لِي أَرَى ٱلنَّاسَ يَذْهَبُونَ فَـلَا يَرْجِعُونَ. أَرَضُوا بِٱلْمُقَامِ فَأَقَامُوا. أَمْ تُرِكُوا هُنَاكَ فَنَامُوا. أَقْسَمَ قُسٌّ

(١) ويروى: خلت

بِٱللهِ قَسَماً حقًّا لَا آثِمًا فِيهِ وَلَا حَانِثًا إِنَّ لِلهِ دِينًا هُوَ أَحَبُّ إِلَيهِ مِنْ دِينِكُمُ ٱلَّذِي أَنتُمْ عَلَيهِ. ثُمَّ قَالَ: تَبًّا لِأَرْبَابِ ٱلْغَفْلَةِ مِنَ ٱلْأُمَمِ ٱلْخَالِيَةِ. وَٱلْقُرُونِ ٱلْمَاضِيَةِ. يَا مَعْشَرَ إِيَادٍ. أَيْنَ ٱلْآبَاءُ وَٱلْأَجْدَادُ. وَأَيْنَ ٱلْمَرِيضُ وَٱلْعُوَّادُ. وَأَيْنَ ٱلْفَرَاعِنَةُ ٱلشِّدَادُ. أَيْنَ مَنْ بَنَى وَشَيَّدَ. وَزَخْرَفَ وَنَجَّدَ. وَغَرَّهُ ٱلْمَالُ وَٱلْوَلَدُ. أَيْنَ مَنْ بَغَى وَطَغَى. وَجَمَعَ فَأَوْعَى. وَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَى. أَلَمْ يَكُونُوا أَكْثَرَ مِنْكُمْ أَمْوَالًا. وَأَطْوَلَ مِنْكُمْ آجَالًا. طَحَنَهُمُ ٱلثَّرَى بِكَلْكَلِهِ. وَمَزَّقَهُمْ بِتَطَاوُلِهِ. فَتِلْكَ عِظَامُهُمْ بَالِيَةٌ. وَبُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ. عَمَرَتْهَا ٱلذِّئَابُ ٱلْعَاوِيَةُ. كَلَّا بَلْ هُوَ ٱلْمَعْبُودُ. ثُمَّ أَنشَأَ يَقُولُ:

فِي ٱلذَّاهِبِينَ ٱلْأَوَّلِينَ م مِنَ ٱلْقُرُونِ لَنَا بَصَائِرْ
لَمَّا رَأَيْتُ مَوَارِدًا لِلْمَوْتِ لَيْسَ لَهَا مَصَادِرْ
وَرَأَيْتُ قَوْمِي نَحْوَهَا تَمْضِي ٱلْأَصَاغِرُ وَٱلْأَكَابِرْ
لَا يَرْجِعُ ٱلْمَاضِي وَلَا يَبْقَى مِنَ ٱلْبَاقِينَ غَابِرْ (١)
أَيْقَنْتُ أَنِّي لَا مَحَا لَةَ حَيْثُ صَارَ ٱلْقَوْمُ صَائِرْ

وَمِمَّنِ ٱشْتَهَرَ عِنْدَ ٱلْعَرَبِ سَحْبَانُ بْنُ زُفَرَ بْنِ إِيَاسٍ ٱلْوَائِلِيُّ وَائِلُ بَاهِلَةٍ خَطِيبٌ مُفْصِحٌ يُضْرَبُ بِهِ ٱلْمَثَلُ فِي ٱلْبَيَانِ. أَدْرَكَ ٱلْإِسْلَامَ وَأَسْلَمَ وَمَاتَ سَنَةَ أَرْبَعٍ وَخَمْسِينَ. وَحَكَى ٱلْأَصْمَعِيُّ قَالَ: كَانَ إِذَا خَطَبَ يَسِيلُ عَرَقًا وَلَا يُعِيدُ كَلِمَةً وَلَا يَتَوَقَّفُ وَلَا يَقْعُدُ حَتَّى يَفْرُغَ. وَقَدِمَ

---

(١) ويروى: لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الماضين غابر

عَلَى مُعَاوِيَةَ وَفْدٌ مِنْ خُرَاسَانَ فِيهِمْ سَعِيدُ بْنُ عُثْمَانَ فَطَلَبَ سَحْبَانَ فَلَمْ يُوجَدْ فِي مَنْزِلِهِ فَاقْتُضِبَ مِنْ نَاحِيَةٍ اقْتِضَابًا وَأُدْخِلَ عَلَيْهِ فَقَالَ: تَكَلَّمْ فَقَالَ: اُنْظُرُوا إِلَى عَصًا تُقَوِّمُ مِنْ أَوَدِي. قَالُوا: وَمَا تَصْنَعُ بِهَا وَأَنْتَ بِحَضْرَةِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: مَا كَانَ يَصْنَعُ بِهَا مُوسَى وَهُوَ يُخَاطِبُ رَبَّهُ وَعَصَاهُ فِي يَدِهِ. فَضَحِكَ مُعَاوِيَةُ وَقَالَ: هَاتُوا عَصًا فَجَاؤُوا بِهَا إِلَيْهِ فَرَكِبَهَا بِرِجْلِهِ وَلَمْ يَرْضَهَا وَقَالَ: هَاتُوا عَصَايَ فَأَتَوْا بِهَا فَأَخَذَهَا. ثُمَّ قَامَ وَتَكَلَّمَ مُنْذُ صَلَاةِ الظُّهْرِ إِلَى أَنْ قَامَتْ صَلَاةُ الْعَصْرِ مَا تَنَحْنَحَ وَلَا سَعَلَ وَلَا تَوَقَّفَ وَلَا ابْتَدَأَ فِي مَعْنًى فَخَرَجَ مِنْهُ وَقَدْ بَقِيَ عَلَيْهِ مِنْهُ شَيْءٌ. فَمَا زَالَتْ تِلْكَ حَالُهُ حَتَّى أَشَارَ مُعَاوِيَةُ بِيَدِهِ فَأَشَارَ إِلَيْهِ سَحْبَانُ أَنْ لَا تَقْطَعْ عَلَيَّ كَلَامِي فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: الصَّلَاةَ. قَالَ: هِيَ أَمَامَكَ وَنَحْنُ فِي صَلَاةٍ وَتَحْمِيدٍ وَوَعْدٍ وَوَعِيدٍ. فَقَالَ مُعَاوِيَةُ: أَنْتَ أَخْطَبُ الْعَرَبِ. فَقَالَ سَحْبَانُ: وَالْعَجَمِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ. وَمِمَّا رُوِيَ عَنْهُ فِي بَعْضِ خُطَبِهِ الْبَلِيغَةِ يَقُولُ: إِنَّ الدُّنْيَا دَارُ بَلَاغٍ وَالْآخِرَةَ دَارُ قَرَارٍ. أَيُّهَا النَّاسُ فَخُذُوا مِنْ دَارِ مَمَرِّكُمْ لِدَارِ مَقَرِّكُمْ وَلَا تَهْتِكُوا أَسْتَارَكُمْ. عِنْدَ مَنْ لَا تَخْفَى عَلَيْهِ أَسْرَارُكُمْ. وَأَخْرِجُوا مِنَ الدُّنْيَا قُلُوبَكُمْ. قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنْهَا أَبْدَانُكُمْ. فَفِيهَا حَيِيتُمْ وَلِغَيْرِهَا خُلِقْتُمْ. إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا هَلَكَ. قَالَ النَّاسُ مَا تَرَكَ. وَقَالَتِ الْمَلَائِكَةُ مَا قَدَّمَ لِلّٰهِ. قَدِّمُوا بَعْضًا يَكُونُ لَكُمْ وَلَا تُخَلِّفُوا كُلًّا يَكُونُ عَلَيْكُمْ. وَمِنْ شِعْرِهِ يَمْدَحُ طَلْحَةَ الطَّلَحَاتِ وَهُوَ طَلْحَةُ بْنُ عَبْدِ اللّٰهِ الْخُزَاعِيُّ:

يا طلحَ اكرَمَ مَنْ بِهَا   حَسَبًا وَاعطَاهُمْ لِتَالِدْ
مِنْكَ ٱلعطَاءُ فَاعطِني   وَعليَّ مدحُكَ فِي ٱلمَشَاهِدْ

فَيُقَالُ انَّ طَلحَةَ قَالَ لَهُ: احتكِمْ. قَالَ: فَرَسَكَ ٱلوَرْدَ وَقَصرَكَ بِكَذَا. فَقَالَ طَلحَةُ أُفٍّ لَكَ لَوْ سَأَلْتَنِي عَلَى قَدْرِي اعطَيتُكَ كُلَّ فَرَسٍ لِي وَكُلَّ قَصرٍ وَلٰكِنْ ابَيتُ الَّا بِاهلِيَّتِكَ

وَذَكَرَ جعفرَ بنَ يَحيَى فِي مَجلِسِ ثمَامَةَ بنِ اشْرَسَ فَقَالَ: مَا رَأَيتُ احدًا مِنْ خَلقِ ٱللهِ كَانَ ابسطَ لِسَانًا وَلَا الحَنَ بِحُجَّتِهِ وَلَا اقدَرَ عَلَى كَلَامٍ بِنَظمٍ حَسَنٍ وَالفَاظٍ عَذبَةٍ وَمَنطِقٍ فَصِيحٍ مِنْ جعفرِ بنِ يَحيَى كَانَ لَا يَتوَقَّفُ وَلَا يَتحَبَّسُ وَلَا يَصِلُ كَلَامَهُ بِحَشْوٍ مِنَ ٱلكَلَامِ وَلَا يُعِيدُ لَفظًا وَلَا مَعنًى وَلَا يَخرُجُ مِنْ فَنٍّ الَى غَيرِهِ حَتَّى يَبلُغَ آخرَ مَا فِيهِ. وَكَانَ لَا يَرَى شَيئًا الَّا حَكَاهُ وَلَا يَحكِي شَيئًا الَّا كَانَ اكثَرَ مِنهُ وَلَا يَمُرُّ بِذِهنِهِ شَيْءٌ الَّا حَفِظَهُ. وَكَانَ اِذَا شَاءَ اضحَكَ ٱلثَّكْلَى وَاذهَلَ ٱلزَّاهِدَ وَخَشَّنَ قَلبَ ٱلعَابِدِ. قُلتُ فَكَيفَ كَانَتْ مَعرِفَتُهُ. قَالَ: كَانَ مِنْ اعلَمِ ٱلنَّاسِ بِٱلخَبَرِ ٱلبَاهِرِ وَٱلشِّعرِ ٱلنَادِرِ وَٱلمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلفَصَاحَةِ ٱلتَّامَّةِ وَٱللِّسَانِ ٱلبَسِيطِ. قَالَ سَهلُ بنُ هَارُونَ وَذَكَرَ يَحيَى بنَ خَالِدٍ وَٱبنَهُ جعفرًا فَقَالَ: لَوْ كَانَ ٱلكَلَامُ مُتَصَوَّرًا دُرًّا وَيُلقِيهِ ٱلمَنطِقُ جَوهَرًا لَكَانَ كَلَامُهُمَا وَٱلمُنتَقَى مِنْ الفَاظِهِمَا. وَلَقَدْ غَبَرتُ مَعَهُمَا وَادرَكتُ طَبَقَةَ ٱلمُتَكَلِّمِينَ فِي ايَّامِهِمَا وَهُمْ يَرَوْنَ ٱلبَلَاغَةَ لَمْ تَستَكمَلْ الَّا فِيهِمَا. وَلَمْ تَكُنْ مَقصُورَةً الَّا عَلَيهِمَا وَلَا ٱنقَادَتْ الَّا لَهُمَا وَانَّهُمَا لَلُبَابُ ٱلكَرَمِ

عِتْقَ مَنْظَرٍ وَجُودَةَ مَخْبَرٍ وَسُهُولَةَ لَفْظٍ وَجَزَالَةَ مَنْطِقٍ وَنَزَاهَةَ نَفْسٍ وَكَمَالَ خِصَالٍ حَتَّى لَوْ فَاخَرَتِ ٱلدُّنْيَا بِقَلِيلِ أَيَّامِهِمَا وَٱلْمَأْثُورِ مِنْ خَصَائِصِهِمَا جَمِيعَ أَيَّامِ مَنْ سِوَاهُمَا مِنْ لَدُنِ آدَمَ إِلَى أَنْ يُنْفَخَ فِي ٱلصُّورِ وَيُبْعَثَ أَهْلُ ٱلْقُبُورِ حَاشَا أَنْبِيَاءَ ٱللهِ ٱلْكِرَامَ وَسَلَفَ عِبَادِهِ ٱلصَّالِحِينَ لَمَا بَاهَتْ إِلَّا بِهِمَا وَلَا عَوَّلَتْ فِي ٱلْفَخْرِ إِلَّا عَلَيْهِمَا. وَلَقَدْ كَانَا مَعَ تَهْذِيبِ أَخْلَاقِهِمَا وَمَغْسُولِ مَذَاقِهِمَا وَسَنَا إِشْرَاقِهِمَا وَكَمَالِ خِصَالِ ٱلْخَيْرِ فِيهِمَا فِي مَحَاسِنِ ٱلْمَأْمُونِ كَالنُّقْطَةِ فِي ٱلْبَحْرِ وَٱلْخَرْدَلَةِ فِي ٱلْقَفْرِ



القسم الثاني

في علم الشعر

الفصل الاول

في تعريف الشعر وانواعه وفوائده

البحث الاول

في تحديد الشعر

(عن ابن خلدون)

اِعلَمْ انَّ لِسانَ ٱلعَرَبِ وَكَلَامَهُمْ عَلَى فَنَّـيْنِ فَنِّ ٱلشِّعْرِ ٱلمَنظُومِ وَهُوَ ٱلكَلامُ ٱلمَوْزُونُ ٱلمُقفَّى وَمَعناهُ ٱلَّذِي تَكُونُ اوزانُهُ كُلُّها عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَهُوَ ٱلقافِيَةُ . وَفَنِّ ٱلنَّثرِ وَهُوَ ٱلكَلامُ غَيرُ ٱلمَوْزُونِ . وَكُلٌّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلفَنَّيْنِ يَشْتَمِلُ عَلَى فُنُونٍ وَمَذاهِبَ فِي ٱلكَلامِ . فَامَّا ٱلشِّعرُ فَمِنهُ ٱلمَدحُ وَٱلهِجاءُ وَٱلرِّثاءُ . وَامَّا ٱلنَّثرُ فَمِنهُ ٱلكَلامُ ٱلَّذِي يُؤْتَى بِهِ قِطَعًا وَيُلتَزَمُ فِي كُلِّ كَلِمَتَيْنِ مِنهُ قافِيَةٌ واحِدَةٌ وَيُسَمَّى سَجْعًا . وَمِنهُ ٱلمُرسَلُ وَهُوَ ٱلَّذِي يُطلَقُ فِيهِ ٱلكَلامُ اِطلاقًا

وَلَا يُقطَّعُ اَجزَاءً بَلْ يُرْسَلُ اِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَقْيِيدٍ بِقَافِيَةٍ وَلَا غَيْرِهَا . وَيُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ وَتَرْغِيبِ ٱلْجُمْهُورِ وَتَرْهِيبِهِمْ . وَامَّا ٱلْقُرْآنُ فَهُوَ وَاِنْ كَانَ مِنَ ٱلْمَنْثُورِ اِلَّا اَنَّهُ خَارِجٌ عَنِ ٱلْوَصْفَيْنِ وَلَيسَ يُسَمَّى مُرْسَلًا مُطْلَقًا وَلَا مُسَجَّعًا بَلْ تَفْصِيلَ آيَاتٍ يَنْتَهِي اِلَى مَقَاطِيعَ يَشْهَدُ ٱلذَّوْقُ بِٱنْتِهَاءِ ٱلْكَلَامِ عِنْدَهَا . ثُمَّ يُعَادُ ٱلْكَلَامُ فِي ٱلْآيَةِ ٱلْأُخْرَى بَعْدَهَا وَيُثَنَّى مِنْ غَيْرِ ٱلْتِزَامِ حَرْفٍ يَكُونُ سَجْعًا أَوْ قَافِيَةً . وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِ ٱلْقُرْآنِ : ٱللّٰهُ نَزَّلَ اَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ . وَقَالَ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْآيَاتِ . وَيُسَمَّى آخِرُ ٱلْآيَاتِ مِنْهُ فَوَاصِلَ اِذْ لَيْسَتْ اَسْجَاعًا وَلَا ٱلْتُزِمَ فِيهَا مَا يُلْتَزَمُ فِي ٱلسَّجْعِ وَلَا هِيَ اَيْضًا قَوَافٍ . وَاُطْلِقَ اسْمُ ٱلْمَثَانِي عَلَى آيَاتِ ٱلْقُرْآنِ كُلِّهَا عَلَى ٱلْعُمُومِ لِمَا ذَكَرْنَاهُ وَٱخْتَصَّتْ بِاُمِّ ٱلْقُرْآنِ لِلْغَلَبَةِ فِيهَا كَٱلنَّجْمِ لِلثُّرَيَّا وَلِهٰذَا سُمِّيَتِ ٱلسَّبْعَ ٱلْمَثَانِيَ . وَٱنْظُرْ هٰذَا مَعَ مَا قَالَهُ ٱلْمُفَسِّرُونَ فِي تَعْلِيلِ تَسْمِيَتِهَا بِٱلْمَثَانِي يَشْهَدْ لَكَ ٱلْحَقُّ بِرُجْحَانِ مَا قُلْنَاهُ . وَٱعْلَمْ اَنَّ لِكُلٍّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفُنُونِ اَسَالِيبَ تَخْتَصُّ بِهِ عِنْدَ اَهْلِهِ وَلَا تَصْلُحُ لِلْفَنِّ ٱلْآخَرِ وَلَا تُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلَ ٱلنَّسِيبِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحَمْدِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْخُطَبِ وَٱلدُّعَاءِ ٱلْمُخْتَصِّ بِٱلْمُخَاطَبَاتِ وَاَمْثَالِ ذٰلِكَ . وَقَدِ ٱسْتَعْمَلَ ٱلْمُتَاخِّرُونَ اَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ وَمَوَازِينَهُ فِي ٱلْمَنْثُورِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْاَسْجَاعِ وَٱلْتِزَامِ ٱلتَّقْفِيَةِ وَتَقْدِيمِ ٱلنَّسِيبِ بَيْنَ يَدَيِ ٱلْاَغْرَاضِ وَصَارَ هٰذَا ٱلْمَنْثُورُ اِذَا تَاَمَّلْتَهُ مِنْ بَابِ ٱلشِّعْرِ وَفَنِّهِ وَلَمْ يَفْتَرِقَا اِلَّا فِي ٱلْوَزْنِ . وَٱسْتَمَرَّ

ٱلْمُتَأَخِّرُونَ مِنَ ٱلْكُتَّابِ عَلَى هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ وَٱسْتَعْمَلُوهَا فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ وَقَصَرُوا ٱلِٱسْتِعْمَالَ فِي ٱلْمَنْثُورِ كُلِّهِ عَلَى هٰذَا ٱلْفَنِّ ٱلَّذِي ٱرْتَضَوْهُ وَخَلَطُوا ٱلْأَسَالِيبَ فِيهِ وَهَجَرُوا ٱلْمُرْسَلَ وَتَنَاسَوْهُ وَخُصُوصًا أَهْلَ ٱلْمَشْرِقِ وَصَارَتِ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ عِنْدَ ٱلْكُتَّابِ ٱلْغُفَّلِ جَارِيَةً عَلَى هٰذَا ٱلْأُسْلُوبِ ٱلَّذِي أَشَرْنَا إِلَيْهِ. وَهُوَ غَيْرُ صَوَابٍ مِنْ جِهَةِ ٱلْبَلَاغَةِ لِمَا يُلَاحَظُ فِي تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى مُقْتَضَى ٱلْحَالِ مِنْ أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطِبِ وَٱلْمُخَاطَبِ. وَهٰذَا ٱلْفَنُّ ٱلْمَنْثُورُ ٱلْمُقَفَّى أَدْخَلَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ فِيهِ أَسَالِيبَ ٱلشِّعْرِ فَوَجَبَ أَنْ تُنَزَّهَ ٱلْمُخَاطَبَاتُ ٱلسُّلْطَانِيَّةُ عَنْهُ إِذْ أَسَالِيبُ ٱلشِّعْرِ تُنَافِيهَا ٱللَّوْذَعِيَّةُ وَخَلْطُ ٱلْجِدِّ بِٱلْهَزْلِ وَٱلْإِطْنَابُ فِي ٱلْأَوْصَافِ وَضَرْبُ ٱلْأَمْثَالِ وَكَثْرَةُ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَٱلِٱسْتِعَارَاتِ حَيْثُ لَا تَدْعُو ضَرُورَةٌ إِلَى ذٰلِكَ فِي ٱلْخِطَابِ. وَٱلْمَحْمُودُ فِي ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ ٱلتَّرَسُّلُ وَهُوَ إِطْلَاقُ ٱلْكَلَامِ وَإِرْسَالُهُ مِنْ غَيْرِ تَسْجِيعٍ إِلَّا فِي ٱلْأَقَلِّ ٱلنَّادِرِ وَحَيْثُ تُرْسِلُهُ ٱلْمَلَكَةُ إِرْسَالًا مِنْ غَيْرِ تَكَلُّفٍ لَهُ. ثُمَّ إِعْطَاءُ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَإِنَّ ٱلْمَقَامَاتِ مُخْتَلِفَةٌ وَلِكُلِّ مَقَامٍ أُسْلُوبٌ يَخُصُّهُ مِنْ إِطْنَابٍ أَوْ إِيجَازٍ أَوْ حَذْفٍ أَوْ إِثْبَاتٍ أَوْ تَصْرِيحٍ أَوْ إِشَارَةٍ وَكِنَايَةٍ وَٱسْتِعَارَةٍ. وَأَمَّا إِجْرَاءُ ٱلْمُخَاطَبَاتِ ٱلسُّلْطَانِيَّةِ عَلَى هٰذَا ٱلنَّحْوِ ٱلَّذِي هُوَ عَلَى أَسَالِيبِ ٱلشِّعْرِ فَمَذْمُومٌ وَمَا حَمَلَ عَلَيْهِ أَهْلَ ٱلْعَصْرِ إِلَّا ٱسْتِيلَاءُ ٱلْعُجْمَةِ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ وَقُصُورُهُمْ لِذٰلِكَ عَنْ إِعْطَاءِ ٱلْكَلَامِ حَقَّهُ فِي مُطَابَقَتِهِ لِمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فَعَجَزُوا عَنِ ٱلْكَلَامِ ٱلْمُرْسَلِ لِبُعْدِ أَمَدِهِ

فِي ٱلْبَلَاغَةِ وَٱنْفِسَاحِ خُطْوَتِهِ وَوَلِعُوا بِهٰذَا ٱلْمُسَجَّعِ يُلَفِّقُونَ بِهِ مَا نَقَصَهُمْ مِنْ تَطْبِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَى ٱلْمَقْصُودِ وَمُقْتَضَى ٱلْحَالِ فِيهِ وَيَجْبُرُونَهُ بِذٰلِكَ ٱلْقَدْرِ مِنَ ٱلتَّزْيِينِ بِٱلْأَسْجَاعِ وَٱلْأَلْقَابِ ٱلْبَدِيعَةِ وَيَغْفُلُونَ عَمَّا سِوَى ذٰلِكَ. وَأَكْثَرُ مَنْ أَخَذَ بِهٰذَا ٱلْفَنِّ وَبَالَغَ فِيهِ فِي سَائِرِ أَنْحَاءِ كَلَامِهِمْ كُتَّابُ ٱلْمَشْرِقِ وَشُعَرَاؤُهُ لِهٰذَا ٱلْعَهْدِ حَتَّى إِنَّهُمْ لَيُخِلُّونَ بِٱلْإِعْرَابِ فِي ٱلْكَلِمَاتِ وَٱلتَّصْرِيفِ إِذَا دَخَلَتْ لَهُمْ فِي تَجْنِيسٍ أَوْ مُطَابَقَةٍ لَا يَجْتَمِعَانِ مَعَهَا فَيُرَجِّحُونَ ذٰلِكَ ٱلصِّنْفَ مِنَ ٱلتَّجْنِيسِ وَيَدَعُونَ ٱلْإِعْرَابَ وَيُفْسِدُونَ بِنْيَةَ ٱلْكَلِمَةِ عَسَاهَا تُصَادِفُ ٱلتَّجْنِيسَ. فَتَأَمَّلْ ذٰلِكَ بِمَا قَدَّمْنَاهُ لَكَ تَقِفْ عَلَى صِحَّةِ مَا ذَكَرْنَاهُ وَٱللّٰهُ ٱلْمُوَفِّقُ إِلَى ٱلصَّوَابِ بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ وَٱللّٰهُ تَعَالَى أَعْلَمُ

البحث الثاني

في صناعة الشعر وانواع الاشعار

(عن تلخيص كتاب ارسطاطاليس في الشعر تأليف ابي الوليد بن رشد)

ٱلْغَرَضُ فِي هٰذَا ٱلْقَوْلِ تَلْخِيصُ مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطَاطَالِيسَ فِي ٱلشِّعْرِ مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلْكُلِّيَّةِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ ٱلْأُمَمِ أَوْ لِلْأَكْثَرِ إِذْ كَثِيرٌ مِمَّا فِيهِ هِيَ قَوَانِينُ خَاصَّةٌ بِأَشْعَارِهِمْ وَعَادَتِهِمْ فِيهَا. وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ نِسَبًا مَوْجُودَةً فِي كَلَامِ ٱلْعَرَبِ أَوْ مَوْجُودَةً فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلْأَلْسِنَةِ. (قَالَ) إِنَّ قَصْدَنَا ٱلْآنَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَفِي أَنْوَاعِ ٱلْأَشْعَارِ. وَقَدْ يَجِبُ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ تَكُونَ ٱلْقَوَانِينُ

ٱلَّتِي يُعطَى فِيهَا تَجرِي مَجرَى ٱلجُودَةِ انْ يَقُولَ اوَّلًا مَا فِعلُ كُلِّ وَاحِدٍ مِنَ ٱلانوَاعِ ٱلشِعرِيَّةِ وَمِمَّاذَا تَتَقوَّمُ ٱلاقَاوِيلُ ٱلشِعرِيَّةُ وَمِنْ كَمْ شَيْءٍ تَتَقَوَّمُ وَايُّمَا هِيَ اجزَاؤُهَا ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا وَكَمْ اصنَافُ ٱلاَغرَاضِ ٱلَّتِي تُقصَدُ بِٱلاَقَاوِيلِ ٱلشِعرِيَّةِ . وَانْ يَجعَلَ كَلَامَهُ مِنَ ٱلاَوَائِلِ ٱلَّتِي لَنَا بِٱلطَّبعِ فِي هٰذَا ٱلمَعنَى . (قَالَ) فَكُلُّ شِعرٍ وَكُلُّ قَولٍ شِعرِيٍّ فَهُوَ امَّا هِجَاءٌ وَامَّا مَدِيحٌ وَذٰلِكَ بَيِّنٌ بِٱستِقرَاءِ ٱلاَشعَارِ وَبِخَاصَّةٍ اشعَارَهُمُ ٱلَّتِي كَانَتْ فِي ٱلاُمُورِ ٱلاِرَادِيَّةِ اعنِي ٱلحَسَنَةَ وَٱلقَبِيحَةَ وَكَذٰلِكَ ٱلحَالُ فِي ٱلصَّنَائِعِ ٱلمُحَاكِيَةِ لِصِنَاعَةِ ٱلشِعرِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلضَّربُ بِٱلعِيدَانِ وَٱلزَّمرُ وَٱلرَّقصُ اعنِي انَّهَا مُعَدَّةٌ بِٱلطَّبعِ لِهٰذَينِ ٱلغَرَضَينِ . وَٱلاَقَاوِيلُ ٱلشِعرِيَّةُ هِيَ ٱلاَقَاوِيلُ ٱلمُخَيِّلَةُ . وَاصنَافُ ٱلتَّخيِيلِ وَٱلتَّشبِيهِ ثَلَاثَةٌ اثنَانِ بَسِيطَانِ وَثَالِثٌ مُرَكَّبٌ مِنهُمَا . امَّا ٱلاِثنَانِ ٱلبَسِيطَانِ فَاحَدُهُمَا تَشبِيهُ شَيْءٍ بِشَيْءٍ وَتَمثِيلُهُ بِهِ وَذٰلِكَ يَكُونُ فِي لِسَانٍ لِسَانٍ بِالفَاظٍ خَاصَّةٍ عِندَهُمْ مِثلَ كَانَّ وَاخَالُ وَمَا اشبَهَ ذٰلِكَ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ وَهِيَ ٱلَّتِي تُسَمَّى عِندَهُمْ حُرُوفَ ٱلتَّشبِيهِ . وَامَّا اخذُ ٱلشَّبِيهِ بِعَينِهِ بَدَلَ ٱلشَّبِيهِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلاِبدَالَ فِي هٰذِهِ ٱلصِنَاعَةِ وَذٰلِكَ مِثلُ قَولِ ٱلشَّاعِرِ :

هُوَ ٱلبَحرُ مِنْ ايِّ ٱلمَوَاضِعِ جِئتَهُ

وَيَنبَغِي انْ نَعلَمَ انَّ فِي هٰذَا ٱلقِسمِ تَدخُلُ ٱلاَنوَاعُ ٱلَّتِي يُسَمِّيهَا اهلُ زَمَانِنَا ٱستِعَارَةً وَكِنَايَةً مِثلَ قَولِ ٱلشَّاعِرِ :

وَعُرِّيَ افرَاسُ ٱلصِّبَا وَرَوَاحِلُهُ

اِلَّا انَّ ٱلكِنايَاتِ اكْثَرَ ذٰلِكَ هِيَ اِبْدَالَاتٌ مِنْ لَوَاحِقِ ٱلشَّيْءِ . وَٱلاسْتِعَارَةُ هِيَ اِبْدَالٌ مِنْ مُنَاسِبِهِ اعْنِي اِذَا كَانَ شَيْءٌ نِسْبَتُهُ اِلَى ٱلثَّانِي نِسْبَةَ ٱلثَّالِثِ اِلَى ٱلرَّابِعِ فَاِبْدَالُ ٱسْمِ ٱلثَّالِثِ اِلَى ٱلاوَّلِ وَبِٱلعَكْسِ . وَقَدْ تَقَدَّمَ فِي كِتَابِ ٱلخَطَابَةِ مِنْ كَمْ شَيْءٍ تَكُونُ ٱلاِبْدَالَاتُ . وَامَّا ٱلقِسْمُ ٱلثَّانِي فَهُوَ انْ يُبَدَّلَ ٱلتَّشْبِيهُ مِثْلَ انْ تَقُولَ : ٱلشَّمْسُ كَانَّهَا فُلَانٌ اوِ ٱلشَّمْسُ هِيَ فُلَانٌ لَا فُلَانٌ كَٱلشَّمْسِ وَلَا هُوَ ٱلشَّمْسُ

وَٱلصِّنْفُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلاقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ هُوَ ٱلْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذَيْنِ (قَالَ) وَكَمَا انَّ ٱلنَّاسَ بِٱلطَّبْعِ قَدْ يُخَيِّلُونَ وَيُحَاكُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِٱلافْعَالِ مِثْلَ مُحَاكَاةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا بِٱلالْوَانِ وَٱلاشْكَالِ وَٱلاصْوَاتِ وَذٰلِكَ امَّا بِصِنَاعَةٍ وَمَلَكَةٍ تُوجَدُ لِلْمُحَاكِينَ وَامَّا مِنْ قِبَلِ عَادَةٍ تَقَدَّمَتْ لَهُمْ فِي ذٰلِكَ . كَذٰلِكَ تُوجَدُ لَهُمُ ٱلمُحَاكَاةُ بِٱلاقَاوِيلِ بِٱلطَّبْعِ وَٱلتَّخْيِيلِ . وَٱلمُحَاكَاةُ فِي ٱلاقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ ثَلَاثَةِ اشْيَاءَ : مِنْ قِبَلِ ٱلنَّغَمِ ٱلْمُتَّفِقَةِ وَمِنْ قِبَلِ ٱلوَزْنِ وَمِنْ قِبَلِ ٱلتَّشْبِيهِ نَفْسِهِ . وَهٰذِهِ قَدْ يُوجَدُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهَا مُفْرَدًا عَنْ صَاحِبِهِ مِثْلُ وُجُودِ ٱلنَّغَمِ فِي ٱلْمَزَامِيرِ وَٱلوَزْنِ فِي ٱلرَّقْصِ وَٱلمُحَاكَاةِ فِي ٱللَّفْظِ . اعْنِي ٱلاقَاوِيلَ ٱلمُخَيَّلَةَ ٱلْغَيْرَ مَوْزُونَةٍ . وَقَدْ تَجْتَمِعُ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةُ بِاَسْرِهَا مِثْلَ مَا يُوجَدُ عِنْدَنَا فِي ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي يُسَمَّى ٱلْمُوَشَّحَاتِ وَٱلازْجَالَ وَهِيَ ٱلاشْعَارُ ٱلَّتِي ٱسْتَنْبَطَهَا فِي هٰذَا ٱللِّسَانِ اهْلُ هٰذِهِ ٱلْجَزِيرَةِ اِذْ كَانَتِ ٱلاشْعَارُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ هِيَ مَا جَمَعَتِ

ٱلْأَمْرَيْنِ جَمِيعًا. وَٱلْأُمُورُ ٱلطَّبِيعِيَّةُ إِنَّمَا تُوجَدُ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيِّينَ فَإِنَّ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ لَيْسَ فِيهَا لَحْنٌ. وَإِنَّمَا هِيَ إِمَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَإِمَّا ٱلْوَزْنُ وَٱلْمُحَاكَاةُ مَعًا فِيهَا. وَإِذَا كَانَ هٰذَا هٰكَذَا فَٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمُخَيِّلَةُ أَوِ ٱلَّتِي تَفْعَلُ فِعْلَ ٱلتَّخْيِيلِ ثَلَاثَةٌ . صِنَاعَةُ ٱللَّحْنِ وَصِنَاعَةُ ٱلْوَزْنِ وَصِنَاعَةُ عَمَلِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُحَاكِيَةِ وَهٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةُ ٱلْمَنْطِقِيَّةُ ٱلَّتِي نَنْظُرُ فِيهَا فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ. (قَالَ): وَكَثِيرًا مَا يُوجَدُ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تُسَمَّى أَشْعَارًا مَا لَيْسَ فِيهَا مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ كَأَقَاوِيلِ سُقْرَاطَ ٱلْمَوْزُونَةِ وَأَقَاوِيلِ إِنْبَادُقْلِيسَ فِي ٱلطَّبِيعِيَّاتِ بِخِلَافِ ٱلْأَمْرِ فِي أَشْعَارِ أُومِيرُوشَ فَإِنَّهُ يُوجَدُ فِيهَا ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا. (قَالَ): وَلِذٰلِكَ لَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُسَمَّى شِعْرًا بِٱلْحَقِيقَةِ إِلَّا مَا جَمَعَ هٰذَيْنِ. وَأَمَّا تِلْكَ فَهِيَ أَنْ تُسَمَّى أَقَاوِيلَ أَحْرَى مِنْهَا أَنْ تُسَمَّى شِعْرًا وَكَذٰلِكَ ٱلْفَاعِلُ أَقَاوِيلَ مَوْزُونَةً بِٱلطَّبِيعِيَّاتِ هُوَ أَحْرَى أَنْ يُسَمَّى مُتَكَلِّمًا مِنْ أَنْ يُسَمَّى شَاعِرًا. وَكَذٰلِكَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْمُخَيِّلَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ لَيْسَتْ أَشْعَارًا. وَحُكِيَ أَنْ كَانَتْ تُوجَدُ عِنْدَهُمْ أَعْنِي مِنْ أَوْزَانٍ مُخْتَلِطَةٍ وَهٰذَا غَيْرُ مَوْجُودٍ عِنْدَنَا فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ كَمْ هِيَ أَصْنَافُ ٱلْمُحَاكَاةِ وَمِنْ أَيِّ ٱلصَّنَائِعِ تَلْتَئِمُ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ حَتَّى تَكُونَ تَامَّةَ ٱلْفِعْلِ



البحث الثاني

في غاية صناعة الشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَلَمَّا كَانَ ٱلْمُحَاكُونَ وَٱلْمُشَبِّهُونَ إِنَّمَا يَقْصِدُونَ بِذٰلِكَ أَنْ يَحُثُّوا عَلَى عَمَلِ بَعْضِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَنْ يَكُفُّوا عَنْ عَمَلِ بَعْضِهَا فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا فَضَائِلَ وَإِمَّا رَذَائِلَ وَذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ فِعْلٍ وَكُلَّ خُلُقٍ إِنَّمَا هُوَ تَابِعٌ لِأَحَدِ هٰذَيْنِ أَعْنِي ٱلْفَضِيلَةَ وَٱلرَّذِيلَةَ فَقَدْ يَجِبُ ضَرُورَةً أَنْ تَكُونَ ٱلْفَضَائِلُ إِنَّمَا تُحَاكَى بِٱلْفَضَائِلِ وَٱلْفَاضِلِينَ وَأَنْ تَكُونَ ٱلرَّذَائِلُ تُحَاكَى بِٱلرَّذَائِلِ وَٱلْأَرْذَلِينَ. وَإِذَا كَانَ كُلُّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا تَكُونُ بِٱلْحَسَنِ وَٱلْقَبِيحِ فَظَاهِرٌ أَنَّ كُلَّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلتَّحْسِينُ وَٱلتَّقْبِيحُ وَقَدْ يَجِبُ مَعَ هٰذَا ضَرُورَةً أَنْ يَكُونَ ٱلْمُحَاكُونَ لِلْفَضَائِلِ أَعْنِي ٱلْمَائِلِينَ بِٱلطَّبْعِ إِلَى مُحَاكَاتِهَا أَفَاضِلَ. وَٱلْمُحَاكُونَ لِلرَّذَائِلِ أَنْقَصُ طَبْعًا مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى ٱلرَّذِيلَةِ وَعَنْ هٰذَيْنِ ٱلصِّنْفَيْنِ مِنَ ٱلنَّاسِ وُجِدَ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهَجْوُ. أَعْنِي مَدْحَ ٱلْفَضَائِلِ وَهَجْوَ ٱلرَّذَائِلِ وَلِهٰذَا كَانَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَبَعْضُهُمْ بِٱلْعَكْسِ أَعْنِي يُجِيدُ ٱلْهَجْوَ وَلَا يُجِيدُ ٱلْمَدْحَ فَإِذَنْ بِٱلْوَاجِبِ مَا كَانَ يُوجَدُ لِكُلِّ تَشْبِيهٍ وَحِكَايَةٍ هٰذَانِ

ٱلفَضلَانِ أَعنِي ٱلتَّحسِينَ وَٱلتَّقبِيحَ وَهٰذَانِ ٱلفَضلَانِ إِنَّمَا يُوجَدَانِ لِلتَّشبِيهِ وَٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلقَولِ لَا ٱلمُحَاكَاةِ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلوَزنِ وَلَا ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱللَّحنِ. وَقَد يُوجَدُ لِلتَّشبِيهِ بِٱلقَولِ فَصلٌ ثَالِثٌ وَهُوَ ٱلتَّشبِيهُ ٱلَّذِي يُقصَدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلمُشَبَّهِ بِهِ مِن غَيرِ أَن يُقصَدَ فِي ذٰلِكَ تَحسِينٌ أَو تَقبِيحٌ لٰكِن نَفسُ ٱلمُطَابَقَةِ وَهٰذَا ٱلنَّوعُ مِنَ ٱلتَّشبِيهِ هُوَ كَٱلمَادَّةِ ٱلمُعَدَّةِ لِأَن يَستَحِيلَ إِلَى ٱلطَّرَفَينِ أَعنِي أَنَّهَا تَستَحِيلُ تَارَةً إِلَى ٱلتَّحسِينِ بِزِيَادَةٍ عَلَيهَا وَتَارَةً إِلَى ٱلتَّقبِيحِ بِزِيَادَةٍ أَيضًا عَلَيهَا (قَالَ) وَهٰذِهِ كَانَت طَرِيقَةُ أُومِيرُوش أَعنِي أَنَّهُ كَانَ يَأتِي فِي تَشبِيهَاتِهِ بِٱلمُطَابَقَةِ وَٱلزِّيَادَةِ ٱلمُحَسِّنَةِ وَٱلمُقَبِّحَةِ. وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَن إِجَادَتُهُ إِنَّمَا هِيَ فِي ٱلمُطَابَقَةِ فَقَط. وَمِنهُم مَن إِجَادَتُهُ فِي ٱلتَّحسِينِ وَٱلتَّقبِيحِ. وَمِنهُم مَن جَمَعَ ٱلأَمرَينِ مِثلُ أُومِيرُوشَ وَتَمَثَّلَ فِي كُلِّ صِنفٍ مِن هٰؤُلَاءِ بِأَصنَافٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَانُوا مَشهُورِينَ فِي مُدَّتِهِم وَسِيَاسَتِهِم بِٱستِعمَالِ صِنفٍ صِنفٍ مِن أَصنَافِ هٰذِهِ ٱلتَّشبِيهَاتِ ٱلثَّلَاثَةِ. وَأَنتَ فَلَيسَ يَعسُرُ عَلَيكَ وُجُودُ مِثَالَاتِ ذٰلِكَ فِي أَشعَارِ ٱلعَرَبِ وَإِن كَانَت أَكثَرُ أَشعَارِ ٱلعَرَبِ إِنَّمَا هِيَ كَمَا يَقُولُ أَبُو نَصرٍ فِي ٱلنَّهَمِ وَٱلكَرِيهِ. وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلنَّوعَ ٱلَّذِي يُسَمُّونَهُ ٱلنَّسِيبَ إِنَّمَا هُوَ حَثٌّ عَلَى ٱلفُسُوقِ وَلِذٰلِكَ يَنبَغِي أَن يَتَجَنَّبَهُ ٱلوِلدَانُ وَيُؤَدَّبُونَ مِن أَشعَارِهِم بِمَا يُحَثُّ فِيهِ عَلَى ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلكَرَمِ. فَإِنَّهُ لَيسَ تَحُثُّ ٱلعَرَبُ فِي أَشعَارِهَا مِنَ ٱلفَضَائِلِ عَلَى سِوَى هَاتَينِ ٱلفَضِيلَتَينِ وَإِن كَانَت لَيسَ تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلحَثِّ عَلَيهِمَا

وَإِنَّمَا تَتَكَلَّمُ فِيهِمَا عَلَى طَرِيقِ ٱلْفَخْرِ. وَأَمَّا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ ٱلَّذِي ٱلْمَقْصُودُ بِهِ ٱلْمُطَابَقَةُ فَقَطْ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِمْ وَلِذَٰلِكَ يَصِفُونَ ٱلْجَمَادَاتِ كَثِيرًا وَٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلنَّبَاتَ. وَأَمَّا ٱلْيُونَانِيُّونَ فَلَمْ يَكُونُوا يَقُولُونَ أَكْثَرَ ذَٰلِكَ شِعْرًا إِلَّا وَهُوَ مُوَجَّهٌ نَحْوَ ٱلْفَضِيلَةِ أَوِ ٱلْكَفِّ عَنِ ٱلرَّذِيلَةِ أَوْ مَا يُفِيدُ أَدَبًا مِنَ ٱلْآدَابِ أَوْ مَعْرِفَةً مِنَ ٱلْمَعَارِفِ. فَقَدْ تَبَيَّنَ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ أَنَّ أَصْنَافَ ٱلتَّشْبِيهَاتِ ثَلَاثَةُ أُصُولٍ وَأَنَّ فُصُولَهَا ثَلَاثَةٌ وَتَبَيَّنَ مَا هِيَ هٰذِهِ ٱلْفُصُولُ ٱلثَّلَاثَةُ وَٱلْأَصْنَافُ ٱلثَّلَاثَةُ. وَيُشْبِهُ إِذَا ٱسْتَقْرَيْتَ ٱلْأَشْعَارَ أَنْ يَقَعَ ٱلْيَقِينُ بِأَنَّهُ لَيْسَ هَاهُنَا صِنْفٌ رَابِعٌ مِنْ أَصْنَافِ ٱلتَّشْبِيهَاتِ وَلَا فَصْلٌ رَابِعٌ مِنْ فُصُولِ تِلْكَ ٱلْأَصْنَافِ

البحث الثالث

في العلل المولّدة للشعر

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ تَكُونَ ٱلْعِلَلُ ٱلْمُوَلِّدَةُ لِلشِّعْرِ بِٱلطَّبْعِ فِي ٱلنَّاسِ عِلَّتَيْنِ. أَمَّا ٱلْعِلَّةُ ٱلْأُولَى فَوُجُودُ ٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ لِلْإِنْسَانِ بِٱلطَّبْعِ مِنْ أَوَّلِ مَا يَنْشَأُ أَعْنِي أَنَّ هٰذَا ٱلْفِعْلَ يُوجَدُ لِلنَّاسِ وَهُمْ أَطْفَالٌ وَهٰذَا شَيْءٌ يَخْتَصُّ بِهِ ٱلْإِنْسَانُ مِنْ دُونِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانَاتِ وَٱلْعِلَّةُ فِي ذَٰلِكَ أَنَّ ٱلْإِنْسَانَ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ هُوَ ٱلَّذِي

يلتذّ بالتشبيه للاشياء التي قد احسّها وبالمحاكاة لها . والدليل على ان الانسان يسرّ بالتشبيه بالطبع ويفرح هو انّا نلتذّ ونسرّ بمحاكاة الاشياء التي لا نلتذّ باحساسها وبخاصّة اذا كانت المحاكاة شديدة الاستقصاء مثل ما يعرض في تصاوير كثير من الحيوانات التي يعملها المهرة من المصوّرين ولهذه العلّة استعمل في التعليم عند الافهام والتخاطب الاشارات فانّها اداة معينة على فهم الامر الذي يقصد تفهيمه لمكان ما فيها من الالتذاذ الذي هو موجود في الاشارات من قبل ما فيها من التخييل فتكون النفس بحسب التذاذها به اتمّ قبولا له . فانّ التعليم ليس انّما يوجد للفيلسوف فقط بل وللناس في ذلك مشاركة يسيرة مع الفيلسوف . وذلك انّه يوجد التعليم بالطبع يصدر من انسان الى انسان بحسب قياس ذلك الانسان المعلّم من الانسان المتعلّم والاشارات لمّا كانت انّما هي تشبيهات لأمور قد احسّت فبيّن انّها انّما تستعمل لمواضع المسارعة الى الفهم والقبول له وانّه انّما يفهم بما فيها من الالتذاذ لموضع التخييل الذي فيها . فهذه هي العلّة الاولى المولّدة للشعر . وامّا العلّة الثانية فالتذاذ الانسان ايضا بالطبع بالوزن والالحان فانّ الالحان يظهر من امرها انّها مناسبة للوزن عند الذين في طباعهم ان يدركوا الاوزان والالحان فالتذاذ النفس بالطبع بالمحاكاة والالحان والاوزان هو السبب في وجود الصناعات الشعريّة

وبخاصّةٍ عندَ الفِطَرِ الفائقةِ في ذلكَ فإذا نشأتِ الأمّةُ تولّدت فيهم صناعةُ الشعرِ من حيثُ إنّ الأوّلَ يأتي منها أوّلًا بجزءٍ يسيرٍ ثمّ يأتي من بعدهُ بجزءٍ آخرَ وهكذا إلى أن تكملَ الصناعاتُ الشعريّةُ . وتكملُ أيضًا أصنافُها بحسبِ استعدادِ صنفٍ صنفٍ منَ الناسِ للالتذاذِ أكثرَ بصنفٍ صنفٍ من أصنافِ الشعرِ . مثالُ ذلكَ أنّ النفوسَ التي هيَ فاضلةٌ وشريفةٌ بالطبعِ هي التي تنشئُ أوّلًا صناعةَ المديحِ أعني مديحَ الأفعالِ الجميلةِ . والنفوسُ التي هي أخسُّ من هذهِ هيَ التي تنشئُ صناعةَ الهجاءِ أعني هجاءَ الأفعالِ القبيحةِ وإن كانَ قد يضطرُّ الذي مقصدهُ الهجاءُ للشرارِ والشرورِ أن يمدحَ الأخيارَ والأفعالَ الفاضلةَ ليكونَ ظهورُ قبحِ الشرورِ أكثرَ أعني إذا ذكرَها ثمّ ذكرَ بإزائها الأفعالَ القبيحةَ . فهذا ما في هذا الفصلِ منَ الأمورِ المشتركةِ لجميعِ الأممِ أو للأكثرِ وسائرُ ما يذكرُ فيهِ فكلّهُ أو جلّهُ ممّا يخصُّ أشعارَهمْ وعاداتِهم فيها وذلكَ أنّهُ يذكرُ أصنافَ الصناعاتِ الشعريّةِ التي كانت تستعملُ عندَهمْ وكيفَ كانَ منشأُ واحدةٍ واحدةٍ منها بالطبعِ وأيّ جزءٍ هوَ المتقدّمُ منها في الكونِ على أيّ جزءٍ وبخاصّةٍ في صناعةِ المديحِ وصناعةِ الهجاءِ المشهورتينِ عندَهمْ ويذكرُ معَ هذا أوّلَ من ابتدأَ صناعةً صناعةً من تلكَ الصنائعِ الشعريّةِ المعتادةِ عندَهمْ ومن زادَ فيها ومن كمّلها بعدُ . وهوَ في هذا البابِ يُثني على أوميروش ثناءً كثيرًا ويعرفُ أنّهُ الذي أعطى مبادئَ هذهِ الصنائعِ وأنّهُ لم يكنْ لأحدٍ

قَبْلَهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ عَمَلٌ لَهُ قَدْرٌ يُعْتَدُّ بِهِ وَلَا فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ وَلَا فِي غَيْرِ ذٰلِكَ مِنَ ٱلصَّنَائِعِ ٱلْمَشْهُورَةِ عِنْدَهُمْ . قَالَ وَٱلْأَنْقَصُ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلْمُتَقَدِّمَةُ بِٱلزَّمَانِ لِأَنَّ ٱلطِّبَاعَ أَسْهَلُ وُقُوعًا عَلَيْهَا أَوَّلًا. وَٱلْأَقْصَرُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ مَقَاطِعَ أَقَلَّ وَٱلْأَنْقَصُ هِيَ ٱلَّتِي تَكُونُ مِنْ نَغَمَاتٍ أَقَلَّ أَيْضًا. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ هٰذِهِ ٱلْأَنْوَاعَ أَسْبَقُ إِلَى ٱلنُّفُوسِ أَنَّ ٱلنَّاسَ عِنْدَ ٱلْمُنَازَعَاتِ قَدْ يَرْتَجِلُونَ مَصَارِيعَ مِنْ هٰذِهِ فِي مُجَادَلَتِهِمْ وَذٰلِكَ عِنْدَ ٱلْحَرَجِ. يُرِيدُ فِيمَا أَحْسَبُ مِثْلَ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ: لَا لَا لَا يُعَدُّ بِهَا صَوْتَهُ. وَمِثْلَ قَوْلِهِ لَيْسَ هٰذَا كَذَا مَادًّا بِهَا صَوْتَهُ فَإِنَّ أَمْثَالَ هٰذِهِ ٱلْمُرَاجَعَاتِ هِيَ مَصَارِيعُ مَوْزُونَةٌ ذَاتُ لَحْنٍ وَأَمَّا ٱلَّتِي هِيَ أَطْوَلُ وَأَتَمُّ فَإِنَّمَا ظَهَرَتْ بِأَخَرَةٍ كَٱلْحَالِ فِي سَائِرِ ٱلصَّنَائِعِ. (قَالَ) وَصِنَاعَةُ ٱلْهِجَاءِ لَيْسَ إِنَّمَا يُقْصَدُ بِهَا ٱلْمُحَاكَاةُ بِكُلِّ مَا هُوَ شَرٌّ وَقَبِيحٌ فَقَطْ بَلْ وَبِكُلِّ مَا هُوَ شَيْءٌ مُسْتَهْزَأٌ بِهِ أَيْ مَرْذُولٌ قَبِيحٌ غَيْرُ مُغْتَمٍّ بِهِ. (قَالَ) وَٱلدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ ٱلِٱسْتِهْزَاءَ يَجِبُ أَنْ يَجْمَعَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَوْصَافَ أَنَّهُ يُوجَدُ فِي وَجْهِ ٱلْمُسْتَهْزِئِ هٰذِهِ ٱلْأَحْوَالُ ٱلثَّلَاثَةُ أَعْنِي قَبَاحَةَ ٱلْوَجْهِ وَهَيْئَةَ ٱلِٱسْتِصْغَارِ وَقِلَّةَ ٱلِٱكْتِرَابِ بِٱلْمُسْتَهْزَإِ بِهِ وَذٰلِكَ بِخِلَافِ وَجْهِ ٱلْغَاضِبِ أَعْنِي أَنَّ فِيهِ قُبْحًا وَٱهْتِمَامًا وَتِلْكَ هِيَ حَالَةُ نَفْسِ ٱلْغَاضِبِ عَلَى ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُغْضَبُ عَلَيْهِ



البحث الرابع

في وزن الشعر ولحنه

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) وَإِيجَادُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ يَكُونُ تَعَلُّمُهَا فِي ٱلْأَعَارِيضِ ٱلطَّوِيلَةِ لَا فِي ٱلْقَصِيرَةِ وَلِذَٰلِكَ رَفَضَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ ٱلْأَعَارِيضَ ٱلْقِصَارَ ٱلَّتِي كَانَتْ تُسْتَعْمَلُ فِيهَا وَفِي غَيْرِهَا مِنْ صَنَائِعِ ٱلشِّعْرِ . وَأَخَصُّ ٱلْأَوْزَانِ بِهَا هُوَ ٱلْوَزْنُ ٱلْبَسِيطُ ٱلْغَيْرُ مُرَكَّبٍ وَلَكِنْ يَنْبَغِي أَلَّا يُبْلَغَ فِيهَا مِنَ ٱلطُّولِ إِلَى حَدٍّ يُسْتَكْرَهُ . وَٱلْحَدُّ ٱلْمُفْهِمُ جَوْهَرَ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ هُوَ أَنَّهَا نِسْبَةٌ وَمُحَاكَاةٌ لِلْعَمَلِ ٱلْإِرَادِيِّ ٱلْفَاضِلِ ٱلْكَامِلِ ٱلَّذِي لَهُ قُوَّةٌ كُلِّيَّةٌ فِي ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ لَا قُوَّةٌ جُزْئِيَّةٌ فِي وَاحِدٍ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْأُمُورِ ٱلْفَاضِلَةِ مُحَاكَاةً تَنْفَعِلُ لَهَا ٱلنُّفُوسُ ٱنْفِعَالًا مُعْتَدِلًا بِمَا يُوَلِّدُ فِيهَا مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ وَذَٰلِكَ بِمَا يُخَيِّلُ فِي ٱلْفَاضِلِينَ مِنَ ٱلنَّقِيِّ وَٱلنَّظَافَةِ فَإِنَّ ٱلْمُحَاكَاةَ إِنَّمَا هِيَ لِلْهَيْئَاتِ ٱلَّتِي تَلْزَمُ ٱلْفَضَائِلَ لَا لِلْمَلَكَاتِ إِذْ لَيْسَ يُمْكِنُ فِيهَا أَنْ يُتَخَيَّلَ . وَهَٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ بِٱلْقَوْلِ تَكْمُلُ إِذَا قُرِنَ بِهَا ٱللَّحْنُ وَٱلْوَزْنُ وَقَدْ تُوجَدُ مِنَ ٱلْمُنْشِدِينَ أَحْوَالٌ أُخَرُ خَارِجَةٌ عَنِ ٱلْوَزْنِ وَٱللَّحْنِ تَجْعَلُ ٱلْقَوْلَ أَتَمَّ مُحَاكَاةً وَهِيَ ٱلْإِشَارَاتُ وَٱلْأَخْذُ بِٱلْوُجُوهِ ٱلَّذِي قِيلَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ فَأَوَّلُ أَجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلشِّعْرِيِّ فِي ٱلْعَمَلِ هُوَ أَنْ تُحْصَى

ٱلْمَعَانِي ٱلشَّرِيفَةُ ٱلَّتِي بِهَا يَكُونُ ٱلتَّخْيِيلُ . ثُمَّ تُكْسَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱللَّحْنَ وَٱلْوَزْنَ ٱلْمُلَائِمَيْنِ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ . وَعَمَلُ ٱللَّحْنِ فِي ٱلشِّعْرِ هُوَ أَنَّهُ يُعِدُّ ٱلنَّفْسَ لِقَبُولِ خَيَالِ ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يُقْصَدُ تَخْيِيلُهُ فَكَانَ ٱللَّحْنُ هُوَ ٱلَّذِي يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ ٱلِاسْتِعْدَادَ ٱلَّذِي بِهِ يُقْبَلُ ٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ لِلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ تَشْبِيهُهُ . وَإِنَّمَا يُفِيدُ ٱلنَّفْسَ هٰذِهِ ٱلْهَيْئَةَ فِي نَوْعٍ نَوْعٍ مِنْ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ ٱللَّحْنُ ٱلْمُلَائِمُ لِذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلشِّعْرِ بِنَغَمَاتِهِ وَتَأْلِيفِهِ . فَإِنَّهُ كَمَا أَنَّا نَجِدُ ٱلنَّغَمَ ٱلْحَادَّةَ تُلَائِمُ نَوْعًا مِنَ ٱلْقَوْلِ غَيْرَ ٱلَّذِي تُلَائِمُهُ ٱلنَّغَمَاتُ ٱلثِّقَالُ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ نَعْتَقِدَ فِي تَرْكِيبِ ٱلْأَلْحَانِ وَهَيْئَاتِ ٱلْمُحَدِّثِينَ وَٱلْقُصَّاصِ ٱلَّتِي تُكْمِلُ ٱلتَّخْيِيلَ ٱلْمَوْجُودَ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ أَنْفُسِهَا مِنْ قِبَلِ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ أَعْنِي ٱلتَّشْبِيهَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ ٱلَّتِي هِيَ إِسْطَقِسَّاتُ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ بِٱلْجُمْلَةِ هَيْئَتَانِ إِحْدَاهُمَا هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى خُلُقٍ وَعَادَةٍ كَمَنْ يَتَكَلَّمُ كَلَامَ عَاقِلٍ أَوْ كَلَامَ غَضُوبٍ وَٱلثَّانِيَةُ هَيْئَةٌ تَدُلُّ عَلَى ٱعْتِقَادٍ فَإِنَّهُ لَيْسَ هَيْئَةُ مَنْ يَتَكَلَّمُ وَهُوَ مُتَحَقِّقٌ بِٱلشَّيْءِ هَيْئَةَ مَنْ يَتَكَلَّمُ فِيهِ وَهُوَ شَاكٌّ . فَٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ فِي ٱلْمَدِيحِ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ هَيْئَةُ قَوْلِهِ وَشَكْلِهِ هَيْئَةَ مُحِقٍّ لَا شَاكٍّ وَهَيْئَةَ جَادٍّ لَا هَازِلٍ وَٱلْقَصَصُ وَٱلْحَدِيثُ ٱلَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يُعَبِّرَ عَنْهُ ٱلْقَاصُّ وَٱلْمُحَدِّثُ وَهُوَ بِهَاتَيْنِ ٱلْحَالَتَيْنِ هُوَ ٱلْخُرَافَةُ ٱلَّتِي تَكُونُ بِٱلتَّشْبِيهِ وَٱلْمُحَاكَاةِ وَأَعْنِي بِٱلْخُرَافَةِ تَرْكِيبَ ٱلْأُمُورِ ٱلَّتِي تُقْصَدُ مُحَاكَاتُهَا إِمَّا بِحَسَبِ مَا هِيَ عَلَيْهِ فِي أَنْفُسِهَا أَعْنِي فِي ٱلْوُجُودِ وَإِمَّا بِحَسَبِ مَا ٱعْتِيدَ فِي ٱلشِّعْرِ

مِنْ ذٰلِكَ وَإِنْ كَانَ كَذِبًا . وَلِهٰذَا قِيلَ لِلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ خُرَافَاتٌ فَٱلْقُصَّاصُ وَٱلْمُحَدِّثُونَ بِٱلْجُمْلَةِ هُمُ ٱلَّذِينَ لَهُمْ قُدْرَةٌ عَلَى مُحَاكَاةِ ٱلْعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ (قَالَ) وَقَدْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ سِتَّةً : ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْخُرَافِيَّةُ وَٱلْعَادَاتُ وَٱلْوَزْنُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ وَٱللَّحْنُ . وَٱلدَّلِيلُ عَلَى ذٰلِكَ أَنَّ كُلَّ قَوْلٍ شِعْرِيٍّ قَدْ يَنْقَسِمُ إِلَى مُشَبَّهٍ وَمُشَبَّهٍ بِهِ وَٱلَّذِي بِهِ يُشَبَّهُ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُحَاكَاةُ وَٱلْوَزْنُ وَٱللَّحْنُ وَٱلَّذِي يُشَبَّهُ فِي ٱلْمَدْحِ ثَلَاثَةٌ أَيْضًا : ٱلْعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ وَٱلنَّظَرُ أَعْنِي ٱلِاسْتِدْلَالَ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ فَتَكُونُ أَجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ضَرُورَةً سِتَّةً . وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْعَادَاتُ وَٱلِاعْتِقَادَاتُ أَعْظَمَ أَجْزَاءِ ٱلْمَدِيحِ لِأَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ لَيْسَتْ هِيَ صِنَاعَةً تُحَاكِي ٱلنَّاسَ أَنْفُسَهُمْ مِنْ جِهَةِ مَا هُمْ أَشْخَاصُ نَاسٍ مَحْسُوسُونَ بَلْ إِنَّمَا تُحَاكِيهِمْ مِنْ قِبَلِ عَادَاتِهِمِ ٱلْجَمِيلَةِ وَأَفْعَالِهِمِ ٱلْحَسَنَةِ وَٱعْتِقَادَاتِهِمِ ٱلسَّعِيدَةِ تَشْمَلُ ٱلْأَفْعَالَ وَٱلْخُلُقَ وَلِذٰلِكَ جُعِلَتِ ٱلْعَادَةُ أَحَدَ أَجْزَاءِ ٱلسِّتَّةِ وَٱسْتَغْنِيَ بِذِكْرِهَا فِي ٱلتَّقْسِيمِ عَنْ ذِكْرِ ٱلْأَفْعَالِ وَٱلْخُلُقِ . وَأَمَّا ٱلنَّظَرُ فَهُوَ إِبَانَةُ صَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ وَكَأَنَّهُ كَانَ عِنْدَهُمْ ضَرْبًا مِنَ ٱلِاحْتِجَاجِ لِصَوَابِ ٱلِاعْتِقَادِ ٱلْمَمْدُوحِ بِهِ . وَهٰذَا كُلُّهُ لَيْسَ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَإِنَّمَا يُوجَدُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشَّرْعِيَّةِ ٱلْمَدِيحِيَّةِ وَكَانُوا يُحَاكُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةَ ٱلْأَشْيَاءَ أَعْنِي ٱلْعَادَاتِ وَٱلِاعْتِقَادَاتِ وَٱلِاسْتِدْلَالَ بِٱلثَّلَاثَةِ ٱلْأَصْنَافِ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا يُحَاكَى أَعْنِي ٱلْقَوْلَ ٱلْمُخَيِّلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَأَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلْخُرَافِيِّ مِنْ جِهَةِ مَا هُوَ مُحَاكٍ جُزْءَانِ وَذٰلِكَ أَنَّ

كُلَّ مُحَاكَاةٍ فَإِمَّا أَنْ تُوطِّئَ لِمُحَاكَاتِهِ بِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ ثُمَّ يُنْتَقَلُ مِنْهُ إِلَي مُحَاكَاتِهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُعْرَفُ عِنْدَهُمْ بِٱلْإِدَارَةِ وَإِمَّا أَنْ يُحَاكِي ٱلشَّيْءُ نَفْسَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِضَ لِمُحَاكَاةِ ضِدِّهِ وَهُوَ ٱلَّذِي كَانَ يُسَمُّونَهُ بِٱلِٱسْتِدْلَالِ. وَٱلَّذِي يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلْأَجْزَاءِ مَنْزِلَةَ ٱلْمَبْدَإِ وَٱلْأُسِّ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْخُرَافِيُّ ٱلْمُحَاكِي. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْعَادَاتُ وَهُوَ ٱلَّذِي تُسْتَعْمَلُ أَوَّلًا فِيهِ ٱلْمُحَاكَاةُ أَعْنِي أَنَّهُ ٱلَّذِي يُحَاكَى وَإِنَّمَا كَانَتِ ٱلْحِكَايَةُ هِيَ ٱلْعَمُودَ وَٱلْأُسَّ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ لِأَنَّ ٱلِٱلْتِذَاذَ لَيْسَ يَكُونُ بِذِكْرِ ٱلشَّيْءِ ٱلْمَقْصُودِ ذِكْرُهُ دُونَ أَنْ يُحَاكَى بَلْ إِنَّمَا يَكُونُ ٱلِٱلْتِذَاذُ بِهِ وَٱلْقَبُولُ لَهُ إِذَا حُوكِيَ. وَلِذٰلِكَ لَا يَلْتَذُّ ٱلْإِنْسَانُ بِٱلنَّظَرِ إِلَى صُوَرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْجُودَةِ أَنْفُسِهَا وَيَلْتَذُّ بِمُحَاكَاتِهَا وَتَصَوُّرِهَا بِٱلْأَصْبَاغِ وَٱلْأَلْوَانِ وَلِذٰلِكَ ٱسْتَعْمَلَ ٱلنَّاسُ صِنَاعَةَ ٱلزِّوَاقَةِ وَٱلتَّصْوِيرِ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلتَّالِي لِلثَّانِي هُوَ ٱلِٱعْتِقَادُ وَهٰذَا هُوَ ٱلْقُدْرَةُ عَلَى مُحَاكَاةِ مَا هُوَ مَوْجُودٌ كَذَا أَوْ لَيْسَ بِمَوْجُودٍ كَذَا. وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا تَتَكَلَّفُهُ ٱلْخَطَابَةُ مِنْ تَبْيِينِ أَنَّ شَيْئًا مَوْجُودٌ أَوْ غَيْرُ مَوْجُودٍ إِلَّا أَنَّ ٱلْخَطَابَةَ تَتَكَلَّفُ ذٰلِكَ بِقَوْلٍ مُقْنِعٍ وَٱلشِّعْرَ بِقَوْلٍ مُحَاكٍ وَهٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ أَيْضًا مَوْجُودَةٌ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ. (قَالَ) وَقَدْ كَانَ ٱلْأَقْدَمُونَ مِنْ وَاضِعِي ٱلسِّيَاسَاتِ يَقْتَصِرُونَ عَلَى تَمْكِينِ ٱلِٱعْتِقَادَاتِ فِي ٱلنُّفُوسِ بِٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ حَتَّى شَعَرَ ٱلْمُتَأَخِّرُونَ بِٱلطُّرُقِ ٱلْخَطَبِيَّةِ وَٱلْفَرْقِ بَيْنَ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلِٱعْتِقَادِ وَٱلَّذِي يَحُثُّ عَلَى ٱلْعَادَةِ.

إنَّ ٱلَّذي يحُثُّ على ٱلعادةِ يحُثُّ على عملِ شيْءٍ أوْ على ٱلهربِ منْ شيْءٍ وٱلقولَ ٱلَّذي يحُثُّ على ٱلاعتقادِ إنَّما يحُثُّ على أنَّ شيئًا موْجودٌ أوْ غيرُ موْجودٍ لا على شيْءٍ يُطلَبُ أوْ يُهرَبُ عنهُ. وٱلجزْءُ ٱلرَّابعُ لهذهِ ٱلأجزاءِ أعني ٱلتَّالي للثَّالثِ هوَ ٱلوزنُ ومنْ تمامِهِ أنْ يكونَ مُناسِبًا للغرضِ فرُبَّ وزنٍ يُناسِبُ غرضًا ولا يُناسِبُ غرضًا آخرَ. وٱلجزْءُ ٱلخامسُ في ٱلمرتبةِ هوَ ٱللَّحنُ وهوَ أعظمُ هذهِ ٱلأجزاءِ تأثيرًا وأفعلُها في ٱلنُّفوسِ. وٱلجزْءُ ٱلسَّادسُ هوَ ٱلنَّظرُ أعني ٱلاحتجاجَ لصوابِ ٱلاعتقادِ أوْ صوابِ ٱلعملِ لا بقولٍ إقناعيٍّ فإنَّ ذلكَ غيرُ مُلائمٍ لهذهِ ٱلصِّناعةِ بلْ بقولٍ مُحاكٍ فإنَّ صناعةَ ٱلشِّعرِ ليستْ مبنيَّةً على ٱلاحتجاجِ وٱلمناظرةِ وبخاصَّةٍ صناعةُ ٱلمديحِ ولذلكَ ليسَ يستعمِلُ ٱلمديحُ صناعةَ ٱلنِّفاقِ وٱلأخذِ بٱلوجوهِ كما تستعملها ٱلخطابةُ. (قالَ) وٱلصِّناعةُ ٱلعلميَّةُ ٱلَّتي تعرفُ ممَّاذا تُعمَلُ ٱلأشعارُ وكيفَ تُعمَلُ أتمُّ رئاسةً منْ عملِ ٱلأشعارِ فإنَّ كلَّ صناعةٍ تُوقِفُ ما تحتَها منَ ٱلصَّنائعِ على عملِها هيَ أرأسُ ممَّا تحتَها



البحث الخامس

في صناعة المديح واجزائها

(من الكتاب نفسه)

فاذ قد قيل ما هي صناعة المديح وممّاذا تلتئم وكم اجزاؤها وما هي فلنقل في الاشياء التي بها يكون حسن الامور التي يتقوّم بها الشعر. فانّ القول في هذه الاشياء ضروريّ في صناعة المديح وفي غيرها وهو لها بمنزلة المبدإ وذلك ان الامور التي تتقوّم منها الصنائع صنفان امور ضروريّة وامور تكون بها اتمّ وافضل فنقول انّه يجب ان تكون صناعة المديح مستوفية الغايات فعلها اعني ان تبلغ من التشبيه والمحاكاة الغاية التي في طباعها ان تبلغها وذلك يكون باشياء احدها ان يكون للقصيدة عظم ما محدود تكون به كلاً وكاملة والكل والكامل هو ما كان له مبدأ ووسط وآخر والمبدأ قبل وليس يجب ان يكون مع الاشياء التي هو لها مبدأ والآخر هو مع الاشياء التي هو لها آخر وليس قبل والوسط هو قبل ومعاً فهو افضل من الطرفين اذ كان الوسط في المكان قبل وبعد فانّ الشجعان هم الذين مكانهم في الحرب ما بين مكان الجبناء والمتهوّرين وهو المكان الوسط وكذلك الحدّ الفاضل في التركيب هو الوسط وهو الذي يتركّب من الاطراف ولا تتركّب الاطراف منه وليس يجب ان

يَكُونَ ٱلْمُتَوَسِّطُ وَسَطًا اَيْ خِيَارًا فِي ٱلتَّرْكِيبِ وَٱلتَّرْتِيبِ فَقَطْ بَلْ وَفِي ٱلْمِقْدَارِ وَاِذَا كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَقَدْ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ لِلْقَصِيدَةِ اَوَّلٌ وَوَسَطٌ وَآخِرٌ وَاَنْ يَكُونَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْاَجْزَاءِ وَسَطًا فِي ٱلْمِقْدَارِ وَكَذٰلِكَ يَجِبُ فِي ٱلْجُمْلَةِ ٱلْمُرَكَّبَةِ مِنْهَا اَنْ تَكُونَ بِقَدْرٍ مَحْدُودٍ لَا اَنْ تَكُونَ بِاَيِّ عِظَمٍ ٱتَّفَقَ وَذٰلِكَ اَنَّ ٱلْجُودَةَ فِي ٱلْمُرَكَّبِ تَكُونُ مِنْ قِبَلِ شَيْئَيْنِ اَحَدُهُمَا ٱلتَّرْتِيبُ وَٱلثَّانِي ٱلْمِقْدَارُ وَلِهٰذَا لَا يُقَالُ فِي ٱلْحَيَوَانِ ٱلصَّغِيرِ ٱلْجُثَّةِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى اَشْخَاصِ نَوْعِهِ اِنَّهُ جَيِّدٌ. وَٱلْحَالُ فِي ٱلْمُخَاطَبَةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلتَّعَالِيمِ ٱلْبُرْهَانِيَّةِ اَعْنِي اَنَّ ٱلتَّعَالِيمَ اِنْ كَانَ قَصِيرَ ٱلْمُدَّةِ لَمْ يَكُنِ ٱلْفَهْمُ جَيِّدًا وَلَا اِنْ كَانَ اَطْوَلَ مِمَّا يَنْبَغِي لِاَنَّهُ يَلْحَقُ ٱلْمُتَعَلِّمَ فِي ذٰلِكَ ٱلنِّسْيَانُ وَٱلْحَالُ فِي ذٰلِكَ كَٱلْحَالِ فِي ٱلنَّظَرِ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اَعْنِي اَنَّ ٱلنَّظَرَ اِلَى ٱلْمَحْسُوسِ اِنَّمَا يَكُونُ جَيِّدًا اِذَا كَانَ بَيْنَ ٱلنَّاظِرِ وَبَيْنَهُ بُعْدٌ مُتَوَسِّطٌ لَا اِذَا كَانَ بَعِيدًا مِنْهُ جِدًّا وَلَا اِذَا كَانَ قَرِيبًا مِنْهُ جِدًّا. وَٱلَّذِي يَعْرِضُ فِي ٱلتَّعَالِيمِ بِعَيْنِهِ يَعْرِضُ فِي ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعْنِي اَنَّهُ اِذَا كَانَتِ ٱلْقَصِيدَةُ قَصِيرَةً لَمْ تَسْتَوْفِ اَجْزَاءَ ٱلْمَدِيحِ وَاِنْ كَانَتْ طَوِيلَةً لَمْ يُمْكِنْ اَنْ تُحْفَظَ فِي ذِكْرِ ٱلسَّامِعِينَ اَجْزَاؤُهَا فَيَعْرِضُ لَهُمْ اِذَا سَمِعُوا ٱلْاَجْزَاءَ ٱلْاَخِيرَةَ اَنْ يَكُونُوا قَدْ نَسُوا ٱلْاُولَى وَاَمَّا ٱلْاَقَاوِيلُ ٱلْخُطْبِيَّةُ ٱلَّتِي تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْمُنَاظَرَةِ فَلَيْسَ لَهَا قَدْرٌ مَحْدُودٌ بِٱلطَّبْعِ وَلِذٰلِكَ ٱحْتَاجَ ٱلنَّاسُ اَنْ يُقَدِّرُوا زَمَانَ ٱلْمُنَاظَرَةِ بَيْنَ ٱلْخُصُومِ اِمَّا بِآلَةِ ٱلْمَاءِ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِ

ٱلعَادَةُ عِندَ ٱليُونَانِيِّينَ إِذْ كَانُوا إِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ ٱلضَّمَائِرَ فَقَطْ وَإِمَّا بِتَأْجِيلِ ٱلأَيَّامِ كَٱلحَالِ عِندَنَا إِذْ كَانَ ٱلْمُعْتَمَدُ فِي ٱلْخُصُومَاتِ عِندَنَا إِنَّمَا هِيَ ٱلأَشْيَاءُ ٱلْمُقْنِعَةُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ. وَلِذٰلِكَ لَوْ كَانَتْ صِنَاعَةُ ٱلْمَدِيحِ بِٱلْمُنَاظَرَةِ لَكَانَ يُحْتَاجُ فِيهَا إِلَى تَقْدِيرِ زَمَانِ ٱلْمُنَاظَرَةِ بِسَاعَاتِ ٱلْمَاءِ أَوْ غَيْرِهَا. لَكِنْ لَمَّا لَمْ يَكُنِ ٱلأَمْرُ كَذٰلِكَ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ حَدٌّ طَبِيعِيٌّ كَٱلحَالِ فِي ٱلأَقْدَارِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ لِلأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ وَذٰلِكَ أَنَّهُ كَمَا أَنَّ جَمِيعَ ٱلْمُتَكَوِّنَاتِ إِذْ لَمْ يَعُقْهَا فِي حَالِ ٱلْكَوْنِ سُوءُ ٱلبَخْتِ صَارَتْ إِلَى عِظَمٍ مَحْدُودٍ بِٱلطَّبْعِ. كَذٰلِكَ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلحَالُ فِي ٱلأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ فِي صِنْفَيِ ٱلْمُحَاكَاةِ أَعْنِي ٱلَّتِي يُنْتَقَلُ فِيهَا مِنَ ٱلضِّدِّ إِلَى ٱلضِّدِّ أَوْ يُحَاكَى فِيهَا ٱلشَّيْءُ نَفْسُهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُنْتَقَلَ إِلَى ضِدِّهِ (قَالَ) وَمِمَّا يُحَسِّنُ بِهِ قِوَامُ ٱلشِّعْرِ أَلَّا يُطَوِّلَ فِيهِ بِذِكْرِ ٱلأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلَّتِي تَعْرِضُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمَقْصُودِ بِٱلشِّعْرِ فَإِنَّ ٱلشَّيْءَ ٱلْوَاحِدَ تَعْرِضُ لَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ وَكَذٰلِكَ يُوجَدُ لِلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ ٱلْمُشَارِ إِلَيْهِ أَفْعَالٌ كَثِيرَةٌ (قَالَ) وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ جَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ لَا يَتَحَفَّظُونَ بِهٰذَا بَلْ يَنْتَقِلُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ وَلَا يَلْزَمُونَ غَرَضًا وَاحِدًا بِعَيْنِهِ مَا عَدَا أُومِيرُوشَ. وَأَنْتَ تَجِدُ هٰذَا كَثِيرًا مَا يَعْرِضُ فِي أَشْعَارِ ٱلعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ عِندَ ٱلْمَدْحِ أَعْنِي أَنَّهُ إِذَا عَنَّ لَهُمْ شَيْءٌ مَا مِنْ أَسْبَابِ ٱلْمَمْدُوحِ مِثْلُ سَيْفٍ أَوْ قَوْسٍ ٱشْتَغَلُوا بِمُحَاكَاتِهِ وَأَضْرَبُوا عَنْ ذِكْرِ ٱلْمَمْدُوحِ وَبِٱلْجُمْلَةِ فَيَجِبُ أَنْ تَكُونَ ٱلصِّنَاعَةُ تَتَشَبَّهُ بِٱلطَّبِيعَةِ

أعني ان تكون انما تفعل جميع ما تفعله من اجل غرض واحد وغاية واحدة. واذا كان ذلك كذلك فواجب ان يكون التشبيه والمحاكاة لواحد ومقصودًا به غرض واحد وان يكون لاجزائه عظم محدود وان يكون فيها مبدأ ووسط وآخر وان يكون الوسط افضلها فان الموجودات التي وجودها في الترتيب وحسن النظام اذا عدمت ترتيبها لم يوجد لها الفعل الخاص بها. (قال) وظاهر ايضًا مما قيل من مقصد الاقاويل الشعرية ان المحاكاة التي تكون بالامور المخترعة الكاذبة ليست من فعل الشاعر وهي التي تسمى امثالًا وقصصًا مثل ما في كتاب دمنة وكليلة. لكن الشاعر انما يتكلم في الامور الموجودة او الممكنة الوجود لان هذه هي التي يقصد الهرب عنها او طلبها او مطابقة التشبيه لها على ما قيل في فصول المحاكاة. واما الذين يعملون الامثال والقصص فان عملهم غير عمل الشعراء وان كانوا قد يعملون تلك الامثال والاحاديث المخترعة بكلام موزون. وذلك ان كليهما وان كانا يشتركان في الوزن فاحدهما يتم له العمل الذي قصده بالخرافة وان لم تكن موزونة وهو التعقل الذي يستفاد من الاحاديث المخترعة والشاعر لا يحصل له مقصوده على التمام من التخييل الا بالوزن فالفاعل للامثال المخترعة والقصص انما يخترع اشخاصًا ليس لها وجود اصلًا ويضع لها اسماء واما الشاعر فانما يضع اسماء لاشياء موجودة وربما تكلموا في الكليات ولذلك كانت صناعة الشعر اقرب الى الفلسفة من صناعة اختراع الامثال وهذا الذي

قَالَهُ هُوَ بِحَسَبِ عَادَتِهِمْ فِي ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هُوَ ٱلْأَمْرَ ٱلطَّبِيعِيَّ لِلْأُمَمِ ٱلطَّبِيعِيَّةِ (قَالَ) وَأَكْثَرُ مَا يَجِبُ أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ أَنْ تَكُونَ ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْمُحَاكَيَاتُ أُمُورًا مَوْجُودَةً لَا أُمُورًا لَهَا أَسْمَاءٌ مُخْتَرَعَةٌ فَإِنَّ ٱلْمَدِيحَ إِنَّمَا يَتَوَجَّهُ نَحْوَ ٱلتَّحْرِيكِ إِلَى ٱلْأَفْعَالِ ٱلْإِرَادِيَّةِ فَإِذَا كَانَتِ ٱلْأَفْعَالُ مُمْكِنَةً كَانَ ٱلْإِقْنَاعُ فِيهَا أَكْثَرَ وُقُوعًا أَعْنِي ٱلتَّصْدِيقَ ٱلشِّعْرِيَّ ٱلَّذِي يُحَرِّكُ ٱلنَّفْسَ إِلَى ٱلطَّلَبِ وَٱلْهَرَبِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْغَيْرُ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ تُوضَعُ وَتُخْتَرَعُ لَهَا أَسْمَاءٌ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ إِلَّا أَقَلَّ ذَلِكَ مِثْلَ وَضْعِهِمِ ٱلْجُودَ شَخْصًا ثُمَّ يَضَعُونَ أَفْعَالًا لَهُ وَيُحَاكُونَهَا وَيُطْنِبُونَ فِي مَدْحِهِ. وَهَذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يُنْتَفَعُ بِهِ مَنْفَعَةً غَيْرَ يَسِيرَةٍ لِمُنَاسَبَةِ أَفْعَالِ ذَلِكَ ٱلشَّيْءِ ٱلْمُخْتَرَعِ وَٱنْفِعَالَاتِهِ لِلْأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ يُعْتَمَدَ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ فَإِنَّ هَذَا ٱلنَّحْوَ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لَيْسَ مِمَّا يُوَافِقُ جَمِيعَ ٱلطِّبَاعِ بَلْ قَدْ يَضْحَكُ مِنْهُ وَيَزْدَرِيهِ كَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هَذَا ٱلْبَابِ لِلْعَرَبِ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْحَثِّ عَلَى ٱلْفَضِيلَةِ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

لَعَمْرِي لَقَدْ لَاحَتْ عُيُونٌ نَوَاظِرٌ ... إِلَى ضَوْءِ نَارٍ بِٱلْيَفَاعِ تُحَرَّقُ

تُشَبُّ لِمَقْرُورَيْنِ يَصْطَلِيَانِهَا ... وَبَاتَ عَلَى ٱلنَّارِ ٱلنَّدَى وَٱلْمُحَلَّقُ

رَضِيعَيْ لِبَانٍ ثَدْيَ أُمٍّ تَحَالَفَا ... بِأَسْحَمَ دَاجٍ عَوْضُ لَا نَتَفَرَّقُ

وَإِذَا كَانَ هَذَا هَكَذَا فَظَاهِرٌ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا يَكُونُ شَاعِرًا بِعَمَلِ ٱلْخُرَافَاتِ وَٱلْأَوْزَانِ بِقَدْرِ مَا يَكُونُ قَادِرًا عَلَى عَمَلِ ٱلتَّشْبِيهِ

وَٱلْمحاكاةِ وَهُوَ إِنَّما يَعْمَلُ ٱلتَّشبِيهَ لِلأُمُورِ ٱلإِرادِيَّةِ ٱلْمَوْجُودَةِ
وَلَيسَ مِنْ شَرْطِهِ انْ يُحاكِيَ ٱلأُمورَ ٱلَّتي هِيَ مَوْجُودَةٌ فَقَطْ بَلْ
وَقَدْ يُحاكِي ٱلأُمورَ ٱلَّتي يُظَنُّ بِها انَّها مُمكِنَةُ ٱلْوُجُودِ وَهُوَ فِي
ذٰلِكَ شاعِرٌ لَيسَ بِدُونِ ما هُوَ فِي مُحاكاةِ ٱلأُمُورِ ٱلْمَوْجُودَةِ مِنْ قِبَلِ
انَّهُ لَيسَ مانِعٌ يَمْنَعُ انْ نُوجَدَ تِلكَ ٱلأَشياءُ عَلَى مِثْلِ حالِ ٱلأَشياءِ
ٱلَّتي هِيَ ٱلآنَ مَوْجُودَةٌ فَلَيسَ يَحْتاجُ فِي ٱلتَّخْييلِ ٱلشِّعْرِيِّ الى مِثْلِ
هٰذِهِ ٱلْخُرافاتِ ٱلْمُختَرَعَةِ وَلَا ايضًا يَحْتاجُ ٱلشَّاعِرُ ٱلْمُفْلِقُ انْ تَتِمَّ
مُحاكاتُهُ بِٱلأُمُورِ ٱلَّتي مِنْ خارِجٍ وَهُوَ ٱلَّذي يُدْعَى نِفاقًا وَاخْذًا
بِٱلْوُجُوهِ فَانَّ ذٰلِكَ إِنَّما يَستَعمِلُهُ ٱلْمُمَوِّهُونَ مِنَ ٱلشُّعَراءِ اعْنِي
ٱلَّذينَ يَرَوْنَ انَّهُم شُعَراءُ وَلَيسُوا شُعَراءَ. وَامَّا ٱلشُّعَراءُ بِٱلْحَقيقَةِ فَلَيسَ
يَستَعمِلُونَهُ إِلَّا عِندَ ما يُرِيدُونَ انْ يُقابِلُوا بِهِ استِعمالَ شُعَراءِ
ٱلزُّورِ لَهُ وَامَّا إِذا قابَلُوا ٱلشُّعَراءَ ٱلْمُجِيدِينَ فَلَيسَ يَستَعمِلُونَهُ اصلًا. وَقَدْ
يُضْطَرُّ ٱلْمُفْلِقُونَ فِي مَواضِعَ انْ يَستَعِينُوا بِٱستِعمالِ ٱلأَشياءِ ٱلْخارِجَةِ عَنْ
عَمُودِ ٱلشِّعْرِ مِنْ قِبَلِ انَّ ٱلْمُحاكاةَ لَيسَ تَكُونُ فِي كُلِّ مَوْضِعٍ
لِلأَشياءِ ٱلْكامِلَةِ ٱلَّتي تُمْكِنُ مُحاكاتُها عَلَى ٱلتَّمامِ بَلْ لِأَشياءَ ناقِصَةٍ
تَعْسُرُ مُحاكاتُها بِٱلْقَوْلِ فَيُستَعانُ عَلَى مُحاكاتِها بِٱلأَشياءِ ٱلَّتي مِنْ خارِجٍ
وَبِخاصَّةٍ اذا قَصَدُوا مُحاكاةَ ٱلِاعْتِقاداتِ لِأَنَّ تَخَيُّلَها يَعْسُرُ إِنْ كانَتْ
لَيستْ افعالًا وَلَا جَواهِرَ وَقَدْ تُمزَجُ هٰذِهِ ٱلأَشياءُ ٱلَّتي مِنْ خارِجٍ
بِٱلْمُحاكياتِ ٱلشِّعْرِيَّةِ احيانًا كَأَنَّها بِٱتِّفاقٍ مِنْ غَيرِ قَصْدٍ فَيَكُونُ لَها
فِعلٌ مُعْجِبٌ إِذا كانَتِ ٱلأَشياءُ ٱلَّتي شَأْنُها انْ تَقَعَ بِٱتِّفاقٍ مُعْجِبَةً

(قالَ) وَكثيرٌ مِنَ ٱلأَقاوِيلِ ٱلشِّعرِيَّةِ تَكونُ جودَتُها في ٱلمُحاكاةِ ٱلبَسيطَةِ ٱلغَيرِ ٱلمُتَفَنِّنَةِ وَكَثيرٌ مِنها إِنَّما تَكونُ جودَتُها في نَفسِ ٱلتَّشبيهِ وَٱلمُحاكاةِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلحالَ في ٱلتَّشبيهِ كَٱلحالِ في ٱلأَعمالِ فَكَما أَنَّ مِنَ ٱلأَعمالِ ما يُنالُ بِفِعلٍ واحِدٍ بَسيطٍ وَمِنها ما يُنالُ بِفِعلٍ مُرَكَّبٍ كَذٰلِكَ ٱلأَمرُ في ٱلمُحاكاةِ. وَٱلمُحاكاةُ ٱلبَسيطَةُ هِيَ ٱلَّتي يُستَعمَلُ فيها أَحَدُ نَوعَيِ ٱلتَّخييلِ أَعني ٱلنَّوعَ ٱلَّذي يُسَمَّى ٱلإِدارَةَ أَوِ ٱلنَّوعَ ٱلَّذي يُسَمَّى ٱلِاستِدلالَ. وَأَمَّا ٱلمُحاكاةُ ٱلمُرَكَّبَةُ فَهِيَ ٱلَّتي يُستَعمَلُ فيها ٱلصِّنفانِ جَميعًا وَذٰلِكَ إِمَّا بِأَنْ يُبتَدَأَ بِٱلإِدارَةِ ثُمَّ يُنتَقَلَ مِنهُ إِلَى ٱلِاستِدلالِ أَوْ يُبتَدَأَ بِٱلِاستِدلالِ ثُمَّ يُنتَقَلَ مِنهُ إِلَى ٱلإِدارَةِ وَٱلِاعتِمادُ هُوَ أَنْ يُبدَأَ بِٱلإِدارَةِ ثُمَّ يُنتَقَلَ مِنهُ إِلَى ٱلِاستِدلالِ فَإِنَّهُ فَرقٌ كَبيرٌ بَينَ أَنْ يُبدَأَ أَوَّلًا بِٱلإِدارَةِ ثُمَّ يُنتَقَلَ إِلَى ٱلِاستِدلالِ أَوْ يُبدَأَ بِٱلِاستِدلالِ ثُمَّ يُنتَقَلَ إِلَى ٱلإِدارَةِ. (قالَ) وَأَعني بِٱلإِدارَةِ مُحاكاةَ ضِدِّ ٱلمَقصودِ مَدحُهُ أَوَّلًا بِما يَنفِرُ ٱلنَّفسُ عَنهُ ثُمَّ يُنتَقَلُ مِنهُ إِلَى مُحاكاةِ ٱلمَمدوحِ نَفسِهِ مَثَلًا أَنَّهُ إِذا أَرادَ أَنْ يُحاكِيَ ٱلسَّعادَةَ وَأَهلَها ٱبتَدَأَ أَوَّلًا بِمُحاكاةِ ٱلشَّقاوَةِ وَأَهلِها ثُمَّ ٱنتَقَلَ إِلَى مُحاكاةِ أَهلِ ٱلسَّعادَةِ وَذٰلِكَ بِضِدِّ ما حاكَى بِهِ أَهلَ ٱلشَّقاوَةِ. وَأَمَّا ٱلِاستِدلالُ فَهُوَ مُحاكاةُ ٱلشَّيءِ فَقَط (قالَ) وَأَحسَنُ ٱلِاستِدلالِ ما خالَطَ بِٱلإِدارَةِ. (قالَ) وَقَد يُستَعمَلُ ٱلِاستِدلالُ وَٱلإِدارَةُ في ٱلأَشياءِ ٱلغَيرِ ٱلمُتَنَفِّسَةِ وَفي ٱلمُتَنَفِّسَةِ لا مِن جِهَةِ ما يُقصَدُ بِهِ عَمَلٌ

أو ترك بل من جهة التخييل فقط أعني المطابقة. وهذا النوع من الاستدلال الذي ذكره هو الغالب على أشعار العرب أعني الاستدلال والإدارة في غير المتنفسة وهو مثل قول أبي الطيب:

كم زورة لك في الأعراب خافية
أدهى وقد رقدوا من زورة الذيب
أزورهم وسواد الليل يشفع لي
وأنثني وبياض الصبح يغري بي

فإن البيت الأول هو استدلال. والثاني إدارة ولما جمع هذان البيتان صنفي المحاكاة كانا في غاية من الحسن (قال) والاستدلال الإنساني والإدارة إنما يستعملان في الطلب والهرب وهذا النوع من الاستدلال هو الذي يثير في النفس الرحمة تارة والخوف تارة وهذا هو الذي نحتاج إليه في صناعة مديح الأفعال الإنسانية الجميلة وهجو القبيحة (قال) فهذان الجزءان اللذان أخبرنا عنهما هما جزءا صناعة المديح وها هنا جزء ثالث وهو الجزء الذي يولد الانفعالات النفسانية أعني انفعالات الخوف والرحمة والحزن وهو يكون بذكر المصائب والرزايا النازلة بالناس فإن هذه الأشياء هي التي تبعث الرحمة والخوف وهو جزء عظيم من أجزاء الحث على الأفعال التي هي مقصودة المديح عندهم

البحث السادس

في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية

(من الكتاب نفسه)

(قَالَ) فَامَّا اجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ مِنْ بَابِ ٱلْكَيْفِيَّةِ فَقَدْ تَكَلَّمْنَا فِيهَا. وَامَّا اجْزَاؤُهَا مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَيَنْبَغِي انْ نَتَكَلَّمَ فِيهَا وَهُوَ يَذْكُرُ فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى اجْزَاءً خَاصَّةً بِاشْعَارِهِمْ وَٱلَّذِي يُوجَدُ مِنْهَا فِي اشْعَارِ ٱلْعَرَبِ فَهُوَ ثَلَاثَةٌ. ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يَجْرِي عِنْدَهُمْ مَجْرَى ٱلصَّدْرِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهُوَ ٱلَّذِي فِيهِ يَذْكُرُونَ ٱلدِّيَارَ وَٱلْآثَارَ وَيَتَغَزَّلُونَ فِيهِ وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّانِي ٱلْمَدْحُ. وَٱلْجُزْءُ ٱلثَّالِثُ ٱلَّذِي يَجْرِي مَجْرَى ٱلْخَاتِمَةِ فِي ٱلْخُطْبَةِ وَهٰذَا ٱلْجُزْءُ اكْثَرُ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ امَّا دُعَاءٌ لِلْمَمْدُوحِ وَامَّا فِي تَقْرِيضِ ٱلشِّعْرِ ٱلَّذِي قَالَهُ وَٱلْجُزْءُ ٱلْاوَّلُ اشْهَرُ مِنْ هٰذَا ٱلْآخِرِ وَلِذٰلِكَ يُسَمُّونَ ٱلِٱنْتِقَالَ مِنَ ٱلْجُزْءِ ٱلْاوَّلِ الَى ٱلثَّانِي ٱسْتِطْرَادًا وَرُبَّمَا اتَوْا بِٱلْمَدِيحِ دُونَ صَدْرٍ. مِثْلُ قَوْلِ ابِي تَمَّامٍ:

لَهَانَ عَلَيْنَا انْ نَقُولَ وَنَفْعَلَا

وَمِثْلُ قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ:

لِكُلِّ ٱمْرِىءٍ مِنْ دَهْرِهِ مَا تَعَوَّدَا

وَلَمَّا فَرَغَ مِنْ تَعْدِيدِ اجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ (قَالَ) فَامَّا اجْزَاءُ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ ٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَيْفِيَّةِ وَٱلَّتِي مِنْ جِهَةِ ٱلْكَمِّيَّةِ فَقَدْ

اخبرنا بها. فاما من اي المواضع يمكن عمل صناعة المديح فنحن مخبرون عنها بعد ومضيفون ذلك الى ما تقدم (قال) وينبغي كما قيل ان لا يكون تركيب المدائح من محاكاة بسيطة بل مخلوطة من انواع الاستدلالات وانواع الادارة ومن المحاكاة التي توجب الانفعالات المخيفة المحركة المرققة للنفوس وذلك انه يجب ان تكون المدائح التي يقصد بها الحث على الفضائل مركبة من محاكاة الفضائل ومن محاكاة اشياء مخوفة محزنة يتفجع لها وهي الشقاوة التي تلحق من عدم الفضائل لا باستيهال وذلك ان بهذه الاشياء يشتد تحرك النفس لقبول الفضائل فان انتقال الشاعر من محاكاة فضيلة الى محاكاة لا فضيلة او من محاكاة فاضل الى محاكاة لا فاضل ليس فيه شيء مما يحث الانسان ويزعجه الى فعل الفضائل اذا كان ليس يوجب محبة لها زائدة ولا خوفا. والاقاويل المديحية يجب ان يوجد فيها هذان الامران وذلك يكون اذا انتقل من محاكاة الفضائل الى محاكاة الشقاوة ورداءة البخت النازلة بالافاضل او انتقل من هذه الى محاكاة اهل الفضائل فان هذه المحاكاة ترق النفوس وتدعجها الى قبول الفضائل وانت تجد اكثر المحاكاة الواقعة في الاقاويل الشرعية على هذا النحو الذي ذكر اذ كانت تلك هي اقاويل مديحية تدل على العمل مثل ما ورد من حديث يوسف واخوته وغير ذلك من الاقاصيص التي تسمى مواعظ (قال) وانما تحدث الرحمة والرقة بذكر حدوث الشقاوة

بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَعَلَى غَيْرِ ٱلْوَاجِبِ . وَٱلْخَوْفُ إِنَّمَا يَحْدُثُ عِنْدَ ذِكْرِ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ تَخَيُّلِ وُقُوعِ ٱلضَّارِّ بِمَنْ هُوَ دُونَهُم أَعْنِي بِنَفْسِ ٱلسَّامِعِ إِذْ كَانَ أَحْرَى بِذٰلِكَ وَٱلْحُزْنُ وَٱلرَّحْمَةُ إِنَّمَا تَحْدُثُ عِنْدَ هٰذِهِ مِنْ قِبَلِ وُقُوعِهَا بِمَنْ لَا يَسْتَحِقُّ وَإِذَا كَانَ ذِكْرُ ٱلْفَضَائِلِ مُفْرَدَةً لَا يُوقِعُ فِي ٱلنَّفْسِ خَوْفًا مِنْ فَوَاتِهَا وَلَا رَحْمَةً وَمَحَبَّةً فَوَاجِبٌ عَلَى مَنْ يُرِيدُ أَنْ يَحُثَّ عَلَى ٱلْفَضَائِلِ أَنْ يَجْعَلَ جُزْءًا مِنْ مُحَاكَاتِهِ لِلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَبْعَثُ ٱلْحُزْنَ وَٱلْخَوْفَ وَٱلرَّحْمَةَ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلْحِسَانُ ٱلْمَوْجُودَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ هِيَ ٱلْمَدَائِحُ ٱلَّتِي يُوجَدُ فِيهَا هٰذَا ٱلتَّرْكِيبُ أَعْنِي ذِكْرَ ٱلْفَضَائِلِ وَٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ وَٱلْمُرَقِّقَةِ (قَالَ) وَلِذٰلِكَ يُخْطِئُ ٱلَّذِينَ يَلُومُونَ مَنْ يَجْعَلُ أَحَدَ أَجْزَاءِ شِعْرِهِ هٰذِهِ ٱلْخُرَافَاتِ وَمِنَ ٱلدَّلِيلِ عَلَى أَنَّ ذٰلِكَ نَافِعٌ فِي ٱلْمَدِيحِ أَنَّ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْجِهَادِيَّةَ قَدْ تَدْخُلُ فِيهَا ٱلْمُغْضِبَاتُ وَٱلْغَضَبُ هُوَ حُزْنٌ مَعَ حُبٍّ شَدِيدٍ لِلِانْتِقَامِ وَإِذْ كَانَ ذٰلِكَ كَذٰلِكَ فَذِكْرُ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ ٱلنَّازِلَةِ بِأَهْلِ ٱلْفَضْلِ يُوجِبُ حُبًّا زَائِدًا لَهُمْ وَخَوْفًا مِنْ فَوَاتِ ٱلْفَضَائِلِ فَأَمَّا مُحَاكَاةُ ٱلنَّقَائِصِ فِي ٱلْمَدَائِحِ فَقَدْ يُدْخِلُهَا قَوْمٌ فِيهَا لِأَنَّ فِيهَا ضَرْبًا مِنَ ٱلْإِدَارَةِ لٰكِنَّ مُنَاسَبَةَ ذَمِّ ٱلنَّقَائِصِ لِصِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ أَكْثَرُ مِنْهَا لِصِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَخْيِيلُهَا فِي ٱلْمَدَائِحِ عَلَى ٱلْقَصْدِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ مِنْ قِبَلِ ٱلْإِدَارَةِ وَإِذَا كَانَ ٱلشِّعْرُ ٱلْمَدِيحِيُّ تُذْكَرُ فِيهِ ٱلنَّقَائِصُ فَلَا بُدَّ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ذِكْرُ ٱلْأَعْدَاءِ ٱلْمُبْغِضِينَ وَٱلْمَدَائِحُ إِنَّمَا تُبْتَنَى عَلَى ذِكْرِ أَفْعَالِ ٱلْأَوْلِيَاءِ

وَٱلأصدِقاء . وَامَّا عدُوُّ ٱلعدُوِّ اوِ صَدِيقُ ٱلصَّدِيقِ فَلَيس يُذكَرُ لَا فِي ٱلمَدحِ وَلَا فِي ٱلذَّمِّ اِذ كَانَ لَا صَدِيقًا وَلَا عدُوًّا (قَال) وَيَنبَغِي اَنْ تَكُونَ ٱلخُرَافَةُ ٱلمُخِيفَةُ ٱلمُحزِنَةُ مَخرُجِهَا مَخرَجَ مَا يَقَعُ تَحتَ ٱلبَصَرِ يُرِيدُ مِنْ وُقُوعِ ٱلتَّصدِيقِ بِهَا لِاَنَّهُ اِذ كَانَتِ ٱلخُرَافَةُ مَشكُوكًا فِيهَا اَوْ اُخرِجَتْ مَخرَجَ مَشكُوكٍ فِيهَا لَمْ تَفعَلِ ٱلفِعلَ ٱلمَقصُودَ بِهَا وَذٰلِكَ اَنَّ مَا لَا يُصَدِّقُهُ ٱلمَرْءُ فَهُوَ لَا يَفزَعُ مِنْهُ وَلَا يُشفِقُ لَهُ . وَهٰذَا ٱلَّذِي ذُكِرَ هُوَ ٱلسَّبَبُ فِي اَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلَّذِينَ لَا يُصَدِّقُونَ بِٱلقَصَصِ ٱلشَّرْعِيِّ يَصِيرُونَ اَرَاذِلَ لِاَنَّ ٱلنَّاسَ اِنَّمَا يَتَحَرَّكُونَ بِٱلطَّبعِ لِاَحَدِ قَوْلَينِ اِمَّا قَوْلٍ بُرهَانِيٍّ وَاِمَّا قَوْلٍ لَيسَ بُرهَانِيًا . وَهٰذَا ٱلصِّنفُ ٱلخَسِيسُ مِنَ ٱلنَّاسِ قَدْ عَدِمَ ٱلتَّحَرُّكَ عَنْ هٰذَينِ ٱلقَوْلَينِ (قَالَ) وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يُدخِلُ فِي ٱلمَدَائِحِ مُحَاكَاةَ اَشيَاءَ يُقصَدُ بِهَا ٱلتَّعَجُّبُ فَقَطْ مِنْ غَيرِ اَنْ تَكُونَ مُخِيفَةً وَلَا مُحزِنَةً وَاَنتَ تَجِدُ مِثلَ هٰذِهِ ٱلاَشيَاءِ كُلِّهَا كَثِيرًا فِي ٱلمَكتُوبَاتِ ٱلشَّرعِيَّةِ اِذ كَانَتْ مَدَائِحُ ٱلفَضَائِلِ لَيسَ تُوجَدُ فِي اَشعَارِ ٱلعَرَبِ وَاِنَّمَا تُوجَدُ فِي زَمَانِنَا هٰذَا فِي ٱلسُّنَنِ ٱلمَكتُوبَةِ (قَالَ) وَهٰذَا ٱلفِعلُ لَيسَ فِيهِ مُشَارَكَةٌ لِصِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ بِوَجهٍ مِنَ ٱلوُجُوهِ وَذٰلِكَ اَنَّهُ لَيسَ يُقصَدُ مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعرِ اَيُّ لَذَّةٍ اتَّفَقَتْ لٰكِنْ اِنَّمَا يُقصَدُ بِهَا حُصُولُ ٱلاِلتِذَاذِ بِتَخيِيلِ ٱلفَضَائِلِ وَهِيَ ٱللَّذَّةُ ٱلمُنَاسِبَةُ لِصِنَاعَةِ ٱلمَدِيحِ (قَالَ) وَهُوَ مَعلُومٌ مَا هِيَ ٱلاَشيَاءُ ٱلَّتِي تَفعَلُ ٱللَّذَّاتِ بِمُحَاكَاتِهَا مِنْ غَيرِ اَنْ يَلحَقَ عَنْ ذٰلِكَ حُزنٌ وَلَا خَوفٌ . وَامَّا ٱلاَشيَاءُ ٱلَّتِي تَلحَقُ مَعَ ٱلاِلتِذَاذِ بِمُحَاكَاتِهَا

ٱلرَّحْمَةِ وَٱلْخَوْفِ فَإِنَّمَا يَقْدِرُ ٱلإِنْسَانُ عَلَى ذٰلِكَ إِذَا ٱلْتَمَسَ . أَيَّ
ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ ٱلصَّعْبَةُ مِنَ ٱلنَّوَائِبِ ٱلَّتِي تَنُوبُ وَأَيَّ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ
ٱلْأَشْيَاءُ ٱلْيَسِيرَةُ ٱلْهَيِّنَةُ ٱلَّتِي لَيْسَ يَلْحَقُ عَنْهَا كَبِيرُ حُزْنٍ وَلَا خَوْفٍ
وَأَمْثَالُ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ هِيَ مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَصْدِقَاءِ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ
مِنْ قِبَلِ ٱلْإِرَادَةِ مِنَ ٱلرَّزَايَا وَٱلْمَصَائِبِ لَا مَا يَنْزِلُ بِٱلْأَعْدَاءِ
بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فَإِنَّ ٱلْإِنْسَانَ لَيْسَ يَحْزَنُ وَلَا يُشْفِقُ لِمَا يَنْزِلُ
مِنَ ٱلسُّوءِ بِٱلْعَدُوِّ مِنْ عَدُوِّهِ كَمَا يَحْزَنُ وَيَخَافُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلنَّازِلِ
بِٱلصَّدِيقِ مِنْ صَدِيقِهِ وَإِنْ كَانَ قَدْ يَلْحَقُ عَنْ ذٰلِكَ أَلَمٌ فَلَيْسَ
يَلْحَقُ مِثْلَ ٱلْأَلَمِ ٱلَّذِي يَلْحَقُ مِنَ ٱلسُّوءِ ٱلَّذِي يَنْزِلُ مِنَ ٱلْمُحِبِّينَ
بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ مِثْلُ قَتْلِ ٱلْإِخْوَةِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا أَوْ قَتْلِ ٱلْآبَاءِ ٱلْأَبْنَاءَ
أَوْ ٱلْأَبْنَاءِ ٱلْآبَاءَ وَلِهٰذَا ٱلَّذِي ذَكَرَهُ كَانَ قَصَصُ إِبْرَاهِيمَ فِيمَا أُمِرَ فِي
ٱبْنِهِ فِي غَايَةِ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُوجِبَةِ لِلْحُزْنِ وَٱلْخَوْفِ (قَالَ) وَٱلْمَدْحُ إِنَّمَا
يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ بِٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ ٱلَّتِي تَصْدُرُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ
لِأَنَّ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ مَا يُفْعَلُ عَنْ إِرَادَةٍ وَعِلْمٍ وَمِنْهَا مَا يُفْعَلُ لَا عَنْ
إِرَادَةٍ وَلَا عِلْمٍ وَمِنْهَا يُفْعَلُ عَنْ عِلْمٍ لَا عَنْ إِرَادَةٍ أَوْ عَنْ إِرَادَةٍ
لَا عَنْ عِلْمٍ وَكَذٰلِكَ ٱلْأَفْعَالُ مِنْهَا مَا تَكُونُ لِمَنْ يَعْرِفُ وَلِمَنْ لَا
يَعْرِفُ فَٱلْفِعْلُ إِذَا صَدَرَ مِنْ غَيْرِ مَعْرِفَةٍ وَلَا إِرَادَةٍ فَلَيْسَ يَدْخُلُ فِي
بَابِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ إِذَا كَانَ صَادِرًا مِنْ غَيْرِ مَعْرُوفٍ لِأَنَّهُ يَكُونُ
حِينَئِذٍ فِي ٱلْأُكْذُوبَاتِ أُدْخِلَ مِنْهُ فِي ٱلشِّعْرِ وَلَا يَجِبُ أَنْ
يُحَاكَى . وَأَمَّا ٱلْأَفْعَالُ ٱلَّتِي لَا يُشَكُّ أَنَّهَا صَدَرَتْ عَنْ إِرَادَةٍ وَمَعْرِفَةٍ

وعن معروفين فما احسن الاستدلال الذي يكون في هذه الافعال (قال) فاما في حسن قوام الامور التي تركب منها الاشعار وكيف ينبغي ان يكون تركيبها فقد قلنا في ذلك قولا كافيا فاما اي العادات هي العادات التي ينبغي ان تحاكى في المدح فقد يجب ان نقول فيها فنقول ان العادات التي تحاكى عند المدح الجيد اعني الذي يحسن موقعها من السامعين اربعة احداها العادات التي هي خيرة وفاضلة في ذلك الممدوح فان الذي يؤثر في النفس هو محاكاة الاشياء الحق الموجودة في ذلك الممدوح وكل جنس ففيه خير ما وان كان فيه اشياء ليست خيرا. والثانية ان تكون العادات من التي تليق بالممدوح وتصلح له وذلك ان العادات التي تليق بالمرأة ليست تليق بالرجل. والثالثة ان تكون من العادات الموجودة فيه على اتم ما يمكن ان توجد فيه من الشبه والموافقة. والرابعة ان تكون معتدلة متوسطة بين الاطراف وانما كان ذلك كذلك لان العوائد الرذلة ليس مما يمدح بها وكذلك العوائد التي لا تليق بالممدوح وان كانت جيادا وكذلك العوائد اللائقة اذا لم توجد على اتم ما يمكن فيها من المشابهة او لم توجد مستوفاة والعوائد التي هي خير وتدل على الخلق الخير الفاضل منها ما هي كذلك في الحقيقة ومنها ما هي كذلك في المشهور ومنها ما هي شبيهة بهذين والعوائد الجياد اما حقيقية واما شبيهة بالحقيقية واما مشهورة او شبيهة بالمشهورة وكل

هٰذِهِ تَدْخُلُ فِي ٱلْمَدْحِ (قَالَ) وَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ خَوَاتِمُ ٱلْاَشْعَارِ وَٱلْقَصَائِدِ تَدُلُّ بِاِجْمَالٍ عَلَى مَا تَقَدَّمَ ذِكْرُهُ مِنَ ٱلْعَوَائِدِ ٱلَّتِي وَقَعَ ٱلْمَدْحُ بِهَا كَٱلْحَالِ فِي خَوَاتِمِ ٱلْخُطَبِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ لَا يُورِدُ فِي شِعْرِهِ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلْخَارِجَةِ عَنِ ٱلْقَوْلِ اِلَّا بِقَدْرِ مَا يَحْتَمِلُهُ ٱلْمُخَاطَبُونَ مِنْ ذٰلِكَ حَتَّى لَا يُنْسَبَ فِي ذٰلِكَ اِلَى ٱلْغُلُوِّ وَٱلْخُرُوجِ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ وَلَا اِلَى ٱلتَّقْصِيرِ (قَالَ) وَٱلتَّشْبِيهُ وَٱلْمُحَاكَاةُ هِيَ مَدَائِحُ ٱلْاَشْيَاءِ ٱلَّتِي فِي غَايَةِ ٱلْفَضِيلَةِ فَكَمَا اَنَّ ٱلْمُصَوِّرَ ٱلْحَاذِقَ يُصَوِّرُ ٱلشَّيْءَ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ فِي ٱلْوُجُودِ حَتَّى اَنَّهُمْ قَدْ يُصَوِّرُونَ ٱلْغِضَابَ وَٱلْكَسَالَى مَعَ اَنَّهَا صِفَاتٌ نَفْسَانِيَّةٌ كَذٰلِكَ يَجِبُ اَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ فِي مُحَاكَاتِهِ يُصَوِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِحَسَبِ مَا هُوَ عَلَيْهِ حَتَّى يُحَاكِيَ ٱلْاَخْلَاقَ وَاَحْوَالَ ٱلنَّفْسِ وَذَكَرَ مِثَالَ ذٰلِكَ فِي شِعْرٍ لِاُومِيرُوشَ قَالَهُ فِي صِفَةِ قَضِيَّةٍ عَرَضَتْ لِرَجُلٍ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّحْوِ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ اَعْنِي ٱلَّذِي يُحَاكِي حَالَ ٱلنَّفْسِ قَوْلُ اَبِي ٱلطَّيِّبِ يَصِفُ رَسُولَ ٱلرُّومِ ٱلْوَاصِلَ اِلَى سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

اَتَاكَ يَكَادُ ٱلرَّاْسُ يَجْحَدُ عُنْقَهُ ... وَتَنْقَدُّ تَحْتَ ٱلذُّعْرِ مِنْهُ ٱلْمَفَاصِلُ
يُقَوِّمُ تَقْوِيمُ ٱلسِّمَاطَيْنِ مَشْيَهُ ... اِلَيْكَ اِذَا مَا عَوَّجَتْهُ ٱلْاَفَاكِلُ

(قَالَ) وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَلْزَمَ فِي تَخْيِيلَاتِهِ وَمُحَاكَيَاتِهِ ٱلْاَشْيَاءَ ٱلَّتِي جَرَتِ ٱلْعَادَةُ بِاسْتِعْمَالِهَا فِي ٱلتَّشْبِيهِ وَاَلَّا يَتَعَدَّى فِي ذٰلِكَ طَرِيقَةَ ٱلشِّعْرِ (قَالَ) وَاَنْوَاعُ ٱلْاِسْتِدْلَالَاتِ ٱلَّتِي تَجْرِي عَلَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى اَعْنِي ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلْجَارِيَةَ مَجْرَى ٱلْجُودَةِ عَلَى ٱلطَّرِيقِ ٱلصِّنَاعِيِّ

أنواعٌ كثيرةٌ فمنها أن تكونَ المحاكاةُ لأشياءَ محسوسةٍ بأشياءَ محسوسةٍ من شأنها أن توقعَ الشكَّ لمن ينظرُ اليها وتوهمُ أنها هي لاشتراكها في أحوالٍ محسوسةٍ وذلك مثلُ تسميتهم لبعضِ صورِ الكواكبِ سرطاناً ولبعضها ممسكَ الحربةِ لأنها من جهةِ الشكلِ يمكنُ أن يتوهَّمَ متوهِّمٌ أنها هي . وجلُّ تشبيهاتِ العربِ راجعةٌ الى هذا الموضعِ ولذلك كانت حروفُ التشبيهِ عندهم تقتضي الشكَّ وكلَّما كانت هذهِ المتوهَّماتُ أقربَ الى وقوعِ الشكِّ كانت أتمَّ تشبيهاً وكلَّما كانت أبعدَ من وقوعِ الشكِّ كانت أنقصَ تشبيهاً وهذهِ هي المحاكاةُ البعيدةُ وينبغي أن تُطرَحَ وذلك مثلُ قولِ امرىءِ القيسِ في الفرسِ :

كأنَّها هِراوةُ مِنوالِ

ومثلُ قولهِ :

إذا أقبلَتْ قُلتُ دُبَّاءةٌ ... مِنَ الخُضرِ مَغموسةٌ في الغُدُرْ
وإنْ أدبرَتْ قُلتُ أُثفيَّةٌ ... مُلَملَمةٌ ليسَ فيها أثُرْ

وإنْ كانَ هذا أقربَ من الأوّلِ لأنَّ فيه مُقابلةً ما . ومنها أن تكونَ المحاكاةُ لأمورٍ معنويّةٍ بأمورٍ محسوسةٍ إذ كانَ لتلكَ الأمورِ أفعالٌ مناسبةٌ لتلكَ المعاني حتّى توهِمَ أنّها هي مثلُ قولهم في المِنّةِ إنّها طوقُ العُنُقِ وفي الإحسانِ قيدٌ كما قالَ أبو الطيِّبِ :

ومَنْ وجدَ الإحسانَ قيداً تقيَّدا

وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْهُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

قَيْدِ ٱلْأَوَابِدِ هَيْكَلِ

وَمَا كَانَ مِنْ هٰذِهِ أَيْضًا غَيْرَ مُنَاسِبٍ وَلَا شَبِيهٍ فَيَنْبَغِي أَنْ يُطْرَحَ وَهٰذَا كَثِيرًا مَا يُوجَدُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَبِخَاصَّةٍ فِي شِعْرِ أَبِي تَمَّامٍ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَا تَسْقِنِي مَاءَ ٱلْمَلَامِ

فَإِنَّ ٱلْمَاءَ غَيْرُ مُنَاسِبٍ لِلْمَلَامِ. وَأَسْخَفُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

كُثُبَ ٱلْمَوْتِ رَائِبًا وَحَلِيبًا

وَكَمَا أَنَّ ٱلْبَعِيدَ ٱلْوُجُودِ هَا هُنَا مُطَّرَحٌ كَذٰلِكَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْخَسِيسِ ٱلْوُجُودِ مُطَّرَحًا أَيْضًا وَأَنْ يَكُونَ ٱلتَّشْبِيهُ بِٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاضِلَةِ. فَمِثَالُ تَشْبِيهِ ٱلشَّرِيفِ بِٱلْخَسِيسِ قَوْلُ ٱلرَّاجِزِ:

وَٱلشَّمْسُ مَائِلَةٌ وَلَمَّا تَفْعَلِ ... فَكَأَنَّهَا فِي ٱلْأُفْقِ عَيْنُ ٱلْأَحْوَلِ

وَكَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ يَمْدَحُ سَيْفَ ٱلدَّوْلَةِ:

وَقَدْ عَلِمَ ٱلرُّومُ ٱلشَّقِيُّونَ أَنَّهُمْ ... سَتَلْقَاهُمُ يَوْمًا وَتَلْقَى ٱلدُّمُسْتُقَا

وَكَانُوا كَفَارٍ وَشْوَشُوا خَلْفَ حَائِطٍ ... وَكُنْتَ كَسِنَّوْرٍ عَلَيْهِمْ تَسَلَّقَا

قَالَ وَهُنَا نَوْعٌ آخَرُ مِنَ ٱلشِّعْرِ وَهِيَ ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ فِي بَابِ ٱلتَّصْدِيقِ وَٱلْإِقْنَاعِ أَدْخَلَ مِنْهَا فِي بَابِ ٱلتَّخْيِيلِ وَهِيَ أَقْرَبُ إِلَى ٱلْمِثَالَاتِ ٱلْخُطَبِيَّةِ مِنْهَا إِلَى ٱلْمُحَاكَاةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَهٰذَا ٱلْجِنْسُ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ هُوَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ مِثْلُ قَوْلِهِ:

لَيْسَ ٱلتَّكَحُّلُ فِي ٱلْعَيْنَيْنِ كَٱلْكَحَلِ

وَقَوْلِهِ :

فِي طَلْعَةِ ٱلشَّمْسِ مَا يُغْنِيكَ عَنْ زُحَلِ

وَمِنْ أَحْسَنِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى قَوْلُ أَبِي فِرَاسٍ :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لَا تَوَسُّطَ عِنْدَنَا لَنَا ٱلصَّدْرُ دُونَ ٱلْعَالَمِينَ أَوِ ٱلْقَبْرُ
تَهُونُ عَلَيْنَا فِي ٱلْمَعَالِي نُفُوسُنَا وَمَنْ خَطَبَ ٱلْحَسْنَاءَ لَمْ يُغْلِهِ ٱلْمَهْرُ

(قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلثَّالِثُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ هِيَ ٱلْمُحَاكَاةُ ٱلَّتِي تَقَعُ بِٱلتَّذَكُّرِ وَذٰلِكَ أَنْ يُورِدَ ٱلشَّاعِرُ شَيْئًا يُتَذَكَّرُ بِهِ شَيْءٌ آخَرُ مِثْلَ أَنْ يَرَى ٱلْإِنْسَانُ خَطَّ إِنْسَانٍ فَيَتَذَكَّرُهُ فَيَحْزَنُ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مَيْتًا أَوْ يَتَشَوَّقُ إِلَيْهِ إِنْ كَانَ حَيًّا وَهٰذَا مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ كَثِيرًا مِثْلُ قَوْلِ مُتَمِّمِ بْنِ نُوَيْرَةَ :

وَقَالُوا أَتَبْكِي كُلَّ قَبْرٍ رَأَيْتَهُ لِقَبْرٍ ثَوَى بَيْنَ ٱللِّوَى وَٱلدَّكَادِكِ
فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ ٱلْأَسَى يَبْعَثُ ٱلْأَسَى دَعُونِي فَهٰذَا كُلُّهُ قَبْرُ مَالِكِ

وَمِنْهُ قَوْلُ قَيْسٍ ٱلْمَجْنُونِ :

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِٱلْخَيْفِ مِنْ مِنًى
فَهَيَّجَ أَحْزَانَ ٱلْفُؤَادِ وَمَا يَدْرِي
دَعَا بِٱسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا
أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ فِي صَدْرِي

وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ ٱلْخَنْسَاءِ :

يُذَكِّرُنِي طُلُوعُ ٱلشَّمْسِ صَخْرًا وَأَذْكُرُهُ لِكُلِّ غُرُوبِ شَمْسِ

وَقَوْلُ ٱلْهُذَلِيِّ :

أَبَى ٱلصَّبْرُ إِنِّي لَا يَزَالُ يَهِيجُنِي   مَبِيتٌ لَنَا فِيمَا مَضَى وَمَقِيلُ
إِذَا ٱبْيَاضَ ٱلصُّبْحِ آنَسْتُ ضَوْءَهُ   يُعَاوِدُنِي رَجْعٌ عَلَيَّ ثَقِيلُ

وَهٰذَا ٱلنَّوْعُ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَمِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ تَذَكُّرُهَا ٱلْأَحِبَّةَ بِٱلدِّيَارِ وَٱلْأَطْلَالِ كَمَا قَالَ:

قِفَا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ

وَيَقْرُبُ مِنْ هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ مَا جَرَتْ بِهِ عَادَةُ ٱلْعَرَبِ مِنْ تَذَكُّرِ ٱلْأَحِبَّةِ بِٱلْخَيَالِ وَإِقَامَتِهِ مُقَامَ ٱلْمُتَخَيَّلِ كَمَا قَالَ شَاعِرُهُمْ:

وَإِنِّي لَأَسْتَغْشِي وَمَا بِيَ نَعْسَةٌ   لَعَلَّ خَيَالًا مِنْكِ يَلْقَى خَيَالِيَا
وَأَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ ٱلْبُيُوتِ لَعَلَّنِي   أُحَدِّثُ عَنْكِ ٱلنَّفْسَ فِي ٱلسِّرِّ خَالِيَا

وَتَصَرُّفُ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ فِي ٱلْخَيَالِ مُتَفَنِّنٌ وَأَنْحَاءُ ٱسْتِعْمَالِهِمْ لَهُ كَثِيرَةٌ وَلِذٰلِكَ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَوَاضِعِ ٱلشِّعْرِيَّةِ ٱلْخَاصَّةِ بِٱلنَّسِيبِ وَقَدْ يَدْخُلُ فِي ٱلرِّثَاءِ كَمَا قَالَ ٱلْبُحْتُرِيُّ:

خَلَا نَاظِرِي مِنْ طَيْفِهِ بَعْدَ شَخْصِهِ   فَيَا عَجَبًا لِلدَّهْرِ فَقْدٌ عَلَى فَقْدِ

(قَالَ) وَأَمَّا ٱلنَّوْعُ ٱلرَّابِعُ مِنَ ٱلْمُحَاكَاةِ فَهُوَ أَنْ يُذْكَرَ أَنَّ شَخْصًا مَا شَبِيهٌ بِشَخْصٍ مِنْ ذٰلِكَ ٱلنَّوْعِ بِعَيْنِهِ وَهٰذَا ٱلتَّشْبِيهُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي ٱلْخَلْقِ أَوِ ٱلْخُلُقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْقَائِلِ جَاءَ شَبِيهُ يُوسُفَ وَلَمْ يَأْتِ إِلَّا فُلَانٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

وَتَعْرِفُ فِيهِ مِنْ أَبِيهِ شَمَائِلَا

وَٱلتَّصْرِيحُ بِٱلتَّشْبِيهِ خِلَافُ ٱلتَّشْبِيهِ فَإِنَّ ٱلتَّشْبِيهَ هُوَ إِيقَاعُ شَكٍّ وَٱلتَّصْرِيحَ بِٱلشَّبِيهِ بَيْنَ ٱثْنَيْنِ هُوَ تَحْقِيقٌ لِوُجُودِ ٱلشَّبَهِ وَهُوَ ٱلْغَايَةُ فِي

مُطَابقَةِ ٱلتَّخْيِيلِ أَعْنِي إِذْ قِيلَ شَبِيهُ فُلَانٍ (قَالَ) وَٱلنَّوْعُ ٱلْخَامِسُ هُوَ ٱلَّذِي يَسْتَعْمِلُهُ ٱلسُّوفُسْطَائِيُّونَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَهُوَ ٱلْغُلُوُّ ٱلْكَاذِبُ وَهٰذَا كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْمُحْدَثِينَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ:

تَقُدُّ ٱلسَّلُوقِيَّ ٱلْمُضَاعَفَ نَسْجُهُ ‏ وَتُوقِدُ بِٱلصُّفَّاحِ نَارَ ٱلْحُبَاحِبِ

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَلَوْلَا ٱلرِّيحُ أُسْمِعَ مَنْ بِحُجْرٍ ‏ صَلِيلَ ٱلْبِيضِ تُقْرَعُ بِٱلذُّكُورِ

وَهٰذَا كُلُّهُ كَذِبٌ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

عَدُوُّكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسَانِ ‏ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْدَائِكَ ٱلْقَمَرَانِ

وَقَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

لَوِ ٱلْفَلَكُ ٱلدَّوَّارُ أَبْغَضْتَ سَيْرَهُ ‏ لَعَوَّقَهُ شَيْءٌ عَنِ ٱلدَّوَرَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

مِنَ ٱلْقَاصِرَاتِ ٱلطَّرْفِ لَوْ دَبَّ مُحْوِلٌ

مِنَ ٱلذَّرِّ فَوْقَ ٱلْإِتْبِ مِنْهَا لَأَثَّرَا

وَهٰذَا كَثِيرٌ مَوْجُودٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَلَيْسَ تَجِدُ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ مِنْهُ شَيْئًا إِذْ كَانَ يَتَنَزَّلُ مِنْ هٰذَا ٱلْجِنْسِ مِنَ ٱلْقَوْلِ أَعْنِي ٱلشِّعْرَ مَنْزِلَةَ ٱلْكَلَامِ ٱلسُّوفُسْطَائِيِّ مِنَ ٱلْبُرْهَانِ وَلٰكِنْ قَدْ يُوجَدُ لِلْمَطْبُوعِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مِنْهُ شَيْءٌ مَحْمُودٌ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

وَأَنَّى ٱهْتَدَى هٰذَا ٱلرَّسُولُ بِأَرْضِهِ

وَمَا سَكَنَتْ مُذْ سِرْتَ فِيهَا ٱلْقَسَاطِلُ

وَمِنْ اَيِّ مَاءٍ كَانَ يَسْقِي جِيَادَهُ
وَلَمْ تَصْفُ مِنْ مَزْجِ ٱلدِّمَاءِ ٱلْمَنَاهِلُ

وَقَوْلِهِ :

لَبِسْنَ ٱلْوَشْيَ لَا مُتَجَمِّلَاتٍ وَلٰكِنْ كَيْ يَصُنَّ بِهِ ٱلْجَمَالَا
وَضَفَّرْنَ ٱلْغَدَائِرَ لَا لِحُسْنٍ وَلٰكِنْ خِفْنَ فِي ٱلشَّعَرِ ٱلضَّلَالَا

وَهَا هُنَا مَوْضِعٌ سَادِسٌ مَشْهُورٌ يَسْتَعْمِلُهُ ٱلْعَرَبُ وَهُوَ اِقَامَةُ ٱلْجَمَادَاتِ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِينَ فِي مُخَاطَبَتِهِمْ وَمُرَاجَعَتِهِمْ اِذَا كَانَتْ فِيهَا اَحْوَالٌ تَدُلُّ عَلَى ٱلنُّطْقِ مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ :

وَاَجْهَشْتُ لِلتَّوْبَاذِ لَمَّا رَاَيْتُهُ وَكَبَّرَ لِلرَّحْمٰنِ حِينَ رَآنِي
فَقُلْتُ لَهُ اَيْنَ ٱلَّذِينَ عَهِدْتُهُمْ حَوَالَيْكَ فِي اَمْنٍ وَخَفْضِ زَمَانِ
فَقَالَ مَضَوْا وَٱسْتَوْدَعُونِي بِلَادَهُمْ وَمَنْ ذَا ٱلَّذِي يَبْقَى عَلَى ٱلْحَدَثَانِ

وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ مُخَاطَبَتُهُمُ ٱلدِّيَارَ وَٱلْاَطْلَالَ وَمُجَاوَبَتُهَا لَهُمْ كَقَوْلِ ذِي ٱلرُّمَّةِ :

وَاَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا اُبِثُّهُ تُكَلِّمُنِي اَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهْ

وَقَوْلِ عَنْتَرَةَ :

اَعْيَاكَ رَسْمُ ٱلدَّارِ لَمْ يَتَكَلَّمِ حَتَّى تَكَلَّمَ كَٱلْاَصَمِّ ٱلْاَعْجَمِ
يَا دَارَ عَبْلَةَ بِٱلْجِوَاءِ تَكَلَّمِي وَعِمِي صَبَاحًا دَارَ عَبْلَةَ وَٱسْلَمِي

اِلَى غَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يُشْبِهُ هٰذَا مِمَّا هُوَ كَثِيرٌ فِي اَشْعَارِهِمْ وَقَدْ ذَكَرَ هُوَ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ وَذَكَرَ اَنَّ اُومِيرُوسَ كَانَ يَعْتَمِدُهُ كَثِيرًا (قَالَ) وَٱلْاِسْتِدْلَالُ ٱلْفَاضِلُ وَٱلْاِدَارَةُ اِنَّمَا تَكُونُ لِلْاَفْعَالِ

ٱلْإِرَادِيَّةِ وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّوْعُ مِنَ ٱلِاسْتِدْلَالِ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْعَزِيزِ أَعْنِي فِي مَدْحِ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْفَاضِلَةِ وَذَمِّ ٱلْأَفْعَالِ ٱلْغَيْرِ فَاضِلَةٍ وَهُوَ قَلِيلٌ فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ. وَمِثَالُ ٱلْإِدَارَةِ فِي ٱلْمَدْحِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ: ضَرَبَ ٱللّٰهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً إِلَى قَوْلِهِ: مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ. وَمِثَالُ ٱلِاسْتِدْلَالِ. قَوْلُهُ: كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ٱلْآيَةَ.

(قَالَ) وَإِجَادَةُ ٱلْقَصَصِ ٱلشِّعْرِيِّ وَٱلْبُلُوغُ بِهِ إِلَى غَايَةِ ٱلتَّمَامِ إِنَّمَا يَكُونُ مَتَى بَلَغَ ٱلشَّاعِرُ مِنْ وَصْفِ ٱلشَّيْءِ أَوِ ٱلْقَضِيَّةِ ٱلْوَاقِعَةِ ٱلَّتِي يَصِفُهَا مَبْلَغًا يُرِي ٱلسَّامِعِينَ لَهُ كَأَنَّهُ مَحْسُوسٌ وَمَنْظُورٌ إِلَيْهِ وَيَكُونُ مَعَ هٰذَا ضِدُّهُ غَيْرَ ذَاهِبٍ عَلَيْهِمْ مِنْ ذٰلِكَ ٱلْوَصْفِ وَهٰذَا يُوجَدُ كَثِيرًا فِي شِعْرِ ٱلْفُحُولِ وَٱلْمُفْلِقِينَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لٰكِنْ إِنَّمَا يُوجَدُ هٰذَا ٱلنَّحْوُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ لِلْعَرَبِ إِمَّا فِي أَفْعَالٍ غَيْرِ عَفِيفَةٍ وَإِمَّا فِيمَا ٱلْقَصْدُ مِنْهُ مُطَابَقَةُ ٱلتَّخْيِيلِ فَقَطْ. فَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ فِي ٱلْفُجُورِ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ:

سَمَوْتُ إِلَيْهَا بَعْدَ مَا نَامَ أَهْلُهَا ... سُمُوَّ حَبَابِ ٱلْمَاءِ حَالًا عَلَى حَالِ

فَقَالَتْ سَبَاكَ ٱللّٰهُ إِنَّكَ فَاضِحِي ... أَلَسْتَ تَرَى ٱلسُّمَّارَ وَٱلنَّاسَ أَحْوَالِي

فَقُلْتُ يَمِينُ ٱللّٰهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا ... وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكِ وَأَوْصَالِي

وَمِثَالُ مَا وَرَدَ مِنْ ذٰلِكَ مِمَّا ٱلْقَصْدُ بِهِ مُطَابَقَةُ ٱلتَّشْبِيهِ فَقَطْ قَوْلُ ذِي ٱلرُّمَّةِ يَصِفُ ٱلنَّارَ:

وَسِقْطٍ كَعَيْنِ ٱلدِّيكِ عَاوَرْتُ صُحْبَتِي

أَبَاهَا وَهَيَّأْنَا لِمَوْقِعِهَا وَكْرَا

فَقُلْتُ لَهَا ٱرْفَعْهَا إِلَيْكَ وَأَحْيِهَا
بِرُوحِكَ وَٱقْتَتْهُ لَهَا قِتَّةً قَدْرَا
وَظَاهِرْ لَهَا مِنْ يَابِسِ ٱلشَّخْتِ وَٱسْتَعِنْ
عَلَيْهَا ٱلصَّبَا وَٱجْعَلْ يَدَيْكَ لَهَا سِتْرَا

وَقَدْ يُوجَدُ فِي أَشْعَارِهِمْ فِي وَصْفِ ٱلْأَحْوَالِ ٱلْوَاقِعَةِ مِثْلِ ٱلْحُرُوبِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا يَتَمَدَّحُونَ بِهِ وَٱلْمُتَنَبِّي أَفْضَلُ مَنْ يُوجَدُ لَهُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ مِنَ ٱلتَّخْيِيلِ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي أَشْعَارِهِ وَلِذٰلِكَ يُحْكَى عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ لَا يُرِيدُ أَنْ يَصِفَ ٱلْوَقَائِعَ ٱلَّتِي لَمْ يَشْهَدْهَا مَعَ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ وَإِجَادَةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ يَتَأَتَّى بِأَنْ يُحَصِّلَ ٱلْإِنْسَانُ أَوَّلًا جَمِيعَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي فِي ٱلشَّيْءِ ٱلَّذِي يَقْصِدُ وَصْفَهُ ثُمَّ يُرَكِّبَ عَلَى تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلْأَجْزَاءَ ٱلثَّلَاثَةَ مِنْ أَجْزَاءِ ٱلشِّعْرِ أَعْنِي ٱلتَّخْيِيلَ وَٱلْوَزْنَ وَٱللَّحْنَ (قَالَ) وَتَعْدِيدُ مَوَاضِعِ ٱلِٱسْتِدْلَالَاتِ مِمَّا يَطُولُ وَإِنَّمَا أَشَارَ بِذٰلِكَ إِلَى كَثْرَتِهَا وَٱخْتِلَافِ ٱلْأُمَمِ فِيهَا (قَالَ) وَكُلُّ مَدِيحٍ فَمِنْهُ مَا فِيهِ رِبَاطٌ بَيْنَ أَجْزَائِهِ وَمِنْهُ مَا فِيهِ حَلٌّ وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ أَقْرَبَ ٱلْأَشْيَاءِ شَبَهًا بِٱلرِّبَاطِ ٱلْمَوْجُودِ فِي أَشْعَارِهِمْ هُوَ ٱلْجُزْءُ ٱلَّذِي يُسَمَّى عِنْدَنَا ٱلِٱسْتِطْرَادَ وَهُوَ رَبْطُ جُزْءِ ٱلنَّسِيبِ وَبِٱلْجُمْلَةِ صَدْرِ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلْجُزْءِ ٱلْمَدِيحِيِّ . وَٱلْحَلُّ تَفْصِيلُ ٱلْجُزْئَيْنِ أَحَدِهِمَا مِنَ ٱلْآخَرِ أَيْ يُؤْتَى بِهِمَا مُفَصَّلًا . وَأَكْثَرُ مَا يُوجَدُ ٱلرِّبَاطُ فِي أَشْعَارِ ٱلْمُحْدَثِينَ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ:

عَامِي وَعَامُ ٱلْعِيسِ بَيْنَ وَدِيقَةٍ   مَسْجُورَةٍ وَتَنُوفَةٍ صَيْخُودِ

حَتَّى أُغَادِرَ كُلَّ يَوْمٍ بِالْفَلَا ... لِلطَّيْرِ عِيدًا مِنْ بَنَاتِ الْعِيدِ
هَيْهَاتَ مِنْهَا رَوْضَةٌ مَحْمُودَةٌ ... حَتَّى تُنَاخَ بِأَحْمَدَ الْمَحْمُودِ

وَكَقَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ:

مَرَّتْ بِنَا بَيْنَ تِرْبَيْهَا فَقُلْتُ لَهَا
مِنْ أَيْنَ جَالَسَ هٰذَا الشَّادِنُ الْعَرَبَا
فَاسْتَضْحَكَتْ ثُمَّ قَالَتْ كَالْمُغِيثِ يُرَى
لَيْثَ الشَّرَى وَهُوَ مِنْ عِجْلٍ إِذَا انْتَسَبَا

وَأَمَّا الْحَالُ فَهُوَ مَوْجُودٌ كَثِيرًا فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ مِثْلُ قَوْلِ زُهَيْرٍ:

دَعْ ذَا وَعَدِّ الْقَوْلَ فِي هَرِمٍ

(قَالَ) وَأَنْوَاعُ الْمَدَائِحِ أَرْبَعَةٌ ثَلَاثَةٌ مِنْهَا بَسِيطَةٌ وَهِيَ الَّتِي تَقَدَّمَتْ أَحَدُهَا الْإِدَارَةُ. وَالثَّانِي الْاِسْتِدْلَالُ. وَالثَّالِثُ الْاِنْفِعَالُ (قَالَ) مِثْلُ مَا يُقَالُ فِي أَهْلِ الْجَحِيمِ فَإِنَّ هٰذِهِ مُحْزِنَةٌ مُفْزِعَةٌ. وَالرَّابِعُ الْمُرَكَّبُ مِنْ هٰذِهِ إِمَّا مِنْ ثَلَاثَتِهَا وَإِمَّا مِنِ اثْنَيْنِ مِنْهَا وَيَنْبَغِي أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ أَمْثَالَ أَنْوَاعِ هٰذِهِ الْمَدَائِحِ الْأَرْبَعَةِ لِلْفِعْلِ الْإِرَادِيِّ الْفَاضِلِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ فِي أَشْعَارِ الْعَرَبِ وَإِنَّمَا هِيَ مَوْجُودَةٌ فِي الْكِتَابِ الْعَزِيزِ كَثِيرًا (قَالَ) وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يُجِيدُ الْقَوْلَ فِي الْقَصَائِدِ الْمُطَوَّلَةِ وَمِنْهُمْ مَنْ يُجِيدُ الْأَشْعَارَ الْقِصَارَ وَالْقَصَائِدَ الْقَصِيرَةَ وَهِيَ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا الْمُقَطَّعَاتِ وَالسَّبَبُ فِي ذٰلِكَ أَنَّهُ لَمَّا كَانَ الشَّاعِرُ الْمُجِيدُ هُوَ الَّذِي يَصِفُ كُلَّ شَيْءٍ بِخَوَاصِّهِ وَعَلَى كُنْهِهِ وَكَانَتْ هٰذِهِ الْأَشْيَاءُ تَخْتَلِفُ بِالْكَثْرَةِ وَالْقِلَّةِ فِي شَيْءٍ شَيْءٍ مِنْ

ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمَوْصُوفَةِ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ ٱلتَّخْيِيلُ ٱلْفَاضِلُ هُوَ ٱلَّذِي لَا يَتَجَاوَزُ خَوَاصَّ ٱلشَّيْءِ وَلَا حَقِيقَتَهَا فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ لَقَدِ ٱعْتَادَ أَوْ مَنْ فِطْرَتُهُ مُعَدَّةٌ نَحْوَ تَخْيِيلِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْقَلِيلَةِ ٱلْخَوَاصِّ فَهَؤُلَاءِ تَجُودُ أَشْعَارُهُمْ فِي ٱلْمُقَطَّعَاتِ وَلَا تَجُودُ فِي ٱلْقَصَائِدِ وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ هُوَ عَلَى ضِدِّ هَؤُلَاءِ وَهُمُ ٱلْمُقَصِّدُونَ كَٱلْمُتَنَبِّي وَحَبِيبٍ وَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَادُوا ٱلْقَوْلَ فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْكَثِيرَةِ ٱلْخَوَاصِّ أَوْ هُمْ بِفِطَرِهِمْ مُعَدُّونَ لِمُحَاكَاتِهَا أَوِ ٱجْتَمَعَ لَهُمُ ٱلْأَمْرَانِ جَمِيعًا (قَالَ) وَمِنَ ٱلتَّخْيِيلَاتِ وَٱلْمَعَانِي مَا يُنَاسِبُ ٱلْأَوْزَانَ ٱلطَّوِيلَةَ وَمِنْهَا مَا يُنَاسِبُ ٱلْقَصِيرَةَ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْوَزْنُ مُنَاسِبًا لِلْمَعْنَى غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِلتَّخْيِيلِ وَرُبَّمَا كَانَ ٱلْأَمْرُ بِٱلْعَكْسِ وَرُبَّمَا كَانَ غَيْرَ مُنَاسِبٍ لِكِلَيْهِمَا وَأَمْثِلَةُ هٰذِهِ مِمَّا يَعْسُرُ وُجُودُهَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ أَوْ تَكُونُ غَيْرَ مَوْجُودَةٍ فِيهَا إِذْ أَعَارِيضُهُمْ قَلِيلَةُ ٱلْقَدْرِ (قَالَ) وَقَدْ يُضَافُ إِلَى ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي بِهَا قِوَامُ ٱلْأَشْعَارِ أُمُورٌ مِنْ خَارِجٍ وَهِيَ ٱلْهَيْئَاتُ ٱلَّتِي تَكُونُ فِي صَوْتِ ٱلشَّاعِرِ وَصُورَتِهِ عَلَى مَا تَقَدَّمَ وَأَكْثَرُ مَا تُوجَدُ هٰذِهِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ ٱلْمُسْتَعْمِلِينَ لَهَا فِي ٱلْأَشْعَارِ ٱلْإِنْفِعَالِيَّةِ مِثْلُ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي أَهْلِ ٱلْجَحِيمِ وَغَيْرِهِمْ وَلَمَّا كُنَّا قَدْ قُلْنَا فِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تَتَقَوَّمُ بِهَا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاؤُهَا بِٱلْحَقِيقَةِ فَقَدْ يَنْبَغِي أَنْ نَقُولَ فِي هٰذِهِ أَيْضًا فَنَقُولُ: إِنَّ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالَ بِٱلْجُمْلَةِ هِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَيْهَا ٱلْأَقْوَالُ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلْإِنْفِعَالِيَّةَ وَلِذٰلِكَ يَنْبَغِي إِذَا ٱسْتُعْمِلَتْ هٰذِهِ أَنْ تُسْتَعْمَلَ مَعَ هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلِ. وَذٰلِكَ أَنَّ هٰذِهِ تُرِي ٱلْإِنْفِعَالَ ٱلَّذِي يُقْصَدُ بِٱلْقَوْلِ تَثْبِيتُهُ كَأَنَّهُ قَدْ وَقَعَ

وَٱسْتَيْقَن. وَقَدْ تَقَدَّمَ لَكَ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلِانْفِعَالِيَّةُ ٱلْخُطْبِيَّةُ وَضُرُوبُ ٱلِانْفِعَالَاتِ ٱلَّتِي تَفْعَلُهَا هٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ وَلِذٰلِكَ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَفْعَالُ اخَصَّ بِكِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ مِنْهَا بِكِتَابِ ٱلشِّعْرِ. وَٱلِانْفِعَالَاتُ ٱلَّتِي تُثْبَتُ بِٱلْقَوْلِ ٱلْخُطْبِيِّ اوِ ٱلشِّعْرِيِّ هِيَ ٱلْخَوْفُ وَٱلْغَضَبُ وَٱلرَّحْمَةُ وَٱلتَّعْظِيمُ وَسَائِرُ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي عُدِّدَتْ فِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ. وَهُوَ ظَاهِرٌ انَّهُ كَمَا انَّ هَا هُنَا اقْوَالًا تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِانْفِعَالَاتِ كَذٰلِكَ هَا هُنَا هَيْئَاتٌ وَاشْكَالٌ تَدُلُّ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّمِ عَلَى حُضُورِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي تُوجِبُ هٰذِهِ ٱلِانْفِعَالَاتِ وَانَّهَا قَدْ وَقَعَتْ لِوُقُوعِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْفَاعِلَةِ لَهَا فَيَنْفَعِلُ لِذٰلِكَ ٱلنَّاظِرُ لَهَا فَهٰذِهِ ٱلصُّوَرُ وَٱلْهَيْئَاتُ إِنَّمَا يَنْبَغِي انْ تُسْتَعْمَلَ فِي ٱلشِّعْرِ انِ ٱسْتُعْمِلَتْ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ ٱلشِّعْرِيَّةِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي ٱلتَّعْظِيمِ وَإِمَّا فِي ٱلتَّصْغِيرِ وَإِمَّا فِي ٱلْأَشْيَا ٱلْمُحْزِنَةِ ٱلْمُخَوِّفَةِ اذْ كَانَتْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ هِيَ ٱلَّتِي تَسْتَعْمِلُ صِنَاعَةَ ٱلْمَدِيحِ مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ عَلَى مَا سَلَفَ. وَانَّمَا تُسْتَعْمَلُ هٰذِهِ مَعَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلِانْفِعَالِيَّةِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ صَادِقَةً اعْنِي ٱلَّتِي لَيْسَتْ هِيَ ظَاهِرَةَ ٱلتَّخْيِيلِ. وَامَّا ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلِانْفِعَالِيَّةُ ٱلَّتِي هِيَ ظَاهِرَةُ ٱلتَّخْيِيلِ وَمُنَاسِبَةٌ لِلْغَرَضِ ٱلْمَقُولِ فِيهِ وَهِيَ حَقٌّ فَلَيْسَ يُحْتَاجُ انْ تُسْتَعْمَلَ فِيهَا هٰذِهِ ٱلْأُمُورُ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّهَا تُهَجِّنُهَا اذْ كَانَتْ هٰذِهِ إِنَّمَا تُسْتَعْمَلُ فِي ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلَّتِي تَضْعُفُ انْ تَفْعَلَ مَا قُصِدَ بِهَا إِلَّا بِٱقْتِرَانِ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ بِهَا وَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلشِّعْرِيَّةُ فَإِنَّ ٱلْقَائِلَ مِنَ ٱلْفُقَهَاءِ لِعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ ٱلنَّاصِرِ بِحَضْرِ ٱلْمَلَإِ مِنْ اهْلِ قُرْطُبَةَ يُحَرِّضُهُ عَلَى حَسْدَايِ ٱلْيَهُودِيِّ:

إِنَّ ٱلَّذِي شُرِّفْتَ مِنْ اجْلِهِ   يَزْعُمُ هٰذَا إِنَّهُ كَاذِبُ

لَمْ يَحْتَجْ فِي إِغْضَابِ ٱلناصِرِ عَلَيْهِ إِلَى أَكْثَرِ مِنْ هٰذَا ٱلْقَوْلِ وَإِنْ كَانَ لَمْ يَخْرُجْ عَنْ سَمْتِهِ وَهَيْئَتِهِ لِكَوْنِ هٰذَا ٱلْقَوْلِ حَقًّا فَلِذٰلِكَ لَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يَسْتَعْمِلَهَا إِذْ كَانَتْ لَيْسَتْ إِنَّمَا هِيَ فَضْلٌ فَقَطْ بَلْ وَقَدْ تُهَجِّنُ ٱلْقَوْلَ وَٱلْقَائِلَ إِذَا كَانَ بِٱلسَّمْتِ وَٱلْوَقَارِ (قَالَ) وَقَدْ يَكْتَفِي ٱلشَّاعِرُ مِنْ هٰذِهِ بِٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَشْكَالِ ٱلْخَاصَّةِ بِصِنْفٍ صِنْفٍ مِنْ أَصْنَافِ ٱلْأَقَاوِيلِ وَذٰلِكَ إِذَا ٱضْطُرَّ إِلَى ذٰلِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَسْتَعْمِلُونَ ٱلْأَخْذَ بِٱلْوُجُوهِ . وَأَعْنِي بِأَشْكَالِ ٱلْقَوْلِ شَكْلَ ٱلْخَبَرِ وَشَكْلَ ٱلسُّؤَالِ وَشَكْلَ ٱلْأَمْرِ وَشَكْلَ ٱلتَّضَرُّعِ وَذٰلِكَ أَنَّ شَكْلَ ٱلْمُخْبِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلسَّائِلِ وَشَكْلَ ٱلْآمِرِ غَيْرُ شَكْلِ ٱلطَّالِبِ أَوِ ٱلْمُتَضَرِّعِ فَٱلشَّاعِرُ قَدْ يَكْتَفِي بِأَشْكَالِ ٱلْأَقَاوِيلِ عَنْ سَائِرِ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي مِنْ خَارِجٍ فَإِنَّ تِلْكَ إِذْ كَانَ مِنْ شَأْنِهَا تَهْجِينُ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ فَلَيْسَ يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا يَنْبَغِي أَنْ تُجْعَلَ جُزْءًا مِنْ صِنَاعَةٍ أُخْرَى

البحث السابع

في اسطقسات الاقاويل الشعريّة

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) وَٱلْأَسْمَاءُ صِنْفَانِ إِمَّا بَسِيطٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَيْسَ هُوَ مُرَكَّبًا مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِمَّا مُضَاعَفٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرَكَّبُ مِنْ أَسْمَاءٍ تَدُلُّ وَإِنْ كَانَ مِنْ حَيْثُ يُقْصَدُ بِهِ تَسْمِيَةُ شَيْءٍ وَاحِدٍ لَا

تدلُّ تلكَ ٱلأَسماء ٱلَّتي رُكِّبَ منها مِثلُ عَبدِ شَمسٍ وعَبدِ ٱلقَيسِ (قالَ) وكُلُّ ٱسمٍ فهوَ اما حقيقيٌّ وامَّا دَخيلٌ في ٱللِّسانِ وامَّا مَنقولٌ نادِرُ ٱلاستِعمالِ وامَّا مُزيَّنٌ وإما معمولٌ وامَّا معقولٌ وامَّا مُفارَقٌ وامَّا مُغيَّرٌ . فٱلحقيقيُّ هوَ ٱلاسمُ ٱلَّذي يكونُ خاصًّا بِأُمَّةٍ أُمَّةٍ وٱلدَّخيلُ هوَ ٱلَّذي يكونُ لِأُمَّةٍ اخرى فيُدخِلُهُ ٱلشَّاعِرُ في شِعرِهِ وذٰلِكَ مِثلُ ٱلإستَبرَقِ وٱلمِشكاةِ وغَيرِ ذٰلكَ مِنَ ٱلأَسماءِ ٱلأَعجَميَّةِ ٱلدَّخيلةِ في لِسانٍ . اَمَّا ٱلاسمُ ٱلنَّادِرُ ٱلمَنقولُ فهوَ نَقلُ ٱسمٍ غَريبٍ إمَّا مِنَ النوعِ الَى ٱلجِنسِ مِثلُ تَسمِيَةِ ٱلقَتلِ مَوتًا وامَّا مِنَ ٱلجِنسِ الَى ٱلنَّوعِ مِثلُ تَسمِيَةِ ٱلنُّقلةِ حَرَكةً وامَّا مِن نَوعٍ الَى نَوعٍ آخَرَ مِثلُ تَسمِيَةِ ٱلخِيانةِ سَرِقةً وامَّا اَن يُنقَلَ شيءٌ مَنسوبٌ الَى ثانٍ الى شيءٍ ثالثٍ مَنسوبٍ الَى رابعٍ مِثلُ نِسبَةِ ٱلأَوَّلِ الَى ٱلثَّاني مِثلَ ما كانَ يُسمِّي بَعضُ ٱلقُدَماءِ ٱلشَّيخوخَةَ عَشِيَّةَ ٱلعُمرِ ويُسمِّي ٱلعَشِيَّةَ شَيخوخَةَ ٱلنَّهارِ وذٰلكَ اَنَّ نِسبَةَ ٱلشَّيخوخَةِ الَى ٱلعُمرِ نِسبَةُ ٱلعَشِيَّةِ الَى ٱلنَّهارِ وامَّا ٱلاسمُ ٱلمَعمولُ ٱلمُرتَجَلُ فهوَ ٱلاسمُ ٱلَّذي يَختَرِعُهُ ٱلشاعِرُ ٱختِراعًا ويَكونُ هوَ اَوَّلَ مَن ٱستَعمَلَهُ وهٰذا غَيرُ مَوجودٍ في اَشعارِ ٱلعَرَبِ وانَّما يوجَدُ ذٰلكَ في ٱلصَّنائِعِ ٱلنَّاشِئَةِ وأَكثَرُ ما في ٱلصَّنائِعِ هوَ مَنقولٌ لا مَعمولٌ مُختَرَعٌ ورُبَّما ٱستَعمَلَهُ ٱلمُحدَثونَ مِنَ ٱلشُّعَراءِ عَلَى طَريقِ ٱلاستِعارَةِ اَعني ٱلمَنقولَ الَى ٱلصَّنائِعِ مِثلُ قَولِ اَبي ٱلطَّيِّبِ :

إِذَا كَانَ مَا تَنْوِيهِ فِعْلًا مُضَارِعًا

مَضَى قَبْلَ أَنْ تُلْقَى عَلَيْهِ ٱلْجَوَازِمُ

وَرُبَّمَا ٱسْتَعْمَلُوا تَصْرِيفًا لَمْ يُسْتَعْمَلْ قَبْلُ مِثْلُ قَوْلِهِ :

تَفَاوَحَ مِسْكُ ٱلْغَانِيَاتِ وَرَنْدُهُ

وَأَمَّا ٱلْمُفَارَقُ وَٱلْمَعْقُولُ فَلَيْسَ يُوجَدَانِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ. وَٱلْمُزَيَّنَةُ هِيَ أَسْمَاءٌ كَانَتْ تُجْعَلُ بَعْضُ أَجْزَائِهَا نَغَمًا فَتُزَيَّنُ بِهَا وَقَدْ قِيلَ إِنَّهُ يَعْنِي بِٱلْمُفَارَقِ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلْمُغَيَّرَةَ بِٱلزِّيَادَةِ فِيهَا وَٱلنُّقْصَانِ مِنْهَا وَٱلْحَذْفِ أَوِ ٱلْقَلْبِ وَقِيلَ بَلْ يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْأَسْمَاءَ ٱلَّتِي يَعْسُرُ ٱلنُّطْقُ بِهَا وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ ٱسْمٌ كَانَ يُؤَلَّفُ عِنْدَهُمْ مِنْ مَقَاطِعَ مَحْدُودَةٍ وَٱلِٱسْمُ ٱلْمَعْقُولُ فَإِنَّهُ فِيمَا أَحْسَبُ ٱلَّذِي سَمَّاهُ ٱلْمُخْتَلَفَ وَظَاهِرُ كَلَامِهِ أَنَّهُ ٱلِٱسْمُ ٱلْمَحْذُوفُ بِٱلنُّقْصَانِ مِثْلُ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُرَخَّمَةِ عِنْدَنَا وَأَمَّا ٱلْمُغَيَّرَةُ فَهِيَ ٱلْمُسْتَعَارَةُ ٱلَّتِي تُسْتَعَارُ إِمَّا مِنَ ٱلشَّبِيهِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلْكَوْكَبَ نَسْرًا وَإِمَّا مِنَ ٱلضِّدِّ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّمْسَ جَوْنَةً وَإِمَّا مِنَ ٱللَّازِمِ مِثْلُ تَسْمِيَتِهِمِ ٱلشَّحْمَ نَدًا وَٱلْمَطَرَ سَمَاءً (قَالَ) وَأَفْضَلُ ٱلْقَوْلِ فِي ٱلتَّفْهِيمِ إِنَّمَا هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلْمَشْهُورُ ٱلْمُبْتَذَلُ ٱلَّذِي لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ وَهٰذِهِ ٱلْأَقَاوِيلُ إِنَّمَا تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمَشْهُورَةِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي سَمَّاهَا فِي مَا قَبْلُ ٱلْحَقِيقِيَّةَ وَتُسَمَّى ٱلْمُسْتَوْلِيَةَ وَٱلْأَهْلِيَّةَ (قَالَ) وَذٰلِكَ مِثْلُ شِعْرِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ لِقَوْمٍ مَشْهُورِينَ عِنْدَهُمْ. وَيَنْبَغِي أَنْ نَتَفَقَّدَ مِنَ ٱلْغَالِبِ عَلَى أَشْعَارِهِ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ (قَالَ) وَٱلْأَقَاوِيلُ ٱلْعَفِيفَةُ ٱلْمَدِيحِيَّةُ

فَهِيَ ٱلْأَقَاوِيلُ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَمِن ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْأُخَرِ اَعْنِي ٱلْمَنْقُولَةَ ٱلْغَرِيبَةَ ٱلْمُغَيَّرَةَ وَٱللُّغَوِيَّةَ لِأَنَّهُ مَتَى تَعَرَّى ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ مِنَ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْحَقِيقِيَّةِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ كَانَ رَمْزًا وَلُغْزًا وَلِذٰلِكَ كَانَتِ ٱلْأَلْغَازُ وَٱلرُّمُوزُ هِيَ ٱلَّتِي تُؤَلَّفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ اَعْنِي بِٱلْغَرِيبَةِ ٱلْمَنْقُولَ ٱلْمُسْتَعَارَ وَٱلْمُشْتَرَكَ وَٱللُّغَوِيَّ. وَٱلرَّمْزُ وَٱللُّغْزُ هُوَ ٱلْقَوْلُ ٱلَّذِي يَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ لَا يُمْكِنُ اَوْ يَعْسُرُ ٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي ٱلَّتِي يَشْتَمِلُ عَلَيْهَا بَعْضًا بِبَعْضٍ حَتَّى يُطَابِقَ بِذٰلِكَ اَحَدَ ٱلْمَوْجُودَاتِ. وَيَكُونُ اِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَٱتِّصَالُ تِلْكَ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا بِبَعْضٍ غَيْرُ مُمْكِنٍ وَاِمَّا بِحَسَبِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمَشْهُورَةِ فَمُمْكِنٌ وَذٰلِكَ كَثِيرٌ فِي شِعْرِ ذِي ٱلرُّمَّةِ مِنْ شُعَرَاءِ ٱلْعَرَبِ. وَفَضِيلَةُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ ٱلْعَفِيفِيِّ اَنْ يَكُونَ مُؤَلَّفًا مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ مِنْ تِلْكَ ٱلْأَنْوَاعِ ٱلْأُخَرِ وَاَنْ يَكُونَ ٱلشَّاعِرُ حَيْثُ يُرِيدُ ٱلْإِيضَاحَ يَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ وَحَيْثُ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْإِلْذَاذَ يَأْتِي بِٱلصِّنْفِ ٱلْآخَرِ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ وَلِذٰلِكَ قَدْ يُتَضَاحَكُ بِمَنْ يُرِيدُ ٱلْإِيضَاحَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ اَوِ ٱلْغَرِيبَةِ اَوِ ٱلْأَلْسُنِ اَوِ ٱلْمَعْمُولَاتِ وَيُتَضَاحَكُ اَيْضًا بِمَنْ يُرِيدُ ٱلتَّعَجُّبَ وَٱلْإِلْذَاذَ فَيَأْتِي بِٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُبْتَذَلَةِ وَكَانَ ٱلشَّاعِرُ يَجِبُ لَهُ اَلَّا يُفْرِطَ فِي ٱسْتِعْمَالِ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْغَيْرِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ اِلَى حَدِّ ٱلرَّمْزِ وَلَا اَيْضًا يُفْرِطَ فِي ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُسْتَوْلِيَةِ فَيَخْرُجَ عَنْ طَرِيقَةِ ٱلشِّعْرِ اِلَى ٱلْكَلَامِ ٱلْمُتَعَارَفِ (قَالَ) وَاَمَّا مُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي ٱلْمِقْدَارِ

وَمُعادَلَةُ ٱلْمَعَانِي بَعْضِهَا لِبَعْضٍ وَمُوازَنَتِهَا فَأَمْرٌ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ عَامًّا وَمُشْتَرَكًا لِجَمِيعِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي هِيَ أَجْزَاءُ ٱلْقَوْلِ ٱلشِّعْرِيِّ وَذٰلِكَ أَنَّا نَجِدُ ٱلشُّعَرَاءَ وَإِنِ ٱسْتَعْمَلُوا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْحَقِيقِيَّةَ فِي ٱلْمَوَاضِعِ ٱلَّتِي يُهْزَأُ بِهِمْ فِي ٱسْتِعْمَالِهِمْ إِيَّاهَا لَيْسَ يَخْلُو شِعْرُهُمْ مِنْ هٰذَيْنِ ٱلْأَمْرَيْنِ أَعْنِي مِنَ ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمُوَافَقَةِ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَلٰكِنْ كَانَ هٰذَا عَامًّا لِجَمِيعِ أَنْوَاعِ ٱلشِّعْرِ. وَأَمَّا ٱلْأَشْعَارُ ٱلَّتِي تَأْتَلِفُ مِنَ ٱلْأَسْمَاءِ ٱلْمُخْتَلِفَةِ فَوُجُودُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فِيهَا أَبْيَنُ وَمُوَافَقَةُ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلَّتِي ذُكِرَ فِي ٱلْمِقْدَارِ هِيَ مُقَارَنَةُ بَعْضِهَا لِبَعْضٍ فِي عَدَدِ ٱلْحُرُوفِ وَإِنْ وَافَقَتْ مَعَ هٰذَا فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَهُوَ ٱلَّذِي يُعْرَفُ بِٱلْمُطَابَقَةِ وَٱلْمُجَانَسَةِ عِنْدَ أَهْلِ زَمَانِنَا. وَٱلْمُوَافَقَةُ أَنْحَاءٌ وَذٰلِكَ أَنَّهُ لَا تَخْلُو ٱلْمُوَافَقَةُ أَنْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى وَهٰذَا مِثْلُ قَوْلِ ٱلشَّاعِرِ:

لَا أَرَى ٱلْمَوْتَ يَسْبِقُ ٱلْمَوْتَ شَيْءٌ

وَمِثْلُ قَوْلِهِمْ طَوِيلُ ٱلنِّجَادِ طَوِيلُ ٱلْعِمَادِ. أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ أَنْ تَكُونَ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ أَوْ تَكُونَ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطْ أَوْ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَقَّةُ مِنْ تَصْرِيفٍ وَاحِدٍ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمُتَنَبِّي:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ ٱلْعَزْمِ تَأْتِي ٱلْعَزَائِمُ
وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ ٱلْكِرَامِ ٱلْمَكَارِمُ

وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَكُلِّ ٱلْمَعْنَى قَوْلُهُمْ دِرْهَمٌ ضَرْبُ ٱلْأَمِيرِ وَمَضْرُوبُ ٱلْأَمِيرِ. وَمِثَالُ عَكْسِ هٰذَا أَعْنِي فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ وَبَعْضِ ٱلْمَعْنَى ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشَكِّكَةُ وَٱلشُّعَرَاءُ يَسْتَعْمِلُونَهَا كَثِيرًا وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱللَّفْظِ فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُشْتَرَكَةُ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْمَعَرِّيِّ:

مَعَانٌ مِنْ أَحِبَّتِنَا مَعَانُ

وَمِثْلُ قَوْلِهِ:

فَزَنْدُكَ مُغْتَالٌ وَطَرْفُكَ مُغْتَالُ

وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ فَقَطْ قَوْلُ حَبِيبٍ:

مَا أَنْتَ عَنْ ذُهْلِيَّةٍ بِذَاهِلِ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

أُقَلِّبُ ٱلطَّرْفَ بَيْنَ ٱلْخَيْلِ وَٱلْخَوَلِ

وَهٰذَا كُلُّهُ فِي لُغَةِ ٱلْعَرَبِ مِثْلُ ٱلضَّرْبِ وَٱلضَّرَبِ وَٱلْحِمْلِ وَٱلْحَمْلِ وَأَشْرَقَتِ ٱلشَّمْسُ وَشَرَقَتْ. وَمِثَالُ ٱلْمُوَافَقَةِ فِي كُلِّ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُتَرَادِفَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ أَقْوَى وَأَقْفَرَ. وَمِثَالُ ٱلْمُتَّفِقَةِ فِي بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فَقَطِ ٱلْأَسْمَاءُ ٱلْمُخْتَلِفَةُ ٱلَّتِي تَدُلُّ مِنَ ٱلشَّيْءِ ٱلْوَاحِدِ عَلَى جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ مِثْلَ ٱلصَّارِمِ وَٱلذَّكَرِ. وَٱلْقَوَافِي عِنْدَ ٱلْعَرَبِ هِيَ مُوَافَقَةٌ فِي ٱلْمِقْدَارِ وَفِي بَعْضِ ٱللَّفْظِ وَذٰلِكَ إِمَّا فِي حَرْفٍ وَاحِدٍ

وَهُوَ ٱلْآخِيرُ وَاِمَّا فِي حَرْفَيْنِ وَهُوَ ٱلَّذِي يُعَرِّفُهُ ٱلْمُحْدَثُونَ بِٱللُّزُومِ وَامَّا ٱلْمُوَازَنَةُ فِي اَجْزَاءِ ٱلْقَوْلِ فَهِيَ عَلَى اَنْحَاءِ اَرْبَعَةٍ اَحَدُهَا اَنْ يَأْتِيَ ٱلشَّاعِرُ بِٱلشَّيْءِ وَشَبِيهِهِ مِثْلَ ٱلشَّمْسِ وَٱلْقَمَرِ اَوْ يَأْتِيَ بِٱلْاَضْدَادِ مِثْلِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ اَوْ يَأْتِيَ بِٱلشَّيْءِ وَمَا يُسْتَعْمَلُ فِيهِ مِثْلُ ٱلْقَوْسِ وَٱلسَّهْمِ وَٱلْفَرَسِ وَٱللِّجَامِ اَوْ يَأْتِيَ بِٱلْاَشْيَاءِ ٱلْمُنَاسِبَةِ مِثْلُ ٱلْمَلِكِ وَٱلْاِلٰهِ وَهٰذِهِ ٱلْمُنَاسَبَةُ اِنَّمَا تُؤْخَذُ مِنْ اَرْبَعَةِ اَشْيَاءَ. وَفِي هٰذَا ٱلْبَابِ عِيبَ عَلَى ٱلْكُمَيْتِ:

تَكَامَلَ فِيهِ ٱلدَّلُّ وَٱلشَّنَبْ

لِاَنَّ ٱلدَّلَّ غَيْرُ شَبِيهٍ بِٱلشَّنَبِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلْبَابِ قَالَ بَعْضُهُمْ فِي قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

كَاَنِّيَ لَمْ اَرْكَبْ جَوَادًا لِلَذَّةٍ ... وَلَمْ اَتَعَرَّفْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالِ

وَلَمْ اَسْبَإِ ٱلزِّقَّ ٱلرَّوِيَّ وَلَمْ اَقُلْ ... لِخَيْلِيَ كُرِّي كَرَّةً بَعْدَ اِجْفَالِ

اِنَّهُ غَيْرُ مُنَاسِبٍ وَاِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ هُوَ عَكْسُ مَا فَعَلَ اَعْنِي اَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْاَوَّلِ صَدْرَ ٱلثَّانِي وَصَدْرُ ٱلثَّانِي صَدْرَ ٱلْاَوَّلِ وَمِثْلُ هٰذَا قِيلَ فِي قَوْلِ اَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَقَفْتَ وَمَا فِي ٱلْمَوْتِ شَكٌّ لِوَاقِفٍ

كَاَنَّكَ فِي جَفْنِ ٱلرَّدَى وَهُوَ نَائِمُ

تَمُرُّ بِكَ ٱلْاَبْطَالُ كَلْمَى هَزِيمَةً

وَوَجْهُكَ وَضَّاحٌ وَثَغْرُكَ بَاسِمُ

اِنَّ ٱلتَّنَاسُبَ فِيهِ اَنْ يَكُونَ صَدْرُ ٱلْبَيْتِ ٱلْاَوَّلِ لِلثَّانِي وَصَدْرُ

ٱلثَّانِي لِلْاوَّلِ وَمَا قَالَهُ ابُو ٱلطَّيِّبِ لَهُ وَجْهٌ مِنَ ٱلتَّنَاسُبِ وَكَذٰلِكَ مَا قَالَهُ ٱمْرُؤُ ٱلقَيسِ (قَالَ) وَٱلْقَوْلُ إِنَّمَا يَكُونُ مُخْتَلِفًا اَيْ مُغَيَّرًا عَنِ ٱلْقَوْلِ ٱلْحَقِيقِيِّ مِنْ حَيْثُ تُوضَعُ فِيهِ ٱلْاَسْمَاءُ مُتَوَافِقَةً فِي ٱلْمُوَازَنَةِ وَٱلْمِقْدَارِ وَبِٱلْاَسْمَاءِ ٱلْغَرِيبَةِ وَبِغَيْرِ ذٰلِكَ مِنْ اَنْوَاعِ ٱلتَّغْيِيرِ. وَقَدْ يُسْتَدَلُّ عَلَى اَنَّ ٱلْقَوْلَ ٱلشِّعْرِيَّ هُوَ ٱلْمُغَيَّرُ اَنَّهُ إِذَا غُيِّرَ ٱلْقَوْلُ ٱلْحَقِيقِيُّ سُمِّيَ شِعْرًا اَوْ قَوْلًا شِعْرِيًا وَوُجِدَ لَهُ فِعْلُ ٱلشِّعْرِ مِثَالُ ذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْقَائِلِ:

وَلَمَّا قَضَيْنَا مِنْ مِنًى كُلَّ حَاجَةٍ ... وَمَسَّحَ بِٱلْاَرْكَانِ مَنْ هُوَ مَاسِحُ
اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا مِنْ قِبَلِ اَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ قَوْلَهُ:

اَخَذْنَا بِاَطْرَافِ ٱلْاَحَادِيثِ بَيْنَنَا ... وَسَالَتْ بِاَعْنَاقِ ٱلْمَطِيِّ ٱلْاَبَاطِحُ

بَدَلَ قَوْلِهِ تَحَدَّثْنَا وَمَشَيْنَا وَكَذٰلِكَ قَوْلُهُ:

بَعِيدَةُ مَهْوَى ٱلْقُرْطِ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ ٱسْتَعْمَلَ هٰذَا ٱلْقَوْلَ بَدَلَ قَوْلِهِ طَوِيلَةُ ٱلْعُنُقِ وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

يَا دَارُ اَيْنَ ظِبَاؤُكِ ٱللُّعْسُ ... قَدْ كَانَ لِي فِي إِنْسِهَا اُنْسُ

إِنَّمَا صَارَ شِعْرًا لِاَنَّهُ اَقَامَ ٱلدَّارَ مُقَامَ ٱلنَّاطِقِ بِمُخَاطَبَتِهَا وَاَبْدَلَ لَفْظَ ٱلنِّسَاءِ بِٱلظِّبَاءِ وَاَتَى بِمُوَافَقَةِ ٱلْإِنْسِ وَٱلْاُنْسِ فِي ٱللَّفْظِ وَاَنْتَ إِذَا تَاَمَّلْتَ ٱلْاَشْعَارَ ٱلْمُحَرِّكَةَ وَجَدْتَهَا بِهٰذِهِ ٱلْحَالِ. وَمَا عَدَا هٰذِهِ ٱلتَّغْيِيرَاتِ فَلَيْسَ فِيهِ مِنْ مَعْنَى ٱلشِّعْرِيَّةِ إِلَّا ٱلْوَزْنُ فَقَطْ وَٱلتَّغْيِيرَاتُ

تَكُونُ بِالْمُوَازَنَةِ وَالْمُدَافَعَةِ وَالْإِبْدَالِ وَالتَّشْبِيهِ وَبِالْجُمْلَةِ بِإِخْرَاجِ الْقَوْلِ غَيْرَ مُخْرَجِ الْعَادَةِ مِثْلُ الْقَلْبِ وَالْحَذْفِ وَالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ وَالتَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ وَتَغْيِيرِ الْقَوْلِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ وَمِنَ السَّلْبِ إِلَى الْإِيجَابِ وَبِالْجُمْلَةِ مِنَ الْمُقَابِلِ إِلَى الْمُقَابِلِ وَبِالْجُمْلَةِ بِجَمِيعِ الْأَنْوَاعِ الَّتِي تُسَمَّى عِنْدَنَا مَجَازًا فَالْحَذْفُ مِثْلُ قَوْلِ الْقُرْآنِ وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ. وَقَوْلِهِ: وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى. وَالْقَلْبُ مِثْلُ قَوْلِ الْقَائِلِ: فُلَانٌ مِنْ أَجْلِ بَنِيهِ لَا بَنُوهُ مِنْ أَجْلِهِ وَالسُّنَّةُ سَبَبُ الْإِنْسَانِ لَا الْإِنْسَانُ سَبَبُ السُّنَّةِ. وَالتَّقْدِيمُ وَالتَّأْخِيرُ مِثْلُ قَوْلِهِ: وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قَيِّمًا. وَقَوْلِهِ: وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ. وَالزِّيَادَةُ مِثْلُ قَوْلِهِ: تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ وَمِثْلُ قَوْلِهِ: لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَمِثْلُ قَوْلِهِ وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ وَمِثَالُ التَّغْيِيرِ مِنَ الْإِيجَابِ إِلَى السَّلْبِ قَوْلُ الْقَائِلِ: مَا فَعَلَهُ أَحَدٌ إِلَّا أَنْتَ بَدَلَ قَوْلِهِ: أَنْتَ فَعَلْتَهُ وَمِنْ هٰذَا الْمَعْنَى قَوْلُ النَّابِغَةِ:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ

فَإِنَّهُ أَوْجَبَ لَهُمُ الْفَضَائِلَ لِيَنْفِيَ الْعُيُوبَ وَاسْتَثْنَى مِنْهَا مَا لَيْسَ بِعَيْبٍ عَلَى جِهَةِ تَسْمِيَةِ الشَّيْءِ بِاسْمِ ضِدِّهِ. وَمِنَ التَّغْيِيرَاتِ اللَّذِيذَةِ جَمْعُ الْأَضْدَادِ فِي شَيْءٍ وَاحِدٍ كَقَوْلِهِ:

فِيكَ الْخِصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكَمُ

وَكَوْنُ الضِّدِّ سَبَبًا لِضِدٍّ كَقَوْلِهِ: وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَنْوَاعُهَا الْبَسِيطَةُ وَالْمُرَكَّبَةُ الْمَحْصُورَةُ فِي هٰذِهِ الْكُلِّيَّاتِ

وَيُشبِهُ انْ يَكُونَ اِحصاءُ انْوَاعِهَا ٱلْاَخِيرَةِ عَسِيرًا جِدًّا وَلِذٰلِكَ اقتَصرَ هُنَا عَلَى ٱلْكُلِّيَّاتِ فَقَطْ. وَٱلفَاضِلُ مِنْ هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ هُوَ انْ يُستَعمَلَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا مَا هُوَ ابيَنُ وَاظهَرُ وَاشبَهُ وَهٰذَا لَا يُوجَدُ اِلَّا فِي ٱلنَّادِرِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذٰلِكَ انَّ ٱستِعمَالَ ٱلْاَبيَنِ مِنْ هٰذِهِ ٱلاَشْيَاءِ وَٱلاَشْبَهِ هُوَ دَلِيلُ ٱلْمَهَارَةِ. وَهٰذَا ٱلصِّنفُ هُوَ ٱلَّذِي يَجمَعُ اِلَى جُودَةِ ٱلاِفْهَامِ فِعلَ ٱلْاَقَاوِيلِ ٱلشِّعْرِيَّةِ اَعنِي تَحرِيكَ ٱلنَّفسِ مِثَالُ ذٰلِكَ انَّ ٱلْاِبدَالَ اِذَا كَانَ شَدِيدَ ٱلشَّبَهِ اَفَادَ جُودَةَ ٱلتَّخيِيلِ وَٱلِافْهَامِ مَعًا وَرُبَّمَا عَرَضَ مِنَ ٱلْاِبدَالِ ٱلْمُنَاسِبِ قِلَّةُ فَهمٍ عِندَ ٱلفِدَامِ مِنَ ٱلسَّامِعِينَ كَمَا عَرَضَ فِي قَولِهِ: حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلخَيطُ ٱلْاَبيَضُ مِنَ ٱلخَيطِ ٱلْاَسوَدِ انْ ظَنَّ بَعضُهُمْ انَّهُ ٱلخَيطُ ٱلحَقِيقِيُّ فَنَزَلَتْ مِنَ ٱلفَجرِ. (قَالَ) وَٱلْاَسمَاءُ ٱلْمُرَكَّبَةُ تَصلُحُ لِلْوَزنِ ٱلَّذِي يُثنَى فِيهِ عَلَى ٱلْاَخيَارِ مِنْ غَيرِ تَعيِينِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنهُمْ وَهٰذِهِ ٱلْاَسمَاءُ هِيَ قَلِيلَةُ ٱلوُجُودِ فِي لِسَانِ ٱلعَرَبِ وَهِيَ مِثلُ قَولِهِمِ ٱلعَبشَمِيُّ ٱلْمَنسُوبُ اِلَى عَبدِ شَمسٍ. وَامَّا ٱللُّغَاتُ فَتَصلُحُ لِلشِّعرِ ٱلَّذِي يُذكَرُ فِيهِ امرُ ٱلْمَعَادِ وَمَا فِيهِ مِنَ ٱلْاَهوَالِ وَكَانَ صِنفًا مِنَ ٱلشِّعرِ عِندَهُمْ مَعرُوفًا. وَامَّا ٱلْاَسمَاءُ ٱلْمَنقُولَةُ ٱلغَرِيبَةُ فَتَختَصُّ بِٱلْاَشعَارِ ٱلَّتِي تُقَالُ فِي ٱلْاَمثَالِ وَٱلحِكَمِ وَٱلقِصَصِ ٱلْمَشهُورَةِ



البحث الثامن

في صناعة الاشعار القَصصية

(من الكتاب نفسهِ)

(قَالَ) فَفِيمَا قُلْنَاهُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَفِي ٱلْأَشْيَاءِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِأَصْنَافِ ٱلْأَشْعَارِ مِنَ ٱلتَّشْبِيهِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ كِفَايَةٌ. وَٱلْأَشْعَارُ ٱلْقَصَصِيَّةُ سَبِيلُهَا فِي ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَبْدَأُ وَٱلْوَسَطُ وَٱلنِّهَايَةُ سَبِيلُ اجْزَاءِ صِنَاعَةِ ٱلْمَدِيحِ وَكَذٰلِكَ فِي ٱلْمُحَاكَاةِ اِلَّا انَّ ٱلْمُحَاكَاةَ لَيْسَ تَكُونُ لِلْأَفْعَالِ فِيهَا وَاِنَّمَا تَكُونُ لِلْأَزْمِنَةِ ٱلْوَاقِعَةِ فِيهَا تِلْكَ ٱلْأَفْعَالُ وَذٰلِكَ اَنَّهُ اِنَّمَا يُحَاكَى فِي هٰذِهِ كَيْفَ كَانَتْ اَحْوَالُ ٱلْمُتَقَدِّمِ مَعَ اَحْوَالِ ٱلْمُتَاخِرِ وَكَيْفَ تَنْقَلُ ٱلدُّوَلُ وَٱلْمَمَالِكُ وَٱلْاَيَّامُ. وَمُحَاكَاةُ هٰذَا ٱلنَّوْعِ مِنَ ٱلْوُجُودِ قَلِيلٌ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَهُوَ كَثِيرٌ فِي ٱلْكُتُبِ ٱلشَّرْعِيَّةِ. وَذَكَرَ مُجِيدِينَ فِي هٰذَا ٱلصِّنْفِ مِنْ شُعَرَائِهِمْ وَاَثْنَى ثَنَاءً عَامًا عَلَى اُومِيرُوشَ. وَمِنْ جَيِّدِ مَا فِي هٰذَا ٱلْمَعْنَى لِلْعَرَبِ قَوْلُ ٱلْأَسْوَدِ بْنِ يَعْفُرَ:

مَاذَا اُؤَمِّلُ بَعْدَ آلِ مُحَرِّقٍ ... تَرَكُوا مَنَازِلَهُمْ وَبَعْدَ اِيَادِ
اَرْضِ ٱلْخَوَرْنَقِ وَٱلسَّدِيرِ وَبَارِقٍ ... وَٱلْقَصْرِ ذِي ٱلشُّرُفَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
نَزَلُوا بِاَنْقِرَةٍ يَسِيلُ عَلَيْهِمِ ... مَاءُ ٱلْفُرَاتِ يَجِيءُ مِنْ اَطْوَادِ
جَرَتِ ٱلرِّيَاحُ عَلَى مَحَلِّ دِيَارِهِمْ ... فَكَاَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى مِيعَادِ
فَاَرَى ٱلنَّعِيمَ وَكُلَّ مَا يُلْهَى بِهِ ... يَوْمًا يَصِيرُ اِلَى بِلًى وَنَفَادِ

(قالَ) وأجزاءُ هذا النوعِ هيَ أجزاءُ صِناعةِ المديحِ العفيفيَّةِ من الإدارةِ والاستدلالِ والتركيبِ منهما. وربَّما كانَ بعضُ أجزائها انفعاليًا كالحالِ في صناعةِ المديحِ . وصنائعُ الشعرِ وأحكامُها في التلحينِ والغناءِ أحكامُ صناعةِ المديحِ . وذكرَ فروقًا بينَ صناعةِ المديحِ وبينَ صنائعِ الشعرِ الأُخرِ عندهم وخواصَّ تختصُّ بها تلكَ الأشعارُ الأُخرُ في الأوزانِ والأجزاءِ والمحاكاةِ والقدرِ وأنَّ هاهُنا أوزانًا هيَ أليقُ ببعضِ الأشعارِ من بعضٍ وذكرَ من أجادَ من الشعراءِ في هذهِ الأشياءِ ومن لم يُجِدْ وأثنى في هذا كلِّهِ على أوميروشَ وكلُّ ذلكَ خاصٌّ بهم وغيرُ موجودٍ مثالُهُ عندنا إمّا لأنَّ ذلكَ الذي ذكرَ غيرُ مشتركٍ للأكثرِ من الأممِ وإمّا أنَّهُ عرضَ للعربِ في هذهِ الأشياءِ أمرٌ خارجٌ عن الطبعِ وهوَ أبينُ فإنَّهُ ما كانَ ليُثبِتَ في كتابِهِ هذا ما هوَ خاصٌّ بهم بل ما هوَ مشتركٌ للأممِ الطبيعيَّةِ

البحث التاسع

في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته

(من الكتاب نفسه)

وينبغي أن يكونَ ما يأتي بهِ الشاعرُ من الكلامِ يسيرًا بالإضافةِ إلى الكلامِ المحاكَى كما كانَ يفعلُ أوميروشُ فإنَّهُ إنَّما كانَ يعملُ صدرًا يسيرًا ثمَّ يتخلَّصُ إلى ما يريدُ محاكاتَهُ من غيرِ أن يأتيَ في ذلكَ بشيءٍ لم يُعتَدْ لكن ما قد اعتيدَ فإنَّ غيرَ المعتادِ

مُنْكَرٌ وَإِنَّمَا قَالَ ذٰلِكَ فِيمَا أَحْسِبُ لِأَنَّ لِلْأُمَمِ فِي تَشْبِيهَاتِهِمْ عَوَائِدَ خَاصَّةً مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِىءِ ٱلْقَيْسِ:

يُهِيلُ وَيُذْرِي تُرْبَهَا وَيُثِيرُهُ   إِثَارَةَ نَبَّاثِ ٱلْهَوَاجِرِ مُخْمِسِ

وَكَذٰلِكَ تَشْبِيهُهُمُ ٱلضَّبَّ بِٱلنُّونِ لِمَكَانِ ٱلسَّرَابِ ٱلْمَوْجُودِ فِي بِلَادِهِمْ وَمِنْ هٰذَا قَوْلُهُ: وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ (قَالَ) وَمَتَى طَالَ ٱلْكَلَامُ وَلَيْسَ فِيهِ تَغْيِيرٌ وَلَا مُحَاكَاةٌ فَيَنْبَغِي أَنْ يُعْتَنَى فِي ذٰلِكَ بِإِيرَادِ ٱلْأَلْفَاظِ ٱلْبَيِّنَةِ ٱلدَّلَالَةِ وَهِيَ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَشْيَاءَ بِأَعْيَانِهَا لَا عَلَى أَشْيَاءَ مُتَضَادَّةٍ أَوْ مُخْتَلِفَةٍ وَأَنْ يَكُونَ تَرْكِيبُهَا عَلَى ٱلْمَشْهُورِ عِنْدَهُمْ وَتَكُونَ سَهْلَةً عِنْدَ ٱلنُّطْقِ. وَيُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ هٰذَا هُوَ أَكْثَرُ مَا يُطْلَقُ عَلَيْهِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ ٱسْمُ ٱلْفَصَاحَةِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ ٱلْقَوْلُ ظَاهِرَ ٱلصِّدْقِ وَمَشْهُورًا فَإِنَّ ٱلصِّدْقَ ٱلَّذِي يَتَضَمَّنُهُ يَشْفَعُ لِمَا فِيهِ مِنْ قِلَّةِ ٱلْفَصَاحَةِ وَقِلَّةِ ٱلتَّغْيِيرِ وَٱلْمُحَاكَاةِ

البحث العاشر

في انواع المحاكاة غير المقبولة

(من الكتاب نفسه)

وَٱلْغَلَطُ ٱلَّذِي يَقَعُ فِي ٱلشِّعْرِ وَيَجِبُ عَلَى ٱلشَّاعِرِ تَوْبِيخُهُ فِيهِ سِتَّةُ أَصْنَافٍ. أَحَدُهَا أَنْ يُحَاكِيَ بِغَيْرِ مُمْكِنٍ بَلْ مُمْتَنِعٍ وَمِثَالُ هٰذَا عِنْدِي قَوْلُ ٱبْنِ ٱلْمُعْتَزِّ يَصِفُ ٱلْقَمَرَ فِي تَنَقُّصِهِ:

أُنْظُرْ إِلَيْهِ كَزَوْرَقٍ مِنْ فِضَّةٍ   قَدْ أَثْقَلَتْهُ حُمُولَةٌ مِنْ عَنْبَرِ

فَإِنَّ هٰذَا مُمْتَنِعٌ . وَإِنَّمَا آنَسَهُ بِذٰلِكَ شِدَّةُ ٱلشَّبَهِ وَإِنَّهُ لَمْ يُقْصَدْ بِهِ حَثٌّ وَلَا نَفْيٌ بَلْ إِنَّمَا يَجِبُ أَنْ يُحَاكَى بِمَا هُوَ مَوْجُودٌ أَوْ يُظَنُّ أَنَّهُ مَوْجُودٌ مِثْلُ مُحَاكَاةِ ٱلْأَشْرَارِ بِٱلشَّيَاطِينِ أَوْ بِمَا هُوَ مُمْكِنُ ٱلْوُجُودِ فِي ٱلْأَكْثَرِ لَا فِي ٱلْأَقَلِّ أَوْ عَلَى ٱلتَّسَاوِي فَإِنَّ هٰذَا ٱلنَّوْعَ مِنَ ٱلْوُجُودِ هُوَ أَلْيَقُ بِٱلْخَطَابَةِ مِنْهُ بِٱلشِّعْرِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّانِي مِنْ غَلَطِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يُحَرِّفَ ٱلْمُحَاكَاةَ وَذٰلِكَ مِثْلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُصَوِّرِ أَنْ يَزِيدَ فِي ٱلصُّورَةِ عُضْوًا لَيْسَ فِيهَا أَوْ يُصَوِّرَهُ فِي غَيْرِ ٱلْمَكَانِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ كَمَنْ يُصَوِّرُ ٱلرِّجْلَيْنِ فِي مُقَدَّمِ ٱلْحَيَوَانِ ذِي ٱلْأَرْبَعِ وَٱلْيَدَيْنِ فِي مُؤَخَّرِهِ وَيَنْبَغِي أَنْ يُتَفَقَّدَ مِثَالُ هٰذَا فِي أَشْعَارِ ٱلْعَرَبِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ عِنْدِي قَوْلُ بَعْضِ ٱلْمُحْدَثِينَ ٱلْأَنْدَلُسِيِّينَ يَصِفُ ٱلْفَرَسَ :

وَعَلَى أُذُنَيْهِ أُذْنٌ ثَالِثٌ مِنْ سِنَانِ ٱلسَّمْهَرِيِّ ٱلْأَزْرَقِ

وَٱلْمَوْضِعُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يُحَاكِيَ ٱلنَّاطِقِينَ بِأَشْيَاءَ غَيْرِ نَاطِقَةٍ فَإِنَّ هٰذَا أَيْضًا مِنْ مَوَاضِعِ ٱلتَّوْبِيخِ وَذٰلِكَ أَنَّ ٱلصِّدْقَ فِي هٰذِهِ ٱلْمُحَاكَاةِ يَكُونُ قَلِيلًا وَٱلْكَذِبَ كَثِيرًا إِلَّا أَنْ يُشَبَّهَ مِنَ ٱلنَّاطِقِ صِفَةً مُشْتَرَكَةً لِلنَّاطِقِ وَغَيْرِ ٱلنَّاطِقِ وَقَدْ تُؤْنِسُ بِمِثْلِ هٰذَا ٱلْعَادَةُ مِثْلُ تَشْبِيهِ ٱلْعَرَبِ ٱلنِّسَاءَ بِٱلظِّبَاءِ وَبَقَرِ ٱلْوَحْشِ . وَٱلْمَوْضِعُ ٱلرَّابِعُ أَنْ يُشَبَّهَ ٱلشَّيْءُ بِشَبِيهِ ضِدِّهِ أَوْ بِضِدِّ نَفْسِهِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْعَرَبِ سَقِيمَةُ ٱلْجُفُونِ فِي ٱلْحَسَنَةِ ٱلْغَاضَّةِ ٱلنَّظَرِ وَقَرِيبٌ مِنْهُ قَوْلُهُمْ :

رَاحُوا كَأَنَّهُمُ مَرْضَى مِنَ ٱلْكَرَمِ

وَقَوْلُ ٱلْآخَرِ :

وَمُخَرَّقٍ عَنْهُ ٱلْقَمِيصُ تَخَالُهُ وَسْطَ ٱلْبُيُوتِ مِنَ ٱلْحَيَاءِ سَقِيمَا

فَإِنَّ هٰذِهِ كُلَّهَا هِيَ اضْدَادُ ٱلصِّفَاتِ ٱلْحَسَنَةِ وَإِنَّمَا آنَسَ بِذٰلِكَ ٱلْعَادَةُ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلْخَامِسُ اَنْ يَأْتِيَ بِٱلْاَسْمَاءِ ٱلَّتِي تَدُلُّ عَلَى ٱلْمُتَضَادَّيْنِ بِٱلسَّوَاءِ مِثْلُ ٱلصَّرِيمِ فِي لِسَانِ ٱلْعَرَبِ وَٱلْقُرْءِ وَٱلْجَلَدِ وَغَيْرِ ذٰلِكَ مِمَّا قَدْ ذَكَرَهُ اَهْلُ ٱللُّغَةِ. وَٱلْمَوْضِعُ ٱلسَّادِسُ اَنْ يَتْرُكَ ٱلْمُحَاكَاةَ ٱلشِّعْرِيَّةَ وَيَنْتَقِلَ اِلَى ٱلْاِقْنَاعِ وَٱلْاَقَاوِيلِ ٱلتَّصْدِيقِيَّةِ وَبِخَاصَّةٍ مَتَى كَانَ ٱلْقَوْلُ هَجِينًا قَلِيلَ ٱلْاِقْنَاعِ وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ يَعْتَذِرُ عَنْ جُبْنِهِ:

وَمَا جَبُنَتْ خَيْلِي وَلٰكِنْ تَذَكَّرَتْ مَرَابِطَهَا مِنْ بَرْبَعِيصَ وَمَيْسَرَا

وَقَدْ يَحْسُنُ هٰذَا ٱلصِّنْفُ اِذَا كَانَ حَسَنَ ٱلْاِقْنَاعِ اَوْ صَادِقًا مِثْلُ قَوْلِ ٱلْآخَرِ يَعْتَذِرُ عَنِ ٱلْفِرَارِ:

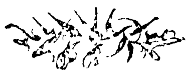
اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا تَرَكْتُ قِتَالَهُمْ حَتَّى رَمَوْا فَرَسِي بِأَشْقَرَ مُزْبِدِ

وَعَلِمْتُ اَنِّي اِنْ اُقَاتِلْ وَاحِدًا اُقْتَلْ وَلَا يَنْكِي عَدُوِّيَ مَشْهَدِي

فَصَدَدْتُ عَنْهُمْ وَٱلْاَحِبَّةُ فِيهِمِ طَمَعًا لَهُمْ بِعِقَابِ يَوْمٍ مُفْسِدِ

فَإِنَّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ اِنَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْاَكْثَرِ لِصِدْقِهِ لِاَنَّ ٱلتَّغْيِيرَ ٱلَّذِي فِيهِ يَسِيرٌ وَلِذٰلِكَ قَالَ ٱلْقَائِلُ: يَا مَعْشَرَ ٱلْعَرَبِ لَقَدْ حَسَّنْتُمْ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى ٱلْفِرَارَ (قَالَ) وَاِذَا كَانَتْ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ سِتَّةً وَمَوَاضِعُ ٱلتَّوْبِيخِ مُقَابِلَتَهَا فَيَجِبُ اَنْ تَكُونَ مَوَاضِعُ ٱلْغَلَطِ ٱلذَّاتِيِّ وَٱلتَّوْبِيخِ ٱلْخَاصِّيِّ ٱثْنَيْ عَشَرَ مَوْضِعًا سِتَّةٌ اَغَالِيطُ وَسِتَّةٌ تَوْبِيخَاتٌ وَاَمْثِلَةُ ٱلتَّوْبِيخَاتِ غَيْرُ مَوْجُودَةٍ عِنْدَنَا اِذْ كَانَ شُعَرَاؤُنَا لَمْ تَتَمَيَّزْ

لَهُمْ هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءُ وَلَا شَعَرُوا بِهَا فَهٰذَا هُوَ مَا تَأَدَّى إِلَى فَهْمِنَا مِمَّا ذَكَرَهُ أَرِسْطُو فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْأَقَاوِيلِ ٱلْمُشْتَرَكَةِ لِجَمِيعِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَاصَّةِ بِٱلْمَدِيحِ أَعْنِي ٱلْمُشْتَرَكَةَ مِنْهَا أَيْضًا لِلْأَكْثَرِ أَوْ لِلْجَمِيعِ وَسَائِرَ مَا ذَكَرَهُ فِي كِتَابِهِ هٰذَا مِنَ ٱلْفُصُولِ ٱلَّتِي بَيْنَ سَائِرِ أَصْنَافِ ٱلشِّعْرِ عِنْدَهُمْ وَبَيْنَ صِنْفِ ٱلْمَدِيحِ فَهُوَ خَاصٌّ بِهِمْ وَمَعَ ذٰلِكَ فَلَسْنَا نَجِدُهُ ذَكَرَ مِنْ ذٰلِكَ فِي هٰذَا ٱلْكِتَابِ ٱلْوَاصِلِ إِلَيْنَا إِلَّا بَعْضَ ذٰلِكَ. وَذٰلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ هٰذَا ٱلْكِتَابَ لَمْ يُتَرْجَمْ عَلَى ٱلتَّمَامِ وَأَنَّهُ بَقِيَ مِنْهُ ٱلتَّكَلُّمُ فِي سَائِرِ فُصُولِ أَصْنَافٍ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْأَشْعَارِ عِنْدَهُمْ وَقَدْ كَانَ هُوَ وَعَدَ بِٱلتَّكَلُّمِ فِي هٰذِهِ كُلِّهَا فِي صَدْرِ كِتَابِهِ. وَٱلَّذِي نَقَصَ مِمَّا هُوَ مُشْتَرَكٌ هُوَ ٱلتَّكَلُّمُ فِي صِنَاعَةِ ٱلْهِجَاءِ لٰكِنْ يُشْبِهُ أَنْ يَكُونَ ٱلْوُقُوفُ عَلَى ذٰلِكَ بِقُرْبٍ مِنَ ٱلْأَشْيَاءِ ٱلَّتِي قِيلَتْ فِي بَابِ ٱلْمَدِيحِ إِذْ كَانَتِ ٱلْأَضْدَادُ يُعْرَفُ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ. وَأَنْتَ تَتَبَيَّنُ إِذَا وَقَفْتَ عَلَى مَا كَتَبْنَاهُ هَاهُنَا أَنَّ مَا شَعَرَ بِهِ أَهْلُ لِسَانِنَا مِنَ ٱلْقَوَانِينِ ٱلشِّعْرِيَّةِ بِٱلْإِضَافَةِ إِلَى مَا فِي كِتَابِ أَرِسْطُو هٰذَا وَفِي كِتَابِ ٱلْخَطَابَةِ نَزْرٌ يَسِيرٌ كَمَا يَقُولُهُ أَبُو نَصْرٍ. وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْكَ أَيْضًا كَيْفَ تَرْجِعُ تِلْكَ ٱلْقَوَانِينُ إِلَى هٰذِهِ وَلَا مَا ذَكَرُوا مِنْ ذٰلِكَ عَلَى وَجْهِ ٱلصَّوَابِ مِمَّا ذُكِرَ عَلَى غَيْرِ ذٰلِكَ وَٱللهُ ٱلْمُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ بِفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ



الفصل الثاني

في معرفة الشعراء

البحث الاول

في القدماء من الشعراء

(من كتاب المزهر في علوم اللغة للعلّامة جلال الدين السيوطي)

وَمِنْ قُدَمَاءِ ٱلشُّعَرَاءِ أَعْصُرُ بْنُ سَعْدِ بْنِ قَيْسِ عَيْلَانَ بْنِ مُضَرَ وَهُوَ مُنَبِّهٌ أَبُو بَاهِلَةَ وَغَنِيٍّ وَٱلطُّفَاوَةُ. وَمِنْهُمُ ٱلْمُسْتَوْغِرُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱبْنِ كَعْبِ بْنِ نَهْدٍ وَكَانَ قَدِيمًا وَبَقِيَ بَقَاءً طَوِيلًا حَتَّى قَالَ:

وَلَقَدْ سَئِمْتُ مِنَ ٱلْحَيَاةِ وَطُولِهَا   وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلسِّنِينَ مِئِينَا

مِائَةٌ أَتَتْ مِنْ بَعْدِهَا مِائَتَانِ لِي   وَٱزْدَدْتُ مِنْ عَدَدِ ٱلشُّهُورِ سِنِينَا

وَمِنْهُمْ زُهَيْرُ بْنُ جَنَابٍ ٱلْكَلْبِيُّ كَانَ قَدِيمًا شَرِيفًا وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

إِذَا قَالَتْ حَذَامِ فَصَدِّقُوهَا   فَإِنَّ ٱلْقَوْلَ مَا قَالَتْ حَذَامِ

وَمِنْهُمْ جَذِيمَةُ ٱلْأَبْرَشُ وَٱلْجَيْمُ بْنُ صَعْبِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ بَكْرِ ٱبْنِ وَائِلٍ وَهُوَ ٱلْقَائِلُ:

مِنْ كُلِّ مَا نَالَ ٱلْفَتَى   قَدْ نِلْتُهُ إِلَّا ٱلتَّحِيَّهْ

وَقَالَ ٱمْرُوءُ ٱلقَيْسِ بْنُ حُجْرٍ :

عُوجَا عَلَى طَلَلِ ٱلدِّيَارِ لَعَلَّنَا نَبْكِي ٱلدِّيَارَ كَمَا بَكَى ٱبْنُ حِذَامِ

وَهُوَ رَجُلٌ مِنْ طَيِّءٍ لَمْ نَسْمَعْ شِعْرَهُ ٱلَّذِي بَكَى فِيهِ وَلَا شِعْرًا غَيْرَ هٰذَا ٱلبَيْتِ ٱلَّذِي ذَكَرَهُ ٱمْرُوءُ ٱلقَيْسِ . وَكَانَ اَوَّلَ مَنْ قَصَّدَ ٱلقَصَائِدَ وَذَكَرَ ٱلوَقَائِعَ ٱلْمُهَلْهِلُ بْنُ رَبِيعَةَ ٱلتَّغْلِبِيُّ فِي قَتْلِ اَخِيهِ كُلَيْبٍ قَالَ ٱلفَرَزْدَقُ :

وَمُهَلْهِلُ ٱلشُّعَرَاءِ ذَاكَ ٱلاَوَّلُ

وَزَعَمَتِ ٱلعَرَبُ اَنَّهُ كَانَ يَتَكَثَّرُ وَيَدَّعِي فِي قَوْلِهِ اَكْثَرَ مِنْ فِعْلِهِ . وَكَانَ شُعَرَاءُ ٱلجَاهِلِيَّةِ فِي رَبِيعَةَ اَوَّلُهُمُ ٱلْمُهَلْهِلُ وَهُوَ خَالُ ٱمْرِيءِ ٱلقَيْسِ بْنِ حُجْرٍ ٱلكِنْدِيِّ وَٱلْمُرَقِّشَانِ وَٱلاَكْبَرُ مِنْهُمَا عَمُّ ٱلاَصْغَرِ وَٱلاَصْغَرُ عَمُّ طَرَفَةَ بْنِ ٱلعَبْدِ . وَٱسْمُ ٱلاَكْبَرِ عَوْفُ بْنُ سَعْدٍ وَٱسْمُ ٱلاَصْغَرِ عَمْرُو بْنُ حَرْمَلَةَ وَقِيلَ رَبِيعَةُ بْنُ سُفْيَانَ . وَمِنْهُمْ سَعْدُ بْنُ مَالِكٍ وَطَرَفَةُ بْنُ ٱلعَبْدِ وَعَمْرُو بْنُ قَمِيئَةَ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَهُوَ خَالُ طَرَفَةَ . وَٱلاَعْشَى وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَٱلحَرِثُ بْنُ حِلِّزَةَ . ثُمَّ تَحَوَّلَ ٱلشِّعْرُ فِي قَيْسٍ فَمِنْهُمُ ٱلنَّابِغَتَانِ وَزُهَيْرُ بْنُ اَبِي سُلْمَى وَٱبْنُهُ كَعْبٌ وَلَبِيدٌ وَٱلحُطَيْئَةُ وَٱلشَّمَّاخُ وَاَخُوهُ مُزَرِّدٌ وَخِدَاشُ بْنُ زُهَيْرٍ ثُمَّ آلَ اِلَى تَمِيمٍ فَلَمْ يَزَلْ فِيهِمْ اِلَى ٱليَوْمِ . وَمِنْهُمْ كَانَ اَوْسُ بْنُ حَجَرٍ شَاعِرُ مُضَرَ فِي ٱلجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَتَقَدَّمْهُ اَحَدٌ مِنْهُمْ حَتَّى نَشَأَ ٱلنَّابِغَةُ وَزُهَيْرٌ وَاَخْمَلَاهُ وَبَقِيَ شَاعِرَ تَمِيمٍ فِي ٱلجَاهِلِيَّةِ غَيْرَ مُدَافَعٍ . وَكَانَ ٱلاَصْمَعِيُّ يَقُولُ اَوْسٌ اَشْعَرُ مِنْ زُهَيْرٍ وَلٰكِنِ ٱلنَّابِغَةُ طَأْطَأَ مِنْهُ

وَكَانَ رَاوِيَةَ أَوْسٍ زُهَيْرٌ وَكَانَ أَوْسٌ زَوْجَ أُمِّ زُهَيْرٍ (قَالَ عُمَرُ بْنُ شَبَّةَ) فِي طَبَقَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ: لِلشِّعْرِ وَٱلشُّعَرَاءِ أَوَّلٌ لَا يُوقَفُ عَلَيْهِ وَقَدِ ٱخْتَلَفَ فِي ذٰلِكَ ٱلْعُلَمَاءُ وَٱدَّعَتِ ٱلْقَبَائِلُ كُلُّ قَبِيلَةٍ لِشَاعِرِهَا أَنَّهُ ٱلْأَوَّلُ وَلَمْ يَدَّعُوا ذٰلِكَ لِقَائِلِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةِ لِأَنَّهُمْ لَا يُسَمُّونَ ذٰلِكَ شِعْرًا فَٱدَّعَتِ ٱلْيَمَانِيَةُ لِٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَبَنُو أَسَدٍ لِعُبَيْدِ بْنِ ٱلْأَبْرَصِ وَتَغْلِبُ لِمُهَلْهِلٍ وَبَكْرٌ لِعَمْرِو بْنِ قَمِيئَةَ وَٱلْمُرَقِّشِ ٱلْأَكْبَرِ وَإِيَادٌ لِأَبِي دُؤَادٍ (قَالَ) وَزَعَمَ بَعْضُهُمْ أَنَّ ٱلْأَفْوَهَ ٱلْأَوْدِيَّ أَقْدَمُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ قَصَّدَ ٱلْقَصِيدَ (قَالَ) وَهٰؤُلَاءِ ٱلنَّفَرُ ٱلْمُدَّعَى لَهُمُ ٱلتَّقَدُّمُ فِي ٱلشِّعْرِ مُتَقَارِبُونَ لَعَلَّ أَقْدَمَهُمْ لَا يَسْبِقُ ٱلْهِجْرَةَ بِمِائَةِ سَنَةٍ أَوْ نَحْوِهَا (وَقَالَ ثَعْلَبٌ فِي أَمَالِيهِ) قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ: أَوَّلُ مَنْ يُرْوَى لَهُ كَلِمَةٌ تَبْلُغُ ثَلَاثِينَ بَيْتًا مِنَ ٱلشِّعْرِ مُهَلْهِلٌ ثُمَّ ذُؤَيْبُ بْنُ كَعْبِ بْنِ عَمْرِو بْنِ تَمِيمٍ ثُمَّ ضَمْرَةُ رَجُلٌ مِنْ بَنِي كِنَانَةَ وَٱلْأَضْبَطُ بْنُ قُرَيْعٍ (قَالَ) وَكَانَ بَيْنَ هٰؤُلَاءِ وَبَيْنَ ٱلْإِسْلَامِ أَرْبَعُمِائَةِ سَنَةٍ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ بَعْدَ هٰؤُلَاءِ بِكَثِيرٍ (وَقَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي كِتَابِ لَيْسَ) أَوَّلُ مَنْ قَالَ ٱلشِّعْرَ ٱبْنُ حِذَامٍ (وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ): ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحِيطَ بِهِمْ عَدَدٌ وَمِنْهُمْ مَشَاهِيرُ قَدْ طَارَتْ أَسْمَاؤُهُمْ وَسَارَ شِعْرُهُمْ وَكَثُرَ ذِكْرُهُمْ حَتَّى غَلَبُوا عَلَى سَائِرِ مَنْ كَانَ فِي زَمَانِهِمْ وَلِكُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ تُفَضِّلُهُ وَتَتَعَصَّبُ لَهُ وَقَلَّمَا تَجْتَمِعُ عَلَى وَاحِدٍ إِلَّا مَا رُوِيَ عَنِ ٱلرَّسُولِ فِي ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ أَنَّهُ أَشْعَرُ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَائِدُهُمْ إِلَى ٱلنَّارِ يَعْنِي شُعَرَاءَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُشْرِكِينَ

قَالَ دِعبِلُ بنُ عَليٍّ الخزاعيُّ . وَلَا يَقُودُ قَومًا اِلَّا اميرُهُمْ . قَالَ عُمَرُ بنُ الخطَّابِ للعبَّاسِ بنِ عبدِ المطَّلبِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنِ الشُّعَرَاءِ: امرُؤُ القَيسِ سَابِقُهُمْ خَسَفَ لَهُمْ عَيْنَ الشِّعرِ فَافتَقَرَ عَنْ مَعَانٍ عُورٍ اَصَحَّ بَصَرًا (قَالَ عَبدُ الكَرِيمِ) خَسَفَ مِنَ الخَسْفِ وَهِيَ البِئرُ الَّتِي حُفِرَتْ فِي حِجَارَةٍ فَخَرَجَ مِنْهَا مَاءٌ كَثِيرٌ . وَقَولُهُ افتَقَرَ اي فَتَحَ وَهُوَ مِنَ الفَقْرِ وَهُوَ فَمُ القَنَاةِ وَقَولُهُ: عَنْ مَعَانٍ عُورٍ يُرِيدُ اَنَّ امرَأَ القَيسِ مِنَ اليَمَنِ وَاَنَّ اَهلَ اليَمَنِ لَيسَتْ لَهُمْ فَصَاحَةُ نِزَارٍ فَجَعَلَ لَهُمْ مَعَانِيَ عُورًا فَكَانَ فَتحُ امرِئِ القَيسِ اَصَحَّ بَصَرًا فَاِنَّ امرَأَ القَيسِ يَمَانِيُّ النَّسَبِ نِزَارِيُّ الدَّارِ وَالمَنشَإِ . وَفَضَّلَهُ عَلِيٌّ بِاَنْ قَالَ: رَاَيتُهُ اَحسَنَهُمْ نَادِرَةً وَاَسبَقَهُمْ بَادِرَةً وَاَنَّهُ لَمْ يَقُلْ لِرَغبَةٍ وَلَا لِرَهبَةٍ (وَقَدْ قَالَ العُلَمَاءُ بِالشِّعرِ) اِنَّ امرَأَ القَيسِ لَمْ يَتَقَدَّمِ الشُّعَرَاءَ لِاَنَّهُ قَالَ مَا لَمْ يَقُولُوا وَلٰكِنَّهُ سَبَقَ اِلَى اَشيَاءَ فَاستَحسَنَهَا الشُّعَرَاءُ وَاتَّبَعُوهُ فِيهَا لِاَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ لَطَّفَ المَعَانِيَ وَمَنِ استَوقَفَ عَلَى الطُّلُولِ وَوَصَفَ النِّسَاءَ بِالظِّبَاءِ وَالمَهَى وَالبِيضِ وَشَبَّهَ الخَيلَ بِالعِقْبَانِ وَالعِصِيِّ وَفَرَّقَ بَيْنَ النَّسِيبِ وَمَا سِوَاهُ مِنَ القَصِيدَةِ وَقَرَّبَ مَأخَذَ الكَلَامِ فَقَيَّدَ الاَوَابِدَ وَاَجَادَ الاِستِعَارَةَ وَالتَّشبِيهَ وَحَكَى مُحَمَّدُ بنُ سَلَامٍ الجُمَحِيُّ : اِنَّ سَائِلًا سَأَلَ الفَرَزدَقَ مَنْ اَشعَرُ النَّاسِ فَقَالَ ذُو القُرُوحِ (وَسُئِلَ لَبِيدٌ) : مَنْ اَشعَرُ النَّاسِ فَقَالَ المَلِكُ الضِّلِّيلُ قِيلَ ثُمَّ مَنْ قَالَ: الشَّابُّ القَتِيلُ قِيلَ : ثُمَّ مَنْ قَالَ: الشَّيخُ اَبُو عَقِيلٍ يَعنِي نَفسَهُ . وَكَانَ الحُذَّاقُ يَقُولُونَ : الفُحُولُ فِي الجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ

مُتَشَابِهُونَ زُهَيْرٌ وَٱلْفَرَزْدَقُ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَخْطَلُ وَٱلْأَعْشَى وَجَرِيرٌ
وَكَانَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ يَقُولُ: أَجْمَعُهُمُ ٱلْأَعْشَى. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو ابْنُ
ٱلْعَلَاءِ: مَثَلُهُ مَثَلُ ٱلْبَازِي يَضْرِبُ كَبِيرَ ٱلطَّيْرِ وَصَغِيرَهُ. وَكَانَ أَبُو
ٱلْخَطَّابِ ٱلْأَخْفَشُ يُقَدِّمُهُ جِدًّا لَا يُقَدِّمُ عَلَيْهِ أَحَدًا. وَحَكَى
ٱلْأَصْمَعِيُّ عَنِ ٱبْنِ أَبِي طَرَفَةَ: كَفَاكَ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ أَرْبَعَةٌ زُهَيْرٌ
إِذَا رَغِبَ وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا طَرِبَ وَعَنْتَرَةُ إِذَا
كَلِبَ وَزَادَ قَوْمٌ: وَجَرِيرٌ إِذَا غَضِبَ. وَقِيلَ لِكُثَيِّرٍ أَوْ لِنَصِيبٍ
مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ: ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ إِذَا رَكِبَ وَزُهَيْرٌ إِذَا رَغِبَ
وَٱلنَّابِغَةُ إِذَا رَهِبَ وَٱلْأَعْشَى إِذَا شَرِبَ. وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يُقَدِّمُ
ٱلنَّابِغَةَ وَيَقُولُ هُوَ أَحْسَنُهُمْ شِعْرًا وَأَعْذَبُهُمْ بَحْرًا وَأَبْعَدُهُمْ قَعْرًا.
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي ٱلْخَطَّابِ فِي كِتَابِهِ ٱلْمَوْسُومِ بِجَمْهَرَةِ أَشْعَارِ
ٱلْعَرَبِ إِنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَالَ: أَصْحَابُ ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ ٱمْرُؤُ
ٱلْقَيْسِ وَزُهَيْرٌ وَٱلنَّابِغَةُ وَٱلْأَعْشَى وَلَبِيدٌ وَعَمْرٌو وَطَرَفَةُ. (قَالَ)
وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ فِي ٱلسَّبْعِ ٱلَّتِي تُسَمَّى ٱلسُّمْطَ لِأَحَدٍ
غَيْرِ هٰؤُلَاءِ فَقَدْ أَبْطَلَ وَأَسْقَطَا مِنْ أَصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ عَنْتَرَةَ
وَٱلْحَرْثَ بْنَ حِلِزَّةَ وَأَثْبَتَا ٱلْأَعْشَى وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَتِ ٱلْمُعَلَّقَاتُ تُسَمَّى
ٱلْمُذَهَّبَاتِ وَذٰلِكَ أَنَّهَا ٱخْتِيرَتْ مِنْ سَائِرِ ٱلشِّعْرِ فَكُتِبَتْ فِي
ٱلْقَبَاطِيِّ بِمَاءِ ٱلذَّهَبِ وَعُلِّقَتْ عَلَى ٱلْكَعْبَةِ فَلِذٰلِكَ يُقَالُ مُذَهَّبَةُ
فُلَانٍ إِذَا كَانَتْ أَجْوَدَ شِعْرِهِ. ذَكَرَ ذٰلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ
وَقِيلَ بَلْ كَانَ ٱلْمَلِكُ إِذَا ٱسْتُجِيدَتْ قَصِيدَةٌ يَقُولُ: عَلِّقُوا لَنَا هٰذِهِ

لِتَكُونَ فِي خِزَانَتِهِ (وَقَالَ ٱلْجُمَحِيُّ) سَأَلَ عِكْرِمَةُ بْنُ جَرِيرٍ أَبَاهُ جَرِيرًا. مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ قَالَ: أَعَنِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ تَسْأَلُنِي أَمِ ٱلْإِسْلَامِ. قَالَ: مَا أَرَدتُّ إِلَّا ٱلْإِسْلَامَ فَإِذْ ذَكَرْتَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَهْلِهَا قَالَ: زُهَيْرٌ شَاعِرُهُمْ (قَالَ) قُلْتُ: فَٱلْإِسْلَامُ قَالَ: ٱلْفَرَزْدَقُ نَبْعَةُ ٱلشِّعْرِ قُلْتُ: وَٱلْأَخْطَلُ قَالَ: يُجِيدُ مَدْحَ ٱلْمُلُوكِ وَيُصِيبُ صِفَةَ ٱلْخَمْرِ قُلْتُ: فَمَا تَرَكْتَ لِنَفْسِكَ قَالَ: دَعْنِي فَإِنِّي نَحَرْتُ ٱلشِّعْرَ نَحْرًا (وَسُئِلَ) ٱلْفَرَزْدَقُ مَرَّةً: مَنْ أَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ لَهُ: بِمَاذَا. قَالَ: بِقَوْلِهِ:

ثَوَى فِي مُلْحَدٍ لَا بُدَّ مِنْهُ ... كَفَى بِٱلْمَوْتِ نَأْيًا وَٱغْتِرَابَا

ثُمَّ سُئِلَ جَرِيرٌ فَقَالَ: بِشْرُ بْنُ أَبِي خَازِمٍ. قِيلَ: لَهُ بِمَاذَا قَالَ بِقَوْلِهِ:

رَهِينُ بِلًى وَكُلُّ فَتًى سَيَبْلَى ... فَشُقِّي ٱلْجَيْبَ وَٱنْتَحِبِي ٱنْتِحَابَا

فَٱتَّفَقَا عَلَى بِشْرِ بْنِ أَبِي خَازِمٍ كَمَا تَرَى (وَكَتَبَ) ٱلْحَجَّاجُ بْنُ يُوسُفَ إِلَى قُتَيْبَةَ بْنِ مُسْلِمٍ يَسْأَلُهُ عَنْ أَشْعَرِ ٱلشُّعَرَاءِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَأَشْعَرِ شُعَرَاءِ وَقْتِهِ فَقَالَ: أَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَأَضْرَبُهُمْ مَثَلًا طَرَفَةُ. وَأَمَّا شُعَرَاءُ ٱلْوَقْتِ فَٱلْفَرَزْدَقُ أَفْخَرُهُمْ وَجَرِيرٌ أَهْجَاهُمْ وَٱلْأَخْطَلُ أَوْصَفُهُمْ (وَأَمَّا ٱلْحُطَيْئَةُ) فَسُئِلَ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ أَبُو دُؤَادٍ حَيْثُ يَقُولُ:

لَا أَعُدُّ ٱلْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلٰكِنْ ... فَقْدُ مَنْ قَدْ رُزِئْتُهُ ٱلْإِعْدَامُ

وَهُوَ كَانَ فَحْلًا قَدِيمًا وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ يَتَوَكَّأُ عَلَيْهِ

وَيَرْوِي شِعْرَهُ فَلَمْ يَقُلْ فِيهِ اَحَدٌ مِنَ ٱلنُّقَّادِ مَقَالَةَ ٱلْحُطَيْئَةِ (وَسَأَلَهُ ٱبْنُ عَبَّاسٍ مَرَّةً اُخْرَى) فَقَالَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَمَنْ يَجْعَلِ ٱلْمَعْرُوفَ مِنْ دُونِ عِرْضِهِ
يَفِرْهُ وَمَنْ لَا يَتَّقِ ٱلشَّتْمَ يُشْتَمِ

وَلَيْسَ ٱلَّذِي يَقُولُ :

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ اَخًا لَا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ اَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ

وَلٰكِنِ ٱلضَّرَاعَةُ اَفْسَدَتْهُ كَمَا اَفْسَدَتْ جَرْوَلًا وَٱللّٰهِ لَوْلَا وَلَوْلَا لَكُنْتُ اَشْعَرَ ٱلْمَاضِينَ . وَاَمَّا ٱلْبَاقُونَ فَلَا اَشُكُّ اَنِّي اَشْعَرُهُمْ (وَزَعَمَ) ٱبْنُ اَبِي ٱلْخَطَّابِ اَنَّ اَبَا عَمْرٍو يَقُولُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ : اَرْبَعَةٌ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَٱلنَّابِغَةُ وَطَرَفَةُ وَمُهَلْهِلٌ وَقَالَ ٱلْمُفَضَّلُ : سُئِلَ ٱلْفَرَزْدَقُ فَقَالَ : ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ جَرِيرٌ : ٱلنَّابِغَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْاَخْطَلُ : ٱلْاَعْشَى اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱبْنُ اَحْمَرَ : زُهَيْرٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ذُو ٱلرُّمَّةِ : لَبِيدٌ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ نَضْرُ بْنُ شُمَيْلٍ : طَرَفَةُ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَقَالَ ٱلْكُمَيْتُ : عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اَشْعَرُ ٱلنَّاسِ وَهٰذَا يَدُلُّكَ عَلَى ٱخْتِلَافِ ٱلْاَهْوَاءِ وَقِلَّةِ ٱلِٱتِّفَاقِ . وَكَانَ ٱبْنُ اَبِي اِسْحَاقَ وَهُوَ عَالِمٌ نَاقِدٌ وَمُقَدَّمٌ مَشْهُورٌ يَقُولُ : اَشْعَرُ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلْمُرَقِّشُ ٱلْاَكْبَرُ وَاَشْعَرُ ٱلْاِسْلَامِيِّينَ كُثَيِّرٌ وَهٰذَا غُلُوٌّ مُفْرِطٌ غَيْرَ اَنَّهُمْ مُجْمِعُونَ عَلَى اَنَّهُ اَوَّلُ مَنْ اَطَالَ ٱلْمَدْحَ (وَقِيلَ) لِنُصَيْبٍ مَرَّةً : مَنْ اَشْعَرُ ٱلْعَرَبِ فَقَالَ : اَخُو تَمِيمٍ يَعْنِي عَلْقَمَةَ بْنَ عَبْدَةَ وَقِيلَ اَوْسَ بْنَ حَجَرٍ . وَلَيْسَ لِاَحَدٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ بَعْدَ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ مَا

لِزُهَيْرٍ وَٱلنَّابِغَةِ وَٱلْأَعْشَى فِي ٱلنُّفُوسِ. وعُلَمَاءُ ٱلْبَصْرَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ وَأَهْلُ ٱلْكُوفَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ ٱلْأَعْشَى وَأَهْلُ ٱلْحِجَازِ وَٱلْبَادِيَةِ كَانُوا يُقَدِّمُونَ زُهَيْرًا وَٱلنَّابِغَةَ وَكَانَ أَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ لَا يَعْدِلُونَ بِٱلنَّابِغَةِ أَحَدًا كَمَا أَنَّ أَهْلَ ٱلْحِجَازِ لَا يَعْدِلُونَ بِزُهَيْرٍ أَحَدًا. قَالَ ٱبْنُ سَلَامٍ: قَالَ أَهْلُ ٱلنَّظَرِ كَانَ زُهَيْرٌ أَحْصَفَهُمْ شِعْرًا وَأَبْعَدَهُمْ مِنْ سُخْفٍ وَأَجْمَعَهُمْ لِكَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَعَانِي فِي قَلِيلٍ مِنَ ٱلْمَنْطِقِ. وَأَمَّا ٱلنَّابِغَةُ فَقَالَ مَنْ يَحْتَجُّ لَهُ كَانَ أَحْسَنَهُمْ دِيبَاجَةَ شِعْرٍ وَأَكْثَرَهُمْ رَوْنَقَ كَلَامٍ وَأَجْزَلَهُمْ بَيْتًا كَأَنَّ شِعْرَهُ كَلَامٌ لَيْسَ فِيهِ تَكَلُّفٌ. وَزَعَمَ أَصْحَابُ ٱلْأَعْشَى أَنَّهُ أَكْثَرُهُمْ عَرُوضًا وَأَذْهَبُهُمْ فِي فُنُونِ ٱلشِّعْرِ وَأَكْثَرُهُمْ طَوِيلَةً جَيِّدَةً وَمَدْحًا وَهِجَاءً وَفَخْرًا وَصِفَةً (وَقَالَ بَعْضُ مُتَقَدِّمِي ٱلْعُلَمَاءِ) ٱلْأَعْشَى أَشْعَرُ ٱلْأَرْبَعَةِ قِيلَ لَهُ: فَأَيْنَ ٱلْخَبَرُ عَنِ ٱلنَّبِيِّ إِنَّ ٱمْرَأَ ٱلْقَيْسِ بِيَدِهِ لِوَاءُ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ: بِهٰذَا ٱلْخَبَرِ صَحَّ لِلْأَعْشَى مَا قُلْتُ وَذٰلِكَ أَنَّهُ مَا مِنْ حَامِلِ لِوَاءٍ إِلَّا عَلَى رَأْسِ أَمِيرٍ فَٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ حَامِلُ ٱللِّوَاءِ وَٱلْأَعْشَى ٱلْأَمِيرُ (وَسُئِلَ) حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ: أَرَجُلًا أَمْ حَيًّا قِيلَ بَلْ حَيًّا قَالَ: أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ حَيًّا هُذَيْلٌ. قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَلَامٍ ٱلْجُمَحِيُّ وَأَشْعَرُ هُذَيْلٍ أَبُو ذُؤَيْبٍ غَيْرَ مُدَافَعٍ (وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: أَفْصَحُ ٱلشُّعَرَاءِ أَلْسُنًا وَأَعْرَبُهُمْ أَهْلُ ٱلسَّرَوَاتِ وَهُنَّ ثَلَاثٌ وَهِيَ ٱلْجِبَالُ ٱلْمُطِلَّةُ عَلَى تِهَامَةَ مِمَّا يَلِي ٱلْيَمَنَ فَأَوَّلُهَا هُذَيْلٌ وَهِيَ تَلِي ٱلرَّمْلَ مِنْ تِهَامَةَ ثُمَّ عِلْيَةُ ٱلسَّرَاةِ

ٱلْوُسطَى وَقدْ شَرِكَتْهُمْ ثَقِيفٌ فِي نَاحِيَةٍ مِنهَا . ثُمَّ سَرَاةُ ٱلأَزْدِ أَزْدِشَنُوءَةَ وَهُمْ بَنُو ٱلْحَرِثِ بْنِ كَعْبِ بْنِ ٱلْحَرِثِ بْنِ نَصْرِ بْنِ ٱلأَزْدِ وَقَالَ أَبُو عَمْرٍو أَيضًا : أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ عُلْيَا تَمِيمٍ وَسُفْلَى قَيْسٍ وَقَالَ أَبُو زَيدٍ) أَفْصَحُ ٱلنَّاسِ سَافِلَةُ ٱلْعَالِيَةِ وَعَالِيَةُ ٱلسَّافِلَةِ يَعْنِي هَوَازِنَ وَأَهْلُ ٱلْعَالِيَةِ أَهْلُ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَمَنْ يَلِيهَا وَدَنَا مِنهَا وَلُغَتُهُمْ لَيْسَتْ بِتِلْكَ عِنْدَهُ . وَقَوْمٌ يَرَوْنَ تَقْدِمَةَ ٱلشِّعْرِ لِلْيَمَنِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ بِأَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ وَفِي ٱلْإِسْلَامِ بِحَسَّانَ بْنِ ثَابِتٍ وَفِي ٱلْمُوَلَّدِينَ بِٱلْحَسَنِ بْنِ هَانِئٍ وَأَصْحَابِهِ . وَأَشْعَرُ أَهْلِ ٱلْمَدَرِ بِإِجْمَاعٍ مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱتِّفَاقٍ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ . وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ : خُتِمَ ٱلشِّعْرُ بِذِي ٱلرُّمَّةِ وَٱلرَّجَزُ بِرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ . وَزَعَمَ يُونُسُ : أَنَّ ٱلْعَجَّاجَ لَيْسَ فِي شِعْرِهِ شَيْءٌ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَقُولَ : لَوْ كَانَ مَكَانَهُ غَيْرُهُ لَكَانَ أَجْوَدَ (وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ) إِنَّمَا كَانَ ٱلشَّاعِرُ يَقُولُ مِنَ ٱلرَّجَزِ ٱلْبَيْتَيْنِ وَٱلثَّلَاثَةَ وَنَحْوَ ذَلِكَ إِذَا حَارَبَ أَوْ شَاتَمَ أَوْ فَاخَرَ حَتَّى كَانَ ٱلْعَجَّاجُ أَوَّلَ مَنْ أَطَالَهُ وَقَصَّدَهُ وَشَبَّبَ فِيهِ وَذَكَرَ ٱلدِّيَارَ وَٱسْتَوْقَفَ ٱلرِّكَابَ عَلَيْهَا وَٱسْتَوْصَفَ مَا فِيهَا وَبَكَى عَلَى ٱلشَّبَابِ وَوَصَفَ ٱلرَّاحِلَةَ كَمَا فَعَلَتِ ٱلشُّعَرَاءُ بِٱلْقَصِيدِ فَكَانَ فِي ٱلرُّجَّازِ كَأَمْرِئِ ٱلْقَيْسِ فِي ٱلشُّعَرَاءِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : أَوَّلُ مَنْ طَوَّلَ شِعْرَ ٱلرَّجَزِ ٱلْأَغْلَبُ ٱلْعِجْلِيُّ وَهُوَ قَدِيمٌ . وَزَعَمَ ٱلْجُمَحِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ رَجَزَ . وَقَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ : وَلَا أَظُنُّ ذَلِكَ صَحِيحًا لَهُ لِأَنَّهُ إِنَّمَا كَانَ عَلَى عَهْدِ ٱلنَّبِيِّ وَنَحْنُ نَجِدُ ٱلرَّجَزَ أَقْدَمَ مِنْ ذَلِكَ .

وَكَانَ أَبُو عُبَيْدَةَ يَقُولُ: افْتُتِحَ الشِّعْرُ بِامْرِئِ الْقَيْسِ وَخُتِمَ بِابْنِ هَرْمَةَ وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: الشُّعَرَاءُ ثَلَاثَةٌ جَاهِلِيٌّ وَإِسْلَامِيٌّ وَمُوَلَّدٌ فَالْجَاهِلِيُّ امْرُؤُ الْقَيْسِ وَالْإِسْلَامِيُّ ذُو الرُّمَّةِ وَالْمُوَلَّدُ ابْنُ الْمُعْتَزِّ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُفَضِّلُ الْبَدِيعَ وَخَاصَّةً التَّشْبِيهَ عَلَى جَمِيعِ فُنُونِ الشِّعْرِ. وَطَائِفَةٌ أُخْرَى تَقُولُ بَلِ الثَّلَاثَةُ الْأَعْشَى وَالْأَخْطَلُ وَأَبُو نُوَاسٍ وَهٰذَا مَذْهَبُ أَصْحَابِ الْخَمْرِ وَمَا نَاسَبَهَا وَمَنْ يَقُولُ بِالتَّصَرُّفِ وَقِلَّةِ التَّكَلُّفِ. وَقَالَ قَوْمٌ بَلِ الثَّلَاثَةُ مُهَلْهِلٌ وَابْنُ أَبِي رَبِيعَةَ وَعَبَّاسُ بْنُ الْأَحْنَفِ وَهٰذَا قَوْلُ مَنْ يُؤْثِرُ الْأَنَفَةَ وَسُهُولَةَ الْكَلَامِ وَالْقُدْرَةَ عَلَى الصَّنْعَةِ وَالتَّجْوِيدَ فِي فَنٍّ وَاحِدٍ وَلَيْسَ فِي الْمُوَلَّدِينَ أَشْهَرُ اسْمًا مِنَ الْحَسَنِ ثُمَّ حَبِيبٍ وَالْبُحْتُرِيِّ. وَيُقَالُ إِنَّهُمَا أَخْمَلَا فِي زَمَانِهِمَا خَمْسَمِائَةِ شَاعِرٍ كُلُّهُمْ مُجِيدٌ ثُمَّ تَبِعَهُمَا فِي الْاشْتِهَارِ ابْنُ الرُّومِيِّ وَابْنُ الْمُعْتَزِّ وَطَارَ اسْمُ ابْنِ الْمُعْتَزِّ حَتَّى صَارَ كَالْحَسَنِ فِي الْمُوَلَّدِينَ وَامْرِئِ الْقَيْسِ فِي الْقُدَمَاءِ. ثُمَّ جَاءَ الْمُتَنَبِّي فَمَلَأَ الدُّنْيَا وَهٰذَا كُلُّهُ كَلَامُ ابْنِ رَشِيقٍ

قَالَ صَاحِبُ الْأَغَانِي:

وَمِمَّنْ صَنَعَ مِنْ أَوْلَادِ الْخُلَفَاءِ فَأَجَادَ وَأَحْسَنَ وَبَرَعَ وَتَقَدَّمَ أَهْلَ عَصْرِهِ فَضْلًا وَشَرَفًا وَأَدَبًا وَشِعْرًا وَظَرْفًا وَتَصَرُّفًا فِي سَائِرِ الْآدَابِ أَبُو الْعَبَّاسِ عَبْدُ اللهِ بْنُ الْمُعْتَزِّ بِاللهِ وَأَمْرُهُ مَعَ قُرْبِ عَصْرِنَا هٰذَا مَشْهُورٌ فِي فَضَائِلِهِ وَآدَابِهِ. وَشِعْرُهُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ رِقَّةُ الْمُلُوكِيَّةِ وَغَزَلُ الظُّرَفَاءِ وَهَلْهَلَةُ الْمُحْدَثِينَ

فَإِنَّ فِيهِ أَشْيَاءَ كَثِيرَةً تَجْرِي فِي أُسْلُوبِ ٱلْمُجِيدِينَ وَلَا تُقَصِّرُ عَنْ مَدَى ٱلسَّابِقِينَ وَأَشْيَاءَ ظَرِيفَةً مِنْ أَشْعَارِ ٱلْمُلُوكِ فِي جِنْسِ مَا هُمْ بِسَبِيلِهِ لَيْسَ عَلَيْهِ أَنْ يَتَشَبَّهَ فِيهَا بِفُحُولِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ. فَلَيْسَ يُمْكِنُ وَاصِفًا لِصَبُوحٍ فِي مَجْلِسٍ شَكْلٍ ظَرِيفٍ بَيْنَ نُدَامَى وَقِيَانٍ وَعَلَى مَيَادِينَ مِنَ ٱلنَّوْرِ وَٱلْبَنَفْسَجِ وَٱلنَّرْجِسِ وَمَنْضُودٍ مِنْ أَمْثَالِ ذٰلِكَ إِلَى غَيْرِ مَا ذَكَرْتُهُ مِنْ جِنْسِ ٱلْمَجَالِسِ وَفَاخِرِ ٱلْفَرْشِ وَمُخْتَارِ ٱلْآلَاتِ وَرِقَّةِ ٱلْخَدَمِ أَنْ يَعْدِلَ بِذٰلِكَ عَمَّا يُشْبِهُهُ مِنَ ٱلْكَلَامِ ٱلسَّبْطِ ٱلرَّقِيقِ ٱلَّذِي يَفْهَمُهُ كُلُّ مَنْ حَضَرَ إِلَى جَعْدِ ٱلْكَلَامِ وَوَحْشِيِّهِ وَإِلَى وَصْفِ ٱلْبِيدِ وَٱلْمَهَامِهِ وَٱلظِّبَاءِ وَٱلظَّلِيمِ وَٱلنَّاقَةِ وَٱلْجَمَلِ وَٱلدِّيَارِ وَٱلْقِفَارِ وَٱلْمَنَازِلِ ٱلْخَالِيَةِ ٱلْمَهْجُورَةِ وَلَا إِذَا عَدَلَ عَنْ ذٰلِكَ وَأَحْسَنَ قِيلَ لَهُ مُسِيءٌ وَلَا أَنْ يُغْمَطَ حَقُّهُ كُلُّهُ إِذَا أَحْسَنَ ٱلْكَثِيرَ وَتَوَسَّطَ فِي ٱلْبَعْضِ وَقَصَّرَ فِي ٱلْيَسِيرِ وَيُنْسَبَ إِلَى ٱلتَّقْصِيرِ فِي ٱلْجَمِيعِ لِنَشْرِ ٱلْمَقَابِحِ وَطَيِّ ٱلْمَحَاسِنِ. فَلَوْ شَاءَ أَنْ يَفْعَلَ هٰذَا كُلُّ أَحَدٍ بِمَنْ تَقَدَّمَ لَوَجَدَ مَسَاغًا وَلَوْ أَنَّ قَائِلًا أَرَادَ ٱلطَّعْنَ عَلَى صُدُورِ ٱلشُّعَرَاءِ لَقَدَرَ أَيْ أَنْ يَطْعَنَ عَلَى ٱلْأَعْشَى وَهُوَ أَحَدُ مَنْ يُقَدِّمُهُ ٱلْأَوَائِلُ عَلَى سَائِرِ ٱلشُّعَرَاءِ بِقَوْلِهِ :

فَأَصَابَ حَبَّةَ قَلْبِهِ وَطِحَالَهَا

وَبِقَوْلِهِ :

وَقَدْ كَانَ إِنْ يَأْمُرْهُمْ كُلَّ لَيْلَةٍ   بِقَتٍّ وَتَعْلِيقٍ فَقَدْ كَادَ يَسْنَقُ

وَأَمْثَالُ هٰذَا كَثِيرَةٌ. وَإِنَّمَا عَلَى ٱلْإِنْسَانِ أَنْ يَحْفَظَ مِنْ

الشيء احسنه ويلغي ما لا يستحسنه فليس مأخوذا به ولكن اقواما ارادوا ان يرفعوا انفسهم الوضيعة ويشيدوا بذكرهم الخامل ويعلوا اقدارهم الساقطة بالطعن على اهل الفضل والقدح فيهم فلا يزدادون بذلك الا ضعة ولا يزداد الآخر الا ارتفاعا. الا ترى الى ابن المعتز قد قتل اسوأ قتلة ودرج فلم يبق له خلف يقرظه ولا عقب يرفع منه وما يزداد بادبه وشعره وفضله وحسن اخباره وتصرفه في كل فن من العلوم الا رفعة وعلوا ولا نظر الى اضداده كلما ازدادوا في طعنه وتقريظ انفسهم. واسلافهم الذين كانوا مثلهم في ثلبه والطعن عليه زادوها سقوطا وضعة وكلما وصفوا اشعارهم وقرظوا آدابهم زادوا بها ثقلا ومقتا فاذا وقع عليهم المحصل الموافق عدلوا عن ثلبه في الآداب الى التشنيع بامر الدين وهجاء آل ابي طالب وهم اول من فعل ذلك وشنع به على آل ابي طالب عند المكتفي حتى نهاهم عنه فعدلوا عن عيب انفسهم بذلك الى عيبه وارتكبوا اكثر منه. وكان عبد الله حسن العلم بصناعة الموسيقى والكلام على النغم وعللها وله في ذلك وفي غيره من الآداب كتب مشهورة ومراسلات جرت بينه وبين عبيد الله بن عبد الله بن طاهر وبين بني حمدون وغيرهم تدل على فضله وغزارة علمه وادبه ولقد قرأت بخط عبيد الله بن طاهر رقعة اليه بخطه وقد بعث اليه برسالة الى ابن حمدون في انه يجوز ولا ينكر ان يغير الانسان بعض نغم الغناء

ٱلْقَدِيمِ وَيَعْدِلَ بِهَا إِلَى مَا يَحْسُنُ فِي خُلُقِهِ وَمَذْهَبِهِ وَهِيَ رِسَالَةٌ طَوِيلَةٌ لَيْسَ هٰذَا مَوْضِعُ ذِكْرِهَا

البحث الثاني

في المقلّين من الشعراء

(من الكتاب نفسه)

ثُمَّ قَالَ: وَلَمَّا كَانَ ٱلْمَشَاهِيرُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ كَمَا قَدَّمْتُ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يُحْصَوْا ذَكَرْتُ مِنَ ٱلْمُقِلِّينَ مَنْ وَسِعَ ذِكْرُهُ فِي هٰذَا ٱلْمَوْضِعِ فَمِنْهُمْ طَرَفَةُ بْنُ ٱلْعَبْدِ وَعُبَيْدُ بْنُ ٱلْأَبْرَصِ وَعَلْقَمَةُ ٱلْفَحْلُ وَعَدِيُّ ٱبْنُ زَيْدٍ. وَطَرَفَةُ فَضَلَ ٱلنَّاسَ بِوَاحِدَةٍ عِنْدَ ٱلْعُلَمَاءِ وَهِيَ ٱلْمُعَلَّقَةُ:

لِخَوْلَةَ أَطْلَالٌ بِبُرْقَةِ ثَهْمَدِ

وَلَهُ سِوَاهَا يَسِيرٌ لِأَنَّهُ قُتِلَ صَغِيرًا حَوْلَ ٱلْعِشْرِينَ فِيمَا رُوِيَ وَأَصَحُّ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ أُخْتِهِ تَرْثِيهِ:

عَدَدْنَا لَهُ سِتًّا وَعِشْرِينَ حِجَّةً ... فَلَمَّا تَوَفَّاهَا ٱسْتَوَى سَيِّدًا ضَخْمَا

فُجِعْنَا بِهِ لَمَّا رَجَوْنَا إِيَابَهُ ... عَلَى خَيْرِ حَالٍ لَا وَلِيدًا وَلَا قَحْمَا

أَنْشَدَهُ ٱلْمُبَرِّدُ وَٱلْقَحْمُ ٱلْمُتَنَاهِي فِي ٱلسِّنِّ. وَعُبَيْدٌ قَلِيلُ ٱلشِّعْرِ فِي أَيْدِي ٱلنَّاسِ عَلَى قِدَمِ ذِكْرِهِ وَعِظَمِ شُهْرَتِهِ وَطُولِ عُمْرِهِ يُقَالُ إِنَّهُ عَاشَ ثَلَاثَمِائَةِ سَنَةٍ وَكَذٰلِكَ أَبُو دُؤَادٍ. وَلِعَلْقَمَةَ ٱلْفَحْلِ ثَلَاثُ قَصَائِدَ مَشْهُورَاتٌ إِحْدَاهَا قَوْلُهُ:

(ذَهَبْتَ مِنَ ٱلْهِجْرَانِ فِي كُلِّ مَذْهَبِ) وَٱلثَّانِيَةُ قَوْلُهُ (طَحَا بِكَ قَلْبٌ

فِي ٱلْحِسَانِ طَرُوبُ) وَٱلثَّالِثَةُ قَوْلُهُ (هَلْ مَا عَلِمْتَ وَمَا ٱسْتُودِعْتَ مَكْتُومُ)

وَامَّا عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ فَمَشْهُورَاتُهُ ارْبَعٌ قَوْلُهُ: (ارَوَاحٌ مُوَدِّعٌ امْ بُكُورُ) وَقَوْلُهُ (اَتَعْرِفُ رَسْمَ ٱلدَّارِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ) وَقَوْلُهُ (لَيْسَ شَيْءٌ عَلَى ٱلْمَنُونِ بِبَاقِ) وَقَوْلُهُ:

لَمْ ارَ مِثْلَ ٱلْفِتْيَانِ فِي غَيْرِ ٱلْاَ م يَّامِ يَنْسَوْنَ مَا عَوَاقِبُهَا

وَقَالَ ابُو عَمْرٍو: عَدِيٌّ فِي ٱلشُّعَرَاءِ مِثْلُ سُهَيْلٍ فِي ٱلنُّجُومِ يُعَارِضُهَا وَلَا يَجْرِي مَعَهَا. هؤُلَاءِ اشْعَارُهُمْ كَثِيرَةٌ فِي ذَاتِهَا قَلِيلَةٌ فِي ايْدِي ٱلنَّاسِ ذَهَبَتْ بِذَهَابِ ٱلرُّوَاةِ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَهَا. وَمِنَ ٱلْمُقِلِّينَ سَلَامَةُ بْنُ جَنْدَلٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ وَٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ كُلُّ اشْعَارِهِمْ قَلِيلٌ فِي ذَاتِهِ جَيِّدُ ٱلْجُمْلَةِ. وَيُرْوَى عَنْ ابِي عُبَيْدَةَ انَّهُ قَالَ: اتَّفَقُوا انَّ اشْعَرَ ٱلْمُقِلِّينَ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ ثَلَاثَةٌ ٱلْمُتَلَمِّسُ وَٱلْمُسَيَّبُ بْنُ عَلَسٍ وَحُصَيْنُ بْنُ ٱلْحُمَامِ ٱلْمُرِّيُّ. وَامَّا اصْحَابُ ٱلْوَاحِدَةِ فَطَرَفَةُ اوَّلُهُمْ وَمِنْهُمْ عَنْتَرَةُ وَٱلْحَرِثُ ابْنُ حِلِّزَةَ وَعَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ اصْحَابُ ٱلْمُعَلَّقَاتِ ٱلْمَشْهُورَاتِ وَعَمْرُو بْنُ مَعْدِي كَرِبَ وَٱلْاَشْعَرُ بْنُ حُمْرَانَ ٱلْجُعْفِيُّ وَسُوَيْدُ بْنُ ابِي كَاهِلٍ وَٱلْاَسْوَدُ بْنُ يَعْفُرَ وَكَانَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ مُقِلًّا كَثِيرَ ٱلْمَعَانِي وَٱلتَّصَرُّفِ لَا يَصِحُّ لَهُ اِلَّا نَيِّفٌ وَعِشْرُونَ شِعْرًا بَيْنَ طَوِيلٍ وَقِطْعَةٍ



البحث الثالث

في المغلَّبين من الشعراء

(من الكتاب نفسهِ)

وَامَّا ٱلْمُغَلَّبُونَ فَمِنْهُمْ نَابِغَةُ بْنُ جَعْدَةَ وَمَعْنَى ٱلْمُغَلَّبِ ٱلَّذِي لَا زَالَ مَغْلُوبًا قَالَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ:

فَإِنَّكَ لَمْ يَفْخَرْ عَلَيْكَ كَفَاخِرٍ ... ضَعِيفٍ وَلَمْ يَغْلِبْكَ مِثْلُ مُغَلَّبِ

يَعْنِي اِذَا فَدَرَ لَمْ يُبْقِ وَقَدْ غَلَبَ عَلَى ٱلْجَعْدِيِّ اوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ وَلَيْلَى ٱلْاَخْيَلِيَّةُ وَغَيْرُهُمَا. وَقِيلَ اِنَّ مَوْتَ ٱلْجَعْدِيِّ كَانَ بِسَبَبِ لَيْلَى ٱلْاَخْيَلِيَّةِ فَرَّ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهَا فَمَاتَ فِي ٱلطَّرِيقِ مُسَافِرًا. وَٱلْمُغَلَّبُونَ ٱلزِّبْرِقَانُ غَلَبَهُ عَمْرُو بْنُ ٱلْاَهْتَمِ وَغَلَبَهُ ٱلْمُخَبَّلُ ٱلسَّعْدِيُّ وَغَلَبَهُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَقَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ كَانَ ٱلْبَعِيثُ مُغَلَّبًا فِي ٱلْخُطَبِ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ فِي ٱلْعُمْدَةِ فِي بَابِ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ: كُلُّ قَدِيمٍ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَهُوَ مُحْدَثٌ فِي زَمَانِهِ بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى مَنْ كَانَ قَبْلَهُ وَكَانَ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ يَقُولُ لَقَدْ حَسُنَ هٰذَا ٱلْمُوَلَّدُ حَتَّى هَمَمْتُ اَنْ آمُرَ صِبْيَانَنَا بِرِوَايَتِهِ يَعْنِي بِذٰلِكَ شِعْرَ جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ فَجَعَلَهُ مُوَلَّدًا بِٱلْاِضَافَةِ اِلَى شِعْرِ ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْمُخَضْرَمِينَ وَكَانَ لَا يَعُدُّ ٱلشِّعْرَ اِلَّا مَا كَانَ لِلْمُتَقَدِّمِينَ قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ: جَلَسْتُ اِلَيْهِ عَشْرَ حِجَجٍ فَمَا سَمِعْتُهُ يَحْتَجُّ بِبَيْتٍ اِسْلَامِيٍّ وَسُئِلَ عَنِ ٱلْمُوَلَّدِينَ فَقَالَ: مَا كَانَ مِنْ حَسَنٍ فَقَدْ سُبِقُوا اِلَيْهِ وَمَا كَانَ مِنْ

قبيح. فهو من عندهم ليس النمط واحداً. هذا مذهب ابي عمرو واصحابه كالاصمعي وابن الاعرابي اعني ان كل واحد منهم يذهب في اهل عصره هذا المذهب ويقدم من قبلهم وليس ذلك لشيء الا لحاجتهم في الشعر الى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتي به المولدون فاما ابن قتيبة فقال: لم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص قوماً دون قوم. بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر وجعل كل قديم حديثاً في عصره . ثم قال ابن رشيق في باب آخر: طبقات الشعراء اربع جاهلي قديم ومخضرم وهو الذي ادرك الجاهلية والاسلامي ومحدث ثم صار المحدثون طبقات اولى وثانية على التدريج هكذا في الهبوط الى وقتنا هذا فليعلم المتأخر مقدار ما بقي له من الشعر متصفحاً اشعار من قبله لينظر كم بين المخضرم والجاهلي وبين الاسلامي والمخضرم وان للمحدث الاول فضلاً عمن بعده في المنزلة. ففي الجاهلية والاسلاميين من ذهب بكل ملاحة ورشاقة وسبق الى كل طلاوة ولباقة (قال) ابو الحسن الاخفش: يقال ماء خضرم اذا تناهى في الكثرة والسعة فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والاسلام مخضرماً كأنه استوفى الامرين (قال) ويقال: اذن مخضرمة اذا كانت مقطوعة فكأنه انقطع عن الجاهلية الى الاسلام. (وحكى) ابن قتيبة عن الاصمعي قال: اسلم قوم في

ٱلْجَاهِلِيَّةِ عَلَى إِبلٍ قَطَعُوا آذَانَهَا فَسُمِّيَ كُلُّ مَنْ أَدْرَكَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ مُخَضْرَمًا وَزَعَمَ أَنَّهُ لَا يَكُونُ مُخَضْرَمًا حَتَّى يَكُونَ إِسْلَامُهُ بَعْدَ وَفَاةِ ٱلرَّسُولِ وَقَدْ أَدْرَكَهُ كَبِيرًا فَلَمْ يُسْلِمْ (قَالَ) ٱبْنُ رَشِيقٍ: وَهٰذَا عِنْدِي خَطَأٌ لِأَنَّ ٱلنَّابِغَةَ ٱلْجَعْدِيَّ وَلَبِيدًا قَدْ وَقَعَ عَلَيْهِمَا هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَأَمَّا عَلِيُّ بْنُ ٱلْحَسَنِ كُرَاعٌ فَقَدْ حَكَى: شَاعِرٌ مُحَضْرَمٌ بِحَاءٍ غَيْرِ مُعْجَمَةٍ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلْحَضْرَمَةِ وَهِيَ ٱلْخَالِطَةُ لِأَنَّهُ خَلَطَ ٱلْجَاهِلِيَّةَ وَٱلْإِسْلَامَ وَقَالُوا: ٱلشُّعَرَاءُ أَرْبَعَةٌ: شَاعِرٌ خِنْذِيذٌ وَهُوَ ٱلَّذِي يَجْمَعُ إِلَى جُودَةِ شِعْرِهِ رِوَايَةَ ٱلْجَيِّدِ مِنْ شِعْرِ غَيْرِهِ. وَسُئِلَ رُؤْبَةُ عَنِ ٱلْفُحُولِ فَقَالَ: هُمُ ٱلرُّوَاةُ. وَشَاعِرٌ مُفْلِقٌ وَهُوَ ٱلَّذِي لَا رِوَايَةَ لَهُ إِلَّا أَنَّهُ مُجَوِّدٌ كَٱلْخِنْذِيذِ فِي شِعْرِهِ. وَشَاعِرٌ فَقَطْ وَهُوَ فَوْقَ ٱلرَّدِيءِ بِدَرَجَةٍ وَشُعْرُورٌ وَهُوَ لَا شَيْءَ. قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

يَا رَابِعَ ٱلشُّعَرَاءِ كَيْفَ هَجَوْتَنِي ... وَزَعَمْتَ أَنِّي مُفْحَمٌ لَا أَنْطِقُ

وَقِيلَ بَلْ هُمْ شَاعِرٌ مُفْلِقٌ مُطْبِقٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ وَٱلْمُفْلِقُ ٱلَّذِي يَأْتِي فِي شِعْرِهِ بِٱلْفِلْقِ وَهُوَ ٱلْعَجَبُ وَقِيلَ ٱلدَّاهِيَةُ (قَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ) ٱلشُّوَيْعِرُ حُمْرَانُ بْنُ أَبِي حُمْرَانَ سَمَّاهُ بِذٰلِكَ ٱمْرُؤُ ٱلْقَيْسِ وَمِثْلُ عَبْدِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْمَعْرُوفِ بِٱلشُّوَيْعِرِ. قَالَ ٱلْجَاحِظُ: وَٱلشَّاعِرُ عَبْدُ يَالِيلَ مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ لَيْثٍ وَقِيلَ ٱسْمُهُ رَبِيعَةُ بْنُ عُثْمَانَ وَقَالَ بَعْضُهُمْ شَاعِرٌ وَشُوَيْعِرٌ وَشُعْرُورٌ. قَالَ ٱلْعَبْدِيُّ فِي شَاعِرٍ يُدْعَى ٱلْمُفَوَّفَ مِنْ بَنِي ضَبَّةَ ثُمَّ مِنْ بَنِي حُمَيْسٍ:

أَلَا تَنْهَى سَرَاةُ بَنِي حُمَيْسٍ ... شُوَيْعِرَهَا فُوَيْلِيَةَ ٱلْأَفَاعِي

فَسَمَّاهُ شُوَيعِرًا . وَقَالِيَةُ ٱلْأَفَاعِي دُوَيْبَّةٌ فَوْقَ ٱلْخُنْفَسَاءِ فَصَغَّرَهَا تَحْقِيرًا بِهِ
وَزَعَمَ ٱلْحَاتِمِيُّ أَنَّ ٱلنَّابِغَةَ سُئِلَ : مَنْ أَشْعَرُ ٱلنَّاسِ فَقَالَ مَنِ ٱسْتُجِيدَ
جَيِّدُهُ وَأَضْحَكَ رَدِيئُهُ كَانَ مِنْ سَفِلَةِ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ
فِي ٱلْهِجَاءِ خَاصَّةً وَقَالَ ٱلْحُطَيْئَةُ :

ٱلشِّعْرُ صَعْبٌ وَطَوِيلٌ سُلَّمُهْ وَٱلشِّعْرُ لَا يَسْطِيعُهُ مَنْ يَظْلِمُهْ
إِذَا ٱرْتَقَى فِيهِ ٱلَّذِي لَا يَعْلَمُهْ زَلَّتْ بِهِ إِلَى ٱلْحَضِيضِ قَدَمُهْ
يُرِيدُ أَنْ يُعْرِبَهُ فَيُعْجِمُهْ

وَقَالَ بَعْضُهُمْ :

ٱلشُّعَرَاءُ فَٱعْلَمَنَّ أَرْبَعَهْ فَشَاعِرٌ لَا يُرْتَجَى لِمَنْفَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُنْشِدُ وَسْطَ ٱلْمَجْمَعَهْ وَشَاعِرٌ آخَرُ لَا يُجْرَى مَعَهْ
وَشَاعِرٌ يُقَالُ خَمِّرْ فِي دَعَهْ

قَالَ ٱبْنُ رَشِيقٍ : وَإِنَّمَا سُمِّيَ ٱلشَّاعِرُ شَاعِرًا لِأَنَّهُ يَشْعُرُ بِمَا لَا
يَشْعُرُ بِهِ غَيْرُهُ . قَالَ ٱبْنُ خَالَوَيْهِ فِي شَرْحِ ٱلدُّرَيْدِيَّةِ يُقَالُ :
أَنْشَدْتُهُ مُقَلَّدَاتِ ٱلشُّعَرَاءِ أَيْ أَبْيَاتَهُمُ ٱلطَّنَّانَةَ ٱلْمُسْتَحْسَنَةَ وَيَقُولُ
آخَرُونَ : إِنَّ ٱلْمُقَلَّدَ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا كَانَ ٱسْمُ ٱلْمَمْدُوحِ فِيهِ مَذْكُورًا
فِي قَافِيَتِهِ وَيُقَالُ : هٰذَا ٱلْبَيْتُ عُقْرُ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ أَيْ أَجْوَدُ بَيْتٍ
فِيهَا كَمَا يُقَالُ : هٰذَا بَيْتٌ طَنَّانٌ . اه . وَفِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ
لِلْقَالِي : قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ فِي قَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمِ ٱلْهِجَانِ

قَالَ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي هُوَ شَاعِرٌ وَأَبُوهُ شَاعِرٌ كَكَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ

وَعَبْدِ ٱلرَّحْمَانِ بْنِ حَسَّانَ وَرُؤْبَةَ بْنِ ٱلْعَجَّاجِ. وَقَالَ ابُو عَمْرٍو ٱلشَّيْبَانِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى فَيُقَالُ مَا فِي ٱلْقَوْمِ اشْعَرُ مِنْ فُلَانٍ إِلَّا فُلَانٌ فَفُلَانٌ ٱلْمُسْتَثْنَى هُوَ ٱلْافْضَلُ ٱلْاشْعَرُ. وَقَالَ ٱلْاصْمَعِيُّ ٱلثُّنْيَانُ ٱلَّذِي تُثْنَى عَلَيْهِ ٱلْخَنَاصِرُ فِي ٱلْعَدَدِ لِانَّهُ اوَّلُ وَقَالَ ٱبْنُ هِشَامٍ هُوَ ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ لِانَّهُ دُونَهُمْ. وَقَالَ غَيْرُهُ ٱلثُّنْيَانُ ٱلضَّعِيفُ. وَقَالَ ٱلْقَالِي: ٱلثُّنْيَانُ عِنْدِي ٱلَّذِي يُسْتَثْنَى مِنَ ٱلْقَوْمِ رَفِيعًا كَانَ اوْ ضَعِيفًا فَيُقَالُ لِلدُّونِ وَٱلضَّعِيفِ ثُنْيَانٌ وَلِلرَّفِيعِ وَٱلشَّاعِرِ ثُنْيَانٌ (وَقَالَ ٱلْقَالِي) فِي ٱلْمَقْصُورِ وَٱلْمَمْدُودِ. حَدَّثَنَا ابُو بَكْرِ بْنِ دُرَيْدٍ قَالَ. ذَكَرَ ابُو عُبَيْدَةَ وَاحْسِبُ ٱلْاصْمَعِيَّ قَدْ ذَكَرَهُ ايْضًا قَالَ. لَقِيَتِ ٱلسِّعْلَاةُ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ فِي بَعْضِ طُرُقَاتِ ٱلْمَدِينَةِ وَهُوَ غُلَامٌ قَبْلَ انْ يَقُولَ ٱلشِّعْرَ فَبَرَكَتْ عَلَى صَدْرِهِ وَقَالَتْ انْتَ ٱلَّذِي يَرْجُو قَوْمُكَ انْ تَكُونَ شَاعِرَهُمْ قَالَ: نَعَمْ. قَالَتْ. فَانْشِدْنِي ثَلَاثَةَ ابْيَاتٍ عَلَى رَوِيٍّ وَاحِدٍ وَإِلَّا قَتَلْتُكَ فَقَالَ:

إِذَا مَا تَرَعْرَعَ فِينَا ٱلْغُلَا ... مُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ مَنْ هُوَهْ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ ٱلْإِزَا ... رِ فَذَلِكَ فِينَا ٱلَّذِي لَا هُوَهْ
وَلِي صَاحِبٌ مِنْ بَنِي ٱلشَّيْصُبَا ... نِ فَحِينًا اقُولُ وَحِينًا هُوَهْ

فَخَلَّتْ سَبِيلَهُ وَقَالَتْ: اوْلَى لَكَ قَالَ ٱلْاصْمَعِيُّ: يُقَالُ ٱلسِّعْلَاةُ سَاحِرَةُ ٱلْجِنِّ

(فَائِدَةٌ) قَالَ ابُو إِسْحَاقَ ٱلْبَطَلْيُوسِيُّ. وَقَدْ انْشَدَ قَوْلَ ٱلْفَرَزْدَقِ:

وَمَا مِثْلُهُ فِي ٱلنَّاسِ إِلَّا مُمَلَّكًا   أَبُو أُمِّهِ حَيٌّ أَبُوهُ يُقَارِبُهْ

هٰذَا وَأَمْثَالُهُ وَإِنْ كَانَ جَائِزًا فِي ٱلْإِعْرَابِ. فَلَيْسَ يَحْسُنُ فِي ٱلشِّعْرِ عِنْدَ ذَوِي ٱلْأَلْبَابِ. لِمَا فِيهِ مِنْ وَهْيِ ٱلنَّسْجِ وَٱلِٱضْطِرَابِ. وَٱلشِّعْرُ إِذَا أُحْوِجَ إِلَى شَرْحٍ لَمْ يُعَدَّ فِي فَاخِرِ ٱلْمَسَاقِ. وَلَا قَامَ فِي ٱلْإِحْسَانِ عَلَى سَاقٍ. وَلَا عَذُبَ فِي ٱلْمَذَاقِ. فَهُوَ مَكْرُوهٌ عِنْدَ ٱلْحُذَّاقِ. وَيَحْتَاجُ ٱلشِّعْرُ إِلَى أَنْ يَسْبِقَ مَعْنَاهُ لَفْظَهُ. فَتَسْتَلِذَّ ٱلنُّفُوسُ رِوَايَتَهُ وَحِفْظَهُ. وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ وَٱلْمُتَكَلِّمِ. بَيَانُ مَا يُحَاوِلُهُ لِلْعَالِمِ وَٱلْمُتَعَلِّمِ. فَإِنْ تَكَلَّمَ بِمَقْلُوبٍ. مَجَّتْهُ ٱلْأَسْمَاعُ وَٱلْقُلُوبُ. وَلَمْ يَتَحَصَّلْ مِنْهُ ٱلْغَرَضُ ٱلْمَطْلُوبُ. فَإِنْ قَالَ قَائِلٌ أَمَا تَرَى فِي ٱلْأَشْعَارِ أَمْثَالَ هٰذَا كَقَوْلِهِ:

لَهَا مُقْلَتَا أَدْمَاءَ طَلَّ خَمِيلَةٍ   مِنَ ٱلْوَحْشِ مَا تَنْفَكُّ تَرْعَى عِرَارَهَا

قِيلَ لَهُ وَهٰذَا أَيْضًا قَدْ أَحَالَ وَمَنْ تَكَلَّفَ مِثْلَ هٰذَا لَمْ يُخَفِّفْ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْكُلْفَةَ وَٱلْمَلَامَ. وَتَعَرَّضَ لِأَنْ يُلَامَ. وَتَرَكَ بَيِّنَ ٱلْكَلَامِ. وَإِنَّمَا يَتَفَاضَلُ ٱلْكَلَامُ وَٱلشِّعْرُ بِحُسْنِ ٱلْعِبَارَةِ وَٱلدِّيبَاجَةِ. وَرَوْنَقِ ٱلْفَصَاحَةِ حَتَّى تَكُونَ أَلْفَاظُهَا كَٱلزُّجَاجَةِ. وَإِلَّا فَٱلْمَعَانِي مُعَرَّضَةٌ لِكُلِّ جِيلٍ مِنْ أَهْلِ ٱلتَّوْحِيدِ وَٱلشِّرْكِ حَتَّى لِلزَّنْجِ وَٱلتَّتَرِ وَٱلتُّرْكِ لٰكِنَّهُمْ قَصُرَتْ بِهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ عَنْ بُلُوغِ مَا رَامُوهُ مِنْ أَرَبٍ. قَدْ تَهَيَّأَ عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلْعَرَبِ. وَأَقَلُّ مَا يَجِبُ عَلَى ٱلْمُتَكَلِّمِ ٱلْبَيَانُ لِمُخَاطَبِهِ. وَإِلَّا كَانَ كَحَاطِبِ ٱللَّيْلِ وَحَاطِبِهِ. يُخَاطِبُ ٱلْعَرَبِيَّ بِٱلْعَجَمِيَّةِ وَيُخَاطِبُ ٱلْعَجَمِيَّ بِٱلْعَرَبِيَّةِ. وَصِنَاعَةُ ٱلشِّعْرِ أَشَدُّ

حَضَرًا. وَأَمَدُّ عَصْرًا وَذَلِكَ أَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِنَّمَا هُوَ رَاغِبٌ رَاهِبٌ أَوْ مُعَاتِبٌ بَيْنَ يَدَيْ مَلِكٍ فَإِنْ حَكَى عَنْ نَفْسِهِ وَإِلَّا كَانَ جَدِيرًا بِأَنْ يَهْلِكَ فَمِنْ ذَلِكَ مَا رَوَاهُ ٱبْنُ جِنِّيّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ زَكَرِيَّاءَ حَدَّثَنَا أَبُو عَبْدِ ٱللهِ ٱلْغِلَابِيُّ حَدَّثَنَا مَهْدِيُّ بْنُ سَابِقٍ قَالَ: دَخَلَ ٱلنَّابِغَةُ عَلَى ٱلنُّعْمَانِ بْنِ ٱلْمُنْذِرِ فَقَالَ:

تَخِفُّ ٱلْأَرْضُ إِنْ تَفْقِدْكَ يَوْمًا ... وَتَبْقَى مَا بَقِيتَ بِهَا ثَقِيلَا

فَنَظَرَ إِلَيْهِ ٱلنُّعْمَانُ نَظَرَ غَضْبَانَ. وَكَانَ كَعْبُ بْنُ زُهَيْرٍ حَاضِرًا فَقَالَ: أَصْلَحَ ٱللهُ ٱلْمَلِكَ إِنَّ مَعَ هٰذَا بَيْتًا ضَلَّ عَنْهُ هُوَ

لِأَنَّكَ مَوْضِعُ ٱلْقِسْطَاسِ مِنْهَا ... فَتَمْنَعُ جَانِبَيْهَا أَنْ تَمِيلَا

فَضَحِكَ ٱلنُّعْمَانُ وَأَمَرَ لَهُمَا بِجَائِزَتَيْنِ فَلَوْلَا كَعْبٌ كَانَ قَدْ هَلَكَ. فَإِنْ كَانَ ٱلشَّاعِرُ مُخَاطِبًا مَنْ دُونَ ٱلْمَلِكِ ٱلْأَشَمِّ بِمَا لَا يَفْهَمُ وَكَانَ رَاغِبًا فِي دِرْهَمٍ كَانَ ذَلِكَ سَبَبًا لِبُطْلَانِ حَاجَتِهِ وَٱسْتِهْجَانِ شِعْرِهِ وَتَحْقِيرِ أَمْرِهِ وَٱلْقُدَمَاءُ فِي هٰذَا أَعْذَرُ لِأَنَّهَا لُغَتُهُمْ



الفصل الثالث

في فنون الشعر

البحث الاول

في المطبوع والمصنوع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

وَمِنَ ٱلشِّعْرِ مَطْبُوعٌ وَمَصْنُوعٌ فَٱلْمَطْبُوعُ هُوَ ٱلْأَصْلُ وُضِعَ عَلَيْهِ اَوَّلًا وَعَلَيْهِ ٱلْمَدَارُ وَٱلْمَصْنُوعُ وَإِنْ وَقَعَ عَلَيْهِ هٰذَا ٱلِٱسْمُ فَلَيْسَ مُتَكَلَّفًا تَكَلُّفَ اشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ. لٰكِنْ وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلنَّوْعِ ٱلَّذِي سَمَّوْهُ صَنْعَةً مِنْ غَيْرِ قَصْدٍ وَلَا تَعَمُّلٍ لٰكِنْ بِطِبَاعِ ٱلْقَوْمِ عُنُوا وَٱسْتَحْسَنُوهُ وَمَالُوا اِلَيْهِ بَعْضَ ٱلْمَيْلِ بَعْدَ اَنْ عَرَفُوا وَجْهَ ٱخْتِيَارِهِ عَلَى غَيْرِهِ حَتَّى صَنَعَ زُهَيْرٌ ٱلْحَوْلِيَّاتِ عَلَى ٱلتَّنْقِيحِ وَٱلتَّثْقِيفِ يَصْنَعُ ٱلْقَصِيدَةَ ثُمَّ يُكَرِّرُ نَظَرَهُ بِهَا خَوْفًا مِنَ ٱلتَّعَقُّبِ بَعْدَ اَنْ يَكُونَ قَدْ فَرَغَ مِنْ عَمَلِهَا فِي سَاعَةٍ اَوْ لَيْلَةٍ. وَرُبَّمَا قَصَدَ اِقَامَةَ نَشَاطِهِ فَتَبَاطَأَ عَمَلُهُ لِذٰلِكَ. وَٱلْعَرَبُ لَا تَنْظُرُ فِي اَعْطَافِ شِعْرِهَا بِاَنْ تُجَنِّسَ اَوْ تُطَابِقَ اَوْ تُقَابِلَ فَتَتْرُكَ لَفْظَةً لِلَفْظَةٍ اَوْ مَعْنًى لِمَعْنًى كَمَا يَفْعَلُ ٱلْمُحْدَثُونَ وَلٰكِنْ نَظَرُهَا فِي فَصَاحَةِ ٱلْكَلَامِ اَوْ جَزَالَتِهِ

وَبَسطِ ٱلْمَعْنَى أَوْ إِبْرَازِهِ وَإِتقَانِ بِنْيَـةِ ٱلشِّعْرِ وَإِحكَامِ ٱلقَافِيَةِ وَتَلَاحُمِ ٱلكَلَامِ بَعْضِـهِ بِبَعْضٍ حَتَّى عَدُّوا مِنْ فَضْـلِ صَنْعَةِ ٱلْحُطَيْئَةِ حَتَّى نَسَقَهُ ٱلكَلَامَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ:

فَـلَا وَأَبِيكَ مَا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ بِأَنْ يَبْنُوا ٱلْمَكَارِمَ حَيْثُ شَاؤُوا
وَلَا وَأَبِيـكَ مَـا ظَلَمَتْ قُرَيْعٌ وَلَا عَنُفُوا بِـذَاكَ وَلَا أَسَاؤُوا
فَإِنَّ ٱلْجَـارَ مِثْلَ ٱلضَّيْفِ يَغْدُو لِوُجْهَتِـهِ وَإِنْ طَالَ ٱلثَّوَاءُ
وَإِنِّي قَـدْ عَلِقْتُ بِحَبْلِ قَـوْمٍ أَعَانَهُمُ عَلَى ٱلْحَسَبِ ٱلثَّرَاءُ

وَٱسْتَظْرَفُوا مَا جَاءَ مِنَ ٱلصَّنْعَةِ نَحْوَ ٱلبَيْتِ وَٱلبَيْتَيْنِ فِي ٱلقَصِيدَةِ بَيْنَ ٱلقَصَائِدِ يُسْتَدَلُّ بِذَاكَ عَلَى جُودَةِ شِعْرِ ٱلرَّجُلِ وَصِـدْقِ حِسِّهِ وَصَفَاءِ خَاطِرِهِ. وَأَمَّا إِذَا كَثُرَ ذَلِكَ فَهُوَ عَيْبٌ يَشْهَدُ بِخِـلَافِ ٱلطَّبْعِ وَإِيثَارِ ٱلكُلْفَةِ وَلَيْسَ يَتَّجِهُ ٱلبَتَّةَ أَنْ يَأْتِيَ مِنَ ٱلشَّاعِرِ قَصِيـدَةٌ كُلُّهَا أَوْ أَكْثَرُهَا مُتَصَنَّعٌ مِنْ غَيْرِ قَصْـدٍ كَٱلَّذِي يَأْتِي مِنْ أَشْعَارِ حَبِيبٍ وَٱلْبُحْتُرِيِّ وَغَيْرِهِمَا وَقَدْ كَانَا يَطْلُبَانِ ٱلصَّنْعَةَ وَيُولَعَانِ بِهَا. فَأَمَّا حَبِيبٌ فَيَذْهَبُ إِلَى حُزُونَةِ ٱللَّفْظِ وَمَا يَمْلَأُ ٱلْأَسْمَاعَ مِنْهُ مَعَ ٱلتَّصْنِيعِ ٱلْمُحْكَمِ طَوْعًا وَكَرْهًا يَأْتِي ٱلْأَشْيَاءَ مِنْ بُعْـدٍ وَيَطْلُبُهَا بِـكُلْفَةٍ وَيَأْخُذُهَا بِقُوَّةٍ. وَأَمَّا ٱلْبُحْتُرِيُّ فَـكَانَ أَمْلَحَ وَأَحْسَنَ مَـذْهَبًا فِي ٱلكَلَامِ يَسْلُكُ مِنْهُ دَمَاثَةً وَسُهُولَةً مَعَ إِحْكَامِ ٱلتَّصَنُّعِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ لَا يَظْهَرُ عَلَيْهِ كُلْفَةٌ وَلَا مَشَقَّةٌ. وَمَا أَعْلَمُ شَاعِرًا أَكْمَلَ وَلَا أَمْلَحَ تَصَنُّعًا مِنْ عَبْدِ ٱللّٰهِ بْنِ ٱلْمُعْتَزِّ فَإِنَّ صَنْعَتَهُ خَفِيَّةٌ لَا تَـكَادُ تَظْهَرُ فِي بَعْضِ ٱلْمَوَاضِعِ إِلَّا لِلْبَصِيرِ بِدَقَائِقِ ٱلشِّعْرِ وَهُوَ عِنْـدِي

أنظف أصحابه شعرًا وأكثرهم بديعًا وأفتنًا وأقربهم قوافي وأوزانًا ولا أرى وراءه غايةً لطالبها في هذا الباب. غير أنّا لا نجد المبتدئ في طلب التصنيع ومزاولة الكلام أكثر انتفاعًا منه بمطالعة شعر حبيب وشعر مسلم بن الوليد لما فيهما من الفضيلة لمبتغيها ولأنّهما طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طريقًا سابلةً وكثّرا منها في أشعارهما تكثيرًا سهّلها عند الناس وجسّرهم عليها. على أنّ مسلمًا أسهل شعرًا من حبيب وأقلّ تكلّفًا وهو أوّل من تكلّف البديع من المولّدين وأخذ نفسه بالصنعة وكثّر منها ولم يكن في الأشعار المحدثة قبل مسلم إلّا النبذ اليسيرة. وهو زهير المولّدين كان يبطئ في صنعته ويجيدها. وقالوا: أوّل من فتق البديع من المحدثين بشّار بن برد وهو ساقة العرب وآخر من يُستشهد بشعره ثمّ اتّبعهما مقتديًا بهما كلثوم بن عمرو العتّابي ومنصور النمري ومسلم بن الوليد وأبو نواس واتّبع هؤلاء أبو تمّام والبحتري وعبد الله بن المعتزّ فانتهى علم البديع والصنعة وختم به. وشبّه قوم أبا نواس بالنابغة لما اجتمع له من الجزالة مع الرشاقة وحسن الديباجة والمعرفة بمدح الملوك. وأمّا بشّار فقد شبّهوه بامرئ القيس لتقدّمه على المولّدين وأخذهم عنه. ومن كلامهم: بشّار أبو المحدثين. وسمعنا أبا عبد الله غير مرّة يقول: إنّما سُمّي الأعشى صنّاجة العرب لأنّه أوّل من ذكر الصنج في شعره. قال ويقال بل سُمّي صنّاجة لقوّة طبعه وحلية شعره يخيّل إليك إذا

أنشدته أن آخر ينشد معك. ومثله بشار بن برد تنشد أقصر شعره عروضا وألينه كلاما فتجد له في نفسك هزة وجلبة من قوة الطبع.

انقضى كلام عبد الله ورجعنا إلى القول في الطبع والتصنيع. فإذا كان الشاعر مصنعا فإن جيده من سائر شعره كأبي تمام. فصار محصورا معروفا بأعيانه فإذا كان الطبع غالبا عليه لم يبن جيده كل البينونة وكان قريبا من قريب كالبحتري. ومن شاكله وقد نص ابن الرومي في بعض تطيراته على محمد بن أبي حكيمة الشاعر حين عاب عليه قوله في الفرس من قصيدة رثى بها عبد الله بن طاهر:

فله شهامة سودنيق باكر وحوافر حفر ورأس صنتع

وذكر قول أبي تمام (بحوافر حفر وصلب صلب) فحفل به واعتذر له وخرج التخاريج الحسان وذكر أن الحافر الوأب والحافر المقعب ونحوهما أشرف في اللفظ من الحافر الأحفر إلا أن أبا تمام كان يطلب المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تم له المعنى بلفظة نبطية لأتى بها. والذي أراه أن ابن الرومي أبصر بأبي تمام وغيره منا وأن التسليم له والرجوع إليه أحزم. غير أني لو شئت أن أقول ولست رادا عليه ولا معترضا بين يديه أن المعنى الذي أراده وأشار إليه من جهة أبي تمام إنما هو معنى الصنعة مثل التطبيق والتجنيس وما أشبههما لا معنى الكلام الذي هو روحه. وأما اللفظ الذي ذكر أنه لا يبالي به إنما هو فصيح

الكلام ومستعمله ويدلك على صحة ما ادعيته على ابن الرومي قوله ان الحافر الوأب والمقعب اشرف في اللفظ من الحافر الاحفر . فكلامه راجع الى ما قلته في ابي تمام غير مخالف له وان كان في الظاهر على خلافه لساغ ذلك الا ان اكثر الناس على ما قال وانما هو هذا معرض للكلام لا مخالفة . وقال الجاحظ : كما لا ينبغي ان يكون اللفظ عاميا ولا ساقطا سوقيا فكذلك لا ينبغي ان يكون وحشيا الا ان يكون المتكلم به بدويا اعرابيا فان الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس كما يفهم السوقي رطانة السوقي (قال) وانشد رجل قوما شعرا فاستغربوه فقال : والله ما هو بغريب ولكنكم في الادب غرباء . وعن غيره ان رجلا قال لابي تمام في مجلس قد حفل واراد تبكيته لما انشده : يا ابا تمام لم لا تقول من الشعر ما يفهم . فقال له : وانت لم لا تفهم من الشعر ما يقال فقحمه . ويروى ان هذه الحكاية كانت مع ابي العميثل وصاحبين له خاطباه فاجابهما . وقال بعض من نظر بين ابي تمام وابي الطيب انما ابو تمام كالقاضي العدل يضع اللفظة موضعها ويعطي المعنى حقه بعد طول النظر والبحث عن البينة او كالفقيه الورع يتحرى في كلامه ويتحرج . وابو الطيب كالشجاع الجريء يهجم على ما يريده لا يبالي ما لقي ولا حيث وقع . وكان الاصمعي يقول زهير والنابغة من عبيد الشعر يريد انهما يتكلفان اصلاحه ويشغلان به خواطرهما وحواسهما . ومن

اَصْحَابِهِمَا فِي ٱلتَّنْقِيحِ وَفِي ٱلتَّثْقِيفِ وَٱلتَّحْكِيكِ طُفَيْلٌ ٱلْغَنَوِيُّ . وَقَدْ قِيلَ اِنَّ زُهَيْرًا اَيْضًا رَوَى لَهُ وَكَانَ يُسَمَّى مُحَبِّرًا لِحُسْنِ شِعْرِهِ . وَمِنْهُمُ ٱلْحُطَيْئَةُ وَٱلنَّمِرُ بْنُ تَوْلَبٍ وَكَانَ يُسَمِّيهِ اَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ ٱلْكَيِّسَ . وَكَانَ بَعْضُ ٱلْحُذَّاقِ يَقُولُ : قُلْ مِنَ ٱلشِّعْرِ مَا يَخْدُمُكَ وَلَا تَقُلْ مِنْهُ مَا تَخْدُمُهُ وَهُوَ مَعْنَى كَلَامِ ٱلْاَصْمَعِيِّ . وَسَاُحَلِّي هٰذَا ٱلْبَابَ مِنْ كَلَامِ ٱلسَّيِّدِ اَبِي ٱلْحَسَنِ بِحِلْيَةٍ تَكُونُ لَهُ زِينَةً فَائِقَةً وَاَخْتِمُهُ بِخَاتِمَةٍ تَكْسُوهُ حُلَّةً رَائِقَةً لِاُوفِيَ بِذٰلِكَ بَعْضَ مَا ضَمِنْتُ وَاَقْضِيَ بِهِ حَقَّ مَا شَرَطْتُ اِنْ شَاءَ ٱللّٰهُ تَعَالَى . فَمِنْ ذٰلِكَ قَوْلُهُ سَنَةَ ٤٠٥ يَتَشَوَّقُ اَهْلَهُ :

وَلِي كَبِدٌ مَكْلُومَةٌ لِفِرَاقِكُمْ ... اُطَأْطِئُ مِنْهَا صَبْرًا عَلَى مَا اَجَنَّتِ

تَمَنَّيْتُكُمْ شَوْقًا اِلَيْكُمْ وَصَبْوَةً ... عَسَى ٱللّٰهُ اَنْ يُبْدِي لَهَا مَا تَمَنَّتِ

وَعَيْنٌ جَفَاهَا ٱلنَّوْمُ وَٱعْتَادَهَا ٱلْبُكَا ... اِذَا عَنَّ ذِكْرُ ٱلْقَيْرَوَانِ ٱسْتَهَلَّتِ

فَلَوْ اَنَّ اَعْرَابِيًّا تَذَكَّرَ نَجْدًا فَحَنَّ بِهِ اِلَى ٱلْوَطَنِ اَوْ تَشَوَّقَ فِيهِ بَعْضَ ٱلسَّكَنِ مَا حَسِبْتُهُ يَزِيدُ عَلَى مَا اَتَى بِهِ هٰذَا ٱلْوَلَدُ ٱلْحَضَرِيُّ ٱلْمُتَاَخِّرُ ٱلْعَصْرِ . وَمَا اَنْحَطُّ فِي هٰذَا ٱلتَّمْيِيزِ فِي هَوَايَ وَلَا اَتَعَقُّ بِهٰذَا ٱلْقَوْلِ عِنْدَ مَوْلَايَ وَلَا ٱلْخَدِيعَةُ مِمَّا نُظَنُّ بِهِ وَلَا فِيهِ وَلٰكِنْ قَدْ رَاَيْتُ وَجْهَ ٱلْحَقِّ فَعَرَفْتُهُ وَٱلْحَقُّ لَا يَتَلَثَّمُ وَمَا هُوَ فِي بَلَاغَتِهِ وَاِيجَازِهِ اِلَّا كَمَا قَالَ ٱلْاَحْمَرُ ٱلسَّعْدِيُّ فِي وَصِيَّتِهِ :

مِنَ ٱلْقَوْلِ مَا يَكْفِي ٱلْمُصِيبَ قَلِيلُهُ

وَمِنْهُ ٱلَّذِي لَا يَكْتَفِي ٱلدَّهْرَ قَائِلُهُ

يَصُدُّ عَنِ ٱلْمَعْنَى فَيَتْرُكُ مَا نَحَا
وَيَذْهَبُ فِي ٱلتَّقْصِيرِ مِنْهُ تَطَاوُلُهْ
فَلَا تَكُ مِكْثَارًا تَزِيدُ عَلَى ٱلَّذِي
عُنِيتَ بِهِ فِي خَطْبِ امْرٍ تُزَاوِلُهْ

البحث الرابع

في اقسام الشعر

(من الكتاب نفسه)

قَالَ عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ يَجْمَعُ اصْنَافَ ٱلشِّعْرِ ارْبَعَةٌ ٱلْمَدِيحُ وَٱلْهِجَاءُ وَٱلْحِكْمَةُ وَٱللَّهْوُ ثُمَّ يَتَفَرَّعُ مِنْ كُلِّ صِنْفٍ مِنْ ذٰلِكَ فُنُونٌ فَيَكُونُ فِي ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَرَاثِي وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلشُّكْرُ ثُمَّ يَكُونُ مِنَ ٱلْهِجَاءِ ٱلذَّمُّ وَٱلْعِتَابُ وَٱلِاسْتِبْطَاءُ وَمِنَ ٱلْحِكْمَةِ ٱلْامْثَالُ وَٱلتَّزْهِيدُ وَٱلْمَوَاعِظُ وَيَكُونُ مِنَ ٱللَّهْوِ ٱلْغَزَلُ وَصِفَةُ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَخْمُورِ. وَقَالَ قَوْمٌ ٱلشِّعْرُ كُلُّهُ نَوْعَانِ مَدْحٌ وَهِجَاءٌ فَإِلَى ٱلْمَدْحِ يَرْجِعُ ٱلرِّثَاءُ وَٱلِافْتِخَارُ وَٱلتَّشْبِيبُ وَمَا تَعَلَّقَ بِذٰلِكَ مِنْ مَحْمُودِ ٱلْوَصْفِ كَصِفَاتِ ٱلْحُمُولِ وَٱلْآثَارِ وَٱلتَّشْبِيهَاتِ ٱلْحِسَانِ وَكَذٰلِكَ تَحْسِينُ ٱلْخُلُقِ كَٱلْامْثَالِ وَٱلْحِكَمِ وَٱلْمَوَاعِظِ وَٱلزُّهْدِ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْقَنَاعَةِ. وَٱلْهِجَاءُ ضِدُّ ذٰلِكَ كُلِّهِ غَيْرَ انَّ ٱلْعِتَابَ حَالٌ مِنَ ٱلْحَالَيْنِ فَهُوَ طَرَفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَكَذٰلِكَ ٱلْإِغْرَاءُ لَيْسَ بِمَدْحٍ وَلَا هِجَاءٍ لِأَنَّكَ لَا تُغْرِي بِإِنْسَانٍ فَتَقُولَ إِنَّهُ حَقِيرٌ وَلَا ذَلِيلٌ إِلَّا كَانَ عَلَيْكَ وَعَلَى ٱلْمُغْرَى ٱلدَّرَكُ وَلَا تَقْصِدُ

أيضاً بمدحه الثناء عليه فيكون ذلك على وجهه. والبيت من الشعر كالبيت من الأبنية والشعر قراره الطبع وسمكه الرواية ودعائمه القلم وبابه الدربة وساكنه المعنى ولا خير في بيت غير مسكون. وصارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية او كالأواخي والأوتاد للأخبية. واما ما سوى ذلك من محاسن الشعر فإنما هو زينة مستأنفة لو لم تكن لاستغني عنها. قال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة: الشعر علم من علوم العرب يشترك فيه الطبع والرواية والذكاء ثم تكون الدربة مادة له وقوة لكل واحد من اسبابه فمن اجتمعت له هذه الخصال فهو المحسن المبرز وبقدر نصيبه منها تكون مرتبته من الإحسان. قال ولست افضل في هذه القضية بين القديم والمحدث والجاهلي والمخضرم والأعرابي والمولد الا اني ارى حاجة المحدث الى الرواية امس واجده الى كثرة الحفظ افقر فإذا استكشفت عن هذه الحالة وجدت سببها والعلة فيها ان المطبوع الذي لا يمكنه تناول الفاظ العرب الا رواية ولا رواية ولا طريق الى الرواية الا السمع وملاك السمع الحفظ. وقال دعبل في كتابه من اراد المديح فبالرغبة ومن اراد الهجاء فبالبغضاء ومن اراد التشبيب فبالشوق والعشق ومن اراد المعاتبة فبالاستبطاء: فقسم الشعر كهذه الأقسام الأربعة وكان الرثاء عنده من باب المدح على ما قدمت. الا انه جعل العتاب

بَدَلًا مِنهُ وَقَالَ غَيرُ وَاحِدٍ مِنَ ٱلعُلَمَاءِ: ٱلشِّعرُ مَا ٱشتَمَلَ عَلَى ٱلمَثَلِ ٱلسَّائِرِ وَٱلِاستِعَارَةِ ٱلرَّائِعَةِ وَٱلتَّشبِيهِ ٱلوَاقِعِ وَمَا سِوَى ذٰلِكَ فَإِنَّمَا لِقَائِلِهِ فَضلُ ٱلوَزنِ

البحث العاشر

في صناعة المديح

(من الكتاب نفسهِ)

وَسَبِيلُ ٱلشَّاعِرِ إِذَا مَدَحَ مَلِكًا أَن يَسلُكَ طَرِيقَةَ ٱلإِفصَاحِ وَٱلإِشَادَةِ بِذِكرِ ٱلمَمدُوحِ وَأَن يَجعَلَ مَعَانِيَهُ جَزلَةً وَأَلفَاظَهُ نَقِيَّةً غَيرَ مُبتَذَلَةٍ سُوقِيَّةٍ وَيَجتَنِبَ مَعَ ذٰلِكَ ٱلتَّقصِيرَ وَٱلتَّطوِيلَ فَإِنَّ لِلمَلِكِ سَآمَةً وَضَجَرًا وَرُبَّمَا عَابَ مِن أَجلِهَا مَا لَا يُرِيدُ حِرمَانَهُ وَقَد رَأَيتَ عَمَلَ ٱلبُحتُرِيِّ إِذَا مَدَحَ ٱلخَلِيفَةَ كَيفَ يُقِلُّ ٱلأَبيَاتَ وَيُبرِزُ وُجُوهَ ٱلمَعَانِي فَإِذَا مَدَحَ ٱلكُتَّابَ عَمِلَ طَاقَتَهُ وَبَلَغَ مُرَادَهُ. وَقَد حُكِيَ عَن عُمَارَةَ أَنَّ جَدَّهُ جَرِيرًا قَالَ: يَا بُنَيَّ إِذَا مَدَحتُم فَلَا تُطِيلُوا ٱلمُمَادَحَةَ وَإِذَا هَجَوتُم فَخَالِفُوا. وَحَكَى آخَرُ قَالَ: دَخَلَ ٱلفَرَزدَقُ عَلَى عَبدِ ٱلرَّحمَانِ ٱبنِ أُمِّ ٱلحَكَمِ فَقَالَ لَهُ عَبدُ ٱلرَّحمَانِ: يَا أَبَا فِرَاسٍ دَعنِي مِن شِعرِكَ ٱلَّذِي لَيسَ يَأتِي آخِرُهُ حَتَّى يُنسَى أَوَّلُهُ وَقُل فِيَّ بَيتَينِ يَعلَقَانِ بِٱلرِّوَايَةِ وَأَنَا أُعطِيكَ عَطِيَّةً لَم يُعطِكَهَا أَحَدٌ قَبلِي فَغَدَا عَلَيهِ وَقَالَ:

وَأَنتَ ٱبنُ بَطْحَاوَى قُرَيشٍ وَإِنْ تَشَا

تَكُنْ مِنْ ثَقِيفٍ سَيْلَ ذِي حَدَبٍ غَمْرِ

وَأَنتَ ٱبنُ سَوَّارِ ٱلْيَدَيْنِ إِلَى ٱلْعُلَا

تَلَقَّتْ بِكَ ٱلشَّمْسُ ٱلْمُضِيئَةُ لِلْبَدْرِ

فَقَالَ لَهُ: أَحْسَنْتَ وَأَمَرَ لَهُ بِعَشَرَةِ آلَافٍ. وَإِذَا كَانَ ٱلْمَمْدُوحُ مَلِكًا لَمْ يُبَالِ ٱلشَّاعِرُ مَا قَالَ فِيهِ وَلَا كَيْفَ أَطْنَبَ وَذٰلِكَ مَحْمُودٌ وَسِوَاهُ ٱلْمَذْمُومُ. فَإِنْ كَانَ سُوقَةً فَإِيَّاهُ وَٱلتَّجَاوُزَ بِهِ خُطَّتَهُ فَإِنَّهُ مَتَى تَجَاوَزَ بِهِ خُطَّتَهُ كَانَ كَمَنْ نَقَصَهُ مِنْهَا وَكَذٰلِكَ لَا يَجِبُ أَنْ يُقَصِّرَ بِهِ عَمَّا يَسْتَحِقُّ وَلَا أَنْ يُعْطِيَهُ صِفَةَ غَيْرِهِ فَيَصِفَ ٱلْكَاتِبَ بِٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْقَاضِيَ بِٱلْحَمِيَّةِ وَٱلْمَهَابَةِ. وَكَثِيرًا مَا يَقَعُ هٰذَا لِشُعَرَاءِ وَقْتِنَا وَهُوَ خَطَأٌ إِلَّا أَنْ تَصْحَبَهُ قَرِينَةٌ تَدُلُّ عَلَى صَوَابِ ٱلرَّأْيِ فِيهِ وَكَذٰلِكَ لَا يَجُوزُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْمَلِكُ بِبَعْضِ مَا يَحْسُنُ فِي غَيْرِهِ مِنَ ٱلرُّؤَسَاءِ وَإِنْ كَانَ فَضِيلَةً وَذٰلِكَ مِثْلُ قَوْلِ ٱلْبُحْتُرِيِّ فِي مَدْحِ ٱلْمُعْتَزِّ:

لَا ٱلْعَذْلُ يَرْدَعُهُ وَلَا م ٱلتَّعْنِيفُ عَنْ كَرَمٍ يَصُدُّهْ

فَإِنَّهُ مِمَّا أَنْكَرَهُ عَلَيْهِ أَبُو ٱلْعَبَّاسِ أَحْمَدُ بْنُ عُبَيْدِ ٱللهِ قَالَ: وَمَنْ ذَا يُعَنِّفُ ٱلْخَلِيفَةَ عَنِ ٱلْكَرَمِ أَوْ يَصُدُّهُ. هٰذَا بِٱلْهِجَاءِ أَوْلَى مِنْهُ بِٱلْمَدْحِ. وَعِيبَ عَلَى ٱلْأَخْطَلِ قَوْلُهُ فِي عَبْدِ ٱلْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ هٰذَا ٱلْبَيْتَ:

وَقَدْ جَعَلَ ٱللهُ ٱلْخِلَافَةَ مِنْهُمُ

لِأَبْيَضَ لَا عَارِي ٱلْخِوَانِ وَلَا جَدْبِ

وَقَالُوا: لَوْ مَدَحَ بِهٰذَا حَرَسِيًّا لِعَبْدِ ٱلْمَلِكِ لَكَانَ قَصَّرَ بِهِ. وَأَجْوَدُ مِنْهُ فِي مَعْنَاهُ قَوْلُ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ:

يَسْقُونَ مَنْ وَرَدَ ٱلْبَرِيصَ عَلَيْهِمِ
بَرَدَى يُصَفَّقُ بِٱلرَّحِيقِ ٱلسَّلْسَلِ

وَيُرْوَى مِسْكًا. وَعَابُوا عَلَى ٱلْأَحْوَصِ قَوْلَهُ لِلْمَلِكِ:

وَأَرَاكَ تَفْعَلُ مَا تَقُولُ وَبَعْضُهُمْ
مَذِقُ ٱللِّسَانِ يَقُولُ مَا لَا يَفْعَلُ

قَالُوا لِأَنَّ ٱلْمُلُوكَ لَا تُمْدَحُ بِمَا يَلْزَمُهَا فِعْلُهُ كَمَا تُمْدَحُ بِهِ ٱلْعَامَّةُ وَإِنَّمَا تُمْدَحُ بِٱلْإِغْرَاقِ وَٱلتَّفَضُّلِ لَا بِمَا يَتَّسِعُ غَيْرُهُمْ لِبَذْلِهِ. وَمِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ قَوْلُ كُثَيِّرٍ:

رَأَيْتُ ٱبْنَ لَيْلَى يَعْتَرِي صُلْبَ مَالِهِ
مَسَائِلُ شَتَّى مِنْ غَنِيٍّ وَمُصْرِمِ

مَسَائِلُ إِنْ تُوجَدْ لَدَيْكَ تَجُدْ بِهَا
يَدَاكَ وَإِنْ تُظْلَمْ بِهَا تَتَظَلَّمِ

لِأَنَّ هٰذَا إِنَّمَا يُقَالُ لِمَنْ دُونَ ٱلْخَلِيفَةِ وَٱلْمَلِكِ وَإِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ زُهَيْرٍ فِي هَرِمٍ وَلَيْسَ بِمَلِكٍ فَلِذَاكَ حَسُنَ قَوْلُهُ:

هُوَ ٱلْجَوَادُ ٱلَّذِي يُعْطِيكَ نَائِلَهُ عَفْوًا وَيُظْلَمُ أَحْيَانًا فَيَظَّلِمُ

يُرِيدُ أَنَّهُ يُسْأَلُ مَا لَيْسَ قِبَلَهُ فَيَتَحَمَّلُهُ. وَحُكِيَ عَنِ ٱلصُّولِيِّ أَنَّ مَرْوَانَ بْنَ أَبِي حَفْصَةَ كَانَ يُقَدِّمُ كُثَيِّرًا فِي ٱلْمَدْحِ عَلَى جَرِيرٍ وَٱلْفَرَزْدَقِ. وَمِمَّا قُدِّمَ بِهِ زُهَيْرٌ قَوْلُهُ:

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ ٱلنَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ
قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وَقَدَّمَهُ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلْكَاتِبُ فَقَالَ فِي كِتَابِهِ نَقْدِ ٱلشِّعْرِ لَوْ كَانَتْ فَضَائِلُ ٱلنَّاسِ مِنْ حَيْثُ هُمْ نَاسٌ لَا مِنْ طَرِيقِ مَا هُمْ مُشْتَرِكُونَ فِيهِ مَعَ سَائِرِ ٱلْحَيَوَانِ عَلَى مَا عَلَيْهِ أَهْلُ ٱلْأَلْبَابِ مِنَ ٱلِاتِّفَاقِ فِي ذٰلِكَ إِنَّمَا هِيَ ٱلْعَقْلُ وَٱلْعِفَّةُ وَٱلْعَدَالَةُ وَٱلشَّجَاعَةُ كَانَ ٱلْقَاصِدُ لِلْمَدْحِ بِهٰذِهِ ٱلْأَرْبَعَةِ مُصِيبًا وَبِمَا سِوَاهَا مُخْطِئًا. وَقَدْ قَالَ زُهَيْرٌ:

أَخِي ثِقَةٍ لَا يُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ   وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ

لِأَنَّهُ قَدْ وَصَفَهُ بِٱلْعِفَّةِ لِقِلَّةِ إِمْعَانِهِ فِي ٱللَّذَّاتِ وَأَنَّهُ لَا يُنْفِدُ فِيهَا مَالَهُ بِٱلسَّخَاءِ لِإِهْلَاكِ مَالِهِ فِي ٱلنَّوَالِ وَٱنْحِرَافِهِ فِي ذٰلِكَ عَنِ ٱللَّذَّاتِ وَذٰلِكَ هُوَ ٱلْعَدْلُ (قَالَ) ثُمَّ قَالَ:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا   كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

أَرَادَ أَنَّ فَرَحَهُ بِمَا يُعْطِي أَكْثَرُ مِنْ فَرَحِهِ بِمَا يَأْخُذُ فَزَادَ فِي وَصْفِ ٱلسَّخَاءِ مِنْهُ بِأَنَّهُ جَعَلَهُ يَهَشُّ وَلَا يَلْحَقُهُ مَضَضٌ وَلَا تَكَرُّهٌ لِفِعْلِهِ ثُمَّ قَالَ:

وَمَنْ مِثْلُ حِصْنٍ فِي ٱلْحُرُوبِ وَمِثْلُهُ
لِإِنْكَارِ ضَيْمٍ أَوْ لِأَمْرٍ يُحَاوِلُهْ

وَيُرْوَى أَوْ لِخَصْمٍ يُجَادِلُهْ. فَأَتَى فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ بِٱلْوَصْفِ مِنْ جِهَةِ ٱلشَّجَاعَةِ وَٱلْعَقْلِ فَٱسْتَوْفَى فِي ضُرُوبِ ٱلْمَدْحِ ٱلْأَرْبَعَةِ ٱلَّتِي هِيَ فَضَائِلُ ٱلْإِنْسَانِ عَلَى ٱلْحَقِيقَةِ وَزَادَهَا بِهٰذَا وَإِنْ كَانَ دَاخِلًا فِي

ٱلْأَرْبَعَةِ وَكَثِيرٌ مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْرِفُ وَجْهَ دُخُولِهِ فِيهَا حَيْثُ قَالَ : (اَخِي ثِقَةٍ) فَوَصَفَهُ بِٱلْوَفَاءِ وَٱلْوَفَاءُ دَاخِلٌ فِي هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلَّتِي قَدَّمْنَا وَقَدْ يَحْدُثُ هٰذَا ٱلشُّعَرَاءُ فَيَعُدُّونَ اَنْوَاعَ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْاَرْبَعِ وَاَقْسَامَهَا وَكُلَّ دَاخِلٍ فِي جُمْلَتِهَا مِثْلَ اَنْ يَذْكُرُوا ٱلْمَعْرِفَةَ وَٱلْحَيَاءَ وَٱلْبَيَانَ وَٱلسِّيَاسَةَ وَٱلصَّدْعَ بِٱلْحُجَّةِ وَٱلْعِلْمِ وَٱلْحِلْمِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ مِمَّا يَجْرِي هٰذَا ٱلْمَجْرَى. وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلْعَقْلِ. وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْقَنَاعَةَ وَقِلَّةَ ٱلشَّرَهِ وَطَهَارَةَ ٱلْإِزَارِ وَغَيْرَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلْعِفَّةِ. وَكَذِكْرِهِمِ ٱلْحِمَايَةَ وَٱلْاَخْذَ بِٱلثَّارِ وَٱلدِّفَاعَ عَنِ ٱلْجَارِ وَٱلنِّكَايَةَ فِي ٱلْعَدُوِّ وَقَتْلَ ٱلْاَقْرَانِ وَٱلْمَهَابَةَ وَٱلسَّيْرَ فِي ٱلْمَهَامِهِ وَٱلْقِفَارِ ٱلْمُوحِشَةِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلشَّجَاعَةِ. وَكَذِكْرِهِمِ ٱلسَّمَاحَةَ وَٱلتَّغَابُنَ وَٱلْاِنْظِلَامَ وَٱلتَّبَرُّعَ بِٱلنَّائِلِ وَاِجَابَةَ ٱلسَّائِلِ وَقِرَى ٱلْاَضْيَافِ وَمَا جَانَسَ هٰذِهِ ٱلْاَشْيَاءَ وَهِيَ مِنْ اَقْسَامِ ٱلْعَدْلِ

وَاَمَّا تَرْكِيبُ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ فَتَحْدُثُ مِنْهُ سِتَّةُ اَقْسَامٍ: يَحْدُثُ مِنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ مَعَ ٱلشَّجَاعَةِ ٱلصَّبْرُ عَلَى ٱلْمُلِمَّاتِ وَنَوَازِلِ ٱلْخُطُوبِ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلسَّخَاءِ ٱلْبِرُّ وَاِنْجَازُ ٱلْوَعْدِ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلْعَقْلِ وَٱلْعِفَّةِ ٱلتَّنَزُّهُ وَٱلرَّغْبَةُ عَنِ ٱلْمَسْئَلَةِ وَٱلْاِقْتِصَارُ عَلَى اَدْنَى مَعِيشَةٍ وَمَا اَشْبَهَ ذٰلِكَ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلسَّخَاءِ ٱلْاِتْلَافُ وَٱلْاِسْرَافُ وَمَا جَانَسَ ذٰلِكَ. وَعَنْ تَرْكِيبِ ٱلشَّجَاعَةِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ اِنْكَارُ ٱلْفَوَاحِشِ وَٱلْغَيْرَةُ عَلَى ٱلْحَرِيمِ. وَعَنِ ٱلسَّخَاءِ مَعَ ٱلْعِفَّةِ ٱلْاِسْعَافُ بِٱلْقُوتِ وَٱلْاِيثَارُ عَلَى ٱلنَّفْسِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. قَالَ وَكُلُّ

وَاحِدٍ مِنْ هٰذِهِ ٱلْفَضَائِلِ ٱلْأَرْبَعِ ٱلْمُتَقَدِّمِ ذِكْرُهَا وَسَطٌ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مَذْمُومَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَدِيحِ ٱلْمَنْصُوصِ عَلَيْهِ قَوْلُ زُهَيْرٍ :

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وُجُوهُهُمْ   وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا ٱلْقَوْلُ وَٱلْفِعْلُ

وَإِنْ جِئْتَهُمْ أَلْفَيْتَ حَوْلَ بُيُوتِهِمْ   مَجَالِسَ قَدْ يُشْفَى بِأَحْلَامِهَا ٱلْجَهْلُ

عَلَى مُكْثِرِيهِمْ رِزْقُ مَنْ يَعْتَرِيهِمُ   وَعِنْدَ ٱلْمُقِلِّينَ ٱلسَّمَاحَةُ وَٱلْبَذْلُ

سَعَى بَعْدَهُمْ قَوْمٌ لِكَيْ يُدْرِكُوهُمُ   فَلَمْ يَفْعَلُوا وَلَمْ يُلِيمُوا وَلَمْ يَأْلُوا

وَلَمْ يَكُ مِنْ خَيْرٍ أَتَوْهُ وَإِنَّمَا   تَوَارَثَهُ آبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ

وَهَلْ يُنْبِتُ ٱلْخَطِّيَّ إِلَّا وَشِيجُهُ   وَتُغْرَسُ إِلَّا فِي مَنَابِتِهَا ٱلنَّخْلُ

وَقَوْلُهُ :

مَنْ يَلْقَ يَوْمًا عَلَى عِلَّاتِهِ هَرِمًا   يَلْقَ ٱلسَّمَاحَةَ مِنْهُ وَٱلنَّدَى خُلُقَا

لَيْثٌ بِعَثَّرَ يَصْطَادُ ٱلرِّجَالَ إِذَا   مَا كَذَّبَ ٱللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقَا

يَطْعَنُهُمْ مَا ٱرْتَمَوْا حَتَّى إِذَا طَعَنُوا   ضَارَبَ حَتَّى إِذَا مَا ضَارَبُوا ٱعْتَنَقَا

لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ ٱلدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ   أُفُقَ ٱلسَّمَاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ ٱلْأُفُقَا

وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ قَصْدُ ٱلشِّعْرِ فِي مَدْحِ ٱلْوَزِيرِ وَٱلْكَاتِبِ عَلَى مَا ٱخْتَارَهُ قُدَامَةُ وَغَيْرُهُ مِمَّا نَاسَبَ حُسْنَ ٱلرَّوِيَّةِ وَسُرْعَةَ ٱلْخَاطِرِ بِٱلصَّوَابِ وَشِدَّةَ ٱلْحَزْمِ وَقِلَّةَ ٱلْغَفْلَةِ وَجَوْدَةَ ٱلنَّظَرِ لِلْخَلِيفَةِ وَٱلنِّيَابَةِ عَنْهُ فِي ٱلْمُعْضِلَاتِ بِٱلرَّأْيِ أَوْ بِٱلذَّاتِ كَمَا قَالَ أَبُو نُوَاسٍ :

إِذَا نَابَهُ أَمْرٌ فَإِمَّا كَفَيْتَهُ   وَإِمَّا عَلَيْهِ بِٱلْكَفِيِّ تُشِيرُ

وَبِأَنَّهُ مَحْمُودُ ٱلسِّيرَةِ حَسَنُ ٱلسِّيَاسَةِ لَطِيفٌ فَإِنْ أَضَافَ إِلَى ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْبَلَاغَةِ وَٱلْخَطِّ وَٱلتَّفَنُّنِ فِي ٱلْعِلْمِ كَانَ غَايَةً . وَأَفْضَلُ مَا

مُدِحَ بِهِ ٱلقَائِدُ ٱلجُودُ وَٱلشَّجَاعَةُ وَمَا تَفَرَّعَ مِنْهَا مِنَ ٱلإِفْرَاطِ فِي ٱلنَّجْدَةِ وَسُرْعَةِ ٱلبَطْشِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ. وَيُمْدَحُ ٱلقَاضِي بِمَا نَاسَبَ ٱلعَدْلَ وَٱلإِنْصَافَ وَتَقْرِيبَ ٱلبَعِيدِ فِي ٱلحَقِّ وَتَبْعِيدَ ٱلقَرِيبِ فِي ٱلأَخْذِ لِلضَّعِيفِ مِنَ ٱلقَوِيِّ وَٱلمُسَاوَاةِ بَيْنَ ٱلفَقِيرِ وَٱلغَنِيِّ بِبَسْطِ ٱلوَجْهِ وَلِينِ ٱلجَانِبِ وَقِلَّةِ ٱلمُبَالَاةِ فِي إِقَامَةِ ٱلحُدُودِ وَٱسْتِخْرَاجِ ٱلحُقُوقِ فَإِنْ زَادَ إِلَى ذٰلِكَ وَذَكَرَ ٱلوَرَعَ وَٱلتَّحَرُّجَ وَمَا شَاكَلَهُمَا فَقَدْ بَلَغَ ٱلنِّهَايَةَ. وَصِفَاتُ ٱلقَاضِي كُلُّهَا لَائِقَةٌ بِصَاحِبِ ٱلمَظَالِمِ. وَمَنْ كَانَ دُونَ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثِ ٱلطَّبَقَاتِ سِوَى طَبَقَةِ ٱلمَلِكِ فَلَا أَرَى لِمَدْحِهِ وَجْهًا فَإِنْ دَعَتْ إِلَى ذٰلِكَ ضَرُورَةٌ مُدِحَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِٱلفَضْلِ فِي صِنَاعَتِهِ وَٱلمَعْرِفَةِ بِطَرِيقَتِهِ ٱلَّتِي هُوَ فِيهَا. وَأَكْثَرُ مَا يُعَوَّلُ عَلَى ٱلفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ ٱلَّتِي ذَكَرَهَا قُدَامَةُ وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَيْهَا فَضَائِلُ عَرَضِيَّةٌ أَوْ جِسْمِيَّةٌ كَٱلجَمَالِ وَٱلأُبَّهَةِ وَبَسْطَةِ ٱلخَلْقِ وَسَعَةِ ٱلدُّنْيَا وَكَثْرَةِ ٱلعَيْشِ كَانَ ذٰلِكَ جَيِّدًا. إِلَّا أَنَّ قُدَامَةَ قَدْ أَبَى مِنْهُ وَأَنْكَرَهُ جُمْلَةً وَلَيْسَ ذٰلِكَ صَوَابًا وَإِنَّمَا ٱلوَاجِبُ عَلَيْهِ أَنْ يَقُولَ: ٱلمَدْحُ بِٱلفَضَائِلِ ٱلنَّفْسَانِيَّةِ أَشْرَفُ وَأَصَحُّ فَأَمَّا إِنْكَارُ مَا سِوَاهَا جُمْلَةً وَاحِدَةً فَمَا أَظُنُّ أَحَدًا يُسَاعِدُهُ فِيهِ وَلَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ وَقَدْ كَرِهَ ٱلحُذَّاقُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلمُلُوكُ بِمَا نَاسَبَ قَوْلَ مُوسَى شَهَوَاتٍ وَيُرْوَى لِغَيْرِهِ:

أَنْتَ نِعْمَ ٱلمَتَاعُ لَوْ كُنْتَ تَبْقَى ... غَيْرَ أَنْ لَا بَقَاءَ لِلْإِنْسَانِ

لَيْسَ فِيمَا بَدَا لَنَا مِنْكَ عَيْبٌ ... عَابَهُ ٱلنَّاسُ غَيْرَ أَنَّكَ فَانِي

وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِ ٱلْمُلُوكِ اَنَّهُ قَالَ مَا لِهٰؤُلاءِ ٱلشُّعَرَاءِ قَاتَلَهُمُ ٱللّٰهُ رُبَّمَا ذَكَّرُونَا شَيْئًا نَحْنُ اَكْثَرُ لَهُ ذِكْرًا مِنْهُمْ فَيُنَغِّصُونَ بِهِ عَلَيْنَا اَوْقَاتَ لَذَّاتِنَا يَعْنِي بِذٰلِكَ ٱلْمَوْتَ. وَمِنْ اَبْشَعِ مَا فِي ذٰلِكَ قَوْلُ اَبِي تَمَّامٍ :

فَلْيَطُلْ عُمْرُهُ فَلَوْ مَاتَ فِي طَوْ سٍ مُقِيمًا لَمَاتَ فِيهَا غَرِيبَا

مَا ٱلَّذِي دَعَاهُ اِلَى ذِكْرِ ٱلْمَوْتِ هٰهُنَا اِلَّا ٱلنَّكَدُ وَٱلْبَغَاضَةُ وَاَجْمَعَ ٱلنَّاسُ عَلَى تَقْدِيمِ قَوْلِ كَعْبِ بْنِ زُهَيْرٍ يَمْدَحُ ٱلرَّسُولَ :

تَحْمِلُهُ ٱلنَّاقَةُ ٱلْاَدْمَاءُ مُعْتَجِرًا بِٱلْبُرْدِ كَٱلْبَدْرِ جَلَّى لَيْلَةَ ٱلظُّلَمِ

وَفِي عِطَافَيْهِ اَوْ اَثْنَاءِ رَيْطَتِهِ مَا يَعْلَمُ ٱللّٰهُ مِنْ دِينٍ وَمِنْ كَرَمِ

وَٱلْجُهَّالُ يَرْوُونَ ٱلْبَيْتَ لِاَبِي دِعْبِلٍ ٱلْجُمَحِيِّ وَيُنَاسِبُهُ قَوْلُ ٱلْعَجَّاجِ :

يَحْمِلْنَ كُلَّ سُؤْدُدٍ وَفَخْرِ يَحْمِلْنَ مَا نَدْرِي وَمَا لَا نَدْرِي

قَالَ ٱلْاَصْمَعِيُّ اَصْلُهُ مِنْ قَوْلِ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ :

وَفَعَلْنَا بِهِمْ كَمَا عَلِمَ ٱللّٰهُ وَمَا اِنْ لِلْحَائِنِينَ دِمَاءُ

قَالَ وَلَمْ يُقَلْ شِعْرٌ قَطُّ اَحْسَنُ مِنْ هٰذِهِ ٱلثَّلَاثَةِ ٱلْمَعَانِي. قَالَ اَبُو ٱلْعَبَّاسِ ٱلْمُبَرِّدُ: مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَحْمِلُ ٱلْمَدْحَ فَيَكُونُ ذٰلِكَ وَجْهًا حَسَنًا لِبُلُوغِهِ ٱلْاِرَادَةَ مَعَ خُلُوِّهِ مِنَ ٱلْاِطَالَةِ وَبُعْدِهِ عَنِ ٱلْاِكْثَارِ وَدُخُولِهِ فِي ٱلْاِخْتِصَارِ وَذٰلِكَ نَحْوُ قَوْلِ ٱلْحُطَيْئَةِ :

تَزُورُ فَتًى يُعْطِي عَلَى ٱلْحَمْدِ مَالَهُ وَيَعْلَمُ اَنَّ ٱلْمَرْءَ غَيْرُ مُخَلَّدِ

كَسُوبٌ وَمِتْلَافٌ اِذَا مَا سَاَلْتَهُ تَهَلَّلَ وَٱهْتَزَّ ٱهْتِزَازَ ٱلْمُهَنَّدِ

مَتَى تَأْتِهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ   تَجِدْ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدِ

تَصَرَّفَ فِي أَبْيَاتِهِ هٰذِهِ فِي أَصْنَافِ ٱلْمَدِيحِ وَأَتَى بِجِمَاعِ ٱلْوَصْفِ وَجُمْلَةِ ٱلْمَدْحِ عَلَى سَبِيلِ ٱلِٱقْتِصَادِ فِي ٱلْبَيْتِ ٱلْآخِرِ. وَمِثْلُهُ قَوْلُ ٱلشَّمَّاخِ:

رَأَيْتُ عُرَابَةَ ٱلْأَوْسِيَّ يَسْمُو   إِلَى ٱلْخَيْرَاتِ مُنْقَطِعَ ٱلْقَرِينِ

إِذَا مَا رَايَةٌ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ   تَلَقَّاهَا عُرَابَةُ بِٱلْيَمِينِ

وَأَفْضَلُ مَدْحٍ مُدِحَ بِهِ ٱلْمُلُوكُ وَأَكْثَرُهُ إِصَابَةً لِلْغَرَضِ مَا يُنَاسِبُ قَوْلَ ٱبْنِ هَرْمَةَ فِي ٱلْمَنْصُورِ:

لَهُ لَحَظَاتٌ عَنْ حِفَافِ سَرِيرِهِ   إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَنَائِلُ

فَأَمَّا ٱلَّذِي آمَنْتَ آمَنَهُ ٱلرَّدَى   وَأَمَّا ٱلَّذِي أَوْعَدْتَ بِٱلثُّكْلِ ثَاكِلُ

وَقَوْلُ أَبِي ٱلْعَتَاهِيَةِ يَمْدَحُ ٱلْهَادِيَ:

يَضْطَرِبُ ٱلْخَوْفُ وَٱلرَّجَاءُ إِذَا   حَرَّكَ مُوسَى ٱلْقَضِيبَ أَوْ فَكَّرْ

وَكَذٰلِكَ قَوْلُ ٱلْحَزِينِ ٱلْكِنَانِيِّ فِي عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱبْنِ مَرْوَانَ وَتُرْوَى لِلْفَرَزْدَقِ فِي عَلِيِّ بْنِ ٱلْحُسَيْنِ وَقِيلَ بَلْ قَالَهَا فِي ٱللَّعِينِ ٱلْمِنْقَرِيِّ وَقِيلَ هِيَ لِدَاوُدَ بْنِ مُسْلِمٍ فِي قُثَمَ بْنِ ٱلْعَبَّاسِ ٱبْنِ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ عَبَّاسٍ:

فِي كَفِّهِ خَيْزُرَانٌ رِيحُهُ عَبِقٌ   مِنْ كَفِّ أَرْوَعَ فِي عِرْنِينِهِ شَمَمُ

يُغْضِي حَيَاءً وَيُغْضَى مِنْ مَهَابَتِهِ   فَمَا يُكَلَّمُ إِلَّا حِينَ يَبْتَسِمُ

وَٱجْتَمَعَ ٱلشُّعَرَاءُ بِبَابِ ٱلْمُعْتَصِمِ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُحْسِنُ أَنْ يَقُولَ مِثْلَ قَوْلِ مَنْصُورٍ ٱلنَّمَرِيِّ فِي ٱلرَّشِيدِ:

إِنَّ ٱلْمَكَارِمَ وَٱلْمَعْرُوفَ أَوْدِيَةٌ ... أَحَلَّكَ ٱللهُ مِنْهَا حَيْثُ تَجْتَمِعُ

إِذَا رَفَعْتَ ٱمْرَأً فَٱللهُ رَافِعُهُ ... وَمَنْ وَضَعْتَ مِنَ ٱلْأَقْوَامِ مُتَّضِعُ

مَنْ لَمْ يَكُنْ بِأَمِينِ ٱللهِ مُعْتَصِمًا ... فَلَيْسَ بِٱلصَّلَوَاتِ ٱلْخَمْسِ يَنْتَفِعُ

إِنْ أَخْلَفَ ٱلْغَيْثُ لَمْ تُخْلِفْ أَنَامِلُهُ ... أَوْ ضَاقَ أَمْرٌ ذَكَرْنَاهُ فَيَتَّسِعُ

فَلْيَدْخُلْ. فَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ وُهَيْبٍ: فِينَا مَنْ يَقُولُ خَيْرًا مِنْهُ وَأَنْشَدَ:

ثَلَاثَةٌ تُشْرِقُ ٱلدُّنْيَا بِبَهْجَتِهِمْ ... شَمْسُ ٱلضُّحَى وَأَبُو إِسْحَاقَ وَٱلْقَمَرُ

تَحْكِي أَفَاعِيلُهُ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ ... ٱلْغَيْثَ وَٱللَّيْثَ وَٱلصَّمْصَامَةَ ٱلذَّكَرُ

فَأَمَرَ بِإِدْخَالِهِ وَأَحْسَنَ صِلَتَهُ

وَقَالُوا لَمَّا حَضَرَتِ ٱلْحُطَيْئَةَ ٱلْوَفَاةُ قَالَ: بَلِّغُوا ٱلْأَنْصَارَ أَنَّ أَخَاهُمْ أَمْدَحُ ٱلنَّاسِ حَيْثُ يَقُولُ:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهِرُّ كِلَابُهُمْ ... لَا يَسْأَلُونَ عَنِ ٱلسَّوَادِ ٱلْمُقْبِلِ

قَالَ ثَعْلَبٌ بَلْ قَوْلُ ٱلْأَعْشَى:

فَتًى لَوْ يُنَادِي ٱلشَّمْسَ أَلْقَتْ قِنَاعَهَا

أَوِ ٱلْقَمَرَ ٱلسَّارِي لَأَلْقَى ٱلْمَقَالِدَا

أَمْدَحُ مِنْهُ. وَقَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ ٱلْعَلَاءِ: بَيْتُ جَرِيرٍ

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ ٱلْمَطَايَا ... وَأَنْدَى ٱلْعَالَمِينَ بُطُونَ رَاحِ

أَسْيَرُ مَا قِيلَ فِي ٱلْمَدْحِ وَأَسْهَلُهُ. وَقَالَ غَيْرُهُ: بَلْ قَوْلُ ٱلْأَخْطَلِ:

شُمْسُ ٱلْعَدَاوَةِ حَتَّى يُسْتَقَادَ لَهُمْ ... وَأَعْظَمُ ٱلنَّاسِ أَحْلَامًا إِذَا قَدَرُوا

وَقَالَ دِعْبِلٌ بَلْ قَوْلُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ ٱلْقَيْنِيِّ

أَضَاءَتْ لَهُمْ أَحْسَابُهُمْ وَوُجُوهُهُمْ

دُجَى ٱللَّيْلِ حَتَّى نَظَّمَ ٱلْجَزْعَ ثَاقِبُهُ

قَالَ : وَقَدْ تَنَازَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ يَعْنِي بَيْتَ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ قَوْمٌ وَفِي بَيْتِ حَسَّانَ فِي آلِ جَفْنَةَ وَبَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ :

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ　　إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَبَيْتُ أَبِي ٱلطَّمَحَانِ أَشْعَرُهَا. قَالَ ٱلْحَاتِمِيُّ : بَلْ بَيْتُ زُهَيْرٍ :

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا　　كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ

وَحُكِيَ عَنْ عَلِيِّ بْنِ هَارُونَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ قَالَ : أَجْمَعَ أَهْلُ ٱلْعِلْمِ أَنَّ بَيْتَيْ أَبِي نُوَاسٍ أَجْوَدُ بَيْتَيْنِ فِي ٱلْمَدِيحِ لِلْمُوَلَّدِينَ وَهُمَا :

أَنْتَ ٱلَّذِي تَأْخُذُ ٱلْأَيْدِي بِحُجْزَتِهِ

إِذَا ٱلزَّمَانُ عَلَى أَنْيَابِهِ كَلَحَا

وَكُنْتَ بِٱلدَّهْرِ عَيْنًا غَيْرَ غَافِلَةٍ

مِنْ جُودِ كَفِّكَ تَأْسُو كُلَّمَا جَرَحَا

وَحَكَى ٱلْحَاتِمِيُّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ ٱلْوَاحِدِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ يَحْيَى قَالَ : سَمِعْتُ ٱبْنَ ٱلْأَعْرَابِيِّ يَقُولُ : أَمْدَحُ بَيْتٍ قَالَهُ مُوَلَّدٌ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

تَغَطَّيْتُ مِنْ دَهْرِي بِظِلِّ جَنَاحِهِ　　فَعَيْنِي تَرَى دَهْرِي وَلَيْسَ يَرَانِي

فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامُ مَا ٱسْمِي مَا دَرَتْ

وَأَيْنَ مَكَانِي مَا عَرَفْنَ مَكَانِي

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: نَحْنُ إِلَى ٱلْإِنْصَافِ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَى ٱلْمُكَابَرَةِ وَٱلْخِلَافِ وَأَبُو نُوَاسٍ ذَهَبَ مَذْهَبًا لَطِيفًا يَخْرُجُ لَهُ فِيهِ ٱلْعُذْرُ وَٱلتَّأْوِيلُ وَإِلَّا فَمَا فِي صِفَةِ ٱلْخُمُولِ أَشَدُّ مِمَّا ذُكِرَ لَاسِيَّمَا عَلَى رِوَايَةِ مَنْ رَوَى (فَلَوْ تَسْأَلُ ٱلْأَيَّامَ). وَمِنْ جَيِّدِ مَا سَمِعْتُ لِمُحْدَثٍ وَأَظُنُّهُ لِٱبْنِ ٱلرُّومِيِّ فِي عُبَيْدِ ٱللّٰهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ وَرَأَيْتُ مَنْ يَرْوِيهِ لِأَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ ٱلْكَاتِبِ أَبِي ٱلْحَسَنِ:

إِذَا أَبُو قَاسِمٍ جَادَتْ يَدَاهُ لَنَا
لَمْ يُحْمَدِ ٱلْأَجْوَدَانِ ٱلْبَحْرُ وَٱلْمَطَرُ

وَإِنْ أَضَاءَتْ لَنَا أَنْوَارُ غُرَّتِهِ
تَضَاءَلَ ٱلنَّيِّرَانِ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ

وَإِنْ مَضَى رَأْيُهُ أَوْ جَدَّ عَزْمَتُهُ
تَأَخَّرَ ٱلْمَاضِيَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْقَدَرُ

مَنْ لَمْ يَبِتْ حَذِرًا مِنْ سَطْوِ صَوْلَتِهِ
لَمْ يَدْرِ مَا ٱلْمُزْعِجَانِ ٱلسَّيْفُ وَٱلْحَذَرُ

يَنَالُ بِٱلظَّنِّ مَا يَعْيَا ٱلْعِيَانُ بِهِ
وَٱلشَّاهِدَانِ عَلَيْهِ ٱلْعَيْنُ وَٱلْأَثَرُ

كَأَنَّهُ وَزِمَامُ ٱلدَّهْرِ فِي يَدِهِ
يَرَى عَوَاقِبَ مَا يَأْتِي وَمَا يَذَرُ

قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَخْلَبُ ٱلْمَدْحِ وَأَكْثَرُهُ مَلَقًا قَوْلُ زُهَيْرِ بْنِ أَبِي سُلْمَى:

تَرَاهُ إِذَا مَا جِئْتَهُ مُتَهَلِّلًا ... كَأَنَّكَ تُعْطِيهِ ٱلَّذِي أَنْتَ سَائِلُهْ
أَخُو ثِقَةٍ لَا تُتْلِفُ ٱلْخَمْرُ مَالَهُ ... وَلٰكِنَّهُ قَدْ يُتْلِفُ ٱلْمَالَ نَائِلُهْ
غَدَوْتُ عَلَيْهِ غُدْوَةً فَرَأَيْتُهُ ... قُعُودًا لَدَيْهِ بِٱلصَّرِيمِ عَوَاذِلُهْ
يُفَدِّينَهُ طَوْرًا وَطَوْرًا يَلُمْنَهُ ... وَأَعْيَا فَمَا يَدْرِينَ أَيْنَ مَخَاتِلُهْ
فَأَعْرَضْنَ عَنْهُ عَنْ كَرِيمٍ مُرَزَّإٍ ... جَمُوعٍ عَلَى ٱلْأَمْرِ ٱلَّذِي هُوَ فَاعِلُهْ

وَقَوْلُ طُفَيْلٍ:

جَزَى ٱللهُ عَنَّا جَعْفَرًا حِينَ أَزْلَقَتْ ... بِنَا نَعْلُنَا فِي ٱلْوَاطِئِينَ وَزَلَّتِ(١)
أَبَوْا أَنْ يَمَلُّونَا وَلَوْ أَنَّ أُمَّنَا ... تُلَاقِي ٱلَّذِي لَاقَوْهُ مِنَّا لَمَلَّتِ

وَسَأَلَ ٱلرَّشِيدُ ٱلْمُفَضَّلَ ٱلضَّبِّيَّ: أَيُّ بَيْتٍ قَالَتِ ٱلْعَرَبُ أَمْدَحُ فَقَالَ:

أَغَرُّ أَبْلَجُ تَأْتَمُّ ٱلْهُدَاةُ بِهِ ... كَأَنَّهُ عَلَمٌ فِي رَأْسِهِ نَارُ

قَالَ شَرَاحِيلُ بْنُ مَعْنِ بْنِ زَائِدَةَ: كُنْتُ أَسِيرُ تَحْتَ قُبَّةِ يَحْيَى ٱبْنِ خَالِدٍ وَقَدْ حَجَّ مَعَ ٱلرَّشِيدِ وَعَدِيلُهُ أَبُو يُوسُفَ ٱلْقَاضِي إِذْ أَعْرَابِيٌّ مِنْ بَنِي أَسَدٍ كَانَ يَلْقَاهُ إِذَا حَجَّ فَيَمْدَحُهُ فَأَنْشَدَهُ شِعْرًا أَنْكَرَ يَحْيَى مِنْهُ بَيْتًا فَقَالَ: يَا أَخَا بَنِي أَسَدٍ أَلَمْ أَنْهَكَ عَنْ مِثْلِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ أَلَا قُلْتَ كَمَا قَالَ ٱلشَّاعِرُ:

بَنُو مَطَرٍ يَوْمَ ٱللِّقَاءِ كَأَنَّهُمْ ... لِجَارِهِمِ بَيْنَ ٱلسِّمَاكَيْنِ مَنْزِلُ
بَهَالِيلُ فِي ٱلْإِسْلَامِ سَادُوا وَلَمْ يَكُنْ ... كَأَوَّلِهِمْ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ أَوَّلُ
هُمُ ٱلْقَوْمُ إِنْ قَالُوا أَصَابُوا وَإِنْ دُعُوا ... أَجَابُوا وَإِنْ أَعْطَوْا أَطَابُوا وَأَجْزَلُوا

(١) وكان الاصل: بنا فعلنا في الواطئين وزلت وهو تصحيف

وَلَا يَسْتَطِيعُ ٱلْفَاعِلُونَ فِعَالَهُمْ   وَإِنْ أَحْسَنُوا فِي ٱلنَّائِبَاتِ وَأَجْمَلُوا

فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لِمَنْ هٰذَا ٱلشِّعْرُ أَضْحَكَ ٱللّٰهُ فَمَا سَمِعْتُ أَحْسَنَ مِنْهُ فَقَالَ يَحْيَى يَقُولُهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِي هٰذَا ٱلْفَتَى وَأَوْمَأَ إِلَيَّ فَكَانَ قَوْلُهُ أَسَرَّ إِلَيَّ مِنْ جَلِيلِ ٱلْفَوَائِدِ ثُمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ وَقَالَ يَا شَرَاحِيلُ أَنْشِدْنِي أَجْوَدَ مَا قَالَهُ ٱبْنُ أَبِي حَفْصَةَ فِي أَبِيكَ فَأَنْشَدْتُهُ:

نِعْمَ ٱلْمُنَاخُ لِرَاهِبٍ وَلِرَاغِبٍ   مِمَّنْ تُصِيبُ حَوَائِجُ ٱلْأَزْمَانِ

مَعْنُ بْنُ زَائِدَةَ ٱلَّذِي زِيدَتْ بِهِ   شَرَفًا إِلَى شَرَفٍ بَنُو شَيْبَانِ

إِنْ عُدَّ أَيَّامُ ٱللِّقَاءِ فَإِنَّمَا   يَوْمَاهُ يَوْمُ نَدًى وَيَوْمُ طِعَانِ

يَكْسُو ٱلْأَسِرَّةَ وَٱلْمَنَابِرَ بَهْجَةً   وَيَزِينُهَا بِجَهَارَةٍ وَبَيَانِ

تَمْضِي أَسِنَّتُهُ وَيُسْفِرُ وَجْهُهُ   فِي ٱلْحَرْبِ عِنْدَ تَغَيُّرِ ٱلْأَلْوَانِ

نَفْسِي فِدَاكَ أَبَا ٱلْوَلِيدِ إِذَا بَدَا   رَهَجُ ٱلسَّنَابِكِ وَٱلرِّمَاحُ دَوَانِ

فَقَالَ يَحْيَى أَنْتَ لَا تَدْرِي جَيِّدَ مَا مُدِحَ بِهِ أَبُوكَ وَأَجْوَدُ مِنْ هٰذَا قَوْلُهُ:

تَشَابَهَ يَوْمَاهُ عَلَيْنَا فَأَشْكَلَا   فَلَا نَحْنُ نَدْرِي أَيُّ يَوْمَيْهِ أَفْضَلُ

أَيَوْمُ نَدَاهُ ٱلْغَمْرُ أَمْ يَوْمُ بَأْسِهِ   وَمَا مِنْهُمَا إِلَّا أَغَرُّ مُحَجَّلُ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَنْقُلُ ٱلْمَدِيحَ عَنْ رَجُلٍ إِلَى رَجُلٍ وَكَانَ ذٰلِكَ دَأْبَ ٱلْبُحْتُرِيِّ وَفَعَلَهُ أَبُو تَمَّامٍ فِي قَصَائِدَ مِنْهَا:

قَدْكَ ٱتَّئِبْ أَرْبَيْتَ فِي ٱلْغُلَوَاءِ

نَقَلَهَا عَنْ يَحْيَى بْنِ ثَابِتٍ إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ حَسَّانَ ٱلضَّبِّيِّ

البحث الرابع

في الافتخار

(من الكتاب نفسهِ)

اَلإِفْتِخَارُ هُوَ ٱلْمَدْحُ بِعَيْنِهِ إِلَّا أَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَخُصُّ بِهِ نَفْسَهُ وَقَوْمَهُ فَكُلَّمَا حَسُنَ فِي ٱلْمَدْحِ حَسُنَ فِي ٱلإِفْتِخَارِ وَكُلَّمَا قَبُحَ فِيهِ قَبُحَ فِي ٱلإِفْتِخَارِ فَمِنْ أَبْيَاتِ ٱلإِفْتِخَارِ قَوْلُ ٱلفَرَزْدَقِ :

إِنَّ ٱلَّذِي سَمَكَ ٱلسَّمَاءَ بَنَى لَنَا بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ

قَالَ أَحْمَدُ بْنُ يَحْيَى بْنُ تَغْلَبٍ : أَفْخَرُ بَيْتٍ قَالَتْهُ ٱلْعَرَبُ قَوْلُ ٱمْرِئِ ٱلقَيْسِ :

مَا يُنْكِرُ ٱلنَّاسُ مِنَّا حِينَ نَمْلِكُهُمْ كَانُوا عَبِيدًا وَكُنَّا نَحْنُ أَرْبَابَا

وَقَالَ دِعْبِلٌ أَفْخَرُ ٱلشِّعْرِ قَوْلُ كَعْبٍ :

وَبِبِئْرِ بَدْرٍ إِذْ يَرُدُّ وُجُوهَهُمْ جِبْرِيلُ تَحْتَ لِوَائِنَا وَمُحَمَّدُ

وَقَالَ ٱلحَاتِمِيُّ : قَوْلُ ٱلفَرَزْدَقِ :

تَرَى ٱلنَّاسَ مَا سِرْنَا يَسِيرُونَ خَلْفَنَا وَإِنْ نَحْنُ أَوْمَأْنَا إِلَى ٱلنَّاسِ وَقَفُوا

قَالَ وَيَتْلُوهُ قَوْلُ جَرِيرٍ :

إِذَا غَضِبَتْ عَلَيْكَ بَنُو تَمِيمٍ وَجَدْتَ ٱلنَّاسَ كُلَّهُمُ غِضَابَا

وَقَالَ آخَرُ : بَلْ قَوْلُ ٱلفَرَزْدَقِ :

وَنَحْنُ إِذَا عَدَّتْ مَعَدٌّ قَدِيمَهَا مَكَانَ ٱلنَّوَاصِي مِنْ وُجُوهِ ٱلسَّوَابِقِ

وَقَالَ غَيْرُهُ : بَلْ قَوْلُ ٱلفَرَزْدَقِ لِجَرِيرٍ :

فَإِذَا نَظَرْتَ رَأَيْتَ فَوْقَكَ دَارِمًا   وَٱلشَّمْسَ حَيْثُ تَقَطَّعُ ٱلْأَبْصَارُ

وَقِيلَ بَلْ قَوْلُ ٱبْنِ مَيَّادَةَ :

وَلَوْ أَنَّ قَيْسًا قَيْسَ غَيْلَانَ أَقْسَمَتْ
عَلَى ٱلشَّمْسِ لَمْ يَطْلُعْ عَلَيْكَ حِجَابُهَا

وَٱفْخَرُ بَيْتٍ صَنَعَهُ مُحْدَثٌ عِنْدَهُمْ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ :

إِذَا مَا غَضِبْنَا غَضْبَةً مُضَرِيَّةً
هَتَكْنَا حِجَابَ ٱلشَّمْسِ أَوْ قَطَرَتْ دَمَا (١)

إِذَا مَا أَعَرْنَا سَيِّدًا مِنْ قَبِيلَةٍ   ذُرَى مِنْبَرٍ صَلَّى عَلَيْنَا وَسَلَّمَا

وَمِنْ جَيِّدِ ٱلِٱفْتِخَارِ قَوْلُ بَكْرِ بْنِ ٱلنَّطَّاحِ :

وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنَّا يَعِشْ بِحُسَامِهِ   وَمَنْ يَفْتَقِرْ مِنْ سَائِرِ ٱلنَّاسِ يَسْأَلِ

وَنَحْنُ وُصِفْنَا دُونَ كُلِّ قَبِيلَةٍ   بِبَأْسٍ شَدِيدٍ فِي ٱلْكِتَابِ ٱلْمُنَزَّلِ

وَإِنَّا لَنَلْهُو فِي ٱلْحُرُوبِ كَمَا لَهَتْ   فَتَاةٌ بِعِقْدٍ أَوْ سِخَابِ قَرَنْفُلِ

يَعْنِي قَوْلَ ٱلْقُرْآنِ : سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ . وَبِسَبَبِ هٰذَا ٱلشِّعْرِ وَأَشْبَاهِهِ طَلَبَهُ ٱلرَّشِيدُ أَشَدَّ طَلَبٍ فَقَالَ : كَيْفَ تَفْتَخِرُ عَلَى مُضَرَ وَمِنْهُمُ ٱلنَّبِيُّ . فَهٰذَا ٱلِٱفْتِخَارُ بِٱلشَّجَاعَةِ خَاصَّةً . وَمِمَّنِ ٱفْتَخَرَ بِٱلْكَثْرَةِ أَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ فَقَالَ :

مَا تَطْلُعُ ٱلشَّمْسُ إِلَّا عِنْدَ أَوَّلِنَا   وَلَا تَغِيبُ إِلَّا عِنْدَ آخِرِنَا

وَقَدْ أَنْكَرَ قُدَامَةُ أَنْ يُمْدَحَ ٱلْإِنْسَانُ بِآبَائِهِ دُونَ أَنْ يَكُونَ مَمْدُوحًا بِنَفْسِهِ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ ٱلنَّاسِ لَا يَكُونُونَ كَآبَائِهِمْ . وَٱلَّذِي

(١) ويروى : هتكنا سماء الله او امطرت دما

ذَهَبَ إِلَيْهِ حَسَنٌ. وَأَنكَرَ ٱلْجُرْجَانِيُّ عَلَى أَبِي ٱلطَّيِّبِ قَوْلَهُ :

مَا بِقَوْمِي شَرُفْتُ بَلْ شَرُفُوا بِي بَلْ بِنَفْسِي فَخَرْتُ لَا بِجُدُودِي

وَقَالَ إِنَّمَا أَخَذَهُ مِنْ قَوْلِ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ حَيْثُ يَقُولُ :

وَمَا سَوَّدَتْ عِجْلًا مَآثِرُ عِنْدَهُمْ وَلٰكِنْ بِهِمْ سَادَتْ عَلَى غَيْرِهَا عِجْلُ

قَالَ وَهٰذَا مَعْنًى سُوءٌ يَغُضُّ مِنْ حَسَبِ ٱلْمَمْدُوحِ وَيُحَقِّرُ مِنْ شَأْنِ سَلَفِهِ وَإِنَّمَا طَرِيقَةُ ٱلْمَدْحِ أَنْ يُجْعَلَ ٱلْمَمْدُوحُ لِشَرَفِ آبَائِهِ وَٱلْآبَاءُ تَزْدَادُ شَرَفًا بِهِ فَيُجْعَلَ لِكُلٍّ مِنْهُمْ فِي ٱلْفَخْرِ حَظًّا وَفِي ٱلْمَدْحِ نَصِيبًا. وَإِذَا حُصِّلَتِ ٱلْحَقَائِقُ كَانَ ٱلنَّصِيبَانِ مَقْسُومَيْنِ بَلْ كَانَ ٱلْكُلُّ خَالِصًا لِكُلِّ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لِأَنَّ شَرَفَ ٱلْوَالِدِ جُزْءٌ مِنْ مِيرَاثِهِ وَمُنْتَقِلٌ إِلَى وَلَدِهِ كَٱنْتِقَالِ مَالِهِ فَإِذَا رُعِيَ وَحُرِثَ ثَبَتَ وَٱزْدَادَ وَإِنْ أُهْمِلَ وَضُيِّعَ هَلَكَ وَكَذٰلِكَ شَرَفُ ٱلْوَالِدِ يَعُمُّ ٱلْقَبِيلَةَ وَلِلْوَلَدِ مِنْهُ ٱلْقِسْمُ ٱلْأَوْفَرُ وَٱلْحَظُّ ٱلْأَكْبَرُ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ: وَٱلَّذِي يَقَعُ عَلَيْهِ ٱلِٱخْتِيَارُ عِنْدَهُمْ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱلْمُتَوَكِّلِ ٱللَّيْثِيِّ :

لَسْنَا وَإِنْ أَحْسَابُنَا كَرُمَتْ يَوْمًا عَلَى ٱلْأَحْسَابِ نَتَّكِلُ

نَبْنِي كَمَا كَانَتْ أَوَائِلُنَا تَبْنِي وَنَفْعَلُ مِثْلَمَا فَعَلُوا

وَقَوْلَ عَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ :

وَإِنِّي وَإِنْ كُنْتُ ٱبْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ وَفِي ٱلسِّرِّ مِنْهَا وَٱلصَّرِيحِ ٱلْمُهَذَّبِ

فَمَا سَوَّدَتْنِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةٍ أَبَى ٱللّٰهُ أَنْ أَسْمُو بِأُمٍّ وَلَا أَبِ

وَمِنَ ٱلْفَخْرِ مَا قَالَ ٱلْمُوَلَّدُونَ قَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ٱلْمَوْصِلِيِّ

يَفْخَرُ بِوَلَايَةٍ مِنْ خُزَيْمَةَ بْنِ خَازِمٍ ٱلنَّهْشَلِيِّ :

إِذَا مُضَرُ ٱلْحَمْرَاءُ كَانَتْ أَرُومَتِي ... وَقَامَ بِنَصْرِي خَازِمٌ وَٱبْنُ خَازِمِ

عَطَسْتُ بِأَنْفٍ شَامِخٍ وَتَنَاوَلَتْ ... يَدَايَ ٱلثُّرَيَّا قَاعِدًا غَيْرَ قَائِمِ

وَمِنْ قَوْلِ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ يَفْخَرُ بِقَوْمِهِ بَنِي شَيْبَانَ ·

يَا آلَ شَيْبَانَ لَا غَارَتْ نُجُومُكُمُ ... وَلَا خَبَتْ نَارُكُمْ مِنْ بَعْدِ تَوْقِيدِ

أَنْتُمْ دَعَائِمُ هٰذَا ٱلْمُلْكِ مُذْ رَكَضَتْ ... قَبْلُ ٱلْخُيُولُ لِإِبْرَامٍ وَتَوْكِيدِ

ٱلْمُنْعِمُونَ إِذَا مَا أَزْمَةٌ أَزَمَتْ ... وَٱلْوَاهِبُونَ عَتِيقَاتِ ٱلْمَرَاوِيدِ

سُيُوفُكُمْ أَفْقَدَتْ كِسْرَى مَرَازِبَهُ ... فِي يَوْمِ ذِي قَارَ إِذْ جَاؤُوا لِمَوْعُودِ

فَهٰذَا هُوَ ٱلْفَخْرُ ٱلْحَلَالُ غَيْرُ ٱلْمُدَّعَى فِيهِ وَلَا ٱلْمُنْتَحَلِ ·

وَعَابَ ٱلْأَصْمَعِيُّ وَغَيْرُهُ قَوْلَ عَامِرِ بْنِ مُعْسِرِ بْنِ أَسْحَمَ يَصِفُ أَسِيرًا :

فَظَلَّ يُخَالِسُ ٱلْمَذَقَاتِ فِينَا ... يُقَادُ كَأَنَّهُ جَمَلٌ رَبِيقُ

وَذٰلِكَ لِأَنَّهُ وَصَفَ أَسِيرَهُمْ بِأَنَّهُ جَائِعٌ يُخَالِسُ ٱلْقَلِيلَ ٱلْمَمْذُوقَ مِنَ ٱللَّبَنِ إِنَّمَا ذٰلِكَ مِنَ ٱلْجَهْلِ . وَمِنْ أَجْوَدِ قَصِيدَةٍ ٱفْتَخَرَ فِيهَا شَاعِرٌ قَصِيدَةُ ٱلسَّمَوْأَلِ بْنِ عَادِيَاءَ فَإِنَّهُ قَدْ جَمَعَ فِيهَا ضُرُوبَ ٱلْمَمَادِحِ وَأَنْوَاعَ ٱلْمَفَاخِرِ وَهِيَ مَشْهُورَةٌ



البحث الخامس

في الرثاء

(من الكتاب نفسهِ)

وليس بين الرثاء والمدح فرقٌ الّا ان يُخلط بالرثاء شيءٌ يدلُّ على انَّ المقصود به ميتٌ مثل كان او عدمنا كَيت وكَيت او ما شاكل ذلك ليُعلَم انهُ ميتٌ. وسبيل الرثاء ان يكون ظاهر التفجع بيّن الحسرة مخلوطا بالتلهف والاسف والاستعظام ان كان الميت ملكًا او رئيسا كبيرًا كما قال النابغة في حِصن بن حُذيفة :

يقولون حِصنٌ ثم تأبى نفوسهم   وكيف بحِصنٍ والجبالُ جُموحُ
ولم تلفظِ الموتى القبورُ ولم تزل   نجومُ السماء والاديمُ صحيحُ
فعمَّا قليلٍ ثُمَّ جاءَ نَعيُّهُ   فظلَّ بنديّ القوم وهو ينوحُ

فهذا وما شاكلهُ رثاء الملوك والرؤساء الجِلة والى هذا ذهب ابو العتاهية حين قال : (مات الخليفةُ أيها الثقلان) فرفع الناسُ رؤوسهم وفتحوا عيونهم وقالوا : أنعاهُ الى الجنّ والانس ثُمَّ قال : (فكأنني افطرت في رمضان) يريد انّي بمجاهرتي بهذا القول كأنما جاهرت نهارًا بالافطار في رمضان فكلُّ احدٍ يُنكرُ عليّ ذلك ويستعظمهُ من فعلي وهذا معنًى جيدٌ غريبٌ في لفظٍ رديءٍ غير مُعرِبٍ عمّا في النفس. ومن افضل الرثاء قولُ

ٱلْحُسَيْنِ بْنِ مَطِيرٍ يَرْثِي مَعْنَ بْنَ زَائِدَةَ وَيُرْوَى لِٱبْنِ أَبِي حَفْصَةَ:

فَيَا قَبْرَ مَعْنٍ أَنْتَ أَوَّلُ بُقْعَةٍ
مِنَ ٱلْأَرْضِ خُطَّتْ لِلسَّمَاحَةِ مَوْضِعَا

وَيَا قَبْرَ مَعْنٍ كَيْفَ وَارَيْتَ جُودَهُ
وَقَدْ كَانَ مِنْهُ ٱلْبَرُّ وَٱلْبَحْرُ مُتْرَعَا

بَلَى قَدْ وَسِعْتَ ٱلْجُودَ وَٱلْجُودُ مَيِّتٌ
وَلَوْ كَانَ حَيًّا ضِقْتَ حَتَّى تَصَدَّعَا

فَتًى عِيشَ فِي مَعْرُوفِهِ بَعْدَ مَوْتِهِ
كَمَا كَانَ بَعْدَ ٱلسَّيْلِ مَجْرَاهُ مَرْتَعَا

وَمِمَّا قَصَّرَ بِهِ أَبُو تَمَّامٍ فِي رِثَائِهِ مُحَمَّدَ بْنَ حُمَيْدٍ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا فِي سَبِيلِ ٱللهِ مَنْ عُطِّلَتْ لَهُ   فِجَاجُ سَبِيلِ ٱللهِ وَٱنْثَغَرَ ٱلثَّغْرُ

وَقَدْ أَجَادَ أَيْضًا فِي ٱلْقَصِيدَةِ ٱلَّتِي رَثَى بِهَا أَدْرِيسَ بْنَ بَدْرٍ يَقُولُ فِيهَا:

وَلَمْ أَنْسَ سَعْيَ ٱلْجُودِ خَلْفَ سَرِيرِهِ   بِأَكْسَفِ بَالٍ يَسْتَقِلُّ وَيَظْلَعُ

وَأَبُو تَمَّامٍ مِنَ ٱلْمَعْدُودِينَ فِي إِجَادَةِ ٱلرِّثَاءِ وَمِثْلُهُ دِيكُ ٱلْجِنِّ وَهُوَ أَشْهَرُ فِي هٰذَا مِنْ أَبِي تَمَّامٍ لَهُ فِيهِ طَرِيقٌ قَدِ ٱنْفَرَدَ بِهَا قَالَ فِي عُبَيْدِ ٱللهِ بْنِ سُلَيْمَانَ بْنِ وَهْبٍ:

قَدِ ٱسْتَوَى ٱلنَّاسُ وَمَاتَ ٱلْكَمَالْ   وَصَاحَ صَرْفُ ٱلدَّهْرِ أَيْنَ ٱلرِّجَالْ

هٰذَا أَبُو ٱلْقَاسِمِ فِي نَعْشِهِ   قُومُوا ٱنْظُرُوا كَيْفَ تَسِيرُ ٱلْجِبَالْ

وَمِنْ عَادَةِ ٱلْقُدَمَاءِ أَنْ يَضْرِبُوا ٱلأَمْثَالَ فِي ٱلْمَرَاثِي بِٱلْمُلُوكِ ٱلأَعِزَّةِ وَٱلأُمَمِ ٱلسَّالِفَةِ وَبِٱلْوُعُولِ ٱلْمُمْتَنِعَةِ فِي قُلَلِ ٱلْجِبَالِ وَٱلأُسُودِ ٱلْخَادِرَةِ فِي ٱلْغِيَاضِ وَحُمُرِ ٱلْوَحْشِ ٱلْمُتَصَرِّفَةِ بَيْنَ ٱلْقِفَارِ وَبِٱلنُّسُورِ وَٱلْعِقْبَانِ وَٱلْحَيَّاتِ لِبَأْسِهَا وَطُولِ أَعْمَارِهَا وَذٰلِكَ فِي أَشْعَارِهِمْ كَثِيرٌ مَوْجُودٌ لَا تَكَادُ تَخْلُو مِنْهُ. فَأَمَّا ٱلْمُحْدَثُونَ فَهُمْ إِلَى غَيْرِ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ أَمْيَلُ وَمَذْهَبُهُمْ فِي ٱلرِّثَاءِ أَمْثَلُ فِي وَقْتِنَا هٰذَا وَقَبْلَهُ وَرُبَّمَا جَرَوْا عَلَى سُنَنِ مَنْ قَبْلَهُمْ ٱقْتِدَاءً بِهِمْ وَأَخْذًا بِسُنَّتِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ فِي رِثَائِهِ أَبَا ٱلْوَلِيدِ ٱلأَعْرَابِيَّ وَخَلَفًا ٱلأَحْمَرَ وَمَرَاثِيهِ فِيهِمَا ثَلَاثُ قَوَافٍ مَشْهُورَاتٌ

وَكَمَا صَنَعَ ٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يَرْثِي أَبَاهُ بِٱلْقَصِيدَةِ ٱللَّامِيَّةِ ٱلْمُقَيَّدَةِ فِي ٱلرَّمَلِ أَوَّلُهَا:

رُبَّ حَتْفٍ بَيْنَ أَثْنَاءِ ٱلأَمَلْ ... وَحَيَاةُ ٱلْمَرْءِ ظِلٌّ مُنْتَقِلْ

وَهِيَ مَعْرُوفَةٌ وَلَوْلَا ٱشْتِهَارُ هٰذِهِ ٱلْقَصَائِدِ وَوُجُودُهَا وَخِيفَةُ ٱلتَّطْوِيلِ لَأَثْبَتُّهَا بِهٰذَا ٱلْمَوْضِعِ وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ ٱلشُّعَرَاءِ أَنْ يُقَدِّمُوا قَبْلَ ٱلرِّثَاءِ نَسِيبًا كَمَا يَصْنَعُونَ فِي ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجَاءِ. قَالَ ٱبْنُ ٱلْكَلْبِيِّ وَكَانَ عَلَّامَةً لَا أَعْرِفُ مَرْثِيَةً فِي أَوَّلِهَا نَسِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةَ دُرَيْدِ بْنِ ٱلصِّمَّةِ فِي رِثَاءِ أَخِيهِ خَالِدٍ:

أَرَثَّ جَدِيدُ ٱلْحَبْلِ مِنْ أُمِّ مَعْبَدِ ... لِعَاقِبَةٍ أَوْ أَخْلَفَتْ كُلَّ مَوْعِدِ

وَحَكَى ٱلنَّحَّاسُ عَنْ عَلِيِّ بْنِ سُلَيْمَانَ عَنْ أَبِي ٱلْعَبَّاسِ ٱلأَحْوَلِ أَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لِأَبِي قُحَافَةَ أَعْشَى بَاهِلَةَ إِنَّمَا هِيَ لِأُبْنَةِ ٱلْمُنْتَشِرِ

وَأَسْمُهَا ٱلدَّعْجَاءُ . وَٱلْحَاصِلُ أَنَّ ٱلْمُتَعَارَفَ عِنْدَ أَهْلِ ٱللُّغَةِ أَنَّهُ لَيْسَ لِلْعَرَبِ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ مَرْثِيَّةٌ أَوَّلُهَا تَشْبِيبٌ إِلَّا قَصِيدَةُ دُرَيْدٍ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّهُ ٱلْوَاجِبُ فِي ٱلْجَاهِلِيَّةِ وَٱلْإِسْلَامِ إِلَى وَقْتِنَا هٰذَا وَمِنْ بَعْدِهِ لِأَنَّ ٱلْآخِذَ فِي ٱلرِّثَاءِ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ مَشْغُولًا عَنِ ٱلنَّسِيبِ بِمَا هُوَ فِيهِ مِنَ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلْاهْتِمَامِ بِٱلْمُصِيبَةِ وَإِنَّمَا تَغَزَّلَ دُرَيْدٌ بَعْدَ قَتْلِ أَخِيهِ بِسَنَةٍ وَحِينَ أَخَذَ بِثَارِهِ وَأَدْرَكَ طَائِلَتَهُ

وَمِنَ ٱلْعَجِيبِ أَنْ يَقُولَ عَبْدَةُ بْنُ ٱلطَّيِّبِ فِي تَأْبِينِ قَيْسِ بْنِ عَاصِمٍ ٱلْمِنْقَرِيِّ :

عَلَيْكَ سَلَامُ ٱللهِ قَيْسَ بْنَ عَاصِمٍ ‎ وَرَحْمَتُهُ مَا شَاءَ أَنْ يَتَرَحَّمَا

وَيَقُولَ ٱلْكُمَيْتُ فِي تَأْبِينِ ٱلنَّبِيِّ هٰذَا ٱلْقَوْلَ فَهَلَّا قَالَ مِثْلَ قَوْلِ فَاطِمَةَ :

ٱغْبَرَّ آفَاقُ ٱلسَّمَاءِ وَكُوِّرَتْ ‎ شَمْسُ ٱلنَّهَارِ وَأَظْلَمَ ٱلْعَصْرَانِ

وَٱلنِّسَاءُ أَشْجَى ٱلنَّاسِ قُلُوبًا عِنْدَ ٱلْمُصِيبَةِ وَأَشَدُّهُمْ جَزَعًا عَلَى هَالِكٍ لِمَا رَكَّبَ ٱللهُ تَعَالَى فِي طِبَاعِهِنَّ مِنْ ضَعْفِ ٱلْعَزِيمَةِ

فَٱنْظُرْ إِلَى قَوْلِ جَلِيلَةَ بِنْتِ مُرَّةَ تَرْثِي زَوْجَهَا كُلَيْبًا حِينَ قَتَلَهُ أَخُوهَا جَسَّاسٌ مَا أَشْجَى لَفْظَهَا وَأَظْهَرَ ٱلْفَجِيعَةَ فِيهِ وَكَيْفَ يُثِيرُ ٱلْأَشْجَانَ وَيَقْدَحُ شَرَرَ ٱلنِّيرَانِ وَذٰلِكَ :

يَا ٱبْنَةَ ٱلْأَقْوَامِ إِنْ لُمْتِ فَلَا ‎ تَعْجَلِي بِٱللَّوْمِ حَتَّى تَسْأَلِي

وَمِنْ أَشَدِّ ٱلرِّثَاءِ صُعُوبَةً عَلَى ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَرْثِيَ طِفْلًا أَوِ ٱمْرَأَةً لِضِيقِ ٱلْكَلَامِ عَلَيْهِ فِيهِمَا وَقِلَّةِ ٱلصِّفَاتِ . أَلَا تَرَى مَا صَنَعُوا بِأَبِي

ٱلطَّيِّبِ وَهُوَ نَحْلٌ مُجَوِّدٌ إِذْ ذَكَرَ ٱلْمُحَدِّثُونَ فِي قَوْلِهِ يَذْكُرُ أُمَّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

صَلَاةُ ٱللّٰهِ خَالِقِنَا حَنُوطٌ عَلَى ٱلْوَجْهِ ٱلْمُكَفَّنِ بِٱلْجَمَالِ

وَقَالُوا مَا لَهُ وَلِهٰذِهِ ٱلْعَجُوزِ يَصِفُ جَمَالَهَا وَقَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ : هٰذِهِ ٱسْتِعَارَةُ حِدَادٍ فِي عُرْسٍ فَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱلصَّاحِبُ بِٱلْاسْتِعَارَةِ ٱلْحَنُوطَ فَقَدْ وَٱللّٰهِ ظَلَمَ وَتَعَسَّفَ وَإِنْ كَانَ أَرَادَ ٱسْتِعَارَةَ ٱلْكَفَنِ لِجَمَالِ ٱلْعَجُوزِ فَقَدِ ٱعْتَرَضَ فِي مَوْضِعِ ٱعْتِرَاضٍ إِلَى مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ مَا يَمْحَقُ كُلَّ زَلَّةٍ وَيُعْفِي كُلَّ إِسَاءَةٍ . قَالَ ٱلصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ وَلَقَدْ مَرَرْتُ عَلَى مَرْثِيَةٍ لَهُ فِي أُمِّ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ تَدُلُّ مَعَ فَسَادِ ٱلْحِسِّ عَلَى سُوءِ أَدَبِ ٱلنَّفْسِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يُخَاطِبُ مَلِكًا فِي أُمِّهِ بِقَوْلِهِ :

رِوَاقُ ٱلْعِزِّ فَوْقَكِ مُسْبَطِرٌّ وَمُلْكُ عَلِيٍّ ٱبْنِكِ فِي كَمَالِ

وَلَعَلَّ لَفْظَ ٱلْاسْبِطْرَارِ فِي مَرَاثِي ٱلنِّسَاءِ مِنَ ٱلْخِذْلَانِ ٱلصَّفِيقِ ٱلرَّقِيقِ . وَأَنَا أَقُولُ إِنَّ أَشَدَّ مَا هَجَّنَ هٰذِهِ ٱللَّفْظَةَ وَجَعَلَهَا مَقَامَ قَصِيدَةِ هِجَاءٍ أَنَّهُ قَرَنَهَا بِفَوْقَكِ فَجَاءَ عَمَلًا تَامًّا لَمْ يَبْقَ فِيهِ إِلَّا فَضَاءٌ

وَمِنْ أَصْعَبِ ٱلرِّثَاءِ أَيْضًا جَمْعُ تَعْزِيَةٍ وَتَهْنِئَةٍ فِي مَوْضِعٍ. قَالُوا: لَمَّا مَاتَ مُعَاوِيَةُ ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ بِبَابِ يَزِيدَ فَلَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى ٱلْجَمْعِ بَيْنَ ٱلتَّعْزِيَةِ وَٱلتَّهْنِئَةِ حَتَّى أَتَى عَبْدُ ٱللّٰهِ ٱبْنُ هَمَّامٍ ٱلسَّلُولِيُّ فَدَخَلَ فَقَالَ : يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجَرَكَ ٱللّٰهُ عَلَى ٱلرَّزِيَّةِ . وَبَارَكَ لَكَ فِي ٱلْعَطِيَّةِ . وَأَعَانَكَ عَلَى ٱلرَّعِيَّةِ . فَقَدْ رُزِيتَ عَظِيمًا وَأُعْطِيتَ فَٱشْكُرِ

اَللهَ عَلى مَا أُعطِيتَ وَاَصبِرْ عَلى مَا رُزِيتَ فقدتَ خَلِيفَةَ اللهِ وَأُعطِيتَ خِلَافَةَ اللهِ فَفَارَقتَ جَلِيلًا وَأُعطِيتَ عَظِيمًا اِذْ قَضَى مُعَاوِيَةُ نَحْبَهُ وَوُلِّيتَ الرِّئَاسَةَ وَأُعطِيتَ السِّيَاسَةَ فَاَوْرَدَهُ اللهُ مَوَارِدَ السُّرُورِ وَوَفَّقَكَ لِمَصَالِحِ الأُمُورِ :

فَاصْبِرْ يَزِيدُ فَقَدْ فَارَقْتَ ذَا ثِقَةٍ
فَاشْكُرْ حِبَاءَ الَّذِي بِالْمُلْكِ اَصْفَاكَا

لَا رُزْءَ اَصْبَحَ فِي الأَيَّامِ نَعْلَمُهُ كَمَا رُزِيتَ وَلَا عُقْبَى كَعُقْبَاكَا

فَفَتَحَ لِلنَّاسِ بَابَ القَوْلِ وَعَلَى هٰذَيْنِ البَيْتَيْنِ جَرَى الشُّعَرَاءُ بَعْدَهُ

قَالَ اَبُو نُوَاسٍ يُعَزِّي الفَضْلَ بْنَ الرَّبِيعِ وَيُهَنِّيهِ بِالأَمِينِ :

تَعَزَّ اَبَا العَبَّاسِ عَنْ خَيْرِ هَالِكٍ بِاَكْرَمِ حَيٍّ كَانَ اَوْ هُوَ كَائِنُ

حَوَادِثُ اَيَّامٍ تَدُورُ صُرُوفُهَا لَهُنَّ مَسَاوٍ مَرَّةً وَمَحَاسِنُ

وَفِي الحَيِّ بِالمَيْتِ الَّذِي غَيَّبَ الثَّرَى
فَلَا المُلْكُ مَغْبُونٌ وَلَا المَوْتُ غَابِنُ

وَيُرْوَى فَلَا اَنتَ مَغْبُونٌ . وَاتَّبَعَهُ اَبُو تَمَّامٍ بِالقَصِيدَةِ الَّتِي اَوَّلُهَا (مَا لِلدُّمُوعِ تَرُومُ كُلَّ مَرَامٍ) يَقُولُ فِيهَا لِلوَاثِقِ بَعْدَ المُعْتَصِمِ صَرَفَ فِيهَا الكَلَامَ حَيْثُ شَاءَ وَاَطْنَبَ كَمَا اَرَادَ وَاحْتَجَّ وَاَسْهَبَ وَتَقَدَّمَ فِيهَا عَلَى مَنْ سَلَكَ هٰذِهِ النَّاحِيَةَ مِنَ الشِّعْرِ . وَاَرَادَ ابْنُ الزَّيَّاتِ مُجَارَاتَهُ فَعَلِمَ مِنْ نَفْسِهِ التَّقْصِيرَ فَاقْتَصَرَ عَلَى :

قَدْ قُلْتُ اِنْ غَيَّبُوكَ وَاصْطَفَقَتْ عَلَيْكَ اَيْدٍ بِالتُّرْبِ وَالطِّينِ

اِذْهَبْ فَنِعْمَ المُعِينُ كُنْتَ عَلَى الدُّنْيَا وَنِعْمَ الظَّهِيرُ لِلدِّينِ

لَنْ يَجْبُرَ ٱللهُ أُمَّـةً فَقَدَتْ مِثْلَكَ إِلَّا بِمِثْـلِ هَارُونِ

وَمِنْ جَيِّدِ مَا رُثِيَ بِهِ ٱلنِّسَاءُ وَأَشَدِّهِ تَأْثِيرًا فِي ٱلْقَلْبِ وَإِثَارَةً لِلْحُزْنِ قَوْلُ ٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ هٰذَا فِي أُمِّ وَلَدِهِ:

أَلَا مَنْ رَأَى ٱلطِّفْـلَ ٱلْمُفَارِقَ أُمَّهُ

بُعَيْـدَ ٱلْـكَرَى عَيْنَاهُ تَبْتَدِرَانِ

يَقُولُ فِيهَا:

أَلَا إِنَّ سَجْلًا وَاحِدًا قَدْ أَرَقْتُهُ مِنَ ٱلدَّمْعِ أَوْ سَجْلَيْنِ قَدْ شَفَيَانِي

وَإِنَّ مَـكَانًا فِي ٱلثَّرَى خُطَّ لَحْـدُهُ

لِمَنْ كَانَ فِي قَلْبِي بِـكُلِّ مَـكَانِ

وَمِنْ أَشْجَى ٱلشِّعْرِ رِثَاءً قَوْلُهُ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

فَهَبْنِي عَدِمْتُ ٱلصَّبْرَ عَنْهَا لِأَنَّنِي جَلِيدٌ فَمَنْ بِٱلصَّبْرِ لِٱبْنِ ثَمَانِ

فَهٰذِهِ ٱلطَّرِيقُ هِيَ ٱلَّتِي يَجْرِي حُذَّاقُ ٱلشُّعَرَاءِ إِلَيْهَا وَيَعْتَمِدُونَ فِي ٱلرِّثَاءِ عَلَيْهَا مَا لَمْ تَـكُنِ ٱلْمَرْثِيَّـةُ مِنْ نِسَاءِ ٱلْمُلُوكِ وَبَنَاتِ ٱلْأَشْرَافِ وَغَيْرِ ذَوَاتِ مَحَارِمِ ٱلشَّاعِرِ فَإِنَّهُ يُتَجَافَى عَنْ هٰذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ إِلَى أَرْفَعَ مِنْهَا نَحْوُ قَوْلِ أَبِي ٱلطَّيِّبِ:

وَلَوْ أَنَّ ٱلنِّسَاءَ كَمَنْ فَقَدْنَا لَفُضِّلَتِ ٱلنِّسَاءُ عَلَى ٱلرِّجَالِ

وَقَوْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةِ:

مَشَى ٱلْأُمَرَاءُ حَوْلَيْهَا حُفَـاةً كَأَنَّ ٱلْمَرْوَ مِنْ زِفِّ ٱلرِّئَالِ

وَقَوْلِهِ لِأُخْتِ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أُخْتَ خَيْرِ أَخٍ يَا بِنْتَ خَيْرِ أَبٍ كِنَايَةً بِهِمَا عَنْ أَشْرَفِ ٱلنَّسَبِ

أُجِلُّ قَدْرَكَ اَنْ تُسَمَّى مُؤَبَّنَةً وَمَنْ يَصِفْكِ فَقَدْ سَمَّاكِ لِلْعَرَبِ

وَرِثَاءُ ٱلْأَطْفَالِ اَنْ يَذْكُرَ مَخَايِلَهُمْ وَمَا كَانَتِ ٱلْفِرَاسَةُ تُعْطِيهِ فِيهِمْ مِمَّنْ تَحَزَّنَ لِمُصَابِهِمْ وَتَفَجَّعَ بِهِمْ كَٱلَّذِي صَنَعَ اَبُو تَمَّامٍ فِي اَبْنَيْ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ

البحث السادس

في الاقتضاء والاستنجاز

(من الكتاب نفسه)

حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ اَنْ يَكُونَ مَدْحُهُ شَرِيفًا وَٱقْتِضَاؤُهُ لَطِيفًا وَهِجَاؤُهُ اِنْ هَجَا عَنِيفًا فَاِنَّ ٱلِٱقْتِضَاءَ ٱلْخَشِنَ رُبَّمَا كَانَ سَبَبَ ٱلْمَنْعِ وَٱلْحِرْمَانِ وَدَاعِيَةَ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْهِجْرَانِ. وَقَوْمٌ يُدْرِجُونَ ٱلْعِتَابَ فِي ٱلِٱقْتِضَاءِ وَٱلِٱقْتِضَاءَ بِٱلْعِتَابِ وَاَنَا اَرَى غَيْرَ هٰذَا ٱلْمَذْهَبِ اَصْوَبَ فَٱلِٱقْتِضَاءُ طَلَبُ حَاجَةٍ وَبَابُ ٱلتَّلَطُّفِ فِيهِ اَجْوَدُ فَاِنْ بَلَغَ ٱلْاَمْرُ ٱلْعِتَابَ فَاِنَّمَا هُوَ طَلَبُ ٱلْاِبْقَاءِ عَلَى ٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْمُرَاعَاةِ وَفِيهِ تَوْبِيخٌ وَمُضَادَّةٌ لَا يَجُوزُ مَعَهَا بَعْدُ ٱقْتِضَاءٌ اِلَّا اَنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ خَلَطُوا هٰذَيْنِ وَسَاوَوْا بَيْنَهُمَا. فَمِنْ اَحْسَنِ ٱلِٱقْتِضَاءِ عَلَى مَا تَخَيَّرُوهُ وَنَحَوْتُ اِلَيْهِ قَوْلُ اُمَيَّةَ بْنِ اَبِي ٱلصَّلْتِ لِعَبْدِ ٱللهِ بْنِ جُدْعَانَ:

اَاَذْكُرُ حَاجَتِي اَمْ قَدْ كَفَانِي حَيَاؤُكَ اِنَّ شِيمَتَكَ ٱلْحَيَاءُ

وَعِلْمُكَ بِٱلْحُقُوقِ وَاَنْتَ فَرْعٌ لَهُ ٱلْحَسَبُ ٱلْمُهَذَّبُ وَٱلسَّنَاءُ

خَلِيلٌ لَا يُغَيِّرُهُ صَبَاحٌ عَنِ ٱلْخُلُقِ ٱلْجَمِيلِ وَلَا مَسَاءُ

اِذَا اَثْنَى عَلَيْكَ ٱلْمَرْءُ يَوْمًا　　كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ ٱلثَّنَاءُ

فَاَنْتَ تَرَى هٰذَا ٱلِاقْتِضَاءَ كَيْفَ يُلِينُ ٱلصَّخْرَ وَيَسْتَنْزِلُ ٱلْقَطْرَ وَيَحُطُّ ٱلْعُصْمَ اِلَى ٱلسَّهْلِ وَمِثْلُهُ. قَوْلُ ٱلْآخَرِ:

لَاشْكُرَنَّكَ مَعْرُوفًا هَمَمْتَ بِهِ　　اِنَّ ٱهْتِمَامَكَ بِٱلْمَعْرُوفِ مَعْرُوفُ

وَلَا اَلُومُكَ اِنْ لَمْ يُمْضِهِ قَدَرٌ　　فَٱلشَّيْءُ بِٱلْقَدَرِ ٱلْمَحْتُومِ مَصْرُوفُ

فَاَمَّا مَا نَاسَبَ قَوْلَ مُحَمَّدِ بْنِ يَزِيدَ ٱلْاَمَوِيِّ لِعِيسَى بْنِ فَرْخَا اِذْ يَقُولُ لَهُ مُسْتَبْطِئًا:

لَقَدْ كُنْتُ اُرَجِّيكَ　　لِمَا اَخْشَى مِنَ ٱلدَّهْرِ

فَقَدْ اَصْبَحْتَ مِنْ اَوْكَدِ　　م اَسْبَابِي اِلَى ٱلْفَقْرِ

اَتَرْضَى لِي بِاَنْ اَرْضَى　　بِتَقْصِيرِكَ فِي اَمْرِي

وَقَدْ اَفْنَيْتُ مَا اَفْنَيْتُ　　فِي شُكْرِكَ مِنْ عُمْرِي

فَهُوَ ٱلْعِتَابُ ٱلْمَحْضُ وَٱلتَّوْبِيخُ ٱلَّذِي دُونَهُ ٱلْجَلْدُ بِٱلسَّوْطِ بَلْ بِٱلسَّيْفِ. وَمِمَّا صَنَعَهُ فِي ٱلْعِتَابِ عَلَى هٰذَا ٱلشَّكْلِ بَعْدَ ٱلْيَأْسِ ٱلْمُحْكَمِ كَمَا شَرَطْتُ:

رَجَوْتُكَ لِلْاَمْرِ ٱلْمُهِمِّ وَفِي يَدِي　　بَقَايَا اُمَنِّي ٱلنَّفْسَ فِيهَا ٱلْاَمَانِيَا

فَسَاوَفْتَ فِي ٱلْاَيَّامِ حَتَّى اِذَا ٱنْقَضَتْ　　اَوَاخِرُ مَا عِنْدِي قَطَعْتُ رَجَائِيَا

وَكُنْتُ كَاَنِّي نَازِفُ ٱلْبِئْرِ طَالِبًا　　لِاِجْمَامِهَا اَوْ يَرْجِعَ ٱلْمَاءُ صَافِيَا

فَلَا هُوَ اَبْقَى مَا اَصَابَ لِنَفْسِهِ　　وَلَا هِيَ اَعْطَتْهُ ٱلَّذِي كَانَ رَاجِيَا

وَمِنْ اَمْلَحِ مَا رَاَيْتُ فِي ٱلِاقْتِضَاءِ وَٱلِاسْتِبْطَاءِ قَوْلُ اَبِي

ٱلْعَتَاهِيَةِ لِعَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ . وَٱبْنُ ٱلْمُعْتَزِّ يُسَمِّي هٰذَا ٱلنَّوْعَ مَزْحًا يُرَادُ بِهِ ٱلْجِدُّ وَهُوَ :

أَصَابَتْ عَلَيْنَا جُودَكَ ٱلْعَيْنُ يَا عُمَرْ　　فَنَحْنُ لَهَا نَبْغِي ٱلتَّمَائِمَ وَٱلنُّشَرْ

سَنَرْقِيكَ بِٱلْأَشْعَارِ حَتَّى تَمَلَّهَا　　فَإِنْ لَمْ تُفِقْ مِنْهَا رَقَيْنَاكَ بِٱلسُّوَرْ

وَكُنْتُ صَنَعْتُ فِي ٱلِٱسْتِبْطَاءِ :

أَحْسَنْتَ فِي تَأْخِيرِهَا مِنَّةً　　لَوْ لَمْ تُؤَخَّرْ لَمْ تَكُنْ كَامِلَهْ

وَكَيْفَ لَا يَحْسُنُ تَأْخِيرُهَا　　بَعْدَ يَقِينِي أَنَّهَا حَاصِلَهْ

وَجَنَّةُ ٱلْفِرْدَوْسِ يُدْعَى بِهَا　　آجِلَةً لِلْمَرْءِ لَا عَاجِلَهْ

لٰكِنَّمَا أَضْعَفَ مِنْ نِيَّتِي　　أَيَّامُ عَمْرٍو دُونَهَا زَائِلَهْ

وَٱلْعِتَابُ أَوْسَعُ جِدًّا مِنَ ٱلِٱقْتِضَاءِ لِأَنَّهُ يَكُونُ مِثْلَهُ بِسَبَبِ ٱلْحَاجَاتِ وَقَدْ يَكُونُ بِسَبَبِ غَيْرِهَا كَثِيرًا وَٱلِٱقْتِضَاءُ لَا يَكُونُ إِلَّا فِي حَاجَةٍ

البحث السابع

في العتاب

(من الكتاب نفسهِ)

وَإِنْ كَانَ حَيَاةَ ٱلْمَوَدَّةِ وَشَاهِدَ ٱلْوَفَاءِ فَإِنَّهُ بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ ٱلْخَدِيعَةِ وَسَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ ٱلْقَطِيعَةِ وَٱلْجَفَاءِ وَإِذَا قَلَّ كَانَ دَاعِيَةَ ٱلْأُلْفَةِ وَقَيْدَ ٱلصُّحْبَةِ وَإِذَا كَثُرَ خَشُنَ جَانِبُهُ وَثَقُلَ صَاحِبُهُ . وَلِلْعِتَابِ طُرُقٌ كَثِيرَةٌ وَٱلنَّاسُ فِيهِ ضُرُوبٌ مُخْتَلِفَةٌ فَمِنْهُ مَا يُمَازِجُهُ ٱلِٱسْتِعْطَافُ

وَٱلاَسْتِئْلَافُ وَمِنْهُ مَا يَدْخُلُهُ ٱلِاَحْتِجَاجُ وَٱلِاَنْتِصَافُ . وَقَدْ يَعْرِضُ فِيهِ ٱلْمَنُّ وَٱلِاَجْحَافُ . مِثْلَ مَا يَشْرَكُهُ ٱلِاَعْتِذَارُ وَٱلِاَعْتِرَافُ . وَاَحْسَنُ ٱلنَّاسِ طَرِيقًا فِي عِتَابِ ٱلاَشْرَافِ شَيْخُ ٱلصِّنَاعَةِ وَسَيِّدُ ٱلْجَمَاعَةِ اَبُو عِبَادَةَ ٱلْبُحْتُرِيُّ ٱلَّذِي يَقُولُ :

يُرِيبُنِي ٱلشَّيْءُ تَأْتِي بِهِ   وَاُكْبِرُ قَدْرَكَ اَنْ اَسْتَرِيبَا
وَاَكْرَهُ اَنْ اَتَمَادَى عَلَى   سَبِيلِ ٱعْتِذَارٍ فَاَلْقَى شَعُوبَا
اُكَذِّبُ ظَنِّي بِاَنْ قَدْ سَخِطْتَ   وَمَا كُنْتُ اَعْهَدُ ظَنِّي كَذُوبَا
وَلَوْ لَمْ تَكُنْ سَاقِطًا لَمْ اَكُنْ   اَذُمُّ ٱلزَّمَانَ وَاَشْكُو ٱلْخُطُوبَا
وَلَا بُدَّ مِنْ لَوْمَةٍ اَنْتَحِي   عَلَيْكَ بِهَا مُخْطِئًا اَوْ مُصِيبَا
اَيُصْبِحُ وِرْدِي فِي سَاحَتَيْكَ   طَرْقًا وَمَرْعَايَ مَحْلًا جَدِيبَا
فَفِي كُلِّ يَوْمٍ لَنَا مَوْقِفٌ   يُشَقِّقُ فِيهِ ٱلْوَدَاعُ ٱلْجُيُوبَا

وَٱلَّذِي يَقُولُ :

وَاَغْيَدَ اِنْ نَازَعْتَهُ ٱللَّحْظَ رَدَّهُ   كَلِيلًا وَاِنْ رَاجَعْتَهُ ٱلْقَوْلَ جَمْجَمَا
ثَنَاهُ ٱلْعِدَا عَنِّي فَاَصْبَحَ مُعْرِضًا   وَاَوْهَمَهُ ٱلْوَاشُونَ حَتَّى تَوَهَّمَا
وَقَدْ كَانَ سَهْلًا وَاضِحًا فَتَوَعَّرَتْ   رُبَاهُ وَطَلْقًا ضَاحِكًا فَتَجَهَّمَا
يُخَوِّفُنِي مِنْ سُوءِ رَأْيِكَ مَعْشَرٌ   وَلَا خَوْفَ اِلَّا اَنْ تَجُورَ وَتَظْلِمَا
اُعِيذُكَ اَنْ اَخْشَاكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثٍ   تَبَيَّنَ مِنْ جُرْمٍ اِلَيْكَ تَقَدَّمَا
اَلَسْتُ ٱلْمُوَالِي فِيكَ نَظْمَ قَصَائِدٍ   هِيَ ٱلاَنْجُمُ ٱقْتَادَتْ مَعَ ٱللَّيْلِ اَنْجُمَا

فَهٰذَا أَعْتَبُ كَمَا قَالَ :

عِتَابٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَوَافِي كَأَنَّهُ طِعَانٌ بِأَطْرَافِ ٱلْقَنَا ٱلْمُتَكَسِّرِ

وَقَدْ نَحَوْتُ أَنَا بَعْضَ هٰذَا ٱلنَّحْوِ فِي كَلِمَةٍ عَاتَبْتُ بِهَا ٱلْقَاضِيَ جَعْفَرَ بْنَ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلْكُوفِيَّ قُلْتُ فِيهَا :

وَقَدْ كُنْتُ لَا آتِي إِلَيْكَ مُخَايِلًا لَدَيْكَ وَلَا أُثْنِي عَلَيْكَ تَصَنُّعَا

وَلٰكِنْ رَأَيْتُ ٱلْمَدْحَ فِيكَ فَرِيضَةً عَلَيَّ إِذَا كَانَ ٱلْمَدِيحُ تَطَوُّعَا

فَقُمْتُ بِمَا لَا يَخْفَى عَنْكَ مَكَانُهُ مِنَ ٱلْقَوْلِ حَتَّى ضَاقَ مِمَّا تَوَسَّعَا

إِلَى أَنْ أَقُولَ :

فَوَٱللّٰهِ مَا طَوَّلْتُ بِٱللَّوْمِ فِيكُمُ لِسَانِي وَلَا عَرَّضْتُ لِلذَّمِّ مِسْمَعَا

أَلُوذُ بِأَكْنَافِ ٱلرَّجَاءِ وَأَتَّقِي شَمَاتَ ٱلْعِدَا إِنْ لَمْ أَجِدْ فِيكَ مَطْمَعَا

وَمِنْ مُعَاتَبَاتِ أَبِي تَمَّامٍ قَوْلُهُ لِٱبْنِ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ :

تَقَطَّعَتِ ٱلْأَسْبَابُ إِنْ لَمْ تُعِرْ لَهَا

قُوًى أَوْ يَصِلْهَا مِنْ يَمِينِكَ وَاصِلُ

سِوَى مَطْلَبٍ يُنْضِي ٱلرَّجَاءَ بِطُولِهِ

وَتُخْلِقُ أَخْلَاقَ ٱلْجُفُونِ ٱلْوَسَائِلُ

وَقَدْ تَأْلَفُ ٱلْعَيْنُ ٱلدُّجَى وَهْوَ قَيْدُهَا

وَيُرْجَى شِفَاءُ ٱلسُّمِّ وَٱلسُّمُّ قَاتِلُ

إِلَى قَوْلِهِ :

وَإِنَّ ٱلْمَعَالِيَ يُسْتَرَمُّ بِنَاؤُهَا وَشِيكًا كَمَا قَدْ تُسْتَرَمُّ ٱلْمَنَازِلُ

مَنَحْتُكُهَا تَشْفِي ٱلْجَوَى وَهْوَ لَاعِجٌ وَتَبْعَثُ أَشْجَانَ ٱلْفَتَى وَهْوَ ذَاهِلُ

تَرِدُ قَوَافِيهَا إِذَا هِيَ أُرْسِلَتْ هَوَامِلَ مَجْدِ ٱلْقَوْمِ وَهْيَ هَوَامِلُ
فَكَيْفَ إِذَا حَلَّيْتَهَا بِحُلِيِّهَا تَكُونُ وَهٰذَا حُسْنُهَا وَهْيَ عَاطِلُ

وَقَالَ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ لِأَبِي ٱلصَّقْرِ يُعَاتِبُهُ فِي قَصِيدَةٍ جَيِّدَةٍ:

عَذَرْتُكَ لَوْ كَانَتْ سَمَاءٌ تَقَشَّعَتْ سَحَابَتُهَا أَوْ كَانَ رَوْضًا تَصَوَّحَا
فَيَا لَكَ بَحْرًا لَمْ أَجِدْ فِيهِ مَشْرَعًا وَإِنْ كَانَ غَيْرِي وَاجِدًا فِيهِ مَسْبَحَا
مَدِيحِي عَصَا مُوسَى وَذٰلِكَ أَنَّنِي ضَرَبْتُ بِهِ بَحْرَ ٱلنَّدَى فَتَضَحْضَحَا

إِلَى أَنْ يَقُولَ:

سَأَمْدَحُ بَعْضَ ٱلْبَاخِلِينَ لَعَلَّهُ إِذَا ٱطَّرَدَ ٱلْمِقْيَاسُ أَنْ يَتَسَمَّحَا

فَهٰذَا هُوَ ٱلَّذِي لَا يُبْلَغُ جُودَةً وَلَا يُجَارَى سَبْقًا. عَلَى أَنَّ ٱلْبُحْتُرِيَّ قَدْ تَقَدَّمَ إِلَى بَعْضِ ٱلْمَعْنَى فِي قَوْلِهِ لِلْفَتْحِ بْنِ خَاقَانَ:

غَمَامٌ خَطَا فِي صَوْبِهِ وَهُوَ مُسْبِلُ وَبَحْرٌ عَدَا فِي فَيْضِهِ وَهُوَ مُنْعِمُ
وَبَدْرٌ أَضَاءَ ٱلْأَرْضَ شَرْقًا وَمَغْرِبًا وَمَوْضِعُ رَحْلِي مِنْهُ أَسْوَدُ أَقْتَمُ
وَمَا بَخِلَ ٱلْفَتْحُ بْنُ خَاقَانَ بِٱلنَّدَى وَلٰكِنَّهَا ٱلْأَقْدَارُ تُعْطِي وَتَحْرِمُ

فَأَمَّا أَبُو ٱلطَّيِّبِ فَكَانَتْ فِي طَبْعِهِ غِلْظَةٌ وَفِي عِتَابِهِ شِدَّةٌ وَكَانَ كَثِيرَ ٱلتَّحَامُلِ ظَاهِرَ ٱلْكِبْرِ وَٱلْأَنَفَةِ وَمَا ظَنُّكَ بِمَنْ يَقُولُ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ:

يَا أَعْدَلَ ٱلنَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي فِيكَ ٱلْخِصَامُ وَأَنْتَ ٱلْخَصْمُ وَٱلْحَكَمُ
أُعِيذُهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةً أَنْ تَحْسَبَ ٱلشَّحْمَ فِي مَنْ شَحْمُهُ وَرَمُ
وَمَا ٱنْتِفَاعُ أَخِي ٱلدُّنْيَا بِنَاظِرِهِ إِذَا ٱسْتَوَتْ عِنْدَهُ ٱلْأَنْوَارُ وَٱلظُّلَمُ

وَفِيهَا يَقُولُ:

إِذَا رَأَيتَ نُيوبَ ٱللَّيثِ بَارِزَةً فَلَا تَظُنَّنَّ أَنَّ ٱللَّيثَ مُبتَسِمُ

فَهٰذَا ٱلكَلَامُ فِي نِهَايَةِ ٱلجُودَةِ غَيرَ أَنَّهُ مِنْ جِهَةِ ٱلوَاجِبِ وَٱلسِّيَاسَةِ غَايَةٌ فِي ٱلقُبحِ وَٱلرَّدَاءَةِ وَإِنَّمَا عَرَّضَ بِقَومٍ يَنتَقِصُونَهُ عِندَ سَيفِ ٱلدَّولَةِ وَيُعَارِضُونَهُ فِي أَشعَارِهِ. وَٱلإِشَارَةُ كُلُّهَا إِلَى سَيفِ ٱلدَّولَةِ. ثُمَّ قَالَ بَعدَ أَبيَاتٍ:

يَا مَنْ يَعِزُّ عَلَينَا أَنْ نُفَارِقَهُ وِجدَانُنَا كُلَّ شَيْءٍ بَعدَكُمْ عَدَمُ

مَا كَانَ أَخلَقَنَا مِنكُمْ بِتَكرِمَةٍ لَوْ أَنَّ أَمرَكُمُ مِنْ أَمرِنَا أَمَمُ

وَبَينَنَا لَوْ رَعَيتُمْ ذَاكَ مَعرِفَةٌ إِنَّ ٱلمَعَارِفَ فِي أَهلِ ٱلنُّهَى ذِمَمُ

كَمْ تَطلُبُونَ لَنَا عَيبًا فَيُعجِزُكُمْ وَٱللّٰهُ يَكرَهُ مَا تَأْتُونَ وَٱلكَرَمُ

مَا أَبعَدَ ٱلعَيبَ وَٱلنُّقصَانَ مِنْ شَرَفِي أَنَا ٱلثُّرَيَّا وَذَانِ ٱلشَّيبُ وَٱلهَرَمُ

وَلَيسَ هٰذَا عِتَابًا لٰكِنَّهُ سِبَابٌ وَبِسَبَبِ هٰذِهِ ٱلقَصِيدَةِ كَادَ يُقتَلُ بَعدَ ٱنصِرَافِهِ مِنْ مَجلِسِ إِنشَادِهَا. وَأَمَّا عِتَابُ ٱلأَكفَاءِ وَأَهلِ ٱلمَوَدَّاتِ مِنَ ٱلظُّرَفَاءِ فَمِنْهُ قَولُ إِبرَاهِيمَ بنِ عَبَّاسٍ ٱلصَّولِيِّ يُعَاتِبُ مُحَمَّدَ بنَ عَبدِ ٱلمَلِكِ ٱلزَّيَّاتِ وَقَدْ تَغَيَّرَ عَلَيهِ كَمَا وَرَدَ:

وَكُنتَ أَخِي بِإِخَاءِ ٱلزَّمَانِ فَلَمَّا نَبَا صِرتَ حَربًا عَوَانَا

وَكُنتُ أَذُمُّ إِلَيكَ ٱلزَّمَانَ فَأَصبَحتُ فِيكَ أَذُمُّ ٱلزَّمَانَا

وَكُنتُ أُعِدُّكَ لِلنَّائِبَاتِ فَهَا أَنَا أَطلُبُ مِنكَ ٱلأَمَانَا

وَهٰذَا عِندِي مِنْ أَشَدِّ ٱلعِتَابِ وَأَوجَعِهِ. وَمِنْ أَكرَمِ ٱلعِتَابِ قَولُ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلحَسَنِ:

وَإِنِّي لَأُطْرِي كُلَّ خِلٍّ صَحِبْتُهُ   وَأَنْتَ تَرَى سَمْتِي بِغَيْرِ حَيَاءِ

وَمِنْ مَلِيحِ مَا سَمِعْتُ قَوْلُ سَعِيدِ بْنِ حُمَيْدٍ يُعَاتِبُ صَدِيقًا لَهُ :

أَقْلِلْ عِتَابَكَ فَالْبَقَاءُ قَلِيلُ   وَالدَّهْرُ يَعْدِلُ مَرَّةً وَيَمِيلُ
لَمْ أَبْكِ مِنْ زَمَنٍ ذَمَمْتُ صُرُوفَهُ   إِلَّا بَكَيْتُ عَلَيْكَ حِينَ يَزُولُ
وَلِكُلِّ نَائِبَةٍ أَلَمَّتْ مُدَّةٌ   وَلِكُلِّ حَالٍ أَقْبَلَتْ تَحْوِيلُ
وَالْمُنْتَمُونَ إِلَى الْإِخَاءِ عِصَابَةٌ   إِنْ حَصَّلُوا أَفْنَاهُمُ التَّحْصِيلُ
وَلَعَلَّ أَحْدَاثَ الْمَنِيَّةِ وَالرَّدَى   يَوْمًا سَتَصْدَعُ بَيْنَنَا وَتَحُولُ
فَلَئِنْ سَبَقْتُ لَتُنْكَبَنَّ بِحَسْرَةٍ   وَلَيَكْثُرَنَّ عَلَيَّ مِنْكَ عَوِيلُ
وَلَتُفْجَعَنَّ بِمُخْلِصٍ لَكَ وَامِقٍ   حَبْلُ الْوَفَاءِ بِحَبْلِهِ مَوْصُولُ
وَلَئِنْ سَبَقْتَ وَلَا سَبَقْتَ لَيَمْضِيَنْ   مَنْ لَا يُشَاكِلُهُ لَدَيَّ خَلِيلُ
وَلَيَذْهَبَنَّ بَهَاءُ كُلِّ مُرُوءَةٍ   وَلَيُفْقَدَنَّ جَمَالُهَا الْمَجْهُولُ
وَأَرَاكَ تَكْلَفُ بِالْعِتَابِ وَوُدُّنَا   صَافٍ عَلَيْهِ مِنَ الْوَفَاءِ دَلِيلُ
وُدٌّ بَدَا لِذَوِي الْإِخَاءِ كَمَالُهُ   وَبَدَتْ عَلَيْهِ بَهْجَةٌ وَقَبُولُ
وَلَعَلَّ أَيَّامَ الْإِخَاءِ قَصِيرَةٌ   فَعَلَامَ يَكْثُرُ عَتْبُنَا وَيَطُولُ

وَإِلَى هُنَا أَوْمَأَ أَبُو الطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

ذَرِ النَّفْسَ تَأْخُذْ وُسْعَهَا قَبْلَ بَيْنِهَا   فَمُفْتَرِقٌ جَارَانِ دَارُهُمَا الْعُمْرُ

وَأَشَارَ إِلَيْهِ أَيْضًا بِقَوْلِهِ وَأَرَدْتُ الْبَيْتَ الْأَخِيرَ :

وَصِلِينَا نَصِلْكِ فِي هٰذِهِ الدُّنْـ   ـيَا فَإِنَّ الْمُقَامَ فِيهَا قَلِيلُ

وَالْجَمِيعُ مِنْ قَوْلِ الْأَوَّلِ :

وَلَقَدْ عَلِمْتُ فَلَا تَكُنْ مُتَجَنِّبًا
اَنَّ ٱلصُّدُودَ هُوَ ٱلْفِرَاقُ ٱلْاَوَّلُ

حَسْبُ ٱلْاَحِبَّةِ اَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ رَيْبُ ٱلْمَنُونِ فَمَا لَنَا نَسْتَعْجِلُ

اِلَّا اَنَّ ٱبْنَ حُمَيْدٍ قَدْ فَنَّنَ وَبَيَّنَ وَشَرَحَ مَا اَجْمَلَ غَيْرُهُ بِقَوْلِهِ: لَئِنْ سَبَقْتُ اَنَا وَلَئِنْ سَبَقْتَ اَنْتَ وَلَا سَبَقْتَ فَلَهُ بِذٰلِكَ فَضْلٌ بَيْنَ ٱلرُّجْحَانِ ظَاهِرٌ. وَمَا اَحْسَنَ اِيجَازَ ٱلَّذِي قَالَ:

اَلْعُمْرُ اَقْصَرُ مُدَّةً مِنْ اَنْ يُمَحَّقَ بِٱلْعِتَابِ

وَقَالَ اَبُو ٱلْمُحْدَثِينَ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ:

اِذَا كُنْتَ فِي كُلِّ ٱلْاُمُورِ مُعَاتِبًا صَدِيقَكَ لَمْ تَلْقَ ٱلَّذِي لَا تُعَاتِبُهْ

البحث الثامن

في الوعيد والانذار

(من الكتاب نفسه)

كَانَ ٱلْعُقَلَاءُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَذَوُو ٱلْحَزْمِ يَتَوَعَّدُونَ بِٱلْهِجَاءِ وَيَحْذَرُونَ مِنْ سُوءِ ٱلْاُحْدُوثَةِ وَلَا يُمْضُونَ ٱلْقَوْلَ اِلَّا ضَرُورَةً حِينَ لَا يَحْسُنُ ٱلسُّكُوتُ. قَالَ ٱبْنُ مُقْبِلٍ:

بَنِي عَامِرٍ مَا تَأْمُرُونَ لِشَاعِرٍ تَخَيَّرَ آيَاتِ ٱلْكِتَابِ هِجَائِيَا

أَاَعْفُو كَمَا يَعْفُو ٱلْكَرِيمُ فَاِنَّنِي اَرَى ٱلشَّعْبَ فِيمَا بَيْنَنَا مُتَدَانِيَا

أَاَغْمِضُ بَيْنَ ٱللَّحْمِ وَٱلْجِلْدِ غَمْضَةً بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ يَقُطُّ ٱلنَّوَاصِيَا

فَاَمَّا سُرَاقَاتُ ٱلْهِجَاءِ فَاِنَّهَا كَلَامٌ تَهَادَاهُ ٱللِّئَامُ تَهَادِيَا

وَعِنْدِي ٱلدُّهَيْمُ لَوْ أُحِلُّ عِقَالَهَا　　فَتُضْبِحَ لَمْ تَعْدَمْ مِنَ ٱلْجِنِّ حَادِيَا

شَبَّهَ لِسَانَهُ بِمِبْرَدِ رُومِيٍّ لِمَضَائِهِ وَشَبَّهَ ٱلْقَصِيدَةَ ٱلَّتِي لَوْ شَاءَ هِجَاءَهُمْ بِهَا بِٱلدُّهَيْمِ وَهُوَ ٱلدَّاهِيَةُ. وَأَصْلُ ذٰلِكَ أَنَّ ٱلدُّهَيْمَ نَاقَةُ عَمْرِو بْنِ زَبَّانَ ٱلثَّعْلَبِيِّ ٱلَّتِي حَمَلَتْ رُؤُوسَ بَنِيهِ مُعَلَّقَةً فِي عُنُقِهَا فَجَاءَتْ بِهَا ٱلْحَيَّ فَضُرِبَ بِهَا ٱلْمَثَلُ لِلدَّاهِيَةِ. وَقَالَ جَرِيرٌ لِبَنِي حَنِيفَةَ وَكَانَ مَيْلُهُمْ مَعَ ٱلْفَرَزْدَقِ عَلَيْهِ:

أَبَنِي حَنِيفَةَ حَكِّمُوا سُفَهَاءَكُمْ　　إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمُ أَنْ أَغْضَبَا

قَوْلُهُ حَكِّمُوا أَيْ كُفُّوا. وَقَالَ لِتَيْمِ ٱلرِّبَابِ رَهْطِ عُمَرَ بْنِ لَجَا:

يَا تَيْمَ تَيْمَ عَدِيٍّ لَا أَبَا لَكُمُ　　لَا يُلْفِيَنَّكُمُ فِي سَوْءَةٍ عُمَرُ

وَمِمَّا قُلْتُهُ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ:

يَا مُوجِعِي شَتْمًا عَلَى أَنَّهُ　　لَوْ تُرِكَ ٱلْبُرْغُوثُ مَا أَوْجَعَا

كُلٌّ لَهُ مِنْ نَفْسِهِ آفَةٌ　　وَآفَةُ ٱلنَّحْلَةِ أَنْ تَلْسَعَا

البحث التاسع

في الهجاء

(من الكتاب نفسه)

يُرْوَى عَنْ أَبِي عَمْرِو بْنِ ٱلْعَلَاءِ أَنَّهُ قَالَ: خَيْرُ ٱلْهِجَاءِ مَا تُنْشِدُهُ ٱلْعَذْرَاءُ فِي خِدْرِهَا فَلَا يَقْبُحُ بِمِثْلِهَا. نَحْوُ قَوْلِ جَرِيرٍ:

لَوْ أَنَّ تَغْلِبَ جَمَّعَتْ أَحْسَابَهَا　　يَوْمَ ٱلتَّفَاخُرِ لَمْ تَزِنْ مِثْقَالَا

وَقَوْلِ ٱلْآخَرِ:

فَغُضَّ ٱلطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيْرٍ   فَلَا كَعْبًا بَلَغْتَ وَلَا كِلَابَا

وَلَمَّا اطْلَقَ عُمَرُ بْنُ ٱلْخَطَّابِ ٱلْحُطَيْئَةَ مِنْ حَبْسِهِ إِيَّاهُ بِسَبَبِ هِجَائِهِ ٱلزِّبْرِقَانَ قَالَ لَهُ: تَدَعُ ٱلْهِجَاءَ ٱلْمُقْذِعَ. قَالَ: وَمَا ٱلْهِجَاءُ ٱلْمُقْذِعُ. قَالَ: ٱلْمُقْذِعُ أَنْ تَقُولَ هٰؤُلَاءِ أَفْضَلُ مِنْ هٰؤُلَاءِ وَأَشْرَفُ وَتَبْنِي شِعْرًا عَلَى مَدْحٍ لِقَوْمٍ وَذَمٍّ لِمَنْ يُعَادِيهِمْ. قَالَ: أَنْتَ وَٱللهِ يَا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعْلَمُ مِنِّي بِمَذَاهِبِ ٱلشِّعْرِ لٰكِنِّي حَبَانِي هٰؤُلَاءِ فَمَدَحْتُهُمْ وَحَرَمَنِي هٰؤُلَاءِ فَذَكَرْتُ حِرْمَانَهُمْ وَلَمْ أَنَلْ مِنْ أَعْرَاضِهِمْ شَيْئًا وَصَرَفْتُ مَدْحِي إِلَى مَنْ أَرَادَهُ وَرَغِبْتُ بِهِ عَلَى مَنْ كَرِهَهُ وَزَهِدَ فِيهِ. يُرِيدُ قَصِيدَتَهُ ٱلْمَهْمُوزَةَ وَهِيَ أَخْبَثُ مَا صَنَعَ وَفِيهَا أَوْ مِنْ أَجْلِهَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْأَحْمَرُ: أَشَدُّ ٱلْهِجَاءِ أَعَفُّهُ وَأَصْدَقُهُ. وَقَالَ مَرَّةً أُخْرَى: مَا عَفَّ لَفْظُهُ وَصَدَقَ مَعْنَاهُ. وَمِنْ كَلَامِ صَاحِبِ ٱلْوَسَاطَةِ: فَأَمَّا ٱلْهَجْوُ فَأَبْلَغُهُ مَا قَرُبَتْ مَعَانِيهِ وَسَهُلَ حِفْظُهُ وَأَسْرَعَ عُلُوقُهُ بِٱلْقَلْبِ وَلُصُوقُهُ بِٱلنَّفْسِ فَأَمَّا ٱلْقَذْفُ وَٱلْفُحْشُ فَبَابٌ مَحْضٌ وَلَيْسَ لِلشَّاعِرِ فِيهِ إِلَّا إِقَامَةُ ٱلْوَزْنِ. وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ مَا قَالَهُ صَاحِبُ ٱلْوَسَاطَةِ وَحُسْنِ مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ إِعْجَابُ ٱلْحُذَّاقِ مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ وَفُرْسَانِ ٱلْكَلَامِ بِقَوْلِ زُهَيْرٍ فِي تَشَكُّكِهِ وَتَهَزُّلِهِ وَتَجَاهُلِهِ فِيمَا يَعْلَمُ:

وَمَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي   أَقَوْمٌ آلُ حِصْنٍ أَمْ نِسَاءُ

فَإِنَّ هٰذَا عِنْدَهُمْ مِنْ أَشَدِّ ٱلْهِجَاءِ وَأَمَضِّهِ. وَلَمَّا قَدِمَ ٱلنَّابِغَةُ بَعْدَ وَقْعَةِ حُسًا سَأَلَ بَنِي ذُبْيَانَ مَا قُلْتُمْ لِعَامِرِ بْنِ ٱلطُّفَيْلِ وَمَا قَالَ

لَكُمْ . فَأَنْشَدُوهُ . فَقَالَ : أَفْحَشْتُمْ عَلَى ٱلرَّجُلِ وَهُوَ شَرِيفٌ لَا يُقَالُ لَهُ مِثْلُ هٰذَا وَلٰكِنَّنِي سَأَقُولُ ثُمَّ قَالَ :

فَإِنْ يَكُ عَامِرٌ قَدْ قَالَ جَهْلًا فَإِنَّ مَظِنَّةَ ٱلْجَهْلِ ٱلشَّبَابُ (١)

فَلَمَّا بَلَغَ عَامِرًا قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ شَقَّ عَلَيْهِ وَقَالَ جَعَلَنِي ٱلْقَوْمُ رَئِيسًا وَجَعَلَنِي ٱلنَّابِغَةُ سَفِيهًا جَاهِلًا وَتَهَكَّمَ بِي . وَرُوِيَ أَنَّ شَاعِرًا مَدَحَ ٱلْحُسَيْنَ بْنَ عَلِيٍّ فَأَجْزَلَ عَطِيَّتَهُ فَلِيمَ عَلَى ذٰلِكَ فَقَالَ: أَتَرَوْنِي خِفْتُ أَنْ يَقُولَ: لَسْتَ ٱبْنَ فَاطِمَةَ وَلَا ٱبْنَ عَلِيٍّ . وَلٰكِنْ خِفْتُ أَنْ يَقُولَ: لَسْتَ كَٱلرَّسُولِ وَلَسْتَ كَعَلِيٍّ فَيُصَدَّقُ وَيُحْمَلُ عَنْهُ وَيَبْقَى مُخَلَّدًا فِي ٱلْكُتُبِ مَحْفُوظًا عَلَى أَلْسِنَةِ ٱلرُّوَاةِ . فَقَالَ ٱلشَّاعِرُ: أَنْتَ وَٱللهِ أَعْلَمُ مِنِّي بِٱلْمَدْحِ . وَقَدْ وَقَعَ ٱلْحَسَنُ بْنُ زَيْدٍ بِبَعْضِ مَا قَالَ فِيهِ أَبُو عَاصِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ حَمْزَةَ ٱلْأَسْلَمِيُّ ٱلْمَدَنِيُّ :

لَهُ حَقٌّ وَلَيْسَ عَلَيْهِ حَقٌّ وَمَهْمَا قَالَ فَٱلْحَسَنُ ٱلْجَمِيلُ

وَجَمِيعُ ٱلشُّعَرَاءِ يَرَوْنَ قَصْرَ ٱلْهِجَاءِ أَجْوَدَ وَتَرْكَ ٱلْفُحْشِ أَصْوَبَ إِلَّا جَرِيرًا فَإِنَّهُ قَالَ لِبَنِيهِ: إِذَا مَدَحْتُمْ فَلَا تُطِيلُوا وَإِذَا هَجَوْتُمْ فَخَالِفُوا . وَأَنَا أَرَى ٱلتَّعْرِيضَ أَهْجَى مِنَ ٱلتَّصْرِيحِ لِٱتِّسَاعِ ٱلظَّنِّ فِي ٱلتَّعْرِيضِ وَشِدَّةِ قَلَقِ ٱلنَّفْسِ بِهِ وَٱلْبَحْثِ عَنْ مَعْرِفَتِهِ وَطَلَبِ حَقِيقَتِهِ فَإِذَا كَانَ ٱلْهَجْوُ تَصْرِيحًا أَحَاطَتْ بِهِ ٱلنَّفْسُ عِلْمًا وَقَبِلَتْهُ يَقِينًا فِي أَوَّلِ وَهْلَةٍ وَكَانَ كُلَّ يَوْمٍ فِي نَقْصٍ لِنِسْيَانٍ أَوْ مَلَلٍ يَعْرِضُ . وَهٰذَا ٱلْمَذْهَبُ ٱلصَّحِيحُ عَلَى أَنْ يَكُونَ ٱلْمَهْجُوُّ ذَا قَدْرٍ فِي نَفْسِهِ وَحَسَبِهِ . فَأَمَّا

(١) انظر تتمة هذه القصيدة في ترجمة النابغة من كتاب شعراء النصرانية

إِنْ كَانَ مِمَّنْ لَا يُوقِظُهُ ٱلتَّلْوِيحُ وَلَا يُؤْلِمُهُ إِلَّا ٱلتَّصْرِيحُ فَذٰلِكَ .
وَلِهٰذِهِ ٱلْعِلَّةِ ٱخْتَلَفَ هِجَاءُ أَبِي نُوَاسٍ وَكَذٰلِكَ هِجَاءُ أَبِي ٱلطَّيِّبِ فِيهِ ٱخْتِلَافٌ لِٱخْتِلَافِ مَرَاتِبِ ٱلْمَهْجُوِّينَ فَمِنَ ٱلتَّفْضِيلِ فِي ٱلْهِجَاءِ قَوْلُ رَبِيعَةَ بْنِ عَبْدِ ٱلرَّحْمٰنِ ٱلرَّقِّيِّ :

لَشَتَّانَ مَا بَيْنَ ٱلْيَزِيدَيْنِ فِي ٱلنَّدَى ... يَزِيدِ سُلَيْمٍ وَٱلْأَعَزِّ بْنِ حَاتِمِ
فَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْقَيْسِيِّ إِتْلَافُ مَالِهِ ... وَهَمُّ ٱلْفَتَى ٱلْعَبْسِيِّ جَمْعُ ٱلدَّرَاهِمِ
فَلَا يَحْسَبِ ٱلتَّمْتَامُ أَنِّي هَجَوْتُهُ ... وَلٰكِنَّنِي فَضَّلْتُ أَهْلَ ٱلْمَكَارِمِ

وَمِنَ ٱلِٱخْتِصَارِ وَٱلِٱسْتِخْفَافِ قَوْلُ زِيَادٍ ٱلْأَعْجَمِ :

قُمْ صَاغِرًا يَا شَيْخَ جَرْمٍ فَإِنَّمَا ... يُقَالُ لِشَيْخِ ٱلصِّدْقِ قُمْ غَيْرَ صَاغِرِ
فَمَنْ أَنْتُمُ إِنَّا نَسِينَا مَنَ ٱنْتُمْ ... وَرِيحُكُمُ مِنْ أَيِّ رِيحِ ٱلْأَعَاصِرِ
أَأَنْتُمْ أُولَى جِئْتُمْ مَعَ ٱلرِّيحِ وَٱلدَّبَا ... فَطَارَ وَهٰذَا شَيْخُكُمْ غَيْرُ طَائِرِ
قَضَى ٱللّٰهُ خَلْقَ ٱلنَّاسِ ثُمَّ خُلِقْتُمُ ... بَقِيَّةَ خَلْقِ ٱللّٰهِ آخِرَ آخِرِ
فَلَمْ تَسْمَعُوا إِلَّا بِمَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
وَلَمْ تُدْرِكُوا إِلَّا مَدَقَّ ٱلْحَوَافِرِ

أَخَذَ مِنْهُ ٱلطِّرِمَّاحُ هٰذَا ٱلْمَعْنَى فَقَالَ :

وَمَا خُلِقَتْ تَيْمٌ وَعَبْدُ مَنَاتِهَا ... وَضَبَّةُ إِلَّا بَعْدَ خَلْقِ ٱلْقَبَائِلِ

وَمِنَ ٱلِٱحْتِقَارِ قَوْلُ جَرِيرٍ فِي تَيْمٍ :

وَيُقْضَى ٱلْأَمْرُ حِينَ تَغِيبُ تَيْمٌ ... وَلَا يُسْتَأْذَنُونَ وَهُمْ شُهُودُ
وَإِنَّكَ لَوْ رَأَيْتَ عَبِيدَ تَيْمٍ ... وَتَيْمًا قُلْتَ أَيُّهُمَا ٱلْعَبِيدُ

وَمِنْ مَلِيحِ ٱلتَّهَكُّمِ قَوْلُ أَبِي هَفَّانَ :

سُلَيْمَانُ مَيْمُونُ ٱلنَّقِيبَةِ حَازِمٌ ... وَلٰكِنَّهُ وَقْفٌ عَلَيْهِ ٱلْهَزَائِمُ

وَفِيهِ يَقُولُ ٱبْنُ ٱلرُّومِيِّ:

قِرْنُ سُلَيْمَانَ قَدْ اَضَرَّ بِهِ ... شَوْقٌ اِلَى وَجْهِهِ سَيُتْلِفُهُ

كَمْ يَعِدُ ٱلْقِرْنَ بِٱللِّقَاءِ وَكَمْ ... يَكْذِبُ فِي وَعْدِهِ وَيُخْلِفُهُ

اَخَذَ مَعْنَى ٱلْبَيْتِ ٱلْاَخِيرِ مِنْ قَوْلِ ٱلْخَارِجِيِّ. وَقَدْ قَالَ لَهُ ٱلْمَنْصُورُ: اَيُّ اَصْحَابِي كَانَ اَشَدَّ اِقْدَامًا فِي مُبَارَزَتِكُمْ فَقَالَ: مَا اَعْرِفُ وُجُوهَهُمْ وَلٰكِنْ اَعْرِفُ اَقْفَاءَهُمْ. وَاَجْوَدُ فِي ٱلْهِجَاءِ اَنْ يُسْلَبَ ٱلْاِنْسَانُ ٱلْفَضَائِلَ ٱلنَّفْسِيَّةَ وَمَا تَرَكَّبَ مِنْ بَعْضِهَا. فَاَمَّا مَا كَانَ فِي ٱلْخِلْقَةِ ٱلْجِسْمَانِيَّةِ مِنَ ٱلْمَعَايِبِ فَاِنَّ ٱلْهِجَاءَ بِهِ دُونَ مَا تَقَدَّمَ وَقُدَامَةُ لَا يَرَاهُ هَجْوًا ٱلْبَتَّةَ وَكَذٰلِكَ مَا جَاءَ مِنَ ٱلْآبَاءِ وَٱلْاُمَّهَاتِ مِنَ ٱلنَّقْصِ وَٱلْفَسَادِ لَا يَكُونُ عَيْبًا وَلَا يُعَدُّ ٱلْهِجَاءُ بِهِ صَوَابًا وَكَانَ ٱلنَّابِغَةُ ٱلْجَعْدِيُّ يَقُولُ اِنِّي وَاَوْسًا لَنَبْتَدِرُ بَابًا مِنَ ٱلْهِجَاءِ فَمَنْ غَلَبَ مِنَّا اِلَيْهِ غَلَبَ صَاحِبَهُ فَلَمَّا قَالَ اَوْسُ بْنُ مَغْرَاءَ:

لَعَمْرُكَ مَا تُبْلَى سَرَابِيلُ عَامِرٍ ... مِنَ ٱللُّؤْمِ مَا دَامَتْ عَلَيْهَا جُلُودُهَا

قَالَ ٱلنَّابِغَةُ: هٰذَا ٱلْبَيْتُ ٱلَّذِي كُنَّا نَبْتَدِرُهُ. وَٱلَّذِي اُرَاهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ اَنَّ اَشَدَّ ٱلْهِجَاءِ مَا اَصَابَ ٱلْغَرَضَ وَوَقَعَ عَلَى ٱلنُّكْتَةِ وَهُوَ كَمَا قَالَ خَلَفٌ ٱلْاَحْمَرُ بِعَيْنِهِ



البحث العاشر

في الاعتذار

(من الكتاب نفسهِ)

وَيَنبغي الشَّاعِرِ انْ لَا يَقُولَ شَيْئًا يَحْتَاجُ انْ يَعْتَذِرَ مِنْهُ فَإِنِ اضْطَرَّهُ الْمِقْدَارُ الَى ذٰلِكَ وَاوْقَعَهُ فِيهِ الْقَضَاءُ فَلْيَذْهَبْ مَذْهَبًا لَطِيفًا وَلْيَقْصِدْ مَقْصَدًا عَجِيبًا وَلْيَعْرِفْ كَيْفَ يَأْخُذُ بِقَلْبِ الْمُعْتَذَرِ الَيْهِ مِنْ بَابِ الِاحْتِجَاجِ وَاقَامَةِ الدَّلِيلِ لَا سِيَّمَا مَعَ الْمُلُوكِ وَذَوِي السُّلْطَانِ وَحَقُّهُ انْ يُلَطِّفَ بُرْهَانَهُ مُدْرَجًا فِي التَّضَرُّعِ وَالدُّخُولِ تَحْتَ عَفْوِ الْمُلُوكِ وَإِعَادَةِ النَّظَرِ فِي الْكَشْفِ عَنْ كَذِبِ النَّاقِلِ وَالْحَاسِدِ فَامَّا مَعَ الْإِخْوَانِ فَتِلْكَ طَرِيقَةٌ أُخْرَى وَقَدْ احْسَنَ مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ الْاَصْبَهَانِيُّ حَيْثُ يَقُولُ :

وَقَدْ اسَأْتُ فَبِالنُّعْمَى الَّتِي سَلَفَتْ　　　اِلَّا مَنَنْتَ بِعَفْوٍ مَا لَهُ سَبَبُ

وَقَالَ اِبْرَاهِيمُ بْنُ الْمَهْدِيِّ لِلْمَأْمُونِ مِنْ اَبْيَاتٍ يَعْتَذِرُ اِلَيْهِ :

اَللّٰهُ يَعْلَمُ مَا اَقُولُ فَإِنَّهَا　　　جَهْدُ الْاَلِيَّةِ مِنْ مُقِرٍّ خَاضِعِ

مَا اِنْ عَصَيْتُكَ وَالْغُوَاةُ تُمِدُّنِي　　　اَسْبَابُهَا اِلَّا بِنِيَّةِ طَائِعِ

وَقَدْ سَلَكَ اَبُو عَلِيٍّ الْبَصِيرُ مَذْهَبَ الْحُجَّةِ وَاقَامَةِ الدَّلِيلِ بَعْدَ ارْتِكَابِ الْجِنَايَةِ فَقَالَ :

لَمْ اَجْنِ ذَنْبًا فَإِنْ زَعَمْتَ بِأَنْ　　　جَنَيْتُ ذَنْبًا فَغَيْرُ مُعْتَمِدِ

نَحَوْتُ هٰذَا النَّحْوَ فَقُلْتُ :

لَا يُبْعِدِ ٱللهُ أَبَا جَعْفَرٍ دَعَابَةٌ بِتُّ عَلَى نَارِهَا
وَإِنْ تَأَذَّيتَ فَيَا رُبَّمَا تَأَذَّتِ ٱلْعَيْنُ بِأَشْفَارِهَا

وَأَجَلُّ مَا وَقَعَ فِي ٱلْاِعْتِذَارِ مِنْ مَشْهُورَاتِ ٱلْعَرَبِ قَصَائِدُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلثَّلَاثُ إِحْدَاهُنَّ « يَا دَارَ مَيَّةَ بِٱلْعَلْيَاءِ بِٱلسَّنَدِ » يَقُولُ فِيهَا:

فَلَا لَعَمْرُ ٱلَّذِي مَسَّحْتُ كَعْبَتَهُ وَمَا هُرِيقَ عَلَى ٱلْأَنْصَابِ مِنْ جَسَدِ
وَٱلْمُؤْمِنِ ٱلْعَائِذَاتِ ٱلطَّيْرَ تَمْسَحُهَا رُكْبَانُ مَكَّةَ بَيْنَ ٱلْغِيلِ وَٱلسَّعَدِ
مَا قُلْتُ مِنْ سَيِّءٍ مِمَّا أُتِيتَ بِهِ إِذًا فَلَا رَفَعَتْ سَوْطِي إِلَيَّ يَدِي
إِلَّا مَقَالَةَ أَقْوَامٍ شَقِيتُ بِهَا كَانَتْ مَقَالَتُهُمْ قَرْعًا عَلَى ٱلْكَبِدِ
أُنْبِئْتُ أَنَّ أَبَا قَابُوسَ أَوْعَدَنِي وَلَا قَرَارَ عَلَى زَأْرٍ مِنَ ٱلْأَسَدِ

وَٱلثَّانِيَةُ (أَرَسْمًا جَدِيدًا مِنْ سُعَادَ تَجَنَّبُ) يَقُولُ فِيهَا مُعْتَذِرًا مِنْ مَدْحِ آلِ جَفْنَةَ وَمُحْتَجًّا بِإِحْسَانِهِمْ إِلَيْهِ:

حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرُكْ لِنَفْسِكَ رِيبَةً وَلَيْسَ وَرَاءَ ٱللهِ لِلْمَرْءِ مَذْهَبُ
لَئِنْ كُنْتَ قَدْ بُلِّغْتَ عَنِّي خِيَانَةً لَمُبْلِغُكَ ٱلْوَاشِي أَغَشُّ وَأَكْذَبُ
وَلٰكِنَّنِي كُنْتُ ٱمْرَأً لِيَ جَانِبٌ مِنَ ٱلْأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَفِعْلِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ ٱصْطَنَعْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِ ذٰلِكَ أَذْنَبُوا
فَلَا تَتْرُكَنِّي بِٱلْوَعِيدِ كَأَنَّنِي إِلَى ٱلنَّاسِ مَطْلِيٌّ بِهِ ٱلْقَارُ أَجْرَبُ
أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللهَ أَعْطَاكَ سُورَةً تَرَى كُلَّ مَلْكٍ دُونَهَا يَتَذَبْذَبُ
بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَٱلْمُلُوكُ كَوَاكِبُ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

وَٱلثَّالِثَةُ (عَفَا ذُو حُسًى مِنْ فَرْتَنَا فَٱلْفَوَارِعُ) يَقُولُ فِيهَا بَعْدَ

قَسَمٍ قَدَّمَهُ عَلَى عَادَتِهِ :

لَكَلَّفْتَنِي ذَنْبَ ٱمْرِئٍ وَتَرَكْتَهُ كَذِي ٱلْعُرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ

فَإِنْ كُنْتَ لَا ذُو ٱلضِّغْنِ عَنِّي مُكَذَّبٌ

وَلَا حَلِفِي عَلَى ٱلْبَرَاءَةِ نَافِعُ

وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتَ بِأَمْرٍ لَا مَحَالَةَ وَاقِعُ

فَإِنَّكَ كَٱللَّيْلِ ٱلَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ

وَقَدْ عَاقَ بِهٰذَا ٱلْمَعْنَى جَمَاعَةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَقَالَ سَلْمٌ ٱلْخَاسِرُ يَعْتَذِرُ إِلَى ٱلْمَهْدِيِّ :

إِنِّي أَعُوذُ بِخَيْرِ ٱلنَّاسِ كُلِّهِمِ وَأَنْتَ ذَاكَ لِمَا نَأْتِي وَنَجْتَنِبُ

وَأَنْتَ كَٱلدَّهْرِ مَبْثُوثًا حَبَائِلُهُ وَٱلدَّهْرُ لَا مَلْجَأٌ مِنْهُ وَلَا هَرَبُ

وَقَالَ عُبَيْدُ ٱللهِ بْنُ عَبْدِ ٱللهِ بْنِ طَاهِرٍ :

وَإِنِّي وَإِنْ حَدَّثْتُ نَفْسِي بِأَنَّنِي أَفُوتُكَ إِنَّ ٱلرَّأْيَ مِنِّي لَعَازِبُ

وَإِلَى هٰذِهِ ٱلنَّاحِيَةِ أَشَارَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ بِقَوْلِهِ :

وَلٰكِنَّكَ ٱلدُّنْيَا إِلَيَّ حَبِيبَةٌ فَمَا عَنْكَ لِي إِلَّا إِلَيْكَ ذَهَابُ

غَيْرَ أَنَّهُ حَرَّفَ ٱلْكَلَامَ عَنْ مَوَاضِعِهِ . وَٱخْتَارَ ٱلْعُلَمَاءُ بِهٰذَا ٱلشَّأْنِ قَوْلَ عَلِيِّ بْنِ جَبَلَةَ :

وَمَا لِٱمْرِئٍ حَاوَلْتَهُ عَنْكَ مَهْرَبٌ وَلَوْ رَفَعَتْهُ فِي ٱلسَّمَاءِ ٱلْمَطَالِعُ

بَلَى هَارِبٌ لَا يَهْتَدِي لِمَكَانِهِ ظَلَامٌ وَلَا ضَوْءٌ مِنَ ٱلْفَجْرِ سَاطِعُ

لِأَنَّهُ قَدْ أَجَادَ مَعَ مُعَارَضَتِهِ ٱلنَّابِغَةَ وَزَادَ عَلَيْهِ ذِكْرَ ٱلصُّبْحِ وَأَظُنُّهُ ٱقْتَدَى بِقَوْلِ ٱلْأَصْمَعِيِّ فِي بَيْتِ ٱلنَّابِغَةِ : لَيْسَ ٱللَّيْلُ أَوْلَى

بِهَذَا ٱلْمَثَلِ مِنَ ٱلنَّهارِ . وَفِي هٰذَا ٱلِٱعْتِرَاضِ كَلَامٌ يَأْتِي فِي مَوْضِعِهِ مِنْ هٰذَا ٱلْكِتَابِ إِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى . وَأَفضَلُ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ قَوْلُ ٱلْقُرْآنِ : إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنْفُذُوا. وَوَجَدَ ٱلْفَضْلُ بْنُ يَحْيَى عَلَى أَبِي ٱلْهَوْلِ ٱلْحِمْيَرِيِّ فَدَخَلَ إِلَيْهِ فَأَنْشَدَهُ :

كَسَانِي وَعِيدُ ٱلْفَضْلِ ثَوْبًا مِنَ ٱلْبِلَى
وَإِيعَادُهُ عِنْدِي ٱلَّذِي مَا لَهُ رَدُّ

فَجُدْ بِٱلرِّضَى لَا أَبْتَغِي مِنْكَ غَيْرَهُ وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ

فَقَالَ لَهُ ٱلْفَضْلُ عَلَى مَذْهَبِ ٱلْكُتَّابِ فِي تَحْرِيرِ ٱلْخِطَابِ : لَا أَحْتَمِلُ وَٱللهِ قَوْلَكَ (وَرَأْيُكَ فِيمَا كُنْتَ عَوَّدْتَنِي بَعْدُ) فَقَالَ أَبُو ٱلْهَوْلِ : لَا تَنْظُرْ إِلَى قِصَرِ بَاعِي وَقِلَّةِ تَمْيِيزِي وَٱفْعَلْ بِي مَا أَنْتَ أَهْلُهُ . فَأَمَرَ لَهُ بِمَالٍ جَسِيمٍ وَرَضِيَ عَنْهُ وَقَرَّبَهُ

وَفِي ٱشْتِقَاقِ ٱلْأَعْذَارِ ثَلَاثَةُ أَقْوَالٍ أَحَدُهَا أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْمَحْوِ كَأَنَّكَ مَحَوْتَ آثَارَ ٱلْمَوْجِدَةِ مِنْ قَوْلِهِمِ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمَنَازِلُ إِذَا دَرَسَتْ وَأَنْشَدَ قَوْلَ ٱبْنِ أَحْمَرَ :

أَوْ كُنْتَ تَعْرِفُ آيَاتٍ فَقَدْ جَعَلَتْ
أَطْلَالُ إِلْفِكَ بِٱلْوَدْكَاءِ تَعْتَذِرُ

وَٱلثَّانِي أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلِٱنْقِطَاعِ كَأَنَّكَ قَطَعْتَ ٱلرَّجُلَ عَمَّا أَمْسَكَ فِي قَلْبِهِ مِنَ ٱلْمَوْجِدَةِ وَيَقُولُونَ ٱعْتَذَرَتِ ٱلْمِيَاهُ إِذَا ٱنْقَطَعَتْ :

وَٱلْقَوْلُ ٱلثَّالِثُ أَنْ يَكُونَ مِنَ ٱلْحَجْرِ وَٱلْمَنْعِ . قَالَ أَبُو جَعْفَرٍ

يُقَالُ عَذَرْتُ ٱلدَّابَّةَ اي جعلتُ لها عِذارًا يَحجُزُها مِنَ ٱلشِّرَادِ فمعنى اعتذرَ ٱلرَّجُلُ احتجزَ وعذرتُهُ جعلتُ لهُ حاجزًا بينهُ وبينَ ٱلعقوبةِ اوِ ٱلعتبِ ومنهُ تعذَّرَ ٱلامرُ واحتجزَ ان يُقضَى ومنهُ جاريةٌ عذراءُ

البحث الحادي عشر

في سيرورة الشعر والحظوة في المدح

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

كَانَ ٱلأَعشَى اسيَرَ ٱلنَّاسِ شِعرًا واعظَمَهُم فيهِ حظًّا حتَّى كادَ يُنسِي اصحابَهُ ٱلمذكورينَ معهُ وقبلَهُ زُهَيرٌ وَٱلنَّابغةُ وامرُؤُ ٱلقيسِ وكانَ جريرٌ باقِعةً سائرَ ٱلشِّعرِ مُظفَّرًا. قَالَ ٱلأخطلُ للفرزدقِ وانا وَٱللهِ اشعرُ مِن جريرٍ غيرَ انَّهُ رُزِقَ مِن سيرورةِ ٱلشِّعرِ ما لم أُرزقهُ وقد قلتُ بيتًا لا احسبُ احدًا قالَ اهجا منهُ

وليسَ مِنَ ٱلعربِ قبيلةٌ إِلَّا وقد نِيلَ مِنها وعُيِّرت وهُجِيَت فحطَّ ٱلشِّعرُ منهم بعضًا بموافقةِ ٱلحقيقةِ ومضى صفحًا على ٱلآخرينَ لمَّا لم يُوافقِ ٱلحقيقةَ ولا صادفَ موضعَ ٱلرِّيبةِ. فمنَ ٱلَّذينَ لم يُحِكْ فيهم هجاءٌ إِلَّا قليلًا على كثرةِ ما قيلَ فيهم تميمُ بنُ مُرَّةَ وبكرُ بنُ وائلٍ وأسدُ بنُ خزيمةَ ونظراؤُهم مِن قبائلِ ٱليمنِ. فامَّا مَن شُقُوا بالهجاءِ ومُزِّقوا كلَّ مُمزَّقٍ على تقدُّمِهم في ٱلشَّجاعةِ وٱلفضلِ احياءٌ مِن قيسٍ نحوَ غنيٍّ وباهلةَ بنِ اعصرَ بنِ سعدِ بنِ قيسِ بنِ غيلانَ وٱسمُ غنيٍّ

عمرٌو وكانوا موالي عامر بن صعصعة يحملون عليهم الديات والنوائب ونحوَ محارب بن خصفة بن قيس بن غيلان وجسر بن محارب ومن ولد طابخة بن الياس بن مضر تيمٌ وعُكلٌ ابنا عبد مناة وقع عليهم السبُّ في الجاهلية فاستهانت العرب بهم وانطبع الهجاء فيهم وعديُّ بن عبد مناة كانوا قطينًا لحاجب بن زرارة وأراد أن يستملكهم ملكَ رقّ بسجل من قبل المنذر. والحبطات وهم ولد الحارث بن عمرو بن تميم وسُمّي الحبط لعظم بطنه شبّهوه بالجمل الحبط وهو الذي انتفخ بطنه من كلإٍ يستوبله. فأمّا السلول فقد قال فيهم أبو زياد الكلابيُّ: كِرامٌ من كرام صعصعة لم يخالفوا في أمر ولم يدخلوا في صغار وإنّما كلمة عامر بن الطفيل هي التي شامتهم يريد قوله: أغدةً كغدة البعير وموتًا في بيت سلوليّة. قلت أمّا عامرٌ فقد قال هذه الكلمة حين دعا عليه الرسول فما يصنع بقول السموأل بن عادياء:

وإنّا لقومٌ لا نرى القتل سُبّةً   إذا ما رأته عامرٌ وسلولُ

والسموألُ في زمان امرئ القيس وبين امرئ القيس ومبعث الرسول مئةٌ وأربعٌ وخمسون سنة. قال الجاحظ لم تمدح قبيلةٌ في الجاهلية من قريش كما مُدحت مخزومٌ. قال وكان عبد العزيز بن مروان أخطأ في الشعر من كثير من خلفائهم. وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدّحًا. قلت أنا: أمّا هذه النعمة فقد أحلّها الله مضاعفةً

عِنْدَ ٱلسَّيِّدِ أَبِي ٱلْحَسَنِ وَقَرَنَهَا مِنْهُ بِالْاسْتِحْقَاقِ فَقَرَّتْ مَقَرَّهَا وَنَزَلَتْ مَنْزِلَهَا ٱلْمُخْتَارَ لَهَا . وَأَحْيَا ٱللهُ بِهِ لِبَنِي شَيْبَانَ حَمْدًا لَمْ يَشُبْهُ ذَمٌّ وَجُودٌ لَمْ يُعْقِبْهُ نَدَمٌ مِمَّا زَادَ عَلَى يَزِيدَ وَلَمْ يَدَعْ لِمَعْنٍ مَعْنًى فِي ٱلْجُودِ . وَقَالَ غَيْرُهُ : كَانَ عَمْرُو ٱبْنُ ٱلْعَلَاءِ مَمْدُوحًا وَفِيهِ يَقُولُ بَشَّارُ بْنُ بُرْدٍ :

قُلْ لِلْخَلِيفَةِ إِنْ جِئْتَهُ نَصِيحًا وَلَا خَيْرَ فِي ٱلْمُتَّهَمْ
إِذَا أَيْقَظَتْكَ حُرُوبُ ٱلْعِدَا فَنَبِّهْ لَهَا عَمْرًا ثُمَّ نَمْ
فَتًى لَا يَبِيتُ عَلَى دِمْنَةٍ وَلَا يَشْرَبُ ٱلْمَاءَ إِلَّا بِدَمْ

وَقَالَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ :

إِنَّ ٱلْمَطَايَا تَشْتَكِيكَ لِأَنَّهَا قَطَعَتْ إِلَيْكَ سَبَاسِبًا وَرِمَالَا

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ : لَمْ يَمْدَحْ أَحَدٌ قَطُّ بَنِي كُلَيْبٍ غَيْرُ ٱلْحُطَيْئَةِ :

لَعَمْرُكَ مَا ٱلْمُجَاوِرُ فِي كُلَيْبٍ بِمُقْصًى فِي ٱلْجِوَارِ وَلَا مُضَاعِ

وَكَانَتْ قَيْسٌ تَفْتَخِرُ عَلَى تَمِيمٍ لِأَنَّ شُعَرَاءَ تَمِيمٍ تَضْرِبُ ٱلْمَثَلَ بِقَبَائِلِ قَيْسٍ وَرِجَالِهَا . فَأَقَامَتْ تَمِيمُ دَهْرًا لَا تَرْفَعُ رُؤُوسَهَا حَتَّى قَالَ لَبِيدُ بْنُ رَبِيعَةَ :

أَبَنِي كُلَيْبٍ كَيْفَ تُنْفَى جَعْفَرٌ وَبَنُو ضُبَيْعَةَ حَاضِرُوا ٱلْأَجْنَابِ
قَتَلُوا ٱبْنَ عُرْوَةَ ثُمَّ لَطُّوا دُونَهُ حَتَّى نُحَاكِمَهُمْ إِلَى جَوَّابِ
يَرْعَوْنَ مُنْخَرَقَ ٱللَّدِيدِ كَأَنَّهُمْ فِي ٱلْعِزِّ أُسْرَةُ حَاجِبٍ وَشِهَابِ
مُتَظَاهِرٌ حَلَقُ ٱلْحَدِيدِ عَلَيْهِمِ كَبَنِي زُرَارَةَ أَوْ بَنِي عَتَّابِ .

قَوْمٌ لَهُمْ عَرَفَتْ مَعَدٌّ فَضْلَهُمْ وَٱلْفَضْلُ يَعْرِفُهُ ذَوُو ٱلْأَلْبَابِ

وَقَالَ ٱبْنُ مَنْظُورِ بْنِ سَيَّارٍ ٱلْفَزَارِيُّ :

فَجَاؤُوا بِجَمْعٍ مُجْزَئِلٍّ كَأَنَّهُمْ بَنُو دَارِمٍ إِذْ كَانَ فِي ٱلنَّاسِ دَارِمُ

فَتَكَلَّمَتْ تَمِيمٌ وَٱفْتَخَرَتْ لِمَكَانِ هٰذَيْنِ ٱلشَّاعِرَيْنِ ٱلْعَظِيمَيْنِ قَدْرًا فِي قَيْسٍ فَدَلَّ هٰذَا عَلَى أَنَّ قَيْسًا أَحْظَى بِٱلْمَدْحِ مِنْ تَمِيمٍ . وَٱلْأَوَابِدُ مِنَ ٱلشِّعْرِ ٱلْأَبْيَاتُ ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْأَمْثَالِ وَأَكْثَرُ مَا تُسْتَعْمَلُ ٱلْأَوَابِدُ فِي ٱلْهِجَاءِ يُقَالُ : رَمَاهُ بِآبِدَةٍ فَتَكُونُ ٱلْآبِدَةُ هٰهُنَا ٱلدَّاهِيَةَ . قَالَ ٱلْجَاحِظُ : ٱلْأَوَابِدُ ٱلدَّوَاهِي وَمِنْهُ أَوَابِدُ ٱلشِّعْرِ حَكَاهُ عَنْ أَبِي زَيْدٍ وَحَكَى : ٱلْأَوَابِدُ ٱلْإِبِلُ ٱلَّتِي تَتَوَحَّشُ فَلَا يُقْدَرُ عَلَيْهَا إِلَّا بِٱلْعَقْرِ . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلطَّيْرُ ٱلَّتِي تُقِيمُ صَيْفًا وَشِتَاءً . وَٱلْأَوَابِدُ ٱلْوَحْشُ فَإِذَا حُمِلَتْ أَبْيَاتُ ٱلشِّعْرِ عَلَى مَا قَالَ ٱلْجَاحِظُ كَانَتِ ٱلْمَعَانِي ٱلسَّائِرَةُ كَٱلْإِبِلِ ٱلشَّارِدَةِ ٱلْمُتَوَحِّشَةِ وَإِنْ شِئْتَ ٱلْمُقِيمَةَ عَلَى مَنْ قِيلَتْ فِيهِ لَا تُفَارِقُهُ كَإِقَامَةِ ٱلطَّيْرِ ٱلَّتِي لَيْسَتْ بِقَوَاطِعَ . وَإِنْ شِئْتَ قُلْتَ فِي بُعْدِهَا مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ وَٱمْتِنَاعِهَا عَلَيْهِمْ كَٱلْوَحْشِ فِي نِفَارِهَا مِنَ ٱلنَّاسِ . وَأَمَّا ٱلْمُجِدُّونَ فِي ٱلْكَسْبِ بِٱلشِّعْرِ وَٱلْحُظْوَةِ عِنْدَ ٱلْمُلُوكِ فَمِنْهُمْ مُسْلِمٌ ٱلْخَاسِرُ مَاتَ عَنْ مِائَةِ أَلْفِ دِينَارٍ وَلَمْ يَتْرُكْ وَارِثًا وَأَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ مَنَعَ :

تَعَالَى ٱللهُ يَا مُسْلِ بْنَ عَمْرٍو أَذَلَّ ٱلْحِرْصُ أَعْنَاقَ ٱلرِّجَالِ

وَكَانَ صَدِيقَهُ جِدًّا . فَقَالَ مُسْلِمٌ : وَيْلِي مِنْ هٰذَا ٱلرَّجُلِ جَمَعَ ٱلْقَنَاطِيرَ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَقَدْ نَسَبَنِي إِلَى مَا تَرَوْنَ مِنَ ٱلْحِرْصِ . وَلَمْ

يَرُدَّ ذٰلِكَ أَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ وَمَرْوَانُ بْنُ أَبِي حَفْصَةَ أُعْطِيَ مِائَةَ أَلْفِ دِينَارٍ مَرَّاتٍ عَدِيدَةً وَكَانَ لَا يُقَابِلُ إِلَّا بِٱلْكَثِيرِ وَهُوَ لَعَمْرِي مِنْ ذَوِي ٱلْبُيُوتَاتِ وَٱلْمَعْرُوفِينَ فِي ٱلْكَسْبِ وَٱلشِّعْرِ . وَكَانَ أَبُو نُوَاسٍ مَحْظُوظًا لَا يُدْرَى لِمَا وَصَلَ إِلَيْهِ لٰكِنَّهُ كَانَ مُتْلِفًا سَمْحًا وَكَانَ يَتَسَاجَلُ فِي ٱلْإِنْفَاقِ هُوَ وَعَبَّاسُ بْنُ أَحْنَفَ . وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ مَلِيًا قَدْ فَاضَ كَسْبُهُ مِنَ ٱلشِّعْرِ . وَكَانَ يَرْكَبُ فِي مَوْكِبٍ مِنْ عَبِيدِهِ . وَأَمَّا أَبُو تَمَّامٍ فَمَا وُفِيَ حَقَّهُ مَعَ مَا صَارَ إِلَيْهِ مِنَ ٱلْأَمْوَالِ لِأَنَّهُ تَبَذَّلَ وَجَابَ ٱلْأَرْضَ وَكَذٰلِكَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ

البحث الثاني عشر

في ما اشكل من المدح والهجاء

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

أَنْشَدَنَا أَبُو عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ ٱلنَّحْوِيُّ عَنْ أَبِي عَلِيٍّ ٱلْحُسَيْنِ بْنِ إِبْرٰهِيمَ ٱلْآمِدِيِّ لِرَجُلٍ مِنْ عَبْدِ شَمْسِ بْنِ سَعْدِ بْنِ تَمِيمٍ :

تَضَيَّفَنِي وَهْنًا فَقُلْتُ أَسَابِقِي ... إِلَى ٱلزَّادِ شَلَّتْ مِنْ يَدَيَّ ٱلْأَصَابِعُ
وَلَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ ضَيْفًا بِقَفْرَةٍ ... مِنَ ٱلْأَرْضِ إِلَّا وَهْوَ عُرْيَانُ جَائِعُ

لَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَسْبِقُ ضَيْفَهُ إِلَى ٱلزَّادِ فَيَكُونُ قَدْ هَجَا نَفْسَهُ لٰكِنَّهُ وَصَفَ ذِئْبًا لَقِيَهُ لَيْلًا فَقَالَ : أَتَسْبِقُنِي أَنْتَ إِلَى ٱلْأَكْلِ أَيْ تَأْكُلُنِي شَلَّتْ إِذًا أَصَابِعِي إِذَا لَمْ أَرْمِكَ فَأَقْتُلَكَ وَآكُلَ لَحْمَكَ . ثُمَّ قَالَ عَلَى ٱلْمَثَلِ : لَمْ تَلْقَ لِلسَّعْدِيِّ يَعْنِي نَفْسَهُ ضَيْفًا فِي

قَفرَةٍ يَعنِي ٱلذِئبَ اِلَّا هُوَ جَائِعٌ فَهوَ لَا يُبقِي عَلَيَّ لِاَنِّي اَقتُلهُ قَبلَ اَنْ يَشبَعَ مِنْ لَحمِي . وَمِنْ اَنَاشِيدِهِمْ :

اَبُوكَ ٱلَّذِي نُبِّئتُ يَحبِسُ خَيلَهُ   غَدَاةَ ٱلنَّدَى حَتَّى يَجِفَّ لَهَا ٱلبَقلُ

قَالُوا اِذَا اَخَذَ مَطَرُ ٱلصَّيفِ ٱلاَرضَ اَنبَتَتْ بَقلًا فِي اُصُولِ بَقلٍ قَدْ يَبِسَ فَذٰلِكَ ٱلاَخضَرُ هُوَ ٱلنَّشرُ وَهُوَ ٱلغَمِيرُ فَتَأْكُلُهُ ٱلاِبِلُ فَيَأْخُذُهَا ٱلسُّهَامُ وَلَا سُهَامَ فِي ٱلخَيلِ فَعَابَهُ بِٱلجَهلِ بِٱلخَيلِ . قَالَ ٱلاَصمَعِيُّ : هٰذَا ٱلقَولُ خَطَأٌ بَلْ مَدَحَهُ بِمَعرِفَةِ ٱلخَيلِ لِاَنَّ ٱلنَّشرَ مُؤْذٍ لِكُلِّ مَا اَكَلَهُ وَاِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّ سُهَامٌ . وَقَالَ سُلَيمَانُ بْنُ قُبَّةَ فِي رِثَاءِ ٱلحُسَينِ بنِ عَلِيٍّ وَذِكرِ آلِ ٱلرَّسُولِ :

اُولَائِكَ قَومٌ لَمْ يَشِيمُوا سُيُوفَهُمْ   وَلَمْ تَكْثُرِ ٱلقَتلَى بِهَا حِينَ سُلَّتِ

قَالَ قَومٌ اَرَادَ لَمْ يُغمِدُوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا بَعدَ كَثرَةِ ٱلقَتلَى بِهَا كَمَا تَقُولُ لَمْ اَضرِبْكَ وَلَمْ تَجنِ عَلَيَّ اِلَّا بَعدَ اَنْ جَنَيتُ عَلَيكَ . وَقَالَ آخَرُونَ : اَرَادَ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ اِلَّا وَكَثُرَتْ بِهَا ٱلقَتلَى كَمَا تَقُولُ : لَمْ اَلقَكَ وَلَمْ اُحسِنْ اِلَيكَ اَيْ اِلَّا وَقَدْ اَحسَنتُ اِلَيكَ وَٱلقَولَانِ مَعًا صَحِيحَانِ لِاَنَّهُ مِنَ ٱلاَضدَادِ وَيُنشِدُونَ قَولَ ٱلآخَرِ :

هَجَمْنَا عَلَيهِ وَهوَ يَكعَمُ كَلبَهُ   دَعِ ٱلكَلبَ يَنبَحْ اِنَّمَا ٱلكَلبُ نَابِحُ

وَيُروَى :

دَفَعتُ اِلَيهِ وَهوَ يَخنُقُ كَلبَهُ   اَلَا كُلُّ كَلبٍ لَا اَبَا لَكَ نَابِحُ

وَانشَدَ اَبُو عَبدِ ٱللّٰهِ :

فَجَنَّبْتَ ٱلجُيُوشَ اَبَا حَبِيبٍ   وَجَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ ٱلسَّحَابُ

وَيُرْوَى أَنَّ أَبَا زَيْنَبَ قَالَ: إِنْ دَعَا لَهُ فَإِنَّمَا أَرَادَ أَنْ يُعَافَى مِنَ الْجُيُوشِ وَأَنْ يَجُودَهُ السَّحَابُ فَتُخْصِبَ أَرْضُهُ وَإِنْ دَعَا عَلَيْهِ قَالَ: لَا أَبْقَى لَكَ خَيْرًا تَطْمَعُ فِيهِ الْجُيُوشُ فَهِيَ تَتَجَنَّبُ دِيَارَكَ لِعِلْمِهِمْ بِقِلَّةِ الْخَيْرِ فِيهَا وَيَدْعُو عَلَى مَحَلَّتِهِ بِأَنْ تَدْرُسَهَا الْأَمْطَارُ . وَقَالَ غَيْرُهُ: إِنَّمَا مَعْنَاهُ جَادَ عَلَى مَحَلَّتِكَ السَّحَابُ فَأَخْصَبَتْ وَلَا مَاشِيَةَ لَكَ فِيهَا فَذَلِكَ أَشَدُّ لِهَمِّكَ وَغَمِّكَ وَيَكُونُ الْمَعْنَى حِينَئِذٍ كَقَوْلِ الْآخَرِ:

وَخَيْفَاءَ أَلْقَى اللَّيْثُ فِيهَا ذِرَاعَهُ ... فَسَرَّتْ وَسَاءَتْ كُلَّ مَاشٍ وَمُصْرِمِ

أَيْ سَرَّتْ كُلَّ ذِي مَاشِيَةٍ وَسَاءَتْ كُلَّ فَقِيرٍ . وَأَنْشَدَ أَبُو عَبْدِ اللهِ أَيْضًا:

إِنِّي عَلَى كُلِّ إِيسَارٍ وَمَعْسَرَةٍ ... أَدْعُو خُبَيْشًا كَمَا تُدْعَى ابْنَةُ الْجَبَلِ

وَرَوَى الْمُبَرِّدُ حَنِيفًا يُرِيدُ أَنَّهُ يُجِيبُهُ بِسُرْعَةٍ كَالصَّدَا وَهُوَ ابْنَةُ الْجَبَلِ وَقِيلَ ابْنَةُ الْجَبَلِ الصَّخْرَةُ الْمُنْحَدِرَةُ مِنْ أَعْلَاهُ . وَزَادَ أَبُو زَيْدٍ فِي رِوَايَتِهِ بَيْتًا وَهُوَ:

إِنْ تَدْعُهُ مُوهِنًا يَعْجَلْ بِجَانِبِهِ ... عَارِي الْأَشَاجِعِ يَسْعَى غَيْرَ مُشْتَمِلِ

فَهَذَا مَدْحٌ لَا مَحَالَةَ وَمِنْهُمْ مَنْ حَمَلَهُ عَلَى قَوْلِ الْآخَرِ:

كَأَنِّي إِنْ دَعَوْتُ بَنِي حَنِيفٍ ... دَعَوْتُ بِدَعْوَتِي لَهُمُ الْجِبَالَا

وَرَوَاهُ قَوْمٌ بَنِي سُلَيْمٍ فَمَنْ مَدَحَ جَعَلَهُ مِثْلَ الْأَوَّلِ فِي سُرْعَةِ الْإِجَابَةِ وَمَنْ ذَمَّ نَسَبَهُمْ إِلَى الثِّقَلِ عَنْ إِجَابَتِهِ مِثْلَ الْجِبَالِ . وَمِنَ الدُّعَاءِ الَّذِي يَدْخُلُ فِي هَذَا الْبَابِ:

تَفَرَّقَتْ غَنَمِي يَوْمًا فَقُلْتُ لَهَا   يَا رَبِّ سَلِّطْ عَلَيْهَا ٱلذِّئْبَ وَٱلضَّبُعَا

قِيلَ إِنَّهُمَا إِذَا ٱجْتَمَعَا لَا يُؤْذِيَانِ وَشَغَلَ كُلٌّ مِنْهُمَا ٱلْآخَرَ وَإِذَا تَفَرَّقَا آذَيَا وَقِيلَ : إِنَّ مَعْنَاهُ فِي ٱلدُّعَاءِ عَلَيْهَا : قَتَلَ ٱلذِّئْبُ ٱلْأَحْيَاءَ عَبَثًا وَأَكَلَتِ ٱلضَّبُعُ ٱلْأَمْوَاتَ فَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا بَقِيَّةٌ . وَمِنْ لَطِيفِ مَا وَقَعَ فِي هٰذَا ٱلْبَابِ قَوْلُ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ :

يَصُدُّ ٱلشَّاعِرُ ٱلثُّنْيَانُ عَنِّي   صُدُودَ ٱلْبَكْرِ عَنْ قَرْمٍ هِجَانِ

وَلَمْ يُرِدْ أَنَّهُ يَغْلِبُ ٱلثُّنْيَانَ وَلَا يَغْلِبُ ٱلْفَحْلَ لٰكِنْ أَرَادَ ٱلتَّصْغِيرَ بِٱلَّذِي هَاجَاهُ فَجَعَلَهُ ثُنْيَانًا . وَقَالَ آخَرُ :

وَمَنْ يَفْخَرْ بِمِثْلِ أَبِي وَجَدِّي   يَجِي قَبْلَ ٱلسَّوَابِقِ وَهُوَ ثَانِ

أَرَادَ وَهُوَ ثَانٍ مِنْ عِنَانِهِ لَا يُسْبَقُ مُتَمَهِّلًا . وَمِمَّا يُمْدَحُ بِهِ وَيُذَمُّ قَوْلُهُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ فَمَنْ مَدَحَ أَرَادَ أَنَّهَا أَصْلُ ٱلطَّائِرِ وَمَنْ ذَمَّ أَرَادَ أَنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا . قَالَتْ أُخْتُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ وُدٍّ فِي عَلِيٍّ لَمَّا قَتَلَ أَخَاهَا :

لَوْ كَانَ قَاتِلُ عَمْرٍو غَيْرَ قَاتِلِهِ   لَقَدْ بَكَيْتُ عَلَيْهِ آخِرَ ٱلْأَبَدِ

لٰكِنَّ قَاتِلَهُ مَنْ لَا يُعَابُ بِهِ   مَنْ كَانَ يُدْعَى قَدِيمًا بَيْضَةَ ٱلْبَلَدِ

فَهٰذَا أَمْدَحُ كَمَا تَرَاهُ وَقَالَ ٱلرَّاعِي ٱلنُّمَيْرِيُّ يَهْجُو عَدِيَّ بْنَ ٱلرِّقَاعِ ٱلْعَامِلِيَّ :

لَوْ كُنْتَ مِنْ أَحَدٍ تُهْجَى هَجَوْتُكُمُ
يَا ٱبْنَ ٱلرِّقَاعِ وَلٰكِنْ لَسْتَ مِنْ أَحَدِ

تَأْبَى قُضَاعَةُ أَنْ تَرْضَى بِكُمْ نَسَبًا
وَٱبْنَا نِزَارٍ فَأَنْتُمْ بَيْضَةُ ٱلْبَلَدِ

وَأَنْشَدَ بَعْضُ ٱلْعُلَمَاءِ :

وَإِنِّي لَظَلاَّمٌ لِأَشْعَثَ بَائِسٍ
عَرَارًا وَمَقْرُورًا يُرَى مَالَهُ ٱلدَّهْرُ

وَجَارٍ قَرِيبِ ٱلدَّارِ أَوْ ذِي جِنَايَةٍ
غَرِيبٍ بَعِيدِ ٱلدَّارِ لَيْسَ لَهُ وَقْرُ

يَظُنُّهُ ٱلسَّامِعُ هَجَا نَفْسَهُ بِظُلْمِ هٰؤُلَاءِ ٱلَّذِينَ ذُكِرُوا إِنَّمَا مَدَحَهَا بِأَنَّهُ يَظْلِمُ ٱلنَّاقَةَ فَيَنْحَرُ لِلضِّيَافَةِ فَصِيلَهَا مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ وَلَا دَاءٍ هٰذَا هُوَ ٱلْأَشْعَثُ وَٱلْجَارُ وَأَشْبَاهُهُمَا

البحث الثالث عشر

في البديهة والارتجال

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اَلْبَدِيهَةُ عِنْدَ كَثِيرٍ مِنَ ٱلْمَوْسُومِينَ بِعِلْمِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فِي بِلَادِنَا وَمِنْ أَهْلِ عَصْرِنَا هِيَ ٱلْاِرْتِجَالُ وَلَيْسَتْ بِهِ لِأَنَّ ٱلْبَدِيهَةَ فِيهَا ٱلْفِكْرُ وَٱلتَّأْيِيدُ . وَٱلْاِرْتِجَالُ مَا كَانَ ٱنْهِمَارًا وَتَدَفُّقًا لَا يَتَوَقَّفُ فِيهِ قَائِلُهُ كَٱلَّذِي صَنَعَ ٱلْفَرَزْدَقُ وَقَدْ دَفَعَ إِلَيْهِ سُلَيْمَانُ بْنُ عَبْدِ ٱلْمَلِكِ أَسِيرًا مِنَ ٱلرُّومِ لِيَقْتُلَهُ فَدَسَّ إِلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ بَنِي عَبْسٍ سَيْفًا كَهَامًا فَنَبَا حِينَ ضَرَبَ بِهِ وَضَحِكَ سُلَيْمَانُ فَقَالَ ٱلْفَرَزْدَقُ ٱرْتِجَالًا فِي مَقَالَةٍ يَعْتَذِرُ لِنَفْسِهِ وَيُعَيِّرُ بَنِي عَبْسٍ بِنُبُوِّ سَيْفِ وَرْقَاءَ بْنِ زُهَيْرٍ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ بْنِ جَعْفَرٍ :

فَإِنْ يَكُ سَيْفٌ خَانَ اَوْ نَبَا حَدُّهُ

لِتَأْخِيرِ نَفْسٍ حَيْنُهَا غَيْرُ شَاهِدِ

فَسَيْفُ بَنِي عَبْسٍ وَقَدْ ضَرَبُوا بِهِ

نَبَا بِيَدَيْ وَرْقَاءَ عَنْ رَأْسِ خَالِدِ

كَذَاكَ سُيُوفُ ٱلْهِنْدِ تَنْبُو ظُبَاتُهَا

وَيَقْطَعْنَ اَحْيَانًا مَنَاطَ ٱلْقَلَائِدِ

وَلَوْ شِئْتُ قَطَّ ٱلسَّيْفُ مَا بَيْنَ اَنْفِهِ

اِلَى عَرَقٍ دُونَ ٱلشَّرَاسِيفِ حَاسِدِ

ثُمَّ جَلَسَ وَهُوَ يَقُولُ:

وَلَا نَقْتُلُ ٱلْاَسْرَى وَلٰكِنْ نَفُكُّهُمْ

اِذَا شَغَلَ ٱلْاَعْنَاقَ حَمْلُ ٱلْمَغَارِمِ

وَاَعْظَمُ ٱرْتِجَالٍ وَقَعَ قَصِيدَةُ ٱلْحَارِثِ بْنِ حِلِّزَةَ بَيْنَ يَدَيْ عَمْرِو ٱبْنِ هِنْدٍ فَاِنَّهُ يُقَالُ اَتَى بِهَا كَٱلْخُطْبَةِ . وَكَذٰلِكَ قَصِيدَةُ عُبَيْدِ بْنِ ٱلْاَبْرَصِ. وَقِيلَ: اَفْضَلُ ٱلْبَدِيهَةِ بَدِيهَةُ اَمْنٍ وَرَدَتْ فِي مَوْضِعِ خَوْفٍ فَمَا ظَنُّكَ بِٱلْاِرْتِجَالِ وَهُوَ اَسْرَعُ مِنَ ٱلْبَدِيهَةِ . وَكَانَ اَبُو نُوَاسٍ قَوِيَّ ٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْاِرْتِجَالِ لَا يَكَادُ يَنْقَطِعُ وَلَا يَرْوِي اِلَّا فَلْتَةً . وَيُرْوَى اَنَّ ٱلْخَطِيبَ قَالَ لَهُ مَرَّةً يُمَازِحُهُ وَهُوَ بِٱلْمَسْجِدِ ٱلْجَامِعِ : وَاَنْتَ غَيْرُ مُدَافَعٍ فِي ٱلشِّعْرِ وَلٰكِنَّكَ لَا تَخْطُبُ . فَقَامَ مِنْ فَوْرِهِ يَقُولُ مُرْتَجِلًا:

مَنَحْتُكُمُ يَا اَهْلَ مِصْرَ نَصِيحَتِي   اَلَا فَخُذُوا مِنْ نَاصِحٍ بِنَصِيبِ

رَمَاكُمْ اَمِيرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِحَيَّةٍ اَكُولٍ لِحَيَاتِ ٱلْبِلَادِ شَرُوبِ
فَاِنْ يَكُ بَاقِي سِحْرِ فِرْعَوْنَ فِيكُمُ فَاِنَّ عَصَا مُوسَى بِكَفِّ خَطِيبِ

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ اِلَيْهِ: وَٱللّٰهِ لَا يَأْتِي بِمِثْلِهَا خَطِيبٌ مِصْقَعٌ فَكَيْفَ رَأَيْتَ فَٱعْتَذَرَ اِلَيْهِ فَحَلَفَ: اِنْ كُنْتُ اِلَّا مَازِحًا. وَسَمِعْتُ جَمَاعَةً مِنَ ٱلْعُلَمَاءِ يَقُولُونَ: كَانَ مُسْلِمُ بْنُ ٱلْوَلِيدِ نَظِيرَ اَبِي نُوَاسٍ فِي وُقُوفِهِ عِنْدَ قَوْمٍ مِنْ اَهْلِ زَمَانِهِ فِي اَشْيَاءَ اِلَّا اَنَّ اَبَا نُوَاسٍ قَهَرَ بِٱلْبَدِيهَةِ وَٱلْاِرْتِجَالِ مَعَ تَقَبُّضٍ كَانَ فِي مُسْلِمٍ وَاِظْهَارِ تَوَقُّدٍ وَكَانَ صَاحِبَ فِكْرَةٍ وَرَوِيَّةٍ لَا يَبْتَدِهُ وَلَا يَرْتَجِلُ فَكَانَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ فِيمَا يُقَالُ اَقْدَرَ ٱلنَّاسِ عَلَى ٱرْتِجَالٍ وَبَدِيهَةٍ لِقُرْبِ مَأْخَذِهِ وَسُهُولَةِ طَرِيقِهِ

وَٱجْتَمَعَ عِدَّةٌ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فِيهِمْ اَبُو نُوَاسٍ فَشَرِبَ اَحَدُهُمْ مَاءً ثُمَّ قَالَ اَجِيزُونَا: بَرَدَ ٱلْمَاءُ وَطَابَا. فَكُلُّهُمْ تَلَعْثَمَ حَتَّى طَلَعَ اَبُو ٱلْعَتَاهِيَةِ. قَالَ: فِيمَ اَنْتُمْ فَاَنْشَدُوهُ. فَقَالَ وَمَا تَرَدَّدَ: حَبَّذَا ٱلْمَاءُ شَرَابَا. فَاَتَى بِٱلْقَسِيمِ شَبِيهًا بِصَاحِبِهِ. وَذٰلِكَ هُوَ ٱلَّذِي اَعْوَزَ ٱلْقَوْمَ لَا وَزْنُ ٱلْكَلَامِ. وَصَحِبَ رِفْقَةً فَسَمِعَ زُقَاءَ ٱلدُّيُوكِ. فَقَالَ لِرَفِيقِهِ: هَلْ رَأَيْتَ ٱلصُّبْحَ لَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ: وَسَمِعْتَ ٱلدِّيكَ صَاحَا. قَالَ نَعَمْ. قَالَ:

اِنَّمَا يَبْكِي عَلَى ٱلْمُغْتَرِّ بِٱلدُّنْيَا وَنَاحَا

فَٱسْتَيْقَظَ رَفِيقُهُ لِلْكَلَامِ اَنَّهُ شِعْرٌ فَرَوَاهُ. فَمَا جَرَى هٰذَا ٱلْمَجْرَى فَهُوَ ٱلْاِرْتِجَالُ. وَاَمَّا ٱلْبَدِيهَةُ فَبَعْدَ اَنْ يُفَكِّرَ ٱلشَّاعِرُ يَسِيرًا وَيَكْتُبَ

سريعًا ان حضرت آلتهُ الّا انّهُ غيرُ بطيءٍ ولا مُتراخٍ فإنْ اطالَ حتّى يُفرط او قام من مجلسه لم يُعدْ بديهًا

وقالوا اجتمع الشعراء بباب الرشيد فأذن لهم وقال: من يُجيز هذا القسيم وله حُكمُهُ. قالوا: ما هو يا امير المؤمنين. قال: الملكُ للهِ وحدَهُ. فقال الجمّاز: وللخليفة بعدَهُ وللمحبّ اذا ما حبيبُهُ باتَ عندَهُ. فقال: احسنتَ وأتيتَ على ما في نفسي وامر لهُ بعشرة آلاف درهمٍ. وقد كان ابو الطيب كثيرَ البديهة والارتجال الّا انّ شعرَهُ فيها نازلٌ عن طبقته جدًّا وهو لعمري في سعةٍ من الفَنَد اذ كانت البديهةُ كما قال ابن الرومي فيها:

نارُ الرويّةِ نارٌ جدُّ مُنضجةٍ ... وللبديهةِ نارٌ ذاتُ تلويحِ
وقد يُفضّلها قومٌ لعاجلها ... لكنّ عاجلَها يمضي مع الريحِ

وقال ابن المعتزّ:

والقولُ بعدَ الفكرِ يُؤمَنُ زَيفُهُ ... شتّانَ بينَ رويّةٍ وبديهةِ

ومن الشعراء من شعرُهُ في الرويّةِ والبديهةِ سواءٌ وعندَ الامنِ والخوفِ لقدرتهِ وسكونِ جأشهِ وقوّةِ غريزتهِ كهُدبةَ بنِ الخشرمِ العُذريِّ وطرفةَ بنِ العبدِ البكريِّ ومُرّةَ بنِ محكانَ السعديِّ اذ يقولُ وقد امرَ مصعبُ بنُ الزبيرِ رجلًا من بني اسدٍ بقتلِهِ:

بني اسدٍ انْ تقتلوني تحاربوا ... تميمًا اذا الحربُ العوانُ اشمعلّتِ
ولستُ وانْ كانتْ اليَّ حبيبةً ... بباكٍ على الدنيا اذا ما تولّتِ

وَهٰذَا شِعْرٌ لَوْ تَرَوَّى فِيهِ صَاحِبُهُ حَوْلًا كَامِلًا عَلَى اَمْنٍ وَدَعَةٍ وَفَرْطِ شَهْوَةٍ اَوْ شِدَّةِ حَمِيَّةٍ لَمَا اَتَى بِهِ فَوْقَ هٰذَا وَكَذٰلِكَ عَبْدُ يَاغُوثَ بْنُ صَلَاءَةَ اِذْ يَقُولُ فِي كَلِمَةٍ لَهُ طَوِيلَةٍ :

اَقُولُ وَقَدْ شَدُّوا لِسَانِي بِنِسْعَةٍ اَمَعْشَرَ تَيْمٍ اَطْلِقُوا مِنْ لِسَانِيَا
اَيَا رَاكِبًا اِمَّا عَرَضْتَ فَبَلِّغَنْ نُدَامَايَ مِنْ نَجْرَانَ اَنْ لَا تَلَاقِيَا

وَكَانُوا شَدُّوا لِسَانَهُ خَوْفًا مِنَ الْهِجَاءِ فَعَاهَدَهُمْ فَاَطْلَقُوهُ لِيَنُوحَ عَلَى نَفْسِهِ وَعَرَضَ عَلَيْهِمْ فِي فِدَائِهِ اَلْفَ نَاقَةٍ فَاَبَوْا اِلَّا قَتْلَهُ فَقَالَ :

فَاِنْ تَقْتُلُونِي تَقْتُلُونِي بِخَيْرِكُمْ وَاِنْ تُطْلِقُونِي تَحْرُبُونِي بِمَالِيَا

وَهٰذِهِ شَهَامَةٌ عَظِيمَةٌ وَشِدَّةٌ . وَمِنْ قَوْلِ طَرَفَةَ بْنِ الْعَبْدِ لَمَّا اَيْقَنَ بِالْمَوْتِ :

اَبَا مُنْذِرٍ كَانَتْ غُرُورًا صَحِيفَتِي
وَلَمْ اُعْطِكُمْ فِي الطَّوْعِ مَالِي وَلَا عِرْضِي
اَبَا مُنْذِرٍ اَفْنَيْتَ فَاسْتَبْقِ بَعْضَنَا
حَنَانَيْكَ بَعْضُ الشَّرِّ اَهْوَنُ مِنْ بَعْضِ

وَاَيْنَ هٰؤُلَاءِ مِنْ عُبَيْدِ بْنِ الْاَبْرَصِ وَهُوَ شَيْخٌ مِنْ شُيُوخِ الصِّنَاعَةِ وَمُقَدَّمٌ فِي السِّنِّ عَلَى الْجَمَاعَةِ اِذْ يَقُولُ لَهُ النُّعْمَانُ يَوْمَ بُؤْسِهِ : اَنْشِدْنِي . قَالَ : حَالَ الْجَرِيضُ دُونَ الْقَرِيضِ . قَالَ : اَنْشِدْنِي قَوْلَكَ اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ مَلْحُوبُ . فَقَالَ :

اَقْفَرَ مِنْ اَهْلِهِ عُبَيْدُ فَالْيَوْمَ لَا يُبْدِي وَلَا يُعِيدُ

فَبَلَغَتْ بِهِ حَالُ ٱلْجَزَعِ إِلَى مِثْلِ هٰذَا عَلَى أَنَّ فِي طَرَفَةِ بَعْضَ ٱلضَّرَاعَةِ

حَكَى عَلِيُّ بْنُ يَحْيَى قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ ٱلْمُتَوَكِّلِ إِذْ أَتَاهُ رَسُولُ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمٰعِيلَ فَقَامَ عَلِيُّ بْنُ ٱلْجَهْمِ يَخْطُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَيَقُولُ:

أَهْلًا وَسَهْلًا بِكَ مِنْ رَسُولِ جِئْتَ بِمَا يَشْفِي مِنَ ٱلْغَلِيلِ

بِرَأْسِ إِسْحَقَ بْنِ إِسْمَاعِيلِ

فَقَالَ ٱلْمُتَوَكِّلُ ٱلْقُطُوا هٰذَا ٱلْجَوْهَرَ لَا يَضِيعُ. وَٱشْتِقَاقُ ٱلْبَدِيهَةِ مِنْ بَدَهَ بِمَعْنَى بَدَأَ أُبْدِلَتِ ٱلْهَمْزَةُ هَاءً كَمَا أُبْدِلَتْ فِي أَشْيَاءَ كَثِيرَةٍ لِقُرْبِهَا مِنْهَا. فَقَدْ قَالُوا: مَدَحَ وَمَدَهَ وَلَهِنَّكَ تَفْعَلُ كَذَا بِمَعْنَى لِأَنَّكَ وَمِثْلُ ذٰلِكَ كَثِيرٌ. وَٱلِٱرْتِجَالُ مَأْخُوذٌ مِنَ ٱلسُّهُولَةِ وَٱلِٱنْصِبَابِ. وَمِنْهُ قِيلَ: شَعَرَ ٱلرَّجُلُ إِذَا كَانَ شَعْرُهُ سَبِطًا مُسْتَرْسِلًا غَيْرَ جَعْدٍ. وَقِيلَ هُوَ مِنِ ٱرْتِجَالِ ٱلْبِئْرِ وَهُوَ أَنْ تَنْزِلَهَا بِرِجْلَيْكَ مِنْ غَيْرِ حَبْلٍ

البحث الرابع عشر

في آداب الشاعر

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

مِنْ حُكْمِ ٱلشَّاعِرِ أَنْ يَكُونَ حُلْوَ ٱلشَّمَائِلِ حَسَنَ ٱلْأَخْلَاقِ طَلْقَ ٱلْوَجْهِ بَعِيدَ ٱلْغَوْرِ مَأْمُونَ ٱلْجَانِبِ سَهْلَ ٱلنَّاحِيَةِ وَطِيءَ ٱلْأَكْنَافِ فَإِنَّ ذٰلِكَ مِمَّا يُحَبِّبُهُ إِلَى ٱلنَّاسِ وَيُزَيِّنُهُ فِي عُيُونِهِمْ وَيُقَرِّبُهُ

مِنْ قُلُوبِهِمْ وَلٰكِنْ مَعَ ذٰلِكَ شَرِيفَ ٱلنَّفْسِ لَطِيفَ ٱلْحِسِّ عَزُوفَ ٱلْهِمَّةِ نَظِيفَ ٱلْبِزَّةِ انِفًا لِتَهَابَهُ ٱلْعَامَّةُ وَيَدْخُلَ فِي جُمْلَةِ ٱلْخَاصَّةِ فَلَا تَمُجُّهُ ابْصَارُهُمْ سَمْحَ ٱلْيَدَيْنِ وَإِلَّا فَهُوَ كَمَا قَالَ ٱبْنُ أَبِي فَنَنٍ:

وَإِنَّ احَقَّ ٱلنَّاسِ بِٱللَّوْمِ شَاعِرٌ   يَلُومُ عَلَى ٱلْبُخْلِ ٱلرِّجَالَ وَيَبْخَلُ

وَإِلَى هٰذَا ٱلْمَعْنَى ذَهَبَ ٱلطَّائِيُّ بِقَوْلِهِ:

أَأَلُومُ مَنْ بَخِلَتْ يَدَاهُ وَٱعْتَدَى   لِلْبُخْلِ جَرْيًا سَاءَ ذَاكَ صَنِيعَا

وَٱلشَّاعِرُ مَأْخُوذٌ بِكُلِّ عِلْمٍ مَطْلُوبٌ بِكُلِّ مَكْرُمَةٍ لِاتِّسَاعِ ٱلشِّعْرِ وَٱحْتِمَالِهِ كُلَّ مَا حُمِلَ مِنْ نَحْوٍ وَلُغَةٍ وَفِقْهٍ وَخَبَرٍ وَحِسَابٍ وَفَرِيضَةٍ وَٱحْتِيَاجِ اكْثَرِ هٰذِهِ ٱلْعُلُومِ إِلَى شَهَادَتِهِ وَهُوَ مُكْتَفٍ بِذَاتِهِ مُسْتَغْنٍ عَمَّا سِوَاهُ وَلِأَنَّهُ قَيْدٌ لِلْأَخْبَارِ وَتَجْدِيدٌ لِلْآثَارِ وَصَاحِبُهُ ٱلَّذِي يَذُمُّ وَيَحْمَدُ وَيَهْجُو وَيَمْدَحُ وَيَعْرِفُ مَا يَأْتِي ٱلنَّاسُ مِنْ مَحَاسِنِ ٱلْأَشْيَاءِ وَمَا يَذَرُونَهُ فَهُوَ عَلَى نَفْسِهِ شَاهِدٌ وَبِحُجَّتِهِ مَأْخُوذٌ. وَلْيَأْخُذْ نَفْسَهُ بِحِفْظِ ٱلشِّعْرِ وَٱلْخَبَرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلنَّسَبِ وَأَيَّامِ ٱلْعَرَبِ يَسْتَعْمِلُ ذٰلِكَ فِيمَا يُرِيدُهُ مِنْ ذِكْرِ ٱلْآثَارِ وَضَرْبِ ٱلْأَمْثَالِ لِيَعْلَقَ نَفْسُهُ بَعْضَ أَنْفَاسِهِمْ وَيَقْوَى بِقُوَّةِ طِبَاعِهِمْ. فَقَدْ وَجَدْنَا ٱلشَّاعِرَ مِنَ ٱلْمَطْبُوعِينَ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ يَفْضُلُ أَصْحَابَهُ بِرِوَايَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَعْرِفَةِ ٱلْأَخْبَارِ وَٱلتَّلْمَذَةِ لِمَنْ فَوْقَهُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ فَيَقُولُونَ: فُلَانٌ شَاعِرٌ رَاوِيَةٌ يُرِيدُونَ انَّهُ إِذَا كَانَ رَاوِيَةً عَرَفَ ٱلْمَقَاصِدَ وَسَهُلَ عَلَيْهِ مَأْخَذُ ٱللَّفْظِ وَلَمْ يَضِقْ بِهِ ٱلْمَذْهَبُ وَإِذَا كَانَ مَطْبُوعًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا رِوَايَةَ ضَلَّ وَٱهْتَدَى مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُ وَرُبَّمَا طَلَبَ ٱلْمَعْنَى فَلَمْ يَصِلْ إِلَيْهِ

وَهُوَ ماثِلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ لِضُعْفِ آلَتِهِ كَالْمُقْعَدِ يَجِدُ فِي نَفْسِهِ ٱلْقُوَّةَ عَلَى ٱلنُّهُوضِ فَلَا تُعِينُهُ ٱلآلَةُ . وَقَدْ سُئِلَ رُؤْبَةُ بْنُ ٱلعَجَّاجِ عَنِ ٱلْفَحْلِ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ . فَقَالَ : هُوَ ٱلرَّاوِيَةُ يُرِيدُ أَنَّهُ إِذَا رَوَى ٱسْتَفْحَلَ . قَالَ يُونُسُ بْنُ حَبِيبٍ : وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّهُ يَجْمَعُ إِلَى جَيِّدِ شِعْرِهِ مَعْرِفَةَ جَيِّدِ غَيْرِهِ فَلَا يَحْمِلُ نَفْسَهُ إِلَّا عَلَى بَصِيرَةٍ . وَقَالَ رُؤْبَةُ فِي صِفَةِ شَاعِرٍ :

لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ تَكُونَ سَاحِرَا رِوَايَةً مُرًّا وَمُرًّا شَاعِرَا

وَٱسْتَعْظَمَ حَالَهُ حَتَّى قَرَنَهَا بِٱلسِّحْرِ . وَقَالَ ٱلْأَصْمَعِيُّ : لَا يَصِيرُ ٱلشَّاعِرُ فِي قَرِيضِ ٱلشِّعْرِ فَحْلًا حَتَّى يَرْوِيَ أَشْعَارَ ٱلْعَرَبِ وَيَسْمَعَ ٱلْأَخْبَارَ وَيَعْرِفَ ٱلْمَعَانِيَ وَتَدُورَ فِي مَسَامِعِهِ ٱلْأَلْفَاظُ . وَأَوَّلُ ذٰلِكَ أَنْ يَعْرِفَ ٱلْعَرُوضَ لِيَكُونَ مِيزَانًا عَلَى قَوْلِهِ وَٱلنَّحْوَ يُصْلِحُ بِهِ لِسَانَهُ وَيُقِيمُ بِهِ إِعْرَابَهُ وَٱلنَّسَبَ وَأَيَّامَ ٱلنَّاسِ لِيَسْتَعِينَ بِذٰلِكَ عَلَى مَعْرِفَةِ ٱلْمَنَاقِبِ وَٱلْمَثَالِبِ وَذِكْرِهِمَا بِمَدْحٍ أَوْ ذَمٍّ . وَقَدْ كَانَ ٱلْفَرَزْدَقُ عَلَى فَضْلِهِ فِي هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ يَرْوِي لِلْحُطَيْئَةِ كَثِيرًا وَكَانَ ٱلْحُطَيْئَةُ رَاوِيَةَ زُهَيْرٍ وَكَانَ زُهَيْرٌ رَاوِيَةَ أَوْسِ بْنِ حَجَرٍ وَطُفَيْلٍ ٱلْغَنَوِيِّ جَمِيعًا . وَقَدْ نَزَلَ أَعْشَى بَنِي قَيْسِ بْنِ ثَعْلَبَةَ بَيْنَ يَدَيِ ٱلنَّابِغَةِ ٱلذُّبْيَانِيِّ بِسُوقِ عُكَاظَ وَأَنْشَدَهُ فَقَدَّمَهُ . وَأَنْشَدَهُ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ وَلَبِيدُ ٱبْنُ رَبِيعَةَ فَمَا عَابَهُمْ ذٰلِكَ وَلَا غَضَّ مِنْهُمْ . وَكَانَ كُثَيِّرٌ رَاوِيَةَ جَمِيلٍ مُفَضِّلًا لَهُ . وَكَانَ أَبُو حَيَّةَ ٱلنُّمَيْرِيُّ وَٱسْمُهُ ٱلْهَيْثَمُ بْنُ ٱلرَّبِيعِ وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ ٱلنَّاسِ شِعْرًا وَأَنْظَفِهِمْ كَلَامًا مُؤْتَمًّا بِٱلْفَرَزْدَقِ

آخِذًا عَنهُ كَثِيرًا مُتَعَصِّبًا لَهُ. وَلَا يَسْتَغْنِي ٱلْمُوَلَّدُ عَنْ تَصَفُّحِ اَشْعَارِ ٱلْمُوَلَّدِينَ لِمَا فِيهَا مِنْ حَلَاوَةِ ٱللَّفْظِ وَقُرْبِ ٱلْمَأْخَذِ وَاِشَارَاتِ ٱلْمُلَحِ وَوُجُوهِ ٱلْبَدِيعِ ٱلَّذِي مِثْلُهُ فِي شِعْرِ ٱلْمُتَقَدِّمِينَ قَلِيلٌ وَاِنْ كَانُوا هُمْ فَتَحُوا بَابَهُ وَفَتَقُوا جِلْبَابَهُ. وَلِلْمُتَعَقِّبِ زِيَادَاتٌ وَاَفْتِنَانٌ. لَا عَلَى اَنْ تَكُونَ عُدَّةُ ٱلشَّاعِرِ مُطَالَعَةَ مَا ذَكَرْتُهُ آخِرَ كَلَامِي هٰذَا دُونَ مَا قَدَّمْتُهُ فَاِنَّهُ مَتَى فَعَلَ ذٰلِكَ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنَ ٱلْمُنَّةِ وَفَضْلِ ٱلْقُوَّةِ مَا يَبْلُغُ بِهِ طَاقَةَ مَنْ تَبِعَ فَيُجَارِيَهُ. وَاِذَا اَعَانَتْهُ فَصَاحَةُ ٱلْمُتَقَدِّمِ وَحَلَاوَةُ ٱلْمُتَاخِّرِ اَشْتَدَّ سَاعِدُهُ وَبَعُدَ مَرَامُهُ فَلَمْ يَقَعْ دُونَ ٱلْغَرَضِ وَسَعَى اَنْ يَكُونَ اَوْثَقَ سِهَامًا وَاَحْسَنَ مَوْقِعًا مِمَّنْ لَوْ عَوَّلَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمُحْدَثِينَ لَقَصَّرَ عَنْهُ وَوَقَعَ دُونَهُ. وَلْيَجْعَلْ طَلَبَهُ اَوَّلًا لِلسَّلَامَةِ فَاِذَا صَحَّتْ لَهُ طَلَبَ ٱلتَّجْوِيدَ حِينَئِذٍ وَلْيَرْغَبْ فِي ٱلْحَلَاوَةِ وَٱلطَّلَاوَةِ رَغْبَتَهُ فِي ٱلْجَزَالَةِ وَٱلْفَخَامَةِ. وَلْيَجْتَنِبِ ٱلسُّوقِيَّ ٱلْقَرِيبَ وَٱلْوَحْشِيَّ ٱلْغَرِيبَ حَتَّى يَكُونَ شِعْرُهُ حَالًا بَيْنَ حَالَيْنِ كَمَا قَالَ بَعْضُ ٱلشُّعَرَاءِ:

عَلَيْكَ بِاَوْسَاطِ ٱلْاُمُورِ فَاِنَّهَا نَجَاةٌ وَلَا تَرْكَبْ ذَلُولًا وَلَا صَعْبَا

وَاَوَّلُ مَا يَحْتَاجُ اِلَيْهِ ٱلشَّاعِرُ بَعْدَ ٱلْجِدِّ ٱلَّذِي هُوَ ٱلْغَايَةُ وَفِيهِ وَحْدَهُ ٱلْكِفَايَةُ حُسْنُ ٱلتَّأَنِّي وَٱلسِّيَاسَةِ وَعِلْمُ مَقَاصِدِ ٱلْقَوْلِ فَاِنْ نَسَبَ ذَلَّ وَخَضَعَ وَاِنْ مَدَحَ اَطْرَبَ وَاَسْمَعَ وَاِنْ هَجَا اَقَلَّ وَاَوْجَعَ وَلْتَكُنْ غَايَتُهُ مَعْرِفَةَ اَغْرَاضِ ٱلْمُخَاطَبِ كَائِنًا مَنْ كَانَ لِيَدْخُلَ اِلَيْهِ مِنْ بَابِهِ وَيُدَاخِلَهُ فِي ثِيَابِهِ فَذٰلِكَ هُوَ سِرُّ صِنَاعَةِ ٱلشِّعْرِ وَمَغْزَاهُ ٱلَّذِي تَفَاوَتَ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ تَفَاضَلُوا. وَقَدْ قِيلَ: لِكُلِّ

مقام مقالٌ. وشعرُ الشاعرِ لنفسه وفي مرادِه وأمورِ ذاتِه من مدحٍ وغزلٍ ومكاتبةٍ ومجونٍ وخمريّةٍ وما أشبه ذلك غيرُ شعرِه في قصائدِ الحفلِ التي يقومُ بها بينَ السماطين. يُقبَلُ منهُ في تلك الطريق عفوُ كلامِه وما لا يتكلّفُ له ولا ألقى بهِ بالًا ولا يُقبلُ منهُ في هذه إلّا ما كانَ محكّكًا معاودًا فيهِ النظرُ جيّدًا لا غثَّ فيهِ ولا ساقطَ ولا قلِقَ. وشعرُهُ للأميرِ غيرُ شعرِه للوزيرِ والكاتبِ ومخاطبتُهُ للقضاةِ والفقهاء بخلافِ ما تقدّمَ من هذهِ الأنواعِ.

والمتأخّرُ من الشعراءِ في الزمانِ لا يضرُّهُ تأخُّرُه إذا أجادَ كما لا ينفعُ المتقدّمَ تقدُّمُهُ إذا قصّرَ وإنْ كانَ لهُ فضلُ السبقِ فعليهِ دركُ التقصيرِ كما أنَّ للمتأخّرِ فضلَ الإجادةِ والزيادةِ. ولا يكونُ الشاعرُ حاذقًا مجوّدًا حتّى يتفقّدَ شعرَهُ ويُعيدَ فيهِ نظرَهُ فيُسقِطَ رديّهُ ويُثبِتَ جيّدَهُ ويكونَ بالركيكِ مطّرحًا لهُ راغبًا عنهُ. فإنَّ بيتًا جيّدًا مقامَ ألفِ رديٍّ. وقالَ امرؤُ القيسِ وهوَ أوّلُ ما زعموا أنّهُ اختيرَ لهُ وعُلِمَ بهِ أنّهُ أفضلُ الشعراءِ والمقدَّمُ عليهم:

أذودُ القوافيَ عنّي ذيادا	ذيادَ غلامٍ جريءٍ جرادا
فلمّا كثُرنَ وعنّينَهُ	تخيّرَ منهنَّ ستًّا جيادا
فأعزلُ مرجانَها جانبًا	وآخذُ من دُرّها المستجادا

ويُقالُ إنَّ أبا نواسٍ كانَ يفعلُ هذا الفعلَ ويُبقي الجيّدَ ويلتمسُ لهُ منَ الكلامِ ما سهلَ ومنَ المعنى ما كانَ واضحًا جليًّا

يُعرَفُ بَدِيًّا. فَقَدْ قَالَ بَعضُ ٱلمُتَقَدِّمِينَ: شَرُّ ٱلشِّعرِ مَا سُئِلَ عَنهُ. وَكَانَ ٱلحُطَيئَةُ يَقُولُ: خَيرُ ٱلشِّعرِ ٱلحَولِيُّ ٱلمُحَكَّكُ. اَخَذَ فِي ذٰلِكَ بِمَذهَبِ زُهَيرِ بنِ اَبِي سَلْمَى وَاَوسٍ وَطُفَيلٍ. وَلَا يَجُوزُ لِلشَّاعِرِ كَمَا لَا يَجُوزُ لِغَيرِهِ اَنْ يَكُونَ مُعجَبًا بِنَفسِهِ مُثنِيًا عَلَى شِعرِهِ وَاِنَّ فَضِيحَةً ظَاهِرَةً كَانَ غَنِيًّا عَنهَا. وَكَانَ فِي ٱلبُحتُرِيِّ اِعجَابٌ شَدِيدٌ اِذَا اَنشَدَ يَقُولُ: مَا لَكُمْ لَا تَعجَبُونَ مَا اَحسَنَ مَا تَسمَعُونَ. فَاَنشَدَ ٱلمُتَوَكِّلَ يَومًا قَصِيدَتَهُ:

عَنْ اَيِّ ثَغرٍ تَبتَسِمْ وَبِاَيِّ طَرفٍ تَحتَكِمْ

وَاَبُو ٱلعَبَّاسِ ٱلصِّمَيرِيُّ حَاضِرٌ فَلَمَّا رَاَى اِعجَابَهُ قَامَ حِذَاءَهُ وَقَالَ:

مِنْ اَيِّ سَلْحٍ تَلتَقِمْ وَبِاَيِّ كَفٍّ تَلتَطِمْ

فَوَلَّى وَهُوَ غَضبَانُ. فَقَالَ: وَعَلِمتُ اَنَّكَ تَنهَزِمْ. فَضَحِكَ ٱلمُتَوَكِّلُ حَتَّى فَحَصَ بِرِجلَيهِ وَاَعطَى ٱلصِّمَيرِيَّ جَائِزَةً سَنِيَّةً

البحث الخامس عشر

في عمل الشعر وشحذ القريحة

(من كتاب العمدة)

لَا بُدَّ لِلشَّاعِرِ وَاِنْ كَانَ فَحلًا حَاذِقًا مُبَرِّزًا مُقَدَّمًا مِنْ فَترَةٍ تَعرِضُ لَهُ فِي بَعضِ ٱلاَوقَاتِ اِمَّا لِشُغلٍ طَرَاَ اَوْ مَوتِ قَرِيحَةٍ اَوْ نُبُوِّ طَبعٍ فِي تِلكَ ٱلسَّاعَةِ اَوْ ذٰلِكَ ٱلحِينِ. وَقَدْ كَانَ ٱلفَرَزدَقُ

وَهُوَ فَحْلُ مُضَرَ فِي زَمَانِهِ يَقُولُ : تَمُرُّ عَلَيَّ ٱلسَّاعَةُ وَقَلْعُ ضِرْسٍ مِنْ اَضْرَاسِي اَهْوَنُ عَلَيَّ مِنْ عَمَلِ بَيْتٍ مِنَ ٱلشِّعْرِ فَإِذَا تَمَادَى ذٰلِكَ عَلَى ٱلشَّاعِرِ قِيلَ : قَدْ اَصْفَى كَمَا يُقَالُ اَصْفَتِ ٱلدَّجَاجَةُ اِذَا ٱنْقَطَعَ بَيْضُهَا وَكَذٰلِكَ يُقَالُ لَهُ اَجْبَلَ كَمَا يُقَالُ لِحَافِرِ ٱلْبِئْرِ اِذَا بَلَغَ جَبَلًا تَحْتَ ٱلْاَرْضِ لَا يَعْمَلُ فِيهِ شَيْءٌ اَجْبَلَ . وَأُفْحِمَ ٱلشَّاعِرُ عَلَى أُفْعِلَ وَقَالُوا : هُوَ مِنْ فَحَمَ ٱلصَّبِيُّ اِذَا ٱنْقَطَعَ صَوْتُهُ مِنْ شِدَّةِ ٱلْبُكَاءِ . فَإِنْ سَاءَ لَفْظُهُ وَفَسَدَتْ مَعَانِيهِ قِيلَ لَهُ اَهْتَرَ فَهُوَ مُهْتِرٌ . وَقَدْ قِيلَ فِي ٱلذُّبْيَانِيِّ اَنَّهُ كَانَ شِعْرُهُ نَظِيفًا مِنَ ٱلْعُيُوبِ لِاَنَّهُ قَالَهُ كَبِيرًا وَمَاتَ عَنْ قُرْبٍ وَلَمْ يُهْتِرْ وَاَكْثَرُ مَا جَاءَ ٱلْاِهْتَارُ فِي صِفَةِ ٱلْكَبِيرِ ٱلَّذِي يَخْتَلِطُ كَلَامُهُ . وَقَوْلُهُمْ فِي شِعْرِ ٱلنَّابِغَةِ اِنَّهُ قَالَ كَثِيرًا يَدُلُّ عَلَى اَنَّهُ بِهٰذَا يُسَمَّى نَابِغَةً كَمَا عِنْدَ اَكْثَرِ ٱلنَّاسِ لَا لِقَوْلِهِ : « فَقَدْ نَبَغَتْ لَنَا مِنْهُمْ شُؤُونُ » كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ قَوْلِ بَعْضِهِمْ . وَيُقَالُ اَخْلَى ٱلشَّاعِرُ كَمَا يُقَالُ اَخْلَى ٱلرَّامِي اِذَا لَمْ يُصِبْ مَعْنًى

وَيُحْكَى عَنِ ٱلْبُحْتُرِيِّ اَنَّهُ قَالَ : فَاوَضْتُ عَلِيَّ بْنَ ٱلْجَهْمِيِّ فِي ٱلشِّعْرِ وَذِكْرِ اَشْجَعَ ٱلسُّلَمِيِّ فَقَالَ : اِنَّهُ يُخْلِي . فَلَمْ اَفْهَمْهَا وَاَنِفْتُ اَنْ اَسْاَلَهُ عَنْهَا . فَلَمَّا ٱنْصَرَفْتُ فَكَّرْتُ فِيهَا وَنَظَرْتُ فِي شِعْرِ اَشْجَعَ فَإِذَا هُوَ رُبَّمَا مَرَّتْ بِهِ ٱلْاَبْيَاتُ مَغْسُولَةً لَيْسَ فِيهَا بَيْتٌ رَائِعٌ

ثُمَّ اِنَّ لِلنَّاسِ فِيمَا بَعْدُ ضُرُوبًا مُخْتَلِفَةً يَسْتَدْعُونَ بِهَا ٱلشِّعْرَ

فتشحذ القرائح وتنبه الخواطر وتلين عريكة الكلام وتسهل طريق المعنى لكل امرئ بحسب تدبير طبعه واطراد عادته. وسيأتي ذلك في اقاويل العلماء بما ارجو ان يكون فيه هداية ان شاء الله تعالى

قال بكر بن النطاح الحنفي: الشعر مثل عين الماء ان تركتها نضبت وان استهتنتها هتنت. وليس مراد بكر ان تستهتن بالعمل وحده لانا نجد الشاعر تكل قريحته مع كثرة العمل مرارا وتنزف مادته وتنفد معانيه فاذا جم طبعه اياما وربما زمانا طويلا ثم صنع الشعر جاء بكل آبدة واتهم بكل قافية شاردة وفتح له من المعاني والالفاظ ما لو رامه من قبل لاستغلق عليه وابهم دونه. لكن بالمذاكرة مرة فانها تقدح زناد الخاطر وتفجر عيون المعاني وتوقظ ابصار الفتنة وبمطالعة الاشعار كرة فانها تبعث الجسد وتولد الشهوة. وسئل ذو الرمة كيف تفعل اذا انقفل دونك الشعر. فقال: كيف ينقفل دوني وعندي مفاتحه. قيل له: وعنه سألتك ما هو. قال: الخلو بذكر الاحباب ولعمري انه اذا انفتح للشاعر نسيب القصيدة فقد ولج من الباب وحط رجله في الركاب على ان ذا الرمة لم يكن كثير المدح والهجاء وانما كان واصف اطلال ونادب اظعان وهو الذي اخرجه من طبقة الفحول. وقيل لكثير كيف تصنع الشعر اذا عسر عليك. قال: اطوف في الرياض المعشبة فيسهل علي صعبه ويسرع الي

اَحسَنُهُ . وَقَالَ ٱلْاَصمَعِيُّ : مَا اَسْتُدْعِيَ شَارِدُ ٱلشِّعْرِ بِمِثْلِ ٱلْمَاءِ ٱلْجَارِي وَٱلشَّرَفِ ٱلعَالِي وَٱلْمَكَانِ ٱلْخَالِي. وَقِيلَ ٱلْخَالِي يَعْنِي ٱلرَّوْضَ

وَحَدَّثَنَا بَعْضُ اَصْحَابِنَا مِنْ اَهلِ ٱلْمَهْدِيَّةِ وَقَدْ مرَرْنَا بِمَوْضِعٍ بِهَا يُعْرَفُ بِٱلْكِنْدِيَّةِ وَهُوَ اَشْرَفُهَا اَرضًا وَهَوَاءً . قَالَ : جِئْتُ هٰذَا ٱلْمَوْضِعَ مَرَّةً فَإِذَا عَبْدُ ٱلْكَرِيمِ عَلَى سَطْحٍ هُنَالِكَ قَدْ كَشَفَ ٱلدُّنْيَا . فَقُلْتُ : اَبَا مُحَمَّدٍ . قَالَ : نَعَمْ . فَقُلْتُ : مَا تَصْنَعُ هَاهُنَا . قَالَ : اُلَقِّحُ خَاطِرِي وَاَجْلُو نَاظِرِي قُلْتُ : فَهَلْ نَتَجَ لَكَ شَيْءٌ . قَالَ : مَا تَقَرُّ بِهِ عَيْنِي وَعَيْنُكَ اِنْ شَاءَ ٱللهُ تَعَالَى وَاَنْشَدَ شِعْرًا يَدْخُلُ مَسَامَّ ٱلْقُلُوبِ رِقَّةً . قُلْتُ : هٰذَا ٱخْتِيَارٌ مِنْكَ اَخْتَرَعْتَهُ . قَالَ : بَلْ بِرَأْيِ ٱلْاَصْمَعِيِّ

وَقَالُوا كَانَ جَرِيرٌ اِذَا اَرَادَ اَنْ يُؤَيِّدَ قَصِيدَةً صَنَعَهَا لَيْلًا يُشْعِلُ سِرَاجًا وَيَعْتَزِلُ اَهْلَهُ وَرُبَّمَا عَلَا ٱلسَّطْحَ وَحْدَهُ وَغَطَّى رَأْسَهُ رَغْبَةً فِي ٱلْخَلْوَةِ فِي نَفْسِهِ . فَحُكِيَ اَنَّهُ صَنَعَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلَّتِي اَخْزَى بِهَا بَنِي نُمَيْرٍ

وَرُوِيَ اَنَّ ٱلفَرَزْدَقَ كَانَ اِذَا عَصَتْ عَلَيْهِ صَنْعَةُ ٱلشِّعْرِ رَكِبَ نَاقَةً وَطَافَ وَحْدَهُ مُنْفَرِدًا فِي شِعَابِ ٱلْجِبَالِ وَبُطُونِ ٱلْاَوْدِيَةِ وَٱلْاَمَاكِنِ ٱلْخَالِيَةِ فَيُعْطِيهِ ٱلْكَلَامُ قِيَادَهُ . حُكِيَ ذٰلِكَ فِي قَصِيدَتِهِ ٱلفَائِيَّةِ : عُرِفْتَ بِاَعْشَاشٍ وَمَا كِدْتَ تُعْرَفُ

وَذُكِرَ اَنَّ فَتًى مِنَ ٱلْاَنْصَارِ فَاخَرَ بِاَبْيَاتِ حَسَّانَ بْنَ ثَابِتٍ :

لَنَا ٱلْجَفَنَاتُ ٱلْغُرُّ يَلْمَعْنَ فِي ٱلضُّحَى

وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

وَٱنظَرَهُ سَنَةً فَمَضَى حَنِقًا وَطَالَتْ لَيْلَتُهُ لَمْ يَصْنَعْ شَيْئًا فَلَمَّا كَانَ قُرْبَ ٱلصَّبَاحِ أَتَى جَبَلًا بِٱلْمَدِينَةِ يُقَالُ لَهُ ذُبَابٌ فَنَادَى: اخَاكُمْ اخَاكُمْ يَا بَنِي لَبِينَا صَاحِبَكُمْ صَاحِبَكُمْ وَتَوَسَّدَ ذِرَاعَ نَاقَتِهِ فَٱنْثَالَتْ عَلَيْهِ ٱلْقَوَافِي وَجَاءَ بِٱلْقَصِيدَةِ بُكْرَةً وَقَدْ اعْجَزَتِ ٱلشُّعَرَاءَ وَبَهَرَتْهُمْ طُولًا وَجُودَةً

قَالَ ٱبْنُ قُتَيْبَةَ: وَلِلشِّعْرِ اوْقَاتٌ تُسْرِعُ فِيهَا قَوَافِيهِ مِنْهَا اوَّلُ ٱللَّيْلِ قَبْلَ تَغَشِّي ٱلْكَرَى وَمِنْهَا صَدْرُ ٱللَّيْلِ وَقَبْلَ ٱلْغَدَاءِ وَمِنْهَا يَوْمُ شُرْبِ ٱلدَّوَاءِ وَمِنْهَا ٱلْخَلْوَةُ فِي ٱلْحَبْسِ. فَلِهٰذِهِ ٱلْأَسْبَابِ تَخْتَلِفُ اشْعَارُ ٱلشَّاعِرِ وَرَسَائِلُ ٱلْمُتَرَسِّلِ. وَحُكِيَ عَنْ ابِي تَمَّامٍ وَقَدْ سَأَلَهُ ٱلْبُحْتُرِيُّ عَنْ اوْقَاتِ صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ فَقَالَ قَرِيبًا مِنْ هٰذَا لَا احْفَظُهُ وَلَا اشُكُّ انَّ ٱبْنَ قُتَيْبَةَ بِهِ ٱقْتَدَى وَانْ كَانَ مِمَّا رَوَاهُ

وَمِمَّا يَجْمَعُ ٱلْفِكْرَةَ فِي طَرِيقِ ٱلْفَلْسَفَةِ ٱسْتِلْقَاءُ ٱلْمَرْءِ عَلَى ظَهْرِهِ وَعَلَى كُلِّ حَالٍ فَلَيْسَ يَفْتَحُ مُقْفَلَ ٱلْخَوَاطِرِ مِثْلُ مُبَاكَرَةِ ٱلْعَمَلِ بِٱلْأَسْحَارِ عِنْدَ ٱلْهُبُوبِ مِنَ ٱلنَّوْمِ لِكَوْنِ ٱلنَّفْسِ مُجْتَمِعَةً لَمْ يَتَفَرَّقْ حِسُّهَا فِي اسْبَابِ ٱللَّهْوِ اوِ ٱلْمَعِيشَةِ اوْ غَيْرِ ذٰلِكَ وَاذَا هِيَ مُسْتَرِيحَةٌ جَدِيدَةٌ كَأَنَّمَا نَشَأَتْ نَشَأَةً أُخْرَى وَلِأَنَّ ٱلسَّحَرَ الطَفُ هَوَاءً وَارَقُّ نَسِيمًا وَاعْدَلُ مِيزَانًا بَيْنَ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَانْ لَمْ يَكُنِ ٱلْعَشِيُّ كَٱلسَّحَرِ

وَهُوَ عَدِيلُهُ فِي ٱلتَّوَسُّطِ بَيْنَ طَرَفَيِ ٱللَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لِدُخُولِ ٱلظُّلْمَةِ فِيهِ عَلَى ٱلضِّيَاءِ بَعْدَ دُخُولِ ٱلضِّيَاءِ بِٱلسَّحَرِ عَلَى ٱلظُّلْمَةِ وَلِأَنَّ ٱلنَّفْسَ فِيهِ كَآلَةٍ مُرَيَّضَةٍ مِنْ تَعَبِ ٱلنَّهَارِ وَتَصَرُّفِهَا مُحْتَاجَةٌ إِلَى قُوَّتِهَا مِنَ ٱلنَّوْمِ وَمُتَشَوِّقَةٌ نَحْوَهُ فَٱلسَّحَرُ أَحْسَنُ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَصْنَعَ. فَأَمَّا لِمَنْ أَرَادَ ٱلْحِفْظَ وَٱلدِّرَاسَةَ وَمَا أَشْبَهَ ذٰلِكَ فَٱللَّيْلُ. قَالَ ٱللّٰهُ تَعَالَى وَهُوَ أَصْدَقُ ٱلْقَائِلِينَ: إِنَّ نَاشِئَةَ ٱللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلًا. وَهٰذَا ٱلْكَلَامُ لَا مَطْعَنَ فِيهِ وَلَا ٱعْتِرَاضَ عَلَيْهِ. وَكَانَ أَبُو تَمَّامٍ يُكْرِهُ نَفْسَهُ عَلَى ٱلْعَمَلِ حَتَّى يَظْهَرَ ذٰلِكَ فِي شِعْرِهِ. حَكَى ذٰلِكَ عَنْهُ بَعْضُ أَصْحَابِهِ قَالَ: ٱسْتَأْذَنْتُ عَلَيْهِ وَكَانَ لَا يَسْتَتِرُ عَنِّي فَأَذِنَ لِي فَدَخَلْتُ فَإِذَا هُوَ فِي بَيْتٍ مُصَهْرَجٍ قَدْ غُسِلَ بِٱلْمَاءِ يَتَقَلَّبُ يَمِينًا وَشِمَالًا فَقُلْتُ: لَقَدْ بَلَغَ بِكَ ٱلْحَرُّ مَبْلَغًا شَدِيدًا. قَالَ: لَا وَلٰكِنْ غَيْرُهُ. فَمَكَثَ سَاعَةً ثُمَّ قَامَ كَأَنَّمَا أُطْلِقَ مِنْ عِقَالٍ فَقَالَ: ٱلْآنَ ٱلْآنَ أَرَدْتُ. ثُمَّ ٱسْتَمَدَّ وَكَتَبَ شَيْئًا لَا أَعْرِفُهُ ثُمَّ قَالَ: أَتَدْرِي مَا كُنْتُ فِيهِ مُنْذُ ٱلْآنَ. قُلْتُ: كَلَّا. قَالَ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ:

«كَٱلدَّهْرِ فِيهِ شَرَاسَةٌ وَلِيَانُ» زَاوَلْتُهُ حَتَّى أَمْكَنَ ٱللّٰهُ مِنْهُ فَعَمِلْتُ:

شَرِسْتَ بَلْ لِنْتَ بَلْ قَانَيْتَ ذَاكَ بِذَا
فَأَنْتَ لَا شَكَّ فِيهِ ٱلسَّهْلُ وَٱلْجَبَلُ

وَلَعَمْرِي لَوْ سَكَتَ هٰذَا ٱلْحَاكِي لَتَمَّ هٰذَا ٱلْبَيْتُ بِمَا كَانَ دَاخِلَ ٱلْبَيْتِ لِأَنَّ ٱلْكُلْفَةَ فِيهِ ظَاهِرَةٌ وَٱلتَّعَمُّلَ بَيِّنٌ. عَلَى أَنَّ مِثْلَ

حِكَايَةِ ابِي تَمَّامٍ وَاشَدَّ مِنْهَا وَقَعَتْ لِمَنْ لَا يُتَّهَمُ وَهُوَ جَرِيرٌ. صَنَعَ الْفَرَزْدَقُ شِعْرًا يَقُولُ فِيهِ:

فَقُلْتُ انَا الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ ذَاهِبٌ
بِنَفْسِكَ فَانْظُرْ كَيْفَ انْتَ مُحَاوِلُهْ

وَحَلَفَ بِالطَّلَاقِ انَّ جَرِيرًا لَا يَغْلِبُهُ فِيهِ فَكَانَ جَرِيرٌ يَتَمَرَّغُ فِي الرَّمْضَاءِ وَيَقُولُ: انَا ابُو حَرْزَةَ حَتَّى قَالَ مِنْ ابْيَاتٍ لَهُ مَشْهُورَةٍ:

انَا الدَّهْرُ يُفْنِي الْمَوْتَ وَالدَّهْرُ خَالِدٌ
فَجِئْنِي بِمِثْلِ الدَّهْرِ شَيْئًا يُطَاوِلُهْ

وَكَانَ ابُو تَمَّامٍ يَنْصِبُ الْقَافِيَةَ لِلْبَيْتِ لِيُعَلِّقَ الْاعْجَازَ بِالصُّدُورِ وَذَلِكَ هُوَ التَّصْدِيرُ فِي الشِّعْرِ وَلَا يَأْتِي بِهِ كَثِيرًا الَّا شَاعِرٌ مُتَصَنِّعٌ كَحَبِيبٍ وَنُظَرَائِهِ وَالصَّوَابُ انْ لَا يَصْنَعَ الشَّاعِرُ بَيْتًا لَا يَعْرِفُ قَافِيَتَهُ غَيْرَ انِّي لَا اجِدُ ذَلِكَ فِي طَبْعِي وَلَا اقْدِرُ عَلَيْهِ الْبَتَّةَ بَلْ اصْنَعُ الْقَسِيمَ الْاوَّلَ عَلَى مَا ارِيدُهُ ثُمَّ الْتَمِسُ فِي نَفْسِي مَا يَلِيقُ بِهِ مِنَ الْقَوَافِي بَعْدَ ذَلِكَ فَابْنِي عَلَيْهِ الْقَسِيمَ الثَّانِي افْعَلُ ذَلِكَ فِيهِ كَمَا يَفْعَلُ مَنْ يَبْنِي الْبَيْتَ كُلَّهُ عَلَى الْقَافِيَةِ وَلَمْ ارَ ذَلِكَ يُخِلُّ عَلَيَّ وَلَا يُزِيحُنِي عَنْ مُرَادِي وَلَا يُغَيِّرُ عَلَيَّ شَيْئًا مِنْ لَفْظِ الْقَسِيمِ الْاوَّلِ الَّا فِي النُّدْرَةِ الَّتِي لَا يُعْتَدُّ بِهَا عَلَى وَجْهِ التَّنْقِيحِ الْمُفْرِطِ

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَسْبِقُ الَيْهِ بَيْتٌ وَاثْنَانِ وَخَاطِرُهُ فِي غَيْرِهِمَا يَجِبُ انْ يَكُونَ بَعْدَ ذَلِكَ بِابْيَاتٍ وَذَلِكَ لِقُوَّةِ طَبْعِهِ وَانْبِعَاثِ

خَاطِرِهِ . وَمِنْهُمْ مَنْ يَنصِبُ قَافِيَةً بِعَيْنِهَا لِلْبَيْتِ بِعَيْنِهِ مِنَ ٱلشِّعْرِ مِثْلَ اَنْ تَكُونَ ثَالِثَةً اَوْ رَابِعَةً اَوْ نَحْوَ ذٰلِكَ لَا يَعْدُو بِهَا ذٰلِكَ ٱلْمَوْضِعَ اِلَّا انْحَلَّ عَلَيْهِ نَظْمُ اَبْيَاتِهِ وَذٰلِكَ عِيٌّ فِي ٱلصَّنْعَةِ شَدِيد وَنَقْصٌ بَيِّنٌ لِاَنَّ ٱلشَّاعِرَ يَصِيرُ مَحْصُورًا عَلَى شَيْءٍ وَاحِدٍ بِعَيْنِهِ مُضَيِّقًا عَلَيْهِ وَدَاخِلًا تَحْتَ حُكْمِ ٱلْقَافِيَةِ . وَكَانُوا يَقُولُونَ لِيَكُنِ ٱلشِّعْرُ تَحْتَ حُكْمِكَ وَلَا تَكُنْ تَحْتَ حُكْمِهِ

وَمِنْهُمْ مَنْ اِذَا اَخَذَ فِي صَنْعَةِ ٱلشِّعْرِ جَمَعَ مِنَ ٱلْقَوَافِي مَا يَصْلُحُ لِذٰلِكَ ٱلْوَزْنِ ٱلَّذِي هُوَ فِيهِ . ثُمَّ اَخَذَ مُسْتَعْمَلَهَا وَشَرِيفَهَا وَمَا سَاعَدَ مَعَانِيَهُ وَوَافَقَهَا وَاَطْرَحَ مَا سِوَى ذٰلِكَ اِلَّا اَنَّهُ لَا بُدَّ اَنْ يَجْمَعَهَا لِيُكَرِّرَ فِيهَا نَظَرَهُ وَيُعِيدَ عَلَيْهَا ٱلتَّخَيُّرَ فِي حِينِ ٱلْعَمَلِ . هٰذَا ٱلَّذِي عَلَيْهِ حُذَّاقُ ٱلْقَوْمِ .

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ اِذَا جَاءَهُ ٱلْبَيْتُ عَفْوًا اَنْتَبَهَ ثُمَّ رَاجَعَ فِيهِ فَنَقَّحَهُ وَصَفَّاهُ مِنْ كَدَرِهِ وَذٰلِكَ اَسْرَعُ وَاَخَفُّ عَلَيْهِ وَاَصَحُّ لِنَظَرِهِ وَاَخَفُّ لِبَالِهِ . وَآخَرُ لَا يُثْبِتُهُ اِلَّا بَعْدَ اِحْكَامِهِ فِي نَفْسِهِ وَتَثْقِيفِهِ مِنْ جَمِيعِ جِهَاتِهِ وَذٰلِكَ اَشْرَفُ لِلْهِمَّةِ وَاَدَلُّ عَلَى ٱلْقُدْرِ وَاَظْهَرُ لِلْكُلْفَةِ وَاَبْعَدُ مِنَ ٱلسَّرِقَةِ . وَسَاَلْتُ شَيْخًا مِنْ شُيُوخِ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ فَقُلْتُ: مَا يُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . فَقَالَ : زَهْرَةُ ٱلْبُسْتَانِ وَرَاحَةُ ٱلْحَمَّامِ . وَقِيلَ : اِنَّ ٱلطَّعَامَ ٱلطَّيِّبَ وَٱلشَّرَابَ ٱلطَّيِّبَ وَسَمَاعَ ٱلْغِنَاءِ يُرَوِّقُ ٱلطَّبْعَ وَيُصَفِّي ٱلْمِزَاجَ وَيُعِينُ عَلَى ٱلشِّعْرِ . وَلَمَّا اَرَادَتْ قُرَيْشُ مُعَارَضَةَ ٱلْقُرْآنِ عَكَفَ فُصَحَاؤُهُمُ ٱلَّذِينَ تَعَاطَوْا ذٰلِكَ عَلَى لُبَابِ

ٱلبِرِّ وَسُلَافِ ٱلخَمْرِ وَلُحُومِ ٱلضَّأْنِ وَٱلخَلْوَةِ إِلَى أَنْ بَلَغُوا مَجْهُودَهُمْ . فَلَمَّا سَمِعُوا قَوْلَ ٱلقُرْآنِ : وَقِيلَ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ ٱلمَاءُ وَقُضِيَ ٱلأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ . يَئِسُوا مِمَّا طَمِعُوا فِيهِ وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ بِكَلَامِ مَخْلُوقٍ . وَقِيلَ : مِقْوَدُ ٱلشِّعْرِ ٱلعِتَابُ . وَذُكِرَ عَنْ أَبِي ٱلطَّيِّبِ أَنَّ مُتَشَرِّفًا تَشَرَّفَ عَلَيْهِ وَهُوَ يَصْنَعُ قَصِيدَتَهُ ٱلَّتِي يَقُولُ فِي أَوَّلِهَا « جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ ٱلتَّبْرِيحُ » وَهُوَ يَتَغَنَّى وَيَصْنَعُ فَإِذَا تَوَقَّفَ بَعْضَ ٱلتَّوَقُّفِ رَجَعَ بِٱلإِنْشَادِ مِنْ أَوَّلِ ٱلقَصِيدَةِ إِلَى حَيْثُ ٱنْتَهَى مِنْهَا . وَقَالُوا : ٱلحِيلَةُ لِكَلَالِ ٱلقَرِيحَةِ ٱنْتِظَارُ ٱلجَمَامِ . وَهٰذَا عِنْدِي أَنْجَعُ ٱلأَقْوَالِ وَبِهِ أَقُولُ وَإِلَيْهِ أَذْهَبُ . وَقَالَ بَكْرُ بْنُ عَبْدِ ٱللّٰهِ ٱلمُزَنِيُّ : لَا تَكُدُّوا ٱلقُلُوبَ وَلَا تُهْمِلُوهَا وَخَيْرُ ٱلفِكْرِ مَا كَانَ عَنْ عَقِبِ ٱلجَمَامِ وَٱشْحَذُوا ٱلقُلُوبَ بِٱلمُذَاكَرَةِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ إِصَابَةِ ٱلحِكْمَةِ إِذَا ٱمْتُحِنْتُمْ بِبَعْضِ ٱلِاسْتِغْلَاقِ فَإِنَّ مَنْ أَدْمَنَ قَرْعَ ٱلبَابِ وَصَلَ . وَقَالَ ٱلخَلِيعُ : مَنْ لَمْ يَأْتِ شِعْرُهُ مَعَ ٱلوَحْدَةِ فَلَيْسَ بِشَاعِرٍ . وَقَالُوا يُرِيدُ ٱلخَلْوَةَ وَرُبَّمَا أَرَادَ ٱلغُرْبَةَ كَمَا قَالَ دِيكُ ٱلجِنِّ : مَا أَصْفَى شَاعِرٌ مُغْتَرِبٌ قَطُّ

وَمِمَّا لَا يَسَعُ تَرْكُهُ فِي هٰذَا ٱلمَوْضِعِ صَحِيفَةٌ كَتَبَهَا بِشْرُ بْنُ ٱلمُعْتَمِرِ ذَكَرَ فِيهَا ٱلبَلَاغَةَ وَدَلَّ عَلَى مَظَانِّ ٱلكَلَامِ وَٱلفَصَاحَةِ يَقُولُ فِيهَا : خُذْ مِنْ نَفْسِكَ سَاعَةَ فَرَاغِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ وَإِجَابَتِهَا إِيَّاكَ فَإِنَّ قَلِيلَ تِلْكَ ٱلسَّاعَةِ أَكْرَمُ جَوْهَرًا وَأَشْرَفُ جِنْسًا وَأَحْسَنُ فِي ٱلأَسْمَاعِ

وَاخلى في الصُّدورِ وَاسلَمُ مِنْ فَاحِشِ الخَطَاءِ وَاخلبُ لِكُلِّ عَيْنٍ وغِرَةٍ مِنْ لَفظٍ شَرِيفٍ وَمَعنًى بَدِيعٍ

وَاعلَمْ انَّ ذلِكَ اجدى عَلَيكَ مِمَّا يُعطِيكَ يومُكَ الاطوَلُ بِالكَدِّ وَالمُجاهَدَةِ وَبِالتَّكلُّفِ وَالمُعانَدَةِ ومَهمَا اخطَاكَ لم يُخطِئْكَ ان يَكُونَ مَقبُولًا قَصْدًا او حقيقةً عَلَى اللِّسانِ سَهلًا كَماءٍ خَرجَ مِنْ يَنْبُوعِهِ وَنَجَمَ عَنْ مَعْدَنِهِ وَإِيَّاكَ وَالتَّوَعُّرَ فَإِنَّ التَّوَعُّرَ يُسلِمُكَ إِلَى التَّعقِيدِ وَالتَّعقِيدُ هُوَ الَّذِي يَستَهلِكُ مَعانِيَكَ وَيَشِينُ الفاظَكَ . وَمَنْ اَرَاغَ مَعنًى كَرِيمًا فَلْيَلْتَمِسْ لَفظًا كَرِيمًا فَإِنَّ حَقَّ المعنَى الشَّرِيفِ اللَّفظُ الشَّرِيفُ وَمِنْ حَقِّهِمَا ان يَصُونَهُمَا عَمَّا يُفسِدُهُمَا وَيُهَجِّنُهُمَا وَعَمَّا يَعُودُ مِنْ اجلِهِ اَسوَأَ حَالًا مِنكَ قَبلَ أَنْ يُلتَمَسَ إِظهارُهُمَا وَتَرهُنَ نَفسَكَ فِي مُلابَسَتِهِمَا وَقَضاءِ حَقِّهِمَا وَكُنْ فِي إِحدَى ثَلاثِ مَنازِلَ فَإِنَّ أَوَّلَ الثَّلاثِ أَنْ يَكُونَ لَفظُكَ رَشِيقًا عَذبًا او فَخْمًا سَهلًا وَيَكُونَ مَعناكَ ظَاهِرًا مَكشُوفًا وَقَرِيبًا مَعرُوفًا . إِمَّا عِندَ الخَاصَّةِ إِنْ كُنتَ لِلخَاصَّةِ قَصَدتَ . أَوْ العَامَّةِ إِنْ كُنتَ لِلعَامَّةِ قَصَدتَ وَالمعنَى لَيسَ يَشرُفُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعانِي الخَاصَّةِ وَكَذلِكَ لَيسَ يَتَّضِعُ بِأَنْ يَكُونَ مِنْ مَعانِي العَامَّةِ وَإِنَّمَا مَدارُ الشَّرَفِ مَعَ الصَّوَابِ وَإِحرَازِ المَنفَعَةِ وَمَعَ مُوَافَقَةِ الحَالِ وَمَعَ مَا يَجِبُ لِكُلِّ مَقامٍ مِنَ المَقالِ . وَكَذلِكَ اللَّفظُ العَامِّيُّ وَالخَاصِّيُّ فَإِنْ امكَنَكَ أَنْ تَبلُغَ مِنْ بَيانِ لِسانِكَ وَبَلاغَةِ قَلَمِكَ وَلُطفِ مَداخِلِكَ وَاقتِدارِكَ فِي نَفسِكَ عَلَى أَنْ تُفهِمَ العَامَّةَ مَعانِيَ

ٱلْخَاصَّةِ وَتَكْسُوهَا ٱلْأَلْفَاظَ ٱلْمُتَوَسِّطَةَ ٱلَّتِي لَا تَلْطُفُ عَنِ ٱلدَّهْمَاءِ
وَلَا تَخْفَى عَنِ ٱلْأَكْفَاءِ فَأَنْتَ ٱلْبَلِيغُ ٱلتَّامُّ فَإِنْ كَانَتِ ٱلْمَنْزِلَةُ
ٱلْأُولَى لَا تُؤَاتِيكَ وَلَا تَعْتَرِيكَ وَلَا تَسْمَحُ لَكَ عِنْدَ اوَّلِ نَظَرِكَ
فِي اوَّلِ تَكَلُّفِكَ وَتَجِدُ ٱللَّفْظَةَ لَمْ تَقَعْ مَوْقِعَهَا وَلَمْ تَسْمَحْ إِلَى
قَرَارِهَا وَإِلَى حَقِّهَا مِنْ أَمَاكِنِهَا ٱلْمَقْسُومَةِ لَهَا وَٱلْقَافِيَةَ لَمْ تَحِلَّ مِنْ
مَرْكَزِهَا فِي نِصَابِهَا وَلَمْ تَتَّصِلْ بِشَكْلِهَا وَكَانَتْ قَلِقَةً فِي مَكَانِهَا
نَافِرَةً عَنْ مَوْضِعِهَا فَلَا تُكْرِهْهَا عَلَى ٱغْتِصَابِ مَكَانِهَا وَٱلنُّزُولِ فِي
غَيْرِ اوْطَانِهَا فَإِنَّكَ إِذَا لَمْ تَتَعَاطَ قَرْضَ ٱلشِّعْرِ ٱلْمَوْزُونِ وَلَمْ تَكَلَّفْ
ٱخْتِيَارَ ٱلْكَلَامِ ٱلْمَنْثُورِ لَمْ يَعِبْكَ بِتَرْكِ ذٰلِكَ احَدٌ . فَإِنْ أَنْتَ
تَكَلَّفْتَهُمَا وَلَمْ تَكُنْ حَاذِقًا مَطْبُوعًا وَلَا مُحْكِمًا لِشَأْنِكَ بَصِيرًا بِمَا
عَلَيْكَ وَلَكَ عَابَكَ مَنْ أَنْتَ اقَلُّ مِنْهُ عَيْبًا وَرَاى مَنْ هُوَ دُونَكَ
انَّهُ فَوْقَكَ . فَإِنْ أَنْتَ ٱبْتُلِيتَ بِأَنْ تَتَكَلَّفَ ٱلْقَوْلَ وَتَتَعَاطَى
ٱلصَّنْعَةَ وَلَمْ تَسْمَحْ لَكَ ٱلطِّبَاعُ فَلَا تَعْجَلْ وَلَا تَضْجَرْ وَدَعْهُ بَيَاضَ
يَوْمِكَ وَسَوَادَ لَيْلِكَ وَعَاوِدْهُ عِنْدَ نَشَاطِكَ وَفَرَاغِ بَالِكَ فَرُبَّمَا لَا تَعْدَمُ
ٱلْإِجَابَةَ وَٱلْمُؤَاتَاةَ إِنْ كَانَ هُنَاكَ طَبِيعَةٌ اوْ جَرَيْتَ فِي ٱلصَّنْعَةِ عَلَى
عُرْفٍ فَإِنْ تَمَنَّعَ عَلَيْكَ بَعْدَ ذٰلِكَ مِنْ غَيْرِ حَادِثِ شُغْلٍ وَمِنْ غَيْرِ
طُولِ إِهْمَالٍ فَٱلْمَنْزِلَةُ ٱلثَّالِثَةُ أَنْ تَتَحَوَّلَ عَنْ هٰذِهِ ٱلصِّنَاعَةِ إِلَى
اشْهَى ٱلصِّنَاعَاتِ إِلَيْكَ وَاخَفِّهَا عَلَيْكَ

إِلَّا انَّ ٱلنُّفُوسَ لَا تَجُودُ بِمَكْنُونِهَا مَعَ ٱلرَّغْبَةِ وَلَا تَسْمَحُ بِمَخْزُونِهَا
عِنْدَ ٱلرَّهْبَةِ كَمَا تَجُودُ بِهِ مَعَ ٱلشَّهْوَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ . وَقَالَ بَعْضُ اهْلِ

ٱلْأَدَبِ : حَسْبُ ٱلشَّاعِرِ عَوْنًا عَلَى صِنَاعَتِهِ أَنْ يَجْمَعَ خَاطِرَهُ بَعْدَ أَنْ يُخْلِيَ قَلْبَهُ مِنْ فُضُولِ ٱلْإِنْفِعَالِ وَيَدَعَ ٱلْإِمْتِلَاءَ مِنَ ٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ ثُمَّ يَأْخُذَ فِيمَا يُرِيدُ . وَأَفْضَلُ مَا ٱسْتَعَانَ بِهِ ٱلشَّاعِرُ غِنًى أَوْ فَضْلُ طَمَعٍ وَٱلْفَقْرُ آفَةُ ٱلشِّعْرِ وَإِنَّمَا ذٰلِكَ لِأَنَّ ٱلشَّاعِرَ إِذَا صَنَعَ ٱلْقَصِيدَةَ وَهُوَ فِي غِنًى وَوُسْعَةٍ نَقَّحَهَا وَأَمْعَنَ ٱلنَّظَرَ فِيهَا عَلَى مَهَلٍ وَإِذَا كَانَ مَعَ ذٰلِكَ طَمَعٌ غِنًى قَوِيَ ٱنْبِعَاثُهَا مِنْ يَنْبُوعِهَا وَجَاءَتِ ٱلرَّغْبَةُ فِيهَا فِي نِهَايَتِهَا مُحْكَمَةً . وَإِذَا كَانَ فَقِيرًا مُضْطَرًّا رَضِيَ بِعَفْوِ ٱلْكَلَامِ وَأَخَذَ مَا أَمْكَنَهُ مِنْ نَتِيجَةِ خَاطِرٍ وَلَمْ يَتَتَبَّعْ فِي بُلُوغِ مُرَادِهِ وَلَا بَلَغَ مَجْهُودَ نَعْتِهِ لِمَا يَحْفِزُهُ مِنَ ٱلْحَاجَةِ وَٱلضَّرُورَةِ فَجَاءَ دُونَ عَادَتِهِ فِي سَائِرِ أَشْعَارِهِ وَرُبَّمَا قَصَّرَ عَنْ دُونِهِ بِكَثِيرٍ . وَمِنْهُمْ مَنْ تُحْمِي ٱلْحَاجَةُ خَاطِرَهُ وَتَبْعَثُ قَرِيحَتَهُ فَيَجُودُ فَإِذَا أَوْسَعَ أَنِفَ وَصَعُبَ عَلَيْهِ عَمَلُ ٱلْأَبْيَاتِ ٱلْيَسِيرَةِ فَضْلًا عَنِ ٱلْكَثِيرَةِ وَٱلْعَادَةُ فِي هٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ فِعْلٌ عَظِيمٌ وَهِيَ طَبِيعَةٌ خَامِسَةٌ كَمَا قِيلَ فِيهَا

البحث السادس عشر

في المقاطع والمطالع

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

اِخْتَلَفَ أَهْلُ ٱلْمَعْرِفَةِ فِي ٱلْمَقَاطِعِ وَٱلْمَطَالِعِ . فَقَالَ بَعْضُهُمْ : هِيَ ٱلْفُصُولُ وَٱلْوُصُولُ بِعَيْنِهَا . فَٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُ ٱلْوُصُولِ . وَٱلْفَصْلُ آخِرُ جُزْءٍ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلْأَوَّلِ كَمَا قَدَّمْتُ

وَهُوَ ٱلْعَرُوضُ أَيضًا . وَٱلْوُصُولُ أَوَّلُ جُزْءٍ يَلِيهِ مِنَ ٱلْقِسْمِ ٱلثَّانِي .
وَقَالَ غَيْرُهُمْ : ٱلْمَقَاطِعُ مُنْقَطَعُ ٱلْأَبْيَاتِ وَهِيَ ٱلْقَوَافِي وَٱلْمَطَالِعُ
أَوَائِلُ ٱلْأَبْيَاتِ . وَقَالَ قُدَامَةُ بْنُ جَعْفَرٍ فِي بَعْضِ تَآلِيفِهِ وَقَدْ ذَكَرَ
ٱلتَّصْرِيعَ وَهُوَ أَنْ يَتَوَخَّى تَصْيِيرَ مَقَاطِعِ ٱلْأَجْزَاءِ فِي ٱلْبَيْتِ عَلَى سَجْعٍ
أَوْ شَبِيهٍ بِهِ أَوْ مِنْ جِنْسٍ وَاحِدٍ فِي ٱلتَّصْرِيفِ . فَأَشَارَ بِهَذِهِ
ٱلْعِبَارَةِ إِلَى ٱلْمَقَاطِعِ أَوْ آخِرِ أَجْزَاءِ ٱلْبَيْتِ كَمَا تَرَى . وَقَدْ نَجِدُ مِنَ
ٱلشِّعْرِ ٱلْمُرَصَّعِ مَا يَكُونُ سَجْعُهُ غَيْرَ مَقَاطِعِ ٱلْأَجْزَاءِ نَحْوَ قَوْلِ أُمِّ
مَعْدَانَ فِي مَرْثِيَةٍ لَهَا :

فِعْلُ ٱلْجَمِيلِ وَتَفْرِيجُ ٱلْجَلِيلِ وَإِعْـ ـطَاءُ ٱلْجَزِيلِ ٱلَّذِي لَمْ يُعْطِهِ أَحَدُ

فَٱلسَّجْعُ فِي هٰذَا ٱلْبَيْتِ ٱللَّامُ ٱلْمُطَّرِدَةُ فِي ثَلَاثَةِ أَمَاكِنَ مِنْهُ
وَآخِرُ ٱلْأَجْزَاءِ ٱلَّتِي هِيَ ٱلْمَقَاطِعُ عَلَى شَرِيطَةِ ٱلْيَاءِ ٱلَّتِي قَبْلَ ٱللَّامِ .
ٱللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يُجْعَلَ ٱلسَّجْعُ هُوَ ٱلْيَاءُ ٱلْمُلْتَزَمَةَ فَحِينَئِذٍ عَلَى أَنَّا لَا نَعْلَمُ
حَرْفَ ٱلسَّجْعِ يَكُونُ إِلَّا مُتَأَخِّرًا فِي مِثْلِ هٰذَا ٱلْمَكَانِ وَمِثْلُ هٰذَا
فِي أَنْوَاعِ ٱلْأَعَارِيضِ كَثِيرٌ

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَظُنُّ أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ وَٱلْمَطْلَعَ أَوَّلُ ٱلْقَصِيدَةِ
وَآخِرُهَا وَلَيْسَ ذٰلِكَ بِشَيْءٍ لِأَنَّا نَجِدُ فِي كَلَامِ جَهَابِذَةِ ٱلنُّقَّادِ
إِذَا وَصَفُوا قَصِيدَةً قَالُوا : حَسَنَةُ ٱلْمَقَاطِعِ حَمِيدَةُ ٱلْمَطَالِعِ . وَلَا
يَقُولُونَ ٱلْمَقْطَعِ وَٱلْمَطْلَعِ . وَفِي هٰذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ لِأَنَّ ٱلْقَصِيدَةَ
إِنَّمَا لَهَا أَوَّلٌ وَاحِدٌ وَآخِرٌ وَاحِدٌ وَلَا يَكُونُ لَهَا أَوَائِلُ وَأَوَاخِرُ إِلَّا
عَلَى مَا قَدَّمْتُ مِنْ ذِكْرِ ٱبْتِدَاآتِ ٱلْأَبْيَاتِ أَوِ ٱلْأَقْسِمَةِ وَٱنْتِهَائِهَا

وَسَأَلْتُ ٱلشَّيْخَ أَبَا عَبْدِ ٱللهِ مُحَمَّدَ بْنَ إِبْرٰهِيمَ بْنِ ٱلسَّمِينِ عَنْ هٰذَا فَقَالَ: ٱلْمَقَاطِعُ أَوَاخِرُ ٱلْأَبْيَاتِ وَٱلْمَطَالِعُ أَوَائِلُهَا. قَالَ وَمَعْنَى قَوْلِهِمْ: حَسَنُ ٱلْمَقَاطِعِ جَيِّدُ ٱلْمَطَالِعِ أَنْ يَكُونَ مُنْقَطَعُ ٱلْبَيْتِ وَهُوَ ٱلْقَافِيَةُ مُتَمَكِّنًا غَيْرَ قَلِقٍ وَلَا مُتَعَلِّقٍ بِغَيْرِهِ وَهٰذَا هُوَ حُسْنُهُ. وَٱلْمَطْلَعُ هُوَ أَوَّلُ ٱلْبَيْتِ وَجُودَتُهُ أَنْ يَكُونَ دَالًّا عَلَى مَا بَعْدَهُ كَٱلتَّصْدِيرِ وَمَا شَاكَلَهُ. وَرَوَى ٱلْجَاحِظُ أَنَّ حَبِيبَ بْنَ شُبَّةَ كَانَ يَقُولُ: ٱلنَّاسُ مُوَكَّلُونَ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلِٱبْتِدَاءِ وَبِمَدِيحِ صَاحِبِهِ وَأَنَا مُوَكَّلٌ بِتَفْضِيلِ جُودَةِ ٱلْمَقْطَعِ وَبِمَدْحِ صَاحِبِهِ. وَحَظُّ جُودَةِ ٱلْقَافِيَةِ وَإِنْ كَانَتْ كَلِمَةً وَاحِدَةً أَرْفَعُ مِنْ حَظِّ سَائِرِ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ. حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقْطَعَ آخِرُ ٱلْبَيْتِ أَوِ ٱلْقَصِيدَةِ وَهُوَ بِٱلْبَيْتِ أَلْيَقُ لِذِكْرِ حَظِّ ٱلْقَافِيَةِ

وَحُكِيَ أَيْضًا عَنْ صَدِيقٍ لَهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْعَتَّابِيِّ مَا ٱلْبَلَاغَةُ. فَقَالَ: كُلُّ كَلَامٍ أَفْهَمَكَ صَاحِبُهُ حَاجَتَهُ فِيهِ مِنْ غَيْرِ إِعَادَةٍ وَلَا حُبْسَةٍ وَلَا ٱسْتِعَانَةٍ فَهُوَ بَلِيغٌ. قَالَ: قُلْتُ قَدْ عَرَفْتُ ٱلْإِعَادَةَ وَٱلْحُبْسَةَ فَمَا ٱلِٱسْتِعَانَةُ فَقَالَ: أَمَا تَرَاهُ إِذَا تَحَدَّثَ قَالَ عِنْدَ مَقَاطِعِ كَلَامِهِ يَا هٰذَا ٱسْمَعْ مِنِّي وَٱسْتَمِعْ إِلَيَّ وَٱفْهَمْ وَأَلَسْتَ تَفْهَمُ هٰذَا كُلُّهُ عِيٌّ وَفَسَادٌ

قَالَ صَاحِبُ ٱلْكِتَابِ وَهٰذَا ٱلْقَوْلُ مِنَ ٱلْعَتَّابِيِّ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ ٱلْمَقَاطِعَ أَوَاخِرُ ٱلْفُصُولِ. وَمِثْلُهُ مَا حَكَاهُ ٱلْجَاحِظُ عَنِ ٱلْمَأْمُونِ إِنَّهُ قَالَ لِسَعِيدِ بْنِ مُسْلِمٍ وَٱللهِ إِنَّكَ لَتُصْغِي لِحَدِيثِي وَتَقِفُ عِنْدَ

مَقاطِعِ كَلامِي . وَإِذا جُعِلَ ٱلْمَقْطَعُ وَٱلْمَطْلَعُ مَصْدَرَيْنِ بِمَعْنَى ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كانَتِ ٱلطَّاءُ وَٱللَّامُ مَفْتُوحَتَيْنِ وَإِذا أُرِيدَ مَوْضِعُ ٱلْقَطْعِ وَٱلطُّلُوعِ كُسِرَتِ ٱللَّامُ خاصَّةً وَهُوَ مَسْمُوعٌ عَلَى غَيْرِ ٱلْقِياسِ

البحث السابع عشر

في المبتدإ او الخروج والنهاية

(من كتاب العمدة لابن رشيق)

قِيلَ لِبَعْضِ ٱلْحُذَّاقِ بِصِناعَةِ ٱلشِّعْرِ لَقَدْ طارَ ٱسْمُكَ وَٱشْتَهَرَ فَقالَ لِأَنِّي أَقْلَلْتُ ٱلْحَقَّ وَأَصَبْتُ مَقاصِدَ ٱلْكَلامِ وَقَرَّطْتُ نُكَتَ ٱلْأَغْراضِ بِحُرِّ ٱلْفَواتِحِ وَٱلْخَواتِمِ وَلُطْفِ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ وَٱلْهِجاءِ وَقَدْ صَدَقَ لِأَنَّ حُسْنَ ٱلِٱفْتِتاحِ داعِيَةُ ٱلِٱنْشِراحِ وَمَطِيَّةُ ٱلنَّجاحِ وَلَطافَةَ ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ سَبَبُ ٱرْتِياحِ ٱلْمَمْدُوحِ وَخاتِمَةَ ٱلْكَلامِ أَبْقَى فِي ٱلسَّمْعِ وَأَلْصَقُ بِٱلنَّفْسِ لِقُرْبِ ٱلْعَهْدِ بِها فَإِنْ حَسُنَتْ حَسُنَ وَإِنْ قَبُحَتْ قَبُحَ وَٱلْأَعْمالُ بِخَواتِمِها . وَيَنْبَغِي لِلشَّاعِرِ أَنْ يُجَوِّدَ ٱبْتِداءَ شِعْرِهِ فَإِنَّهُ أَوَّلُ ما يُقْرِعُ ٱلسَّمْعَ بِهِ وَبِهِ يُسْتَدَلُّ عَلَى ما عِنْدَهُ مِنْ أَوَّلِ وَهْلَةٍ . وَقَدِ ٱخْتارَ ٱلنَّاسُ كَثِيرًا مِنَ ٱلِٱبْتِداآتِ سَأَذْكُرُ هُنا ما أَمْكَنَ مِنْها لِيُسْتَدَلَّ بِهِ نَحْوُ قَوْلِ ٱمْرِئِ ٱلْقَيْسِ « قِفا نَبْكِ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ وَمَنْزِلِ » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِداءٍ قالَهُ شاعِرٌ لِأَنَّهُ وَقَفَ وَٱسْتَوْقَفَ وَبَكَى وَٱسْتَبْكَى وَذَكَرَ ٱلْحَبِيبَ وَٱلْمَنْزِلَ فِي مِصْراعٍ واحِدٍ . وَقَوْلِهِ « أَلا عِمْ صَباحًا أَيُّها ٱلطَّلَلُ ٱلْبالِي » وَمِثْلُهُ

قَوْلُ ٱلقَطَامِيّ « إِنَّا مُحَيُّوكَ فَٱسْلَمْ أَيُّهَا ٱلطَّلَلُ » وَكَقَوْلِ ٱلنَّابِغَةِ :

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةُ نَاصِبِ وَلَيْلٍ أُقَاسِيهِ بَطِيءِ ٱلْكَوَاكِبِ

وَقَوْلِهِ :

كَتَمْتُكَ لَيْلًا بِٱلْجَمُومَيْنِ سَاهِرَا وَهَمَّيْنِ هَمًّا مُسْتَكِنًّا وَظَاهِرَا

هٰذَا بَعْضُ مَا ٱخْتِيرَ لِلْقُدَمَاءِ وَمِمَّا ٱخْتِيرَ فِي ٱلرِّثَاءِ قَوْلُ أَوْسِ ٱبْنِ حَجَرٍ :

أَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ أَجْمِلِي جَزَعَا إِنَّ ٱلَّذِي تَحْذَرِينَ قَدْ وَقَعَا

وَمِمَّا ٱخْتِيرَ لِلْمُحْدَثِينَ قَوْلُ بَشَّارِ بْنِ بُرْدٍ « أَبَى طَلَلٌ بِٱلْجِزْعِ أَنْ يَتَكَلَّمَا » وَهُوَ عِنْدَهُمْ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ قَالَهُ مُحْدَثٌ . وَقَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

لِمَنْ دِمَنٌ تَزْدَادُ طِيبَ نَسِيمِ
عَلَى طُولِ مَا أَقْوَتْ وَحُسْنَ رُسُومِ

وَقَوْلُهُ :

رَسْمُ ٱلْكَرَى بَيْنَ ٱلْجُفُونِ مُحِيلُ عَفَّى عَلَيْهِ بُكًا عَلَيْكَ طَوِيلُ

وَقَوْلُهُ :

أَعْطَتْكَ رَيْحَانَهَا ٱلْعُقَارُ وَحَانَ مِنْ لَيْلِنَا ٱنْسِفَارُ

وَقَوْلُهُ :

دَعْ عَنْكَ لَوْمِي فَإِنَّ ٱللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِٱلَّتِي كَانَتْ هِيَ ٱلدَّاءُ

وَمِمَّا أَشْبَهَ ذٰلِكَ لَوْ تَقَصَّيْتُهُ لَطَالَ وَكَثُرَ . وَلْيَرْغَبْ عَنِ ٱلتَّعْقِيدِ فِي ٱلْاِبْتِدَاءِ . فَإِنَّهُ أَوَّلُ ٱلْعِيِّ وَدَلِيلُ ٱلْفَهَهِ . وَقَدْ حُكِيَ أَنَّ دِعْبِلَ

ٱبنَ عَليٍّ ٱلخُزاعِيَّ وَرَدَ حِمصَ فَقَصَدَ دارَ عَبدِ ٱلسَّلامِ بنِ رَغبانَ دِيكِ ٱلجِنِّ فَكَتَمَ نَفسَهُ عَنهُ خَوفًا مِن قَوارِصِهِ فَقالَ : ما لَهُ يَستَتِرُ وَهُوَ أَشعَرُ ٱلجِنِّ وَٱلإِنسِ أَليسَ ٱلقائِلَ :

بِها غَيرُ مَعذُولٍ فَدَا وَخَمارُها ٭ وَهَل بِعَشِيّاتِ ٱلغَبُوقِ ٱبتِكارُها

فَظَهَرَ إِلَيهِ وَٱعتَذَرَ إِلَيهِ وَأَحسَنَ . ثُمَّ تَناشَدا فَأَنشَدَ دِيكُ ٱلجِنِّ ٱبتِداءَ قَصِيدَةٍ :

كَأَنَّها ما كَأَنَّهُ خَلَلُ ٱلخَلَّةِ ٭ وَقفُ ٱلهُلُوكِ إِن بَغَما

فَقالَ لَهُ دِعبِلٌ : أَسكُت فَوَاللهِ ما ظَنَنتُكَ تُتِمُّ ٱلبَيتَ إِلّا وَقَد غُشِيَ عَلَيكَ أَو تَشَكَّيتَ دِماغَكَ وَكَأَنَّكَ فِي جَهَنَّمَ تُخاطِبُ ٱلزَّبانِيَةَ أَو تَخَبَّطَكَ ٱلشَّيطانُ مِنَ ٱلمَسِّ . وَإِنَّما أَرادَ ٱلدِّيكُ أَن يُهَوِّلَ عَلَيهِ وَيَقرَعَ سَمعَهُ عَسَى أَن يُزعِجَهُ أَو يَرُوعَهُ فَسَمِعَ مِنهُ ما كَرِهَ . وَلَعَمرِي ما ظَلَمَهُ دِعبِلٌ وَلَقَد أَبعَدَ مَسافَةَ ٱلكَلامِ وَخالَفَ ٱلعادَةَ وَهٰذا بَيتٌ قَبِيحٌ مِن جِهاتٍ مِنها إِضمارُ ما لَم يُذكَر قَبلُ وَلا جَرَتِ ٱلعادَةُ بِمِثلِهِ فَيُعذَرَ وَلا كَثُرَ ٱستِعمالُهُ فَيُشهَرَ مَعَ إِحالَةِ ٱلتَّشبِيهِ عَلَى تَشبِيهٍ ثِقَلُ تَجانُسِهُ ٱلَّذِي هُوَ حَشوٌ فارِغٌ لَو طُرِحَ مِنَ ٱلبَيتِ كانَ أَحزَمَ وَٱستَدعَى قافِيَةً لا لِشَيءٍ إِلّا لِفَسادِ ٱلمَعنَى وَٱستِحالَةِ ٱلتَّشبِيهِ مَا ٱلَّذِي يُرِيدُ بِبُغامِهِ فِي تَشبِيهِ ٱلوَقفِ وَهُوَ ٱلسِّوارُ وَلِمَ كانَ وَقفُ ٱلهُلُوكِ خاصَّةً . وَمِثلُهُ قَولُ مُحَمَّدِ بنِ عَبدِ ٱلمَلِكِ ٱلزَّيّاتِ يَصِفُ ناقَتَهُ فِي أَوَّلِ قَصِيدَةٍ مَدَحَ بِها ٱلحَسَنَ بنَ سَهلٍ :

كَأَنَّها حِينَ تَناءَى خَطوُها ٭ أَجشُّ مَوشِيُّ ٱلشَّوَى يَرعَى ٱلقُلَل

فَالْبَيْتُ الْأَوَّلُ فِي مُخَالَفَةِ الْعَادَةِ لَازِمٌ وَمَعَ ذٰلِكَ قَوْلُهُ « حِينَ تَنَاءَى خَطْوُهَا » فَقَصَّرَ بِهَا وَهُوَ يَقْدِرُ اَنْ يَقُولَ « حِينَ تَدَانَى خَطْوُهَا » وَخَالَفَ جَمِيعَ الشُّعَرَاءِ بِذٰلِكَ لِاَنَّهُمْ يَصِفُونَ النَّاقَةَ بِالظَّلِيمِ وَالْحِمَارِ وَالثَّوْرِ بَعْدَ الْكَلَالِ غُلُوًّا وَمُبَالَغَةً فِي الْوَصْفِ . هٰذَا هُوَ الْجَيِّدُ فَاِنْ لَمْ يَفْعَلُوا لَمْ يَذْكُرُوا اَنَّهَا بَذَلَتْ جَهْدَهَا وَاسْتَفْرَغَتْ جَمِيعَ مَا عِنْدَهَا بَلْ يَدَّعُونَ التَّأْوِيلَ مُحْتَمِلَ الزِّيَادَةِ . ثُمَّ قَالَ « تَرْعَى الْقُلَلَ » وَالثَّوْرُ لَا يَرْعَى قُلَلَ الْجِبَالِ وَاِنَّمَا ذٰلِكَ الْوَعِلُ لِاَنَّهُ لَا يُسْهِلُ وَالثَّوْرُ فِي السُّهُولِ وَمَوَاضِعِ الرِّمَالِ اِلَّا اَنْ يُرِيدَ بِالنَّبَاتِ اَعَالِيَهُ فَرُبَّمَا اَنْ يَكُونَ الْقُلَلُ نَبْتًا بِعَيْنِهِ اَوْ مَكَانًا فَقَدْ يُمْكِنُ وَمَا سَمِعْتُ بِهِمَا

وَمِنَ الشُّعَرَاءِ مَنْ يَقْطَعُ الْمِصْرَاعَ الثَّانِيَ مِنَ الْأَوَّلِ اِذَا ابْتَدَأَ شِعْرًا وَاَكْثَرُ مَا يَقَعُ ذٰلِكَ فِي النَّسِيبِ كَاَنَّهُ يَدُلُّ بِذٰلِكَ عَلَى وَلَهٍ وَشِدَّةِ حَالٍ كَقَوْلِ اَبِي الطَّيِّبِ :

جَلَلًا كَمَا بِي فَلْيَكُ التَّبْرِيحُ ‏ ‏ ‏ ‏ اَغِذَاءُ ذَا الرَّشَاِ الْأَغَنِّ الشِّيحُ

فَهٰذَا اعْتِذَارُ مَنِ اعْتَذَرَ لَهُ لَوْ وَقَعَ مِثْلُ هٰذَا فِي الرِّثَاءِ وَالتَّفَجُّعِ لَكَانَ مَوْضِعَهُ اَيْضًا وَكَذٰلِكَ عِنْدَ الْعَظَائِمِ مِنَ الْأُمُورِ وَالنَّوَازِلِ الشَّدِيدَةِ . وَلْيَحْتَرِسْ مِمَّا يَنَالُهُ فِيهِ زِيَادَةٌ اَوْ يَقَعُ عَلَيْهِ مَطْعَنٌ فَاِنَّ اَبَا تَمَّامٍ امْتَدَحَ اَبَا دُلَفٍ بِحَضْرَةِ مَنْ كَانَ يَكْرَهُهُ وَافْتَتَحَ قَصِيدَتَهُ الْمَشْهُورَةَ « عَلَى مِثْلِهَا مِنْ اَرْبُعٍ وَمَلَاعِبِ » وَكَانَتْ فِيهِ حُبْسَةٌ شَدِيدَةٌ . فَقَالَ الرَّجُلُ لَعَنَهُ اللّٰهُ وَالْمَلَائِكَةُ وَالنَّاسُ اَجْمَعُونَ .

فدهش ابو تمام حتى تبيّن ذلك عليه على انه غير مأخوذ بما قيل ولا هو مما يدخل عليه عيبا . ولا يلزمه على الحقيقة الا ان الحوطة والتحفظ من النجحة الباردة افضل والتفريط ارذل واخبث .

ودخل جرير على عبد الملك بن مروان وانشده « اتصحو ام فؤادك غير صاحي » فقال له عبد الملك : بل فؤادك يا ابن الفاعلة كانه يستثقل هذه المواجهة والا فقد علم ان الشاعر انما خاطب نفسه ومن هذه الجهة بعينها عابوا على ابي الطيب قوله لكافور اول لقائه مبتدئا وان كان انما يخاطب نفسه لا كافورا :

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا

وحسب المنايا ان يكنّ امانيا

فالعيب من باب التأدب وحسن السياسة لازم لابي الطيب في هذا الابتداء لاسيما وهذا النوع اعني جودة الابتداء من اجلّ محاسن ابي الطيب واشرف مآثر شعره اذا ذكر الشعر .

ودخل ذو الرمة على عبد الملك بن مروان فاستنشده شيئا من شعره فانشده « ما بال عينك منها الماء ينسكب » وكان بعين عبد الملك ريشة فهي تدمع فتوهم انه خاطبه او عرض به فقال : وما سؤالك يا جاهل عن هذا ومقته وامر باخراجه وكذلك فعل ابنه هشام بابي النجم وقد انشده في ارجوزة :

صفراء قد كادت ولما تفعل فكانها في الافق عين الاحول

وكان هشام احول فامر فحجب عنه مدة وقد كان قبل

ذٰلكَ مِنْ خَاصَّتِهِ يَسْمُرُ عِنْدَهُ وَهُوَ يُمَازِحُهُ وَإِنَّمَا يَأْتِي ٱلشَّاعِرُ بِهٰذِهِ ٱلْأَشْيَاءِ إِمَّا مِنْ غَفْلَةٍ فِي ٱلطَّبْعِ أَوْ مِنِ ٱسْتِغْرَاقٍ فِي ٱلصَّنْعَةِ وَشُغْلٍ هَاجِسٍ بِٱلْعَمَلِ يَذْهَبُ مَعَ حُسْنِ ٱلْقَوْلِ حَيْثُ ذَهَبَ. وَٱلْفَطِنُ ٱلْحَاذِقُ يَخْتَارُ لِلْأَوْقَاتِ مَا يُشَاكِلُهَا وَيَنْظُرُ فِي أَحْوَالِ ٱلْمُخَاطَبِينَ فَيَقْصِدُ مَحَابَّهُمْ وَيَمِيلُ إِلَى شَهَوَاتِهِمْ وَإِنْ خَالَفَتْ شَهَوَاتِهِ وَيَتَفَقَّدُ مَا يَكْرَهُونَ سَمَاعَهُ فَيَجْتَنِبُ ذِكْرَهُ. أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَ ٱلْمُلُوكِ قَالَ لِأَحَدِ ٱلشُّعَرَاءِ وَقَدْ أَوْرَدَ بَيْتًا ذَكَرَ فِيهِ «لَوْ خُلِّدَ أَحَدٌ لِكَرَمٍ لَكُنْتَ مُخَلَّدًا بِكَرَمِكَ» وَقَالَ كَلَامًا نَحْوَ هٰذَا. فَقَالَ ٱلْمَلِكُ: إِنَّ ٱلْمَوْتَ حَقٌّ وَأَنَا مِنْهُ نَصِيبٌ. غَيْرَ أَنَّ ٱلْمُلُوكَ تَكْرَهُ مَا يُنَكِّدُ عَيْشَهَا وَيُنَغِّصُ لَذَّتَهَا فَلَا تَأْتِهَا بِشَيْءٍ مِمَّا تَكْرَهُ ذِكْرَهُ

وَمِنَ ٱلْمَشْهُورِ أَنَّ ٱلنُّعْمَانَ بْنَ ٱلْمُنْذِرِ أَتَى شَجَرَةً ظَلِيلَةً مُلْتَفَّةَ ٱلْأَغْصَانِ فِي مَرْجٍ حَسَنٍ كَثِيرِ ٱلشَّقَائِقِ وَكَانَ مُعْجَبًا بِهَا وَإِلَيْهِ أُضِيفَتْ فَقِيلَ شَقَائِقُ ٱلنُّعْمَانِ. فَنَزَلَ فَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ وَٱلشَّرَابِ فَأُحْضِرَا وَجَلَسَ لِلَذَّتِهِ. فَقَالَ عَدِيُّ بْنُ زَيْدٍ ٱلْعَبَادِيُّ وَكَانَ كَاتِبَهُ: أَتَعْرِفُ أَبَيْتَ ٱللَّعْنَ مَا تَقُولُ هٰذِهِ ٱلشَّجَرَةُ. قَالَ: وَمَا تَقُولُ. قَالَ تَقُولُ:

رُبَّ رَكْبٍ قَدْ أَنَاخُوا حَوْلَنَا ... يَشْرَبُونَ ٱلْخَمْرَ بِٱلْمَاءِ ٱلزُّلَالْ
عَطَفَ ٱلدَّهْرُ عَلَيْهِمْ فَثَوَوْا ... وَكَذَاكَ ٱلدَّهْرُ حَالٌ بَعْدَ حَالْ
مَنْ رَآنَا فَلْيُوَطِّنْ نَفْسَهُ ... إِنَّمَا ٱلدُّنْيَا عَلَى فَرْطِ ٱلزَّوَالْ

كَأَنَّهُ قَصَدَ مَوْعِظَتَهُ فَنَغَّصَ عَلَيْهِ مَا كَانَ فِيهِ وَأَمَرَ بِٱلطَّعَامِ

وَالشَّرَابِ فَرُفِعَا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَارْتَحَلَ مِنْ فَوْرِهِ وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِبَقِيَّةِ يَوْمِهِ وَلَيْلَتِهِ . فَهٰذَا شَأْنُ ٱلْمُلُوكِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا وَمِنْ هٰذِهِ ٱلْجِهَةِ أَكْثَرَ ٱلنَّاسُ مِنَ ٱلدُّعَاءِ لَهُمْ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ حَتَّى بَلَغُوا بِهِمْ مَا لَا يُمْكِنُ فَقَالُوا : عِشْ أَبَدًا وَٱسْلَمْ مَدَى ٱلدَّهْرِ وَٱبْقَ بَقَاءَ ٱلزَّمَانِ . وَٱعْتَرَضَ ٱلنُّقَّادُ فِي ذٰلِكَ وَٱخْتَلَفُوا بِحَسَبِ مَا يَنْتَحِلُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِي قَوْلِ أَبِي نُوَاسٍ :

يَا أَمِينَ ٱللهِ عِشْ أَبَدًا ... دُمْ عَلَى ٱلْأَيَّامِ وَٱلزَّمَنِ

أَنْتَ تَبْقَى وَٱلْفَنَاءُ لَنَا ... فَإِذَا أَفْنَيْتَنَا فَكُنِ

وَفِي كَثِيرٍ مِثْلِهِ فَإِذَا خَرَجَ ٱلْكَلَامُ عَنْ حَدِّ ٱلْإِمْكَانِ فَإِنَّمَا يُرَادُ بِهِ بُلُوغُ ٱلْغَايَةِ لَا غَيْرُ ذٰلِكَ . وَمِنْ قَبِيحِ مَا وَقَعَ لِأَبِي نُوَاسٍ ٱلَّذِي أَسَاءَ فِيهِ أَدَبَهُ وَخَالَفَ بِهِ مَذْهَبَهُ أَنَّ بَعْضَ بَنِي بَرْمَكٍ بَنَى دَارًا ٱسْتَفْرَغَ فِيهَا مَجْهُودَهُ وَٱنْتَقَلَ إِلَيْهَا . فَصَنَعَ أَبُو نُوَاسٍ لِذٰلِكَ ٱلْحِينِ أَوْ قَرِيبًا مِنْهُ قَصِيدَةً يَمْدَحُهُ بِهَا وَيَقُولُ أَوَّلُهَا :

أَرَبْعَ ٱلْبِلَى إِنَّ ٱلْخُشُوعَ لَبَادِ ... عَلَيْكَ وَإِنِّي لَمْ أَخُنْكَ وَدَادِي

وَخَتَمَهَا أَوْ كَادَ بِقَوْلِهِ :

سَلَامٌ عَلَى ٱلدُّنْيَا إِذَا مَا فُقِدْتُمُ ... بَنِي بَرْمَكٍ مِنْ رَائِحِينَ وَغَادِي

فَتَطَيَّرَ ٱلْبَرْمَكِيُّ وَٱشْمَأَزَّ ثُمَّ قَالَ : نَعَيْتَ إِلَيْنَا أَنْفُسَنَا يَا أَبَا نُوَاسٍ فَمَا كَانَتْ إِلَّا مُدَيْدَةٌ حَتَّى أَوْقَعَ بِهِمِ ٱلرَّشِيدُ وَصَحَّتْ بِهِمِ ٱلطِّيَرَةُ . وَزَعَمَ أَنَّ أَبَا نُوَاسٍ قَصَدَ ٱلتَّشَاؤُمَ لَهُمْ لِشَيْءٍ كَانَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جَعْفَرٍ وَلَا أَظُنُّ ذٰلِكَ صَحِيحًا لِأَنَّ هٰذِهِ ٱلْقَصِيدَةَ مِنْ جَيِّدِ شِعْرِهِ

ٱلَّذِي لَا اَشُكُّ اَنْ يُحْتَفَلَ لَهُ. اَللّٰهُمَّ اِلَّا اَنْ يَصْنَعَ ذٰلِكَ حِيلَةً لَهُ وَسِتْرًا عَلَى مَنْ قَصَدَ اِلَيْهِ بِذٰلِكَ . وَلِلشُّعَرَاءِ مَذَاهِبُ فِي ٱفْتِتَاحِ ٱلْقَصَائِدِ بِالنَّسِيبِ اِلَى مَا فِيهِ عَطْفُ ٱلْقُلُوبِ وَٱسْتِدْعَاءُ ٱلْقَبُولِ بِحَسَبِ مَا فِي ٱلطِّبَاعِ مِنْ حُبِّ ٱلْغَزَلِ وَٱلْمَيْلِ اِلَى ٱللَّهْوِ فَاِنَّ ذٰلِكَ ٱسْتِدْرَاجٌ اِلَى مَا بَعْدَهُ . وَمَقَاصِدُ ٱلنَّاسِ تَخْتَلِفُ فَطَرِيقُ اَهْلِ ٱلْبَادِيَةِ ذِكْرَانُ ٱلرَّحِيلِ وَٱلِٱنْتِقَالِ وَتَوَقُّعُ ٱلْبَيْنِ وَٱلْاِشْفَاقُ مِنْهُ وَصِفَةُ ٱلطُّلُولِ وَٱلْحُمُولِ وَٱلْاِبِلِ وَلَمْعِ ٱلْبَرْقِ وَمَرِّ ٱلنَّسِيمِ وَذِكْرُ ٱلْمِيَاهِ ٱلَّتِي يَلْتَقُونَ عَلَيْهَا وَٱلرِّيَاضِ ٱلَّتِي مِنْ خُزَامَى وَاُقْحُوَانٍ وَبَهَارٍ وَعَرَارٍ وَمَا اَشْبَهَ مِنْ زَهْرِ ٱلْبَرِّيَّةِ . وَاَهْلُ ٱلْحَاضِرَةِ يَأْتِي تَغَزُّلُهُمْ فِي ٱلصُّدُودِ وَٱلْهِجْرَانِ وَٱلرُّقَبَاءِ وَمَنَعَةِ ٱلْحَرَسِ وَٱلْاَبْوَابِ وَفِي ذِكْرِ ٱلشَّرَابِ وَٱلنَّدَامَى وَٱلنَّسْرِينِ وَٱلنَّيْلُوفَرِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِنَ ٱلنَّوَاوِيرِ ٱلْبَلَدِيَّةِ وَٱلرَّيَاحِينِ ٱلْبُسْتَانِيَّةِ فِي تَشْبِيهِ ٱلتُّفَّاحِ وَٱلتَّحِيَّةِ بِهِ وَدَسِّ ٱلْكُتُبِ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ مِمَّا هُمْ مُنْفَرِدُونَ بِهِ

وَٱلْعَادَةُ اَنْ يَذْكُرَ ٱلشَّاعِرُ مَا قَطَعَ مِنَ ٱلْمَفَاوِزِ وَمَا اَنْضَى مِنَ ٱلرَّكَائِبِ وَمَا تَجَشَّمَ مِنْ هَوْلِ ٱللَّيْلِ وَسَهَرِهِ وَطُولِ ٱلنَّهَارِ وَهَجِيرِهِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَغُؤُورِهِ . ثُمَّ يَخْرُجَ اِلَى مَدْحِ ٱلْمَقْصُودِ لِيُوجِبَ عَلَيْهِ حَقَّ ٱلْقَصْدِ وَذِمَامَ ٱلْقَاصِدِ وَيَسْتَحِقَّ مِنْهُ ٱلْمُكَافَاةَ . وَكَانُوا قَدِيمًا اَصْحَابَ خِيَامٍ يَنْتَقِلُونَ مِنْ مَوْضِعٍ اِلَى آخَرَ فَلِذٰلِكَ كَانَ اَوَّلُ مَا يَبْتَدِئُونَ اَشْعَارَهُمْ بِذِكْرِ ٱلدِّيَارِ وَتِلْكَ دِيَارُهُمْ وَلَيْسَتْ كَاَبْنِيَةِ ٱلْحَاضِرَةِ فَلَا مَعْنَى لِذِكْرِ ٱلْحَضَرِيِّ ٱلدِّيَارَ اِلَّا مَجَازًا لِاَنَّ ٱلْحَاضِرَةَ لَا تَنْسِفُهَا

ٱلرِّيحُ وَلَا تَنحُوهَا إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذٰلِكَ بَعْدَ زَمَانٍ طَوِيلٍ لَا يُمكِنُ أَنْ يَعِيشَهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ هٰذَا ٱلجِيلِ وَأَحْسَنُ مَا ٱسْتَعْمَلَهُ ٱلْمُوَلَّدُونَ ٱلمُحْدَثُونَ مَا نَاسَبَ قَوْلَ ٱبْنِ ٱلرُّومِيّ:

سَقَى ٱللهُ قَصْرًا بِٱلرُّصَافَةِ شَاقَنِي ... بِأَعْلَاهُ قَصْرِيُّ ٱلدِّيَارِ رُصَافِي

أَشَارَ بِقُضْبَانٍ مِنَ ٱلدُّرِّ قُمِّعَتْ ... يَوَاقِيتَ حُمْرًا فَٱسْتَبَاحَ عَفَافِي

وَكَانَتْ دَوَابُّهُمُ ٱلإِبِلَ لِكَثْرَتِهَا وَعَدَمِ غَيْرِهَا وَصَبْرِهَا عَلَى ٱلتَّعَبِ وَقِلَّةِ ٱلْمَاءِ وَٱلعَلَفِ فَلِهٰذَا أَيْضًا خَصُّوهَا بِٱلذِّكْرِ دُونَ غَيْرِهَا وَلَمْ يَكُنْ أَحَدُهُم يَرْضَى بِٱلكَذِبِ فَيَصِفَ مَا لَيْسَ عِنْدَهُ كَمَا يَفْعَلُ ٱلمُحْدَثُونَ أَلَا تَرَى ٱمْرَأَ ٱلقَيْسِ لَمَّا كَانَ مَلِكًا كَيْفَ ذَكَرَ خَيْلَ ٱلبَرِيدِ وَٱلفُرَانِقِ عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَسْتَغْنِ عَنْ ذِكْرِ ٱلإِبِلِ لِلعَادَةِ ٱلَّتِي جَرَتْ عَلَى أَلْسِنَتِهِمْ فَقَالَ يَصِفُ رَحِيلَهُ إِلَى قَيْصَرَ:

إِذَا قُلْتُ رَوِّحْنَا أَرَنَّ فُرَانِقٌ

عَلَى هَزِجٍ وَاهِي ٱلأَبَاجِلِ أَبْتَرَا

عَلَى كُلِّ مَقْصُوصِ ٱلذُّنَابَى مُعَاوِدٍ

بَرِيدَ ٱلسُّرَى بِٱللَّيْلِ مِنْ خَيْلِ بَرْبَرَا

إِذَا زُعْتَهُ مِنْ جَانِبَيْهِ كِلَيْهِمَا

مَشَى ٱلهَيْدَبَى فِي دَفِّهِ ثُمَّ فَرْفَرَا

كَانَتِ ٱلخَيْلُ ٱلبَرْبَرِيَّةُ تُهَلَّبُ أَذْنَابُهَا كَٱلبِغَالِ لِتَدْخُلَ مَدَاخِلَهَا فِي خِدْمَةِ ٱلبَرِيدِ وَلِيُعْلَمَ أَنَّهَا لِلمَلِكِ • وَقَالَ ٱبْنُ مَيَّادَةَ فِي ٱبْنِ هُبَيْرَةَ لَمَّا كَانَ أَمِيرًا:

جاءت به معتجرا ببردهِ سفواء تردي بنسيج وحدهِ

تقدح قيس كلها بزندهِ

الّا انّ منهم من خالف هذا كلّه فوصف انّه قصد الممدوح راجلًا امّا اخبارًا بالصدق وامّا تعاطي صعلكةٍ . قال ابو نواس للفضل بن يحيى :

اليك ابا العبّاس من بين من مشى

عليها امتطينا الحضرميّ الملسّنا

قلائص لم تعرف حنينًا على طلًا

ولم تدر ما قرع الفنيق ولا الهنا

فذكر انّ قلائصهم الّتي امتطوا اليه مشدودة بالنعال واخرجه كما ترى مخرج اللغز واتبعه ابو الطيّب فقال :

لا ناقتي تحمل الرديف ولا بالسوط يوم الرهان اجهدها

شراكها كورها ومشفرها زمامها والشسوع مقودها

وقال كرّة اخرى في مثل ذلك يتشكّى :

ومهمهٍ جبته على قدمي تعجز عنه العرامس الذُّلُل

ولو شاء قائل ان يقول فانّ ابا نواس لم يرد ما ذهب اليه ابو الطيّب لكن اراد انّه معه في بلدٍ واحدٍ قصده في حاجته محتذيًا نعليه لكان اظهر وجهًا ما لم يكن الحضرميّ من الجلود مخصوصًا به المسافر دون الحاضر . وظاهر الكلام انّ مقصد الشاعرين واحد . وقد ذكر ابو الطيّب الخيل في كثير من شعرهِ

وَكَانَ يُؤْثِرُهَا عَلَى ٱلْإِبِلِ لِمَا يَقُومُ فِي نَفْسِهِ مِنَ ٱلتَّهَيُّبِ بِذِكْرِ ٱلْخَيْلِ وَتَعَاطِي ٱلشَّجَاعَةِ . فَقَالَ يَذْكُرُ قُدُومَهُ إِلَى مِصْرَ عَلَى خَوْفٍ مِنْ سَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ :

وَيَوْمٍ كَلَيْلِ ٱلْعَاشِقِينَ كَمَنْتُهُ
أُرَاقِبُ فِيهِ ٱلشَّمْسَ أَيَّانَ تَغْرُبُ
وَعَيْنِي إِلَى أُذْنَي أَعَزَّ كَأَنَّهُ
مِنَ ٱللَّيْلِ بَاقٍ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَوْكَبُ

وَلَيْسَ مِنْ عَادَةِ بَلَدِنَا خَاصَّةً شَيْءٌ مِنْ هٰذَا كُلِّهِ إِلَّا مَا يُعَدُّ قِلَّةً فَٱلْوَاجِبُ ٱجْتِنَابُهُ إِلَّا مَا كَانَ مِنْهُ حَقِيقَةً لَاسِيَّمَا إِذَا كَانَ ٱلْمَادِحُ مِنْ سُكَّانِ بَلَدِ ٱلْمَمْدُوحِ يَرَاهُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ فَمَا أَقْبَحَ ذِكْرَ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْفَلَاةِ

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ يَهْجُمُ عَلَى مَا يُرِيدُهُ مُكَافَحَةً وَذٰلِكَ عِنْدَهُمْ هُوَ ٱلْوَثْبُ وَٱلْبَتْرُ وَٱلْقَطْعُ وَٱلْكَسْعُ وَٱلِٱقْتِضَابُ كُلُّ ذٰلِكَ يُقَالُ وَٱلْقَصِيدَةُ إِذَا كَانَتْ عَلَى تِلْكَ ٱلْحَالِ بَتْرَاءُ كَٱلْخُطْبَةِ ٱلْبَتْرَاءِ وَٱلْقَطْعَاءِ وَهِيَ ٱلَّتِي لَا يُبْتَدَأُ فِيهَا بِحَمْدِ ٱللهِ عَلَى عَادَتِهِمْ فِي ٱلْخُطَبِ كَمَا قَالَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ « إِذَا كَانَ مَدْحٌ فَٱلنَّسِيبُ ٱلْمُقَدَّمُ » فَأَنْكَرُوا ٱلنَّسِيبَ وَزَعَمُوا أَنَّ أَوَّلَ مَنْ فَتَحَ هٰذَا ٱلْبَابَ وَفَتَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى أَبُو نُوَاسٍ بِقَوْلِهِ « لَا تَبْكِ لَيْلَى وَلَا تَطْرَبْ إِلَى هِنْدِ » وَقَوْلِهِ عِنْدَ ٱلْحَاتِمِيِّ فِيمَا رَوَى بَعْضُ أَشْيَاخِهِ أَفْضَلُ ٱبْتِدَاءٍ صَنَعَهُ شَاعِرٌ مِنَ ٱلْقُدَمَاءِ وَٱلْمُحْدَثِينَ :

أَعِزْ شِعْرَكَ ٱلْأَطْلَالَ وَٱلْمَنْزِلَ ٱلْقَفْرَا
فَقَدْ طَالَ مَا إِنْ رَابَهُ نَعْتُكَ ٱلْخَمْرَا
دَعَانِي إِلَى نَعْتِ ٱلطُّلُولِ مُسَلَّطٌ
يَضِيقُ ذِرَاعِي أَنْ أَرُدَّ لَهُ أَمْرَا
فَسَمْعًا أَمِيرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَطَاعَةً
وَإِنْ كُنْتَ قَدْ جَشَّمْتَنِي مَرْكَبًا وَعْرَا

فَجَاءَ هُوَ بِأَنْ وَصْفَ ٱلْأَطْلَالِ وَٱلْقَفْرِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ خَشْيَةِ ٱلْإِمَامِ وَإِلَّا فَهُوَ عِنْدَهُ فَرَاغٌ وَجَهْلٌ. وَإِنَّ فِي ٱللِّسَانِ وَكَثْرَةِ وُلُوعِهِ بِٱلشَّيْءِ لَشَاهِدًا عَدْلًا لَا تُرَدُّ شَهَادَتُهُ وَقَدْ قَالَ أَبُو تَمَّامٍ « لِسَانُ ٱلْمَرْءِ مِنْ خَدَمِ ٱلْفُؤَادَا » وَمِنْ عُيُوبِ هٰذَا ٱلْبَابِ أَنْ يَكُونَ ٱلنَّسِيبُ كَثِيرًا وَٱلْمَدِيحُ قَلِيلًا كَمَا يَصْنَعُ بَعْضُ أَهْلِ وَقْتِنَا

وَمِنَ ٱلشُّعَرَاءِ مَنْ لَا يُجِيدُ ٱلِٱبْتِدَاءَ وَلَا يَتَكَلَّفُ لَهُ ثُمَّ يُجِيدُ بَاقِيَ ٱلْقَصِيدَةِ وَأَكْثَرُهُمْ فِعْلًا لِذٰلِكَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَانَ يَصْنَعُ ٱلِٱبْتِدَاءَ سَهْلًا وَيَأْتِي بِهِ عَفْوًا وَكُلَّمَا تَمَادَى قَوِيَ كَلَامُهُ وَلَهُ مِنْ جَيِّدِ ٱلِٱبْتِدَاآتِ كَثِيرٌ لِكَثْرَةِ شِعْرِهِ وَٱلْغَالِبُ عَلَيْهِ مَا قَدَّمْتُ غَيْرَ أَنَّ ٱلْقَاضِيَ ٱلْجُرْجَانِيَّ فَضَّلَ بِجُودَةِ ٱلِٱسْتِهْلَالِ وَهُوَ ٱلِٱبْتِدَاءُ عَلَى أَبِي تَمَّامٍ وَأَبِي ٱلطَّيِّبِ وَقَدْ فَضَاهُمَا بِٱلْخُرُوجِ وَٱلْخَاتِمَةِ وَلَسْتُ أَرَى لِذٰلِكَ وَجْهًا إِلَّا كَثْرَةَ شِعْرِهِ كَمَا قَدَّمْتُ فَإِنَّهُ لَوْ حَاسَبَهُمَا ٱبْتِدَاءً جَيِّدًا بِٱبْتِدَاءٍ لَأَرْبَى وَقَصَّرَا عَنْ عَدَدِهِ

وَأَمَّا ٱلْحَاتِمِيُّ فَإِنَّهُ يَغُضُّ مِنْ أَبِي عِبَادَةَ غَضًّا شَدِيدًا وَيَجُورُ

عَلَيهِ جوزًا بَيِّنًا لا يُقبَلُ مِنهُ وَلَا يُسَلِّمُ إِلَيهِ . وَكَانَ أَبو تَمَّام فخم ٱلاِبتِدَاءِ لَهُ رَوعَةٌ وَعَلَيهِ أُبَّهَةٌ كَقَولِهِ :

ٱلحَقُّ أَبلَجُ وَٱلسُّيُوفُ عَوَارِ فَحَذَارِ مِنْ أَسَدِ ٱلعَرِينِ حَذَارِ

وَقَولِهِ أَيضًا :

اَلسَّيفُ أَصدَقُ إِنبَاءً مِنَ ٱلكُتُبِ

فِي حَدِّهِ ٱلحَدُّ بَينَ ٱلجِدِّ وَٱللَّعِبِ

وَقَولِهِ « يَا رَبعُ لَو رَبَعُوا عَلَى ٱبنِ هُمُومِ » وَٱلغَالِبُ تَحتَ ٱللَّفظِ وَجَهَارَةُ ٱلاِبتِدَاءِ

وَكَانَ أَبو ٱلقَاسِمِ ٱلحَسَنُ بنُ بِشرٍ ٱلآمِدِيُّ يُفَضِّلُ ٱبتِدَاآتِ ٱلبُحتُرِيِّ جِدًّا وَهُوَ ٱلَّذِي وَضَعَ كِتَابَ ٱلمُوَازَنَةِ وَٱلتَّرجِيحِ بَينَ ٱلطَّائِيَّينِ وَنَوَّهَ فِيهِ بِٱلبُحتُرِيِّ أَعظَمَ تَنوِيهٍ وَمِن جَيِّدِ ٱبتِدَاآتِهِ قَولُهُ :

عَارَضْنَنَا أُصُلًا فَقُلْنَا ٱلرَّبْرَبُ حَتَّى أَضَاءَ ٱلأُقحُوَانُ ٱلأَشنَبُ

وَقَولُهُ « ضَمَانٌ عَلَى عَينَيكَ أَنِّي لَا أَسلُو » وَقَولُهُ « نَرَى عِندَهُمْ عِلمًا بِشَجوِي وَأَدمُعِي » فَأَمَّا ٱلخُرُوجُ فَهُوَ عِندَهُم شَبِيهٌ بِٱلاِستِطرَادِ وَلَيسَ بِهِ لِأَنَّ ٱلخُرُوجَ إِنَّمَا هُوَ أَن تَخرُجَ مِن نَسِيبٍ إِلَى مَدحٍ أَو غَيرِهِ بِلُطفِ تَحَيُّلٍ ثُمَّ تَتَمَادَى فِيمَا خَرَجتَ إِلَيهِ كَقَولِ أَبِي عِبَادَةَ ٱلبُحتُرِيِّ :

سُقِيتْ رُبَاكِ بِكُلِّ غَيثٍ جَاعِلٍ مِن وَبلِهِ حَقًّا لَهَا مَعلُومَا

وَلَوَ ٱنَّنِي أُعطِيتُ فِيهِنَّ ٱلمُنَى لَسَقَيتُهُنَّ بِكَفِّ إِبرَهِيمَا

وَاكْثَرُ ٱلنَّاس ٱسْتِعْمَالًا لِهٰذَا ٱلفَنّ ابو ٱلطَّيِّبِ فَانَّهُ مَا يَكَادُ يَشِذُّ عَنهُ حَتَّى رُبَّمَا قَبُحَ سُقُوطُهُ فِيهِ نَحْوَ قَوْلِهِ:

هَا فَٱنْظُرِي اوْ فَظُنِّي بِي تَرَيْ حُرَقًا
مَنْ لَمْ يَذُقْ طَرَفًا مِنْهَا فَقَدْ وَالَا

عَلَّ ٱلْامِيرَ يَرَى ذُلِّي فَيَشْفَعَ لِي
الَى ٱلَّتِي تَرَكَتْنِي فِي ٱلْهَوَى مَثَلَا

فَقَدْ تَمَنَّى انْ يَكُونَ ٱلْامِيرُ لَهُ قَوَّادًا وَلَيْسَ هٰذَا مِنْ قَوْلِ ابِي نُوَاسٍ:

سَاشْكُو الَى ٱلفَضْلِ بْنِ يَحْيَى بْنِ خَالِدٍ هَوَانَا لَعَلَّ ٱلفَضْلَ يَجْمَعُ بَيْنَنَا

فِي شَيْءٍ. لِانَّ ابَا نُوَاس قَالَ: يَجْمَعُ بَيْنَنَا ثُمَّ اتْبَعَ ذٰلِكَ ذِكْرَ ٱلْمَاءِ وَٱلسَّحَابَةِ فَقَالَ:

امِيرٌ رَايْتُ ٱلمَالَ فِي نَقَمَاتِهِ ذَلِيلًا مَهِينَ ٱلنَّفْسِ بِٱلضَّيْمِ مُوقِنَا

وَكَانَّهُ اشَارَ الَى انَّ جَمْعَهُ بَيْنَهُمَا بِٱلْمَالِ خَاصَّةً يَفْضُلُ عَلَيْهِ وَيُجْزِلُ عَطِيَّتَهُ فَيَتَزَوَّجُهَا او يَتَسَرَّاهَا. وَابُو ٱلطَّيِّبِ قَالَ لِيَشْفَعَ وَٱلشَّفَاعَةُ رَغْبَةٌ وَسُؤَالٌ. ثُمَّ اتْبَعَ بَيْتَهُ بِمَا هُوَ مُقَوٍّ لِمَعْنَاهُ فِي ٱلقِيَادَةِ فَقَالَ:

ايْقَنْتُ انَّ سَعِيدًا طَالِبٌ بِدَمِي لَمَّا بَصُرْتُ بِهِ بِٱلرُّمْحِ مُعْتَقِلَا

فَدَلَّ عَلَى انَّهُ يَشْفَعُ فَانْ اجِيبَ الَى مُسَاعَدَةِ ابِي ٱلطَّيِّبِ فَذَاكَ وَالَّا رَجَعَ الَى ٱلقَهْرِ وَٱلَّذِي يُشَاكِلُ قَوْلَ ابِي نُوَاسٍ قَوْلُهُ:

احِبُّ ٱلَّذِي فِي ٱلْبَدْرِ مِنْهُ مَشَابِهٌ
وَاشْكُو الَى مَنْ لَا يُصَابُ لَهُ شَكْلُ

فلفظةُ الشكوى تُحمَلُ عنهُ كما حُمِلَت عن ابي نُواسٍ

وَاولى الشعرِ بأنْ يُسمّى تخلُّصاً ما تخلّصَ فيهِ الشاعرُ عن معنى الى معنًى ثمّ عادَ الى الاوّلِ وَاخذَ في غيرِهِ ثمّ رجعَ الى ما كانَ فيهِ كقولِ النابغةِ الذُّبيانيّ آخرَ نسيبِ قصيدةٍ اعتذرَ بها الى النُّعمانِ :

فكفكفتُ مِنّي عبرةً فرددتُها
على النحرِ منها مستهِلٌّ ودامعُ
على حينَ عاتبتُ المشيبَ على الصِّبى
وقلتُ ألمّا اصحُ والشيبُ وازعُ

ثمّ تخلّصَ الى الاعتذارِ فقالَ :

وَلكنَّ هما دونَ ذلكَ داخلًا   مكانَ الشغافِ تبتغيهِ الاصابعُ
وَعيدُ ابي قابوسَ في غيرِ كُنهِهِ   اتاني وَدوني راكِسٌ فالضّواجعُ

ثمّ وصفَ حالهُ عندَ ما سمِعَ منهُ ذلكَ فقالَ :

فبِتُّ كأنّي ساوَرَتني ضئيلةٌ   من الرُّقشِ في انيابِها السمُّ ناقعُ
يُسهَّدُ من ليلِ التمامِ سليمُها   لحلي النساءِ في يدَيهِ قعاقعُ

فوصفَ الحيّةَ والسليمَ الّذي شبّهَ نفسهُ بهِ ما شاء ثمّ تخلّصَ مِنَ الّذي كانَ فيهِ فقالَ :

اتاني ابيتَ اللعنَ انكَ لمتَني   وَتلكَ الّتي تستكُّ منها المسامعُ

ثمّ اطّردَ لهُ القولُ ما شاء مِن تخلُّصٍ الى تخلُّصٍ حتّى انقضتِ القصيدةُ وَهوَ ما اشرتُ اليهِ غيرُ خافٍ ان شاء اللهُ تعالى. وَقد

يَقَعُ مِنْ هٰذَا ٱلنَّوْعِ شَيْءٌ يَعْتَرِضُ فِي وَسَطِ ٱلتَّشْبِيبِ مِنْ مَدْحِ مَنْ يُرِيدُ ٱلشَّاعِرُ مَدْحَهُ بِتِلْكَ ٱلْقَصِيدَةِ ثُمَّ يَعُودُ بَعْدَ ذٰلِكَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنَ ٱلنَّسِيبِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى ٱلْمَدْحِ كَمَا فَعَلَ وَمِنْ قَوْلِ أَبِي تَمَّامٍ بِمَدْحِهِ ٱلَّذِي تَمَادَى فِيهِ مُنْقَطِعًا وَذٰلِكَ فِي وَسَطِ ٱلنَّسِيبِ مِنْ قَصِيدَةٍ:

لَا وَٱلَّذِي هُوَ عَالِمٌ أَنَّ ٱلنَّوَى

مُرٌّ وَأَنَّ أَبَا ٱلْحُسَيْنِ كَرِيمُ

مَا زُلْتُ عَنْ سَنَنِ ٱلْوِدَادِ وَلَا غَدَتْ

نَفْسِي عَلَى إِلْفٍ سِوَاكَ تَحُومُ

ثُمَّ قَالَ بَعْدَ ذٰلِكَ:

لِمُحَمَّدِ بْنِ ٱلْهَيْثَمِ بْنِ شُبَانَةٍ مَجْدٌ إِلَى جَنْبِ ٱلسِّمَاكِ مُقِيمُ

وَيُسَمَّى هٰذَا ٱلنَّوْعُ ٱلْإِلْمَامَ. وَكَانَتِ ٱلْعَرَبُ لَا تَذْهَبُ هٰذِهِ ٱلْمَذَاهِبَ فِي ٱلْخُرُوجِ إِلَى ٱلْمَدْحِ بَلْ يَقُولُونَ بَعْدَ فَرَاغِهِمْ مِنْ نَعْتِ ٱلْإِبِلِ وَذِكْرِ ٱلْقِفَارِ وَمَا هُمْ بِسَبِيلِهِ دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَيَأْخُذُونَ فِيمَا يُرِيدُونَ أَوْ يَأْتُونَ بِأَنَّ ٱلْمُشَدَّدَةِ ٱبْتِدَاءً لِلْكَلَامِ ٱلَّذِي يَقْصِدُونَهُ وَإِذَا لَمْ يَكُنْ خُرُوجُ ٱلشَّاعِرِ إِلَى ٱلْمَدْحِ مُتَّصِلًا بِمَا قَبْلَهُ وَلَا مُنْفَصِلًا بِقَوْلِهِ: دَعْ ذَا وَعَدِّ عَنْ ذَا وَنَحْوِ ذٰلِكَ سُمِّيَ طَفْرًا وَٱنْقِطَاعًا. وَكَانَ ٱلْبُحْتُرِيُّ كَثِيرًا مَا يَأْتِي بِهِ كَقَوْلِهِ:

لَوْلَا ٱلرَّجَاءُ لَمُتُّ مِنْ أَلَمِ ٱلْهَوَى لٰكِنَّ قَلْبِي بِٱلرَّجَاءِ مُوَكَّلُ

إِنَّ ٱلرَّعِيَّةَ لَمْ تَزَلْ فِي سِيرَةٍ مَحْمُودَةٍ مُذْ سَاسَهَا ٱلْمُتَوَكِّلُ

وَرُبَّمَا قَالُوا بَعْدَ صِفَةِ ٱلنَّاقَةِ وَٱلْمَفَازَةِ إِلَى فُلَانٍ قَصَدْتُ وَحَتَّى نَزَلْتُ بِفِنَاءِ فُلَانٍ وَمَا شَاكَلَ ذٰلِكَ . وَأَمَّا ٱلِانْتِهَاءُ فَهُوَ قَاعِدَةُ ٱلْقَصِيدَةِ وَآخِرُ مَا يَبْقَى مِنْهَا فِي ٱلْأَسْمَاعِ وَسَبِيلُهُ أَنْ يَكُونَ مُحْكَمًا لَا يُمْكِنُ ٱلزِّيَادَةُ عَلَيْهِ وَلَا يَأْتِي بَعْدَهُ أَحْسَنُ مِنْهُ. وَإِذَا كَانَ أَوَّلُ ٱلشِّعْرِ مِفْتَاحًا لَهُ وَجَبَ أَنْ يَكُونَ آخِرُهُ قُفْلًا عَلَيْهِ . وَقَدْ أَرْبَى أَبُو ٱلطَّيِّبِ عَلَى كُلِّ شَاعِرٍ فِي جُودَةِ هٰذِهِ ٱلْأَبْوَابِ ٱلثَّلَاثَةِ إِلَّا أَنَّهُ رُبَّمَا عَقَّدَ أَوَائِلَ ٱلْأَشْعَارِ ثِقَةً بِنَفْسِهِ وَإِغْرَابًا عَلَى ٱلنَّاسِ كَقَوْلِهِ أَوَّلَ قَصِيدَةٍ :

وَفَاؤُكُمَا كَالرَّبْعِ أَشْجَاهُ طَاسِمُهْ بِأَنْ تُسْعِدَا وَٱلدَّمْعُ أَشْفَاهُ سَاجِمُهْ

فَإِنَّ هٰذَا يَحْتَاجُ ٱلْأَصْمَعِيُّ إِلَى أَنْ يُفَسِّرَ مَعْنَاهُ. وَيَقَعُ لَهُ فِي ٱلْخُرُوجِ مَا كَانَ تَرْكُهُ أَوْلَى بِهِ وَأَشْعَرَ لَهُ وَإِنَّمَا أَدْخَلَهُ فِيهِ حُبُّ ٱلْإِغْرَابِ فِي بَابِ ٱلتَّوْلِيدِ حَتَّى جَاءَ بِٱلْغَثِّ ٱلْبَارِدِ وَٱلتَّشْنِيعِ ٱلْمُتَكَلَّفِ نَحْوَ قَوْلِهِ :

أُحِبُّكَ أَوْ يَقُولُوا جَرَّ نَمْلٌ ثَبِيرًا وَٱبْنُ إِبْرٰهِيمَ رِيعَا

فَهٰذَا مِنَ ٱلْبَشَاعَةِ وَمِنَ ٱلشَّنَاعَةِ بِحَيْثُ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ. وَمَا أَظُنُّهُ سَرَقَ هٰذَا ٱلْمَعْنَى ٱلشَّرِيفَ إِلَّا مِنْ كِذْبَةٍ كَانَ أَوْرَدَهَا أَبُو ٱلْعَنْبَسِ ٱلصَّيْمَرِيُّ عَلَى لِسَانِ رَجُلٍ فَزَعَمَ أَنَّهُ قَالَ: رَأَيْتُ رَجُلًا نَامَ فَجَرَّهُ ٱلنَّمْلُ ثَلَاثَةَ فَرَاسِخَ . وَقَدْ جَعَلَ أَبُو ٱلطَّيِّبِ مَكَانَ ٱلرَّجُلِ جَبَلًا وَإِنْ عَلِمْنَا ٱلْإِغْرَابَ فِي مُرَادِهِ وَلَفْظِهِ. وَقَالَ أَيْضًا :

أَعَزُّ مَكَانٍ فِي ٱلدُّنَا سَرْجُ سَابِحٍ وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي ٱلزَّمَانِ كِتَابُ

وَبَحْرُ ابُو ٱلْمِسْكِ ٱلْخِضَمُّ ٱلَّذِي لَهُ   عَلَى كُلِّ بَحْرٍ زَخْرَةٌ وَعُبَابُ

يُرِيدُ وَخَيْرُ بَحْرٍ ابُو ٱلْمِسْكِ وَهٰذِهِ غَايَةُ ٱلتَّصَنُّعِ وَٱلتَّكَلُّفِ. وَمِنَ ٱلْعَرَبِ مَنْ يَخْتِمُ ٱلْقَصِيدَةَ فَيَقْطَعُهَا وَٱلنَّفْسُ بِهَا مُتَعَلِّقَةٌ وَفِيهَا رَاغِبَةٌ وَلَهَا مُشْتَهِيَةٌ وَيَبْقَى ٱلْكَلَامُ مَنْثُورًا كَأَنَّهُ لَمْ يَتَعَمَّدْ جَعْلَهُ خَاتِمَةً كُلُّ ذٰلِكَ رَغْبَةً فِي اخْذِ ٱلْعَفْوِ الَا تَرَى مُعَلَّقَةَ امْرِئِ ٱلْقَيْسِ كَيْفَ خَتَمَهَا بِقَوْلِهِ يَصِفُ ٱلسَّيْلَ عَنْ شِدَّةِ ٱلْمَطَرِ:

كَأَنَّ ٱلسِّبَاعَ فِيهِ غَرْقَى غُدَيَّةً   بِأَرْجَائِهِ ٱلْقُصْوَى عَنَا بِيشُ عُنْصُلِ

فَلَمْ يَفْعَلْ لَهَا قَاعِدَةً كَمَا فَعَلَ غَيْرُهُ مِنْ اصْحَابِ ٱلْمُعَلَّقَاتِ وَهِيَ افْضَلُهُنَّ. وَقَدْ كَرِهَ ٱلْحُذَّاقُ مِنَ ٱلشُّعَرَاءِ خَتْمَ ٱلْقَصِيدَةِ بِٱلدُّعَاءِ لِأَنَّهُ مِنْ عَمَلِ ٱلضُّعَفِ الَا لِلْمُلُوكِ فَإِنَّهُمْ يَشْتَهُونَ ذٰلِكَ كَمَا قَدَّمْتُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ جِنْسِ قَوْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ يَذْكُرُ ٱلْخَيْلَ لِسَيْفِ ٱلدَّوْلَةِ فِي آخِرِ قَصِيدَةٍ لَهُ:

فَلَا هَجَمْتَ بِهَا الَّا عَلَى ظَفَرٍ   وَلَا وَصَلْتَ بِهَا الَّا عَلَى امَلٍ

فَإِنَّ هٰذَا يُشْبِهُ مَا ذُكِرَ عَنْ بَعْضٍ كَانَ يُصَابِحُ ٱلْأَمِيرَ فَيَقُولُ «لَا صَبَّحَ ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ بِعَافِيَةٍ» وَيَسْكُتُ سَكْتَةً ثُمَّ يَقُولُ «الَا وَمَسَّاهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَيُمَاسِيهِ فَيَقُولُ «لَا مَسَّى ٱللهُ ٱلْأَمِيرَ بِنِعْمَةٍ» ثُمَّ يَقُولُ «الَا وَصَبَّحَهُ بِأَكْثَرَ مِنْهَا» وَنَحْوُ هٰذَا فَلَا يَدْعُو لَهُ حَتَّى يَدْعُوَ عَلَيْهِ وَمِثْلُ هٰذَا قَبِيحٌ لَاسِيَّمَا مِنْ مِثْلِ ابِي ٱلطَّيِّبِ



فهرس

المقالات

وجه

القسم الاول في علم الخطابة ١

الفصل الاول في تعريف الخطابة واقسامها ومنافعها ١

البحث الاوَّل في تحديد الخطابة وما تشتمل عليهِ بوجه الاجمال ١

البحث الثاني في تعريف الخطابة وموضوعها ٣

البحث الثالث في المناسبة الموجودة بين الجدل والخطابة ٤

البحث الرابع في ان الخطابة تتحرَّى للتصديق اكثر منها للتأثير ٥

البحث الخامس في فوائد علم الخطابة ٧

البحث السادس في ان الخطابة صناعة اصلها في طبع الانسان ١١

الفصل الثاني في بلاغة الخطيب ١٢

البحث الاول في تعريف البلاغة الجديرة بالخطيب ١٢

البحث الثاني في وسائل الاقناع التي يتخذها الخطيب البليغ ٢٥

الفصل الثالث في الاقاويل المقنعة ٢٨

البحث الاول في ان الخطيب لا بد لهُ للاقناع من معرفة القياس وعلم المنطق ٢٨

البحث الثاني في الطريق اي الدليل وتقسيمهِ ٣٠

البحث الثالث في المواضع ٣١

البحث الرابع في التعريف والحدّ والرسم ٣٣

البحث الخامس في الكلي والجزئي ٣٧

البحث السادس في الجنس والنوع ٣٩

البحث السابع في تعريف العلَّة والمعلول ٤١

وجه

الفصل الرابع في آداب الخطابة ٤٢

البحث الاول في آداب كلام الخطيب ٤٢

البحث الثاني في خصال الخطيب ٤٦

البحث الثالث في طباع الناس على اختلاف اطوار الحياة ٤٩

البحث الرابع في سياسة الخطيب مع الجمهور ومواخاة طباعهم ٥٢

الفصل الخامس في الاخلاق والاهواء ٥٩

البحث الاول في تعريف الاخلاق ٥٩

البحث الثاني في الاخلاق الحسنة ٦٢

البحث الثالث في الاخلاق الرديئة ٦٩

البحث الرابع في بعض الاخلاق التي تكون في بعض الناس فضيلة وفي بعضهم رذيلة ٧٤

البحث الخامس في الارتياض بمكارم الاخلاق ٧٩

الفصل السادس في تنسيق الخطابة وبيان القضية والقياس ٨٩

وجه

البحث الاول في مبادىء الخطابة والافتتاحات ٨٩

البحث الثاني في القضية والقياس ٩٠

البحث الثالث في القياس واقسامه وانواعه ٩٢

البحث الرابع في ملحقات القياس ٩٥

البحث الخامس في القياسات المستعملة في الخطابة واخصها القياس الاضماري والتمثيل ٩٧

البحث السادس في مقدمات القياسات الخطبية ١٠٢

الفصل السابع في التفنيد ١٠٨

البحث الاول في المناظرة والجدال ١٠٨

البحث الثاني في آداب المناظرة ١١١

البحث الثالث في الجوابات على الخصم ١١٤

البحث الرابع في المغالطة ١١٥

البحث الخامس في مقاطيع الكلام ١١٩

الفصل الثامن في التعبير ١٢٤

وجه

البحث الاول في خواص تعبير الخطيب ١٢٤

البحث الثاني في بلاغة كلام العرب وكلام العجم ١٢٦

الفصل التاسع في اجناس الخطابة الثلاثة ١٣٧

البحث الاول في تقسيم الخطب الى ثلاثة اجناس ١٣٧

البحث الثاني في غايات الاجناس الخطبية الثلاثة وانواع مقدماتها ١٣٩

البحث الثالث في مقدمات الجنس المشوري ١٤٢

البحث الرابع في خمسة امور يدور عليها البحث في النوع المشوري وفي القياسات المختلفة بها ١٤٥

البحث الخامس في السبب الذي من اجلهِ يشير الخطيب وهو سعادة السامع وفي ماهية السعادة وانواع الخيور التي من مجموعها تتولد السعادة ١٥٠

البحث السادس في الفرق بين الخير والسعادة ١٦١

البحث السابع في اقسام الخير والسعادة ١٦٢

البحث الثامن في انهُ ينبغي للخطيب المشير ان يعرف الاشياء النافعة وفي مقابلة الخير مع النافع ومقابلة الخيور مع بعضها ١٧٢

البحث التاسع في ايثار الخيور وفي شروط تفضيل بعضها على بعض والاسباب الموجبة لذلك ١٨١

البحث العاشر في ان الخطيب المشوري ينبغي ان يعرف اصناف السياسات وفي بيان اجناس هذه السياسات الاربعة ١٩٤

البحث الحادي عشر في ما ينبغي للخطيب ان يعرفهُ في النوع التثبيتي وفي الفضيلة والنقيصة والمدح والذم وتصرُّف الخطيب فيهما وفي انواع الامور الفاضلة والناقصة ١٩٨

الفصل العاشر في انواع الخطب ومن برع فيها ٢١١

البحث الاول في خطب التهاني ٢١١

البحث الثاني في خطب التقليد ٢١٢

البحث الثالث في الارتجال والبديهة واشارات الخطيب ٢١٤

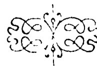
وجه

البحث الرابع في خطب الوعاظة ٢١٦
البحث الخامس في غاية الوعظ ٢٢١
البحث السادس في فوائد الوعظ وجهل كثيرين من الخطباء في هذا الفن ٢٢٣
البحث السابع في الخطب عند العرب ٢٣١
القسم الثاني في علم الشعر ٢٤٠
الفصل الاول في تعريف الشعر وانواعه وفوائده ٢٤٠
البحث الاول في تحديد الشعر ٢٤٠
البحث الثاني في صناعة الشعر وانواع الاشعار ٢٤٣
البحث الثالث في المديح والهجو ٢٤٧
البحث الرابع في العلل المولدة للشعر ٢٤٩
البحث الخامس في وزن الشعر ولحنه ٢٥٣
البحث السادس في صناعة المديح واجرائها ٢٥٨
البحث السابع في اجزاء صناعة المديح من جهة الكمية ٢٦٦

وجه

البحث الثامن في اسطقسات الاقاويل الشعرية ٢٨٤
البحث التاسع في صناعة الاشعار القصصية ٢٩٤
البحث العاشر في كيفية التخلص الى ما يراد محاكاته ٢٩٥
البحث الحادي عشر في انواع المحاكاة غير المقبولة ٢٩٦
الفصل الثاني في معرفة الشعراء ٣٠٠
البحث الاول في القدماء من الشعراء ٣٠٠
البحث الثاني في المقلّين من الشعراء ٣١٢
البحث الثالث في المعلّمين من الشعراء ٣١٤
الفصل الثالث في فنون الشعر ٣٢١
البحث الاول في المطبوع والمصنوع ٣٢١
البحث الثاني في اقسام الشعر ٣٢٧
البحث الثالث في صناعة المديح ٣٢٩
البحث الرابع في الافتخار ٣٤٣
البحث الخامس في الرثاء ٣٤٧

	وجه
البحث السادس في الاقتضاء والاستنجاز	٣٥٤
البحث السابع في العتاب	٣٥٦
البحث الثامن في الوعيد والانذار	٣٦٢
البحث التاسع في الهجاء	٣٦٣
البحث العاشر في الاعتذار	٣٦٨
البحث الحادي عشر في سيرورة الشعر والحظوة في المدح	٣٧٢
البحث الثاني عشر في ما اشكل من المدح والهجاء	٣٧٦
البحث الثالث عشر في البديهة والارتجال	٣٨٠
البحث الرابع عشر في اداب الشعر	٣٨٥
البحث الخامس عشر في عمل الشعر وشحذ القريحة	٣٩٠
البحث السادس عشر في المقاطع والمطالع	٤٠١
البحث السابع عشر في المبتدا او الخروج والنهاية	٤٠٤



اصلاح غلط وقع في بعض النسخ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٢	٥	الجدلِ	الجدَلِ
٠	١٤	الجدْلِ	الجدَلِ
٤	١١	كالحالَ	كالحالِ
٠	١٤	كلُّ	كلَّ
٥	١٣	يُثبتُ	يُثبتَ
٢١	٠٤	استَبهمَ الكلامَ	استُبْهِمَ الكلامُ
٢٦	١٩	يُقنِعُ	يُقْنِعَ
٤٣	١١	من كتاب الدنيا	من كتاب ادب الدنيا
٤٤	١١	فانْ	فانَّ
٤٨	٠٤	نُ عَتَمَةَ بنُ	بن عَتَمَةَ بنِ
٠٠	٦و٧و٨	وَهُوَ	وَهوَ
٥٤	١٧	جُلّها ودُقّها	جلها ودِقها
٥٦	٠٨	الّتي	أمّا الّتي
٥٧	١٧	ألأكثرات	ألإكثرات
٥٨	٠٨	يَعلَمْ	يَعلَمُ
٥٩	١٤	والتشرر	والتَّشَدُّدِ
٦٢	٠٧	والتَّقصيرِ	والتَّقصيرْ
٠٠	٠٨	وقصدِ	وقصدُ
٦٣	٠٢	والسخيف	السَّخيف
٧٠	٠٢	والطَّيشِ	والطَّيشُ
٧١	٠٥	يستودعَ	يستودعُ
٨٣	٠٣	الحروب وفي مجالسَةِ	الحروب مجالسةِ
٨٦	٠٧	كثيرةِ	كثيرةً
٩٠	٠٧	الشعبُ	الشعث
١٠٢	١٢	مقدمتِهِ	مقدَّمَتَيهِ

صفحة	سطر	خطاء	صواب
١٠٦	٠٩	من فلانِ الملكَ	من فلانٍ الملكَ
١١٩	٠٥	اَلتَّكرارِ	والتكرار
١٢٢	٠٣	الفاظك	الفاظَك
١٢٤	٠٧	اَلسَّكونيِّ	السَّكُونيِّ
١٢٦	٠٣	من رسالة	من رسالة لابي هلال العسكريّ
١٢٨	٠٧	لِحَاقِهِ	اَلحاقِهِ
١٤٤	١٦	وَغَيْرُ ذَلِكَ مِمَّا يَسْتَعْمِلَهُ	وغيرَ ..... يستعملُهُ
١٤٦	٠٤	وبالقصانِ	بالقصان
١٥٢	١٠	والحَسدانية	والحُسدانية
١٥٧	٠٣	والملاكرة	والملاكزة
٠٠٠	١٩	ويجاورهم	ويجاوزهم
١٦٠	٠٨	طلبُهُ	طلمَهُ
١٦٦	٢٠	اِنَّها	اَنّها
١٨٠	٠٤	يَسُرُّ	يُسَرُّ
١٨١	٠٢	ابشارِ	ايثار
١٨٣	١١	فالدّكرانُ	فالذُّكران
١٨٤	١٢	واحدُ	واحَدُ
٢١١	١٤	والتبرّوءَ	والتبرُّوءُ
٢١٣	١١	اَلاحسنُ منها	اَلاَحسنُ فيها
٠٠٠	٠٠	وتعتبرَ	وتعتبرُ
٠٠٠	١٣	لَقْبَ	لَقَبَ
٠٠٠	١٤	المطّلعُ	المطلَعُ
٢١٤	١١	واشتقاقا الارتجال والبديهة	الارتجال والبديهة
٠٠٠	١٧	بتقفيه	بتقفيَة
٢١٥	٢٠	ابا داوُدَ	آبا دُوَادِ
٢١٦	٠٠	الخطابَة	الخَطابَة
٠٠٠	٠٦	يومون	يرمون

صفحة	سطر	خطاء	صواب
٠٠٠	١٨	أَلفت	أُلْفَتْ
٢١٧	٠٩	اتنْمِيم	لَتَمِيم
٢١٨	١٥	تَاكَاةً	تَلَكُوءه
٢٢١	٠٧	ضُرِبَ	ضَرَبَ
٢٢٢	١٥	دَوْدَ	ذَوْدَ
٢٢٤	٠١	والفوذ	والفوز
٢٣١	١٨	ومعانيهِ	بمعانيهِ
٢٣٣	٠٤	والذي	الذي
٢٣٦	١٥	ومَن	وممّن
٠٠٠	١٦	باهلةٍ	باهلةَ
٢٣٨	٠٦	وذكرٌ	وذكر بعضهم
٠٠٠	٠٠	ثَمامة	ثُمامة
٢٤٧	٠١	البحث الثاني	البحث الثالث
٢٤٩	١١	البحث الثالث	البحث الرابع
٢٥٣	٠١	البحث الرابع	البحث الخامس
٢٥٨	٠١	البحث الخامس	البحث السادس
٢٦٦	٠١	البحث السادس	البحث السابع
٢٨٣	١٤	طاهرةً	ظاهرةً
٢٨٤	١٤	البحث السابع	البحث الثامن
٢٨٦	١٠	وطاهرٌ	وظاهرٌ
٠٠٠	١٠	المرحمة	المرخمة
٢٩٤	٠١	البحث الثامن	البحث التاسع
٢٩٥	١٣	البحث التاسع	البحث العاشر
٢٩٦	١٣	البحث العاشر	البحث الحادي عشر
٣٠٣	١٨	الضّليلُ	الضِّلّيلُ
٤٢٥	١٥	في المديح والهجو	في غاية صناعة الشعر

واما ما وقع فيهِ من سقوط نقطة او حركة فني ظهور امرهِ غنى عن التنبيه اليهِ